

سلسلة بالغتنا ولغتنا (٢)

البيان

فتونها وأفتانها

علم البيان والبديع

الطبعة العاشرة

٢٠٠٥

طبعة مزيده ومنقحة

الدكتور فضل حسن عباس

أستاذ في الجامعة الاردنية سابقاً

أستاذ الدراسات العليا في جامعة اليرموك



سلسلة بلاغتنا ولغتنا
(٢)

البلاغة فنونها وأفنانها علم البيان والبدیع

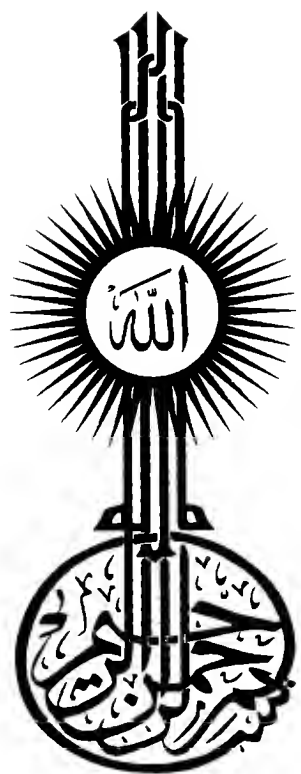
الأستاذ الدكتور

فضل حسن عباس

قسم الدراسات العليا / جامعة اليرموك

٢٠٠٥م

دار الفرقان للنشر والتوزيع



مقدمة الطبعة الثامنة

الحمد لله وصلاةً وسلاماً على سيدنا رسول الله، وعلى آله وصحبه وبعد.

فلقد من الله علينا بإخراج هذه الطبعة الثامنة من هذا الكتاب، التي تختلف عن سابقتها من الطبعات، إذ تُعدُّ هذه الطبعة نشأً جديداً، تمتاز ببعض القضايا التي كنا نود أن تكون في الطبعات السابقة، ولكنها مشيئة الله وحكمته:

أولاً: ضبط الآيات والأحاديث النبوية الشريفة.

ثانياً: ضبط الآيات وشرحها وتوثيقها.

ثالثاً: تصحيح الأخطاء الطباعية الكثيرة.

رابعاً: إضافة بعض القضايا التي لا بد منها.

وأخيراً لا يفوتني أن أتقدم بالشكر الجزيل لكل من ساهم في إخراج هذه الطبعة الجديدة، وأخص بالذكر الطالب: بهاء الدين البستنجي الذي بذل جهداً مباركاً في إخراجها، فجزاه الله عنا خير الجزاء.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الثامن عشر من جمادى الآخرة ١٤٢٣هـ

الموافق السابع والعشرون من آب ٢٠٠٢م

المقدمة

الحمد لله رب العالمين. والصلاة والسلام على سيدنا محمد أفصح الخلق لساناً، وأوفاهم بياناً، وعلى آله وصحبه الأطهار الأبرار ومن تبعهم بإحسان...

أما بعد:

فلقد منَّ الله علينا بإخراج الكتاب الأول في البلاغة، الذي اشتمل علم المعاني، وهذا هو الكتاب الثاني في (علم البيان والبديع)، نرجوا أن يَمُنَّ الله علينا باتمامه، وله الحمد في الأولى والآخرة.

ونهجنا فيه هو نهجنا في الكتاب الأول، اللهم إلا ما تقتضيه الضرورة، وتدعو إليه الحاجة، وتتطلبه طبيعة البحث من فروق بين العلمين تحتّم علينا بعض التغيير، ففي الكتاب الأول رأينا لزماً علينا أن نكثر من الأمثلة التي نوضح بها الأسلوب المتحدث عنه، ذلك أن طبيعة النظم وما فيه من فروق دقيقة بين الأساليب تختلف كثيراً عن طبيعة علم البيان الذي يعتمد الصورة، لذلك رأينا أنفسنا أقل حاجة للأمثلة الخاصة في هذا الكتاب.

وآثرنا أن نكثر من الأمثلة والشواهد من الكتاب الكريم، والسنة المطهرة، علاوة على ما نذكره من الصور الشعرية، إلا أننا لم نكتف بالشعر القديم؛ بل رأينا من الفائدة أن ننقل للقارئ بعض الصور الشعرية في أقوال المعاصرين من الشعراء.

ولقد أفدت كثيراً من «أسرار البلاغة» للشيخ عبد القاهر الجرجاني - رحمه الله -، ومن «دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبد القاهر في التشبيه والتمثيل» للأستاذ عبد الهادي العدل أستاذ البلاغة في كلية اللغة العربية في الأزهر - جزاه الله خيراً -.

وقد جهدت في هذا الكتاب ما جهدت في سابقه من يسر العبارة، وسهولة الإسلوب. والله أسأل أن يجعله خالصاً لوجهه، وأن ينفع به، وأن يَمُنَّ عليَّ بالقبول والأجر، وأعتذر عن

زَلَّةٍ أو هَفْوَةٍ وقعت عن غير قصد، أو كانت نتيجة غفلة أو جهل في قضية من القضايا، فما نحن
إلا بشر، وأرجو أن يجد فيه أساتذة البلاغة وطلابها بغيتهم وضالّتهم، وما توفيقي إلا بالله عليه
توكلت وإليه أنيب.

وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الحادي عشر من شعبان سنة ١٤٠٥هـ

أول أيار سنة ١٩٨٥م

الدكتور فضل حسن عباس

علم البيان

تمهيد :

• البيان تعريضه وتطوره:

وردت كلمة البيان ومشتقاتها كثيراً في كتاب الله تعالى، وفي سنة الرسول صلى الله عليه وسلم. فعلى حين نقرأ في كتاب الله تعالى: (كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ) [البقرة ١٨٧]. (كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ) [البقرة ٢٦٦]. (يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبينَ لَكُمْ) [النساء ٢٦] فالمبين في هذه الآيات هو الله تعالى- نقرأ كذلك قوله تعالى: (وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ) [النحل ٤٤]. ونقرأ ثالثاً قول الله تعالى (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ) [آل عمران ١٨٧]. وفي آية أخرى نقرأ قوله سبحانه: (وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَنَبَّيْنَا لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ) [إبراهيم ٤٥].

والمعنى المتبادر لهذه الآيات جميعاً هو الظهور والكشف والإيضاح، فالله تبارك وتعالى يبين آياته للناس، فيوضحها ويكشفها، فلا يبقى فيها أي خفاء، والنبي صلى الله عليه وسلم يبين ما نزل الله فيشرحه، ويرشد إلى ما فيه من أسرار ودقائق، وقد يكون هذا البيان من الرسول صلى الله عليه وسلم توضيحاً لمبهم، أو تفصيلاً لمجمل، أو تقييداً لمطلق، وقد يكون غير ذلك مما ذكر في موضعه.

والذين أخذ عليهم الميثاق من أهل الكتاب كان لا بد أن يظهروا للناس أحكام الله من غير تحريف أو تبديل، والذين سكنوا في مساكن الظالمين اتَّضَحَ لهم الأمر، وظهرت لهم النتائج، وتأتلت في نفوسهم القناعات بما حدث للسابقين.

فاليئة : كما يقول الراغب ^(١) : (هي الدلالة الواضحة حسية كانت أو عقلية).

وهو ما اختص به الإنسان. قال تعالى: (بَسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الرَّحْمَنُ عَلَّمَ

الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ [الرحمن ١-٤]، ومهما اختلف المفسرون في كلمة «البيان» فإن اختلافهم لا يخرج عن كونه اختلافًا تنوع.

(فقد قال ابن زيد والجمهور: البيان: المنطق والفهم والإبانة، وهو الذي فُضِّلَ به الإنسان على سائر الحيوان. وقال قتادة: هو بيانُ الحلال والشرائع، وهذا جزء من البيان العام، وقال محمد بن كعب: ما يقول وما يقال له، وقال الضحاك: الخير والشر، وقال ابن جريج: الهدى، وقال يمان: الكتابة)^(١).

وهناك غير هذه الأقوال؛ ولكنها ترجع - كما رأيت - إلى معنى الكشف، سواء قلنا: إن هذا الكشف أمر لساني أو غير لساني، أم قلنا: إنه هو الفهم الذي مُنحَ الإنسانُ وفُضِّلَ به على غيره.

ولقد جعل الله القرآن الكريم بياناً، في مثل قوله تعالى: (وَهَدَىٰ مَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ) [آل عمران ١٣٨]. فالقرآن، يكشف للإنسان عوامل الرقي، وأسباب السعادة؛ ليسلك مسالكهما، ومواطن الزلة ليتجنبها؛ ذلكم هو المعنى العام لهذه المادة وما يتفرع عنها.

والعربية - كما تعلم - لغة السعة والجمال؛ أعطيت خاصية، قل أن تجدها في غيرها من اللغات؛ وهي الصلة التي تكون بين الألفاظ بعضها مع بعض من جهة، وبينها وبين المعاني من جهة أخرى. لذلك قد نجد معاني كثيرة للكلمة، لكننا بعد الامعان والتدقيق، لا نستطيع أن نرجعها إلا إلى أصل واحد، ويظن لأول وهلة، أن هذه المعاني بعيدٌ بعضها عن بعض؛ لذلك كان السياق خير مُوجِّه، بل معيناً للمعنى.

فلقد جاءت كلمة البيان ومشتقاتها في مواضع كثيرة من السنة المطهرة، نكتفي منها بموضوعين اثنين:

أجدهما: قوله صلى الله عليه وسلم: «انَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا»^(٢)، والسياق الذي ورد الحديث فيه، يظهر لنا منه أن البيان «اظهار المقصود بأبلغ لفظ، وهو من الفهم وذكاء القلب» كما يقول ابن الأثير^(٣)، وهذا المعنى وإن كان خاصاً، فإنه لا يخرج عن الكشف.

(١) البحر المحيط ١٨٨/٨.

(٢) رواه البخاري كتاب الطب، باب ٥٠ «ان من البيان لسحرا» وكتاب النكاح باب ٤٨ «الخطبة» ورواه مسلم، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة.

(٣) النهاية لابن الأثير ١٧٤/٨.

الثاني: قوله صلى الله عليه وسلم: «البذاء والبيان شعبتان من النفاق»^(١)، والسياق يدلنا على أن المقصود بالبيان: التصنع في القول والتفصيح والتكلف، مما يكون الباعث عليه العجب والغرور.

ومهما قيل في البيان بعد ذلك. فإنه لن يخرج عن هذه المعاني التي ذكرناها لك، مستوحاة من الكتاب والسنة.

ونظن أن أول من توسع في هذه الكلمة، وبسط معانيها، أبو عثمان الجاحظ، ألم يسم أعظم كتبه وأكثرها شهرة «البيان والتبيين»؟ فقد عرّف البيان - تارة - تعريفاً عاماً بقوله: «انه اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب بون الضمير، حتى يُفْضِيَ السامع إلى حقيقته ويلم بما فيه». وتارة بقوله: «انه الدلالة الظاهرة على المعنى الخفي». وبين أن هذه الدلالة لا تنحصر في القول؛ بل انها تكون بخمس طرق؛ فقد تكون هذه الدلالة باللفظ، وقد تكون بالإشارة، وقد تكون بالخط، أو العقد أو الحال.

ثم ينقل لنا بعض التعريفات الخاصة، فيذكر ما قاله جعفر بن يحيى: «ان يكون الإسم يحيط بمعناك، ويجلي عن مغزاك، وتخرجه من الشركة، ولا تستعين عليه بالفكرة، مع السلامة من التكلف والتصنع والتعقيد». ويعلق الجاحظ على هذا التعريف، بأنه منسجم مع ما قاله الأصمعي في تعريف البليغ، بأنه «من طبق المُفَصِّل، وأغناك عن المُفَسِّر».

ونذكر مما سبق، أن كلمة البيان أصبحت مرشحة، كي يراد منها اتجاه خاص في القول، ولعل هذا الاتجاه كان أول ما أشار إليه الحديث النبوي «ان من البيان لسحراً».

ولا يفوتنا هنا مقارنة الجاحظ بين تعريف جعفر بن يحيى للبيان، والأصمعي للبليغ، بأن كلمة (البيان) كانت مرادفة لكلمة (بلاغة)، وهذا ما يكاد يُجمع عليه القوم، وهذا كذلك ما استمر إلى عصر الشيخ عبد القاهر - رحمه الله - فكانت كلمات البراعة والبلاغة والفصاحة والبيان والبديع الفاظاً ذات مدلول واحد مع اختلاف طفيف نجده بين كاتب وآخر.

ولعل خير دليل على ما قلناه، ما نجده للشيخ عبد القاهر - رحمه الله - في كتابه (دلائل الإعجاز)، ودلائل الإعجاز - كما تعلم - تحدث فيه عن نظرية النظم أي علم المعاني كما عرّف فيما بعد، ومع ذلك نجده في أول هذا الكتاب يتحدث عن البيان فيقول: «ثم انك لا ترى علماً هو أرسخ أصلاً، وأبسق فرعاً، وأحلى جنى، وأعذب ورداً، وأكرم نتاجاً، وأنور سراجاً،

(١) رواه الإمام أحمد ٢٦٩/٥، ورواه الترمذي، كتاب البر، باب ما جاء في العي ١٨٢/٨.

من علم البيان، الذي لولاه لم تر لساناً يحوك الوشي^(١)، ويصوغ الحلي ويلفظ الدر، وينفث السحر، ويُقرّي الشهد^(٢)، ويريك بدائع من الزهر ويجنيك الحلو اليانع من الثمر، والذي لولا تحفيّه^(٣) بالعلوم، وعنايته بها، وتصويره اياها لبقيت كامنة مستورة، ولما استبنت لها يد الدهر صورة^(٤) ولاستمر السرار^(٥) بأهليتها، واستولى الخفاء على جملتها، إلى فوائد لا يدركها الاحصاء ومحاسن لا يحصرها الاستقصاء. إلا أنك لن ترى على ذلك نوعاً من العلم قد لقي من الضيم ما لقيه، ومُنّي من الحيف بما مُنّي به، ودخل على الناس من الغلط في معناه ما دخل عليهم فيه^(٦).

فالشيخ - رحمه الله - لا يقصد بعلم البيان هنا المصطلح الذي استقر عليه الأمر فيما بعد، وإنما يعني به البلاغة بعامة، ومن بعد عبد القاهر جاء الزمخشري - رحمه الله - وهو أول من فصل علم البيان عن غيره من المباحث البلاغية وبخاصة علم المعاني، ولكننا مع ذلك لم نعثر على تعريف محدد عند الزمخشري لهذا العلم.

ويبقى الأمر كذلك إلى أن استقرت البلاغة وأصبح لها مفاهيمها المحددة المنضبطة، حيث أصبح علم البيان له شخصيته المستقلة وأبحاثه المتميزة، وموضوعاته الخاصة، فمجاله الصورة التي يبدعها المتكلم، فيصور بها المعنى الذي يريد.

تلك عجالة لتاريخ هذه الكلمة وتطورها، إلى أن غدت علماً مستقلاً، وفناً له أثره الخلاب.

فائدة علم البيان؛

ومما هو جدير بالعناية، وحرى أن يقدم على غيره، حتى يكون بحثنا على أسس ثابتة؛ الحديث عن فائدة هذا العلم، والثمرة العملية المرجوة منه، ولعل مما يُعيننا على ذلك إن شاء الله، ومن الله وحده العون؛ أن نرجع بك قليلاً إلى علم المعاني، فلقد عرفت هناك، أن ذلك العلم، هو الذي يعينك على تركيب الجملة تركيباً يتفق وأوضاع الناس الذين تخاطبهم؛ هو نظرية النظم - كما عرفت - تؤكد الكلام إذا كان هناك ما يقتضي التأكيد، وذلك إذا كان

(١) الوشي: النقش.

(٢) الشهد: العسل.

(٣) تحفيّه: حفاوته وإكرامه.

(٤) يقولون: «لا افعله يد الدهر» أي لا افعله ابداً.

(٥) بفتح السين وكسرها: آخر ليلة من الشهر والمراد خفاء القمر فيها.

(٦) دلائل الإعجاز ص ٥٥ تحقيق عبد المنعم خفاجي.

المخاطب مُنكراً لما تقول، فتكون بهذا موافقاً لمقتضى الحال ومقتضى الظاهر، أو تُنزّل غير المنكر منزلة المنكر، لما ترى من غفلة أو ما يشبهها، فتكون بذلك موافقاً لمقتضى الحال، لكنك خرجت عن مقتضى الظاهر.

وقد يقتضي منك المقام تقديم الفاعل، أو تقديم الفعل، وقد ترى أن المقام مقام تأخير لا تقديم، وقد تجد أن من الحكمة أن تطيل في كلامك وتطنّب، أو توجز وتقصّر، وقد تجد من المناسب أن تستعمل أسلوب القصر، وقد يكون هذا القصر بـ(إنما) تارة وبـ(ما، وإلا) تارة أخرى، وقد تجد لزماً عليك أن تفصل بين جملتين لما بينهما من كمال اتصال أو كمال انقطاع، وقد تصل بينهما لما بينهما من جامع يقتضي الوصل، وقد تعرّف الخبر أو تنكره، كما تمليه عليك دواعي التعريف أو التنكير، وقد تضطر لوجود الشرط في حديثك فتعبر تارة بـ(إن) وتارة بـ(إذا) وتارة بـ(لو). وقد تجد أن المقام يُحتمّ عليك أن تجعل فعل الشرط ماضياً تارة ومستقبلاً أخرى، وقد تحذف حينما تجد أن الحذف أولى من الذكر وقد قررت لك هذا وغيره في موضعه.

علم المعاني - إذن - هو علم النظم، وهذا النظم لا بدّ له من خطوتين اثنتين:

أولاً: ترتيب المعاني في نفسك لتكون منسجمة مع ما تريد أن تحدث عنه، سواء كان هذا الحديث لنفسك أم لغيرك.

ثانياً: ترتيب الألفاظ في نطقك، وهذه ناشئة عن التي قبلها.

علم المعاني - إذن - هو مطابقة ما على اللسان لما في النفس، وهذه قضية تعتمد أول ما تعتمد على الفكر، ولكن الإنسان ليس فكراً وحده، فلقد أراد الله له أن يكون له مع الفكر عاطفة، ومع العقل وجدان، ومع المنطق أحاسيس ومشاعر، ولعلك الآن بدأت تدرك وظيفة علم البيان، فإذا كان علم المعاني يعتمد أول ما يعتمد على الفكر الذي تطابق به بين ما رتبته في نفسك وما ينبغي أن ترتبه في نطقك، فإن علم البيان، هو ذلك العلم، الذي يُحدث أثراً في نفسك، ويسمو بعاطفتك، ويرهف حسك.

ولا بدّ للبلاغة من هذين الركنين: أن يكون الكلام متلائماً مع أوضاع المخاطبين، وأن يكون مؤثراً في النفس حتى تتفاعل معه وتتجاوب. فالركن الأول: وظيفة علم المعاني، والركن الثاني: مهمة علم البيان.

علم البيان - إذن - علم الصورة البديعة، التي من شأنها أن تهز أعطاف النفس، ونحن لا نريد أن نفاضل بين العلمين إذ لا غناء باحدهما عن الآخر، وإن كانت قضية النظم أدقّ مسلكاً، وأدلّ على الإعجاز، إلا أن علم البيان أدعى للتأثير، وأدنى إلى العاطفة.

يمكنك بعد الذي قدمته لك، أن تدرك أن علم البيان، هو العلم الذي تستطيع بوساطته وبمعرفته أن تؤدي المعنى الواحد الذي تريد تأديته بطرق مختلفة من اللفظ، بعضها أوضح من

بعض، وإن شئت فقل بعضها أكثر تأثيراً من بعضها الآخر، ولكن حذار أن تهمل جانب النظم، فإن الكلام الفصيح البليغ أما أن يرجع إلى النظم وحده، وإما أن يرجع إلى اللفظ وذلك لما فيه من صور بديعة، وتراكيب مؤثرة كالاستعارة والكناية وغيرهما^(١).

علم البيان، هو علم الصور الكلامية المؤثرة، ولا ريب أن الصور تختلف في تأثيرها على النفس، سواء في ذلك الصور الكلامية أم الصور الحسية، فهناك الصورة التي تروك وتعجبك، وهناك الصورة التي تستكره وتستبشع، ولكن ثالثة تصل إلى اعماق نفسك، بل تهز هذه النفس هزة طرب وتقدير، فبقدر ما يبدع المصور في تحسين صورته، يكون لها من التأثير في نفوس الآخرين، فالصورة الجيدة المؤثرة لا بد لها من خيال خصب، وعاطفة مشبوبة، واحساس مرهف، وذهن ثاقب يشترك فيهما المصور والمصور له على السواء. وكما يصدق هذا على الصورة الحسية، يصدق على الصورة الكلامية كذلك.

ولكن كيف يمكن أن تؤدي المعنى الواحد بعبارات بعضها أوضح من بعض، وأكثر تأثيراً من بعضها الآخر؟ خذ (الكرم) أو (البخل) و(الجرأة) أو (الجبن)، و(الحسن) أو (القببح)، و(العفة) وأي معنى شئت، وانظر إلى كلام الشعراء والبلغاء، تجد أن كلاً منهم كانت له طريقته في التعبير عن المعنى الذي يريد، فكان بعضهم يرتفع ويسمو، وكان الآخر يبدع غائصاً، باحثاً عن الجوهر الذي يزين فيه كلامه، وثالث تلقاه قريباً فيما يليقه، مبتذلاً فيما يحكيه.

والمعاني في صورها المؤثرة مما يحمّد الناس فاعلها، ولكن التعبير عن هذا المعنى يأخذ ألواناً كثيرة من القول، وتجد هذه الأقوال مبنوثة في الأدب العربي على اختلاف أعصاره وأمصاره، خذ مثلاً قول المتنبي^(٢).

تَعَرَّضَ لِي السُّحَابُ وَقَدْ قَفَلْنَا فَقُلْتُ إِلَيْكَ إِنَّ مَعِيَ السُّحَابَا

وخذ قول أبي تمام^(٣).

هُوَ الْبَحْرُ مِنْ أَيِّ النَوَاحِي أَتَيْتَهُ فَلَجَّئْتُهُ الْمَعْرُوفُ وَالْجُودُ سَاحِلُهُ

واستمع إلى قول ابراهيم بن هرمة^(٤).

لَا أُمْتِعُ الْعُودَ بِالْفَصَالِ وَلَا أَبْتِغِ الْإِقْرِبَةَ الْأَجَلِ

(١) دلائل الإعجاز ص ١١٤.

(٢) ديوان المتنبي ٢٧٣/١.

(٣) شرح ديوان أبي تمام/ إيليا الحاوي ص ٤٢٦. والقصيدة في مدح المعتصم.

(٤) العود: جمع عائد، وهي التي مضى على ولادها عشرة أيام، ثم هي مُطْفَل، ومعناه لا يتمتع الامهات من الأبل بأبنائها، بل يذبحها ولا يشتري منها الا قريبة الأجل.

وإلى قول أبي نواس^(١).

مِنْكَ يَشْكُو وَيَصِيحُ

بِحُ صَوْتُ الْمَالِ مِمَّا

وإلى قول مسلم بن الوليد^(٢).

لَا زَالَ لِلْمَالِ وَالْأَعْدَاءِ ظِلَامًا

تَظَلَّمَ الْمَالُ وَالْأَعْدَاءُ مِنْ يَدِهِ

وقال ابن هرمة^(٣).

جَبَانُ الْكَلْبِ مَهْزُولُ الْفَصِيلِ

وَمَا يَكُ فِي مَنْ عَيْبٍ فَإِنِّي

ومن أقوالهم «فلان كثير الرماد»، ويقولون «فلان إذا قُدِحَ لا يُصَلِّد» يريدون أنه كالزند الذي يقدر قُيرِي. هذه الأقوال - وغيرها كثير - تدور حول معنى واحد وهو الكرم، ولكنك تجد بعضها أوضح من بعض، وهكذا كل معنى تريد التعبير عنه، وربما تجد المعنى الجيد لم تتح له الصورة الجميلة، فلا يروقك ولا يستهويك، وربما تجد المعنى المبتذل أتاحت له الصورة الجيدة فيروقك ويستهويك، وذلك كثير؛ ألا ترى إلى قول ابن الأنباري^(٤)، في رثاء ابن بقية حين صلبه عضد الدولة:

لَحَقُ تِلْكَ إِحْدَى الْمُعْجِزَاتِ

عُلُوٌّ فِي الْحَيَاةِ وَفِي الْمَمَاتِ

وَقُدُ نَدَاكَ أَيُّسَامُ الصَّلَاتِ

كَأَنَّ النَّاسَ حَوْلَكَ حِينَ قَامُوا

وَكُلُّهُمْ قِيَامُ الصَّلَاةِ

كَأَنَّكَ قَائِمٌ فِيهِمْ خَطِيباً

وما كانت إلا وصفاً لمصلوب، وذكر فيها من التشبيهات والأوصاف البديعة والصور التي تختلب الأذان، وتجلب الأذهان، ما جعل بعض الأمراء يتمنى أن يكون مكان ذلك المصلوب، الذي قيلت فيه تلك القصيدة، وهذا كثير في الأدب العربي.

علم البيان - إذن - بحاجة إلى معرفة، واطلاع على تراثنا وثروتنا الأدبية، وإذا نظرت إلى الأمثلة التي ذكرتها لك - من قبل - وجدها قد اختلف قائلوها زماناً ومكاناً، وهذا يحتم عليك - كما قلت - أن تشحذ من عزيمتك، وأن تعلو همتك لاقتناص هذه الدرر من مظانها. يقول الأستاذ المراغي - رحمه الله تعالى -:

(١) انظر دلائل الإعجاز ص ١١٤.

(٢) العمدة لابن رشيقي القيرواني ٢٧١/١.

(٣) دلائل الإعجاز ص ٣٠٩.

(٤) ديوان المعاني ١٧٩/٢، اليتيمة ٣٤٤/٢، ٣٤٥. نذاك: كرمك، الصلّات: الهبات والعطايا.

«قضية هذا أن الضليع بهذا الفن المطلع على كلام العرب منثوره ومنظومه إذا حاول التعبير عما يختلج في صدره من المعاني وجد السبيل ممهداً فيختار ما هو أليق بمقصده وأحن إلى مطلبه من فنون القول وطرق الكلام.

فإذا حث همة الشجعان لاقتحام غمار الوغى بهرهم بساحر بيانه، وعظيم احسانه، فإن شاء شبههم بأسود خفان^(١) فقال كأنكم أسود لها في غيل خفان أشبل، وإن احب استعار وقال اني أرى هنا أسوداً تتحفز للكر والفر وتثب لاقتناص فرائسها ولها قرم^(٢) إلى الأخذ بنواصيها وحز أرؤسها، وإن أراد كنى عن مقصده وورى عن مراده فقال البسوا لعدوكم جلد النمر^(٣) واقلبوا له ظهر المجن فإنه قد ورم أنفه عليكم وداسكم تحت أقدامه....».

«... وإن دعا النفوس لمكرمة هز العطف لمحمدة امكنه أن يقول كأنكم البحور يعم فيضها القاصي والداني ويطم إنعامها على الفقير والغني، أو يقول هذي البحور على سواحلها القصاد تتقاذف أمواجه بما يغني الفقير ويفرج كربة المستجير، أو يقول اني أرى فصلاناً مهزولة، ورماداً كثيراً وكلاباً لا تنبج طارقاً؛ ومجداً مدَّ سُرْدَاقَه^(٤) وندى ضُرَيْت خيامه...»^(٥).

وسيمر بك شرح هذه العبارات إن شاء الله.

وإذا عدت إلى الأمثلة السابقة سواء ما ذكرته لك من قبل أم ما نقلته لك عن الشيخ وفكرت فيها ملياً تجد أنها لا تخلو عن ثلاثة ألوان من القول. فبعضها تشبيه وبعضها مجاز وبعضها كناية.

أما الفرق بين هذه الألوان فذلك يتكفل لك به هذا العلم أو الفن، ولذا يمكننا أن نحصر الحديث عن هذا العلم في أبواب ثلاثة ولكل فصوله ومسائله:

الباب الأول: التشبيه.

الباب الثاني: المجاز.

الباب الثالث: الكناية.

(١) مأسدة مشهورة بضراوة أسدها - وهي بين الثني وعذيب - لسان العرب - .

(٢) شهوة الطعام.

(٣) كناية عن اظهار العداوة.

(٤) السرداق: كل ما احاط بالشيء من حائط أو مضرب.

(٥) علوم البلاغة - للمراغي - ص ٢٠٩ - ٢١٠.

الباب الأول: التشبيه

التشبيه كما يدل عليه الأصل اللغوي لهذه الكلمة هو: «الدلالة على مشاركة أمرٍ لأمرٍ»
وان شئت قل: «هو الحاق أمرٍ بأمرٍ بإداة التشبيه لجامع بينهما».

وتدرك من هذا التعريف أن هناك أمرين ألحقنا أحدهما بالآخر أو شارك أحدهما الآخر، وأن هناك معنى جمع بين هذين الأمرين، وإداة ربطت أحدهما بالآخر، تلك أمور أربعة وهي التي سَمَوُهَا أركان التشبيه، فالأمران هما: المشبه والمشبه به، والرابط بينهما هي إداة التشبيه، والمعنى الذي اشترك الأمران فيه وجمع بينهما من أجله هو وجه الشبه، فإذا قلت: «اخلاق علي كالنسيم في الرقة»، فإن هذا تشبيه اشتمل على هذه الأركان الأربعة، لأنك شبهت الأخلاق بالنسيم، فالأخلاق مشبّهة، والنسيم مشبّه به، والأداة: هي الكاف، أما المعنى الجامع بين المشبه والمشبه به: فهي الرقة وتسمى: وجه الشبه.

أركان التشبيه إذن هي: المشبه، والمشبه به، وإداة التشبيه، ووجه الشبه، ولكن هذه الأركان ليست سواء فبعضها يمكن الاستغناء عنه؛ لأنه معلوم للنفس، لا تجد النفس في تقديره صعوبة ولا حرجاً، بينما لا يمكن الاستغناء عن بعضه الآخر، فالذي يمكن الاستغناء عنه من أركان التشبيه: الإداة، ووجه الشبه، فيمكنك أن تقول في التشبيه السابق «أخلاقه نسيم» وإذا قلت «علي كالأسد في الشجاعة»، و«فاطمة كالشمس في البهاء»، و«عزمه كالسيف في المضاء» فإنك في هذه يمكن أن تستغني عن الأداة ووجه الشبه فتقول: «علي أسد»، «فاطمة شمس»، «عزمه سيف»، وسموا هذا: التشبيه البليغ وهو ما حذفت منه الإداة ووجه الشبه.

أما الركنان الآخران وهما: المشبه والمشبه به، فلا يمكن الاستغناء عن واحد منهما، فهما طرفا التشبيه، فإذا حذف أحدهما خرج الكلام عن كونه تشبيهاً وأصبح من باب الاستعارة كما ستعرفه فيما بعد إن شاء الله تعالى.

التشبيه بين الوسيلة والغاية:

تُوهَمُ عباراتُ كثير من الكاتِبِينَ بأن التشبيه ليس إلا وسيلة يُتوصَلُ بها إلى معرفة الاستعارة، لأن معرفة الاستعارة مبنية عليه، ومع تقديرنا لهذا القول من الناحية العلمية، ومن حيثُ صحّة نتائجه، إلا أننا لا يمكننا أن نسلّم لأولئك بكل ما قالوه فالتشبيه في الواقع ليس فقط وسيلة نتوصل به إلى بحث آخر، إنما التشبيه كغيره من أساليب القول وفنونه جيء به ليؤدي رسالة ذات أثر، وليحقق أغراضه النفسية والنفسية المقصودة من علم البيان، فهو من هذه الناحية لا يقل عن الاستعارة أو الكناية، بل نظن أن الأثر الذي يُحدثُ التشبيه في النفس ربما يزيد على ما يُحدثُ غيره من الأساليب، ذلك أن المجاز والكناية لا تتركهما النفس بيسر

وسهولة، أضف إلى ذلك ان التشبيه يمكن أن يكون أوسع دائرة من حيث الجمهور الذي يتأثر به، ولأمر ما كثر في كلام الله تعالى وكلام نبيه صلى الله عليه وسلم، وفي الكلام البليغ للأقدمين والمحدثين على السواء، بل تجده في غير الكلام البليغ مما هو وليد البيئات المتعددة، وأنت لواجد في كلام العاديين من الناس تشبيهات رائعة إذا وضعت لها القوالب المقبولة كانت ذات أثر وشأن.

التشبيه، ليس إذن وسيلة نتوصل ونتوسل به إلى معرفة أسلوب آخر، وإنما هو مقصود لذاته، فإذا كان الهدف من علم البيان التأثير في النفوس، فإن من أكثر أبوابه تأثيراً التشبيه.

ولقد كان التشبيه من أول الأساليب التي أشار إليها الأقدمون، فأنك لتجد له أصولاً عند أبي عبيدة، والفرأ، والجاحظ وله فيه اشارات لطيفة، ونظن أن المبرد من الأقدمين - هو أول من توسع في بحثه للتشبيه، وقسمه ومثل له، وتتابع العلماء بعد ذلك يظهرهم بدائعهم، ويشرحون روائعه.

قال أبو هلال العسكري: «التشبيه: يزيد المعنى وضوحاً، ويكسبه تأكيداً، ولهذا أطبق جميع المتكلمين من العرب والعجم عليه، ولم يستغن أحد منهم عنه، وقد جاء عن القدماء وأهل الجاهلية ما يستدل به على شرفه وموقعه من البلاغة»^(١).

وقال الزمخشري في تفسيره، عند قوله تعالى: (مَثَلُهمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَاراً) [البقرة ١٧]، قال: «ولضرب الأمثال، واستحضار العلماء المثل والنظائر، شأن ليس بالخفي في ابراز خبيئات المعاني، ورفع الاسار عن الحقائق، حتى يريك المتخيل في صورة المحقق، والمتوهم في معرض المتيقن، والغائب كائنه مشاهد، وفيه تبكيت للخصم الألد، وقمع لسورة الجامع الأبوي، ولأمر ما أكثر الله في كتابه المبين أمثاله، وفشا ذلك في كلام الرسل والأنبياء والحكماء، قال تعالى: (وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ) [العنكبوت ٤٣]»^(٢).

وقد بلغ عبد القاهر في ذلك مبلغاً عظيماً، يقول: «إذا جاء التمثيل في أعقاب المعاني، أو أبرزت هي باختصار في معرضه»^(٣)، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورتها،

(١) الصناعتين ص ١٨٣ - ١٨٤ طبعة الخانجي سنة ١٣٢٠ هـ.

(٢) الكشف ١، ص ٣٧.

(٣) المعرض: ثوب تجلى فيه العروس ليلة العرس.

كساها أبهة^(١) فأكسبها منقبة^(٢)، ورفع من أقدارها، وشب^(٣) من نارها، وضاعف من قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صباية^(٤) وكلفاً^(٥) وقسر الطباع على أن تُعطيتها محبةً وشغفاً، فإن كان^(٦) مدحاً كان أبهى وأفخم، وأنبى في النفوس وأعظم، وأهز للعطف^(٧)، وأسرع للإلف، وأجلب للفرح، وأغلب على الممتدح، وأوجب شفاعة للمادح، وأقصى له بغير المواهب والمناجح^(٨)، وأسير على الألسن وأذكر، وأولى بأن تعلقه القلوب وأجدر. وإن كان ذمّاً كان مسه أوجع، وميسم^(٩) أذع، ووقعه أشد، وحده أحد. وإن كان حاجاً كان برهانه أنور، وسلطانه أقهر، وبيانه أبهر، وإن كان افتخاراً كان شلو^(١٠) أبعد، وشرفه أجد، ولسانه ألد، وإن كان اعتذاراً كان إلى القبول أقرب، وللقلوب أخلب^(١١)، وللسخائم^(١٢) أسلب ولغرب الغضب^(١٣) أفل^(١٤)، وفي عقد العقود أنفت، وعلى حسن الرجوع أبعث، وإن كان وعظاً كان أشفى للصدر، وأدعى إلى الفكر، وأبلغ في التنبيه والزجر، وأجدر بأن يجلي الغيابة، ويبصر الغاية، ويرى العليل، ويشفي الغليل، وهذا الحكم، إذا استقرت فنون القول وضروبه، وتتبع أبوابه وشعوبه^(١٥).

فمثال ما كان مدحاً قول البحري يمدح يعقوب بن اسحاق بن نوبخت^(١٦)

دان إلى أيدي العفاة وشاسع عن كل ند في الندى وضريب^(١٧)

كالبدر أفرط في العلو وضوؤه للعصبة السارين جد قريب^(١٨)

(١) ابهة: أي عظمة.

(٢) منقبة: أي مفخرة.

(٣) شب: أوقد.

(٤) الصباية: الشوق.

(٥) الكلف: حب الشيء والولع به.

(٦) أي المعنى.

(٧) العطف: الجانب، والمعنى: ادعى للزهر.

(٨) جمع منيحة وهي الناقة التي يجعل لمن تمنح له لبنها ووبرها وولدها.

(٩) الميسم: آلة الكي.

(١٠) الشلو: أي الشأن.

(١١) خلّب فلاناً: أي خدعه وفتن قلبه.

(١٢) السخائم: الأحقاد والضغائن.

(١٣) غرب الغضب: أي حدته.

(١٤) يقال إنفل السيف إذا انكسر والمراد هنا انكسار حدة الغضب.

(١٥) أسرار البلاغة- تعليق وشرح محمد النجار ص ١٠٨. (١٦) ديوان البحري ١١٤/١.

(١٧) الضريب: المثل والنظير، وعطفه على الند: عطف تفسير، العفاة جمع عفيف: وهو الذي لا يسأل الناس من فقر.

(١٨) أي بالغ الغالية في القرب.

وَتَأْخُذْهُ عِنْدَ الْمَكَارِمِ هِزَّةٌ كَمَا اهْتَزَّتْ تَحْتَ الْبَارِحِ الْغُصْنُ الرُّطْبُ^(٢)

ومثال الذم قول مروان بن أبي حفصة^(٣)

زَوَامِلُ لِلْأَشْعَارِ لَا عِلْمَ عِنْدَهُمْ بِجَيِّدِهَا الْكَوْلُ الْأَبَاعِرِ

لَعَمْرُكَ مَا يَدْرِي الْبَعِيرُ إِذَا غَدَا بِأَوْسَاقِهِ أَوْ رَاحَ مَا فِي الْغَرَائِرِ^(٤)

ومثال الاحتجاج قول أبي نؤيب يحتج على استحالة اجتماعه وابن اخته على عشق

امرأة واحدة^(٥).

تُرِيدِينَ كَيْمَا تَجْمَعِينِي وَخَالِدًا وَهَلْ يُجْمَعُ السَّيْفَانِ وَيَحْكُ فِي غَمْدٍ؟

ومثال الافتخار قول المتنبي^(٦).

كَمْ تَطْلُبُونَ لَنَا عَيْبًا فَيُعْجِزُكُمْ وَيُكْرِهُ اللَّهُ مَا تَأْتُونَ وَالْكَرَمُ^(٧)

مَا أَبْعَدَ الْعَيْبِ وَالنَّقْصَانَ عَنْ شِيَمِي أَنَا الثَّرِيَّا، وَذَانِ الشَّيْبِ وَالْهَرَمُ^(٨)

ومثال الوعظ قول صالح بن عبد القدوس:

إِذَا وَتَرْتَ امْرَأً فَاحْذَرِ عَدَاوَتَهُ مَنْ يَزْرَعُ الشُّوكَ لَا يَحْصُدُ بِهِ عَيْبًا^(٩)

(١) ذكر هذا البيت في الحماسة غير منسوب، وذكر التبريزي أنه لأبي الشعب العبسي أو الأقرع بن معاذ القشير.

(٢) البارح: ريح الصيف الحارة، والغصن بسكون الصاد، وحرك اتباعاً للضرورة.

(٣) دلائل الإعجاز ص ١٣٧، أسرار البلاغة ص ١٠٣.

(٤) الزوامل: جمع زاملة وهي التي يحمل عليها من الأبل وغيرها، والاباعر: جمع ابعره، التي هي جمع بعير، والوسق حمل البعير وجمعه أوساق، والغرائر: جمع غرارة وهي وعاء من الخيش يوضع فيه القمح ونحوه.

(٥) ديوانه ص ٣٣، مجمع الأمثال ١٩/٢.

(٦) ديوانه - شرح البرقوق ص ٨٧/٤.

(٧) يقول: كم تحاولون أن تجدوا في عيباً تعيبونني به فيعجزكم وجوده، وهذا الذي تفعلون يكرهه الله ويكرهه الكرم - وهذا تعنيف لسيف الدولة لاصغائه للطاعنين به.

(٨) ذان: أي العيب والنقصان، يقول: إن بُعد ما بيني وبين النقصان والعيب كبعد الثريا من الشيب والهزم؛ فكما لا يلحقها الشيب والهزم، لا يلحقني العيب والنقصان.

(٩) نهاية الارب ٨٢/٣، وتر فلانا: أي قتل حميمه فتركه فرداً.

«وبعد، فهذا الضرب من البيان - التشبيه - على حدّته كنز من كنوز البلاغة، ومادة الشاعر المُفْلَق^(١)، والكاتب البليغ، في الابداع والاحسان والاتساع في طرق البيان، وأن يضع الكلام بعيد المرام، قريباً من الافهام، ولا يغرنك من أمره أنك ترى الرجل يشبه الجواد بالبحر، والشجاع بالأسد، والحسن بالشمس، وما ماثل ذلك مما اشتهر أمره، وجرى لذلك مجرى الحقيقة، وإنما هو يدقّ ويلطف حتى يأتيك بما يخلب القلوب، ويرقّض الهام^(٢)، وحتى يخرج مثله عن طوق البشر جميعاً^(٣)».



(١) يقال: افلق الشاعر: أتى بما يعجب في شعره فهو مُفْلَق.

(٢) الهام: جمع هامة وهي الرأس.

(٣) التلخيص في علوم البلاغة/ شرح الأستاذ عبد الرحمن البرقوقي ص ٢٤٢.

أركان التشبيه

الركنان الأولان: المشبه والمشبه به:

عرفت أن للتشبيه أربعة أركان: المشبه، المشبه به، واداة التشبيه، ووجه الشبه، وعرفت أن المشبه والمشبه به يسميان طرفي التشبيه، لأنه لا يمكن حذف أحدهما أو الاستغناء عنه، فإذا حذف أحدهما خرج الكلام عن حد التشبيه، ودخل في باب الاستعارة التي سنفجئك عنها فيما بعد إن شاء الله تعالى.

وطرفا التشبيه قد يكونان محسوسين، وقد يكونا معقولين، وقد يكون المشبه معقولاً والمشبه به محسوساً، أو على العكس من ذلك، أي يكون المشبه محسوساً والمشبه به معقولاً.

(١) الحسيان:

وهو ما يدرك بإحدى الحواس الخمس الظاهرة:

(أ) ما يدرك بالبصر: سواء الألوان، أم الأشكال، أم المقادير، أم الحركات، وذلك كتشبيه الخد بالوردة الحمراء، والشعر الأسود بالليل في السواد، ومن ذلك قول أبي قيس بن الأسلت^(١) يشبه الثريا بعنقود الكرم المنور:

وَقَدْ لَاحَ فِي الصُّبْحِ الثُّرَيَّا لِمَنْ رَأَى كَعُنُقُودٍ مُلَاحِيَّةٍ^(٢) حِينَ نَوَّرَا
ومنه قول الشاعر^(٣):

أَنْتَ نَجْمٌ فِي رِفْعَةٍ وَضِيَاءٍ تَجْتَليكَ العُيُونُ شَرْقاً وَغَرْباً
فشبه ممدوحه بالنجم في الرفعة والضياء، وقال الطغرائي^(٤):

وَذِي شِبْطٍ كَصَدْرِ الرُّمَحِ مُعْتَقِلٍ بِمِثْلِهِ غَيْرَ هَيَّابٍ وَلَا وَكِلٍ^(٥)
فشبه القامة بالرمح. وكقول الحارث بن سعيد التغلبي^(٦) يشبه القد اللطيف بالغصن أو بالآلف:

(١) الأغاني ١٥/١٥٩، الإيضاح ٢/٢٢٢.

(٢) ملأحيه: عنب أبيض طويل يشبه العنب الزيني في دمشق.

(٣) البلاغة الواضحة ص ٢٢، تجتليك: تنظر إليك.

(٤) ديوانه ص ٣٠٢.

(٥) الشبطاء: يفتح أوله وكسره: الطول، الوكل: المتوكل.

(٦) نهاية الأرب ١/١٠١، والقوام، بالفتح: القامة وحسن الطول.

غَزَالَ فَوْقَ مَا أَصِيفُ كَأَنَّ قَوَامَهُ أَلِيفُ

(ب) ما يدرك بالسمع من الأصوات، ومنه قول ذي الرمة^(١).

كَأَنَّ أَصْوَاتَ مِنْ إِيغَالِهِنَّ بَنًا أَوْ آخِرِ الْمَيْسِ أَنْقَاضُ الْفَرَارِيجِ^(٢)

يريد الشاعر أن بعض الرجل يحك بعضه، فيحصل صوت شبيه بصوت صفار الدجاج من شدة السير، واضطراب الرجل، وهو ما يقال له النقيض. ومنه قوله سبحانه: (الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ) [الشرح ٣]، فالنقيض صوت الرجل. وهذا يدلنا على ما للبيئة من أثر في التشبيه من جهة، وعلى سليقة القوم اللغوية وقدراتهم على التعبير من جهة أخرى.

وكقول امرئ القيس:

يَغْطُ غَطِيطَ الْبَكْرِ شَدَّ خِنَاقُهُ لِيَقْتُلْنِي وَالْمَرْؤُ لَا يَسْ بِقَتَالِ^(٣)

يصور غضب رجل أظهرت زوجه ميلاً نحو امرئ القيس، فيشبه صوت غطيطه في نومه بغطيط البكر، وهو الفتى من الإبل الذي يشد حبل حول خناقه لترويضه، وقال ذو الرمة^(٤) يصف ابلاً:

كَأَنَّ عَلَى أَنْيَابِهَا كُلَّ سُحْرَةٍ صِيَاحَ الْبَوَازِي مِنْ صَرِيفِ اللِّوَاكِ

والمعنى أن سامع صوت الابل يظن أن صوت البوازي - جمع باز وهو الطير المعروف - جارٍ على أنيابها، وبما أن منشأ هذا الظن هو مشابهة صريف أنياب الابل - أي صوتها - لصياح البوازي، جعل الشيخ عبد القاهر هذا البيت مثلاً لتشبيه ذلك الصريف بصياحها.

وقال تميم بن مقبل يصف قلبه^(٥):

وَلِلْفُؤَادِ وَجِيبٌ تَحْتَ أَبْهُرِهِ لَدَمَ الْغُلَامِ وَرَاءَ الْغَيْبِ بِالْحَجَرِ

فشبهه صوت دق القلب بالصوت الحاصل من دق الغلام بالحجر من وراء الحائط.

(١) ديوانه ٢٥/٩، العمدة ٤٨/٢.

(٢) الإيغال: مصدر أوغل في السير إذا أسرع وأبعد، والضمير للإبل، والآخر جمع آخره، الرجل: هو العود الذي يستند إليه الراكب، الميس: شجرٌ صلبٌ تتخذ من الرجال، أراد الشاعر (كأن أصوات الرجل (آخر الميس) انقاض الفراريج) فآخر المضاف إليه عن المضاف، وهذا من التعقيد اللفظي الذي تحدثنا عنه في الجزء الأول من هذا الكتاب فارجع إليه إن شئت.

(٣) يغط من الغطيط: وهو صوت البعير إذا هدر، والبكر: ولد الناقة الفتى.

(٤) ديوانه رقم ١٦/٥٥، اللواتك: الأنياب ومفردها لاتك.

(٥) الأمانى ١٦/١، الوجيب: خفقان القلب واضطرابه، الأبهري: الشريان الخارج من القلب، والدم: الضرب بشيء ثقيل يسمع وقعته.

ومنه قول أبي العتاهية يمدح الرشيد^(١):

وَزَحَفَ لَهُ تَحْكِي الْبُرُوقِ سُبُوفُهُ وَتَحْكِي الرُّعُودَ الْقَاصِفَاتِ حَوَافِرُهُ
فشبه صوت وقع حوافر الخيل بالرعود القاصفة.

(ج) ما يدرك بالذوق، وذلك كتشبيه بعض الفواكه بالعسل، وكقول امرئ القيس^(٢):

كَأَنَّ الْمُدَامَ وَصَوْبَ الْغَمَامِ وَنَشْرَ الْخُرَامِ وَرِيحَ الْقَطْرِ

يُعَلُّ بِهِ بَرْدُ أَنْيَابِهَا إِذَا طَرَبَ الطَّائِرُ الْمُسْتَحِرَّ^(٣)

(د) ما يدرك بحاسة الشم من الروائح، كتشبيه بعض الأشياء بالريحان أو الكافور، وتشبيه النكهة بالعنبر.

(هـ) ما يدرك بحاسة اللمس من حرارة وبرودة، ورطوبة ويبوسة، وخشونة وغيرها، وذلك كتشبيه اللين الناعم بالخز، وتشبيه الخشن بالمسح^(٤)، ومنه قول ذي الرمة:

لَهَا بَشَرٌ مِثْلُ الْحَرِيرِ وَمَنْطِقٌ رَخِيمٌ الْحَوَاشِي لَا هُرَاءُ وَلَا نَزْرُ^(٥)

وألحقوا بالطرفين المدركين بالحواس، الأمور المُنْتَخِلَةُ؛ ويعنون بها الأشياء التي ليس لها وجود في الواقع، إلا أن الأجزاء التي تتركب منها مدركة بالحواس، ومنه قول أبي بكر محمد بن أحمد الصنوبري^(٦):

وَكَأَنَّ مُحْمَرَ الشَّقِيقِ إِذَا تَصَوَّبَ أَوْ تَصَعَّدَ

أَعْلَامُ يَاقُوتٍ نُشِرْنَ عَلَى رِمَاحٍ مِنْ زَبَرْجَدَ

يشبه محمر الشقيق، وهو ما يعرف بشقائق النعمان، والريح تسفله تارة وتصعده

(١) أبو العتاهية حياته وشعره / محمد محمود الدش.

(٢) شروح التلخيص ٤٣٢/٣.

(٣) المدام: الخمر يداوم على شربها، صوب الغمام: نزول المطر من السحاب، الخزامى: نبات طيب الرائحة، والقطر: نوع من الطيب، يُعَلُّ: يُمَزَّج، برد أنيابها: ريقها، طرب: صوت، المستحر: المصوت وقت السحر يريد (أنها طيبة ريح الغم في الوقت الذي تتغير فيه الأنواء بعد النوم).

(٤) المسح: كساء من شعر كتوب الرهبان، والجمع: أمساح ومسوح.

(٥) البشر: أي الجلد والبشرة، رخم الحواشي: لئِنْ نواحي الكلام، الهراء: الكلام الكثير ليس له معنى، النز: القليل، يقول: هو بين ذلك.

(٦) المطول ص ٣١٣، محمر الشقيق: شقائق النعمان، تصوب: أي انحدر ونزل.

أخرى، وأوراقه الحمر على سيقانها الخضراء، شبهها بأعلام ياقوت منشورة على رماح من زبرجد، والياقوت أحمر والزبرجد أخضر، ووجه الشبه شيء أحمر فوق شيء أخضر متحرك، تارة يصعد وتارة ينزل، وليس هناك في الخارج أو في الواقع أعلام من ياقوت، وليس هناك رماح من زبرجد إلا أن الأشياء التي رُكبت منها هذه الأجزاء مدركة بالحواس، فهناك رماح وأعلام، وياقوت وزبرجد، إلا أن الأعلام ليست من ياقوت، والرماح ليست من زبرجد، والياقوت والزبرجد من الأشياء الكريمة التي تتخذ حلية وزينة.

ومن هذا القبيل قول أبي الغنائم الحمصي^(١):

خَوْذُكَ كَأَنَّ بَنَانَهَا فِي خُضْرَةِ النَّقْشِ الْمُرْدُ
سَمَكٌ مِنَ الْبَلُورِ فِي شَبَكٍ تَكُونُ مِنْ زَبْرَجْدٍ

فهو يشبه البنان وقد أحاط به النقش المرزد بسمك من البلور، وهذا السمك قد أحاط به شبك من زبرجد، ووجه الشبه - كما ترى - صورة شيء أبيض يحيط به شيء أخضر، وإذا نظرنا إلى المشبه به فإننا لا نجد له وجوداً في الخارج؛ لأنه ليس هناك سمك من البلور ولا شبك من زبرجد، إلا أن أجزاء هذا المشبه به كلها مما يدرك بالحواس، فهناك سمك ولكنه ليس من البلور، وهناك بلور، وكذلك الشبك والزبرجد، كل هذه العناصر موجودة في الخارج مدركة بالحواس، إلا أن الشكل الذي تخيله الشاعر لا وجود له.

وقريب من هذا قول ابن المعتز^(٢):

كَأَنَّ عَيْوْنَ النَّرْجِسِ الْغَضَّ حَوْلَنَا مَدَاهِنُ دُرٍّ حَشَوُهُنَّ عَقِيقُ

فالمداهن: جمع مدهن، وهو ما يوضع فيه الطيب، وهي وإن كانت في واقع الناس، إلا أن الناس لا يستعملون مداهن من درّ ولا يحشونها بالعقيق كذلك.

(٢) العقليان:

أما الطرفان العقليان فهما ما يدركان بالعقل؛ كتشبيه الإيمان بالحياة، والكفر بالموت، وكما ألحقوا بالطرفين الحسيين ما سموه خيالياً - وهو ما ركبته الخيال من أجزاء محسوسة - فلقد ألحقوا بالعقلين نوعين اثنين:

(١) ديوانه ٢٧٥/٤، الخود: الفتاة الناعمة حسنة الخلق.

(٢) ديوان ابن المعتز ١٦٥/٤، الوساطة ص ٢٠٦.

النوع الأول: الأمور الوجدانية:

وهي الكيفيات التي تدركها النفس، كاللذة والألم، والحب والبغض، والطمأنينة والخوف؛ وإنما ألحقوا هذه الوجدانيات بالطرفين العقليين، لأنها لا تُدرك بالحواس، وليست من القضايا الفكرية، ويسمى الشيخ عبد القاهر هذا النوع «عقلياً غير حقيقي» وكأنّ العقلي عنده قسمان اثنان:

١- عقلي حقيقي.

٢- عقلي غير حقيقي، ويعني به الأمور الوجدانية.

النوع الثاني: ما سموه وهمياً.

وعرفوه بأنه الذي لا وجود له في الخارج، ولو وُجد لأدرك بالحواس، وأظنّ أن الفرق بينه وبين الأمور الخيالية التي ألحقت بالمحسوسات ظاهر، فالأمور الخيالية أجزاؤها التي ركبت منها موجودة في واقع الناس ومدركة بالحواس - كما مر من قبل -، أما الوهمي فلا وجود له في الخارج، لا من حيث التركيب، ولا من حيث الأجزاء، وقد أجمع الأقدمون والمحدثون على التمثيل لهذا النوع بقول امرئ القيس^(١):

أَيَقْتُلُنِي وَالْمَشْرِفِيُّ مُضْجَاجِي وَمَسْنُونَةٌ زُرْقُ كَأَنِّيَابِ أَعْوَالِ

فشبه أسنان الحربة بأنياب الأغوال، وهي مما لا وجود له في الخارج، ولكنّ الغول لو وجد لأدرك بالحواس، والغول ما كان يتوهمه العرب، وقد كثّر في أشعارهم.

ومثلوا له كذلك بقول الله تعالى: ﴿أَذَلَّكَ خَيْرٌ نَزُلًا أَمْرُ شَجَرَةٍ الزَّقُّومِ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ [الصافات: ٦٢-٦٥]، ولا أدري كيف سووا بين الآية الكريمة وبيت الشعر، إذ الغول من الأمور المتوهمه التي لا حقيقة لها، ولكن الشياطين ليست كذلك، فشتان بين الغول والشيطان، والشيطان ليس أمراً متوهماً، الشيطان له وجوده الحقيقي. قال تعالى: (يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ) [الأعراف: ٢٧].

(١) ديوانه ص ٢٤، المشرفي: أحد أوصاف السيف نسبةً إلى المشارف: قرئ من أرض اليمن.

اذن قضية الشيطان ليست وهماً، كل ما هناك أننا لا نستطيع أن نراه بأعيننا. ولو أنهم قسموا هذا النوع إلى ما هو متوهم لا وجود له كالغول، وإلى ما له حقيقة لا يرى بالعين كالشيطان، لأحسنوا أيما إحسان.

(٣) ما كان المشبه عقلياً والمشبه به محسوساً:

كتشبيه الحجة بالشمس، والمنية بالسبع، والعزم بالسيف، والأخلاق بالعطر، والأمل عند المتشائم بالليل، والحظ كذلك، والأخلاق بالفلاة الواسعة.

ومن الأمثلة على ذلك قول أبي العلاء^(١):

وَكَا النَّارِ الْحَيَاةَ فَمِنْ رَمَادٍ أَوَاخِرُهَا وَأَوَّلُهَا دُخَانُ
وقول البوصيري - رحمه الله -^(٢):

وَالنَّفْسُ كَالطِّفْلِ إِنْ تَهْمَلَهُ شَبَّ عَلَى حُبِّ الرِّضَاعِ وَإِنْ تَقْطِمْهُ يَنْقَطِمْ
ولما كان وجه الشبه في المشبه به أقوى منه في المشبه، ولما كان المحسوس أكثر تأثيراً في النفس؛ كانت أكثر التشبيهات من هذا القبيل؛ أي تشبيه المعقول بالمحسوس، وسيأتي لك مزيد من الأمثلة عندما نحدثك عن التشبيهات في القرآن الكريم والسنة المطهرة.

(٤) ما كان المشبه محسوساً، والمشبه به معقولاً:

كتشبيه العطر بالخلق الكريم، والنجوم بالسُّنن، والليل بالصدود، ولهذا القسم مزيد بحث إن شاء الله.

الركن الثالث من أركان التشبيه: الأداة:

وأداة التشبيه: هي ما يربط بين المشبه والمشبه به، وقد تكون حرفاً، أو فعلاً، أو اسماً.

أولاً: حرفاً:

(أ) الكاف: ويليها المشبه به دائماً، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾ [النور ٣٩]، وقال صلى الله عليه وسلم: «الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة»^(٣)، وقال

(١) ديوان سقط الزند، القصيدة الثالثة، ٤٧/١، والقصيدة في مدح أبي الفضائل سعد بن شريف.

(٢) ديوانه ص ٢٣٩.

(٣) رواه مسلم كتاب فضائل الصحابة - باب قوله «الناس كإبل مائة» ٤/١٩٧٣.

البوصيري - رحمه الله تعالى - في البيت الذي مرُّ بك من قبل:

وَالنَّفْسُ كَالطُّفْلِ إِنْ تُهْمِلَهُ شَبَّ عَلَى حُبِّ الرِّضَاعِ وَإِنْ تَقْطِعْهُ يَنْقَطِعِمْ

وقد لا يليها المشبه به صراحة؛ وذلك إذا كان التشبيه مركباً، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَتْرَلْنَاهُ مِنْ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازِيدَتْ وَطْنَ أَهْلِهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَنَاهَا أَمَرُنَا لَبَلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْن بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس ٢٤]، وقال سبحانه: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَتْرَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾ [الكهف ٤٥].

ففي الآيتين الكريمتين دخلت الكاف على (الماء)، ولا يعقل أن تشبه الحياة الدنيا بالماء، وإنما المقصود تشبيه الدنيا بنضارتها وزينتها، واغترار الناس بها، ثم ما يعقب ذلك من ألم وتفرق، وتنغيص وكدر وزوال، بالنبات ينزل عليه الماء فيكسبه خضرة وزهواً، ولكنه بعد ذلك يصفر فيكون هشيماً وحطاماً. فانت ترى أن الكاف لم تدخل على المشبه به صراحة، وإنما ذلك يحتاج إلى تأويل.

(ب) كَأَنَّ: قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْبَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن ٥٨]، وقال البوصيري^(١)

في وصف أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم - رضي الله عنهم -:

كَأَنَّهُمْ فِي ظُهُورِ الْخَيْلِ نَبْتُ رَبِي مِنْ شِدَّةِ الْحُزْمِ لَا مِنْ شِدَّةِ الْخُزْمِ

يقول: ان ثبوتهم على ظهور الخيل، إنما يرجع إلى حزمهم وعزمهم وقوتهم لا إلى الخُزْمِ التي شددت بها بطون الخيل.

ويرى بعض العلماء أن «كَأَنَّ» مركبة من كلمتين (الكاف) و (إِنْ) الدالة على التأكيد، فالبيت السابق أصل معناه: إنهم في ظهور الخيل كنبت ربي ولكن الكاف دخلت على (إِنْ) ففتحت همزتها ومن هنا تدرك أن «كَأَنَّ» أدل على تأكيد الكلام من الكاف؛ ولهذا جاءت في القرآن الكريم في المواطن التي يستحسن فيها توكيد الكلام وتشبيته في النفوس قال تعالى:

(١) ديوانه ص: ١٩٩، ربي: جمع ربوة وهو المكان العالي.

(يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ) [القمر ٧]، وقال تعالى (إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ) [القمر ١٩]، وقال تعالى: (فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ) [الحاقة ٧].

وزهد بعض العلماء إلى أنها لا تكون للتشبيه إلا إذا كان خبرها جامداً، أما إذا كان خبرها مشتقاً فإنها تفيد الظن والشك، فإذا قلت: (كَأَنَّ خَالِدًا قَائِمٌ) فإنها تفيد الظن، لأن (قائم) وهي خبر كَأَنَّ، واسم الفاعل من المشتقات، ولكن جمهرة العلماء على أنها للتشبيه في جميع أحوالها، فمعنى (كَأَنَّ خَالِدًا قَائِمٌ) أي أن حالته التي هو عليها الآن تشبه حالته وهو قائم.

ثانياً: فعلاً؛

وقد تكون أداة التشبيه فعلاً مثل: يَحْكِي وَيُشَبِّه.

وَطُنْبُورٌ^(١) مَلِيحِ الشَّكْلِ يَحْكِي بِنَفْمَتِهِ الْفَصِيحَةِ عُنْدَلِيْبًا

وقال السري الرفاء في وصف شمعة^(٢):

مَفْتُولَةٌ مَجْدُولَةٌ تَحْكِي لَنَا قَدْ الْأَسْلَ^(٣)

وكقولنا: (هذا يُشَبِّه هذا)

ثالثاً: اسماً؛

وقد تأتي أداة التشبيه اسماً، قال أبو بكر الخالدي^(٤):

يَا شَبِيبَةَ الْبَدْرِ حُسْنًا وَضِيَاءً وَمَنَالًا
وَشَبِيبَةَ الْغُصْنِ لِينًا وَقَوَامًا وَأَعْتِدَالًا

(١) الطنبور: آلة من آلات الطرب ذات عنق وأوتار.

(٢) ديوانه ص: ٢٨٤.

(٣) القد: القامة، الأسل: الرماح.

(٤) اليتيمة ١٨٩/٢.

وقد يدل على الأداة فعل ليس فيه معنى التشبيه، كأفعال اليقين والرجحان^(١) كقولك (رأيت هنداً بديراً)، (وعلمت خالداً أسداً)، وجعل بعضهم منه قوله سبحانه: (فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّطَرِّئٌ) [الأحقاف ٢٤]، ومنه قوله سبحانه: (إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا) [الإنسان ١٩]، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: «لقد وجدتُه جراً»^(٢).

ملحوظة:

وقد تحذف الأداة لقيام الدليل عليها، كما تقول: «العلم نور»، و «خالد سيف»، و«حمزة أسد».

الركن الرابع من أركان التشبيه: وجه الشبه:

وجه الشبه: هو المعنى الذي يلحظه المتكلم للجمع بين المشبه والمشبّه به، كالشجاعة التي لوحظت بين حمزة والأسد «حمزة أسد الله وأسد رسوله»، والصرامة التي لوحظت بين خالد وبين السيف «خالد سيف من سيوف الله»، والوضاعة التي لوحظت بين سعاد وبين الشمس، وينبغي أن يكون وجه الشبه في المشبه به أقوى منه في المشبه، حتى يصح التشبيه. وهذا الوجه:

- (١) اما أن يكون حسياً أو عقلياً.
- (٢) واما أن يكون مفرداً أو متعدداً.
- (٣) وقد يأتي صورة منتزعة من أشياء متعددة.

أولاً: وجه الشبه الحسي والعقلي:

(١) الحسي:

وذلك كقول الأقرع بن معاذ القشيري^(٣).

وَتَأْخُذُهُ عِنْدَ الْمَكَارِمِ هِزَّةٌ كَمَا اهْتَزَّتْ تَحْتَ الْبَارِحِ الْفُصْنُ الرُّطْبُ

(١) راجع الأفعال الدالة على اليقين والرجحان في علم النحو.

(٢) رواه البخاري - كتاب الأدب - حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل ٢٢٤٤/٥، ورواه مسلم - كتاب الفضائل

- باب شجاعة النبي صلى الله عليه وسلم وتقدمه للحرب ١٨٠٠٢/٤.

(٣) الحماسة، ص ٦٣٠، البارح: ربح الصيف الحارة.

فوجه الشبه هنا يدرك بالبصر، وهو الاشتراك في هيئة الحركة، ومنه قول ابن المعتز^(١):
 كَأَنَّ عُيُونَ التُّرْجِسِ الْغَضُّ حَوْلُنَا مَدَاهِنُ دُرٍّ حَشَوُهُنَّ عَقِيْقُ
 وقوله^(٢):

فَكَأَنَّ الْبَرْقَ مُصْحَفٌ قَارٍ فَاَنْطَبَاقاً مَرَّةً وَاَنْفِتَاحاً
 فوجه الشبه مؤلف من اللون والشكل المدرك بالحس، ومنه قول ذي الرمة:

كَأَنَّ أَصْوَاتَ مِنْ إِيْغَالِهِنَّ بِنَا أَوَاخِرِ الْمَيْسِ أَنْقَاضُ الْفَرَارِيْجِ^(٣)
 فوجه الشبه هنا يُدْرِكُ بالسمع، وهو الاشتراك في النغمة الخاصة.

ومنه تشبيه الشيء إذا استدار بالكرة تارة، وبالحلقة تارة أخرى فنقول: «الأرض كالكرة» ووجه الشبه هنا الاشتراك في الشكل والصورة، ومنه قول الطغرائي^(٤):

وَذِي شِطَاطٍ كَصَدْرِ الرُّمَحِ مُعْتَقِلٍ بِمِثْلِهِ غَيْرَ هَيَّابٍ وَلَا وَكِيلٍ^(٥)
 وقول الحارث بن سعيد التغلبي^(٦):

غَزَالُ فَوْقَ مَا أَصِيفُ كَأَنَّ قَوَامَهُ أَلِيفُ
 والوجه: الاشتراك في الهيئة فان كلاً مستوي منتصب.

(٢) العقلي:

وذلك كقولك فلان كحاتم في الكرم، وكالأسد في الشجاعة، وكالثعلب في المكر، وكالثور في القوة. ومنه قول أبي فراس^(٧):

وَقَدْ صَارَ هَذَا النَّاسُ إِلَّا أَقْلَهُمْ ذِنَاباً عَلَى أَجْسَادِهِنَّ ثِيَابُ

(١) ديوانه، ص ٥١٤، قصيدة (النرجس).

(٢) ديوانه ص ١٩١، قصيدة (عرف الدار).

(٣) سبق شرح البيت ص ٢٣.

(٤) ديوانه ص ٣٠٢.

(٥) سبق شرح هذا البيت ص ٢٢.

(٦) نهاية الأرب ١٠١/٢.

(٧) ديوان أبي فراس - جمع وتعليق ونشر سامي الدهمان ٢٢/٢.

ثانياً: تقسيمه إلى مفرد ومتعدد:

قد يكون وجه الشبه مفرداً، كما تقول: «هو كالأسد في الشجاعة»، وقد يكون متعدداً، ومن ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن ويعمل به، كالأترجة طعمها طيبٌ وريحها طيبٌ»^(١) فإن وجه الشبه هنا الطعم والرائحة.

ومنه قول الشاعر^(٢):

أَنْتَ نَجْمٌ فِي رِفْعَةٍ وَضِيَاءٍ تَجْتَليكَ العُيُونُ شَرْقاً وَغَرْباً

فوجه الشبه: الرفعة والضياء، ولو اقتصر على أحدهما لكفى.

وقد يكون المتعدد حسياً وعقلياً معاً، كما تقول: «الطالب كأستاذة في مشيته وخُلقه وعلمه».

ثالثاً: تقسيمه إلى تحقيقي وتخيلي:

ويعنون بالتحقيقي ما كان موجوداً في المشبه به، سواء وجد في المشبه أم لم يوجد، فمثال ما وجد في المشبه والمشبه به معاً: «هو كالأسد شجاعة»، و«هي كالشمس وضاعة»، فإن الوضاعة والشجاعة موجودتان في المشبه به، وهما كذلك في المشبه، ومثال ما لم يوجد في المشبه قولك: «كلامه كالعسل في الحلاوة» فإن الحلاوة موجودة حقيقة في العسل وليست موجودة في الكلام إلا على سبيل التأويل، لأن الحلاوة مما تستريح لها النفس وتلذ بها، فالموجود في الكلام - إذن - لازم الحلاوة لا الحلاوة نفسها، فوجه الشبه في هذه الأمثلة تحقيقي.

أما التخيلي فهو ما لا يوجد في المشبه به في الحقيقة إلا على سبيل التخيل، ويكون هذا في التشبيه المقلوب أو في التشبيه الذي يكون فيه المشبه حسياً والمشبه به عقلياً.

استمع إلى قول التنوخي^(٣):

وَكأنَّ النُّجُومَ بَيْنَ دُجَاهَا سُنَنٌ لَاحَ بَيْنَهُنَّ ابْتِدَاعُ

فإن وجه الشبه صورة شيء أبيض مضيء له بريق ولعان تحيط به اجرام مظلمة

(١) رواه البخاري - كتاب فضائل القرآن - باب فضائل القرآن.

(٢) البلاغة الواضحة ص ٢٢، تجتليك: تنظر إليك.

(٣) البيتة ٣١٠/٢، المطول ص ٣١٥.

سوداء، وهذا وإن كان موجوداً في المشبه إلا أنه ليس موجوداً في المشبه به على الحقيقة، اللهم إلا على سبيل التخيل، فالمشبه به السنن التي لاح بينهنّ ابتداءً أو اللاتي ظهرن بين البدع، والاضاعة والظلمة ليست حقيقة في السنن والبدع - كما تعلم - ولكن لما كانت السنن هادية إلى البر مبينة للخير وكانت البدع على العكس من ذلك، تصورنا البياض في السنن والسواد في البدع، الا ترى إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم: «قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها»^(١) ومن هذا القبيل قول أبي طالب الرقي^(٢):

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكَ وَالظَّلَامُ كَأَنَّهُ يَوْمُ النَّوَى وَفُؤَادُ مَنْ لَمْ يَعْشَقْ

فلقد شبه الشاعر الظلام بشيئين: شبهه أولاً بيوم النوى أي يوم الفراق وشبهه ثانياً بفؤاد من لم يعشق، ووجه الشبه الحلقة والسواد، وهذه وإن كانت موجودة في الظلام على الحقيقة، إلا أنها ليست موجودة في يوم النوى وفي الفؤاد الذي لم يعشق إلا على سبيل التخيل، وبيان ذلك: أنهم أحبوا يوم التلاقي فتخليلوه كأنما هو أبيض مشرق، وكرهوا يوم النوى - الفراق - فوصفوه بأنه أسود حالك، ولا سواد في الحقيقة ولكنهم تخليلوا ذلك تأثراً من ألم الفراق، وكذلك حينما تصوروا القلوب والأفئدة تصوروا أفئدة العاشقين مضيئة بحرارة العشق، وعلى هذا فقد تخليلوا الفؤاد الذي لم يعشق مظلم الجنبات، فوجه الشبه - كما ترى - إنما وجد في المشبه به على سبيل التخيل.

ومن هذا قول ابن بابك^(٣):

وَأَرْضٍ كَأَخْلَاقِ الْكَرِيمِ قَطْعُهَا وَقَدْ كَحَلَ اللَّيْلُ السَّمَاءَ فَأَبْصَرَا

فإن وجه الشبه في هذا التشبيه السعة، والسعة موجودة في الأرض على سبيل الحقيقة، ولكنها في أخلاق الكرام ليست كذلك، وإنما هي موجودة على سبيل التخيل لأن السعة والضيق توصف بهما الأشياء المادية.

رابعاً: وقد يكون وجه الشبه صورة منتزعة من أشياء، كما في قوله تعالى: (مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً) [الجمعة ٥]، فإن وجه الشبه هنا ليس شيئاً واحداً وإنما هو صورة منتزعة من أمور كثيرة، فهي صورة من يجهد نفسه ويتعبها

(١) رواه ابن ماجة - المقدمة باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين ١٦/١.

(٢) التبتة ٢٤٤/١، المفتاح ص ١٤٦.

(٣) المفتاح ص ١٤٧، السماك: أحد السماكين وهما نجمان نيران أحدهما في الشمال وهو السماك الرامح، والآخر في الجنوب وهو السماك الأعزل.

بأشياء نفيسة دون أن يحصل على جدوى ولهذا مزيد بحث إن شاء الله.

تلك هي أركان التشبيه، مفصلة بعد أن عرفتكم بمجملتها.

قضيتان مهمتان:

ولا بد أن نقف معك، ونقف معنا عند قضيتين اثنتين أشرنا إليهما من قبل:

أولاهما: كون المشبه حسيّاً والمشبه به عقليّاً.

والثانية: كون وجه الشبه في المشبه به أقوى منه في المشبه.

وكل منهما ذات صلة بأختها فالحديث عن أحدهما يستلزم الحديث عن الأخرى.

– **أما القضية الأولى:** فلقد وقف منها بعض العلماء موقف الرافض والانكار مدعيّاً أن

ذلك لا يتمشى مع البدهة والفطرة والمنطق، ونظن أن هذا الرأي غير سديد إذ ورود هذا الضرب في الكلام البليغ يكفي لردّ هذا القول ونقضه.

– **أما القضية الثانية:** وهي كون وجه الشبه في المشبه به أقوى منه في المشبه، فهذا ما

تستدعيه طبيعة التشبيه، – اللهم – إلا إذا كان هناك غرض للمتكلم، سواء كان هذا الغرض: المبالغة أم التخيل أم التندرّ والظرافة والاستملاح، فيقلب التشبيه فيظهر وجه الشبه في المشبه أقوى منه في المشبه به، وهذه قضية أشار إليها الشيخ عبد القاهر – رحمه الله – وسنفصل لك فيها بعض التفصيل: فاعلم – هديت إلى الرشد – أن هنا اسلوبين اثنين:

أولاهما: أن يكون المشبه عقليّاً والمشبه به حسيّاً.

ثانيهما: أن يكون كل من المشبه والمشبه به حسيين.

الاسلوب الأول: تشبيه المعقول بالمحسوس:

ففي الاسلوب الأول لا يحسن العكس إلا إذا كان للمتكلم هدف وغرض بياني، ويكون

ذلك على سبيل التخيل لا التحقق، انظر إلى قول القاضي التنوخي^(١):

وَكأنَّ النُّجُومَ بَيِّنٌ دُجَاهَا سُنَنٌ لَّاحَ بَيِّنُهُنَّ ابْتِدَاعُ

ومن قبل هذا البيت في القصيدة نفسها:

رُبُّ لَيْلٍ قَطَعَتْهُ كَصُودٍ وَفِرَاقٍ مَا كَانَ فِيهِ وَدَاعُ

(١) اليتيمة: ٢/٣٩٤.

مُوحَشٍ كَالثَّقِيلِ تَقْذَى بِهِ الْعَيْنُ وَتَأْبَى حَدِيثَهُ الْأَسْمَاعُ
وَكَأَنَّ النُّجُومَ بَيْنَ دُجَاهَا سُنُنُ لَاحَ بَيْنَهُنَّ ابْتِدَاعُ
مُشْرِقَاتُ كَأَنَّهُنَّ احْتِجَاجُ فِيهِ لِلْخَصْمِ وَالظَّلَامِ انْقِطَاعُ

في هذه الأبيات تشبيهات أربعة: واحد منها تشبيه محسوس بمحسوس وهو تشبيه الليل بالثقل في قوله: موحش كالثقل تقذى به العين، والثلاثة الباقية كلها تشبيه محسوس بمعقول، فالأول: تشبيه الليل بالصدود والفراق، والليل محسوس والصدود والفراق معقولان لا يدركان بالحس، والثاني: تشبيه النجوم بالسنن وقد تقدم هذا من قبل، والثالث: تشبيه النجوم بالحجج، فقد تخيل التنوخي:

أولاً: أن في الصدود والفراق ظلاماً.

وثانياً: تخيل أن هذا الظلام فيهما أقوى منه في الليل.

وكذلك في البيت الثاني والثالث تخيل أن للسنن والحجج اشراقاً، وأن هذا الاشراق أقوى فيهما من النجوم، فانت تجد أن في كل تشبيه - من هذا القبيل - تَخِيلُينَ للشاعر.

وقد تقدم معنا قول أبي طالب الرقي^(١):

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكَ وَالظَّلَامُ كَأَنَّهُ يَوْمُ النَّوَى وَفُؤَادُ مَنْ لَمْ يَعْشَقِ

فقد تخيل الشاعر أن في يوم النوى وفؤاد من لم يعشق ظلمة وسواداً وأنه أقوى فيهما من الليل.

وانظر إلى قول صاحب اسماعيل بن عبَّاد وقد أهدى عطراً إلى القاضي أبي الحسن الجرجاني^(٢):

يَا أَيُّهَا الْقَاضِي الَّذِي نَفْسِي لَهُ مَعَ قُرْبِ عَهْدِ لِقَائِهِ مُشْتَاقُهُ
أَهْدَيْتُ عِطْراً مِثْلَ طِيبِ ثَنَائِهِ فَكَأَنَّمَا أَهْدَيْتُ لَهُ أَخْلَاقَهُ

فقد شبه العطر بالأخلاق، وهو تشبيه محسوس بمعقول، إذ تخيل أن للأخلاق طيباً ورائحة زكية، وتخيّل ثانياً أن هذه الرائحة أقوى في الأخلاق منها في العطر.

(١) البيتة: ٢٩٤/٢.

(٢) البيتة ١٧٨/٣، ارشاد الأريب ٢٠/١٤.

وعوداً إلى القاضي التنوخي فهو يقول^(١):

فَأَنْهَضُ بِنَارٍ إِلَى فَحْمٍ كَأَنَّهُمْ ———
فِي الْعَيْنِ ظُلْمٌ وَإِنْصَافٌ قَدْ اتَّفَقَا
جَاءَتْ وَنَحْنُ كَقَلْبِ الصَّبِّ حِينَ سَلَا ———
بَرْدًا فَصِرْنَا كَقَلْبِ الصَّبِّ إِذْ عَشِقَا^(٢)

ففي البيت الأول شبه النار والفحم بالانصاف والظلم بجامع الاشرار والسواد، فتخيل أن للانصاف اشراقاً هو أقوى فيه من النار وأن للظلم سواداً هو أقوى فيه من الفحم. أما البيت الثاني: ففيه تشبيهان: أحدهما التشبيه بقلب السالي، أي الخالي من العشق في البرودة. والثاني: التشبيه بقلب العاشق في الحرارة، لأنهم يتخيلون أن القلب العاشق حار وأن القلب الخالي من العشق بارد ليس فيه حرارة، وهذان التشبيهان - في هذا البيت - من تشبيه المحسوس بالمحسوس فليس مما نحن بصدده.

واستمع إلى قول ابن طباطبا^(٣):

كَأَنَّ انْتِضَاءَ الْبَدْرِ مِنْ تَحْتِ غَيْمَةٍ ———
نَجَاةٌ مِنَ الْبِأْسَاءِ بَعْدَ وَقُوعِ^(٤)

ففيه تشبيه محسوس بمعقول، فهو يشبه البدر وقد انكشف من تحت الغيم الذي كان يحجب نوره بالنجاة من البأساء، فقد تخيل الشاعر هنا أن الظلام في البأساء أقوى منه في الغيم وأن الاشرار في النجاة من البأساء أقوى منه في القمر.

تشبيه المحسوس بالمعقول - إذن - يقصد به الشاعر إلى التخيل، ولكنه تخيل مزدوج: فهو يتخيل في المعقول صفة محسوسة أولاً وأن هذه الصفة أقوى في المعقول منها في المحسوس ثانياً.

الاسلوب الثاني: تشبيه المحسوس بالمحسوس:

طرفا التشبيه إذا كانا محسوسين يمكن أن يُجعل كل منهما مكان الآخر، فتجعل المشبه به مشبهاً وبالعكس، هذا إذا لم يكن هناك تفاوت كبير بين المشبه والمشبه به في وجه الشبه، بحيث يكون وجه الشبه في المشبه به أمراً لا مزيد عليه، ولهذا عابوا على البحري تشبيهه الليل بالمداد في قوله^(٥):

عَلَى بَابِ قَنْسَرَيْنِ وَاللَّيْلُ لَأَطْرَحُ ———
جَوَانِبَهُ مِنْ ظُلْمَةٍ بِمِْدَارِ

(١) البيّمة ٣١٣/٢.

(٢) الصّب: المشتاق.

(٣) المفتاح ص ١٤٧، اسرار البلاغة ص ٣٦٤.

(٤) انتضى السيف: سلّه، وانتضاء البدر: ظهوره من دائرة الغيم، والبأساء: الداهية.

(٥) ديوانه ٢٤٧/١، ديوان المعاني ٢٤٤/١.

وفضلوا عليه قول ابن الرومي حيث شبه المداد بالليل في قوله^(١):

حَبْرُ أَبِي حَفْصٍ لُعَابُ اللَّيْلِ يَسِيلُ لِلْإِخْوَانِ أَيُّ سَائِلٍ
بِغَيْرِ مِيزَانٍ وَغَيْرِ كَيْلٍ

وهناك أصول تعورف عليها بين الناس؛ كالوضاءة في الشمس، والشجاعة في الأسد، والسواد في الليل، والمسك في الطيب، والعسل في الحلاوة، والصاب^(٢) في المرارة، والبحر في الغزارة، (ومادر) في البخل، (وحاتم) في الكرم، ففي هذه الأمور وأمثالها لا ينبغي العكس حتى للمبالغة.

أما ما جاء من أقوال الشعراء مخالفاً لهذه الأصول المتعارف عليها، كتشبيه الشمس بالمرأة، وتشبيه غرة الصباح بالوجه، في قول محمد بن وهيب^(٣):

وَبَدَأَ الصَّبَاحُ كَأَنَّ غُرَّتَهُ وَجْهَ الْخَلِيفَةِ حِينَ يُمْتَدِّحُ
وقول ابن المعتز^(٤):

فَخَلَّتْ الدُّجَى وَالْفَجْرُ قَدْ مَدَّ حَيْطَهُ رِداءً مُـوشًى بِالْكَوَاكِبِ مُعَلِّماً^(٥)

فقد أجاب الشيخ عن ذلك، بأن المقصود من هذه التشبيهات ليس التشبيه من حيث اللون فحسب، وإنما المقصود التشبيه من حيث اللون والشكل. هذا ما ذهب إليه الشيخ رحمه الله. ولكن يظهر أن عنصر المبالغة يمكن أن يراعيه الشاعر إذا كان المقام يعين على ذلك، وأليك أمثلة مما يجوز فيه عكس التشبيه، فيكون الشيء مشبهاً تارة ومشبهاً به تارة أخرى فمن ذلك:

(١) تشبيه النجوم بالمصابيح في قول جندب المري^(٦):

نُجُومُهُ رُكْدٌ لَيْسَتْ بِرَازِلَةٍ كَأَنَّمَا هُنَّ فِي الْجَوِّ الْقَنَادِيلُ^(٧)

(١) أدب الكاتب ٩٤، شرح الإيضاح ٢١٧.

(٢) الصاب: شجر مر له عصارة بيضاء كاللبن شديدة المرارة إذا أصابت العين اتلفتها.

(٣) الاغانى ١٧/١٤١، المطول ٣٢٤.

(٤) ديوان المعاني ١/٣٤٤.

(٥) المقصود من العلم في هذا الرداء هو الفجر.

(٦) الحماسة ٤/٣٢٥.

(٧) رُكْد: جمع راكد، أي واقفة لا تتحرك.

وعكسوا ذلك فشبهوا المصابيح بالنجوم، ومن ذلك قول السري الرفاء^(١) يمدح الوزير المهلبى، وقد ركزت له رماح عليها شمع عند اقبال الليل فأضاء المكان وحسن:

لَقِيَ النُّجُومَ وَقَدْ طَلَعْنَ بِمِثْلِهَا وَأَعَادَ جُنْحَ اللَّيْلِ وَهُوَ ضَحَاءُ^(٢)

(٢) تشبيه الخد بالورد ومن ذلك قول ابن المعتز^(٣):

غِلَالَةُ خَدِّهِ صُبِغَتْ بِرُودٍ وَنُونُ الصَّدْغِ مُعْجَمَةٌ بِخَالٍ

وعكسوا فشبهوا الورد بالخد كقول خالد الكاتب^(٤):

عَشِيَّةَ حَيَانِي بِرُودٍ كَأَنَّهُ خُدُودُ أُضِيفَتْ بَعْضُهُنَّ إِلَى بَعْضٍ

(٣) تشبيه النرجس بالعيون ومن ذلك قول أبي نواس^(٥):

لَدَى نَرْجَسٍ غَضُّ الْقِطَافِ كَأَنَّهُ إِذَا مَا مَنَحْنَاهُ الْعُيُونُ عُيُونُ

وعكسوا فشبهوا العيون بالنرجس ومنه قول ابن الرومي^(٦)

لَوْ كُنْتُ يَوْمَ الْوَدَاعِ حَاضِرَنَا وَهَنْ يُطْفِئُنَّ عِلَّةَ الْوَجْدِ
لَمْ تَرَ إِلَّا الدُّمُوعَ سَاكِبَةً تَقْطُرُ مِنْ مُقْلَةٍ عَلَى خَدٍّ
كَأَنَّ تِلْكَ الدُّمُوعَ قَطُرُنْدَى يَقْطُرُ مِنْ نَرْجَسٍ عَلَى وَدٍّ

التشبيه - في البيت الأخير- مركب، شبهت صورة الدموع تنهل من العين على الخد بصورة قطر الندى يقطر من النرجس على الورد، والعين فيه مقابلة للنرجس، ووجه الشبه دائرة بيضاء تحيط بدائرة أخرى أصغر منها مخالفة لها في اللون، فالنرجس ورقه أبيض ووسطه أصفر.

(٣) ديوانه ص ١٧

(٤) الجنح: بالكسر أو الضم: الجانب أو الناحية من الليل، والضحاء: قرب منتصف النهار أي ساطعاً مضيئاً.

(٥) ديوانه ص ٥٧٠، قصيدة (دعيني)، غلالة خده: أي صفحة خده، والصدغ: ما بين العين والأذن، ونون الصدغ كتابة عن خصلة الشعر المتدلّية على الخد على شكل حرف نون، وقد جعل الخال على الخد نقطة حرف النون.

(٦) الوساطة ص ١٨٧.

(٧) ديوانه ٣٣٨، ديوان المعاني ٢١/٢، الغض: الطري الناعم.

(٨) الوساطة ٢٤٢، ديوان المعاني ٢٥٥/١.

(٤) تشبيه الثغر وهو مَقْدَم الأسنان بالاقحوان، وهو زهرٌ ذو ورق أبيض صغير يشبه الأسنان في لونه وشكله، ومنه قول البحري^(١):

كَأَنَّمَا يَبْسُمُ عَنْ لُؤْلُؤٍ مُنْضِدٍّ أَوْ بَرْدٍ أَوْ أَقْحَاحٍ^(٢):

وعكسوا فشبهوا الاقحوان بالثغر، كقول القاضي التنوخي^(٣):

أَقْحُوَانُ مُعَانِقُ لِشَقِيقٍ كَثُفُودٍ تَفُضُّ وَرْدَ الْخُدُودِ
وَعُيُونٌ مِنْ نَرْجِسٍ تَتَرَايَ كَعُيُونٍ مَوْصُولَةٍ التَّسْهِيدِ

فوصف العيون بالتسفيد، إما للدوام انفتاحها وإما لأنه أراد تشبيه النرجس بها في الذبول، فقد قيل إن في ثوره انكساراً وفتوراً لا ترى فيه ورقة قائمة.

(٥) تشبيه ثديي الكواعب بالرمان كقول السلامي:

رُبَّمَا تَبِيْتُ أَنَامِلِي يَجْنِبِينَ رُْمَانَ الثُّهُودِ

اضافة الرمان إلى النهود من اضافة المشبه به إلى المشبه

وعكسوا كذلك فشبهوا الرمان بالثدي، كقول أبي النصر سعيد بن الشاة:

وَرَمَانَةٌ شَبَّهْتُهَا إِذْ رَأَيْتُهَا بِئْدِي كَعَابٍ أَوْ بِحَقَّةٍ مَرْمَرٍ

مُنْمَنَةً صَفْرَاءَ نُضِدَ حَوْلَهَا يَوَاقِيتُ حُمْرُ فِي مُلَاءٍ مُعَصْفَرٍ^(٤)

(٦) تشبيه الجداول والأنهار بالسيوف، كقول أبي فراس الحمداني:

وَالْمَاءُ يَفْصِلُ بَيْنَ زَهْرِ الرُّوضِ فِي الشَّطِئَيْنِ فَصْلاً

كَبِسَاطٍ وَشَيْ جَرَدَتْ أَيْدِي الْقُيُونِ عَلَيْهِ نَصْلاً^(٥)

فشبه هيئة الماء يفصل أزهار الروض، الواقعة على شطية بهيئة نصل - أي سيف -

(١) ديوانه ٢٣٦/١ قصيدة (معدن الجود) في مدح عيسى بن إبراهيم كاتب الفتح بين خاقان.

(٢) منضد: مرصوص بعضه إلى بعض، والبرد: قطع الثلج الصغيرة.

(٣) اليتيمة ٣١٢/٢.

(٤) الكعاب: الفتاة الناهد، والحقّة: وعاء من الخشب. المنمنم هو المزخرف المزركش، نُضِدَ: رُتِبَ وَشُقَّ، الملأ: جمع ملأة وهي الملحقة أو ما يفرش على السرير، مُعَصْفَر: أي مصبوغ بالصففر وهو نبات يُصَبَغُ به الحرير.

(٥) ديوانه ص ٩٠، اليتيمة ٢٤/١، القيون: جمع قَيْن: وهو الحداد، ثم أطلقت على كل صانع.

جردته القيون على بساط موشى منقوش، ووجه الشبه هيئة ذلك البياض المستطيل البراق بين تلك الألوان المختلفة المنتظمة، ومنه قول ابن بابك:

فَمَا سَيْلٌ تَخْلَصُهُ الْمَحَانِي كَمَا سَلَّتْ مِنَ الْخَلَلِ الْمَنَاصِلُ^(١)

المحاني: جمع محنية، وهي منعطف في الوادي، والخلل: جفن السيف المغشى بالآدم، والمنصل هو السيف.

وهذه التشبيهات - كلها - على سبيل الحقيقة لا على سبيل التخیل

* الخلاصة: أن تشبيه المحسوس بالمحسوس قد يعكس فيه الطرفان على سبيل الحقيقة - إذا لم يكن تفاوت كبير بين المشبه والمشبه به من حيث وجه الشبه -، وقد يعكسان على سبيل التخیل والمبالغة، وذلك إذا كان هناك تفاوت كبير بين المشبه والمشبه به في وجه الشبه، وضابط ذلك كما ذكره الشيخ عبد القاهر:

(١) كل تشبيه صريح كان الغرض منه الجمع بين المشبه والمشبه به في الصورة، أو الشكل، أو اللون، أو هيئة ملتزمة من أمرين فأكثر على وجه يوجد في الفرع على حدّه في الأصل، أو قريباً منه، ولم يقصد فيه إلى مبالغة وإلحاق ناقص بكامل، فإن العكس فيه يستقيم على سبيل الحقيقة.

(٢) وكل تشبيه قصد فيه إلحاق الناقص بالكامل بمبالغة في امتيازها على غيره في الوصف، فإن العكس فيه لا يستقيم فيه على سبيل الحقيقة^(٢).

ومن الخير أن نوضح لك ما قال الشيخ، حتى لا يبقى في عبارته لبس أو غموض، بيان ذلك:

أنك إذا شبهت شيئاً بشيء، وكان وجه الشبه متقارباً في المشبه والمشبه به - بحيث لم يكن هناك تفاوت كبير - فإنه يجوز لك أن تعكس التشبيه، ويكون ذلك على سبيل الحقيقة، مثال ذلك: (تشبيه الخد بالورد، والعيون بالنرجس، والدمع بالؤلؤ، والأسنان بالبرد).

إن وجه الشبه في هذه التشبيهات جميعاً، يكاد يكون واحداً في المشبه والمشبه به، ولذا فإننا يمكن أن نعكس هذه التشبيهات، فنشبه النرجس بالعيون، والورد بالخد...

أما إذا كان هناك تفاوت كبير في وجه الشبه بين المشبه والمشبه به، كتشبيه (الكلام بالعسل في الحلاوة)، (والحسنة بالشمس في الوضاعة)، (والوجه بالصبح)، (والمداد بالليل)،

(١) انظر أسرار البلاغة ص ١٨٧ تحقيق هـ. ريتز ودراسات تفصيلية لبلاغة عبد القاهر ص ٢١٩.

(٢) دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبد القاهر.

فإن عكس هذه التشبيهات - إن وجد- فإنما يكون على سبيل التخييل والادعاء، لا على سبيل الحقيقة والواقع.

وبعد أن حدثناك عن أركان التشبيه، وما يتعلق بها، يجمل بنا أن نحدثك عن أقسام التشبيه.

أقسام التشبيه

أقسام التشبيه عند المبرد:

لعل أول من فصل القول في التشبيه (أبو العباس المبرد) في كتابه (الكامل) فقسمه إلى أربعة أقسام:

(١) (التشبيه المُفْرَط: وهو التشبيه المبالغ فيه أو المبالغ في الصفة التي تجمع بين المشبه والمشبه به. كقول الخنساء في أخيها صخر^(١)):

وَإِنَّ صَخْرًا لَتَأْتُمُّ الْهُدَاةُ بِهِ كَأَنَّهُ عَلِمَ فِي رَأْسِهِ نَارُ
فجعلت المهتدي يأتّم به وجعلته كنار في رأس علم، والعلم الجبل،... ومن تشبيه المحدثين المستطرف قول بشار^(٢) واصفاً قلبه إذا ذكرت محبوبته

كَأَنَّ فُؤَادَهُ كُورَةٌ تَنْزَى حِذَارَ الْبَيْنِ إِنْ نَفَعَ الْحِذَارُ
يُرْوَعُهُ السَّرَارُ بِكُلِّ أَمْرٍ مَخَافَةَ أَنْ يَكُونَ بِهِ السَّرَارُ^(٣)

وقال الحسن بن هانئ^(٤) في صفة الخمر:

فَإِذَا مَا اجْتَلَيْتَهَا فَهَبَاءٌ يَمْنَعُ الْكَفَّ مَا يُبِيحُ الْعُيُونَا^(٥)
أَكَلَ الدَّهْرُ مَا تَجَسَّم مِنْهَا وَتَبَقَّى لُبَابُهَا الْمَكْنُونَا^(٦)
فَهِيَ بِكَرِّكَائِهَا كُلُّ شَيْءٍ يَتَمَنَّى مُخَيَّرُ أَنْ يَكُونَا^(٧)

(١) ديوانها ص ٣٨٦

(٢) ديوانه ٢٢٤/٣.

(٣) تتزى - بحذف إحدى التائين - تتوثب، السرار بفتح السين وكسرهما: وهو مغيب القمر آخر ليلة من الشهر، يقول: محاق القمر روعني فكلما رأيت شيئاً خفت أن يحل به ذلك المحاق، والمعنى: أنه من شدة الحذر يحسب كل متساررين يتسارران في شأنه.

(٤) وهو أبو نواس، ديوانه ص ٥٣٨.

(٥) يقول إنك تراها بعينك لكنك لا تلمسها لأنها هباء.

(٦) أي أنها برئت على الزمن ولم يبق إلا روحها المستور.

(٧) أي أنها تجسد كل ما يريده المرء ويتمناه.

فِي كُؤُسٍ كَأَنَّهُنَّ نُجُومٌ جَارِيَاتٌ، بُرُوجُهَا أَيْدِينَا^(١)
 طَالَعَاتٍ مَعَ السُّقَاةِ عَلَيْنَا^(٢) فَإِذَا مَا غَرَبْنَ يَغْرُبْنَ فِينَا^(٣)
 فهذه قطعة من التشبيه غاية على سخف كلام المحدثين^(٣).

(٢) التشبيه المصيب: ويعني به ما خلا من المبالغة، واخرج الأغمض إلى الأوضح.

قال امرؤ القيس في طول الليل^(٤):

كَأَنَّ الثُّرَيَّا عُلِقَتْ فِي مَصَامِهَا بِأُمْرَاسٍ كَثَّانٍ إِلَى صُمٍّ جَنْدَلٍ^(٥)
 فهذا في ثبات الليل وأقامته، والمصام المقام، وقيل للممسك عن الطعام صائم لثباته على ذلك، ويقال صام النهار إذا قامت الشمس.

وقال في ثبات الليل^(٦):

فَيَا لَكَ مِنْ لَيْلٍ كَأَنَّ نُجُومَهُ بِكُلِّ مَغَارٍ الْفَتْلُ شُدَّتْ يَذْبُلُ^(٧)
 المغار الشديد الفتل، يقال أغرت الحبل إذا شددت فتله، ويذبل جبل بعينه^(٧).

وقال أيضاً^(٨):

كَأَنَّ أَبَانًا فِي أَفَانِينَ وَدَقِيقِهِ كَبِيرٌ أَنْاسٍ فِي بَجَادٍ مُزْمَلٍ^(٩)

(١) يَقْرِنُ كُؤُسَ الْخَمْرَةِ بَيْنَ أَيْدِي النَّدَامَى بِالنُّجُومِ الْجَارِيَاتِ.

(٢) أَيِ الْكُؤُسِ تَغْرُبُ فِي أَجْوَافِهِمْ.

(٣) الْكَامِلُ ١٧١/٦.

(٤) دِيَوَانُهُ ص ١٩.

(٥) الْمَصَامُ: الْمَقَامُ وَزَنْأٌ وَمَعْنَى، يَرِيدُ فِي مَكَانِهَا الَّذِي قَامَتْ وَثَبَّتْ فِيهِ، وَكَذَلِكَ مَصَامُ الْفَرَسِ وَمَصَامَتُهُ: الْمَكَانُ الَّذِي تَرْتَبِطُ فِيهِ، أَمْرَاسٍ: جَمْعُ مَرَسٍ وَهُوَ الْحَبْلُ، صُمٌّ جَنْدَلٌ: حَجَارَةٌ صَمَاءٌ غَيْرُ مُتَخَلِّطَةٍ وَهِيَ الَّتِي تَكُونُ فِي مَجْرَى النَّهْرِ، الْجَنْدَلُ: مَكَانٌ فِي مَجْرَى النَّهْرِ فِيهِ حَجَارَةٌ يَشْتَدُّ عِنْدَهَا جَرِيَانُ النَّهْرِ.

(٦) دِيَوَانُهُ ص ١٩.

(٧) ذَكَرَ يَاقُوتُ أَنَّهُ جَبَلٌ فِي طَرِيقِ نَجْدٍ.

(٨) دِيَوَانُهُ ص ٢٥.

(٩) أَبَانٌ: جَبَلٌ، وَهَمَا أَبَانَانِ، أَبَانُ الْأَسْوَدِ وَأَبَانُ الْأَبْيَضِ - ذَكَرَ يَاقُوتُ أَنَّ أَبَانَ الْأَسْوَدَ لِبْنِي فِزَارَةَ خَاصَّةً، وَأَبَانَ الْأَبْيَضَ لِبْنِي عَبَسَ وَبَيْنَهُمَا مِيلَانٌ وَكِلَاهُمَا مُحَدَّدُ الرَّأْسِ كَالسِّنَانِ - الْوَدْقُ: الْمَطَرُ، الْأَفَانِينُ: الضَّرْبُوبُ وَالْأَنْوَاعُ، بِجَادٍ: كَسَاءٌ مُخَطَّطٌ: (شَبَّهَ الْجَبَلَ وَقَدْ عَمَهُ الْمَطَرُ وَالْخَصْبُ بِالشَّيْخِ الضَّعِيفِ الْمَقْفُوفِ فِي بَجَادٍ وَخَصَّ الشَّيْخَ لِأَنَّهُ مُتَلَفَعٌ أَبَدًا مُتَزَمِّلٌ فِي ثِيَابِهِ).

(٣) التشبيه المقارب: كقول ذي الرمة^(١):

وَرَمَلٍ كَأَوْرَاكِ الْعَدَارَى^(٢) قَطَعْتُهُ
وَقَدْ جَلَّلْنَاهُ الْمُظْلِمَاتِ الْحَنَادِسُ
الحندس: اشتداد الظلمة، وهو توكيد لها، يقال ليل حندسٌ وليلٌ أليلٌ مظلمٌ...

ومن التشبيه الحسن قول الشاعر (وهو الشماخ)^(٣):

كَأَنَّ الْمَثْنَ وَالشَّرْحَيْنِ مِنْهُ
خِلَافَ النُّصْلِ سَيْطٌ^(٤) بِهِ مَشِيحٌ
يريد سهماً رمي به فانفذ الرمية وقد اتصل به دمها، والمتن: متن السهم^(٥) وشرخٌ كلُّ شيءٍ حدٌ، فأراد شرخِي الفوق^(٦) وهما حرفاه، والمشيحُ، اختلاط الدم بالنطفة^(٧).

(٤) التشبيه البعيد: وهو الذي لا يقوم بنفسه أى يحتاج إلى تفسير فكقول الشاعر^(٨):

بَلْ لَوْ رَأَيْتَنِي أَخْتُ جِرَانِنَا
إِذْ أَنَا فِي الدَّارِ كَأَنِّي حِمَارٌ
فإنما أراد الصحة فهذا بعيد لأن السامع انما يستدل عليه بغيره وقال الله عز وجل
وهذا البين الواضح (كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا)^[الجمعة ٥]، والسفر: الكتاب، وقال: (مثلُ
الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار) في أنهم قد تعاملوا عنها، وأضربوا عن
حدودها وأمرها ونهيها حتى صاروا كالحمار الذي يحمل الكتب ولا يعلم ما فيها)^(٩).

نلاحظ مما سبق أن المبرد قسم التشبيه من حيث الواقع والحقيقة، وذلك لأنه لغوي،
ونظرة اللغويين تختلف عن نظرة البيانين، فاللغويون يتعاملون مع واقع الكلمات بقطع النظر
عما لها من ظلال وارقة، وإحاءات بديعة، ويذكرنا صنيعهم بهذا التشبيه الذي ذكره عبد

(١) ديوانه ص ٢٥٦.

(٢) أخرجه مخرج المبالغة، جعل أوراك العداري مشبهاً به والمألوف تشبيهها بالرمل، والأوراك: جمع ورك وهي مؤنثة: ما فوق الفخذ كالكتف للعضد.

(٣) ذكر في رغبة الأمل أن هذا البيت لزهير بن حرام الهذلي وليس للشماخ

(٤) سيط به: خلط به، والمشيح هنا الدم. (٥) متن السهم وسطه أو ما دون الريش إلى وسطه.

(٦) الفوق من السهم: حيث يثبت الوتر منه (٧) الكامل ١٠١٦/٢. رغبة الأمل شرح الكامل ١٠/٧

(٨) روي هذا البيت عن بندار - الكامل ١٣٦/٢. (٩) رغبة الأمل شرح الكامل ٣٧/٧.

القاهر وفضله واستحسنه وإن كان بعض اللغويين وجد فيه افراطاً فقد ذكر الزجاج في أماليه عن ثعلب، قال: كنا عند ابن الاعرابي فأنشد قول جرير^(١):

وَيَوْمَ كَابِهَامِ الْقَطَاةِ مُزَيَّنٍ إِلَيَّ صِبَاهُ، غَالِبٍ لِي بَاطِلُهُ
رُزِقْنَا بِهِ الصَّيْدَ الْغَزِيرَ وَلَمْ نَكُنْ كَمَنْ نَبَلُهُ مَخْرُومَةً وَحَبَائِلُهُ
وَذَلِكَ يَوْمٌ خَيْرُهُ دُونَ شَرِّهِ تَغَيَّبَ وَأَشْيَيْهِ، وَأَقْصَرَ عَاذِلُهُ

فعجبنا من تشبيهه قِصَرَ اليوم بإبهام القطاة، فقال ابن الاعرابي: أحسن من قول الآخر:

وَيَوْمَ عِنْدَ بَابِ أَبِي نَعِيمٍ قَصِيرٍ مِثْلَ سَالِفَةِ^(٢) الدُّبَابِ

قال الزجاج: «وهذا نهاية الافراط والخروج عن حدود التشبيه المصيب» فانظر حكم الزجاج، وحكم الشيخ، فالشيخ نظر إلى طرافة التشبيه فاستحسنه، والزجاج نظر إلى غلوه فلم يستصوبه.

أقسام التشبيه عند الرماني:

ثم جاء الرماني، فبعد أن عرف التشبيه بقوله: «هو العقد على أن أحد الشئين يسدّ مسدّ الآخر في حسّ أو عقل» قسمه إلى تشبيه: حسي ونفسي، ثم قال - وهذا الذي يعيننا -: «والتشبيه البليغ اخراج الأغراض إلى الأظهر باداة التشبيه مع حسن التأليف. وهذا الباب يتفاضل فيه الشعراء وتظهر فيه بلاغة البلغاء، وذلك أنه يكسب الكلام بياناً عجيباً، وهو على طبقات في الحسن كما بيّنا، فبلاغة التشبيه الجمع بين شئين بمعنى يجمعهما يكسب بياناً فيهما والأظهر الذي يقع فيه البيان بالتشبيه على وجوه:

١- منها اخراج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه الحاسة..

٢- ومنها اخراج ما لم تجر به عادة إلى ما جرت به عادة.

٣- ومنها اخراج ما لا يعلم بالبديهة إلى ما يُعلم بالبديهة.

٤- ومنها اخراج ما لا قوة له في الصفة إلى ما له قوة في الصفة.

ثم جاء بالأمثلة على هذه الأقسام من القرآن الكريم، فمن الأول قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيَعٍ يَحْسِبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ سَبِيلاً﴾ [النور

(١) ديوانه ص ٣٨٤، يشبه اليوم بإبهام القطاه لقصره - القطاه: طائرٌ صغير - وكذلك الأيام السعيدة تكون قصيرة، ثم يقول: من حسن ذلك اليوم أنه لم يكن فيه لا واشٍ ولا عاذل.

(٢) السالفة: جانب العنق

[٣٩]، فهذا بيان قد اخرج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه، وقد اجتمعا في بطلان المتوهم مع شدة الحاجة وعظم الفاقة، ولو قيل يحسبه الرائي ماء ثم يظهر أنه على خلاف ما قدر لكان بليغاً، وابلغ منه لفظ القرآن، لأن الظمان أشد حرصاً عليه وتعلق قلبه به، ثم بعد هذه الخيبة حصل على الحساب الذي يصيرُهُ إلى عذاب الأبد في النار - نعوذ بالله من هذه الحال - وتشبيهه اعمال الكفار بالسراب معنى حسن، فكيف إذا تضمن مع ذلك حسن النظم، وعذوبة اللفظ، وكثرة الفائدة، وصحة الدلالة. ومن ذلك قوله تعالى: (مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ) [إبراهيم ١٨]، فهذا بيان قد أخرج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه، فقد اجتمع التشبيه والمشبه به في الهلاك وعدم الانتفاع والعجز عن الاستدراك لما فات، وفي ذلك الحسرة العظيمة والموعظة البليغة....»

«ومن الثاني، قوله تعالى: (وَإِذْ نَفَخْنَا فِي جُودِ الْجَبَلِ فَوْقَهُمْ كَاهِنًا ظُلَّةً) [الاعراف ١٧١]، هذا بيان قد أخرج ما لم تجربه عادة ما جرت به العادة، وقد اجتمعا في معنى الارتفاع في الصورة، وفيه أعظم الآية لمن فكر في مقدرات الله تعالى عند مشاهدته لذلك أو علمه به ليطلب الفوز من قبله ونيل المنافع بطاعته، وقال تعالى: (إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ) [القمر ١٩]، وهذا بيان قد أخرج ما لم تجربه عادة إلى ما قد جرت به، وقد اجتمعا في قلع الريح لهم واهلاكها إياهم، وفي ذلك الآية الدالة على عظيم القدرة والتخويف من تعجيل العقوبة.

ومن الثالث، قوله تعالى: (وَجَنَّةٌ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) [الحديد ٢١]، فهذا تشبيه قد أخرج ما لا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم، وفي ذلك البيان العجيب بما قد تقرر في النفس من الأمور، والتشويق إلى الجنة بحسن الصفة مع ما لها من السعة وقد اجتمعا في العظم، وقال عز وجل: (كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ) [الحاقة ٧]، وهذا تشبيه قد أخرج ما لا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم، وقد اجتمعا في خلو الأجساد من الأرواح وفي ذلك الاحتقار لكل شيء يؤول به الأمر إلى ذلك الحال.

ومن القسم الرابع، قوله تعالى: (وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ) [الرحمن ٢٤]، فهذا تشبيه قد اخرج ما لا قوة له في الصفة إلى ما له قوة، وقد اجتمعا في العظم، إلا أن الجبال اعظم، وفي ذلك العبرة من جهة القدرة فيما سخر من الفلك الجارية مع عظمها، وما

في ذلك من الانتفاع بها وقطع الاقطار البعيدة فيها، وقال تعالى: (خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ) [الرحمن ١٤]، وهذا تشبيه قد أخرج ما لا قوة له في الصفة إلى ما له قوة، وقد اجتمعا في الرخاوة والجفاف وإن كان احدهما بالنار والآخر بالريح»^(١).

ونرى أن تقسيمات الرماني - مع ما فيها من ملحوظات جيدة افاد منها المتأخرون - إلا أنها تقوم على أساس عقلي ولقد كان الجاحظ وهو أسبق من الرماني بالطبع وإن كان يتفق معه في الاعتزال، فإنه قد سجل بعض الملحوظات النفيسة وهو يتحدث عن التشبيه في مثل قول الله تعالى (وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ نَبَأُ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخْ مِنْهَا) [الاعراف ١٧٥]، وقوله (طَلَعَهَا كَأَنَّهَا رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ) [الصافات ٦٥].

ومهما يكن من أمر فإن تقسيمات الرماني للتشبيه بقيت رديحاً من الزمن أساساً يعول عليه من بعده، وهذا أبو هلال العسكري ينهج النهج نفسه، حتى إن بعض الكاتبين - سامحهم الله - نقل كلام العسكري في الصناعتين - وهو نفسه كلام الرماني - وبين الرجلين ما يزيد على قرن ولم يشر إلى الرماني - وهو الأسبق - من قريب أو بعيد^(٢).

وبعد أن استقرت علوم البلاغة على ما هي عليه الآن، كادت هذه التقسيمات تتناسى واستبدلت بتقسيمات أخر جعلت بعض علماء البلاغة أنفسهم يضيقون بها ذرعاً، فهذا العلامة الثاني السعد التفتازاني - رحمه الله - في شرحه المطول على التخليص يذكر أن كثيراً من هذه التقسيمات (التي ذكرها صاحب التلخيص) ليس تحتها طائل فائدة، وسنقتصر على أهم هذه التقسيمات مجملين ما يكفي فيه الإجمال ومفصلين ما تدعو الحاجة لتفصيله، وقد تقدم أن التشبيه له طرفان، وأداة، ووجه، فمن الطبيعي أن نذكر تقسيمات التشبيه أولاً من حيث طرفاه، ثانياً من حيث أدواته، ثالثاً من حيث وجهه.

(١) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن/ النكت في إعجاز القرآن للرماني من ٨٠ - ٨٥.

(٢) انظر علم البيان للدكتور عبد العزيز عتيق.

أولاً: تقسيم التشبيه من حيث طرفاه

١ - طرفا التشبيه قد يكونان مفردين، كتشبيه الحسناء بالشمس، وقد يكونان مقيدين، وقد يكون أحدهما مقيداً والآخر مفرداً، والقيد قد يكون شبه الجملة، وقد يكون حالاً، وقد يكون صفةً، وجعلوا منه المضاف إليه، مع أن المضاف إليه - كما ذكره علماء المعاني - لا يُعدّ من القيود ولا صلة الموصول^(١)، ولعل عذر علماء البيان أنهم لا يتكلمون عن الجملة وأجزائها إنما يتكلمون عن أحد طرفي التشبيه.

فمن الطرفين المقيدين قولهم «الساعي في غير طائل كالراقم^(٢) على الماء»، «عَلِمَ لا ينفع كدواء لا يَنْجَع»، «الطامع في النصر من عدوه كالهارب من الرمضاء إلى النار»، «الكلمة الصعبة المفيدة كالدواء المر»، «الكلمة الطيبة كريح الصبّا»، «الحسناء السيئة كخضراء الدمن»^(٣) «الولد العاق كجمر الغضا»^(٤) «العلم في الصغر كالنقش في الحجر».

هذه التشبيهات إذا نظرت إلى طرفيها المشبه والمشبه به، تجد أن كلا منهما مقيدٌ بقيد، وإذا نظرت إلى هذه القيود في كل من الطرفين تجده تارة شبه جملة، وتارة مضافاً إليه كما في (خضراء الدمن) وتارة صفة.

وقد يكون المشبه مفرداً والمشبه به مقيداً ومنه قوله صلى الله عليه وسلم «الناس كابلٍ مائة لا تجدُ فيها راحلة»^(٥) ومنه قول الخنساء^(٦).

أَغْرُ أَبْلَجُ تَأْتُمُ الْهُدَاةُ بِهِ كَأَنَّهُ عَلِمَ فِي رَأْسِهِ نَارٌ^(٧)
ومنه قولهم: «الثغر كاللؤلؤ المنظوم»، وقد يكون الأمر على العكس من ذلك كقولهم: «العين الزرقاء كالسهام»، و «الشعر الأسود كالليل».

(١) راجع تقسيم الجملة في الجزء الأول.

(٢) الراقم على الماء: أي الذي يكتب على الماء.

(٣) خضراء الدمن: النبات يرى له نضارة وهو منقن الأصل وبيء المرعى، ينبت في الأرض النتنة، ويروى هذا عن الرسول صلى الله عليه وسلم وهو ضعيف.

(٤) الغضا: شجرٌ من الاثل، خشبه من أصلب أنواع الخشب وجمره يمكث طويلاً لا ينطفئ، ووجه الشبه ظاهر؛ فكما أن جمر الغضا يظل مشتعلاً فكذلك عقوق الولد لوالديه يصعب أن تنطفئ حرقته في قلوبهما.

(٥) اخبره البخاري - كتاب الرقائق - باب ٣٥: رفع الامانة، ومسلم - كتاب فضائل الصحابة - باب قوله صلى الله عليه وسلم «الناس كابل مائة».

(٦) ديوانها ص ٢٨٦، وهناك رواية أخرى (وإن صخرأ لتأتم الهداة به).

(٧) جعل صاحب جواهر البلاغة - الاساذ أحمد الهاشمي رحمه الله - المشبه به هنا من قسم المركب، وما نظنُّ الأمر كذلك بل هو من المقيد؛ لأن المركب هيئةٌ من شيئين أو أكثر كما ستعرفه فيما بعد وليس الذي معنا هنا من هذا القبيل.

ولا بد من أن ننبه على أمر: وهو أن التشبيه المقيد - سواء كان القيد في أحد طرفيه أم في كليهما - إنما هو الذي يكون القيد فيه ذا صلة بوجه الشبه كالأمثلة المتقدمة، فإنك إذا رجعت إليها فستجد أن القيد في كل واحد منها له صلة وثيقة بوجه الشبه، أما إذا كان القيد ليس كذلك - أي لا صلة له بوجه الشبه - فإن التشبيه يعد مفرداً لا مقيداً، فإذا قلت: «رأيت فتاة ذات عفة وحياء كالشمس»، فإن هذا التشبيه لا يعد مقيداً على الرغم من أن المشبه - وهو (فتاة ذات عفة وحياء) - مقيد لكن قيده هذا ليس له صلة بوجه الشبه من قريب أو بعيد، فليس كقولنا: «العلم في الصغر كالنقش في الحجر» أو «الساعي في غير طائل كالراقم على الماء»، فإن كل قيد في هذين التشبيهين له صلة بوجه الشبه في كل منهما، كذلك قولك: «خالدٌ يخفض جناحه للناس كالبحر»، فإن هذا التشبيه ليس مقيداً؛ لأن وجه الشبه هو الكرم والجود، وخفض الجناح للناس إنما يدل على خلقٍ آخر.

٢ - وقد يكونان متعددين كلاهما أو أحدهما، ولهذا صور كثيرة:

- أ- فقد يكون المشبه واحداً ولكن المشبه به متعدد.
- ب- قد يكون المشبه متعدداً والمشبه به واحد.
- ج- قد يكون في الكلام أكثر من تشبيه إلا أنه يؤتى بالمشبهات أولاً ثم يؤتى بالاشياء المشبه بها ليقابل كل واحد بما يناسبه.
- د- قد يكون في الكلام أكثر من تشبيه كذلك إلا أنه يذكر مع كل مشبه المشبه به وإليك البيان:

(د-١) استمع إلى قول الشاعر أبي بكر محمد الخالدي^(١).

يَا شَبِيهَ الْبَدْرِ حُسْنًا	وَضِيَاءَ وَمَنًا
وَشَبِيهَ الْغُصْنِ لِينًا	وَقَوَامًا
أَنْتَ مِثْلُ الْوَرْدِ لَوْنًا	وَنَسِيمًا
زَارِنًا حَتَّى إِذَا مَا	سَرْنًا بِالْقُرْبِ زَالًا

تجد أن المشبه واحد، ولكن المشبه به متعدد، فقد شبه المحبوب أولاً بالبدر، وثانياً بالغصن، واستمع إلى قول الآخر:

(١) البيتة ٢/٢٢٦.

(٢) الملل: قصر الإقامة، وفي مثل هذا المعنى يقول الشاعر:

لَا يَكُنْ عَهْدُكَ وَرْدًا إِنَّ عَهْدِي لَكَ أَسْ

فالمعروف أن الورد لا يدوم طويلاً بعكس الآس: وهو نبات معروف يبقى مدة طويلة قبل أن يذبل وينوي.

مَرَّتْ بِنَا رَأْدُ^(١) الضُّحَى

تَحْكِي الْغَزَالََةَ وَالْغَزَالَ

وقول البحري^(٢):

كَأَنَّمَا يَبْسُمُ عَنْ لَوْلُو

مُنْضُدٍ أَوْ بَرْدٍ أَوْ أَقْاح

وكقوله^(٣):

ذَاتِ حُسْنٍ لَوْ اسْتَزَادَتْ مِنَ الْحُسْنِ

إِلَيْهِ لَمَا أَصَابَتْ مَزِيداً

فَهِيَ كَالشَّمْسِ بِهَجَةٍ وَالْقَضِيبِ

اللِّدْنِ قَدْراً وَالرِّيمِ طَرْفاً وَجَيْداً^(٤)

واستمع إلى قوله سبحانه: (كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ) [الرحمن ٥٨]،

وتأمل في هذه جميعاً، فإنك تجد المشبه واحداً، ولكن المشبه به متعدد. واستمع إلى قول

أمير الشعراء^(٥):

لَمَا خَطَرْتَ بِهِ التَّفُّوا بِسَيِّدِهِمْ

كَالشُّهْبِ بِالْبَدْرِ أَوْ كَالْجُنْدِ بِالْعَلَمِ^(٦)

ومن هذا قول الشاعر:

أَنْتَ كَاللَّيْثِ فِي الشَّجَاعَةِ وَالْإِقْدَامِ

وَالسَّيْفِ فِي قِرَاعِ الْخُطُوبِ

ويسمى هذا النوع من التشبيه (الجمع): لأن المتكلم جمع مشبهات بها متعددة لمشبه واحد، وتأتي بلاغة هذا التشبيه من أن المتكلم أرشد إلى معان كثيرة في المشبه وصفات متعددة، فجعل لكل معنى ولكل صفة مشبهاً به يعتمد عليه، انظر إلى البيت المتقدم وهو قوله:

ذَاتِ حُسْنٍ لَوْ اسْتَزَادَتْ مِنَ الْحُسْنِ

إِلَيْهِ لَمَا أَصَابَتْ مَزِيداً

فقد نظر إلى المرأة من حيث الوضاعة فشبهها بالشمس، ومن حيث القدر فشبهها

(١) رَأْدُ الضُّحَى: وقت انبساط شمسهِ وارتفاع نهارهِ.

(٢) ديوانه ٢٣٦/١.

(٣) ديوانه ٢٠٦/١.

(٤) اللدن: اللين الناعم، القدر: القامة.

(٥) الشوقيات ١٩٨/١ - قصيدة (نهج البردة).

(٦) يقول: لما مررت بالمسجد الأقصى التفأ حولك الرسل والملائكة كما تلتف الشهب حول البدر أو الجند حول

بالقضب، ومن حيث الجيد والطرف فشبهها بالريم.

(د-٢) وهذا عكس سابقه: المشبه متعدد والمشبّه به واحد، ونمثّل له بقول الشاعر:

صَدْعُ الْحَبِيبِ وَحَالِي كِلَاهُمَا كَالْيَالِي
وَتَغْرُهُ فِي صَفَاءٍ وَأَذْمُوعِي كَاللَّالِي

فالمشبّه متعدد، فقد شبه شعر الحبيب وحظه، بالليل في السواد، فأما تشبيه الشعر بالليل فللسواد في كليهما، وأما تشبيه حظه بالليل، فلأنه لم ينعم بوصال حبيبه، وفي البيت الثاني مشبهان، الأول: ثغر الحبيب، والثاني: دموع الشاعر، والمشبّه به واحد وهي اللالي.

ويسمى هذا النوع التسوية، لأنه سوى بين المشبهات بحيث جعل لها مشبهاً به واحداً، وهذا - بالطبع - أقل بلاغة من سابقه، وننبهك هنا على أنه لا بد من مناسبة بين كلا المشبهين، فهم قد شبهوا الرمش بالسهم، وشبهوا الكلمة تخرج من صاحبها بالسهم، فلو أنك قلت «الرمش والكلمة كالسهم» لم يكن له في النفس لطف وقبول، كاللطف الذي وجدته في البيتين السابقين.

لا بد إذن من جامع، فلو قلت: «أخلاق فلانة وأعطافها كالمسك وكلامها وريقها كالشهد»، كان ذلك مما تناس به نفسك، كما إذا قلت: «عزمه ولسانه كالسيف»، «وشعره ووجهه كالصبح» - تعني به الشيب -، و«التفاحة والبرتقالة كالعسل»، و«فلان وفلانة كالثعلب»، كان مقبولاً كذلك، وفائدة هذا القسم الاختصار والايجاز.

(د-٣) أن تذكر المشبهات على حدة، ثم تذكر الأشياء المشبه بها على حدة - كذلك - ويمثلون له ببيت امرئ القيس^(١):

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابِسًا لَدَى وَكْرَهَا الْعُنَابُ وَالْحَشَفُ الْبَالِي^(٢)

ففي الشطر الأول ذكر مشبهين: الأول قلوب الطير وهي رطبة، والثاني قلوبها وهي يابسة، وذكر في الشطر الثاني المشبه به لكل من هذين، فالقلوب الرطبة شبهها بالعناب، والقلوب اليابسة شبهها بالحشف البالي، ومثّل هذا قول ابن المعتز^(٣):

لَيْلٌ وَيَدْرُ وَغُصْنٌ شَفَرٌ وَوَجْهٌ وَقَدْ
خَسَمٌ وَدُرٌّ وَوَرْدٌ رِيْقٌ وَتَغْرٌ وَخَدٌ

(١) (دلائل الإعجاز ص ٢٨٥، المطول ٢٣٨)، ديوانه ص ٢٨.

(٢) الوكر: العش، والحشف: الثمر الرديء لا نوى له، والعناب: شجر أحمر لين الأغصان.

(٣) العمدة ٢٩٢/١.

ففي البيت الأول جمع بين مشبهات عدة وذلك في الشطر الأول ثم ذكر المشبه به - لكل منها - في الشطر الثاني، فالليل في الشطر الأول المشبه، والشعر مشبه به، وكذلك البدر مشبه والوجه مشبه به، كذلك الغصن مشبه والقدر مشبه به، وفي البيت الثاني كذلك؛ فالخمر مشبه والريق مشبه به، كذلك الدر والثغر والورد والحد.

ومثل هذا قوله:

تَبَسُّمٌ وَقُطُوبٌ فِي نَدَىٍّ وَوَغَىٍّ كَأَلْغَيْثٍ وَأَلْبَرْقٍ تَحْتَ الْعَارِضِ الْبَرْدِ

ففي الشطر الأول مشبهان، الأول: تبسم الممدوح وذلك في نداء وكرمه والثاني: تقطب وجهه في الوغى والحرب، وذكر في الشطر الثاني المشبه به لكل من هذين وهما الغيث والبرق، ويعنون به ما يكون من لمعان السيف في شدة الوغى، ويسمون هذا النوع (ملفوفاً) لأنه لف المشبهات معاً، والأشياء المشبه بها كذلك.

(د-٤) أن يذكر عدة تشبيهات ولكن كل تشبيه على حده لا يتداخل مع غيره.

كقول محمد بن لنك:

الْحَدُّ وَرَدُّ وَالْعِذَارُ^(١) رِيَاضُ وَالطَّرْفُ لَيْلٌ وَالْبَيَاضُ نَهَارُ

ففي البيت أربعة تشبيهات ولكنها مذكورة كل على حدة، ومن هذا القبيل قول المرقش الأكبر^(٢):

النَّشْرُ مِسْكٌ وَالْوُجُوهُ دَنَّا نِيرٌ وَأَطْرَافُ الْأَكُفِّ عَنَّا

ومن هذا القبيل قول الشاعر:

إِنَّمَا النَّفْسُ كَالزَّجَاجَةِ وَالْعِلْمُ سِرَاجٌ وَحِكْمَةُ اللَّهِ زَيْتُ
فَإِذَا أَشْرَقَتْ فَإِنَّكَ حَيٌّ وَإِذَا أَظْلَمَتْ فَإِنَّكَ مَيِّتُ

فقد شبه النفس بالزجاجة والعلم بالسراج، وحكمة الله بالزيت.

وسموا هذا (مفروقاً) لأنه فرّق بين التشبيهات فجاء كل مستقلاً عن صاحبه. وأظنك تدرك مما تقدم أن أبرز ميزة لهذه الأقسام الأيجاز، وما نظن أن وراءها أغراضاً بيانية ذات خطر وشأن.

(١) العذار: هو عارض الوجه أو جانب اللحية.

(٢) المفضليات ١٩/٢، القصيدة رقم ٥٤، الصناعتين ص ١٨٩، النشر: الريح الطيبة، العنم: نبات أملس دائم الخضرة، يتخذ من أزهاره خضاب.

ثالثاً: قد يكون الطرفان مركبين، وقد يكون أحدهما مركباً والآخر مفرداً، ولعلك يجول في خاطرك وتتسأل عن الفرق بين المركب والمتعدد، والأمر يسير سهل، فلقد رأيت حينما حدثناك عن المتعدد أنه يمكن فصل أجزائه بعضها عن بعض وانما جمع بين المتعددات للايجاز والاختصار، أما المركب فليس كذلك، إذ لا يمكن الفصل بين أجزائه، ولو انك فصلت بينها لاختل المعنى، وزال رونقه، ويطل القصد الذي أراده المتكلم.

تأمل قول القاضي التنوخي^(١):

كَأَنَّمَا الْمَرِيخُ وَالْمُشْتَرِي قُدَّامَهُ فِي شَامِخِ الرَّفْعَةِ
مُنْصَرِفٌ بِاللَّيْلِ عَنْ دَعْوَةٍ قَدْ أُسْرِجَتْ قُدَّامَهُ شَمْعَةٌ

فكّر في هذا التشبيه، ترى أن الشاعر يشبه حال المريخ والمشتري يسير أمامه في رفعة وعلوً برجل يسير في جنح الليل وقد انصرف من دعوة بعد أن انفض المجلس وأسرجت أمامه شمعة، المشبه - إذن - المَرِيخُ والمشتري أمامه، والمشبه به المنصرف من الدعوة وقد أسرجت أمامه شمعة، وأنت تجد هنا أن كلاً من المشبه والمشبه به مركبان، حاول الآن في نفسك أن تفحص هذا التركيب وتفصل أجزائه بعضها عن بعض، ستجد أن هذه المحاولات - مهما كثرت - لا تجديك شيئاً، بل تذهب هباءً، فلو أردت أن تشبه المريخ بمنصرف من الدعوة، وأن تشبه المشتري بالشمعة، إذن لذهب رونق المعنى، وفسد الذوق البياني، وأظلمت صورته الرائعة البديعة، وتذكر أن هذا يختلف كل الاختلاف عن بيت امرئ القيس المتقدم.

*** كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابِسًا ***

إذ يمكنك هناك أن تفصل بين التشبيهات، فتقول كأن قلوب الطير الرطبة العُتَاب، وكأن قلوبها اليابسة الحشف البالي، ولكن الهدف من الجمع بينهما الإيجاز والاختصار - كما قلنا من قبل - أما هنا فالأمر يختلف كل الاختلاف، إذ لا يمكننا أن نشبه المشتري بالشمعة، والمريخ بالمنصرف عن الدعوة كما عرفت.

وانظر إلى قول ابن المعتز^(٢):

كَأَنَّهُ وَكَأَنَّ الْكَأْسَ فِي فَمِهِ هِلَالٌ أَوَّلَ شَهْرِ غَابَ فِي شَفَقِ
وَيَرَوِي هَذَا الْبَيْتَ:

كَأَنَّهُ وَكَأَنَّ الْكَأْسَ فِي يَدِهِ هِلَالٌ تَمَّ وَنَجَّمَ غَابَ فِي شَفَقِ

(١) اليتيمة ٢/ ٢١٠، نهاية الأرب ٧/ ٤٢.

(٢) ديوانه ٣/ ١٦٢، ديوان المعاني ١/ ٣٠٧.

فالشاعر يريد أن يشبه الكأس - وقد غاب جزء منها بين شفتي شاربها - بصورة الهلال الذي غاب في الشفق، حاول أن تفرق اجزاء هذا التشبيه - كما حاولت في سابقه - ستجد النتيجة واحدة، فلا معنى لتشبيه الكأس بالهلال والشفة بالشفق لأن ذلك غير مستقيم وتفسد به الصورة التي أرادها الشاعر.

واستمع إلى قول بشار^(١):

كَأَنَّ مُثَارَ النَّقَمِ فَوْقَ رُؤُوسِنَا وَاسِيَّافَنَا لَيْلُ تَهَاوَى كَوَاكِبُهُ

فالشاعر يريد أن يشبه ساحة الوغى، ما فيها من غبار كثيف، والأسياف ذات اللمعان والبريق، وهي تتساقط في هذا الغبار الكثيف، يشبه هذه الصورة بالليل المظلم الذي تتهاوى فيه الكواكب، ولو أردت أن تفصل بين اجزاء هذا التشبيه وتفرق بعضها عن بعض فتشبه مثار الغبار بالليل، وتشبه الأسياف بالكواكب، كلاً على حدة، أذهبت جمال الصورة، وروقتها وبهاءها.

أظنك أدركت الآن وتذوقت الفرق الهائل بين المتعدد والمركب، فالمتعدد يمكن فصل أجزائه بعضها عن بعض، فيمكنك أن تفصل التشبيهات في البيت السابق:

لَيْلٌ وَبَدْرٌ وَغُصْنٌ شَعْرٌ وَوَجْهٌ وَقَدْ

فتقول الليل كالشعر، والبدر كالوجه، والغصن كالقَدْ.

أما المركب فإن الفصل فيه غير ممكن، نعم، قد نجد بعض التشبيهات المركبة يمكن فصل بعضها عن بعض فَنُخَيِّرُ بين أن نعدّها من المركب أو من المتعدد، ولكننا نَحْكُمُ الذوق في ذلك. انظر إلى قول أبي طالب الرقي^(٢):

وَكَأَنَّ أَجْرَامَ النُّجُومِ لَوَامِعاً دُرٌّ نُثْرُنَ عَلَى بَسَاطِ أَزْرَقِ

يشبه أجرام النجوم لوامعاً في السماء بالدرر المنتثرة على بساط أزرق، فأنت ترى أنه من الممكن أن تشبه النجوم بالدرر تشبيهاً على حدة، ثم تشبه السماء ببساط أزرق تشبيهاً آخر، ولكنك لا تجد لهذا من الحسن والرونق والروعة والتأثير ما تجده للتشبيه في حالة تركيبه، فكونه تشبيه صورة بصورة خير من أن تجعله تشبيهيين متعددين.

ونضيف - بعد هذا - أن هناك فرقاً آخر بين التشبيه المتعدد والمركب - غير ما ذكرناه - من امكان الفصل بين اجزائه أو عدم امكانه، هذا الفرق هو: أن الغرض من التشبيه المتعدد

(١) الوساطة ٢٢٧، ديوان المعاني ٦٧/٢.

(٢) اليتيمة / ٢٤٤ ، ٢٤٥.

كان الایجاز والاختصار، أما الغرض من التشبيه المركب - فليس كذلك - إنما هو: جمال الصورة، وقوة التأثير في النفس، وخصوصية خيال المتكلم، وفيه لطف المنشأ، وجليل الغاية، وحلاوة الثمرة.

ثانياً: تقسيم التشبيه من حيث الأداة

ينقسم التشبيه من حيث الأداة إلى مرسل ومؤكد:

فالمرسل ما ذكرت فيه الأداة، كما مر في الأمثلة السابقة.

والمؤكد: ما حذفت منه الأداة كقولنا «العلم نور في الهداية»، و«حمزة أسد في الشجاعة»، ولهذا القسم صورٌ متعددة.

(١) قد يأتي على صورة مبتدأ وخبر كالمثالين السابقين.

(٢) وقد يأتي على صورة المبتدأ والخبر، ويكون الخبر مضافاً، واليك الأمثلة التالية:

يمكنك عند تقدير أداة التشبيه: أن تقدم أحد المتضايفين على الآخر، فإذا قلت: «هو ملجأ المساكين، وحسن الضعفاء، وكعبة القاصدين، وروضة المشتاقين»، فيمكنك أن تقدر الكاف بابقاء الكلام على ما هو عليه، فنقول: «أنت كحسن الضعفاء، وكملاجأ المساكين، وككعبة القاصدين، وكروضة المشتاقين».

وجاز لك - ثانياً - أن تقدم المضاف إليه على الأداة، وهو أحسن من سابقه، وأجمل وقعاً على النفس، فتقول: «أنت للمساكين كالملاجأ، وللضعفاء كالحصن، وللقاصدين كالكعبة، وللمشتاقين كالروضة»، وهنا تكون قد فككت المتضايفين بعضهما عن بعض.

(٣) أن يكون المشبه به مصدراً (مفعولاً مطلقاً) فتقول: «كرُّ كُرِّ الأسد»، «وأقبل أقبال النسيم»، و«دبَّ دبيب المرض» ومنه قوله سبحانه وتعالى: (وَنَرَى الْجِبَالَ تَحْسِبُهَا جَمْدًا وَهِيَ تَمُرُّ مَرًّا السَّحَابِ) [النمل ٨٨]، ومنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «يَنْطَلِقُ أَحَدُكُمْ إِلَى أَخِيهِ يَعْضُهُ عَضِيضَ الْفَحْلِ، ثُمَّ يَأْتِي يَلْتَمِسُ الْعَقْلَ، لَا دِيَّةَ لَكَ»^(١).

(٤) أن يكون المشبه به حالاً «كرُّ حمزة أسداً» و«أقبلت سعاد بداراً».

(٥) أن يكون المشبه به مضافاً، والمشبه مضافاً إليه، تقول: «سبحانك اللهم، وقد أبدعت ليل الشعر، وعاج العنق، ولحظ السهم، وورد الخد، ونرجس العين».

ومن هذا القبيل قول الشاعر:

(١) رواه الإمام أحمد ٢٢٣/٤، ورواه ابن ماجه - كتاب الديات - باب «من عض رجلاً فنزع يده فندر ثناياه» ٨٨٦/٢. والحديث في رجل عض يد أخيه، ف جذب الآخر يده فطرح ثنيته، فأتى الرجل رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلب عقل ثنيته: أي ديتها، فأجابته الرسول بأنه ليس له دية

وَالرَّيْحُ تَغَبَّتْ بِالْفُصُونِ وَقَدْ جَرَى ذَهَبُ الْأَصِيلِ عَلَى لُجَيْنِ الْمَاءِ

والأصل: أصيل كالذهب، وماء كاللجين

وكقول الشريف الرضي^(١):

أُرْسَى النَّسِيمُ بِوَادِيكُمْ وَلَا بَرِحَتْ حَوَامِلُ الْمُزْنِ فِي أَجْدَاتِكُمْ تَضَعُ
وَلَا يَزَالُ جَنِينُ النَّبْتِ تَرْضِعُهُ عَلَى قُبُورِكُمُ الْعَرَّاصَةَ الْهَمْعُ

فالتشبيه في البيت الأول في قوله: «حوامل المزن»، حوامل مضاف والمزن مضاف إليه، والأصل فيه «مزن كالحوامل» فشبه المزن بالحوامل لأن كلا منهما يُرَجَى منه الخير، وفي البيت الثاني تشبيه آخر وهو قوله: «جنين النبات» والأصل «نبت كالجنين».

وقال شوقي^(٢):

جُبَّتِ السَّمَوَاتُ أَوْ مَا فَوْقَهُنَّ بِهِم عَلَى مُنَوَّرَةِ دُرِّيَّةِ اللَّجْمِ^(٣)

واعلم أنهم يفضلون التشبيه المؤكد على التشبيه المرسل لأنه أبلغ؛ فإن حذف الأداة يشعر بقرب اتحاد المشبه بالمشبه به، أما ذكر الأداة، فإنه يذهب من النفس هذا الرونق، بل تشعر بشيء من البعد. وأضف إلى ذلك أنه أوجز - كذلك - مما ذكرت الأداة فيه، ولا تظن أن كل تشبيه مؤكد حذف أدواته يجب أن يكون أبلغ على الدوام مما ذكرت فيه الأداة، فقد يبدع الشاعر في تشبيه ذكرت أدواته ويقصر في تشبيه حذفته منه الأداة.

المعول - إذن - على الصورة التي يبرزها المتكلم، فإذا تساوت صورتان كان المؤكد أبلغ من المرسل.

(١) ديوانه ٦٤٧/٨. العراض: السحاب ذو البرق والرعد، الهمع: السحاب الماطر.

(٢) الشوقيات ١٩٨/١.

(٣) بهم: المراد مررت ببعضهم في السموات، منورة درية اللجم: المراد البراق.

ثالثاً: تقسيم التشبيه من حيث وجه الشبه

ينقسم التشبيه من حيث وجه الشبه:

١- إلى مفصل ومجمل:

فالمفصل ما ذكر فيه وجه الشبه، كقولنا: (هي كاللؤلؤ في الصفاء)، والمجمل ما لم يذكر فيه وجه الشبه، ويمكنك أن تترك على ضوء ما سبق: أن التشبيه إن ذكرت فيه الأداة ووجه الشبه فهو (مرسلٌ مفصلٌ) - «هي كالشمس في الحسن» - وإن ذكرت فيه الأداة وحذف وجه الشبه، فهو (مرسلٌ مجملٌ) - «هي كالشمس» - وإن حذفته منه الأداة وذكر فيه وجه الشبه فهو (مؤكدٌ مفصلٌ) - «هي شمسٌ في الحسن».

أما إن حذفته الأداة ووجه الشبه فهو التشبيه (البليغ) - «هي شمس» و «هو أسد» - ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: «والصلاة نور، والصدقة برهان»^(١)، والصبر ضياء» وإنما كان تشبيهاً بليغاً لأنه حذفته منه الأداة ووجه الشبه، فصار المشبه والمشبه به كالشيء الواحد وفي هذا ما فيه من زيادة الدلالة على اتحاد المشبه والمشبه به.

٢- ينقسم التشبيه من حيث وجه الشبه إلى تمثيل وغير تمثيل:

فالتمثيل ما كان وجه الشبه فيه صورة منتزعة من أشياء متعددة، والتشبيه غير التمثيل ما لم يكن وجه الشبه فيه كذلك، وهذا موضوع حريٌّ بالتفصيل جدير بالتوضيح والتمثيل، فلنعقد له باباً خاصاً، ولنعرض أولاً لما فيه من آراء ثم نبين حقيقته وروعته وموقعه مستمدين العون من الله.

(١) رواه مسلم - كتاب (الطهارة) باب (فضل الوضوء) ٢٠٣/١.

تشبيه التمثيل

لا بد أن نعرض - أولاً - لآراء العلماء وهم يتحدثون عن التشبيه والتمثيل، هل هما شيء واحد؟ وإن لم يكونا كذلك فما هو ضابط الفرق بينهما؟ وبم يختلف كل عن الآخر؟.

فلقد ذهب بعضهم إلى أن التشبيه والتمثيل كليهما شيء واحد، ومن أولئك صاحب المثل السائر، - ابن الأثير - فهو يقرر أن لا فرق بين التشبيه والتمثيل.

ولكن جمهور العلماء على أن التشبيه شيء والتمثيل شيء آخر، وقد اختلف هؤلاء في تحديد الفرق بينهما، وسنقتصر على أقوال ثلاثة نختار بعدها ما نرجحه مبينين سبب هذا الترجيح.

المذهب الأول: مذهب عبد القاهر:

ذهب الشيخ عبد القاهر - رحمه الله تعالى - إلى أن التشبيه أعم من التمثيل، والتمثيل أخص، فكل تمثيل تشبيه وليس كل تشبيه تمثيلاً، ولكنه حينما أراد أن يفرق بينهما نظر إلى وجه الشبه، فوجد أن الشبه تارة يكون عقلياً وتارة يكون حسيّاً، والعقلي قد يكون ظاهراً لا يحتاج إلى تأويل، وقد لا يكون كذلك، بل لا بد فيه من التأويل، هذه أقسام ثلاثة لا بد أن تنتبه لشرحها.

القسم الأول: وهو ما يكون وجه الشبه فيه حسيّاً كالحمرة التي شبه من أجلها الورد بالخدّ، والسواد الذي شبه من أجله الشعر بالليل، والبياض الذي من أجله شبه الماء باللجن، فوجه الشبه في هذه التشبيهات محسوس كما ترى.

القسم الثاني: ما كان وجه الشبه فيه عقلياً لا يحتاج إلى تأويل، الشجاعة ليست من الأمور المحسوسة إنما هي أمر عقلي، وكذلك الجود، وقل مثل هذا عن البخل والجهل والجبن، فإذا قلنا «خالد كالأسد في الشجاعة»، فإن الشجاعة التي هي وجه الشبه موجودة في المشبه والمشبه به دونما حاجة إلى تأويل، فلو لم يكن خالد شجاعاً ما شبه بالأسد، وكذلك قولنا: «هو كحاتم في الجود» فإن الجود موجود في كليهما فلو لم يكن جواداً ما شبه بحاتم. وكذلك إذا قلت: «هو كالغلب في المكر، وكاليهود في الجبن والبخل» فإن وجه الشبه في هذه الأمثلة جميعاً موجود في الأصل الذي هو المشبه به، وهو موجود كذلك في الفرع الذي هو المشبه.

أما القسم الثالث: وهو ما كان وجه الشبه فيه عقلياً لا بدّ فيه التأويل فإليك أمثلته حتى يستبين لك تمام الاستبانة ويظهر لك غاية الظهور:

«كلامك كالعسل في الحلاوة»، «رمسُها كالسيف في الحدة»، «كلامها كالنسيم في الرقة»، «ذكره كالمسك في الطيب»، انظر إلى هذه الأمثلة وتأمل وجه الشبه في كل واحد منها وفكر جيداً فيما بين هذا وبين القسم الذي قبله من فروق.

انظر في المثال الأول: «كلامه كالعسل في الحلاوة» الحلاوة وجه الشبه، ولكن ترى هل الحلاوة في العسل كما هي في الكلام؟ إن الحلاوة وصف حقيقي للعسل أما الكلام فلا يوصف بها إلا بعد ضرب من التأويل، ذلك أن الحلاوة مما تميل إليها النفس ويأنس بها الطبع، فإذا وصف الكلام بها فإنهم لا يريدون الحلاوة ذاتها وإنما يريدون لازمها، وما ينتج عنها من أثر. إن هناك فرقاً كبيراً بين قولنا «خالد كالأسد في الشجاعة» - وهو القسم الثاني الذي ذكرناه لك من قبل - وبين قولنا: «كلامه كالعسل في الحلاوة»، ذلك أن الشجاعة موجودة في طرفي التشبيه كليهما وجوداً حقيقياً، فكما هي موجودة في الأسد فهي كذلك في خالد، إلا أنها أقوى في المشبه به، أما الحلاوة فليست كذلك فوجودها في الأصل وهو المشبه به يختلف تماماً عن وجودها في الفرع وهو المشبه، وجودها في الأصل على سبيل الحقيقة، لكن وجودها في الفرع يحتاج إلى تأويل.

ولولا أن الحلاوة لم توجد في العسل وفيما يشبهه لما استطعنا أن نصف بها الكلام، أما الشجاعة فلو لم توجد في الأسد لأمكن أن يتصف بها خالد وغيره.

وكذلك تقول في الأمثلة الباقية، فالحدّة التي هي وجه الشبه، إنما يوصف بها السيف على الحقيقة ولكن وصف الرمش بها لا بدّ فيه من تأويل إذ المراد ما تقتضيه الحدّة وما ينشأ عنها من التأثير مثلاً، وكذلك الرقة والطيب تقول فيهما ما قلناه في المثالين السابقين، ألا ترى أن الطيب هو وصف على الحقيقة للمسك، ولما جعلناه للمشبه فليس ذلك من باب الحقيقة إنما هو على سبيل التأويل كما قلنا، فمن نتائج الطيب أنه يستريح له الفؤاد.

وهكذا كل ما يشبه هذه الأمثلة مثل «هو كالجبل في العلو» «والجدول في الرقة»، ومنه المثل: «هم كالحلقة المفرغة لا يُدرى أين طرفاها» - وهو مثل يضرب للأكفأ يستوون في الفضل والنبيل - وأصله أن امرأة سئلت عن أولادها أيهم أفضل؟ فقالت هذه المقالة فصارت مثلاً. فوجه الشبه وهو الإحكام موجود على الحقيقة في الحلقة المفرغة وهو المشبه به.

إذا عرفت هذه الأقسام الثلاثة:

- ١- وجه الشبه الحسي.
 - ٢- وجه الشبه العقلي الذي لا يحتاج إلى تأويل وهو ما وجد في المشبه والمشبه به على الحقيقة.
 - ٣- وجه الشبه الذي يحتاج إلى تأويل وهو ما كان وجوده في الأصل (المشبه به) يختلف عن وجوده في الفرع (المشبه). أقول: إذا عرفت هذه الأقسام فأيها الذي يجعله الشيخ من باب التمثيل؟
- إن القسم الأول والثاني يرى الشيخ أنهما ليسا حريين باسم التمثيل، إنما التمثيل هو القسم الثالث فحسب. التمثيل عند الشيخ - إذن - ما كان وجه الشبه فيه عقلياً غير حقيقي، وهو ما يختلف وجوده في المشبه به عن وجوده في المشبه.

التمثيل - إذن - لا يأتي عند الشيخ إذا كان وجه الشبه حسيّاً، مفرداً كان، أم مركباً، أم صورة منتزعة من متعدد، والتمثيل لا يأتي عند الشيخ إذا كان وجه الشبه عقليّاً لا يحتاج إلى تأويل. يقول الشيخ عبد القاهر: «اعلم أن الشئيين إذا شبه أحدهما بالآخر كان ذلك على ضربين:

أحدهما: أن يكون من جهة أمر بيّن لا يحتاج فيه إلى تأويل.
والثاني: أن يكون الشبه محصلاً بضرب من تأويل.

فمثال الأول: تشبيه الشيء بالشيء من جهة الصورة والشكل، نحو أن يشبه الشيء إذا استدار بالكرة في وجهه، وبالطقة في وجه آخر، والتشبيه من جهة اللون كتشبيه الخدّ باللورد، والشعر بالليل، والوجه بالنهار، وتشبيه سقط النار بعين الديك... وهكذا التشبيه من جهة الغريزة والطباع كتشبيه الرجل بالأسد في الشجاعة، والذئب في المكر، والأخلاق كلها تدخل في الغريزة نحو السخاء والكرم واللؤم، وكذلك تشبيه الرجل بالرجل في الشدة والقوة وما يتصل بها.

فالشبه في هذا كله بيّن لا يجري فيه التأويل ولا يفتقر إليه في تحصيله، وأي تأويل يجري في مشابهة الخد للورد في الحمرة؟ وأنت تراها - ها هنا - كما تراها هناك، وكذلك تعلم الشجاعة في الأسد كما تعلمها في الرجل.

ومثال الثاني: وهو الشبه الذي يحصل بضرب من التأويل، كقولك: «هذه حجة كالشمس في الظهور»، فقد شبهت الحجة بالشمس من جهة ظهورها، كما شبّهت فيما مضى الشيء بالشيء من جهة ما أردت من لون أو صورة أو غيرهما، إلا أنك تعلم أن هذا التشبيه لا يتم لك إلا بتأويل وذلك أن تقول: حقيقة ظهور الشمس وغيرها من الأجسام أن لا يكون دونها حجاب ونحوه مما يحول بين العين وبين رؤيتها، ولذلك يظهر الشيء لك ولا يظهر لك إذا كنت من وراء حجاب، أو إذا لم يكن بينك وبينه حجاب.

ثم تقول إن الشبهة نظير الحجاب فيما يدرك بالعقول لأنها تمنع القلب رؤية ما هي شبهة فيه كما يمنع الحجاب العين أن ترى ما هو من ورائه، ولذلك توصف الشبهة بأنها اعترضت دون الذي يروم القلب إدراكه ويصرف فكره للوصول إليه من صحة حكم فسادها، فإذا ارتفعت الشبهة وحصل العلم بمعنى الكلام الذي هو الحجة على صحة ما أدى من الحكم، قيل: هذا ظاهر كالشمس الذي هو الحجة على صحة ما أدى من الحكم، قيل: هذا ظاهر كالشمس، أي ليس ها هنا مانع عن العلم به، ولا للتوقف والشك فيه مساع، إن المنكر له إما مدخول في عقله أو جاحد مباهت ومسرف في العناد كما أن الشمس الطالعة لا يشك فيها نو بصر ولا ينكرها إلا من لا عذر له في إنكارها فقد احتجّت في تحصيل الشبه الذي أثبتّه بين الحجة والشمس إلى مثل هذا التأويل كما ترى...».

ثم يقول: «وإذ قد عرفت الفرق بين الضربين فاعلم أن التشبيه عام والتمثيل أخصُّ منه، فكل تمثيل تشبيه وليس كل تشبيه تمثيلاً، فأنت تقول في قول أبي قيس بن الاسلت:

وَقَدْ لَاحَ فِي الصُّبْحِ الثَّرِيًّا لِمَنْ رَأَى كَعُنُقُودٍ مُلَاحِيَةٍ^(١) حِينَ نَوْرًا
إنه تشبيه حسن ولا تقول هو تمثيل، وكذلك تقول: ابن المعتز حسنُ التشبيهات بديعُها
لأنك تعني تشبيهه المبصرات بعضها ببعض وكل ما لا يوجد التشبيه فيه من طريق التأول
كقوله^(٢):

كَأَنَّ عُيُونَ النَّارِ جَسَدَ الْغَضِّ حَوْلَنَا مَدَاهِنُ دُرٍّ حَشَوُهُنَّ عَقِيقُ
وما كان هذا الجنس ولا تريد نحو قوله^(٣):

إِصْبِرْ عَلَى مَضَضِ الْحَسُودِ فَإِنَّ صَبْرَكَ قَاتِلُهُ
فَالنَّارُ تَأْكُلُ نَفْسَهَا إِنْ لَمْ تَجِدْ مَا تَأْكُلُهُ
وذلك أن احسانه في النوع الأول أكثر وهو به أشهر، وكل ما لا يصح أن يسمى تمثيلاً
فلفظ المثل لا يستعمل فيه أيضاً فلا يقال: ابن المعتز حسن الأمثال تريد به نحو الأبيات التي
قدمتها وإنما يقال صالح بن عبد القدوس كثير الأمثال...

ولكن إن قلت في قول ابن المعتز:

فَالنَّارُ تَأْكُلُ نَفْسَهَا إِنْ لَمْ تَجِدْ مَا تَأْكُلُهُ
إنه تمثيل فمثل الذي قلت ينبغي أن يقال، لأن تشبيه الحسود إذا صبر عليه وسكت عنه
وترك غيظه يتردد فيه بالنار التي لا تُمَدُّ بالخطب حتى ياكل بعضها بعضاً مما حاجته إلى
التأول ظاهرة بينة.

فقد تبين بهذه الجملة وجه الفرق بين التشبيه والتمثيل، وفي تتبع ما اجملت من أمرها
وسلوك طريق التحقيق فيهما ضرب من القول ينشط له من يأسس بالحقائق... وإذا تقررت هذه
الجملة حصل من العلم بها أن التشبيه الحقيقي الأصلي هو الضرب الأول وأن هذا الضرب
فرع له ومرتب عليه^(٤).

(١) ملاحية: عنب أبيض طويل يشبه العنب الزيني في دمشق.

(٢) ديوانه ص ٥١٤.

(٣) ديوانه ص ٥٧٩.

(٤) أسرار البلاغة/ تحقيق محمد عبد العزيز النجار ص ٨٥ - ٩٤.

وإنما أطلت في بيان رأي الشيخ لأنني وجدت بعض الكاتبين يقرر شيئاً آخر غير الذي قرره الشيخ، «ثم يروح يشرح - أي الشيخ عبد القاهر - قوله هذا في اسهاب مفاده أن التشبيه العام هو ما كان وجه الشبه فيه مفرداً، أي صفة أو صفات اشتركت بين شيئين ليس غير، وأن تشبيه التمثيل هو ما كان وجه الشبه فيه صورة مأخوذة أو منتزعة من أشياء متعددة»^(١).

المذهب الثاني: مذهب السكاكي:

اتفق السكاكي مع الشيخ عبد القاهر على أن التشبيه إذا كان وجه الشبه فيه حسياً، سواء كان مفرداً أم صورة لا يسمى تمثيلاً، ولكن على الرغم من هذا الاتفاق فإن السكاكي خالف الشيخ من جهة ثانية، فالشيخ - كما عرفنا من قبل - يرى أن تشبيه التمثيل ما يحتاج وجه الشبه فيه إلى تأول، سواء كان هذا الوجه مفرداً أم صورة منتزعة من متعدد.

تشبيه التمثيل عند الشيخ - إذن - قد يكون وجه الشبه فيه مفرداً، أما السكاكي فذهب إلى أن تشبيه التمثيل لا ينبغي أن يكون وجه الشبه فيه مفرداً بل لا بد أن يكون هيئة منتزعة من متعدد يقول: «واعلم أن التشبيه متى كان وجهه وصفاً غير حقيقي وكان منتزعاً من عدة أمور خص باسم التمثيل كالذي في قوله:

إِصْبِرْ عَلَى مَضَضِ الْحَسُودِ فَإِنْ صَبَرَكَ قَاتِلُهُ
فَالنَّارُ تَأْكُلُ نَفْسَهَا إِنْ لَمْ تَجِدْ مَا تَأْكُلُهُ

فإن تشبيه الحسود المتروك مقاولته بالنار التي لا تمدُّ بالخطب، فيسرع فيها الفناء ليس إلا في أمر متوهم له وهو ما تتوهم إذا لم تأخذ معه في المقابلة مع علمك بتطلبه إياها عسى أن يتوصل بها إلى نفثة المصدر من قيامه إذ ذاك مقام أن تمنعه ما يمد حياته ليسرع فيه

الهلاك وإنه كما ترى منتزع من عدة أمور، وكالذي في قوله^(٢):

وإنَّ مَنْ ادَّبَتْهُ فِي الصَّبَا كَالْعُودِ يُسْقَى الْمَاءَ فِي غَرْسِهِ
حَتَّى تَرَاهُ مُورِقاً نَاضِراً بَعْدَ الَّذِي أَبْصَرْتَ مِنْ يُيْسِهِ

فإن تشبيه المؤدب في صباه بالعود المسقي، أو أن الغرس المؤنق بأوراقه ونضرتة ليس إلا فيما يلزم كونه مهذب الأخلاق، مرضي السيرة، حميد الفعال، لتأدية المطلوب بسبب التأديب المصادف وقته من تمام الميل إليه، وكمال استحسان حاله، وإنه - كما ترى - أمر

(١) علم البيان/ عبد العزيز عتيق ص ٦٢.

(٢) مفتاح العلوم ص ١٤٨.

تصوري لا صفة حقيقية، وهو مع ذلك منتزع من عدة أمور...».

«... وكذا الذي في قوله عز وجل: (مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا

كَمَثَلِ الْحَمَارِ يَحْمِلُ أَثْقَارًا) [الجمعة هـ] فإن وجه الشبه بين أحبار اليهود الذين كُلفوا العمل بما في التوراة ثم لم يعملوا بذلك وبين الحمار الحامل للأسفار وهو حرمان الانتفاع بما هو أبلغ شيء بالانتفاع به مع الكد والتعب في استصحابه وليس بمشبه كونه عائداً إلى التوهم ومركباً من عدة معان»^(١).

المذهب الثالث: مذهب صاحب الايضاح الخطيب القزويني:

جاء الخطيب القزويني فلخص مفتاح السكاكي، ولكنه خالفه في بعض القضايا البلاغية، ومن القضايا التي خالفه فيها قضيتنا التي نتحدث عنها، فهو يرى أن التمثيل لا ينبغي أن يكون وجه الشبه فيه مفرداً - وبهذا يتفق مع السكاكي في مخالفة الشيخ عبد القاهر- ولكنه يرى بعد ذلك أننا لا ينبغي أن نقتصر في التمثيل على وجه الشبه العقلي المركب، فهناك صور حسية بديعة لوجه الشبه حري بها أن يزيّن بها التمثيل.

دائرة التمثيل عند الخطيب - إذن - أوسع منها عند السكاكي، فإذا كان السكاكي يقتصر في التمثيل على كون وجه الشبه صورة عقلية، فإن الخطيب يجعل من التمثيل الصورة الحسية كذلك، وهذا الذي استقرت عليه كلمة البيانين لذا فهو المعتمد المرجح، وإليك بيان ذلك.

توضيح لما سبق:

ولعلك الآن تستطيع أن تفرق بين هذه الآراء الثلاثة، وإليك زيادة بيان لتستقر القضية في نفسك استقراراً تاماً.

(١) «الحجة كالشمس في الظهور»، «النظرة كالسهم نفوذاً»، هذا من التمثيل عند الشيخ؛ لأن وجه الشبه فيه يحتاج إلى تأويل فالظهور في الحقيقة صفة للشمس، والنفوذ صفة للسهم. وليس تمثيلاً عند صاحب المفتاح، ولا عند صاحب التلخيص؛ لأن وجه الشبه فيه مفرد، وهما يشترطان الصورة المنتزعة في وجه الشبه.

(٢) وَقَدْ لَاحَ فِي الصُّبْحِ الثُّرَيَّا لِمَنْ رَأَى
كَعَنُقُودٍ مُلَاحِيَةٍ حِينَ نَوَّرَا

(١) مفتاح العلوم/ لأبي يعقوب السكاكي ص ١٤٨ - ١٤٩.

وقول ابن المعتز^(١):

قَدْ انْقَضَتْ دَوْلَةُ الصِّيَامِ وَقَدْ
بَشَّرَ سُقْمُ الْهَلَالِ بِالْعِيدِ
يَتَلَوُ الثَّرِيَّا كَفَاغِرٍ شَرِّهِ
يَفْتَحُ فَاهُ لِأَكْلٍ عُقُودِ

هذه التشبيهات جميعها ليست بتمثيل عند الشيخ عبد القاهر، ولا عند السكاكي كذلك؛ لأن وجه الشبه فيها حسي، ولكنها تمثيل عند الخطيب، لأن وجه الشبه - وإن كان فيها محسوساً - إلا أنه صورة منتزعة من متعدد.

(٣) قوله سبحانه: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة ٥]، وقول ابن المعتز^(٢):

إِصْبِرْ عَلَى مَضَضِ الْحَسُودِ
فَإِنْ صَبْرَكَ قَاتِلُهُ
فَالنَّارُ تَأْكُلُ نَفْسَهَا
إِنْ لَمْ تَجِدْ مَا تَأْكُلُهُ

الآية الكريمة والبيت تمثيل عندهم جميعاً لأن وجه الشبه فيهما صورة عقلية.

واعلم أن الشيخ حينما تكلم عن التمثيل لم يكن علم البيان قد استقر على ما هو عليه، وكان لا يزال في طور نموه، ولهذا نجد الشيخ تارة يمثل للتمثيل بما عدوه فيما بعد من الاستعارة التمثيلية. وإذا قد عرفت هذا فإن الذي استقر عليه البيانون فيما بعد هو ما ذهب إليه الخطيب من أن تشبيه التمثيل ما كان وجه الشبه فيه صورة منتزعة من متعدد، محسوسة كانت الصورة أم معقولة، ذلك لأن هناك ابداعاً في كثير من الصور الحسية تتفاعل معها النفوس، فتجد فيها ضالتها وبغيتها، وسنقيم لك الشواهد على ذلك بما نذكره لك من أمثلة ونمتك به من كلام مؤثر بليغ وصور خلابة جذابة.

(١) ديوانه ٨٧/٣، الصناعتين ١٩٤.

(٢) ديوانه ٢٧٥/٤، نهاية الأرب ١٠٠/٣.

التشبيه التمثيلي كما استقرت عليه أقوال البيانين

قد قدمنا لك - من قبل - حينما حدثناك عن أقسام التشبيه من حيث طرفاه، بعض الأمثلة عن التشبيه المركب، وهذا سيعينك على فهم التمثيل وتدوقه، راجع تلك الأبيات التي ذكرناها هناك:

كَأَثَمَا الْمَرْيَخُ وَالْمُشْتَرِي	قَدَّأَمَهُ فِي شَامِخِ الرُّقْعَةِ
مُنْصَرِفٌ بِاللَّيْلِ عَنْ دَعْوَةٍ	قَدْ أُسْرِجَتْ قَدَّأَمَهُ شَمْعَةٌ
كَأَنَّهُ وَكَأَنَّ الْكَأْسَ فِي فَمِهِ	هَلَالٌ أَوَّلُ شَهْرٍ غَابَ فِي شَفَقِ
كَأَنَّ مَثَارَ النَّقْعِ فَوْقَ رُؤُوسِنَا	وَأُسَيَافُنَا لَيْلُ تَهَاوَى كَوَاكِبِهِ

وستجد أن هذه التشبيهات جميعاً كان فيها كل من المشبه والمشبه به صورة خاصة، ففي البيت الأول، المشبه (المريخ والمشتري يسير أمامه)، والمشبه به (منصرف من دعوة في جنح الليل يسير وقد أُسْرِجَتْ أمامه شمعة). والمشبه في البيت الثاني: (صورة انسان وسيم وقد دخل بعض الكأس بين شفثيه)، والمشبه به (الهلال وقد غاب في الشفق)، والمشبه في البيت الثالث: - كما عرفت - (مثار النقع في ساحة الوغى والسيوف ذات اللمعان تتساقط فيه)، والمشبه به (الليل المظلم الذي تتهاوى فيه الكواكب).

ووجه الشبه في هذه جميعها صورة منتزعة من أشياء متعددة؛ فوجه الشبه في البيت الأخير صورة اجرام ذات لمعان تتساقط في ظلام حالك، ووجه الشبه في البيت الثاني صورة شيء أبيض غيب في شيء من الحمرة، وفي البيت الأول، صورة جرم كبير يتقدمه شيء مضيء.

واستمع إلى قوله تعالى: (مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا) [الجمعة هـ]، فالمشبه اليهود وقد كلفوا بالتوراة والقيام بما فيها من تكاليف فيها الخير لهم؛ ولكنهم اعرضوا عنها ولم ينتفعوا بها؛ والمشبه به: الحمار يحمل الأسفار الثمينة النفيسة المفيدة، ولكن ليس له منها إلا التعب والاجهاد، ووجه الشبه صورة منتزعة من متعدد: صورة من هيئت له نفائس الأشياء فلم يزد بها إلا تعباً دون أن يحصل على فائدة. استمع إلى قول كثير^(١):

(١) نهاية الأرب ٧٨/١، المطول ٣٢٦، اسرار البلاغة ص ٩٨ تحقيق هـ. ريتو.

لَقَدْ أَطْمَعَنِي بِالْوَصَالِ تَبَسُّمًا وَبَعْدَ رَجَائِي أَعْرَضَتْ وَتَوَلَّتْ
كَمَا أَبْرَقَتْ قَوْمًا عِطَاشًا غَمَامَةً فَلَمَّا رَجَوْهَا أَقْشَعَتْ وَتَجَلَّتْ

فهو كما تراه في شكواه وقد أطمعته محبوبته بالوصال لما رأى من تبسمها وبشاشتها وجهها، ولكنه حينما منى نفسه بالرجاء تركته وأعرضت عنه، فما مثله إلا كمثل قوم عطاش وقد رأوا غمامة في السماء فأيقنوا بالمطر الذي سيذهب ظمأهم، ولكنها سرعان ما انقشعت فما زادهم ذلك إلا تالماً وحسرة، ويمكنك أن تستخرج الصورة التي هي وجه الشبه (صورة من أيقن بالوصول إلى الهدف بعد أن بدت أسبابه ومقدماته ولم يبق بينه وبين ما يريد إلا قيد أنملة فتبددت آماله، وضاعت أمانيه). واستمع إلى قول الشاعر:

دَانٍ إِلَى أَيْدِي الْعَفَاةِ وَشَاسِعٌ عَنْ كُلِّ نَدٍّ فِي النَّدَى وَضَرِيبٌ^(١)
كَالْبَدْرِ أَفْرَطَ فِي الْعُلُوِّ وَضَوُّهُ لِلْعُصْبَةِ السَّارِينَ جِدُّ قَرِيبٍ

فهو يشبه الممدوح وهو قريب إلى سائليه، ينالون من عطاياه، ويسعدون بوجوده؛ ولكنه مع هذا القرب بعيد في منزلته ورفعته وعلو شأنه، يشبهه بالبدر وقد أفرط في العلو ولكن ضوؤه قريب لأولئك السارين في جنح الليل، ووجه الشبه صورة ذلك الشيء القريب من ناحية ولكنه البعيد من ناحية أخرى. ويقول أبو فراس^(٢):

وَالْمَاءُ يَفْصِلُ بَيْنَ رَوْضِ الزَّهْرِ فِي الشَّاطِئِينَ فَصْلاً
كَبِسَاطٍ وَشَيْءٍ جَرَدَتْ أَيْدِي الْقِيُونَ عَلَيْهِ نَصْلاً

يشبه حال ماء الجدول، وهو يجري بين روضتين على شاطئيه حلاهما الزهر البديع ألوانه، منبتاً بين الخضرة الناضرة، بحال سيف لماع لا يزال في بريق حدته وقد جرده القيون على بساط من حرير مطرز، ووجه الشبه وجود بياض مستطيل حوله اخضرار فيه ألوان مختلفة. ويقول ابن المعتز^(٣):

قَدْ انْقَضَتْ نَوْلَةُ الصِّيَامِ وَقَدْ بَشَّرَ سُقْمُ الْهِلَالِ بِالْعِيدِ
يَتَلَوُ الثُّرَيَّا كَفَاغِرٍ شَرِّهِ يَفْتَحُ فَا هُ لَأَكُلَ عَنْقُودِ

(١) الضريب: المثل والنظير، وعطفه على الندّ عطف تفسير، سبق توثيق البيت ص ١٩.

(٢) سبق البيتان ص ٣٩.

(٣) سبق هذا البيت ص ٦٥.

فشبه صورة الهلال والثريا أمامه بصورة شره فاتح فاه لأكل عنقود من العنب،
 ووجه الشبه صورة شيء مقوس يتبع شيئاً آخر مكوناً من أجزاء صغيرة بيضاء. ويقول ابن
 الرومي^(١)

مَا أَنَسَ لَا أَنَسَ خَبَازٌ مَرَرْتُ بِهِ يَدْحُو الرِّقَاقَةَ وَشَكَّ اللَّمَحَ بِالْبَصَرِ
 مَا بَيْنَ رُؤْيَيْهَا فِي كَفِّهِ كُرَّةٌ وَبَيْنَ رُؤْيَيْهَا قَوْوَاءَ كَالْقَمَرِ
 إِلَّا بِمِقْدَارِ مَا تَنَدَّاحُ دَائِرَةٌ فِي صَفْحَةِ الْمَاءِ تَرْمِي فِيهِ بِالْحَجَرِ

يشبه حال عجينة الرقاقة في يد الخباز تكون في أول أمرها كرة صغيرة ثم تنبسط
 وتستدير بسرعة بحال دائرة الماء الناشئة من القاء حجر فيه، تكون في أول أمرها صغيرة ثم
 تنداح سريعاً، ووجه الشبه صورة شيء يبدو في أول أمره صغيراً مستديراً ثم يأخذ في
 الاتساع والانبساط وشيكاً. وقال في الشيب^(٢):

أَوَّلُ بَدْءِ الْمَشِيبِ وَاحِدَةٌ تُشْعِلُ مَا جَاوَرَتْ مِنَ الشَّعْرِ
 مِثْلُ الْحَرِيقِ الْعَظِيمِ تَبْدَأُهُ أَوَّلُ صَوْلِ صَغِيرَةِ الشَّرَرِ

يشبه حال الشيب يبتدئ بشعرة تؤثر فيما جاورها من الشعر الأسود فيشيب
 جميعاً بحال الحريق العظيم تبدؤه شرارة صغيرة، ووجه الشبه صورة شيء يبدو في أول الأمر
 صغيراً ثم لا يلبث أن ينتج أمراً عظيماً خطيراً، وقال أبو تمام في مغنية تغني بالفارسية^(٣):

وَلَمْ أَفْهَمْ مَعَانِيَهَا وَلَكِنْ وَرَتْ كَيْدِي فَلَمْ أَجْهَلْ شَجَاهَا
 فَبِتُ كَأَنَّيْ أَعْمَى مُعْنَى يُجِبُ الْغَانِيَاتِ وَلَا يَرَاهَا

يشبه الشاعر حاله وقد أثار نغم المغنية بالفارسية في نفسه كامن الشوق وهو لا يفهم
 لغتها، بحال الأعمى يهوى الغانيات وهو لا يرى شيئاً من حسنهن، ووجه الشبه صورة قلب
 يتأثر وينفعل بأشياء لا يدركها كل الإدراك.

(١) ديوانه ٢٧٧/٢.

(٢) ديوانه ٢١٠/٢.

(٣) نُسباً لأبي تمام في زهر الأدب ١٦١/١ وفيه قوله - أبي تمام - إنه أخذ هذا المعنى من بشار بن برد في قوله:

يَا قَوْمِ أَذْنِي لِبَعْضِ الْحَيِّ عَاشِقَةٌ وَالْأَذُنُ تَعْشَقُ قَبْلَ الْعَيْنِ أحياناً

ويقول آخر:

قَالُوا لِمَنْ لَا تَرَى تُهْدِي؟ فَقُلْتُ لَهُمْ الْأَذُنُ كَالْعَيْنِ تُوفِي الْقَلْبَ مَا كَانَ

وهما ليسا في ديوان أبي تمام.

ويقول آخر في صديق عاق:

إِنِّي وَإِيَّاكَ كَالصَّادِي^(١) رَأَى نَهْلاً وَدُونَهُ هُوَّةٌ يَخْشَى بِهَا التَّلْفَا
رَأَى بِعَيْنَيْهِ مَاءً عَزْ مَوْرِدُهُ وَلَيْسَ يَمْلِكُ دُونَ الْمَاءِ مُنْصَرَفَا

يشبه الشاعر حاله مع صديقه العاق وقد دعا الوفاء الشاعر إلى الإبقاء على مودة هذا الصديق، ودعاه ما رآه فيه من العقوق إلى قطعه، وهو بين الأمرين حائر ولكنه يصغي أخيراً إلى داعي الوفاء، يشبه حاله مع صديقه بحال عطشان رأى ماء، وتحول بينه وبين الشرب منه هوة يخشى منها الهلاك على نفسه لو دنا منه فوقف حائراً ولكنه لا يستطيع الانصراف عن الماء، ووجه الشبه صورة من يريد شيئاً فتحول العقبات دونه فتدركه الحيرة ولكنه لا ييأس.

ويقول المتنبي في وصف أسد^(٢):

يَطُءُ الثَّرَى مُتَرْفِّقاً مِنْ تِيهِهِ فَكَأَنَّهُ أَسٍ يَجُسُّ عَلَيْهِ

يشبه هيئة الأسد وهو يمشي على الثرى برفق من شدة زهوه بنفسه بهيئة الطبيب الذي يجسُّ المريض برفق، ووجه الشبه صورة شيء يمس شيئاً آخر في رفق وتؤدة.

ومن ذلك قولك: «المتردد في الأمور يجذبه رأي هنا ورأي هناك كريشة في مهب الريح» وقولك: «الكلمة الطيبة لا تثمر في النفوس الخبيثة كالحبة الصالحة لا تنبت في الأرض السبخة» ومنه قولك: «العالم المتواضع لا يزيده تواضعه إلا رفعة وشرفاً كالشعلة إذا نُكِّست زادت اشتعالاً»، «المذنب لا يزيده الصفح إلا تمادياً كاللئيم لا يزيده الاحسان إلا تمرداً».

هذا هو التشبيه التمثيلي يقع من النفس خير موقع، وقد تنافس فيه الشعراء والبلغاء - كما رأيت - .

أما غير التمثيل: فهو ما لم يكن وجه الشبه فيه صورة منتزعة من متعدد، بل يكون وجه الشبه فيه امراً واحداً وربما يكون أكثر من شيء واحد فمثال الأول: قول امرئ القيس^(٣):

وَلَيْلٍ كَمَوْجِ الْبَحْرِ أَرْخَى سُدُولَهُ عَلَيَّ بِأَنْوَاعِ الْهُمُومِ لَيْبَتَلِي

فوجه الشبه هنا الشدة والصعوبة ومثال الثاني:

(١) الصادي: العطشان.

(٢) ديوانه ٤٤٣/٣.

(٣) ديوانه ص ١٠٧.

أَنْتَ نَجْمٌ فِي رِفْعَةٍ وَضِيَاءٍ تَجْتَائِكَ الْعُيُونُ شَرْقاً وَغَرْباً

فوجه الشبه هنا الرفعة والضياء إلا أننا يمكن أن نستغني بأحدهما عن الآخر أو نقدم أحدهما على الآخر وهذا ممتنع في تشبيه التمثيل

التشبيه الضمني؛

ويسمى التشبيه الكنائى.

عرفت صوراً كثيرة للتشبيه - فيما مضى - فتارة يأتي على صورة مبتدأ وخبر، وتارة على صورة المضاف والمضاف إليه، وتارة على صورة مصدر، وأخرى في صورة حال إلى غير ذلك - مما عرفت من قبل -، ولكن هذا النوع من التشبيه لا يأتي على أي صورة من تلك الصور المعروفة، إلا أنك تلمح معناه وأنت تقف تتأمل في البيت من الشعر، أو في الجملة من النثر، لتستخرج التشبيه من بين ثناياهما، من أجل ذلك سمي ضمناً لأنه لا يذكر صراحة في الكلام.

ولا بد من أن ننبهك هنا على قضية ذات شأن وهي أن التشبيه الضمني ليس قسيماً لتشبيه التمثيل أي ليس أحدهما يقابل الآخر^(١)، ذلك لأن النظر في تشبيه التمثيل إلى وجه الشبه، سواء كان التشبيه صريحاً أم غير صريح. أما النظر في التشبيه الضمني فهو من هذه الحثية - أعني كونه غير صريح - وستدرك هذا حينما نشرح لك هذا النوع من التشبيه فتحسن تذوقه وتنجذب نفسك إليه:

يقصد المتكلم إلى هذا الأسلوب من التشبيه حينما يأتي بمعنى من المعاني وقضية من القضايا ثم يرى أن يأتي لها ببرهان ودليل ويقيم عليها الحجة، ولقد فطن الشيخ عبد القاهر - رحمه الله - بصفاء ذهنه، وثاقب فكره، إلى هذا الأسلوب، حيث قسم التمثيل إلى قسمين:

الأول: الذي يجيء أعقاب المعاني.

الثاني: أن يبرز المعنى باختصار في معرضه ويُثقل عن صورته الأصلية إلى صورته.

ومن القسم الأول التشبيه الضمني، صحيح أن القسم الأول لا يشمل التشبيه الضمني وحده - كما توهمه عبارة بعض الكاتبين المحدثين^(٢) - إنما يشمل غيره، فالتشبيه الذي يأتي عقب المعاني نوعان:

أحدهما: التشبيه الضمني.

وثانيهما: كل تشبيه صريح جاء عقب المعنى ومنه البيت الذي تقدم معنا من قبل^(٣):

دَانٍ إِلَى أَيْدِي الْعُقَاةِ وَشَاسِعُ عَنْ كُلِّ نِدٍّ فِي النَّدَى وَضَرِبَ

(١) كالاسم والفعل فكل منهما قسيم للآخر.

(٢) انظر البلاغة والتطبيق.

(٣) تقدم هذا البيت ص ١٩ ، ٦٧.

فلقد تم المعنى في هذا البيت ثم جاء بالتشبيه بعد تمام المعنى وهو قوله:

كَالْبَدْرِ أَقْرَطَ فِي الْعُلُوِّ وَضَوْؤُهُ
لِلْعُصْبَةِ السَّارِيْنَ جِدُّ قَرِيبِ

التشبيه الذي يأتي عقب المعنى - إذن - منه ما هو ضمني ومنه ما هو صريح، والذي يعنينا الآن هو النوع الأول: كل تشبيه ضمني إذن لا بد أن يأتي عقب المعنى أي عقب تمام المعنى الذي يريده المتكلم ليكون بمثابة دليل وبرهان. استمع إلى قول أبي تمام^(١):

وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ نَشْرَ فَضِيلَةٍ
طُوِيَتْ، أَتَا حَ لَهَا لِسَانُ حَسُودِ

وهنا تجد أن المعنى الذي قصده الشاعر قد تم وكمل ولكنه أحس بأن هذا القول يحتاج إلى حجة، فأنى للحسود أن يكون سبباً في انتشار الفضيلة التي طويت وغُيِّبَتْ؟ وكأنما الأمر يحتاج إلى حجة تصدقه فأعقبه بالبيت الآخر:

لَوْلَا إِشْتِعَالُ النَّارِ فِيمَا جَاوَرَتْ
مَا كَانَ يُعْرَفُ طَيْبُ عَرَفِ الْعُودِ

ألا ترى أن الشاعر هنا قد أزال من نفسك كل ما علق فيها من شك، وأزاح عنها كل شبهة، ولم تَرْتَبْ بأن لسان الحسود يكون سبباً في نشر الفضيلة المغيبة، ألا ترى هذه النار التي تاكل الأخضر واليابس أكانت تفوح رائحة العود الزكي ويُعرف الجيد من غيره لولا اشتعال النار في كل ما حوله؟، وأنت تدرك أن هذا التشبيه لم يأت على صورة من الصور التي عرفتتها من قبل، ولكنك تلمح بكل وضوح أن هنا تشبيهاً رائعاً بديعاً لا يقل أثراً في النفس عن التشبيه الصريح، واستمع إلى قول الآخر^(٢):

إِصْبِرْ عَلَى مَضَضِ الْحَسُودِ
فَإِنْ صَبَّرَكَ قَاتِلُهُ

ولا ريب أن المعنى الذي يقصده الشاعر معنى تام ليس فيه نقص، ولكن كيف يتأتى أن يقتل الحاسد بصبر المحسود، وهنا يبرز الشاعر لك ما يبدد كل ما يدور حول هذا المعنى من شبه فيقول:

فَالنَّارُ تَأْكُلُ بَعْضَهَا إِنْ
لَمْ تَجِدْ مَا تَأْكُلُهُ

ألست تجد أن هذا الدليل يشرق في نفسك، بهذا الأمر المشاهد المحسوس. أليست هذه النار ياكل بعضها بعضاً؟، إن لم تجد ما يذكي أوارها^(٣)، ويزيد اشتعالها؟ وهذا هو شأن الحسود يقتله حسده إذ لم يبلغ ما يتمناه.

(١) ديوانه ص ٨٥، ديوان المعاني ٤٦/١.

(٢) وهو ابن المعتز، ديوانه ص ٥٧٩.

(٣) وأر النار: عمل لها موقداً.

وهذا الرافي - رحمه الله - يذكر في أحد كتبه معاتباً شاكياً:

يَا مَنْ عَلَى الْحُبِّ يَنْسَانَا وَتَذْكُرُهُ
لَسَوْفَ تَذْكُرُنَا يَوْمًا وَنَنْسَاكَ

ولقد تمت القضية التي يريد الشاعر بما لا مزيد عليه، ولكن هل يتأتى ذلك؟ وكيف؟ وهل ينسى المحب؟ وهل يتذكر السالي؟ وتأتي الحجة لتبديد كل ما في هذه التساؤلات من غموض كما يبديد الفجر ظلمة الليل. فاستمع إليه يقول بعد ذلك:

إِنَّ الظَّلَامَ الَّذِي تَجَلَّوْهُ يَا قَمَرُ
لَهُ صَبَاحٌ، مَتَى تُدْرِكُهُ أَخْفَاكَ

أليس القمر هو الذي يجلو الظلمة، ولكن ماذا يكون بعد ذلك؟ إن الظلمة صباحاً سيخفي هذا القمر تماماً حينما يدركه، ألا تجد في التشبيه الضمني الاقتناع والامتناع معاً؟

واستمع إلى قول فيلسوف الشعراء وشاعر الفلاسفة أبي العلاء المعري^(١):

وإِنْ كُنْتَ تَبْغِي الْعَيْشَ فَاْبْغِ تَوَسُّطًا
فَعِنْدَ التَّنَاهِي يَقْصُرُ الْمُتَطَاوِلُ

ومن الذي يقتنع بمثل هذا؟ ومن الذي يرضى بالتوسط؟ ومن الذي لا يحاول أن يصعد إلى القمة؟ وما بال أبي العلاء يطلب ممّا ما تأباه نفوسنا، ولكن لنتمهل خير من أن نتعجل فماذا عنده بعد ذلك:

تَوْفَى الْبُدُورُ النَّقْصَ وَهِيَ أَهْلَةٌ
وَيُدْرِكُهَا النُّقْصَانُ وَهِيَ كَوَامِلُ

هذا البدر الذي لا يخفى - كما يقولون - يكون أبعد ما يكون عن النقص وهو هلال ولكنه حينما يكمل ويصبح تمّاً^(٢) يتألاً ويسطع. هناك يعرض له النقص.

واستمع إلى أبي تمام^(٣):

وَطُولُ مَقَامِ الْمَرْءِ فِي الْحَيِّ مُخْلِقٌ
لِدِيَابِجَتَيْهِ فَاغْتَرِبْ تَتَجَدَّدْ

ثم يأتيك بالدليل لهذه القضية وهو المشبه به:

فَإِنِّي رَأَيْتُ الشَّمْسَ زَيْدَتْ مَحَبَّةً
إِلَى النَّاسِ أَنْ لَيْسَتْ عَلَيْهِمْ بِسَرْمَدٍ

وقد يكون في تعليل الشاعر ما يبعث الأمل، ويدفع اليأس، ويستدرّ به عطف المخاطب،

(١) ديوان سقط الزند ص ٢٢٨، قصيدة (إلا في سبيل المجد).

(٢) تَمَّ تَمّاً: أي كَمَلَ واشتد وصلب، والمراد: أصبح تاماً كاملاً

(٣) ديوانه ١٠٠-١٠١، الموازنة ٣١ يقول إن الرجل إذا استمرت إقامته بين أهله وعشيرته ملّوه وربما كرهوه، ولكنه إذا أقام حيناً واغترب حيناً آخر فإنهم يزددون به تعلقاً وبه محبةً.

واستمع إلى قول المتنبي^(١):

وَمِنَ الْخَيْرِ بَطْءُ سَيْبِكَ عَنِّي اسرِعُ السُّحْبِ فِي الْمَسِيرِ الْجِهَامُ

هل تصدق أن الإبطاء في العطاء من الخير؟ ومن ذا الذي يمكن أن يقنع بهذا القول؟
ولكن الشاعر استطاع أن يقنع نفسه ويرضى بمدوحه * أسرع السحب في المسير الجهام*
إن أكثر السحاب سرعة ذلك الذي ليس فيه ماء. واستمع إلى قول البحري^(٢):

وَقَدْ زَادَهَا إِفْرَاطٌ حُسْنٌ جَوَارُهَا خَلَّاتِقَ أَصْفَارٍ مِنَ الْمَجْدِ خُيِّبِ

وَحُسْنُ دَرَارِيِّ الْكَوَكِبِ أَنْ تُسَرَى طَوَالِجَ فِي دَاجٍ مِنَ اللَّيْلِ غَيِّبِ

يقول إن مما زاد الممدوح فضلاً وزاد اخلاقه حسناً مجاورته لاقوام بعيدين عن الخير
خُيِّبِ من المجد والمروءة وكذلك النجوم تزداد تألقاً وسناً حينما تظهر في ظلمة الليل الحالك.

ومن هذا قول المتنبي يمدح سيف الدولة^(٣):

فَإِنْ تَفَقَّ الْأَنَامَ وَأَنْتَ مِنْهُمْ فَإِنَّ الْمِسْكَ بَعْضُ دَمِ الْغَزَالِ

كيف يفوق الأنام وهو منهم؟ ولكن أليس المسك من دم الغزال، وأين هذا من ذاك؟
وقريب من هذا:

* وما أنا مِنْهُمْ بِالْعَيْشِ فِيهِمْ *

ولكن كيف لا تكون منهم وأنت بينهم؟ ويردّ على تساؤلِكَ هذا بقوله:

* وَلَكِنْ مَعْدِنُ الذَّهَبِ الرُّغَامُ *

إن مستقر الذهب في التراب، فهل نستطيع أن نقول إن الذهب تراب؟

والحق أن هذا الأسلوب من التشبيه فيه عمق الفكرة، وغزارة المعنى، وحرارة الامتاع،
ووضوح الاقناع، فكَرَّ في نفسك، وفي حالك وحال امتك، وقد أرادت أن تخفي مرارة الضيم،
ولوعة الأسى، وألم الهزيمة، أرادت أن تخفي ذلك كله لتقنع بفاخر الثياب، والرياش، وشامخ
البنيان، وأصبح الهوان في حياتها أمراً ليس ذا بال، وكأنما يخاطبها الشاعر قديماً بقوله:

(١) ديوانه ٢٢٤/٤، السيب: العطاء والمعروف ونحوه.

(٢) ديوانه ١١٨/١، قصيدة (شكرتك عن قومي وقومك)، أصفار من المجد: خالون من المجد.

(٣) ديوانه ٢٠/٣.

لَا يُعْجِبُنْ مَضِيماً حُسْنُ بَزْتِهِ ۖ وَهَلْ يَرِيقُ دَفِيناً جَوْدَةُ الْكَفِّ—ن؟
حقاً إن ذا الضيم لا ينبغي أن يعجبه ما يتمتع به من مُتْع، ويقيم الشاعر البرهان على
ذلك:

* وهل يروقُ دفيناً جودة الكفن *

وماذا يضير الدفين أياً كان كفته. وشبيه بهذا قول الآخر:

مَنْ يَهْنُ يَسْهَلُ الْهَوَانُ عَلَيْهِ ۖ مَا لِجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إِيسَافٌ

وقد يتوسل الشاعر بهذا الأسلوب بما أعطي من بيان فيتوصل إلى ما يريده وهو يقيم
الحجة والبرهان. استمع إلى أبي تمام^(١) وهو ينفي عن نفسه عيب الفقر، ويبين لليلاه أنها لا
ينبغي أن تنكر عليه فقره، وخلو يده من المال، فذلك ليس عيباً في الرجال:

* لَا تُنْكِرِي عَطَلَ الْكَرِيمِ مِنَ الْغِنَى *

ولكن لماذا؟ فبين أن ذلك أمر طبعي بدهي، أن يكون ذو المجد متصفاً بضيق ذات اليد.

وهذا المعنى في قول جوبة بن النضر^(٢):

لَا يَأْلَفُ الدَّرْهَمُ الْمَضْرُوبُ صُرَّتَنَا ۖ لَكِنْ يَمُرُّ عَلَيْهَا وَهُوَ مُنْطَلِقٌ

يقول:

لَا تُنْكِرِي عَطَلَ الْكَرِيمِ مِنَ الْغِنَى ۖ فَالْسَّيْلُ حَرْبٌ لِلْمَكَانِ الْعَالِي

وإذا كانت لا ينبغي أن تنكر عليه الفقر فينبغي أن لا تنكر كذلك هذا الشيب الذي لاح
في رأسه، فجعلها تعرض عنه وهو لا يزال فتىً في ضحوة عمره:

قَدْ يَشِيبُ الْفَتَى وَلَيْسَ عَجِيباً ۖ أَنْ يَرَى النُّورَ فِي الْقَضِيبِ الرُّطِيبِ

فإذا كان النور يرى في القضيب الرطيب فلماذا تنكر على الفتى أن يشيب؟

ومن التشبيه الضمني قول ابن الرومي^(٣):

وَيْلَاهُ إِنْ نَظَرْتَ وَإِنْ هِيَ أَعْرَضَتْ ۖ وَقَعُ السَّهَامُ وَنَزَعُهَا أَلِيمٌ

(١) ديوانه ص ٢٤٦.

(٢) الايضاح ١١٣/٢.

(٣) ديوانه: ٤٥٧/٣، قصيدة (قلبي سقيم).

ذلك هو اسلوب التشبيه الضمني، ومما سبق يتبين أن هذه التشبيهات كلها أو جلها من قسم التمثيل، كما يتبين لنا كذلك أن لهذا الاسلوب من المحاسن الكثيرة حيث يشترك في تذوقه الفكر والوجدان معاً، ولا عجب في ذلك فهو ضمني، زاده نقابه الذي ينتقبه حسناً وبهاءً.

أسباب تأثير التشبيه:

وقد تتساءل هنا عن سبب تأثير التشبيه في النفوس، وما يحدثه فيها من أنس، وقبل أن نبين لك هذه الأسباب ونشرحها، يجدر بك أن تعلم أن هناك جهات كثيرة تشترك في التشبيه.

(١) وأول هذه الجهات براعة المتكلم، وهذه البراعة تقوم على دعائم وأسس:

أ- من هذه الدعائم الخيال الخصب.

ب - العاطفة الجياشة.

ج - الذهن الذي يجعل المتكلم قادراً على الاستنتاج ليجمع بين الأشياء، إذ إن المتكلم ليس هو الذي يوجد الرابطة بين الأشياء، وينشئ ما بينها من وجوه اتصال، واتفاق، ومناسبة، انما وظيفته أن يستنتج الروابط والصلاة بين الأشياء المختلفة المتنافرة.

(٢) وثاني هذه الجهات التي تشترك في تأثير التشبيه الحس، ومن البدهي أن تكون النفس أكثر تأثراً بالمحسوس من المعقول، ولذا وجدنا المشبه به لا يكون في الغالب إلا من المحسوسات.

(٣) وقد يكون من الجهات التي تشترك في تأثير التشبيه: العقل، ومع ذلك، لا يستقل وحده في تأثير التشبيه، إنما يكون مبنياً على الحس، مع أن الحس والعقل، كليهما لا يكفيان ولا يفيان لكي يكون التشبيه مقبولاً وجيداً، بل لا بد أن تشترك معهما النفس كذلك، وهذا كلام مجمل لا بد له من تفصيل فيما بعد إن شاء الله.

أولاً: ولعلك تدرك - بعد هذا - أن من أول أسباب تأثير التشبيه أنه ينقلها - النفس من المعقول إلى المحسوس، ومن الفكرة إلى الفطرة، ومن الغموض إلى البديهة. ومن شأن هذا أن يزيل ما فيها من شكوك، ويذهب ما فيها من أوهام، فليس الخبر كالعيان - كما يقولون - ولا تنس أن صلة النفس بالمحسوسات أسبق من صلتها بالمعقولات.

ثانياً: ومن أسباب تأثير التشبيه ما في التشبيه من الجمع بين الأشياء المتباعدة، وفي هذا السبب من الطرافة ما تستريح له النفس.

ثالثاً: ومن أسباب تأثير التشبيه - وهو ناشئ عما قبله - حاجته إلى الفكر، وفي هذا السبب لذة تسعد بها النفس، ويستريح لها القلب. ولنمثل لك الآن بما يبين لك هذه الأسباب ويوضحها:

خذ مثلاً قوله تعالى: (لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسُطٌ كَفِّهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ) [الرعد ١٤] فالآية الكريمة تبين أن الذين يدعون من دون الله لا يحصلون على شيء من تعبهم وجهدهم، لأن الذين يُدْعُونَ لا يستجيبون لهم بشيء، وهذا المعنى - مع كونه مسلماً غير مشكوك فيه - إلا أن التشبيه جيء به ليزيد هذا المعنى تثبيتاً وتأكيداً، وتقريراً في النفس، وهو من المعاني المحسوسة المرتكزة في البديهة، إن من يبسط كفيه إلى الماء - طمعاً في أن يصل الماء إلى فيه ليشرب ويبلّ ظمأه -، لن يصل إلى ما يريد، ولن يحصل على بغيته.

استمع إلى قول ابن لنك^(١):

إِذَا أَخُو الْحُسْنِ أَضْحَى فِعْلُهُ سَمِجاً رَأَيْتُ صَوْرَتَهُ مِنْ أَقْبَحِ الصُّوَرِ

وهذا المعنى مما تقبله النفس ولا ترتاب فيه، ولكن الشاعر أراد أن يقرر لك هذا المعنى ليثبت في نفسك خير تثبت، ويتأكد خير تأكيد، فجاء في البيت الثاني وهو قوله:

وَهَبْهُ كَالشَّمْسِ فِي حُسْنٍ أَلَمْ تَرْنَا نَفَرٌ مِنْهَا إِذَا مَالَتْ إِلَى الضَّرَرِ

ألا ترى كيف وضّح لك الصورة وفصلها؟ وكيف جمع بين الأشياء المتباعدة؟ فأخو الحسن إذا قارف أفعالاً مذمومة، فحري أن يهجره الناس، ويبتعدوا عنه، وهذه الشمس في حسننها ودفعها، إذا قويت حرارتها وتأكد ضررها، ابتعد عنها المعجبون بدفعها وسطوعها. واستمع إلى قول أبي تمام^(٢):

وَطُولُ مَقَامِ الْمَرْءِ فِي الْحَيِّ مُخْلِقٌ لِدِيَاغَتِيهِ فَاغْتَرِبْتُ رَبُّ تَنَجَّدُ

وهذا معنى جيد يقول: إن طول مكث المرء في مكان ما، يُنقص من شوق الناس إليه، فيخلق كما يخلق الثوب ولم يرد الشاعر أن يلقي إليك هذا المعنى دون أن يدلل له، ويأتي عليه بشواهد من المحسوس فقال:

فَبِأَيِّ رَأَيْتُ الشَّمْسُ زَيْدَتْ مَحَبَّةً إِلَى النَّاسِ أَنْ لَيْسَتْ عَلَيْهِمْ بِسَرْمَدٍ

فالشَّمْسُ؛ إنما يزداد الناس حباً لها، وشغفاً بها، لأنها ليس دائمة، بل هي تروح وتجيء، وتغيب وتطلع، وتقرب وتشرق، وإذا كانت المعاني - في الأمثلة السابقة - مؤكدة غير مشكوك فيها، وإنما زادها التشبيه تأكيداً وتثبيتاً فإن هناك معاني قد تشكك فيها النفس، ولا

(١) البيتة ٢/٣٢٠، نهاية الارب ١/٤٤.

(٢) ديوانه ص ١٠٠ - ١٠١.

تطمئن إليها، فيأتي التشبيه ليزيل هذا الشك، كي تطمئن لها النفس، انظر مثلاً إلى قول القائل: (قد يشيب الفتى) وهذا المعنى ربما ينازع فيه بعض الناس، فمن المعلوم أن الشيب إنما هو من شأن أولئك الذي تقدمت بهم السن، وبلغوا من الكبر عتياً، وليس من شأن أولئك الذي لا زالوا في ضحوة العمر وشبابه، ولكن الشاعر أراد أن يزيل هذا الشك من النفس فقال:

قَدْ يَشِيبُ الْفَتَى وَلَيْسَ عَجِيباً أَنْ يَرَى النُّورُ فِي الْقَضِيبِ الرُّطِيبِ

وخذ قول المتنبي:

** وَمَا أَنَا مِنْهُمْ بِالْعَيْشِ فِيهِمْ **

وهذا المعنى يصعب على النفس أن تتقبله لأول وهلة، فكيف يُتصور أن من نشأ في قوم ليس منهم؟ فأراد الشاعر أن يزيل ذلكم التوهم وهذا الشك فقال:

وَمَا أَنَا مِنْهُمْ بِالْعَيْشِ فِيهِمْ وَلَكِنْ مَعْدِنُ الذَّهَبِ الرُّغَامُ

وخذ قول المتنبي:

فَإِنْ تَفَقَّ الْأَنَامُ - وَأَنْتَ مِنْهُمْ - فَإِنَّ الْمِسْكَ بَعْضُ دَمِ الْغَزَالِ

فإنك واجد فيه قريباً مما وجدته في سابقه، إذ كيف يمكن أن يتفوق على الأنام وهو واحد منهم؟ فأراد أن يبرهن لهذا المعنى حتى تطمئن به النفس؛ وذلك بأن المسك وهو من الأشياء الثمينة المحببة إلى النفس ليس إلا من دم الغزال.

وهكذا لو استقرأت الكلام البليغ لوجدت كل تشبيه يؤثر في النفس لا يخلو عن واحد من الأسباب التي ذكرتها لك، وقد تجتمع له كلها أو بعضها، فكثير منه ما ينقلك من المعقول إلى المحسوس وهو السبب الأول، وكثير منها ما يجمع بين الأمور الغريبة فيغلب بحاجة إلى الفكر، استمع إلى قول البحراني^(١):

ضُحُوكُ إِلَى الْأَبْطَالِ وَهُوَ يَرُوعُهُمْ وَلِلْسَيْفِ حَدٌّ حِينَ يَسْطُو وَرَوْقُ^(٢)

فانظر كيف جمع بين الضحك والهيبة، وكيف استدل لذلك بالسيف الذي اجتمعت له الحدة واللمعان، وانظر إلى قول أبي الحسن بن مقلة^(٣):

(١) ديوان البحراني ٧٦/٢.

(٢) رونق السيف: ماؤه وحسنه.

(٣) اليتيمة ج٣، ص ١٠٠.

لَسْتُ ذَا ذِلَّةٍ إِذَا عَضَّنِي الدَّهْرُ وَلَا شَامِخاً إِذَا وَأَتَانِي
أَنَاناً فِي مُرْتَقَى نَظَرِ الْحَاسِدِ مَاءٌ جَارٍ مَعَ الْإِخْـسَـوَانِ

وأنت تدرك بأن مما يزيد هذه التشبيهات روعة أن جمعت بين هذه الأشياء المتباعدة، وربما المتناقضة كذلك..

وقد تتساءل: كيف يكون التشبيه مؤثراً في النفس وهو بحاجة إلى الفكر؟ أليس ذلك متناقضاً مع ما عرفناه من قبل، من أن الكلام البليغ هو ما يكون معناه إلى نفسك أسرع من وصول اللفظ إلى أذنك؟ أليست حاجة التشبيه إلى فكر تدخله في باب التعقيد المنافي للبلاغة؟

ونجيبك أولاً: بأن الفكر ركيزة أساسية للتمييز بين الكلام المبتذل والكلام الجيد، هذا بالنسبة لقائله، وهو كذلك بالنسبة إلى السامع حتى يمتاز الفطن عن غيره.

وأما ثانياً: فإنهم لم يذموا التعقيد من أجل حاجته إلى الفكر، وإنما ذمّ التعقيد لما فيه من سوء الترتيب وضعف التركيب من جهة، ولقلة فائدته وثمرته من جهة ثانية.

« وإنما ذم التعقيد لأن صاحبه أساء التعبير عن المعنى، ولم يرتب الألفاظ الترتيب الملائم له، فشاك طريق السامع إليه ووعر مذهبه، وقُسم فكره، ووُزع ظنه، وتركه حائراً لا يدري من أين يتوصل إليه، ولا كيف يطلبه، أما التمثيل وسائر الأساليب البليغة، والكلام المخلص من شوائب التعقيد فإن صاحبه يتحرى فيه حسن البيان، ويخلصه من سوء الدلالة فيرتب الألفاظ الترتيب الذي يهدي إلى المعنى ويفتح الطريق للفكر ويمهده وإن كان فيه تعاطف أقام عليه المنار وأوقد فيه الأنوار».

«وخلاصة القول أن الجهود الفكرية في التعقيد زائد على ما ينبغي للمعنى، ومنشؤه من عمل المتكلم وسوء عبارته، وثمرته تافهة، وإن الجهود الفكرية في التمثيل مناسب للمعنى ومنشؤه لطفه ودقته، وفائدته جلية ولذلك كان الأول باعثاً على الذم، والثاني موجباً للمدح»^(١).

(١) دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبد القاهر في التشبيه والتمثيل والتقديم والتأخير/ تأليف عبد الهادي العدل ص ١٢٥.

التشبيه القريب والتشبيه الغريب

ومما يتصل بموضوعنا الذي نتحدث عنه أن التشبيه منه ما هو قريب مبتذل، ومنه ما هو غريب، وضابط الفرق بينهما:

أن التشبيه الغريب هو: ما لا ينتقل فيه من المشبه إلى المشبه به إلا بعد تلبث وتذكر، وفكر للنفس في الصور التي تعرفها، لأن وجه الشبه في المشبه به مما لا ينزع إليه خاطر، ولا يقع في الوهم بديهياً النظر إلى المشبه.

أما التشبيه القريب فهو ما ينتقل فيه من المشبه إلى المشبه به من غير حاجة إلى تلبث وتذكر، لأن وجه الشبه في المشبه به مما يسرع حضوره إلى الخاطر عند أول النظر إلى المشبه^(١).

وأسباب القرب منها ما يرجع إلى المشبه به، ومنها ما يرجع إلى وجه الشبه، أما ما يرجع إلى المشبه به، فهو كثرة تردده على الحواس... وأما ما يرجع إلى وجه الشبه فهو أن يكون مجملًا لا تفصيل فيه، وعلى هذا يمكنك أن تعرف أسباب الغرابة، إذ بضدها تتمايز الأشياء، فأسباب الغرابة:

(١) أن يكون المشبه به مما لا يكثر تردده على الحواس.

(٢) وأن يكون في وجه الشبه تفصيل.

فإذا قلت: «هي كالبدرة في الحسن، وكالشمس في الوضاعة»، وهو كالبحر في الجود، وكالأسد في الشجاعة، وكالليل في الوحشة وكالثعلب في المكر» فإن ذلك كله من التشبيه القريب لأن المشبه به يتردد كثيراً على الحواس ولأن وجه الشبه لا مجال فيه للتفصيل، ولكن التشبيه الغريب هو الذي تظهر فيه الروعة، وتلمح فيه الابداع، ويتسابق فيه البلغاء، ويزداد به الحسن، وتجد فيه الدقة في لفظه، والرقعة في معناه.

ولكي تتبين ما قلناه نعقد لك موازنة بين بعض الأقوال:

قال عنتره في ورد بن حابس وقد قتل نضلة الأسدي^(١):

يُتَابِعُ لَا يَبْتَغِي غَيْرَهُ بِأَيِّضٍ كَالْقَبَسِ الْمُتَهَبِّ

(١) المرجع السابق ص ١٥٥.

(٢) ديوانه ص ٢٠.

وقال امرؤ القيس^(١):

جَمَعْتُ رُدَيْنِيَّأ كَأَنَّ سِنَانَهُ سَنَّا لَهُبٍ لَمْ يَتَّصِرْ لِدُخَانِ^(٢)

يشبه كل منهما السيف باللهب، إلا أن عنتره اكتفى بتشبيهه بالقبس الملتهب فحسب، ولكن امرؤ القيس كان أبعد نظرة فكان أكثر ابداعاً، فلقد استعرض في نفسه أوصاف الشعلة شكلها، ولونها، ولمعانها، واضطرابها، ووجد كل ذلك يحقق الشبه، ولكنه رأى شيئاً آخر يقدح فيه - الشبه - ويعيبه، وهو ما في رأس الشعلة من الدخان، فإنه ليس له ما يقابله في رأس السنان فنفى اتصاله باللهب، لكي يؤدي التشبيه كما هو على التحقيق^(٣).

ومثل هذا قول امرئ القيس^(٤):

كَأَنَّ عَيُونَ الْوَحْشِ حَوْلَ خَبَائِنَا وَأَرْحُلُنَا الْجَزْعُ الَّذِي لَمْ يُنْقَبْ

والخباء والرحل: ما يعمل به من الوبر والصوف على عمودين أو ثلاث، فإن كان على أكثر من ذلك سمي بيتاً، وهو ما تتخذة البادية في حلها وترحالها، والجزع بفتح الجيم وسكون الزاي هو الخرز.

والذي يعيننا - هنا - ما لاحظته الشاعر في التشبيه فقد شبه عيون الوحش بالخرز، ولكن في الخرز شيء غير موجود في العيون وهو التقيب، ففطن الشاعر إلى هذه النكتة في التشبيه فوصف الخرز بأنه غير مثقب، فكان ذلك دليلاً على دقته في تشبيهاته.

ومن التشبيه الغريب قول أبي قيس بن الأسلت^(٥):

وَقَدْ لَاحَ فِي الصُّبْحِ التُّرَيَّا لِمَنْ رَأَى كَعَنْقُودٍ مُلَاحِيَّةٍ حِينَ نَـوَّرَا

وإنما جاءت غرابة هذا التشبيه لما في وجه الشبه من تفصيل، فهو مركب من اللون والشكل لأنه عبارة عن اجتماع اجرام صغيرة بيض، مستديرة، متقاربة، غير متلاصقة، على شكل مثلث ذي قدر مخصوص^(٦).

(١) العمدة ٥٢/٢، الصناعتين ١٨٧.

(٢) الرُدَيْنِي: نسبة إلى ردينة وهي امرأة كانت تثقف الرماح مع زوجها سمهر، فنسبت إلى كل منهما.

(٣) دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبد القاهر ص ١٦٣.

(٤) ديوانه ص ٢٥، قصيدة (لبانات الفؤاد المعذب).

(٥) سبق البيت ص ٢٢.

(٦) دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبد القاهر ص ٩.

ومن التشبيه الغريب قول ابن المعتز.

فَجَاعَتْ بِهَا فِي كَاسِهَا ذَهَبِيَّةٌ لَهَا حَدَقٌ لَمْ تَنْصِرِلْ بِجُفُونِ
شبه فقايع الخمر بالحدق، في الشكل واللون، وقد نظر الشاعر إلى أوصاف العيون
فوجد فيها شيئاً لا يوجد في المشبه، وهو ما يحيط بها من الجفون فنفى اتصالها بها تحقيقاً
للشبه، فكان غريباً.

وقال ابن المعتز يصف بازى الصيد^(١):

غَدَوْتُ فِي ثُوبٍ مِنَ اللَّيْلِ خَلَقْتُ بِطَارِحِ النَّظَرَةِ فِي كُلِّ أَفُقٍ^(٢)
ذِي مَنْسَرٍ أَقْنَى إِذَا شَكَ خَرَقُ مُخْتَضِبٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ بَعْلَقٍ^(٣)
فَكُلُّ عَظْمٍ مَفْصِلٌ إِذَا عَلِقُ وَمَقْلَةٌ تَصُدُّهُ إِذَا رَمَقُ
كَأَنَّهَا نَرْجَسَةٌ بِلاَ وَرَقٍ يَنْشُبُ فِي الدِّبَاجِ حَتَّى يَنْفَتِقُ

يشبه في الشطر الأول الليل، وقد مزقته تباشير الصباح بالثوب الممزق، ثم لما
أراد تشبيه عين البازى بالنرجسة نظر في أوصافها فوجد فيها شكل العين، (دائرة تحيط
بدائرة أخرى مخالفة للونها)، ووجد شيئاً آخر لا نظير له في العين وهو (الورق الأخضر
المحيط بها) فنفاه تحقيقاً للتشبيه، ثم وجد عين البازى يحيط بها ريش ناعم منقوش فأراد أن
يحقق ذلك في المشبه به فوصف النرجسة بأنها نشبت في الدباج حتى انخرق فبقيت هي في
وسطه وهو محيط بها.

وتقرير التشبيه هكذا: شبه عين البازى يحيط بها الريش المنقوش نقشاً جميلاً بنرجسة
لا ورق لها، يحيط بها ديباج منقوش كذلك، ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من اجتماع هذه
الأوصاف (الشكل المستدير بين النقش الجميل)^(٤).

وقد ينظر في التشبيه إلى الحركة دون شيء آخر، كما في هذا التشبيه، ومنه قول ابن
المعتز كذلك^(٥):

(١) ديوان ابن المعتز ٤/٤١، ديوان المعاني ٢/١٤٠.

(٢) خلق: مهتر بال، بطارح النظرة في كل أفق: كناية عن البازي الذي يطرح نظره في كل أفق.

(٣) منسر: منقار، اقنى: ارتفع اعلاه واحذوب وسطه، إذا شك خرق: أي إذا نقر شيئاً خرقة، مختضب: في كل
يوم بعلق: كناية عن تخضب منقاره بدم فريسته على النوم.

(٤) دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبد القاهر ص ١٦٤، ١٦٥.

(٥) ديوانه ص ١٣٢.

فَكَأَنَّ الْبَرْقَ مُصْحَفٌ قَارٍ فَأَنْطَبَاقاً مَرَّةً وَأَنْفَتَاحاً

فهو لم يرد أن يشبه شكل البرق بشكل المصحف، إنما أراد أن يشبه حركة البرق بحركة قارئ ذي لوثة غير طبعي، يطبق المصحف تارة، ويفتحه أخرى، والتشبيه غريب كما ترى!

ومن التشبيه الغريب قول الشاعر:

وَالشَّمْسُ كَالْمِرَّةِ فِي كَفِّ الْأَشْلَلِ لَمَّا بَدَتْ مِنْ خِدْرِهَا فَوْقَ الْجَبَلِ

ولقد جاءت غرابة التشبيه لأن المشبه به قلما يتردد على الحواس، فقد لا يرى الإنسان في حياته أشل مرتعشاً يحمل في يده مرآة، «وجه الشبه الهيئة الحاصلة من الاستدارة مع الاشراف، والحركة السريعة المتصلة، وما يحصل بسببها من التموج والاضطراب حتى يرى الشعاع كأنه يهم بأن ينبسط، حتى يفيض على جوانب الدائرة ثم يبدو له فيرجع من الانبساط إلى الانقباض كأنه يجتمع من الجوانب إلى الوسط، والشمس إذا أهدأ الإنسان النظر إليها وجدها مؤدية لهذه الهيئة، وكذلك المرآة في كف المرتعش، لأن حركته تدوم وتتصل ويحصل منها ذلك، فقد اقترن بهيئة الحركة لون الجسم، وهو الاشراف، وشكله: وهو الاستدارة.

وجاءت غرابة هذا التشبيه من كثرة التفصيل إذا نظر إلى اللون والشكل والحركة الدائمة، وهذا تفصيل، ثم نظر إلى حركة الشعاع وتموجه بين انبساط وانقباض... الخ، وذلك تفصيل آخر، ومثله لا يدركه الإنسان إلا إذا استأنف تأملها، وكان مثبتاً متمهلاً»^(١). وانظر إلى قول المعري^(٢) يصف نجماً:

يُسْرِعُ اللَّحْمُ فِي احْمِرَارٍ كَمَا تُسْرِعُ فِي اللَّحْمِ مُقْلَةُ الْغَضْبَانِ
فإن تشبيه لمحات النجم وتألقه مع احمرار ضوئه، بسرعة لمحة الغضبان من التشبيهات النادرة التي لا تنقاد لأديب^(٣).

وهكذا تبدو قدرة الشاعر حينما يعقد لك المشابهة بين أمرين فتحس نفسك بالأنس، وفؤادك بالطرب، وكأن الأمر من قبل لم يخطر لك على بال. استمع إلى قول المتنبي وقد جمع لك امرين في التشبيه كانا بعيدين عن مخيلتك ولكن مجرد سماعك بهما يشعرك بالقرب

(١) دراسات تفصيلية ص ١٨٨.

(٢) ديوان سقط الزند ص ١٣٤، قصيدة (عللاني).

(٣) جواهر البلاغة / السيد أحمد الهاشمي ص ٢٨٦.

بينهما، كأنما تخاطب نفسك فتلومها على غفلتها، ما أقرب أحدهما للآخر؟! استمع إليه^(١):

بَلَيْتُ بَلَى الْأَطْلَالِ إِنْ لَمْ أَقِفْ بِهَا وَقُوفَ شَحِيحٍ ضَاعَ فِي الثَّرْبِ خَاتَمُهُ

أرأيت إلى هذه البراعة في التصوير، والخصوبة في الخيال؟، إنه يدعو على نفسه إن لم يقف بهذه الاطلال وقوف الحسرة والألم، ولكنه لا يكتفي بهذا، بل يبين لك مقدار هذه الحسرة، وهذا الألم، وهو يشبهه بوقوف شحيح ضاع خاتمه في ركام التراب.

وبالجملة فإن التشبيه كلما دق وجه الشبه فيه وكان المشبه به غير مألوف، فهو من التشبيه الغريب، ولكن البيانيين لا يقفون في التشبيه الغريب عند هذا النمط من القول، وإنما يعدّون من الغريب كذلك ما كان من الأمور المتخيلة التي لا وجود لها مجتمعة في الخارج وإنما الموجود عناصرها وأجزاؤها فجمعوا هذه الأجزاء بعضها لبعض ليُكوّنوا مشبهاً به على سبيل التخيل وهذا كثير وبخاصة عند شعراء العصر العباسي ومن بعدهم، ويمثلون له بقول أبي بكر الصنوبري:

وَكَأَنَّ مُحَمَّرَ الشَّقِيقِ إِذَا تَصَوَّبَ أَوْ تَصَعَّدُ
أَعْلَامُ يَاقُوتٍ نُشِرْنَ عَلَى رِمَاحٍ مِنْ زَبَرَجَدُ

تصور أوراق شقائق النعمان - وهو نبت معروف -، والرياح تصعدها وتصوبها أي ترفعها وتسفلها، فأراد أن يجعل لها شبيهاً فشبها بأعلام من الياقوت حمراء منشورة على زبرجد أخضر.

ندرك مما سبق أن بلاغة التشبيه، لا تقف عند عنصر واحد، فلا يكفي أن يكون التشبيه حسياً فحسب، كما لا يضير التشبيه أن يكون فيه عنصر عقلي كذلك، إنما ترجع بلاغة التشبيه إلى ما يحدثه في النفس من أثر، فبقدر ما تتفاعل النفس مع التشبيه تكون بلاغته وجودته، وهذا بالطبع إنما يرجع إلى قدرة المتكلم وبحثه عن الروابط الدقيقة بين الأشياء، حتى يريك الأمر على غير ما تعرف، ويدلك على ما هو مرتكز في طبيعتك مما هو خاف عليك.

أنظر إلى قول ابن الرومي وقد اغرى به بعض مبغضيه أحد الشعراء الهجائيين، وكان يسمى مثقالاً، ولكن هجاء مثقال لابن الرومي لم ينقص من قدره. ونحن نعلم أن الهجاء فيه انتقاص من قدر المهجو، ولذا عاقب عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - الحطيئة وقد هجا الزبيرقان بن بدر - رضي الله عنهما -، ولكن ابن الرومي أراد بأسلوب التشبيه أن يبين أن هذا الهجاء لا ينقص من قدر المهجو، وإنما يزيد من فضله ونبله، فنبهنا إلى أمر من الأمور

(١) شرح ديوان المتنبي / البرقوني ٥٩/٤.

البدئية الذي لا ينكره واحد من الناس، ولنستمع إليه^(١):

ثُمَّ حَاوَلْتُ بِالْمُنْيَقِيلِ تَصْغِيرِي فَمَا زِدْتَنِي سِوَى التَّعْظِيمِ
كَالَّذِي طَاطَأَ الشَّهَابُ لِيُخَفِّي وَهُوَ أَذْنَى لَهُ إِلَى التَّضْخِيمِ
يقول لقد أغريت بي مثقالاً ليهجونني ويغري بي، ولكن ذلك ما زادني إلا تعظيماً ورفعة،
فما متلي ومنته إلا كمن يطأ طي شهاب النار ليخفي نوره وليطفئ شعلته، ولكن ذلك لا يزيده إلا
اشتعالاً واضراماً.

وهاك مثلاً آخر: نحن نعلم أن ليس من الخير للكریم أن يجاور اللئام، ولا للفاضل أن
يكون مع ذوي النقص، ولكن اسلوب التشبيه وقد صوره الشاعر بفكره وابداعه ببراءة جعل
الأمر على العكس من ذلك، ففيه زيادة منقبة وشرف، ويقول البحري^(٢):

وَقَدْ زَادَهَا إِفْرَاطَ حُسْنٍ جِوَارُهَا خَلَقَ أَصْفَارٍ مِنَ الْمَجْدِ خِيَابِ
وَحُسْنُ دَرَارِي الْكَوَاكِبِ أَنْ تُرَى طَوَالِ فِي دَاجٍ مِنَ اللَّيْلِ غِيَابِ
وقد قدمناه من قبل فارجع إليه إن شئت.

وأخيراً لا آخراً استمع إلى قول ابن بابك يمدح أبا علي أحمد بن حمولة وزير فخر الدولة^(٣):

وَرَأَى لِلتَّشْرِيفِ أَهْلًا فَاجْتَبَى بِوَفَائِهِ، مَلِكٌ يَقُولُ وَيَفْعَلُ
وَأَعْرَتْ شَطْرَ الْمَلِكِ ثُوبَ كَمَالِهِ وَالْبَدْرُ فِي شَطْرِ الْمَسَافَةِ يَكْمُلُ

والذي يعنينا من قيل فيه، وما قيل من أجله، هذا الشعر وسبب ذلك أنه لما مات
الصاحب بن عباد - وزير فخر الدولة - كان المرشح للوزارة بعده أحد الرجلين: أبي علي بن
حمولة، وأبي العباس الضبي، فأخذ كل منهما يبذل لفخر الدولة الأموال الطائلة ليستوزره
فرأى أن يأخذ ما بذلاه ويولّيهما معاً معتلاً بأن مكان الصاحب لا يملؤه أحدهما وحده
فاشتركا في الوزارة فكان كل واحد منهما كأنه وزير لشطر الملك، فأراد ابن بابك أن يدفع
توهم أن ذلك ينقص من قدر أبي علي، يقول: إنك ألبست شطر الملك الذي وليته ثوب الكمال
لأنك كامل ولا بدع في أن تكون كاملاً في نصف الملك فإنك شبيه بالبدر الذي يكون في نصف
الشهر ووجه الشبه كمال كل في النصف^(٤).

(١) ديوانه ٤٢٧/٣.

(٢) ديوانه ١١٨/١، قصيدة (شكرتك عن قومي وقومك).

(٣) اليتيمة ٢٤٩/٣.

(٤) دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبد القاهر ص ١١٣.

التشبيه في القرآن

ونرى لزماً علينا ونحن نتحدث عن التشبيه أن نعقد فصلاً خاصاً نتحدث فيه عن تشبيهات القرآن الكريم، وآخر عن التشبيهات في السنة النبوية، إذ الرسول صلى الله عليه وسلم هو سيد الناطقين بالضاد وأفصحهم، وقد أعطي جوامع الكلم، واختصر له الكلام اختصاراً.

نتائج مما سبق:

وقبل أن نحدثك عن تشبيهات القرآن نرجو أن نستذكر معاً بعض النتائج والملاحظات التي يمكن أن نستنتجها ونلاحظها. مما قدمناه لك عن التشبيه.

أولاً: ولعل من أول هذه النتائج وأولها بالتسجيل، أن هذا التشبيه يتأثر بالبيئة، بل إنه يخضع لها، ويتحكم فيه، وتضفي عليه كل سماتها، وتمنحه جميع خصائصها، ولا أدل على ذلك من أننا رأينا التشبيه في العصر الجاهلي كانت عناصره منتزعة من بيئتهم الخاصة، فالبقر الوحشي، وحمار الوحش، والعقاب والغراب، وعيون الطير وقلوبها، والسيف والنار، ونقيض الرحل وصوته، وصوت البازي، والريم، والطلل، والكواكب، وقد تجد السفينة وموج البحر على قلة، إلى غير ذلك مما كانت تقتضيه وتحتمه بيئة أولئك في جاهليتهم.

ولقد أعطوا حظاً من النباهة واليقظة والقدرة على التصوير والتعبير فكان لا بد من أن يستثمروا ذلك كله دون أن يعطّلوهُ، فرأينا هذه اليقظة، وتلك البلاغة، وهذه القدرة على التصوير، وهذا الجمال في العبارة، يُستثمر في أمور ليست ذات شأن، ولكن الذي رجحها ورشحها وجودها في تلك البيئة، فالحشرات على اختلافها، ومستنقعات الماء، والوحوش، والرياح، تلك هي المواد التي غالباً ما كانوا يصنعون منها تشبيهاتهم، فقلوب الطير تارة كالعنان، وتارة كالخشف البالي، وعيونها كالخز الذي لم يُقَبَّ، والاعطاف كالمسك وكالطيب، والريق كالشراب، حتى ما كان بعيداً عن بيئتهم يقربونه فيشبهونه بما هو من أشياء البيئة كتشبيه السفينة بولد الناقة في قول الأعشى^(١):

تَقْصُ السَّفِينُ بِجَانِبَيْهِ كَمَا يَنْزُو الرِّبَاحُ خَلَا لَهُ كَرَعٌ^(٢)

وإذا تركنا هذا العصر إلى العصر الإسلامي نجد أن التشبيه - مع ما بين العصرين من

(١) أسرار البلاغة ص ١٦٧، تحقيق هـ. ريتز، الصناعتين ٦١.

(٢) تقص: تثب، والنزو: الوثوب، والرياح بضم الراء وتشديد الباء، وحففت الباء للضرورة: الفصل أو القرد، وخلا: من الخلو، والكرع: الغدير أو ماء السماء، شبه السفينة في انحدارها وارتفاعها بحركات الفصل في نزوه لأنه إذا نزا كانت له حركات متفاوتة ويكون هناك تسفل وتصعد على غير ترتيب.

تقارب - أصبحت له عناصره التي استمدت وجودها من البيئة، ألا تنظر إلى بيت حسان^(١):

وَقَافِيَةٌ عَجَبَتْ بِلَيْلٍ رَزِينَةٍ تَلَقَّيْتُ مِنْ جَوِّ السَّمَاءِ نَزْوَلَهَا

فإذا جاوزنا ذلك إلى العصر العباسي وجدنا الاختلاف الكبير، والبون الشاسع، في عناصر التشبيه حيث أصبحت هذه العناصر بعيدة عما قبلها اللهم إلا من حيث الصورة والشكل، فمداهن الدّر المحشوة بالعقيق، وعلام الياقوت، والرماح من زبرجد، وشبك الزبرجد، والسلك من البلور، والزوارق المحملة بالعنبر إلى غير ذلك من أنواع الحلي والأزهار والروائح.

وإذا تركنا العصر العباسي فإننا نجد أن الصورة التشبيهية - إن قبل التعبير - كانت تسيطر عليها البيئة فتلبسها ما تكسوه لكل من هو في كنفها مما يعرفه الناس، ولعل خير شاهد على هذا، هذا العصر، وأنت إذا تتبععت الصور الأدبية وجدت كثيراً مما هو جديد لم يعرف من قبل ولعلنا نوفق إن شاء الله، أن نعقد فصلاً في آخر هذا الكتاب نتحدث فيه عن الصورة عند المحدثين تشبيهاً كانت أم غير تشبيه.

ولكن مع اختلاف البيئة وطغيانها على التشبيه فإننا نجد أشياء لا تتغير من حيث العنصر والحقيقة، وإن تغيرت من حيث الصورة والشكل.

ثانياً: رأينا أن التشبيهات فيما مضى كان منها ما يأتي للإيجاز والاختصار فهو عنصر أساسي لا يستغنى عنه، ومنها ما ليس كذلك، وإنما جيء به بعد تمام الكلام وكمال المعنى وكان الهدف منه زيادة التقرير والتوضيح، وذلك ما ذكرناه لك عند أول حديثنا عن التشبيه الضمني.

ثالثاً: وثالثة هذه النتائج أن بعض هذه التشبيهات - وهو القليل - كانت تلاحظ فيها الدقة من حيث العبارة، لتؤدي المعنى أداءً تاماً غير منقوص، كما رأينا في بيت امرئ القيس السابق وهو يصف الرديني باللهب الذي لم يتصل بدخان، وعيون الطير بالخرز الذي لم يتقرب. وفي غير هذين مما ذكرناه لك من قبل.

ولكن كثيراً من التشبيهات لم نجد فيها تلك الميزة - أعني ليس فيها تلك الدقة - التي لوحظ فيها دقة التعبير، بحيث تتفق مع الصورة اتفاقاً كاملاً. وهناك أمر آخر اختلفت فيه تلك التشبيهات كذلك، فكما اختلفت من حيث الصورة ودقة التعبير عنها، فقد اختلفت من حيث الألفاظ التي اختيرت لها. وهناك اختلاف ثالث من حيث الصورة نفسها كما عرفته من قبل وكما ستعرفه فيما بعد.

(١) ديوانه ص ١٩٦، قافية: أي قصيدة، عجت بليل: أي صاح بها صاحبها في الليل، تلقيت من جو السماء نزولها: أراد أنه أوحى إليه بها.

وهذه بعض الحقائق التي أمكننا أن نستخلصها من دراستنا للتشبيه:

- ١- خضوعه للبيئة.
- ٢- مجيئه بعد تمام الكلام.
- ٣- عدم التزام الدقة في كثير منه.
- ٤- اختلاف كثير من التشبيهات من حيث اختيار اللفظ.
- ٥- اختلافه من حيث الصورة جمالاً وروعة.

خصائص التشبيه في القرآن:

التشبيهات في القرآن الكريم، مع أنها ليست بدءاً من التشبيه، ذلك أن القرآن الكريم عربي من حيث الأسلوب، ومن حيث النظم، ولكننا نجد مع ذلك أن لتشبيهات القرآن خصائص ومميزات:

أولاً: وأولى هذه الخصائص أن تشبيهاته غير مقيدة ببيئة معينة، فلم تنحصر في عصر دون عصر، ولم تقتصر على مكان دون مكان، إنما هي تشبيهات عامة تستمد من الطبيعة عناصرها، وتأخذ من الكون أجزاءها، فليست لفئة خاصة ولا لقوم بأعيانهم، فمشهد الماء الذي ينزل من السماء، فتحيا به الأرض، ومشهد الزرع الذي ينبت فيكون له شطؤه الذي يحيط به، والسراب في الفلاة، والظلمات في البحر، والموج والأمواج المتلاطمة، والرماد الذي تبدده الرياح في يوم عاصف، والفراش المبتوث، والعهن المنفوش، والجبال، والخشب المسندة، والجنة بالروضة المرتفعة. كل هذه العناصر وغيرها مما لا يختص به زمان معين، أو مكان معين، أو جنس معين. ومع كونها كذلك، إلا أننا إذا أعدنا النظر مرة أخرى نجد أن لها ميزة ثانية، وهي أنها لا غناء عنها في حياة الانسان، مُتَمَدِّناً وغير مُتَمَدِّين، وذلك مما يزيد تأثيراً في النفس، ونفوذاً في القواد، هذه واحدة.

ثانياً: أن هذه التشبيهات جاءت متسقة مع الغرض الذي سبقت من أجله، فقد نجد الشيء الواحد شبه به أكثر من أمر، وذلك لأن هذا الشيء لوحظت فيه صفات متعددة، فروعى كل جانب ليتناسب ويتطابق مع المشبه الذي قصد القرآن الحديث عنه.

ثالثاً: الدقة في اختيار الألفاظ، وهذه حقيقة ليست خاصة بالتشبيه، إنما هي شأن القرآن في أساليبه جميعاً، وفي كل موضوعاته التي تحدث عنها، فالفاظ القرآن - كما تعلم - جميعها مختارة منتقاة، فإنك لن تجد أي لفظة يمكنك أن تستبدل بها غيرها، أو تستغني بها عن غيرها، ولو أنك أدت اللغة كلها، وأردت أن تأتي بكلمة مكان كلمة ما استطعت.

رابعاً: وتشبيهات القرآن بعد ذلك كله، كانت بعيدة عن ترف الخيال، ورعونة العاطفة، وسرف القول وفضوله، فهي - إذن - عناصر أساسية في الموضوع، وأجزاء رئيسة في الجملة.

خامساً: ولما كان القرآن كتاب هداية للأحياء ما دامت الحياة، فإن تشبيهاته جميعاً كانت كلها تدور حول هذا الانسان، تشبيهه تارة وتشبه له تارة أخرى، تشبيهه بما يناسب وضعه، وتشبه له بما يحيط به من هذا الكون مما لا غناء عنه في حياته ووجوده.

هذه بعض خصائص التشبيه في القرآن، ولكي نتصور ذلك تصوراً عملياً فلا بد أن ننعم وننعم النظر بالوقوف مع بعض هذه الآيات الكريمة:

(أ) هذا القمر الذي تغزل فيه الشعراء شبهوه تارة، وشبهوه به أخرى، والذي امتن الله علينا بأن جعله نوراً. يشبهه القرآن الكريم، وقد اضمحل نوره بالعرجون القديم (والقمر قد رآه منازل حتى عاد كالعرجون القديم) [يس ٣٩]، وفي هذه الكلمة من الدلالة على الضالة والضعف ما فيها، «فهذا القمر بهجة السماء الساطع الغامر، يبدد ظلمة الليل، ويحيل وحشته أنساً، يصبح بعد هذا كله دقيقاً، نحياً محدودباً، لا تكاد العين تنتبه إليه، وكأنما هو في السماء كوكب تائه، لا أهمية له ولا عناية بأمره، ترى في كلمة العرجون، ووصفها بالقديم ما يصور لك هيئة الهلال في آخر الشهر، ويحمل إلى نفسك ضالة أمره معاً»^(١).

(ب) واستمع إلى قوله تعالى: (وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ) [الرحمن ٢٤].

حيث شبهت السفن في البحر بضخامتها وعظمتها بالأعلام - الجبال الرواسي الشامخات- وإنما اختير لفظ الأعلام دون الجبال، لأنه يبعث في النفس الأنس، وهو ما يحتاج إليه السائر في البحر، ولقد ذكرت الجبال في قوله تعالى: (وَهِيَ تَجْرِي بِمَرْجٍ كَالْجِبَالِ) [هود ٤٢]، لأن ذكر الجبل ألصق بالسياق الذي جاءت من أجله، فهي تتحدث عن الطوفان، يوم أن فجرت الأرض عيوناً، وفتحت السماء بماء منهمر.

وكما شبه الموج بالجبال، فإننا نجد يشبه بالظلل. قال تعالى: (وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) [لقمان ٣٢]، وإنما اختيرت كلمة الظلل هنا، لأن الحديث عن أولئك الذين يتعرفون على الله في الشدة دون الرخاء، وكلمة الظلل توحى بالرهبة، كأن هذا الموج ارتفع إلى رؤوسهم، مما يجعل هلاكهم غير مرتاب فيه، على أن الجبل قد شبه بالظلة في قوله تعالى: (وَإِذَا نَفَخْنَا الْجِبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ) [الأعراف ١٧١]، ذلك لأن الآية هنا

(١) من بلاغة القرآن ص ١٩٢.

جاءت في سياق الحديث عن بني اسرائيل، وكيف رفع الجبل فوق رؤوسهم ليصير ظلة لهم يقيهم حرارة الشمس.

وهكذا تجد التشبيه في كتاب الله ينسجم انسجاماً تاماً مع السياق الذي جاء من أجله. انظر إلى قوله تعالى: (هُنَّ لِبَاسٌ لِّكَرُمٍ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لِّهِنَّ) [البقرة ١٨٧]، ثم فكّر لماذا أوثرت كلمة اللباس هنا؟، وقل لي بربك هل تجد شيئاً أكثر ما تكون له النفس حاجة، وأشد ما يكون لها وقاية، أكثر من اللباس؟ ومع كونه كذلك، فهو ينشر في أجواء النفس البهجة والسرور، وهو بعد ذلك كله زينة وكمال. أعرفت سر اختيار الكلمة اذن؟.

(ج) وإليك مثلاً آخر: أكل الربا يستبيح جهد الناس وعرقهم، فيحرمهم لذة الاستقرار النفسي، وربما ينتج عن ذلك كثير من الآلام والأمراض النفسية أو الجسدية، فما هو التشبيه الذي اختير له في كتاب الله. اقرأ قوله سبحانه: (الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ) [البقرة ٢٧٥]، هذا الذي يتخبطه الشيطان من المس بعيد عن كل استقرار نفسي، وراحة في الجسم، وسلامة في العقل، وهل الجزاء إلا من جنس العمل؟.

(د) وعلى العكس من هذا انظر إلى المؤمن الذي ملأ نور الايمان قلبه، حتى أن الله تبارك وتعالى مثل هذا النور بقوله: (اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَنسَسْهَ نَارُ نُورٍ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) [النور ٣٥].

فانظر إلى نور الله في قلب المؤمن، وانظر إلى هذه العناصر التي اختيرت لهذا التشبيه:

- (١) المشكاة حتى لا يتوزع هذا النور ويتفرق.
- (٢) المصباح.
- (٣) الزجاج.
- (٤) الزيت الذي يوقد منه هذا المصباح.
- (٥) الزيتون لا هي بالشرقية التي تحرم ضوء الشمس حين غروبها ولا هي بالغربية التي تحرم ضوء الشمس حين اشراقها، إنما ترتشف من الشمس في كل وقت.

ومن الخير أن نسلك بك مسلكاً لتلمّ بكثير من تشبيهات القرآن وتقف على خصائصها

ونعني بهذا المسلك أن نقف مع اسلوب التشبيه في كتاب الله من حيث الموضوعات التي جاءت بهذا الاسلوب.

أولاً: الترغيب والترهيب:

والقرآن قد يستعمل اسلوب التشبيه للترغيب أو الترهيب، وذلك ليقرر الأمر المرغَّب فيه كي تقبل النفس عليه ويبين المرهَّب منه كي تنفر النفس منه، استمع إليه وهو يرغب المؤمنين كي تلتئم وتلتحم صفوفهم في الجهاد (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُورٌ) [الصف ٤]، ولم يكتف بذكر كلمة (البنيان) فحسب، وإنما هو بنيان قد رُصَّ بعضه فوق بعض، فأحكمت لبناته، والمشبه به - البنيان - من الأمور التي لا تغيب عن الانسان ألبتة.

واستمع إليه يرشد المسلمين وبخاصة نوي الزوجات المتعددات يرشدهم حتى لا يحيفوا على نساءهم (وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّةِ) [النساء ١٢٩]، فهو يصور اضطراب المرأة وقلقها وعدم استقرارها على حال، حتى لتصبح حياتها مليئة بالتعب والعناء^(١).

وها هو القرآن يحذّر من نقض العهد ويبين ما له من نتائج ضارة وأثار سيئة فيقول سبحانه: (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَقَضَّ عُزْلُهُمْ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَأُوا...) الآية [النحل ٩٢].

ومن الموضوعات الخطيرة التي استعمل فيها اسلوب الترغيب والترهيب: موضوع النفقة في سبيل الله، نجد القرآن يرغب المسلمين كي تكون نفقتهم خالصة لوجه الله تعالى، لا يقصنون مع ذلك شيئاً آخر، وهو مع ذلك يحذر من أن تكون النفقة رثاء الناس، يفخر بها المنفق ليمدحه الناس، ويثنوا عليه، وسنضرب لكل من هذين مثالين من كتاب الله.

أما الذي ينفق في سبيل الله تعالى فقد شبهه القرآن تارة بالحبة تنبت سبع سنابل، وتارة أخرى بجنة بربوة أصابها مطر كثير فأتت أكلها ضعفين، أو أصابها مطر قليل فزكت وطابت، ولكل من التشبيهين غرضه وغايته.

أما النوع الثاني: وهو الانفاق رثاء الناس أو الانفاق من مصدر غير طيب فقد شبهه القرآن بحجر صلد عليه تراب جاءه وابل فتركه صلباً وشبهه ثانياً بزرع جاعته ريح باردة فأهلكته.

(١) من بلاغة القرآن ص ١٩٨.

وإنما كان للقرآن الكريم عنايته بقضية الانفاق لأن أمر المال من الأمور التي تشح عليها نفس الانسان، وتلك طبيعته (وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ) [النساء ١٢٨]، فلقد رغب القرآن في هذا الانفاق، ولما كان اسلوب التشبيه من الأساليب المؤثرة في النفوس نجد القرآن يسلك هذا المسلك ويأتي بهذا الاسلوب - اسلوب التشبيه - ترغيباً في أمر الانفاق وتأكيداً له.

أولاً: قال تعالى: (مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سَنَبْلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) [البقرة ٢٦١].

والمشبه به: وهو الحبة التي انبتت سبع سنابل في كل سنبله مائة حبة، مما لا يجهله أحد، لأن أمر الزراعة من الأمور التي يحوطها الانسان بكل عناية ورعاية في جميع العصور، فالتشبيه منتزع من الطبيعة، ثم هو بعد ذلك عنصر أساسي في الجملة، وانظر كيف اختيرت كلمة (سنابل) على (سنبلات)، والتشبيه تمثيل، لأن وجه الشبه صورة منتزعة من متعدد: وهي صورة الذي يبذل قليلاً ليجني منه الكثير. ولا تنس ما في الآية من تجسيد وتصوير: فصورة الحبة التي تفرع من ساقها شعب متعددة من الأشياء التي تراها العين وتحس بها النفس.

ثانياً: قال تعالى: (وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيثًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَاتَتْ أَكْطُفَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) [البقرة ٢٦٥]، يشبه انفاق أولئك الذين ينفقون ابتغاء مرضاة الله، وتثبيثاً من أنفسهم في طيبه وزكائه، بجنة في مكان مرتفع أصابها مطر شديد، فتضاعف محصولها فإن لم يصبها وابل فطل وهو المطر القليل، وفي التشبيه اشارة إلى أن هذه النفقة تزكو وتطيب قلت أم كثرت.

هذا هو أسلوب الترغيب أما أسلوب الترهيب وهو التحذير من أن تكون النفقة ليست خالصة لوجه الله.

فأولاً: نقرأ في ذلك قول الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَإِصَابَهُ وَابِلٌ فَتُرْكُهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) [البقرة ٢٦٤].

شبه الله نفقتهم بصفوان - وهو الحجر الأملس -، عليه تراب فحسبوه صالحاً للزرع فبذروا فيه حبهم، فلما جاءه المطر ازال التراب عنه فتركه صلباً، وذهب هباء لكل ما يتوقعه الزراع.

ثانياً: وقد شبه القرآن كذلك نفقة أولئك الذين ينفقون فخراً، ليمدحهم الناس في نفقتهم، بزرع جاعته ريح باردة فأهلكته - لم تبق فيه شيئاً - قال تعالى: (مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ) [آل عمران ١١٧].

فانظر كيف شُبّهت نفقة المؤمنين بتشبيهِين اثنين ونفقة غيرهم بتشبيهِين اثنين كذلك، والمطر الذي كان سبباً في النمو والركاء هو الذي كان سبباً في الهلاك والخسران، وإذا نظرت إلى هذه التشبيّهات جميعاً فإنك لا تجد عنصراً غريباً على أي واحد من الناس مهما اختلف الزمان والمكان.

ثانياً: الانسان في القرآن:

(أ) شبه الله المؤمنين الذين شرفوا بصحبة الرسول صلى الله عليه وسلم - وقد كانوا قلة ضعفاء -، بزرع أخرج شطأه وهي تلك الفراخ والشعب التي تتشعب في ساق النبات فتحميه من الآفات فيستغلظ هذا الزرع فيستوي على ساقه، فهو يعجب الزراع في قوته ونموه، وكذلك أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم جميعاً. وقد قوي بعضهم ببعض حتى أصبح هذا الدين قوياً فكان كما قال الله (ليغيظ بهم الكفار)، وهذا التشبيه كما تراه فيه هذا التصوير والتجسيد المحسوس مما ليس غريباً على النفس، لذلك كان له ذلك التأثير البديع، وهو تشبيه تمثيل، لأن وجه الشبه فيه صورة منتزعة من متعدد.

قال تعالى: (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ) [الفتح ٢٩].

(ب) أما المنافقون فنجد أن القرآن يرسم لهم صوراً متعددة، طبقاً لأحوالهم، فالمنافقون كانوا يظهرُونَ الإيمان - كما تعلم - واطهارهم للإيمان كان يدفع عنهم الأذى، حيث كانت تجري عليهم احكام الإسلام، ولكن هذه الحالة لا يمكن أن تدوم.

والمنافقين حالة ثانية: وهو ما كانوا يشعرون به من الحرج والضيق، وذلك حينما تنزل الآيات تفضح أمرهم، فادعائهم الإيمان لا يجديهم، وتظاهروا به لا ينفعهم، وهناك حالة ثالثة، لا من حيث ادعائهم الإيمان ولا من حيث الحرج الذي يجذونه إنما روعيت فيها هيئاتهم الظاهرة التي تعجب الذين يرونهم، وهناك حالة رابعة، وهي حالتهم عندما يجيئهم الخوف ويدعون إلى الجهاد، ونحن نعلم أن القرآن الكريم يشبه كل حالة من هذه بما يناسبها ويتلاءم معها.

ففي الحالة الأولى نقرأ قول الله تعالى: (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ) [البقرة ١٧]، فهو تشبيه لحال المنافقين وقد ادعوا الإسلام وتظاهروا بالإيمان، فظنوا في أنفسهم أن هذا الخداع لن تكون له نهاية، ولكن هيهات، فمثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فبددت الظلمات وأضاعت ما حوله، وبينما هو كذلك في فرحه ومرحه وسروره، وبهجته، وإذ بهذه النار تخدم وتنطفئ فلا يبقى منها شيء.

أما في حالتهم الثانية وهي حالة الحرج والضيق فنقرأ قوله تعالى: (أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ) [البقرة ١٩].

يشبه القرآن حالهم في هذا الضيق، وتلك القسوة، وذلك الحرج، بقوم يسرون والمطر الكثير الشديد ينزل من السماء، وقد اظلم الجو، ومع هذا المطر رعد قاصف، وبرق شديد اللعنان، فهم يجعلون أصابعهم في آذانهم حتى لا يسمعو أصوات الرعد، وهذا البرق الشديد يكاد يخطف أبصارهم، ولكن مع شدته يضيء لهم إذا مشوا فيه، فإذا ذهب وقفوا في امكنتهم، فهم في شدة على كل حال. وكذلك كان المنافقون، فهم مع ادعائهم الإسلام كانوا يخشون دائماً أن تنزل آية تنبئ عن أحوالهم وتفضحهم، فهم مضطربون دائماً، لا يستقر لهم قرار يبين هذا قوله تعالى: (يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُبَيِّنُ بَأْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ) [التوبة ٦٤].

أما حالتهم الثالثة فقد شبههم القرآن بالخشب المسندة، فشان الخشب أن يستفاد منه في البناء والسفن، وغير ذلك، أما عندما يكون مسنداً فستنخره السوس دون الاستفادة منه، فهم وإن أعجبك مظهرهم، لكن مخبرهم وحقيقتهم ليست شيئاً، وفي هذا نقرأ قول الله تعالى: (وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّكُمْ خُشْبٌ مُسْنَدَةٌ) [المنافقون ٤]،

وفي مثل هذا يقول الشاعر^(١):

لَا يَخْدَعَنَّكَ اللَّحْيُ وَلَا الصُّوْرُ تِسْعَةُ أَعْشَارٍ مَنْ تَرَى بَقَرُ
تَرَاهُمْ كَالسَّحَابِ مُنْتَشِرًا وَلَيْسَ فِيهَا لِطَالِبٍ مَطَرُ
فِي شَجَرِ السُّرُو مِنْهُمْ شَبَبُهُ لَهُ رَوَاءٌ وَمَا لَهُ ثَمَرُ

وأما حالتهم الرابعة: فقد شبههم القرآن بحالة الذي يغشى عليه من الموت. قال تعالى:
(أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ تَتَوَرَّعُ عَنْهُمْ كَالَّذِي يَغْشَى عَلَيْهِ
مِنَ الْمَوْتِ) [الأحزاب ١٩]، وقال تعالى: (وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا تُرِلَّتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ
سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى
عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ) [محمد ٢٠].

(ج) أما الكافرون فنجد لهم في القرآن الكريم تشبيهات كثيرة متعددة مع أن كل واحد
يختلف عن الآخر، ذلك لأن الموضوعات التي تناولتها هذه التشبيهات ليست سواء، ومن
هنا اختلفت صور التشبيه باختلاف الأغراض.

(١) فمن حيث الإعراض عن الحق والتولي والابتعاد نجد هذه الصورة الدقيقة ونحن نقرأ قول
الله تعالى: (فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ)
[المدثر ٤٩]، فانظر إلى تلك الصورة لهؤلاء وهم يفرّون من الداعي، ويعرضون عن الحق،
ولكن هذا الاعراض لا يزيدهم إلا حيرة وخوفاً؛ فما أشبههم بهذه الحمر الوحشية النافرة
الشاردة، وهي تفر من أسد خشية أن يفترسها.

إن التشبيه هنا مع ما فيه من إبداع التصوير وروعة، نجد فيه كذلك من دقة التعبير
وموضوعيته، ذلك أنهم شبهوا بالحر، والحر مثال في البلادة ثم هم قد فروا من قسورة، وفي
هذا إحياء أن الداعي إلى الحق حري به أن يكون أسداً فتكون الشجاعة من أبرز صفاته،
وشتان بين ما فر من أجله هؤلاء وبين ما تفر من أجله الحر المستنفر، أليسوا أضل من الحر
سبيلاً؟ وانظر إلى كلمة (مستنفرة) وما فيها من السين والتاء، وكلمة (فرت) كل هذا وغيره من
الخصائص التي حدثك عنها في تشبيهات القرآن مما له عمله في النفس، وتأثيره في القلب.

(٢) وقد يشبه الكافرون وهم يُدْعَوْنَ إِلَى الْحَقِّ وقد أحاطت بهم الغفلة، فهم لا يسمعون من

(١) روح المعاني للألويسي ١١١/٢٨، والرواء - بفتح الراء: الماء الكثير يُروى به.

الداعي إلا حروفاً وأصواتاً لا يفقهون منها شيئاً، فما أشبههم بتلك الأنعام التي تسمع صوت داعيها وراعيها، ولكنها لا تميز ما يضر مما ينفع. نقرأ قول الله تعالى: (وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الذِّبْءِ الَّتِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءٌ وَنِدَاءٌ) [البقرة ١٧١]، المشبه هنا: الداعي إلى الإيمان وهو يدعو أولئك الغافلين، والمشبه به: الراعي الذي يصيح بهذه الأنعام التي لا تسمع إلا دعاءً ونداءً، ووجه الشبه صورة من لا يميز بين ما يضره أو ما ينفعه.

وقريب من هذا التشبيه قوله سبحانه: (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) [الاعراف ١٧٩]، إلا أن الفرق بين هذا التشبيه وبين الذي قبله، أن التشبيه السابق نظر إلى حال الداعي لأولئك الكافرين، أما هذا التشبيه فليس كذلك، هذا من جهة.

ومن جهة ثانية فإن هذا التشبيه فيه تفصيل؛ فقد ذكر الاستعدادات التي مكن منها أولئك، فقد هيأ الله لهم القلوب ليفقهوا بها الأمور وهذا ما لم يهيأ للأنعام، صحيح أنهم كانت لهم العيون والأذان التي يشتركون فيها مع الأنعام ولذلك نجد القرآن حينما شبههم بالأنعام يضرب عن هذا التشبيه فيقول «بل هم أضل»، وإنما كانوا أضل لأن الأنعام لم تملك هذه الوسائل التي يملكونها، وهكذا نجد أن التشبيهات في القرآن بعيدة كل البعد عن شبهة التكرار وشائبة.

وقد يشبهون بالأنعام ولكن من وجه آخر وصفة غير الصفات التي مرت معنا من قبل، فالأنعام لا تبغي إلا أن ترتع وتاكل من أجل أن تملأ بطونها وليس وراء ذلك شيء، فالأكل هو الغاية. وكذلك أولئك فهم يعيشون ليأكلوا، وشتان بينهم وبين من يأكل ليعيش، يقول الله تبارك وتعالى: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ) [محمد ١٢]، وشتان بين هؤلاء وبين من يتقوى في أكله على عمل الخير والطاعة، ومن هنا كان المؤمن يأكل في معي واحد والكافر في سبعة أمعاء.

تلك تشبيهات ثلاثة شبه الكافرون فيها بالأنعام، ولكن كان لكل واحد منها جهته وموضوعه كما رأيت.

(٣) وقد يكون المشبه اعمال الكافرين لا نواتهم وأحوالهم، وهنا نجد أن موضوع التشبيه كذلك ليس شيئاً واحداً، فقد يعمد التشبيه ليقرر أن هذه الأعمال سوف تتلاشى مع كثرتها، بحيث لا يبقى لها أثر مهما أريد لها أن تضخم ومهما أحيطت بها من هالات، ومهما اصطنع لها

من دعاية، (وقدّمنا إلى ما عملوا من عملٍ فجعلناه هباءً منثوراً) [الفرقان ٢٣].

وتشبيهات القرآن قد يُفصل بعضها ما يجمله الآخر، فقد يقتضي السياق اجمال الصورة دون التفصيل. نقرأ قول الله تبارك وتعالى في تفصيل التشبيه: (مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ) [إبراهيم ١٨]، فالقرآن لم يشبّهها بالرماد فحسب، ولكنه رماد أصابته ريح شديدة وليس هذا فحسب بل في يوم عاصف كذلك، فماذا عساها تبقى منه يا ترى؟ كذلك أعمال أولئك. أرايت دقة فيها الاستيعاب، استيعاب الموضوع المتحدث عنه أكثر من هذه الدقة أنك بكل طمأنينة تقول (لا).

وقد يعمد التشبيه إلى شيء آخر فنحن نعلم أن الأعمال ليست سواء، فهناك الأعمال التي ليست في ظاهرها سوءاً، وهناك الأعمال التي هي سوء في الظاهر والباطن، نقرأ قول الله تبارك وتعالى: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ) [النور ٣٩ - ٤٠].

والقارئ يدرك لأول وهلة - والله أعلم بمراده - أن الأعمال في الآية الأولى هي تلك الأعمال التي تبدو في ظاهرها خيراً ويظهر أن لها بريقاً ولمعاناً، يدلنا على ذلك أنها شبّهت بسراب بقيعة فيظن من رآه أنه ماء، ويجد في طلبه، ولكنه يوقن بعد ذلك أنه واهم حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً.

ومع أسلوب التشبيه نجد الدقة في التعبير، وتظهر تلك الدقة في كلمة (الظمان) حيث اختيرت هذه الكلمة لتصور شدة الحاجة، والضرورة الملحة على طلب الماء، كذلك (حتى) إذا جاءه لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً) فهناك قَصْدٌ في طلبه تدل عليه هاتان الكلمتان: (حتى)، (إذا)، ثم لا تنس كلمة (شيئاً) حيث استعملت بدل كلمة ماء، أي لم يجد أي شيء يمكن أن يكون له وجود، وهذه الكلمة تجعل التشبيه يلتقي مع التشبيه الذي قبله، ثم ما أروع ما ختمت به الآية الكريمة (وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ).

أما النوع الثاني من الأعمال فهو السيء في ظاهره وباطنه، فقد جاء تشبيهها في الآية الثانية بهذه الظلمات الكثيفة في بحر لحي، وفيه الأمواج المتلاطمة بعضها فوق بعض، ومن فوق هذه الأمواج السحب المتلبدة، حتى إن الإنسان إذا أخرج يده لم يكدرها، وما قيل عن دقة التعبير في التشبيه الأول يقال في هذا كذلك، يدلك على هذا كلمة (أخرج) وكلمة (لم يكدر)، ثم ما أجمل ما ختمت به الآية (وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ).

(٤) وقد يكون التشبيه لفئة خاصة من الكافرين وفي حالة خاصة كذلك ونذكر لذلك مثالين من كتاب الله:

المثال الأول: تشبيه اليهود: أولئك الذين أكرمهم الله بالتوراة، وأورثهم الكتاب، ولكنهم اتخنوه

ظهيراً، بنوه وراء ظهورهم وأعرضوا عن هدايته، فحرفوا كلماته، وبدلوا أحكامه. قال تعالى: (مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا) [الجمعة ٥]، فالمشبه به هو الحمار، ولكن ليس مطلقاً ولكنه الحمار الذي يحمل أسفار العلم المفيدة بل غزيرة الفوائد ولكن ليس له في حملها إلا الإجهاد والمشقة والتعب، وكما أن المشبه والمشبه به مركبان فوجه الشبه كذلك، وهو صورة من يتعب نفسه ويجهدا بكل نفيس دون أن يحصل من ذلك على طائل.

المثال الثاني: من أكرمه الله بالآيات والهداية ولكنه انسلخ منها قال تعالى: (وَأَنذَلْ

عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ نَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِ اللَّهِ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) [الأعراف ١٧٥]، فالمشبه به وهو الكلب في أخص وأخص صفاته أنه يلهث في كل

حال. قال الجاحظ: «فزعموا أن هذا المثال لا يجوز أن يضرب لهذا المذكور في صدر هذا الكلام لأنه قال: (وَأَنذَلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا) فما يشبهه حال من أعطي شيئاً فلم يقبله، - ولم يذكر غير ذلك - بالكلب الذي إن حملت عليه نبح وولى ذاهباً، وإن تركته شد عليك نبجه، مع أن قوله يلهث لم يقع في موضعه، وإنما يلهث الكلب من عطش شديد وحر شديد ومن تعب، وأما النباح والصياح فمن شيء آخر، قلنا له إن قال: (ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا) فقد يستقيم أن يكون الراد لا يسمى مكذباً، ولا يقال لهم كذبوا إلا وقد كان ذلك منهم مراراً فإن لم يكن ذلك فليس ببعيد أن يشبه الذي أوتي الآيات والأعاجيب والبرهانات والكرامات في بدء حرصه عليها وطلبه لها بالكلب في حرصه وطلبه فإن الكلب يعطي الجهد والجهد من نفسه في كل حالة من الحالات وشبه رفضه وقذفه لها من يديه ورده لها بعد

الحرص عليها وفطر الرغبة فيها بالكلب إذا رجع ينبج بعد اطرداك له، وواجب أن يكون رفض قبول الأشياء الخطيرة النفسية في وزن طلبها والحرص عليها، والكلب إذا اتعب نفسه في شدة النباح مقبلاً عليك ومدبراً عنك لهث واعتراه ما يعتريه عند التعب والعطش^(١).

(٥) وقد يشبه الكافرون وهم يعتمدون على معبوداتهم المتعددة فلا تغني عنهم شيئاً بما يقتضيه السياق، واستمع إلى قوله تعالى: (لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ شَيْءٌ إِلَّا كِبَاسٌ كَفِّهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَلَا وَهْمَ بِيَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ) [الرعد ١٤]، قف مع روعة هذا التشبيه، ونظن أنه كان الأصل لكل التشبيهات التي استعملها الشعراء في معناه فيما بعد، وانظر إلى المشبه به: وهو الباسط كفيه إلى الماء يظن أن ذلك يغني عنه شيئاً وسيبلغ فاه وأنى له ذلك، ألا تجد في هذا التشبيه تلك الصورة التامة لأولئك الذين يدعون من دون الله، أن ذلك سيصل بهم إلى هدفهم المنشود، وغايتهم المقصودة، وما هم ببالغين ذلك.

(٦) وفي تشبيه آخر نقرأ قول الله تعالى: (مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) [العنكبوت ٤١]، وإذا كان بيت العنكبوت لا يغني عنه شيئاً، فلا يقيه شراً، بل لا يؤويه لو هنه وضعفه. وإذا كانت خيوط العنكبوت من أقوى الخيوط، - كما يقول أصحاب الاختصاص - وبيته من أوهن البيوت، فإن ذلك يطلعنا على دقة التشبيه، لأن أولئك الذين اتخذوا من دون الله أولياء وقد منحهم الله العقل الذي يستتبرون به، هم الذين يهلكون انفسهم فلا يغني عنهم أولياؤهم شيئاً، وانظر اليهم إن شئت في عصر العلم وما يعانونه من التحطم النفسي، والانهيار العصبي، وسل الاحصائيات تنبئك بذلك.

(٧) وقد يشبه الكافرون المعرضون عن الآيات، وقد فقدوا الطمأنينة، وتملكتهم مشاعر الضيق، والاحساس بالحرج، بمن يصعد في السماء قال تعالى: (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يَضْلِهِ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرُّجُسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ) [الأنعام ١٢٥]، «شبه بمن يزاو ما لا يقدر عليه، فإن صعود السماء مثل فيما هو خارج عن دائرة الاستطاعة»^(٢).

(١) الحيوان ١٦/٢ - ١٧.

(٢) روح المعاني ٢٢/٨.

(٨) وقد يشبه الذين أحاطت بهم سيئاتهم فغشيتهم الذلة، وغطى سواد الأعمال وجوههم، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بَمِثْلِهَا وَتَرَهُمْ ذُلٌّ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ كَانَمَا أُغْشِيتْ وَجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ [يونس ٢٧]، فانظر إلى هذا التصوير البديع المروع المرهب، كيف انتزعت فيه قطع من الليل المظلم فجعلت غطاء لهذه الوجوه.

(٩) وقد يكون التشبيه في القرآن لأولئك الذين حلت بهم العقوبة بعد تكذيبهم لأنبيائهم، ومن ذلك ما شبه به المكذبون من قوم هود عليه السلام، وقد سلطت عليهم ريح صرصر عاتية ﴿سَخَرَهَا عَلَيْهِمْ سِنْعٌ لَّيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَانَهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة ٧]، وفي آية أخرى ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ تَنْزِعُ النَّاسَ كَانَهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ [القمر ١٩]، ففكر في هذا التطابق، فقد اهلكوا بالريح، ولما كان من شأن الريح القوية أن تقتلع الأشجار، ومن أضخمها النخيل شبهوا بأعجازها.

ومثل هذا ما حدثنا القرآن عن ثمود - قوم صالح عليه السلام - ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمٍ مُّحْتَضِرٍ﴾ [القمر ٢١]، والخطيرة ما يتخذ للغنم لتأوي إليه، فانظر كيف تصبح هشيماً لأنها متخذة من القش وما يشبهه، ومثل هذا ما حدثنا القرآن عن أصحاب الفيل بقيادة أبرهة ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّا كُوِّلَ﴾ [الفيل ٥]، وللعصف صورة في النفس بعد أن يفصل عن الحب، فما بالك بصورته بعد أن يؤكل؟! فأعجاز النخل المنقعر، وهشيم المحتظر، والعصف المأكول، كلها أمور مشاهدة من جهة، وهي مما تملء النفس ولا ترغبه من جهة أخرى، ولكن ما الذي يؤثر في النفس؟ إن هذه الأشياء التافهة ليست إلا نهاية لأولئك المتجبرين المعتدين المعرضين عن الحق، فالقرآن يقصد من التشبيه التنبيه إلى المادة الهشة من الهشيم، والعصف المأكول ومن أين أتت وكيف تحولت؟ ومن هؤلاء الذين تحولوا فأصبحوا كذلك؟!.

(١٠) وقد يكون التشبيه من حيث القلق النفسي وسوء العاقبة، ونمثل له بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج ٢١]، وللعلماء مسلكان في تقدير هذا التشبيه: بعضهم يفرق أجزاءه فيجعل

تشبيهات متعددة، وآخرون يجعلونه تشبيهاً واحداً مركباً، وهو الذي يعجبني وأميل إليه^(١).

يشبه القرآن الكريم المشرك الذي حُرِمَ طمأنينة الإيمان، فهو نهبٌ للهواجس والوساوس، تلازمه ليله ونهاره، فلا يستقر على حال، فهو في انحدارٍ دائمٍ، يشبهه بمن خرَّ من السماء، من مكانٍ ساحقٍ مرتفع - وما أشد وقع كلمة الخور في هذا الموقع - فهو سقوطٌ فيه مفاجأة ورُعب، فمثل المشرك وحاله كمن خرَّ من السماء وبينما هو كذلك فإما أن تختطفه الطير لتجعله فرقاً ومزعجاً، وإما أن يسلم منها فيهوي إلى مكانٍ سحيقٍ، فهو انحدارٌ لا يشبهه شيء، بحيث يصير ابعدَ ما يكون عن عالمه الذي كان يعيش فيه، فهو بين حالين لا أقول أحلاهما مرّاً، بل كلاهما غاية في المرارة والألم، فهو إما أن تخطفه الطير حين خروجه من السماء فيكون ارباً، وإما أن يهوي في مكانٍ سحيقٍ لا قرار له، وهكذا حال المشرك وعاقبته فما أعظم القرآن الكريم في صوره وسوره.

ثالثاً: تشبيهات عامة:

وإذا كانت التشبيهات السابقة لفئات الناس فهناك تشبيهات أُخرَ ليست لفئة من الناس دون فئة، ولكنها تشبيهات عامة لكل ما يحيط بهؤلاء جميعاً، ومن هذه التشبيهات:

١- الدنيا:

والانسان مطبوع على حب الحياة وربما تملكه هذه الحياة فتتسبب انسانيته، وتطفئ على كلِّ معاني الخير، لذلك نجد عناية القرآن ببيان حقيقة الدنيا، وهي في الواقع عناية بالانسان نفسه، حتى لا تطفئ عليه شهواته، فنجد القرآن يعقد للدنيا تشبيهات بما يحيط بهذا الانسان مما لا يجهله أحد، وهذه تارة تجيء مجملة وتارة مفصلة كما قلنا من قبل.

فمن المجلمل قوله سبحانه: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مِّثْلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَتْرَكْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ﴾ [الكهف ٤٥]، فقد شبهت الدنيا في سرعة زوالها بهذا النبات، الذي ينزل عليه الماء من السماء ولكنه بعد خضرته وبهجته يصبح هشيماً حتى أن الرياح لتذروه فلا تبقي له أثراً، وهناك تشبيه آخر فصل فيه كل من المشبه والمشبه به وهو قوله سبحانه: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوٌّ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمِثْلِ غَبْثِ الْكَافِرِ نَبَاتُهُ ثَمَرٌ يَبْهِجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ

(١) راجع الكشف ج ٢، سورة الحج آية ٢١.

(الغرور) [الحديد ٢٠]، فلقد ذكر المشبه باداة القصر، وما يستهوي الناس في هذه الدنيا فيستغرق أعمارهم جميعها، ويشغلون به أنفسهم وأوقاتهم، وماذا غير اللعب واللهو والزينة والتفاخر والتكاثر، أما المشبه به فهو ذلك النبات الذي أحياء الغيث فأعجب الكفار نباته ومن الممكن أن نفسر الكفار هنا بالزراع واختيار الكلمة هنا له احياءه الكثيرة ولكن سرعان ما يزول هذا العجب إذ لا يلبث فيهيح فتراه مصفراً. ولقد لوحظ في هذا التشبيه كذلك الدقة في التعبير مع جمال التصوير، نلمح هذا في كلمة (الكفار) وفي الفعل المضارع تراه ولم يقل «هَاجَ فاصْفَرَّ» وما ذلك إلا لتستحضر الصورة المشخصة امامك وفي كلمة (ثم) الدالة على التراخي، وهو أمر لا مناص منه مهما امتد وقته وطال أمده.

وهناك تشبيه ثالث فُصل فيه المشبه تفصيلاً تاماً، وذكرت فيه الصورة بجميع أجزائها وعناصرها ذلك هو قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَتْرَلْنَاهُ مِنْ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازِيدَتْ وَطْنَ أَهْلِهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَنَاهَا أَمْرًا لَّيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ الْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس ٢٤]، والتفصيل في المشبه به يوحي للنفس تفصيلاً في المشبه فالمشبه به هنا ذلك النبات الذي لا غناء للإنسان وللأنعام عنه، وقد نزل عليه الماء من السماء فنهضت به الأرض وربت، وأخذت زخرفها وتزينت وبلغت غاية حسننها، ونهاية بهجتها، وهنا وقد أصبح كل شيء على أحسن ما يرام، وأجمل ما يرى، جاءت اللحظة الحاسمة ﴿أَنَاهَا أَمْرًا لَّيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾، والليل والنهار في هذه الدنيا يجتمعان، ولكن في أمكنة مختلفة فهنا ليل وهناك نهار، وماذا بعد ذلك؟ ﴿فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ الْأَمْسِ﴾ هكذا بهذه الفاء الدالة على التعقيب التي لا تدع مهلة، ولا تقبل تسويقاً.

٢- الآخرة:

أول ما يلفت الانتباه أن القرآن الكريم وهو يبين للناس أمر البعث، وحقيقة الآخرة، لم تكن أدلته من ذلك النوع التجريدي، البعيدة عن مواطن التأثير، فجعل من أسلوب التشبيه، ومن أبرز عنصرين فيه وهما: الحسّ والنفس، البرهان الساطع، والدليل القاطع، على اثبات هذه القضايا الخطيرة الشأن اقرأ قوله سبحانه: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هَوِّ أَقْرَبَ﴾ [النحل ٧٧]. وقضية البعث في الحقيقة أخطر قضية، لأن كل ما بعدها ينبني عليها، وما هو القرآن الكريم يسلك في ذلك أيسر المسالك، وأسهلها وأبعدها عن التعقيد، استمع إليه

يقول: (كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ) [الأعراف ٢٩]، ومن الذي يستطيع أن ينكر وجوده وأن له بداية؟، العود كالبدء، ذلك تشبيه بسيط سهل لا ينازع فيه صاحب فطرة سليمة، وعقل سوي، فهو يبعثكم كما خلقكم.

وإذا كان هذا التشبيه يستند إلى الانسان نفسه، فهناك تشبيه آخر يستند إلى ما حول هذا الانسان، مما لا تنازع فيه الحواس، بل هو مما يجتمع عليه جميع الناس، نقرأ قوله سبحانه: (وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سَفَّاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ، فَاتْرَكْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ) [الأعراف ٥٧]، هذا هو المشبه، أترى أن أحداً يمكن أن ينازع فيه؟ أليست الرياح تحمل سُحباً تساق إلى الأرض الهامدة الميتة الخاشعة؟ ينزل عليها الماء، وتخرج به الثمرات المختلفة، أما المشبه به فهو ما ختمت به الآية (كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) [الأعراف ٥٧]، فإذا كان المشبه أمراً فطرياً فلم لا يكون المشبه به كذلك؟ أليس العقل والحس والنفس، تشترك كلها في اثبات هذا التشبيه؟ ولما كانت هذه القضية أكثر شأناً وخطراً من غيرها عمد القرآن إلى تثبيتها في النفوس في أكثر من موضوع، وبأكثر من أسلوب، والذي يعيننا أسلوب التشبيه (كَذَلِكَ نُخْرِجُونَ) [الزخرف ١١]، (كَذَلِكَ النُّشُورُ) [فاطر ٩]، (كَذَلِكَ الْخُرُوجُ) [ق ١١].

وبعد قضية البعث نجد تصويراً لمشاهد كثيرة من مشاهد الآخرة بأسلوب التشبيه، نكتفي بذكر بعضها:

(١) فيشبه الناس تارة بالفراش المبتوث. ومن ذا الذي يجهل الفراش وهو يتدافع إلى الضوء؟ ويشبهون تارة (بِوَمَرٍ يُخْرَجُونَ مِنْ الْأَجْدَاثِ سِرَاعاً كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ) [المعارج ٤٣]، وكيف تكون حالتهم وهم يتدافعون بسرعة، وقوة حركة لصنم، سواء كان من أصنام الجاهلية الأولى أم من أصنام القرن العشرين، وتارة يشبهون بالجراد المنتشر، وللجراد في تصور الناس - حتى في عصرنا هذا - احياءات معروفة لا تنكر، فهم اليوم يحاربونه بالطائرات.

(٢) أما الجبال فتارة تشبه بالعن المنفوش، ومن الذي يجهل الصوف في لينه وخفته؟ ولكنها في مرحلة أخرى تشبه بالسحاب (وَنَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ) [النمل ٨٨]، إن قلنا إن الآية تتحدث عن مشهد من مشاهد يوم القيامة، وهناك تفسير آخر للآية الكريمة، واسلوب التشبيه وارد على كلا التفسيرين. وتارة كالكتيب المهيل من

الرمل، وهي مراحل مختلفة تمر بها الجبال، أعني هذه التشبيهات كل منها يدل على مرحلة لها وقتها الخاص بها.

(٣) والسماء الصافية المتألئة كما نراها في دنيانا، سيكون لها شأن آخر يوم القيامة.

- قال تعالى: (فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ) [الرحمن ٣٧].

- وقال تعالى: (يَوْمَ نَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ) [المعارج ٨].

فالآية الأولى ذُكر فيها تشبيهان - وسيمر بك بعض الآيات التي تتحدث عن الآخرة فيها تشبيهان كذلك - شُبّهت السماء بالوردة أولاً وهي الثُّورَةُ المعروفة بشدة حمرتها، وذهب بعض اللغويين من المفسرين إلى أن المقصود بالوردة هنا ليست النوره - أعني الوردة المعروفة للناس - إنما هي الفرس الوردي الذي يتغير لونه بتغير فصول السنة^(١).

أما التشبيه الثاني فهو تشبيه السماء بالدهان - والدهان جمع دهن - فلأن السماء يعتريها في ذلك اليوم العظيم أُلوانٌ وَنُوبٌ وتميعٌ وهكذا نجدُ أن كل تشبيه من التشبيهين يؤدي غرضاً؛ فالأول: تشبيهه من حيث شدة الحمرة، والثاني من حيث التموّج والنوبان.

وأما قوله تعالى: (يَوْمَ نَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ) المهل: هو دُرْدِيُّ الزيت أي عَكَرُهُ ومن الذي لا يعرف عكر الزيت، كما يطلقُ المهلُّ على مائع الفلزِّ المذاب، وهو تشبيهٌ لا يخلو من رعب ورهبة؛ فهذه السماءُ الصافية المتألئة التي لا زالت توحى إلى الشعراء وتبعث في نفوسهم بديع القول وروعة الصنعة ستتحولُ يوم القيامة إلى هذا اللون من العُكرة والكدورة التي تبعث الرعب والخوف في قلوب الرائيين وأعينهم.

(٤) أما الجنة فتجد أن اسلوب التشبيه الذي جاء في كتاب الله يضع الصورة أمامك، ليأنس بها القلب، أو تنخلع لها النفس، فالجنة عرضها كعرض السماوات والأرض، وانظر ماذا يحدث هذا التشبيه في النفس؟ عرض السماء والأرض، أي سعة تلك؟ وأنى للنفس أن تحيط بذلك؟!.

(٥) أما الحور العين فتارة يُشَبَّهْنَ بالياقوت والمرجان، وتارة بالببيض المكنون، وتارة باللؤلؤ، ولا تظنن أن الغاية من هذه التشبيهات كلها شيء واحد، إن كل تشبيه يهدف إلى غرض معين، وله أياؤه الخاص، فالتشبيه بالياقوت والمرجان، المراد منه الصفاء والنقاء، وأما التشبيه

(١) وهذا ما ذهب إليه الفراء، حيث قال: (اراد بالوردة الفرس، الوردة تكون في الربيع وردةً إلى الصفرة، فإذا اشتد البرد كانت وردةً حمراء فإذا كان بعد ذلك كانت وردة إلى الغبرة، فشبّه تلون السماء بتلون الوردة من الخيل). معاني القرآن للفراء ١١٧/٢.

باللؤلؤ فَيَجْمَعُ إلى ما تقدم النفاسة، وكلها مما تتخذها النساء زينة لهن، وهذه الصلة بين المشبه والمشبّه به مما تزيد النفس تأثراً وتفاعلاً وتعلقاً بهذا التشبيه، وأما التشبيه بالبيض فيشير إلى الرقة، وشدة الحساسية وما يتطلبه ذلك من قوة الملاحظة، والمحافظة، هذا عن الجنة، فماذا عن النار؟!

(٦) أما النار فإنها ترمي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ، فهما تشبيهان:

- الأول: تشبيهها بالقصر: وهو البيت من الحجر كما هو معروف عند العرب، وقيل: القصر: قطع الحطب الغليظ، والأول أرجح وأولى، وهو تشبيه من حيث العِظَم، أي أن الشرارة الواحدة من شرر جهنم تشبه القصر في عِظَمها.

- أما التشبيه الثاني: فهو قوله تعالى: {كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ} فكما شبه شرر جهنم بالقصر من حيث عِظَمُها، شبهه بالجمال الصفر - وهي جمع جمل - من حيث شكلها ولونها وكثرتها، وهذا تشبيه جارٍ على سنن العرب؛ فالذي يتتبع أقوال الشعراء في الجاهلية وبعدها يجدُ مثل هذه التشبيهات، وللعرب تشبيهاتٌ بديعةٌ تدلُّ على ذكاء وإريحية وفطرة ذكية وسليقة درّاسة، ألا تراهم قد شبهوا النوق وهي واقفة بالقصور بينما شبهوها وهي سائرة بالصقور فقالوا: (إِنْ وَقَفْنَ فَمَجَادِلُ أَوْ مَرَرْنَ فَأَجَادِلُ) والمجادل القصور، والأجادل الصقور.

ولا تعجب من قرن الجمال الصفر بالقصور الحمر في الذكر، ولا من الجمع بينهما في التشبيه، فإنك إذا نظرت إلى قريةٍ من قرى العرب وقصورها، أي أبياتها الصغيرة المحمّرة أو المصفرة بلون طينها أو ترابها أو حجارتها، يتخللها ويسرح في جنباتها نياق وجمالٌ مصفرة اللون أو مسودته، إذا وقع نظرك على ذلك لمحت أجساماً صغيرة حمراء أو صفراء أو سوداء، هذه البيوت هنا، وتلك الجمال هناك في مشهدٍ واحدٍ، وإذ ذاك لا تعود تستغرب قرنها معاً في الذكر.

وإنما منشأ استغراب هذه الأمثلة من قبل بعض الناس الجهل بأحوال العرب وأطوار معيشتهم واساليب حياتهم، الأمر الذي روعي من قبل القرآن الكريم في آياته واساليب خطابه^(١).

(٧) أما شجرة الزقوم، فهي طعامُ الأثيم كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم، أما طلوعها فكأنه رؤوس الشياطين.

(١) تفسير جزء تبارك / عبد القادر المغربي ص ٢٩٢ - ٢٩٣.

تلك بعض تشبيهات القرآن الكريم، وتلحظ ممّا سبق:

أولاً: أن القرآن الكريم يعمد إلى أسلوب التشبيه في القضايا الخطيرة ذات الشأن، فهو لا يأتي بهذا الأسلوب إلا حينما يكون هناك أمر يراد تقريره وتثبيتته في النفوس، وهذا ما يجعله يختلف عن كثير من التشبيهات عند الناس.

ثانياً: أن تشبيهات القرآن كلها لا تخلو عن كونها تشبيه محسوس بمحسوس أو معقول بمحسوس اللهم إلا تشبيهين اثنين:

أحدهما قوله سبحانه: (طَلَعَهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ) [الصافات ٦٥]، فإن المشبه به مما لا يدرك بالحواس، ولكن لما كان ذلك مما لا تنكر النفوس صورته، بل لا تجد نفساً إلا وتشتمن من هذه الصورة شبه به القرآن.

والتشبيه الثاني: قوله سبحانه في شأن عصا موسى عليه السلام: (فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ) [القصص ٢١]، إذا فسرنا الجانّ بذلك المخلوق من النار، ووجه الشبه الخفة وسرعة الحركة، وهو ما نختاره، ولكن أكثر المفسرين على أن الجانّ هي الحية الصغيرة، فيكون من قبيل تشبيه المحسوس بالمحسوس.

ثالثاً: أن تشبيهات القرآن الكريم منها ما هو مفرد ومنها ما هو مركب، وهو تشبيه التمثيل كما عرفت من قبل.

(كذلك) في كتاب الله،

وللأستاذ أحمد أحمد بدوي - رحمه الله - في كتابه من بلاغة القرآن بحث قيم عن تشبيهات القرآن، تحدث في آخره عن صيغة (كذلك) في كتاب الله، وهو يرى أنها تجيء أكثر ما تجيء لمعان ثلاثة:

(١) التشبيه في مثل الآيات التي تحدثت عن البعث - التي ذكرناها لك من قبل - وفي مثل

قوله سبحانه: (كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) [القلم ٣٣].

في آخر قصة أصحاب الجنة الذين أقسموا ليعصرمنها مصبحين.

(٢) أن تكون بمعنى (مثل) في مثل قوله تعالى: (وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ) [الأعراف ٤٠].

(وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ) [الأعراف ٤١].

(٣) أن تأتي لتحقيق الأمر وتثبيته، في مثل قوله سبحانه: (قَالَتْ رَبِّ أَتَى بَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشْرٌ قَالَ كَذَلِك... [آل عمران ٤٧])، فهو يرى أنها في هذين المعنيين لا تصلح للتشبيه وأن حملها على التشبيه فيه تحمل، وكثير من المفسرين ذهب إلى غير هذا، ولكل وجهة.

(الكاف) في كتاب الله:

أما الكاف فتأتي في القرآن أحياناً لا لهذا التشبيه الفني الخالص، بل لايقاع التساوي بين أمرين، ومن أمثلة هذا الباب قوله تعالى: (وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَكَثْرَ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخُلُقِهِمْ فاستمتعتم بخُلُقِهِمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخُلُقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) [التوبة ٦٨ - ٦٩]، وقوله تعالى: (إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا فَعَصَى فِرْعَوْنَ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْداً وَبِيلاً) [المزمل ١٥]، فهي موازنة بينهم وبين من سبقهم، فيها بيان لما يتفقون فيه معهم، وتذكير لما أصاب أولئك السابقين ليتبصروا بما ينتظرهم من العواقب، وإنها لطريقة مؤثرة في النفس حقاً، أن تضع لها شبيهاً، وتتركها لتصل إلى النتيجة في سكونة وهدوء، لا أن تقذف بها في وجهها، فربما تتمرد وتثور.

ومن كاف التساوي، أيضاً قوله تعالى: (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ) [النساء ١٦٣]، وقد يلمح في ذلك الرغبة في إزالة الغرابة عن نفوس السامعين، واستبعادهم نزول الوحي على الرسول، فالقرآن يقرنه بمن لا يشككون في رسالته ليأمنوا بدعوة النبي، وقد يكون هذا التساوي مثاراً للتهكم كما في قوله تعالى: (وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ) [الأنعام ٩٤] أو مثاراً للاستنكار كما في قوله تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ) [العنكبوت ١٠]، فسر الاستنكار - كما ترى - هو تسوية عذاب الناس بعذاب الله.

وقد تأتي الكاف وسيلة للايضاح، وتقوم هي وما بعدها مقام المثال للقاعدة، وغيرُ خافٍ ما للمثل يُضربُ من التأثير والاقناع، ومن ذلك قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ كَذَابٍ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [آل عمران ١٠]، فجاء بآل فرعون مثلاً لأولئك الذين لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً. ومن كاف الايضاح قوله سبحانه: {خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ} [الرحمن ١٤]، وقوله: {وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِأَظْفَارِنَا فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِأَمْرِنَا} [المائدة ١١٠].

ونكتفي بما ذكرناه من التشبيه في كتاب الله تعالى ولا ننسى أن نذكرك بأن هذا الموضوع له عناية خاصة من العلماء ومنهم ابن نايقا البغدادى في كتابه (الجمان في تشبيهات القرآن)^(١).

(١) من بلاغة القرآن ص ٢١٢ بتصريف.

هل في القرآن تشبيه مقلوب

ذهب بعضُ الكاتِبين إلى أن بعض التشبيهات القرآنية هي من التشبيه المقلوب الذي مرَّ بك من قبل، ومنه قول محمد بن وهيب^(١):

وَبَدَأَ الصَّبَّاحُ كَمَا أَنَّ غُرَّتَهُ وَجْهَ الْخَلِيفَةِ حِينَ يُمْتَدِّحُ

إذ الأصل أن يشبه وجه الخليفة بغرّة الصباح، وجعلوا من هذا بعض الآيات القرآنية:

(١) {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا} [البقرة ٢٧٥].

(٢) {أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ} [النحل ١٧].

(٣) {يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ} [الأحزاب ٣٢].

(٤) {أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ} [القلم ٣٥].

والذي يبسولي أن الأمر ليس كما ذكر، بل إن كل تشبيه من هذه التشبيهات جاء على صورته من غير ما قلب ولا عكس وإن كل آية من هذه الآيات الكريئات جاء التشبيه فيها متسقاً مع السياق الذي ذكرت فيه.

— أما الآية الأولى: فقد بالغوا في حلّ الربا حيث جعلوه الأصل وشبهوا به البيع، ولقد فطن الزمخشري — رحمه الله — وهو من هو في كشف اللثام عن ثغر البلاغة فقال: «فإن قلت: هلا قيل: «إنما الربا مثل البيع» لأن الكلام في الربا لا في البيع، فوجب أن يقال: إنهم شبهوا الربا بالبيع فاستحلوه»^(٢).

— وأما الآية الثانية: فأنقل لك ما قال القاضي البيضاوي: «وكان حقُّ الكلام «افمن لا يخلق كمن يخلق»، لكنه عكس تنبيهاً على أنهم بالإشراك بالله سبحانه وتعالى جعلوه من جنس المخلوقات العجزة شبيهاً بها»^(٣).

— أما الآية الثالثة: فالهدف منها الإلهاب؛ أي حث أمهات المؤمنين أن لا يكنَّ كغيرهن

(١) سبق هذا البيت ص ٣٧.

(٢) الكشف ج١ البقرة آية ٢٧٥

(٣) تفسير البيضاوي، ٢/٢٢٣.

من النساء، لذلك جاء النظم الكريم على ما هو عليه (لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ)، ليس الغرض
إذاً تشبيه النساء بهن، فلم يكن النظم «ليس أحدٌ من النساء مثلكن».

- أما الآية الرابعة: فينبغي أن نلاحظ فيها أنها مكية بل كانت مما نزل مبكراً في مكة
المكرمة وكان كفار مكة لا يرضون أن يكونوا مثل المسلمين فكانوا يرون أن لهم العزة في الدنيا
ولو كانت هناك آخرة لكانوا كذلك فقال الله تعالى: (أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ) أي لن
يكون المسلمون مثلكم، وستكون لهم العزة في الدنيا والآخرة.

التشبيهات في السنة المطهرة

والرسول صلى الله عليه وآله وسلم الذي فضّل بجوامع الكلم كان لاسلوب التشبيه والتمثيل في حديثه الأثر الطيب، حثاً على فضيلة، وترغيباً في خير، أو تحذيراً من رذيلة، وتنفيراً من شر، والحق أن الموضوعات التي عرض لها اسلوب التشبيه في السنة المطهرة موضوعات خطيرة من جهة، وكثيرة من جهة أخرى، وفي كثير من الأحيان كان عليه وآله الصلاة والسلام يعمد إلى التصوير العملي ليكون وسيلة إيضاح لما يريد.

فها هو صلى الله عليه وسلم وهو بين أصحابه يعمد إلى الأرض ليخط خطوطاً كثيرة معوجة ومتعرجة ويخط خطأ واحداً مستقيماً^(١)، والصحابة رضوان الله عليهم ينظرون ويقول لهم: هذه كلها طرق الشيطان وسبله، وهذا صراط الله وسبيله ويقرأ قوله تعالى: (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ) [الأنعام ١٥٢]، فانظر إلى أي مدى يمكن أن يؤثر هذا الاسلوب في النفس، لا ريب في أن له عظيم الأثر وكبير الفائدة ونحن نتأثر لمجرد سماعه فما بالك بالذين شاهدوه.

وقد يرى النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً ما فيعمد إلى أن يقرر حقيقة لأصحابه ولن بعده، فها هو وقد رأى سقطاً من المعز فيسأل أهانت هذه على أصحابها؟ فيقول للدنيا أهون على الله من هذا عليكم^(٢)، فانظر إلى هذا التشبيه في ذلك القالب البديع.

وها هو صلى الله عليه وسلم يشبه المؤمن الذي يقرأ القرآن ويعمل به بالأثرجة، وهي فاكهة ذات طعم طيب، وريح طيب، ويشبه المؤمن الذي لا يقرأ القرآن بالتمرّة طعمها طيب ولا ريح لها، ويشبه المنافق الذي يقرأ القرآن بالريحانة ريحها طيب ولا طعم لها، ويشبه المنافق الذي لا يقرأ القرآن بالحنظلة طعمها مر وليس لها ريح.

قف بربك مع هذا التشبيه وفكر فيه ملياً، وانظر إلى وجه الشبه في هذه التشبيهات الأربعة، ومطابقته للمشبه والمشبه به، وخذ تشبيه المؤمن بالأثرجة في الطعم والريح لأنه يقرأ ويعمل، ولكن الذي يزيد الأمر روعة أنك لو وقفت مع الحديث جيداً وجدت أن الطعم جاء وجه شبه للعمل، والرائحة جاءت وجه شبه للقراءة، فالمؤمن الذي يقرأ يشبه بالأثرجة في ريحها،

(١) رواه ابن ماجه - المقدمة - باب اتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والحديث: عن جابر بن عبد الله قال: كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم فخط خطأ، وخط خطين عن يمينه، وخط خطين عن يساره، ثم وضع يده على الخط الوسط فقال: «هذه سبيل الله» ثم تلا هذه الآية: (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ).

(٢) رواه مسلم كتاب الزهد والرقائق ٤/٢٢٧٢.

والذي يعمل يشبه بها في طعمها، فهو من التشبيه المتعدد كما عرفت من قبل. أما المؤمن الذي يعمل ولا يقرأ فقد شبه بالتمر من حيث الطعم، وهكذا يمكن أن تفهم الحديث هذا الفهم في بقية أجزائه «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كالأترجة ريحها طيب وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثّل التمرة لا ريح لها وطعمها حلو، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كمثّل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثّل الحنظلة ليس لها ريح وطعمها مر»^(١).

وانظر إلى هذا التشبيه المركب حيث يشبه النبي صلى الله عليه وسلم من يصلي الصلوات الخمس بالذي يغتسل في اليوم خمس مرات، لا يبقى من درنه شيء «مثل الصلوات الخمس كمثّل نهر جار عذب على باب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات فما يبقى من درنه شيء»^(٢).

واستمع إلى تشبيه المؤمن للمؤمن بالبنيان يشد بعضه بعضاً، وقف أمام هذا الحديث طويلاً، واستعرض أمراض المسلمين وعللهم، وستجد أن لا علاج لها إلا بهذا القول: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»^(٣).

واستمع إليه صلى الله عليه وسلم يشبه المؤمنين في «توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»^(٤).

وسأذكر لك طائفة من هذه الأمثال والتشبيهات الرائعة لتكون مادة لك في المعرفة والهداية:

يقول صلى الله عليه وسلم: «مثل المؤمن كمثّل الخامة من الزرع تُفَيِّئُها الريحُ مرة وتعديلها مرة، ومثّل المنافق كمثّل الأرزّة لا تزال حتى يكون أنجعافُها مرة واحدة»^(٥).

وقال صلى الله عليه وسلم: «مثلُ البخيل والمنفق كمثّل رجلين عليهما جُبَّتَان من حديد من تُدَيِّمُهُمَا إلى تَرَاقِيهِمَا، فأما المنفق فلا ينفق شيئاً إِلَّا سَبَعَتْهُ أَوْ (وفرت) على جلده حتى تخفي

(١) رواه البخاري كتاب فضائل القرآن، باب فضائل القرآن على سائر الكلام ١٩١٧/٤.

(٢) رواه مسلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب المشي إلى الصلاة تحمى به الخطايا وترفع به الدرجات ٤٦٣/٨.

(٣) رواه البخاري كتاب «الأدب» باب «تعاون المؤمنين بعضهم بعضاً» ٢٢٤٢/٥.

(٤) رواه البخاري، كتاب «الأدب» باب «رحمة الناس والبهائم» ٢٢٣٨/٥.

(٥) رواه البخاري كتاب التوحيد، باب (في المشيئة والارادة) ٢٧١٦/٦. ورواه مسلم كتاب (صفات المنافقين وأحكامهم)،

باب (مثل المؤمن كالزراع، ومثّل الكافر كشجر الأرز).

الخامة: الطاقة الفضة اللينة من الزرع، تفَيِّئُها: أي تمليها، الأرز شجر حرجي من الصنوبريات، انجعافها: الانعفاف الانقلاب.

بَنَانَهُ وَتَعَفَّوْا أَثَرَهُ، وَأَمَّا الْبَخِيلُ فَلَا يَرِيدُ أَنْ يَنْفِقَ شَيْئاً إِلَّا لَزِقَتْ كُلُّ حَلَقَةٍ مَكَانَهَا فَهُوَ يُوسِعُهَا فَلَا تَتَّسِعُ» (١)، تَرَاقِيَهُمَا: جَمَعَ تَرَقُّوةً، وَهِيَ الْعِظَمُ الْبَارِزُ أَعْلَى الصَّدْرِ، مِنْ رَأْسِ الْكَتِفِ إِلَى ثَغْرِ الْعُنُقِ. سَبِغَتْ: امْتَدَّتْ وَغَطَّتْ، وَفَرَّتْ: كَمَلَتْ وَنَمَتْ، تَعَفَّوْا أَثَرَهُ: تَمَحَّوْهُ، لَزِقَتْ كُلُّ حَلَقَةٍ: التَّمَقَّقَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِ.

ويقول صلى الله عليه وسلم «تعرضُ الفتنُ على القلوبِ كالحصيرِ عوداً عوداً فأَيُّ قلبٍ أَشْرَبَهَا نَكَتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءٌ وَأَيُّ قلبٍ أَنْكَرَهَا نَكَتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيَضَاءٌ حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ: عَلَى أَبْيَضٍ مِثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالْآخِرُ أَسْوَدُ مُرْبَاداً كَالْكُوزِ مُجْحِياً لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفاً وَلَا يَنْكُرُ مَنَكراً إِلَّا مَا أَشْرَبَ هَوَاهُ» (٢). أَشْرَبَهَا: أَيِ دَخَلَتْ فِيهِ دَخُولاً تَاماً وَحَلَّتْ مِنْهُ مَحَلَّ الشَّرَابِ، نَكَتَ فِيهِ نُكْتَةٌ: أَيِ نَقَطَ نَقْطَةً، الصَّفَا: هُوَ الْحَجَرُ الْأَمْلَسُ الَّذِي لَا يَلِصُّ بِهِ شَيْءٌ، مُرْبَاداً: أَيِ مَخْتَلِطاً سَوَادُهُ بِكَدَرِهِ، مُجْحِياً: مَائِلاً.

ويقول صلى الله عليه وسلم: «مِثْلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمِثْلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضاً فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبْلَ الْمَاءِ فَانْبَتَتِ الْكَلَأُ وَالْعُشْبُ الْكَثِيرُ وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ امْسَكَتِ الْمَاءُ فَانْفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا مِنْهَا وَسَقَوْا وَرَعَوْا وَأَصَابَ طَائِفَةٌ مِنْهَا أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيَعَانُ لَا تَمْسُكُ مَاءً وَلَا تَنْبِتُ كَلَأً فَذَلِكَ مِثْلُ مَنْ فَقِهَ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعِلْمٌ وَعِلْمٌ وَمِثْلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْساً وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ» (٣).

اجادِب: جَمَعَ جَدَبٌ وَهِيَ الْأَرْضُ لَا تَشْرَبُ الْمَاءَ وَلَا تَنْبِتُ، قِيَعَانُ: جَمَعَ قَاعٌ: الْأَرْضُ الْمُسْتَوِيَّةُ الْمَلْسَاءُ.

ويقول صلى الله عليه وسلم: «مِثْلِي وَمِثْلُ الْأَنْبِيَاءِ كَمِثْلِ رَجُلٍ بَنَى دَاراً فَاحْسَنَهَا وَأَكْمَلَهَا وَأَجْمَلَهَا وَتَرَكَ فِيهَا مَوْضِعَ لَبَنَةٍ لَمْ يَضَعْهَا فَجَعَلَ النَّاسُ يَطْفُقُونَ بِالْبَنِيَانِ، وَيَعْجَبُونَ مِنْهُ وَيَقُولُونَ: لَوْ تَمَّ مَوْضِعُ هَذِهِ اللَّبَنَةِ، فَأَنَا فِي النَّبِيِّينَ مَوْضِعُ تِلْكَ اللَّبَنَةِ» (٤).

ويقول صلى الله عليه وسلم: «مِثْلِي كَمِثْلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَاراً، فَلَمَّا أَضَاعَتْ مَا حَوْلَهَا جَعَلَ الْفَرَّاشَ وَهَذِهِ الدُّوَابَّ الَّتِي يَقَعْنَ فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا، وَجَعَلَ يَحْجِرُهُنَّ وَيَغْلِبُنَّهُ فَيَقْتَحِمْنَ فِيهَا فَذَلِكَ مِثْلِي وَمِثْلُكُمْ أَنَا أَخَذْتُ بِحِجْرِكُمْ عَنِ النَّارِ هَلُمَّ عَنِ النَّارِ فَتَغْلِبُونِي فَتَقْتَحِمُونَ مَعَهَا» (٥).

(١) رواه البخاري - كتاب (الزكاة)، باب (مثل المتصدق والبخيل)، ٥٢٢/٢ ورواه مسلم في الزكاة، باب (المنفق والبخيل)، وقم ١٠٢١.

(٢) رواه مسلم - كتاب (الايمان)، باب (بيان أن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً)، ٢٣١/١.

(٣) رواه البخاري، كتاب (العلم)، باب (فضل من عِلِمَ وَعِلِمَ)، ٤٢/١. ورواه مسلم، كتاب (الفضائل)، باب (مثل ما بعث النبي صلى الله عليه وسلم من الهدى والعلم).

(٤) رواه البخاري، كتاب (المناقب)، باب (خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم)، ١٣٠٠/٣.

(٥) رواه البخاري - كتاب (الرقائق)، باب (الانتهاء عن المعاصي)، ٢٣٧٩/٥.

ورواه مسلم - كتاب (الفضائل)، باب (ذكر كونه صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين)، ١٧٩٠/٤.

ويقتحمن: يهجمن ويرمين بأنفسهن، آخذ: أمسك بشدة، بحجزكم: جمع حجزه وهي معقد الإزار، وهو كناية عن وصيته صلى الله عليه وسلم على منع أمته من الأتيان للمعاصي التي تؤدي إلى النار.

ويقول صلى الله عليه وسلم: «اسمعوا وأطيعوا، ولو استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة»^(١). زبيبة: هي حبة العنب اليابسة والتشبيه من حيث السواد وقصر الشعر وشدة تجعده.

(١) رواه البخاري، كتاب (الأحكام)، باب (السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصيته)، ٢٦١٢/٦.

أغراض التشبيه وبلاغته

أغراضه:

الغرض الأساسي من التشبيه التأثير في النفس، فكلما كان التشبيه أكثر تأثيراً في النفس كان تشبيهها فنياً بليغاً مقبولاً، وقد حاول العلماء أن يستقصوا أغراض التشبيه وهم يستقروون كثيراً من الأقوال البليغة، فوجدوا أن الغرض من التشبيه إنما يرجع إلى المشبه وهذا هو الأكثر، وقد يرجع إلى المشبه به، وإليك خلاصة ما قالوه:

أولاً: فمما يرجع فيه الغرض إلى المشبه:

(١) بيان امكان المشبه، ومعنى هذا أن المتكلم يأتي بالمشبه فيظن المستمع أنه غير ممكن التحقق، فيأتي بالمشبه به ليثبت هذا الامكان ويبرهن عليه. انظر إلى قوله * قد يشيب الفتى * ولا شك أن المستمع قد يقف من هذا القول موقف الإنكار، فأراد الشاعر أن يصور له هذا الأمر بصورة الممكن فقال:

قَدْ يَشِيبُ الْفَتَى وَلَيْسَ عَجِيباً أَنْ يَرَى النُّورُ فِي الْقَضِيبِ الرُّطِيبِ

وانظر إلى قوله * وما أنا منهم بالعيش فيهم * وهذه قضية حرية أن يرتاب فيها المرتابون، فأراد الشاعر أن يبين أن هذا الأمر ممكن لا ينبغي أن يرتاب فيه فقال:

وَمَا أَنَا مِنْهُمْ بِالْعَيْشِ فِيهِمْ وَلَكِنْ مَعْدِنُ الذَّهَبِ الرُّغَامُ

ألا ترى أنه جاء بالمشبه به هنا ليثبت امكان المشبه؟ كأنما ينكر على الذين يرتابون في امكان هذا التشبيه وتحققه، ومثل هذا قول المتنبي:

فَإِنْ تَفَقَّى الْأَنْبَاءَ وَأَنْتَ مِنْهُمْ فَإِنَّ الْمِسْكَ بَعْضُ دَمِ الْغَزَالِ

(٢) تقرير حال المشبه حتى تتضح صورته في النفس، ويثبت في القلب ثبوتاً يصل بك إلى اليقين، ومنه قوله سبحانه: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ

بَشَيْءٍ إِلَّا كِبَاسٌ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَلَا وَهُوَ بِيَالْغَةِ﴾ [الرعد ١٤]، ومنه قوله سبحانه:

﴿مِثْلَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمِثْلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ [العنكبوت ٤١]،

وأكثر التشبيهات في كتاب الله تعالى يظهر فيها هذا الغرض واضحاً جلياً، فهي لتقرير

حال المشبه وتثبيتته في النفس، لتُقدِّم أو تُجِّم، ومنه قولهم: «الساعي في غير طائل

كالراقم على الماء»، «الطامع في النصر من أعدائه كمن يرجو من السمّ علاجاً لدائه».

(٣) بيان مقدار المشبه، ومنه قوله سبحانه: (وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ) [النحل ٧٧]، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم وهو يشبه الإنسان في هذه الدنيا بمستظل تحت شجرة: «مالي وما للدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»^(١).

ومنه قول الشاعر:

مَا الْعُمُرُ إِلَّا لَيْلَةٌ كَأَنَّ الصَّبَاحَ لَهَا جَبِينُ

ويمثلون له بقول عنتره^(٢):

مِنْهَا اثْنَتَانِ وَأَرْبَعُونَ حُلُوبَةً سُودًا كَخَافِيَةِ الْغُرَابِ الْأَسْحَمِ

(٤) بيان حال المشبه، ومنه قول البوصيري:

وَالنَّفْسُ كَالطُّفْلِ إِنْ تَهَمَّ لَهُ شَبٌّ عَلَى حُبِّ الرِّضَاعِ وَإِنْ تَقَطَّ مُمْهُ يَنْفَطِمِ

ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: «الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة»^(٣) ويمثلون له

بقول بشار^(٤):

إِذَا قَامَتِ لِمَشْيَتِهَا تَثْنُتُ كَأَنَّ عِظَامَهَا مِنْ خَيْزُرَانَ

(٥) تزيين المشبه، ومنه قوله تعالى: (كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ) [الرحمن ٥٨]، وقول ذي

الرمة^(٥):

كَحَلَاءٍ فِي بَرَجٍ صَفْرَاءُ فِي نَعَجٍ كَأَنَّهَا فِضَّةٌ قَدْ مَسَّهَا ذَهَبُ

ومنه قول أبي حسن الأنباري^(٦):

مَدَدَتْ يَدَيْكَ نَحْوَهُمْ احْتِفَالًا كَمَدَّهُمْ مَا إِلَيْهِمْ بِالْهَبَاتِ

(١) رواه الترمذي: كتاب الزهد - باب (ما أنا في الدنيا إلا كراكب) وقال حديث حسن صحيح.

(٢) شرح ديوان عنتره ص ٢٠٥. والخافية: إحدى ريشات أربع إذا ضم الطائر جناحه خفيت.

(٣) سبق تخريجه ص ٢٧.

(٤) ديوانه ١٩٨/٤.

(٥) العمدة ٢٤/٢، ديوانه ٢٠/٨. الكلاء: الشديدة السواد، التي كانت مكحولة، والبرج: احداق بياض العين بالسواد كله، والنعج: الأبيض الخالص.

(٦) ديوان المعاني ١٧٩/٢، البيتة ٣٤٤/٢ - ٣٤٥.

(٦) تقبيح المشبه، ويمثلون له بقول القائل:

وَإِذَا أَشَارَ مُحَدَّثًا فَكَأَنَّـهُ قَرْدٌ يُقَهِّقُهُ أَوْ عَجُوزٌ تَلَطِّمُ

ومنه قول اعرابي في وصف امرأته:

وَتَفْتَحُ - لَا كَانَتْ - فَمَا لَوْرَائِيَّتُهُ تَوَهَّمَتْهُ بَابًا مِنَ النَّارِ يُفْتَحُ

(٧) وقد ذكروا من أغراض التشبيه: استطراف المشبه وذلك إما لتصويره في صورة ما يتمتع في العادة، وإما لغرابة الصلة بين المشبه به والمشبه، ومثلوا للأول بتشبيه الجمر الموقد ببحر من المسك ويقول الشاعر:

وَكَأَنَّ مُحَمَّرَ الشَّقِيقِ إِذَا تَصَوَّبَ أَوْ تَصَعَّدَ
أَعْلَامُ يَاقُوتِ نُشِيرُنَ عَلَى رِمَاحٍ مِنْ زَبَرَجَدَ

ومثلوا للثاني - وهو غرابة الصلة بين المشبه والمشبه به - بقول الشاعر:

أُنْظِرْ إِلَيْهِ كَزَوْدٍ مِنْ فِضَّةٍ قَدْ أَنْقَلَتْهُ حُمُولَةٌ مِنْ عُبْرٍ

ثانياً: ما يرجع الغرض فيه إلى المشبه به:

وذلك في التشبيه المقلوب أو المعكوس، وهو أن تجعل الأصل فرعاً والفرع أصلاً، كما

تقول: «كأن رقة النسيم خلقة» ومن قول محمد بن وهيب^(١):

وَبَدَا الصَّبَّاحُ كَأَنَّ غُرَّتَهُ وَجْهَ الْخَالِيفَةِ حِينَ يُمْتَدِّحُ

ولا بد أن ننبه هنا إلى أن أغراض التشبيه كثيرة لا تنحصر فيما ذكرناه لك، ويمكنك أن تدركها بذوقك وفكرك، ولا تنس أن الغرض الرئيس هو ما يحدثه التشبيه في نفسك لتتفاعل معه فيروك ويؤنسك.

بلاغة التشبيه

أما بلاغة التشبيه فقد حدثناك عن طرف منها غير يسير فيما مضى عندما حدثناك عن أسباب تأثيره، وأسباب غرابته. ونزيدك هنا بأن أسلوب التشبيه مع ما فيه من اثر أديبي. وجمال فني، وإبداع في التصوير، وصورة حية وضاعة، وإيقاظ للهمة، وتفتيق لأكمام الأفكار، فإنه مع ذلك كله ميدان يتسابق فيه فحول البلغاء، فيجود هذا تارة وذاك أخرى، كما يتسابق الرماة في إصابة الهدف لذلك نجد الشيء الواحد يظهر في صور مختلفة متعددة يبرزه كل بالصورة التي يرتئيه وإن شئت فقل التي تبدها قريحته. يقول الشيخ عبد القاهر: «وإنه ليأتيك من الشيء الواحد باشباه عدة ويشق من الأصل الواحد أغصاناً في كل غصن ثمرة على حدة» ومثاله:

(١) الزند: فقد ضربوا الزند الواري مثلاً للجواد الكريم. كقول الحريري^(١):

لا، ولا رَامَ قَابِيسُ قَدَحَ زَنْدِي فَأَصْأَدَا

أي لم يطلب مني أحد شيئاً فبخلت به، ويضرب للذكي الفطن، وللناجح في أموره الظاهر بمراده، قال ابن الرومي في اسماعيل بن بلبل^(٢):

مُبَارَكُ الْوَجْهِ مَيْمُونُ نَقِيبَتُهُ يُورِي الزَّنَادَ بِكَفَيْهِ إِذَا قَدَحَا

يريد: أنه موفق كلما طلب أمراً حصل عليه كما يحصل القادح للزنداد على مراده.

كما ضربوا الزند المصلد مثلاً للبخل الذي لا يعطي، وللبليد الذي لا يفهم، وللخائب في سعيه.

(٢) القمر وله أحوال كثيرة يمكن أن يشبه به:

أ- يشبه من ناحية الشهرة والنباهة كقولك: «كيف أعرفك بفلان؟ وهل يخفى القمر؟».

ب- يشبه من جهة الكمال بعد النقصان، قال أبو تمام في رثاء طفلين^(٣):

لَهْفِي عَلَى تِلْكَ الشَّوَاهِدِ مِنْهُمَا لَوْ أُمْهِلْتُ حَتَّى تَصِيرَ شَمَائِلًا

(١) مقامات الحريري، ص ٤٢٩، المقامة الثامنة والأربعون (الحرامية)، رام: طلب، قابس: طالب النار، قدح زندي: استخراج ناره، فأصلا: أي لم يصب.

(٢) ديوانه ٥٦١/٣، قصيدة (ميمون نقيبته)، ميمون النقيب: محمود ومشكور المختبر، يوري الزناد: يخرج ناره.

(٣) ديوانه ٣٨٠، ديوان المعاني ١٧٨/٢. الشواهد: المخايل، حجي: عقلاً وتعقلاً، الحلم: كبر النفس والعقل، الأريحية: الميل إلى العطاء، التائل: العطاء، ومعنى البيت الأول: (أنه باتت فيها شواهد المكرمات إلا أن الموت حال بون أن تكتمل حتى تصير صفات حقيقية).

لَعْدَا سَكُونُهُمَا حِجَى وَصِبَاهُمَا حِلْمًا وَتِلْكَ الْأَرِيحِيَّةُ نَائِلَا
إِنَّ الْهَلَالَ إِذَا رَأَيْتَ نُمُوَّهُ أُيَقِّنْتَ أَنْ سَيَصِيرُ بَدْرًا كَامِلًا

ومنه قول البحرني يمدح ابن كنداح القائد^(١):

شَرَفُ تَزِيدَ بِالْعِرَاقِ إِلَى الَّذِي عَهْدُهُ بِالْبَيْضَاءِ أَوْ بِبَلَنْجَرَا
مِثْلُ الْهَلَالِ بَدَأَ فَلَمْ يَبْرَحْ بِهِ صَوُّغُ اللَّيَالِي فِيهِ حَتَّى أَقْمَرَا

ج - ويشبه بالقمر: في كماله بعد النقص، ثم نقصه بعد الكمال، كقول أبي الحسن أحمد بن أبي بغل^(٢):

المرءُ مِثْلُ هِلَالٍ حِينَ تُبْصِرُهُ يَبْدُو ضَعِيفًا ثُمَّ يَتَسَبَّقُ
يَزْدَادُ حَتَّى إِذَا مَا تَمَّ أَعْقَبَهُ كَرُّ الْجَدِيدِينَ نَقْصًا ثُمَّ يَنْمَحِقُ

د - ويشبه كذلك بكمال النصف، كقول ابن بابك^(٣):

وَأَعْرَتْ شَطْرَ الْمَلِكِ ثُوبَ كَمَالِهِ وَالبَدْرُ فِي شَطْرِ الْمَسَافَةِ يَكْمُلُ

ه - وترى البدر إذا كان قليل النور قل ظهوره ليلاً أول الشهر وآخره، فإذا امتلأ طال مكثه. ومنه قول أبي بكر الخوارزمي^(٤):

أَرَاكَ إِذَا أَيْسَرْتَ خَيْمَتَ عِنْدَنَا مُقِيمًا وَإِنْ أَعْسَرْتَ زُرْتَ لِمَامَا
فَمَا أَنْتَ إِلَّا الْبَدْرُ، إِنْ قَلَّ ضَوْؤُهُ أَغْبَ وَإِنْ زَادَ الضِّيَاءُ أَقَامَا

وجه الشبه اطالة المكث عند كثرة النفع واقلاله عند قلته.

و - ظهوره في كل مكان، كقول المتنبي يمدح علي بن منصور الحاجب^(٥):

كَالْبَدْرِ مِنْ حَيْثُ التَّفَتُّ رَأَيْتُهُ يُهْدِي إِلَى عَيْنَيْكَ نُورًا ثَاقِبًا

(١) ديوانه ٢٤٤/١، الموازنة ١٣٦، البيضاء وبلنجرا: مدينتان في بلاد الخزر، وصوغ الليالي: المقصود تشكيل الليالي للقمر من شكل إلى شكل.

(٢) نهاية الأرب ٥٢/١، كَرُّ الْجَدِيدِينَ: أي تعاقب الليل والنهار.

(٣) اليتيمة ٣٤٣/٣.

(٤) اليتيمة ٢٢٤/٤، اللّام: اللقاء اليسير وهو جمع له.

(٥) ديوانه ٢٥٧/١.

ز- ومن أحوال البدر ما ترى من بعده، وارتفاعه، وقرب ضوئه وشعاعه، ومنه قول
البحري^(١):

دَانٍ إِلَى أَيْدِي الْعُفَاةِ وَشَاسِعُ
كَالْبَدْرِ أَفْرَطَ فِي الْعُلُوِّ وَخَوُوهُ
عَنْ كُلِّ نِدٍّ فِي النَّدَى وَضَرِيبٍ
لِلْعُصْبَةِ السَّارِينَ جِدُّ قَرِيبٍ
(٣) البحر: وهذا له أحوال كثيرة:

أ- فقد يشبه به في غزارته وسعته وأنه لا ينضب، كقول المتنبي^(٢):

كَالْبَحْرِ يَقْدِفُ الْقَرِيبَ جَوَاهِرًا
جُودًا وَيَبْعَثُ لِلْبَعِيدِ سَحَابًا
ب - يشبه به الرجل العظيم لا تنال منه سفاهة السفهاء، كقول أبي امامة مولى عبد
القيس:

وَأَنَا وَمَا تُلْقِي لَنَا إِنْ هَجَوْتَنَا
فَكَالْبَحْرِ مَهْمَا يُلْقَ فِي الْبَحْرِ يَفْرَقُ
ج - وتراه يرسب فيه اللؤلؤ وتطفو فوقه الجيف، وفي ذلك شبه ابن الرومي الزمان^(٣):

دَهْرٌ عَلَا قَدْرُ الْوَضِيعِ بِهِ
وَهَوَى الشَّرِيفُ يَحْطُّهُ شَرْفُهُ
كَالْبَحْرِ يَرْسُبُ فِيهِ لُؤْلُؤُهُ
سَفَلًا وَتَطْفُو فَوْقَهُ جِيفُهُ
د - وقد يشبه به في أنه يستخرج منه الدر ولكنه لا يؤمن إن هاج واضطرب، قال
الغزي^(٤):

هُوَ الْبَحْرُ لَا يَأْسَ مِنْ دُرِّهِ
وَلَا أَمْنٌ مِنْ مَوْجِهِ إِنْ طَمَأَ
(٤) السيف: وقد شبهوا به من جهات شتى:

أ - شبهت به العزيمة في المضاء كقول ابن الرومي يمدح عبید الله بن عبد الله^(٥):

فَتَى عَزَمَهُ سَيْفٌ حُسَامٌ وَسَيْفُهُ
قَضَاءٌ إِذَا لَاقَى الضَّرِيبَةَ مُبْرَمٌ

(١) سبق هذان البيتان ص ١٩.

(٢) ديوانه ٢٥٧/٢.

(٣) ديوانه ٦٠٩/٢، قصيدة (وهو الشريف).

(٤) مختارات البارودي ٤٨/٣.

(٥) ديوانه ٢٦١/٣، قصيدة (خصيم الليالي).

ب - وقال ابن الرومي في معنى ثانٍ^(١):

فَبِذَاتِ نَفْسِكَ مَا يَكُونُ بِهَاؤُهَا وَبِمَائِهِ كَانَ الْحُسَامُ صَقِيلًا
يقول: إن النفس لا يمكن افادتها البهاء إلا إذا كانت فيها قابلية واستعداد كما أن
السيف لا يمكن جلاؤه وصقله إلا إذا كان فيه بقية ماء أما إذا أفسد معدن السيف فلن يعود
صقيلاً.

ج - ويضرب مثلاً لمن يكون عنده استعداد لأمر فلا تجدي محاولة افادته اياه. يقول
أبو تمام^(٢):

وَالسَّيْفُ مَا لَمْ يَلَفْ فِيهِ صَيْقَلٌ مِنْ طَبْعِهِ لَمْ يَنْتَفِعْ بِصِقَالٍ
وتستطيع أن تعثر على غير ذلك مما شبهوا به من جهات عدة لا من حيث ما يدرك
بالحس، بل من حيث ما يدرك بالعقل والرؤية^(٣).

ولما في أسلوب التشبيه من روعة، ولما له من أثر في النفس، ولما فيه من تفاوت
الصور التي يبرزها المتكلم، لذلك كله وغيره كان يتصدر مجالس الأمراء والخلفاء والأدباء،
فيملأ عليهم مجالسهم، وهم يتذكرون ويتدارسون أقوال الشعراء، هذا يفضل قولاً وذاك يفضل
آخر، وهم يعقدون الموازنات بين هذه الأقوال، ونذكر لك مثالين من ذلك.

أما أحدهما فما رواه الشعبي «أن الوليد بن عبد الملك وأخاه مسلمة تنازعا ذكر الليل
وطوله، ففضل الوليد أبيات النابغة في وصف الليل، وفضل مسلمة أبيات امرئ القيس، فحكما
الشعبي بينهما، فقال الشعبي تنشد الأبيات واسمع، فأنشد للنابغة^(٤):

كَلَيْنِي لَهُمْ يَا أُمَيْمَةُ نَاصِبٌ وَلَيْلٍ أَقَاسِيهِ بَطِيءٍ الْكَوَاعِبِ
تَطَاوَلَتْ حَتَّى قُلْتُ لَيْسَ بِمُنْقَضٍ وَلَيْسَ الَّذِي يَرْعَى النُّجُومَ بِأَيِّبِ
وَصَدْرٍ أَرَا حَ اللَّيْلِ عَازِبٌ هَمٌّ تَضَاعَفَ فِيهِ الْحُزْنُ مِنْ كُلِّ جَانِبِ

(١) ديوانه ١٢٥/٣، قصيدة (لا يعدموك) في مدح إبراهيم بن المدبر.

(٢) ديوانه ص ٤٨٣، يقول: إذا لم يكن في السيف جودة حديد تحتمل الصقال لم ينتفع بصقاله، وكذلك هذه الغزوة: لو
لم يكن فيها تدبير من المملوح - وهو المعتصم - لم ينتفع بتدبير الوزراء.

(٣) راجع أسرار البلاغة، ودراسة تفصيلية شاملة لبلاغة عبد القاهر ص ١٠٩ - ١١٨.

(٤) ديوانه ص ٤٣، كَلَيْنِي: أتركيني، ناصب: ذي نصب، وليس الذي يرعى النجوم بأييب: شبه النجوم في الجو بأنعام
ترعى وتخيل لها راعياً لم يرجع بها إلى مراحتها، وصدن: معطوف على (لهم)، أراح: أرجع إليه، عازب: بعيد، تضاعف:
تكاثر.

ثم أنشد لأمري القيس^(١):

- وَلَيْلٍ كَمَوْجِ الْبَحْرِ أَرْخَى سُدُولَهُ عَلَيَّ بِأَنْوَاعِ الْهُمُومِ لَيْبَتَلِي^(٢)
فَقُلْتُ لَهُ لِمَا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ وَارْدَفَ أَعْجَازًا وَنَاءَ بَكَكُلِ^(٣)
أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلَا أَنْجَلِي بِصُبْحٍ وَمَا الْإِصْبَاحُ مِنْكَ بِأَمْثَلِ^(٤)
فَيَا لَكَ مِنْ لَيْلٍ كَأَنَّ نُجُومَهُ بِكُلِّ مُغَارٍ الْفَتْلُ شُدَّتْ بِبِذْبُلِ^(٥)
قال فرकुض الوليد برجله، فقال الشعبي: بانت القضية.

قلت: افتتاح النابغة قصيدته بقوله:

كَلْبَنِي لَهُمْ يَا أُمَيْمَةُ نَاصِبِ

ممتناه في الحسن، بليغ في وصف ما شكاه، من همه وطول ليله. ويقال إنه لم يبتدئ شاعر قصيدة بأحسن من هذا الكلام، وقوله:

وَصَدْرٍ أَرَا حَ اللَّيْلُ عَازِبَ هَمِّهِ

مستعار من اراحة الراعي الإبل إلى مباتها، وهو كلام مطبوع سهل يجمع البلاغة والعذوبة، ألا أن في أبيات امرئ القيس من ثقافة الصنعة، وحسن التشبيه، وابداع المعاني، ما ليس في أبيات النابغة، إذ جعل لليل صلباً، وأعجازاً، وكلكلاً، وشبه تراكم ظلمة الليل بموج البحر في تلاطمه عند ركوب بعضه بعضاً حالاً على حال، وجعل النجوم كأنها مشدودة بحبال وثيقة فهي راكدة لا تزول ولا تبرح ثم لم يقتصر على ما وصف من هذه الأمور حتى عللها بالبلوى، ونبه فيها على المعنى، وجعل يتمنى تصرم الليل بعود الصبح لما يرجو فيه من الروح، ثم ارتجع ما اعطى واستدرك ما كان قدّمه وأمضاه، فزعم أن البلوى أعظم من أن يكون لها في شيء من الأوقات كشف وانجلاء، والمحنة فيها أغلظ من أن يوجد لدائها في حال من الأحوال دواء وشفاء، وهذه الأمور لا يتفق مجموعها في اليسير من الكلام إلا لمثله من المبرزين في الشعر، الحائزين فيه قَصَبَ السبق، ولأجل ذلك كان يركض الوليد برجله إذ لم يتمالك أن

(١) ديوانه ص ١٠٧.

(٢) السدول: الستائر، يقول - وقد شبه الليل بموج البحر في تراكمه وشدة ظلمته إن الليل قد اشتمل عليه بأنواع الهموم ليختبر ما عنده من صبر أو جزع.

(٣) تمطى: امتد، بحوزه: بوسطه، ناء بكلل: نهض بصدرة، اردف أعجازاً: اتبع مؤخره - وأعجاز الأمور: أواخرها - وفي الكلام تقديم وتأخير، حيث المعنى (ناء بكلل، ثم اردف أعجازاً)

(٤) وما الإصباح منك بمثل: أي أنني مهموم دائماً في الليل وفي الصباح، فليس حالي صباحاً بأفضل منه ليلاً.

(٥) المغار: الشديد الفتل، يذبل: اسم جبل، يقول: كأن هذه النجوم شُدَّتْ بشيءٍ مفتولٍ قوي إلى جانب هذا الجبل (يذبل).

يعترف له بفضلته»^(١).

وأما الثاني فما رواه الأصمعي:

قال الأصمعي: «استدعاني الرشيد في بعض الليالي فراعني رسله، فلما مثلت بين يديه إذا في المجلس يحيى بن خالد وجعفر والفضل فلما لحظني الرشيد استدنانني فدنوت، وتبين ما لبسني من الوجل فقال: لِيُفْرِخَ رَوْعُكَ^(٢) فما أردناك إلا لما يراد له أمثالك. فمكثتُ هنيهةً ثم ثابت نفسي، فقال: إني نازعت هؤلاء في أشعر بيت قالته العرب في التشبيه، ولم يقع أجماعنا على بيت يكون الإيماء إليه، فأردناك لفصل هذه القضية واجتناء ثمرة الخطار فيها - المراهنة - . فقلت: يا أمير المؤمنين إنَّ التعيين على بيت واحد في نوع قد توسعت فيه الشعراء، وَنَصَبَتْهُ مَعْلَمًا لأفكارها، ومسرحاً لخواطرها، لبعيد أن يقع النص عليه، ولكن أحسن الناس تشبيهاً امرؤ القيس^(٣). قال: في ماذا؟ قلت: قوله:

كَأَنَّ عَيْنَ الْوَحْشِ حَوْلَ خَبَانَتِنَا وَأَرْحَلِنَا الْجَزْعُ الَّذِي لَمْ يُقْبَرِ
وقوله أيضاً^(٤):

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَاسِسًا لَدَى وَكْرِهَا الْعُنَابُ وَالْحَشَفُ الْبَالِي
وقوله أيضاً^(٥):

سَمَوْتُ إِلَيْهَا بَعْدَ مَا نَامَ أَهْلُهَا سُمُوَّ حَبَابِ الْمَاءِ حَالًا عَلَى حَالٍ
قال فالتفت إلي يحيى وقال: هذه واحدة، قد نصَّ على أن امرؤ القيس أبرع تشبيهاً، فقال يحيى: هي لك يا أمير المؤمنين.

ثم قال لي الرشيد فما أبرع تشبيحاته؟ قلت قوله في صفة الفرس^(٦):

كَأَنَّ تَشَوُّفَهُ بِالضُّحَى تَشَوُّفُ أَزْرَقَ ذِي مِخْلَبٍ
تقول: سَلِيبٌ، وَلَمْ يُسَلَبِ إِذَا بُزَّ عَنْهُ جِلَالُ لَهُ

(١) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص ٦٢.

(٢) يقال: أفرخ روعه: خلا قلبه من الهم.

(٣) سبق البيت ص ٨١.

(٤) سبق البيت ص ٥١.

(٥) ديوانه ص ١٢٤، سموت إليها: أي المرأة التي أُرادها، والمراد: نهضتُ إليها شيئاً فشيئاً لئلا يشعر بمكاني فكنت بذلك كحباب الماء وهو يعلو بعضه بعضاً في رفق ومهل، وحباب الماء: فقاقيع الماء، حالاً على حال: أي شيئاً فشيئاً حتى صرت إلى الذي أردت.

(٦) لم يرد في ديوانه ونسبهما إليه صاحب (نضرة الاغريض)، والتشوف: الارتفاع للإشراف، السليب: المسلوب، والمسلوب يسرع به صاحبه فمن سرعته - إذا نزع عنه الجلال - تحسبه مسلوباً وليس بذلك.

فقال الرشيد: هذا حسن، وأحسن منه قوله^(١):

ورحنا بكابنِ الماءِ يُجْنَبُ وَسَطُنَا
تُصْعَدُ فِيهِ الْعَيْنُ طَوْرًا وَتَرْتَقِي
فقال جعفر: ما هو هذا التحكيم؟

قال الرشيد: وكيف؟ قال: يذكر أمير المؤمنين ما كان اختياره وقع عليه، ونذكر ما اخترناه، ويكون الحكم واقعاً من بعد. فقال الرشيد: أمرضت؟

قال الأصمعي: فاستحسنتها منه، يقال: أَمْرَضَ الرَّجُلُ إِذَا قَارَبَ الصَّوَابَ، ثم قال الرشيد: تبدأ يا يحيى، فقال يحيى: اشعر الناس تشبيهاً النابغة في قوله^(٢):

نَظَرْتُ إِلَيْكَ بِحَاجَةٍ لَمْ تَقْضِهَا
نَظَرَ الْمَرِيضِ إِلَى وَجْهِ الْعَوْدِ
وفي قوله أيضاً^(٣):

فإِنَّكَ كَاللَّيْلِ الَّذِي هُوَ مُدْرِكِي
وإنْ خِلْتُ أَنَّ الْمُتَنَائِي عَنْكَ وَأَسِيعُ
وفي قوله أيضاً^(٤):

مِنْ وَحْشٍ وَجَرَّةٍ مَوْشِيٍّ أَكَارِعُهُ
طَاوِي الْمَصِيرِ كَسَيْفِ الصِّقْلِ الْفَرْدِ
قال الأصمعي: فقلت: أما تشبيهه مرض الطرف فحسن إلا أنه قد هجنه بذكر العلة، وتشبيه المرأة بالليل. وأحسن منه قول عدي بن الرقاع^(٥):

وَكَأَنَّهَا بَيْنَ النِّسَاءِ أَعَارَهَا
عَيْنُهُ أَحْوَدُ مِنْ جَانِزِ جَاسِمٍ
وَسَنَانٌ أَقْصَدَهُ النَّعَاسُ فَرَنْقَتْ
فِي عَيْنِهِ سِنَةٌ وَلَيْسَ بِنَائِمٍ

وأما تشبيه الأبرار بالليل فقد يتساوى الليل والنهار فيما يدركانه^(٦)، وإنما كان سبيله أن يأتي بما ليس له قسيم حتى يأتي بمعنى ينفرد به لو شاء قائل أن يقول: قول النمرى أحسن، لوجد مساعاً وهو قوله:

(١) يقول: رحنا بفرس كائنه (ابن الماء) في خفته وسرعته، وابن الماء: طائر، تُصَوَّبُ: تنظر إلى أسفله وأعلىه أعجاباً به، يجنب وسطنا: أي يسرع بنا.

(٢) ديوانه ص ٩٧ العود: الزائر.

(٣) ديوانه ص ١٦٨، المتنائي البعد، والقصيدة في مدح النعمان يقول انك تدركني حيثما كنت فإنما انت الليل، فأينما حلت لا حقني الليل فلا استطيع الهروب منه.

(٤) ديوانه ص ١٦٨، وجرة: فباء واسعة بين مكة والبصرة - اربعون ميلاً - ما فيها منزل، فوحشها شديد الغور، أكارع، ك ما أنها قليلة الماء فيجتمع فيها الوحش، موشي أكارع أي قوائمه بيضاء منقوشة بنقط سود، طاوي المصير: يريد ضامر البطن، والمصير جمع مصران، كسيف الصقيل يريد أنه ابيض يلمع كائنه سيف مصقول، الفرد: أي المفرد الذي لا نظير له.

(٥) ديوان المعاني ٢٣٥/١، جانز: جمع جؤزر، وهو ولد البقرة الوحشية، الوستان: النعاس، أقصده: أي بلغ منه واجده، رنقت: دارت وماجت، يريد: (أن جؤزراً - وهو ولد لبقرة الوحشية - قد اعارها عينيه وهي بين النساء ولكنه لم يعرهما في حالة عادية وإنما حين نعاسه ودران عينيه حيث تكونان غاية في الجمال والروعة والسحر.

(٦) لانرى أن التشبيه بالنهار هنا يعين عليه السياق، فالتشبيه بالنهار يكون في سياق الانعام أو الظهور، وبيت النابغة ليس من هذا القبيل.

لو كُنْتُ بِالْعَنَقَاءِ أَوْ بِأُسُومِهَا لَخَلْتُكَ إِلَّا أَنْ تُصَدَّ تِرَانِي (١)
وأما قوله: «كَسِيفِ الصِّقْلِ الْفَرْدِ» فالطَّرْمَاحُ أحق بهذا المعنى، لأنه أخذه فجوده، وزاد عليه، وإن كان النابغة اخترعه. وقول الطرماح (٢):

يَبْنُو وَتُضْمِرُهُ الْبِلَادُ كَأَنَّهُ سَيْفٌ عَلَى شَرْفٍ يُسَلُّ وَيُغْمَدُ
فقد جمع في هذا البيت استعارةً لطيفة بقوله «وتضميره البلاد» وتشبيهه اثنين بأثنين في قوله: «يبدو ويخفي» و «يُسَلُّ ويغمد» وجمع حسن التقسيم، وصحة المقابلة. قال فاستبشر الرشيد وبرقت أسارير وجهه حتى خلت برقاً يومض منها، وقال ليحيى: نَضَلْتُكَ (٣) ورب الكعبة وامتنع يحيى وكأنَّ الملَّ (٤) قد نرَّ على وجهه، فقال الفضل: لا تعجل يا أمير المؤمنين حتى يمر ما قلته أيضاً بسمعه فقال قل، قال: قول طرفة (٥):

يَشْقُ حَبَابُ الْمَاءِ حَيْرُومُهَا بِهَا كَمَا قَسَمَ الثُّرْبُ الْمَقَابِلُ بِالْيَدِ
وقوله أيضاً (٦):

لَعَمْرُكَ إِنَّ الْمَوْتَ مَا أَخْطَأَ الْفَتَى لَكَالَطَوَّلِ الْمُرْخَى وَتِيَّاهُ بِالْيَدِ
وقوله أيضاً (٧):

وَوَجْهٌ كَأَنَّ الشَّمْسَ حَلَّتْ قِنَاعَهَا عَلَيْهِ، نَقِيَّ اللَّوْنِ لَمْ يَتَّخِذْ
قال: فقلت: هذا حسن كله وغيره أحسن منه وقد شركه في هذا المعنى جماعة من الشعراء. ويعد: فطرفه صاحب واحدة (٨) لا يقطع بقوله على البحور وإنما يعدُّ مع أصحاب الواحدات، قال ومن هم؟ قلت الحارث بن حلزة في قوله:

-
- (١) العنقاء: اسمٌ للجبل العالي، الأسوم: جمع اسامة وهو اسمٌ من أسماء الأسد.
(٢) ديوانه ص ١٤٦، يبدو أي الثور الوحشي، تضميره البلاد: أي تخفيه وتغيبه، الشرف: المكان المرتفع ووجه الشبه بينه وبين السف: البياض، يقول مثله وهو يراوح بين الاختفاء والظهور كمثل السيف يراوح بين أن يغمد أن يسلم.
(٣) نَضَلْتُكَ: يقال: نَضَلَهُ أي غلبه في الرماه.
(٤) الملَّ: التراب الحار والرماد والجمر.
(٥) ديوانه ص ٨ (المعلقة)، حباب الماء: أمواجه، حيزومها: صدرها، الفياال: ضربٌ من اللعب حيث يُحْبَأُ شيء في التراب ثم يأتي أحد اللاعبين (المفايل) ويشق التراب بيده فيقسمه قسمين ويسأل عن موضع المخبوء، فإذا أخطأ قيل له: قال رأيك، (فقد شبه الشاعر شقَّ السفينة للماء بشق المفايل لكومة التراب).
(٦) ديوانه ص ٣٧، (المعلقة)، الطوَّل: الحبل الذي يطوَّل للدابة فترعى، الثني: الطرف، يقول: إن الموت في أخطائه الفتى وتأخره عنه إنما هو بمنزلة الحبل المرخي للدابة لكن طرفه بيد إنسانٍ أنى شاء شده وجذبه.
(٧) ديوانه ص ١١، (المعلقة)، حلت قناعها: أي ألقت عليه حسننها وبهجتها، التخذد: اضطراب الجلد واسترخاء اللحم، ويعني أنها في شبابها وقتاء سنها.
(٨) صاحب واحدة: أي تميز في فنٍّ معين وبرز فيه.

أَذْنَتْنَا بَيْنَهَا أَسْمَاءُ رَبُّ ثَاوِيَمَلْ مِنْهُ الثَّوَاءُ
والأشعر الجعدي الجعفي في قصيدته التي أولها:
هَلْ بَانَ قَلْبُكَ مِنْ سُلَيْمَى فَاشْتَفَى وَلَقَدْ عُنِيَتْ بِحُبِّهَا فِيمَا مَضَى
والأفوه الأودي في قوله (١):
إِنْ تَرَى رَأْسِي فِيهِ قَزَعٌ وَشَوَاتِي خَلَّةٌ فِيهَا لَوَارُ
وعلقمة بن عبدة الفحل في قوله (٢):
طَحَا بِكَ قَلْبٌ فِي الْحِسَانِ طَرُوبٌ بُعِيدَ الشَّبَابِ عَصْرَ حَانَ مَشِيبُ
وسويد بن أبي كاهل في قوله (٣):
بَسَطْتُ رَابِعَةَ الْحَبْلِ لَنَا فَمَدَدْنَا الْحَبْلَ مِنْهَا مَا اتَّسَعُ
وعمر بن كلثوم في قوله (٤):
أَلَا هُبِّي بِصَحْنِكَ فَاصْبَحِينَا وَلَا تَبْقِي خُمُورَ الْأَنْدَرِينَا
وعمر بن معدي كرب (٥):
أَمِنْ رِيحَانَةِ الدَّاعِي السَّمِيعِ يُؤَزِّقُنِي وَأَصْحَابِي هُجُوعُ
قال: فاستخفت الرشيد الأريحية (٦). فقال: أدنه فإنك جُحِشٌ وحدك (٧) قال: فزاد في
عيني نبلاً فقال جعفر متمثلاً:

* الْبَثُّ قَلِيلاً يَلْحَقُ الْهَيْجَا جَمَلٌ (٨) *

يعرض بأنه يجوز أن يدرك هو ما يحاوله، فقال الرشيد:

فَأَتَتْكَ وَاللَّهِ السَّوَابِقُ بَعْدَهَا وَجِئْتَ سَكِينَةً ذَا زَوَائِدَ أَرْبَعِ

(١) القزح: ذهاب بعض الشعر وبقاء البعض، الشواة: قحف الرأس أو جلده الخلة: قليلة الشعر أو المهزولة قليلة اللحم، النوار: الصداق.

(٢) الفضليات ص ٣٩١، قصيدة رقم (١١٩)، طحاياك: أي اتسع بك وذهب كل مذهب.

(٣) الفضليات ص ١٩١، قصيدة رقم (٤٠)، رابعه: صاحبته يتغزل فيها، الحبل الوصل، ما اتسع: أي ما امتد، يقول: لم تبخل علينا بالوصل فبذلنا لها وصلنا ووصلناها بوصلها.

(٤) ديوانه ص ٧٧ مطلع معلقته، الأندرينا: قرى بالشام.

(٥) ديوانه ص ١٤٠، ريحانه: امرأته المطلقة، وقيل: أخته، السميع: المُسَمِّع، يؤزقني: من الأرق وهو ضد النوم (السهد).

(٦) الأريحية: الميل إلى العطاء.

(٧) جحيش وحدك: أي منقطع النظير، والجحيش: المنفرد.

(٨) الهيجا: الحرب، كذا في الأصل والשובاب: (لَبَثٌ قَلِيلاً يَلْحَقُ الْهَيْجَا حمل) بالحاء المهملة، وتتمة هذا الشطر (لا بأس

بالموت إذا حان الأجل) وحمل: اسم رجل، انظر سيرة ابن هشام ٢/٢٢٦.

ورأيت الحمية في وجهه فقال جعفر: على شريطة حلمك يا أمير المؤمنين فقال: أترأه
يسع غيرك ويضيق عنك فقال جعفر: لست أنصّ على شاعر واحد إنه أحسن بيت واحد تشبيهاً
ولكن قول امرئ القيس^(١):

كَأَنَّ غُلَامِي إِذْ عَلَا حَالُ مَتْنِهِ عَلَى ظَهْرِ بَازٍ فِي السَّمَاءِ مُحَلَّقٍ
وقول عدي بن الرقاع^(٢):

يَتَعَاوَرَانِ مِنَ الْغُبَارِ مُلَاعَةً غُبْرَاءَ مُحْكَمَةً هُمَا نَسَجَاهَا
تُطَوَّى إِذَا وَرَدَا مَكَانًا جَاسِيًا وَإِذَا السَّنَابِكُ أَسْهَلَتْ نَشْرَاهَا
وقول النابغة الذبياني^(٣):

فَإِنَّكَ شَمْسُ وَالْمُلُوكُ كَوَاكِبُ إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوُكَبُ
فقلت: هذا كله حسن بارع وغيره أبرع منه وإنما يحتاج أن يقع التعيين على ما اخترعه
قائله فلم يتعرّض له أو تعرّض له شاعر فوقه دونه، فأما قول امرئ القيس «على ظهر بازٍ
محلق»، فمن قول أبي داود:

إِذَا شَاءَ رَاكِبُهُ ضَمَّهُ كَمَا ضَمَّ بَازٍ إِلَيْهِ الْجَنَاحَا
وأما قول ابن الرقاع: يتعاوران من الغبار ملاعةً فمن قول الخنساء^(٤):

جَارِي أَبَاهُ فَأَقْبَلَا وَهُمَا يَتَعَاوَرَانِ مُلَاعَةً الْفَخْرُ
وأول من نطق بهذا المعنى شاعر قديم من عقيل^(٥):

أَلَا يَا دِيَارَ الْحَيِّ بِالْبَرْدَانِ عَفْتُ حِجَجٍ بَعْدِي لَهُنَّ ثَمَانِ
فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا غَيْرُ نُؤْيٍ مُهْدَمٍ وَغَيْرُ أَثَافٍ كَالرَّكْبِيِّ دِفْءَانِ
وَأَثَارُ هَابٍ أَوْرَقِ اللَّوْنِ سَافَرَتْ بِهِ الرِّيحُ وَالْأَمْطَارُ كُلُّ مَكَانِ

(١) ديوانه ص ٨٨، حال متنه: أي ظهر الفرس، وحال الفرس: موضع الراكب، والباز: طائر، يشير إلى علو صهوة الحصان وضخامة هيكله.

(٢) أمالي المرتضى ١/١٠٢، البيتان في وصف ثورين، يتعاوران: يتناوب كل منهما على اعارة الآخر هذه الملاعة: وهي الملحفة أو ما يفرش على السرير، مكاناً جاسياً: غليظاً لا يشير غباراً، السنابك جمع سنبك وهو طرف الحافر، ويطلق على الأرض الغليظة القليلة الخير

(٣) ديوانه ص ٥٧، والبيت في مدح النعمان.

(٤) ديوانها ص ٤٢، استعارة الملاعة للفخر يليسها أبوها مرة ثم أخوها مرة أخرى، يتعاوران يتبادلان الاعارة.

(٥) وهو عميرة بن جعيل بن عمرو بن تغلب، البردان: مواضع كثيرة، الجاب: الحمار الغليظ من حمر الوحش.

قَفَّارُ مَرُورَاتٍ يَحَارُ بِهَا الْقَطَا وَيَضْحَى بِهَا الْجَابَانُ يُعْتَرِكَانِ
يُثِيرَانِ مِنْ نَسِجِ الْعَجَاجِ عَلَيْهِمَا قَمِيصَيْنِ أَسْمَالًا وَيُرْتَدِيَانِ
وأما قول النابغة: «فإنك شمس والملوك كواكب» فقد تقدمه شاعر من شعراء كندة يمدح فيه عمرو بن هند وهو أحقُّ به من النابغة إذ كان أبا عذرة، فقال:

تَكَادُ تَمِيدُ الْأَرْضُ بِالنَّاسِ أَنْ رَأَوْا لَعْمُرِ بْنِ هِنْدٍ غَضْبَةً وَهُوَ عَاتِبُ
هُوَ الشَّمْسُ رَأَقَتْ يَوْمَ سَعْدٍ فَأَفْضَلَتْ عَلَى كُلِّ ضَوْءٍ وَالْمُلُوكُ كَوَاكِبُ

قال فكأنني ألقمت جعفرًا حجرًا، واهتز الرشيد من فوق سريره أشراً^(١)، وكاد يطير منه عجباً وطرباً، وقال: يا أصمعي اسمع الآن ما وقع عليه اختياري، قلت: ليقبل أمير المؤمنين أحسن الله توفيقه: فقال: قد عيّنت على ثلاثة أشعار أقسم بالله أنني أملك قصب السبق بأحدهما، فقال يحيى: خفّض على همتك يا أمير المؤمنين، فيأبى الله إلا أن يكون الفضل لك ثم قال الرشيد: أتعرف تشبيهاً أفخم وأعظم في أحقر مشبّه وأصغره وأقدره في أحسن معرض من قول عنتره الذي لم يسبقه إليه سابق، ولا طمع في مجاراته طامع، حين شبّه ذباب الروض العازب في قوله^(٢):

وَحَلَا الذُّبَابُ بِهَا فَلَيْسَ بِبَارِحٍ غَرِدًا كَفِعْلِ الشَّارِبِ الْمُتَرَنِّمِ
هَزِجًا يَحْكُ ذِرَاعَهُ بِذِرَاعِهِ قَدَحَ الْمَكِبِّ عَلَى الزَّنَادِ الْأَجْذَمِ
ثم قال: هذا من التشبيهات العقم: قلت: هو كذاك يا أمير المؤمنين، ويمجدك البيت ما سمعت أحداً وصف شعراً أحسن من هذه الصفة؟ فقال: مهلاً لا تعجل، أتعرف أحسن من قول الحطيئة يصف لغام ناقته؟ وتعلم أن أحداً قبله أو بعده شبه تشبيهه فيه حيث يقول^(٣):

تَرَى بَيْنَ لَحْيَيْهَا إِذَا مَا تَزَغَمَتْ لُغَامًا كَبَيْتِ الْعَنْكَبُوتِ الْمُمَدِّ
فقلت: يا أمير المؤمنين، لا والله ما علمت أن أحداً تقدّمه أو أشار إلى هذا التشبيه قبله

(١) أشبر أشراً: أي فرح ونشط.

(٢) شرح المعلقات ص ١٥٩، البراج: الزوال، التغريد: التصويت، الترتم: ترديد الصوت، هزجاً: مصوتاً، المكب المقبل على الشيء، الأجذم: الناقص اليد. يقول إن الذباب خلا في هذه الروضة، لم يزاولها يصوت تصويت شارب الخمر حين رجع صوته بالغناء، ثم يشبهه - في البيت الثاني - حك الذباب إحدى يديه بالأخرى بقدر رجل ناقص اليد النار من الزندين.

(٣) ديوانه ص ١٥٥، لحبيها: فكّيتها، تزغمت: يقال تزغم الجمل إذا رددَ رغاءه أي صوته في لهازمه أي العظام التي تحت حنكه، واللغام: زبدة أفواه الإبل.

فقال: أتعرف أبداع وأوقع من تشبيه الشماخ لنعامة سقط ريشها وبقي أثره، حيث يقول^(١):

كَأَنَّمَا مُنْتَنَى أَقْمَاعٍ مَا مَرَّطَلَتْ مِنْ الْعِفَاءِ بِلَيْتِيهَا الثَّالِيْلُ

فقلت: لا والله، فالتفت إلى يحيى بن خالد فقال: أوجب؟ قال: وجب، قال: فأزيدك؟ قال:

وأبي خير لم يزدني منه أمير المؤمنين؟ قال قول النابغة الجعدي^(٢):

رَمَى ضَرْعَ نَابٍ فَاسْتَقَلَّ بِطَعْنَةٍ كَحَاشِيَةِ الْبُرْدِ الْيَمَانِيِّ الْمُسَهَّمِ

ثم التفت إلى الفضل فقال: أوجب؟ قال: وجب، قال: أزيدك. قال: ذاك إلى أمير المؤمنين.

قال: قول الاعرابي:

بِهَا ضَرْبٌ أَذْنَابُ الْعِظَاءِ كَأَنَّهُ مَلَاعِبُ وَلَدَانٍ تَخْطُ وَتَمْصَعُ^(٣)

ثم التفت إلى جعفر قال: أوجب؟ قال: وجب. قال: أزيدك؟ قال: لأمر المؤمنين علو

الرأي. قال: قول عدي ابن الرقاع^(٤):

تُزْجِي أَغْنُ كَأَنَّ ابْرَةَ رَوْقِهِ قَلَمٌ أَصَابَ مِنَ الدَّوَاةِ مِدَادَهَا

فقلت: يا أمير المؤمنين هذا بيت حسد عدياً عليه جرير؟ قال: وكيف ذاك؟ قلت: زعم أبو

عمرو أن جريراً قال لما ابتدأ عدي:

عَرَفَ الدِّيَارَ تَوْهَمًا فَأَعْتَادَهَا مِنْ بَعْدِ مَا شَمَلَ الْبِلَى أَبْلَادَهَا^(٥)

قلت في نفسي: قد ركب مركباً صعباً سيبدع به، فما زال يتخلص من حسن إلى حسن حتى قال:

* تُزْجِي أَغْنُ كَأَنَّ ابْرَةَ رَوْقِهِ *

قال: فرجمته وظننت أن مادته ستقصر به فلما قال:

قَلَمٌ أَصَابَ مِنَ الدَّوَاةِ مِدَادَهَا حَالَتِ الرَّحْمَةُ حَسَدًا. قال: لله درك يا أصمعي ثم أترك

ورفع طرفه إلي وقال أترك تغيبني عقلي بانحطاطك في هواي؟ فقلت: كلا والله يا أمير

المؤمنين: وإنك لتجل عن الحرش^(٦) قال: انظر حسناً، قلت: قد نظرت قال: فالسبق لمن؟ قلت:

(١) ديوانه ص ٨٠، الاقماح: جمع قمعه وهي بثرة تخرج في أصول الأشعار واصله الذي على رأس الثمرة، مرطت:

نتفت، العفاء: الريش الذي يكون على الصغار، بليتيتها: مثني ليت: وهو صفحة العنق الثاليل: جمع ثلول: وهو الحبة تظهر في الجلد كالحمصة فما دونها.

(٢) الأغاني ١٢٦/٤، الناب: الناقة المسنة، البرد المسهم: المخطط بصور على شكل السهام.

(٣) العظاء: جمع عظاءة وهي دابة صغيرة تعرف في بعض المناطق بالسحلية، تمصع: مصعت الدابة بذنبها: أي حركته من غير عنق.

(٤) ديوان المعاني ١٣٢/٢، تزجي: تدفع، اغن: صغير ضعيف الصوت، ابرة روقه: حدة قرنه، والدواة العلبة التي يوضع فيها الحبر والمدا: الحبر.

(٥) اعتادها: اتاها مرة بعد أخرى، وقيل: أعاد النظر إليها مرة بعد أخرى لدروسها وزوالها حتى عرفها، الأبلاد: الآثار.

(٦) الحرش: الخشن.

لأمير المؤمنين، قال: قد أسهمتُ لك فيه العُشْرَ، والعُشْرُ كثير، ثم رمى بطرفه إلى يحيى وقال: «المال» - تهدداً ووعيداً - «الساعة وأولى لك» قال: فما كان إلا كـ(لا) و (ما)^(١) حتى نُصِدَّتِ البِدْرُ^(٢) بين يديه إلى أن كادت تحول بيني وبينه ورأيت ضوء الصبح قد غلب على ضوء الشمع، فأشار إلى خادم على رأسه أن مَكَّنْهُ وقال: «هي ثلاثة أَلْف ألف درهم، فدونك فاحتمل ثلاثين بَدْرَةً وانصرف إلى منزلك»، ونهض عن مجلسه وأمر الخدم بمعاونتي على تعجيل حمله فاحتمل كل خادم بَدْرَةً ولا يكاد يستقل بها، فكانت أسعد ليلة ابتسم فيها الصباح عن ناجذ الغنى^(٣).
هذا ما يسرّه الله في باب التشبيه ولنحدثك الآن عن أسلوب آخر هو أسلوب المجاز، ومن الله العون وعليه التكلان.

(١) أي كالمدة التي يستغرقها التلفظ بحرف (لا) أو حرف (ما) وهو استعمال معروف.

(٢) البِدْرُ: جمع بَدْرَةٍ وهي صرة فيها عشرة آلاف درهم.

(٣) الجمان في تشبيهات القرآن/ ابن ناقي البغدادي ص ٢٢٢ - ٢٢٩.

الباب الثاني المجاز

تمهيد :

نتحدث فيه عن المجاز: تعريفه، الفرق بينه وبين الحقيقة، أنواعه، المجاز بين مثبتيه ونفاته.

أولاً: تعريفه:

مما ينبغي أن نبادرك به القول هنا، أن الحديث في هذا الباب عن المجاز، وأنواعه، وإقسامه. والقوم يذكرون مع المجاز الحقيقة، بل إن بعض الكاتبين يجعلها في عنوان الباب وصلبه، فيقول: الحقيقة والمجاز، وذكر الحقيقة؛ لا لأنها من مباحث هذا الباب، بل لأنها مقابلة للمجاز، فلكي نعرف المجاز ونتصوره لا بد أن نعرف الحقيقة، إذ بضدها تتمايز الأشياء.

معناها اللغوي:

وقبل أن نحدثك عن الحقيقة والمجاز بمعناها الاصطلاحي يجدر أن نحدثك عن المعنى اللغوي لكل من هذين اللفظين فإن معرفة المعنى اللغوي تعين وتقرب من فهم المعنى الاصطلاحي.

أما الحقيقة، فأنت تجد مادة لهذين الحرفين، - الحاء والقاف - أعني كلمة حق، والحق هو الشيء الثابت. قال تعالى: (وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ) [غافر ٦] وقال: (لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ) [يس ٧] أي: ثبت، فالحقيقة إذن: هي الشيء الثابت إذا جعلناها اسم فاعل، أو الشيء المُنْتَبِت إذا جعلناها اسم مفعول، وكلاهما صحيح: لأن صيغة فاعل في اللغة تصلح أن تكون اسم فاعل أو اسم مفعول كما فصل في موضعه، والتاء فيها ليست تاء التأنيث كالتاء في (جميلة)، و(نظيفة) و(كريمة)، إنما التاء في كلمة (حقيقة) جاءت للنقل من الوصفية إلى الإسمية كالتاء في (نطيحة)؛ وبيان هذا أنك إذا قلت (نظيفة) و (جميلة) فأنت تعني وصفاً لمؤنث (كغرفة نظيفة) و(زهرة جميلة). أما إذا قلت (حقيقة) فلا تعني بهذه الكلمة وصفاً لمؤنث، ألا تراك تقول: «هذا اللفظ حقيقة»، ولو كان وصفاً كان ينبغي أن تقول: «هذا اللفظ حقيق».

فنحن نقلناها إذن من كونها وصفاً إلى كونها اسماً غير وصف، التاء تاء النقل كما في (نطيحة) و (نطيحة) فإنهما يطلقان على المذكر والمؤنث، وإن اردت مزيداً وكنت ممن يتوقون إلى معرفة هذه القضايا اللغوية فنرشدك إلى علم الصرف فستجد فيه ضالتك المنشودة إن شاء الله.

أما المجاز فهو مصدر ميمي من جاز الشيء جوازاً إذا تعدّاه، ويمكن أن يكون بمعنى اسم المكان من قولهم «جاز الطريق مجازاً» أي سلكه. الحقيقة في اللغة إذن الشيء الثابت، والمجاز في اللغة (تعدّي الشيء)، ولعلك تشتم رائحة التضاد بين هاتين الكلمتين، لأن الذي يجوز المكان يتعداه ولا يثبت فيه.

معناها الاصطلاحي:

ومن المعنى اللغوي جاء المعنى الاصطلاحي لكل منهما، فالحقيقة: هي اللفظ المستعمل فيما وضع له، والمجاز: هو اللفظ المستعمل في غير ما وضع له لعلاقة مع قرينه تمنع إيراد المعنى الحقيقي: ولا بد أن نقف مع هذا التعريف لنشرحه ونوضحه:-

من نافلة القول أن اللغة ضرورة ملحة تدعو إليها الحاجة ليتفاهم الناس فيما بينهم، فالكلمات والألفاظ قوالب للمعاني التي يعبر عنها الناس، فهم يعبرون عما في نفوسهم بالكلمات، فالمعنى معبر عنه، واللفظ معبر به، ومن هنا كان لا بد لكل معنى من لفظ يدل عليه حتى لا يختلط الأمر، ومن أجل أن يكون لكل لفظ مدلوله الذي يدل عليه.

ولقد كانت هذه الألفاظ بآديء بدء تساير حاجات الناس؛ معنى ذلك أنهم يحتاجون الألفاظ للأمور التي تدور بينهم، وتلج عليهم، ولا ريب أن أي قوم من الأقوام يتصفون بالبداية في أول نشأتهم، ثم تبدأ مراحل التطور والنمو، وإذا كان هذا شأن الأقوام والأمم فهو شأن اللغات التي يتحدث بها الأقوام كذلك. وبرهان هذا أنك لو أخذت كثيراً من كلمات اللغة العربية التي تدل اليوم على أشياء معنوية لوجدت أنها وضعت أول ما وضعت لأشياء محسوسة، ولكن مع تطور القوم أصبح لهذه الألفاظ مدلولات غير تلك التي وضعت لها أولاً.

كلمة (كتاب) مثلاً: التي تعني اليوم وسيلة المعرفة والثقافة والعلم، حينما ننظر في المعنى الذي وضعت له أولاً نجد أنها وضعت لما كانت تدعو إليه حاجة القوم في نشأتهم الأولى، فكلمة (كُتِبَ) معناها ضم الخيوط بعضها إلى بعض للنسج والخطاطة، وهذا الذي يحتاج إليه القوم في نشأتهم الأولى ثم وضعت بعد ذلك (للكتيبة من الجيش)، ثم وضعت بعد ذلك (لضم الحروف بعضها إلى بعض)^(١).

وهكذا أكثر الكلمات العربية كما قلت لك من قبل، وهذه الكلمة على الرغم من تطور مدلولاتها، إلا أن العرب هم الذين وضعوها لكل معنى من هذه المعاني المختلفة.

فمعنى الوضع - إذن - أن يصطلح القوم على أن يضعوا لكل معنى كلمة تدل عليه، وهذا الوضع هو الذي يسمى حقيقة؛ فأنت تدرك الآن ما قلناه في تعريفها، بأنها اللفظ الذي

(١) راجع هذا الموضوع مفصلاً في الجزء الأول من هذا الكتاب عند الحديث عن الفصاحة والبلاغة ص ٥.

استعمل فيما وضع له، فاستعمال الكتاب في جمع الحروف بعضها إلى بعض حقيقة لغوية لأن العرب هم الذين وضعوا هذه الكلمة لتدل على هذا المعنى، واستعمال الأسد للحيوان المفترس حقيقة لغوية لأن العرب هم الذين وضعوا هذه الكلمة لهذا النوع الخاص من الحيوانات ودلالة كلمة البحر على القسم المائي من الأرض حقيقة لغوية، كذلك دلالة الشمس على هذا الجرم المضيء، ودلالة السحاب على هذا النوع من الغمام، ودلالة القمر على ذلك الكوكب المنير كل أولئك حقائق لغوية لأن العرب هم الذين وضعوا هذه الكلمات لتدل على هذه الأشياء كلها.

استعمال اللفظ فيما وضع له حقيقة - إذن - ولكننا حينما ننعم النظر نجد أن هذه الكلمات: وهي كلمة (شمس)، و(بحر)، و(أسد)، و(قمر)، تستعمل في غير هذه المعاني التي وضعت لها، فقد تستعمل كلمة الشمس للحسنة، وتستعمل كلمة أسد في الرجل الشجاع، وتستعمل كلمة السحاب والبحر في الرجل الكريم، كذلك كلمة قمر لذي الطلعة البهيّة، هذه الكلمات - إذن - نجد أنها استعملت في معنيين مختلفين: فتارة استعملت في معناها الذي وضعت له، وتارة استعملت في معاني أخرى، هناك - إذن - كلمة واحدة ومعنيان:

المعنى الأول: الذي وضعت له الكلمة أساساً.

المعنى الثاني: الذي استعملت فيه.

ولكن ترى كيف تتم عملية النقل؟ أي يمكننا أن ننقل كل كلمة من المعنى الذي وضعت له لنستعملها في أي معنى آخر؟ أظنك تأبى ذلك بفكرتك وفطرتك لأن هذا ستكون نتيجته الخل، والاضطراب، وستعم الفوضى، فتتقل كلمة الكذب لمعنى الصدق، وكلمة الخير لمعنى الشر، وكلمة المدح لمعنى الذم، وسيعود الناس إلى مجتمع السفسطينية الذين لم تكن الكلمة فيه عندهم تعني مدلولاً معيناً، ومن هنا كان لا بد من صلة وقرب بين المعنيين: اعني المعنى الذي وضعت له الكلمة أولاً والمعنى الذي ستستعمل فيه ثانياً.

خذ كلمة (الشمس) مثلاً، المعنى الذي وضعت له أولاً هذا الجرم المضيء، والمعنى الذي استعملت فيه ثانياً هو الوجه المتلألئ، وخذ كلمة (سحاب)، المعنى الذي وضعت له أولاً هو هذا الغمام المطر، المعنى الذي استعملت فيه ثانياً هو الرجل الجواد، وكلمة (أسد) المعنى الذي وضعت له أولاً هذا الحيوان المفترس المعروف بشجاعته، والمعنى الذي استعملت فيه ثانياً هو الرجل الشجاع، ألا ترى إلى هذه الصلة بين المعنيين؟ اعني (الجرم المضيء والوجه المتلألئ)، و(القمامة الحاملة للماء والرجل الجواد)، و(الحيوان المفترس والرجل الشجاع)، تدرك بعد هذا أننا لن نستطيع أن ننقل أي كلمة من معناها الأساسي إلى أي معنى نشاء فلا بد من صلة وثيقة بين المعنيين، وهذا ما يعبرون عنه بالعلاقة، وهو ما ذكرناه في تعريف المجاز، بانه الكلمة التي استعملت في غير ما وضعت له لعلاقة.

بقي عنصر هام ضروري في تعريف المجاز، هذا العنصر لا بد منه حتى لا يختلط الأمر على المتكلم والسامع على السواء. إذا قلت «رأيت بحراً» فإن المتبادر من هذه العبارة أنه البحر

الحقيقي، ولا يستطيع أن ادّعي أنني اعني به الرجل الجواد ولكنني إذا قلت «رأيت بحراً يسير في القافلة» فإن هذه العبارة «يسير في القافلة» تمنع من ارادة البحر الحقيقي، وكذلك إذا قلت «رأيت شمساً بيدها كتاب» و«رأيت أسداً يكرّ بسيفه» فإن قولنا «بيدها كتاب» و«يكرّ بسيفه» يمنع ارادة المعنى الحقيقي للشمس والأسد، وهذا الذي يعبر عنه بالقرينة.

ارجو أن تكون بعد هذا قد استوعبت تعريف المجاز استيعاباً تاماً من أنه اللفظ الذي استعمل في غير ما وضع له علاقة مع قرينة مانعة من ارادة المعنى الحقيقي. ومما تقدم لك تدرك أن المجاز لا بد فيه من خمسة أمور:

١- الكلمة:

٢. ٢ - معنيان: المعنى الحقيقي الذي وضعت له الكلمة والمعنى المجازي الذي استعملت فيه الكلمة ثانياً.

٤- العلاقة: وهي الصلة بين المعنيين ولولاها ما استطعنا أن ننقل الكلمة من معناها الأول الذي وضعت له إلى معناها الثاني الذي استعملت فيه.

٥- القرينة التي تبين لنا أن المعنى الحقيقي غير مراد وأن المعنى المجازي هو المقصود.

أمر لا بد منه:-

القضية التي ينبغي أن توجه لها عنايتك بعد هذا كله هي كيف تستطيع أن تفرق بين المعنى الذي وضعت له الكلمة وبين المعنى الذي استعملت فيه؟؟ لأن استطعت أن تعرف هذا في بعض الكلمات التي يكثر دورانها على الألسنة فكيف يمكنك أن تعرف هذا في الكلمات الكثيرة؟، والعربية - كما تعلم - غنية بثروتها والفاظها لذا فإنني أنصح لك إذا أردت أن تتذوق الكلام البليغ وتبدع في قولك أن تعدّ نفسك اعداداً لغوياً، فتستطيع عند ذلك أن تفرق بين الحقيقة والمجاز، فإذا تلوت قول الله سبحانه: (إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) [الفاتحة ٦] وقوله: (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ) [الحجر ٩٤]، (إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَا كُرمَ فِي الْجَارِيَةِ) [الحاقة ١١]، وقوله: (وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ) [الكهف ٩٩]، وقوله: (وَأَيُّ لَهمُ اللَّيْلِ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا همُ مُظْلَمُونَ) [يس ٣٧]، فكيف تدرك أن في كل آية كريمة مجازاً لطيفاً واستعارة بديعة؟؟ إن ذلك يتطلب منك ويحتم عليك معرفة المعاني التي وضعت لها هذه الكلمات، فإذا عرفت أن كلمة (الصراط) مثلاً وضعها العرب للطريق، واستعملها القرآن لتدل على الدين، وكلمة (الصدع) وضعها العرب لشق الأشياء الصلبة واستعملها القرآن في التبليغ والجر، وكلمة (الطغيان) وضعها العرب لتجاوز الإنسان الحدّ فيما ينبغي له واستعملها القرآن

في ارتفاع الماء، وكلمة (الموج) وضعها لحركة الماء واستعملها القرآن في حركة يأجوج ومأجوج، وكلمة (السلخ) وضعها العرب في كشط الجلد واستعملها القرآن في شأن الليل والنهار. إذا عرفت هذا تذوقت وادركت مواقع المجاز في الكلام.

ثانياً: المجاز بين المثبتين والنافين:

كانت قضية المجاز قديماً وحديثاً مثار نزاع مع أن المثبتين له أكثر من النافين، ولا يعني الآن أن نفصل القول في هذه القضية ونكتفي بأن نذكر لك طرفاً منها:

لم ينازع أحد من علماء البيان في اثبات المجاز، ولكن ذهب بعض اللغويين إلى أنه لا ينبغي التغالي في هذا المجاز، ولقد ردّ على هؤلاء ابن قتيبة، أما الذين انكروا المجاز فهم بعض الفقهاء والمتكلمين وتلخص الأدلة التي استندوا إليها فيما يلي:

١- إن المجاز نوع من الكذب.

٢- إنه يدل على عجز المتكلم فهو إنما لجأ إلى المجاز لعدم استطاعته أن يعبر بالحقيقة عن مراده وهذا مستحيل أن يكون في كتاب الله لأن الكذب والعجز محالان.

ولكننا لا نسلم لهم هذا القول، فأولاً: إن هناك فرقاً بين المجاز والكذب من جهتين اثنتين.

فالمجاز مبني على التأويل - كما عرفت - والكذب ليس كذلك، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن المجاز له قرينة تمنع من ارداء المعنى الحقيقي والكذب ليس كذلك.

وثانياً: لا نسلم أن المجاز دليل على العجز، وإنما يؤتى به لمقتضيات بلاغية كما يؤتى به في التقديم والتأخير، والحذف والذكر، والفصل والوصل.

٣- أما الدليل الثالث الذي استندوا إليه في إنكار المجاز ولعله أقوى أدلتهم فهو: من أين عرفت أن هذه الكلمة وضعت أول ما وضعت لهذا المعنى ثم استعملت بعد ذلك في معنى آخر؟ فلم لا تكون كلمة أسد، مثلاً قد وضعت للرجل الشجاع قبل أن توضع للحيوان المفترس؟ أو أنها وضعت للمُعْتَيِّن في وقت واحد. وأنت تعلم أن تلك قضية بحاجة إلى دراسة واستقصاء ولكننا مع ذلك يمكن أن نردها بما يلي:

أولاً: إن هناك كلمات يمكننا أن نحدد الزمن الذي استعملت فيه استعمالاً مجازياً، فهناك أقوال مأثورة للرسول صلى الله عليه وسلم أجمعوا على أنه لم ينطق بها أحد قبله عليه وآله الصلاة والسلام، كما أن هناك كلمات استعملت استعمالاً مجازياً وكان الذين استعملوها أول مرة من شعراء الجاهلية وهذا يدلنا على أن بعض الألفاظ كان استعمالها المجازي متأخراً عن استعمالها الحقيقي وما يصدق على بعضه، يصدق على بعضه الآخر.

ثانياً: يمكن أن نرد هذا القول كذلك بأن هناك فرقاً كبيراً بين استعمال الكلمة فيما وضعت له وبين استعمالها في غير ما وضعت له فأتت إذا استعملت كلمة (الشمس) وكلمة (البحر) وكلمة (الأسد) وكلمة (السيف)، فيما وضعت له كل من هذه الكلمات فإنها لا تزيدنا شيئاً جديداً، ولا تحتاج إلى قرينة، ولكنك حينما تستعملها في غير ما وضعت له فإنها تضيف عليها شيئاً جديداً مع احتياجها للقرينة، إن استعمال كلمة (الشمس) في الجرم المعلوم ليس فيها أي جديد، ولكن استعمالها في (المرأة) تدل على حسنها ووضاعتها، وعلى كل حال فنحن نعذر أولئك الذين انكروا المجاز، فإنما كان قصدهم أن يردوا كثيراً من التأويلات المنحرفة عن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وتلك غاية نبيلة وقصد مأجور إن شاء الله^(١).

ثالثاً: تعدد الوضع:

وما دمنا قد تحدثنا عن الوضع، فحريُّ بنا قبل أن نغادر هذا الموضوع أن نلمَّ ببعض القضايا لصلتها بما نحن بصدد، عرفت أن الوضع المعتبر في المجاز هو الوضع اللغوي، فالكلمات التي استعملت فيما وضعت له سميناً (حقيقة)، والتي استعملت في غير ما وضعت له سميناً (مجازاً)، وكان حديثنا عن الوضع اللغوي، ولذا سمي هذا النوع من المجاز لغوياً، ولكن هناك جهات أخرى غير اللغة يمكن أن تتدخل في قضية الوضع، على معنى أن اللغة وحدها ليست هي التي تملك شأن الوضع ويتخصص فيه، صحيح هي الأساس في ذلك ولكن هناك جهات أخرى يمكن أن يكون لها الحق في الوضع كذلك:

أولاً: وأول هذه الجهات الشرع، فهناك أشياء وضع الشرع لها أسماء خاصة بها، خذ كلمة (الصلاة) مثلاً وضعتها اللغة للدعاء، وفي اصطلاح الشرع: اقوال وافعال مفتوحة بالتكبير مختمة بالتسليم، وهكذا كثير من الكلمات التي وضعها الشرع لمعانٍ خاصة بها.

ثانياً: العرف الخاص: بعد تعدد العلوم والمعارف أصبح لكل علم مصطلحاته الخاصة به، ففي علوم الحديث مثلاً نجد هذه الكلمات: الصحيح، الضعيف، الحسن، التدايس، وفي علوم البلاغة نجد هذه المصطلحات: الفصل والوصل، القصر، الاستعارة، وفي علم النحو نجد: الاعراب، البناء، الاشتغال، التمييز، وفي علم الصرف نجد: الإعلال، الإبدال، التصغير، النسب. وفي علم النفس نجد: الدافع، الشعور، الربط، الانتباه، وهكذا كل نوع من أنواع المعارف نجد له مصطلحاته الخاصة.

ثالثاً: العرف العام: ونعني ما لم يكن لفئة خاصة، فالدابة مثلاً وضعها العرف العام لذات القوائم الأربع، والسؤال الذي يطرح نفسه: إذا تعارضت هذه الجهات مع اللغة وهي

(١) راجع في هذا الموضوع: عبد العظيم الطعني، المجاز في اللغة وفي القرآن الكريم بين مجوزيه ومناعيه.

متعارضة يقيناً - فهل نعدّ هذه المصطلحات جميعاً من أبواب المجاز؟ هل نعد استعمال الشرع للصلاة في الأقوال والأفعال مجازاً؟ وهل نعدّ تعريف الصحيح عند علماء الحديث مجازاً لأن تعريفهم يختلف عن تعريف اللغة؟ وهل نعدّ تعريف الفصل عند علماء البلاغة مجازاً لأن تعريفه يختلف عن تعريف اللغة؟ وهل نعدّ تعريف العرف العام للدابة بأنها ذات القوائم الأربع مجازاً لأن تعريفهم يختلف عن تعريف اللغة فإنّ اللغة وضعت الدابة لكل ما يدب على الأرض؟ وإذا كان الأمر كذلك فإنّ هذا من شأنه أن يعسر على كثير من الناس وللإجابة عن هذا السؤال نقول:

إن كل جهة وضعت لمصطلحاتها الخاصة كلمات تدل عليها، فإن هذه الكلمات الموضوعية تصبح حقائق لا ينازع فيها أحد، فالصلاة التي وضعت للأقوال والأفعال هي حقيقة شرعية، وكذلك الصيام الذي وضع للإمساك المخصوص حقيقة شرعية، كذلك المصطلحات في أنواع العلوم والمعارف، فتعريف الفصل في علوم البلاغة أنه (ترك العطف بين الجملتين) حقيقة اصطلاحية لا نزاع فيها، كذلك تعريف الدابة التي لها أربع قوائم حقيقة عرفية. خلاصة القول أن بعض المجازات اللغوية قد تصبح حقائق شرعية أو عرفية كاستعمال كلمة (الصلاة) في الأقوال والأفعال، والعرب لم تضعها لهذا بل وضعتها للدعاء، لكن استعمال الشرع لها جعلها حقيقة شرعية، مع أنها في أصلها مجاز لغوي، وحتى لا نكثر المجاز في الكلام لا نقول إن الصلاة التي بينتها الشريعة مجاز لغوي؛ بل نقول إنها حقيقة شرعية، كذلك الفاعل في تعريف النحويين والحال والتمييز، والفصل والوصل عند البلاغيين، والقياس عند الأصوليين، وكذا الغريزة والدافع عند علماء النفس، والمربع والمثلث عند علماء الرياضيات، كل أولئك وغيرها لا نطلق عليها أنها مجاز لغوي بل صارت حقائق خاصة؛ فهي حقائق شرعية عند الشرعيين وحقائق عرفية في مصطلحات العلوم المتعددة.

بقي أمر لا بد أن ننبهك عليه، وقد تأتي له زيادة إيضاح فيما بعد - إن شاء الله تعالى - فتنبه له، لأنني وضعت هذا الكتاب - كما قلت في مقدمته - نتيجة معاناتي طالباً ومدرساً، فقد ظن بعض الناس أن أمر المجاز والحقيقة يرجع إلى كثرة الاستعمال وقلته، فإذا كثر استعمال كلمة في معنى من المعاني في عصر ما، كان هذا الاستعمال حقيقة، وإذا قل هذا الاستعمال في عصر آخر، صار هذا الاستعمال مجازياً، وهذا لم يقله أحد من العلماء، ورحم الله الشيخ عبد القاهر، حيث نبه على أن المجاز أو الكناية لا يزيد القضية من حيث الكم، فقولك: «رأيت أسداً أو بحراً»، ليس معنى هذا أن هذه العبارة تدل على كثرة الشجاعة والوجود أكثر من قولك: «فلان شجاع جواد» إنما تزيد الأسلوب حسناً كما ستعرفه، وأزيدك على ما قاله الشيخ - رحمه الله - أن كثرة الاستعمال وقلته لا تحوّل الحقيقة إلى مجاز، فالصلاة التي كانت تستعمل كثيراً في الدعاء ولكنها الآن قل استعمالها في هذا المعنى، لم تتحول من الحقيقة إلى المجاز، فالصلاة وضعتها اللغة للدعاء، وستبقى كذلك حقيقة لغوية كثر استعمالها

أَمْ قُلُوبُ الْإِنسَانِ أَغْلِيظُ عَلَيْهِمْ أَمْ لَا يُهْمُّهُمْ يُعَلِّمُهُ الْغُيُوبُ. قلة الاستعمال إذن لا تحول استعمال الصلاة في الدعاء إلى مجاز، نبهتك على هذا لأنني عرفت أن بعض المدرسين قد ذكر هذا لطلابه.

رابعاً: أنواع المجاز:

آخر ما نحدثك عنه في هذا التمهيد أنواع المجاز، عرفت أن المجاز الذي حدثناك عنه هو المجاز اللغوي، ذلك لأن الفیصل فيه اللغة، وهناك مجاز آخر لا يرجع في مفهومه إلى اللغة. خذ مثلاً قول الله سبحانه: (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ) [القصص ٤] قف مع قوله سبحانه: (يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ) وتأمل هذه الجملة الكريمة جيداً فإنك تجد أن الكلمات استعملت فيما وضعتها لها اللغة؛ فكلما التذبيح والاستحياء استعملتا استعمالاً حقيقياً، ولكنك إذا أنعمت النظر فإنك تجد أن اسناد التذبيح والاستحياء لفرعون ليس اسناداً حقيقياً، لأن فرعون ليس هو الذي ذبح الأبناء واستحيا النساء، إنما الذين فعلوا ذلك جندُهُ، كل ما في الأمر أنه كان السبب والأمر بذلك العمل.

وكذلك قوله سبحانه: (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صَرْحًا) [غافر ٣٦] إن كلمة البناء هنا مستعملة استعمالاً حقيقياً ولكن هامان ليس هو الذي سيبني الصرح وإنما سيأمر العملة بذلك. وتجد الغيث ينزل من السماء فتقول «سال الوادي» فكلمة السيل هنا مستعملة استعمالاً حقيقياً فيما وضعت له؛ ولكن اسناد السيل إلى الوادي ليس حقيقياً، لأن الماء في الوادي هو الذي يسيل، وتقول: (فاض الكأس) والحقيقة أن الماء هو الذي فاض من الكأس.

هذه الكلمات كلها كما ترى ليس فيها مجاز لغوي، ولكن المجاز جاء في الاسناد، اسناد التذبيح إلى فرعون، والبناء إلى هامان، والسيل إلى الوادي والفيضان إلى الكأس، المجاز هنا إذن ليس لغوياً وإنما هو مجاز في الاسناد ويسمى مجازاً (عقلياً)؛ لأن العقل هو الذي حكم بمثل هذه القضايا وليست اللغة.

المجاز - إذن - نوعان: لغوي، وعقلي؛ فاللغوي ما كان مرجعه إلى اللغة لأن الكلمة استعملت في غير ما وضعت له؛ أي في غير ما وضعت له من حيث اللغة، والمجاز العقلي ويسمى مجازاً (حُكْمِيّاً) ذلك لأن التغيير فيه ليس لغوياً إنما هو اسناد الشيء لغير ما هو له.

بقيت قضية ذات شأن في المجاز اللغوي، ولقد عرفت من قبل أن المجاز لا بد فيه من خمسة أمور: كلمة ومعنيان وعلاقة وقرينة، ونود الآن أن نقف مع العلاقة لنفكر فيها جيداً.

ارجع إلى الأمثلة التي ذكرناها لك هناك، فلقد عرفت هناك أن الصلة بين المعنى الذي وضعت له (الشمس) والمعنى الذي استعملت فيه وهو (الحسنة) هي (الوضاعة)، وأن الصلة بين المعنى الذي وضعت له كلمة (أسد) وبين المعنى الذي استعملت فيه وهو (الرجل) هي (الشجاعة)، وأن الصلة بين المعنى الذي وضعت له كلمة (سحاب) والمعنى الذي استعملت فيه هو (العتاء والخير)، إذا نظرت إلى هذه العلاقات تجد أنها تصلح أن تكون وجه شبه كما مرّ معك في التشبيه، ولهذا سميت هذه العلاقة (المشابهة) فإننا نستطيع أن نشبه الرجل الشجاع بالأسد، والحسنة بالشمس، والجواد بالسحاب، ووجه الشبه: (الشجاعة)، (الوضاعة) و (العتاء).

ولكن هناك مجازاً لغوياً ليست العلاقة فيه من هذا النوع أي لا تصلح أن تكون العلاقة فيه وجه شبه؛ خذ مثلاً قول الله سبحانه: (جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ) [نوح ٧] فإنهم في الحقيقة يجعلون اناملهم في آذانهم، ولكن القرآن اطلق الأصبع وأراد الأنملة، واللغة لم تضع الأصبع للأنملة كلمة الأصبع إذن استعملت في غير ما وضعت له.

وخذ مثلاً قول الله تعالى: (قُرِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا) [المزمل ٢] فإن المقصود بالقيام الصلاة، واللغة لم تضع القيام لتدل على الصلاة فاستعمال القيام في الصلاة استعمال للكلمة في غير ما وضعت له، ولكنك إذا بحثت عن العلاقة بين الأنامل والأصابع، وبين القيام والصلاة، فستجدها بديهة تختلف عما مرت معك من علاقات.

لا يستطيع أحد أن يدعي أن العلاقة بين الأنملة والأصبع المشابهة، ولا بين القيام والصلاة كذلك؛ إنما العلاقة أن إحدى الكلمتين جزء من الأخرى، ففي الآية الأولى الأنامل جزء من الأصبع فقد استعمل الكل وأريد الجزء وفي الآية الثانية: القيام جزء من الصلاة، فلقد استعمل الجزء وأريد الكل، ولذلك سموا هذه العلاقة (غير المشابهة).

نخلص من كل ما تقدم إلى أن المجاز اللغوي إما أن تكون علاقته (المشابهة) أي تصلح أن تكون وجه شبه بين المعنى الأصلي الذي وضعت له الكلمة وبين المعنى الثاني الذي استعملت فيه بحيث يمكن أن يكون تشبيهاً.

وقد تكون العلاقة غير المشابهة فلا يمكننا أن نكون تشبيهاً بين المعنيين، والأول يسمى استعارة، والثاني يسمى مجازاً مرسلأً، فالاستعارة - إذن - مجاز لغوي علاقته المشابهة، والمجاز المرسل مجاز لغوي علاقته غير المشابهة، وهذا ما استقرت عليه كلمة البيانين.

ومما تقدم تدرك أن المجاز ينقسم إلى قسمين:

١- المجاز العقلي.

٢- المجاز اللغوي وينقسم إلى:

أ - مجاز مرسل.

ب - استعارة.

وسنحدثك بعد هذا التمهيد إن شاء الله عن كل قسم على حده.

الفصل الأول

المجاز العقلي

اعتاد كثير من الكاتبين أن يذكروا المجاز العقلي في علم المعاني، كما فعل الشيخ عبد القاهر في (دلائل الإعجاز) وصاحب التلخيص (القزويني)؛ لأنه قسم من الإسناد، والإسناد وما يتصل به من مباحث علم المعاني، وبعض الكاتبين يذكره في علم البيان؛ لأن المجاز من مباحث علم البيان، وهذا ما اخترته لك أيها القارئ الكريم.

عرفت أن المجاز العقلي لا يكون في الكلمة نفسها، فالكلمة لم تخرج فيه عن وضعها اللغوي، إنما يكون في الإسناد فهو (إسناد الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هو له)، ولا بد قبل أن نسترسل معك في الحديث عن المجاز العقلي أن نقف عند العبارة المتقدمة، ووقفنا عندها في موضعين اثنين:

- الموضع الأول: عند قولنا «إسناد الفعل أو ما في معناه» ونقصد بـ(ما في معنى الفعل)؛ اسم الفاعل، اسم المفعول، وما يشبههما، ألا ترى أن هذه تعمل عمل الفعل؟ فترفع الفاعل وتنصب المفعول، فإذا قلت «أضارب زيد عمرواً»، «أحاضر أخوك؟» «أمفهومُ الدرس؟»، «حُبُّ الأعداء خيانة» فإن (ضارب) في المثال الأول رفعت الفاعل ونصبت المفعول، وكذلك (حاضر) في المثال الثاني، أما كلمة (مفهوم) في المثال الثالث، فهي اسم مفعول ورفعت بها كلمة الدرس، لأنها نائب فاعل، وفي المثال الرابع نصبت كلمة (الاعداء) لأنها مفعول به للمصدر (حُب).

- الموضع الثاني: قولنا (لغير ما هو له)، وتوضيحاً لهذه الجملة نقول: إذا قلت: «سال الماء في الوادي»، «فاض الماء من الكأس»، «فاطمة صائمة هذا اليوم»، «محمد قائم ليلته»، «نحني أرضنا بإيماننا وشجاعتنا»، «نبت البقل في فصل الربيع».

قف أمام هذه الجمل واحدة واحدة، تجد أن الإسناد في كل منها إسناد حقيقي؛ فهو إسناد الفعل أو ما يشبهه لما هو له، ألا ترى أن اسناد (سال وفاض) إلى الماء اسناد حقيقي؟ واسناد الصوم والقيام إلى فاطمة ومحمد اسناد حقيقي، واسناد الفعل نحني إلى ضمير المتكلم اسناد حقيقي كذلك؟ واسناد النبت إلى البقل في فصل الربيع كذلك. نستطيع أن نقول إذن إننا في هذه الجمل جميعاً أسندنا الفعل أو ما في معناه إلى ما هو له.

ولكن سعة اللغة وفن التعبير يكسبان الكلام زهواً وبهاءً حيث يمكننا أن نغير العبارات السابقة فنقول: «فاض الكأس»، «سال الوادي»، «نهارها صائم» «ليله قائم»، «يحمي بلادنا وعرضنا ضرب السيوف»، «انبت الربيع البقل»، «أشأبتنا الهموم»، في هذه العبارات جميعاً نجد أننا أسندنا الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هو له، فإن الكأس والوادي لم يسبلا، ولكن

سال الماء الذي فيهما، ومن هنا كان المجاز والعلاقة التي جعلتنا نقدم على مثل هذا هو ما بين الماء وكل من النهر والكأس من صلة وقرب؛ إذ هما مكان هذا الماء، كذلك الجملتان «نهارها صائم»، و«ليله قائم»، الاسناد فيهما مجازي لأن النهار لم يصم، ولأن الليل لم يقم، ومن هنا كان المجاز.

والذي حسن هذا التجوز هو ما بين الصيام والقيام والنهار والليل من صلة، فكل منهما زمان للآخر، الليل زمان القيام والنهار زمان الصوم، كذلك اسناد الحماية للضرب اسناد غير حقيقي لأن الذي يحمي هم أصحاب السيوف أي الناس، والذي سوغ هذا التجوز هو أن هذا الضرب سبب لهذه الحماية.

لعلك الآن ادركت أن المجاز العقلي وإن اختلف عن المجاز اللغوي - لأن ذاك في الكلمة وهذا في الاسناد - إلا أنه يشبهه من حيث حاجته إلى العلاقة والقرينة، فإذا قلت: «سال النهر» فالقرينة هنا معنوية، لأن النهر لا يمكن أن يسيل أما العلاقة فهي المكانية لأن النهر مكان الماء، وكذلك قولك: «فاض الكأس»، أما العلاقة في قولنا: «نهاره صائم»، و«ليله قائم» فهي الزمانية؛ لأن النهار والليل زمان الصيام والقيام، وأما العلاقة في قولنا «أشأبتنا الهموم» فهي السببية؛ لأن الهموم سبب للشيب، وهناك علاقات أخر للمجاز العقلي: وهي المصدرية كقولك: «جدّ الجد»، قال أبو فراس^(١):

سَيَذْكُرُنِي قَوْمِي إِذَا جَدَّ جِدُّهُمْ وَفِي اللَّيْلَةِ الظُّلْمَاءِ يُفْتَقَدُ الْبَدْرُ
ومنه قول أبي سفيان: (لقد أمر أمر ابن أبي كبشة).

ومن علاقاته المفعولية: وذلك حينما نأتي باسم الفاعل ونريد المفعول كقوله سبحانه: (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ، خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ) [الطارق ٥]، أي مدفوق، و«بَيْتُ عَامِرٍ» أي معمور و«سُمُّ نَاقِعٍ» أي منقوع، ومنه قوله سبحانه: (أَوَلَمْ نُمْكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا) [القصص ٥٧] أي مأموناً، ومنه قوله سبحانه: (لَا عَاصِرَ الْيَوْمِ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ) [هود ٤٣] أي معصوم، فأنت ترى هنا أنه قد ذكر اسم الفاعل ولكن المراد إسم المفعول، فالعلاقة المفعولية كما عرفت. ومن هذا قول الحطيئة^(٢):

دَعِ الْكَارِمَ لَا تَرْحَلْ لِبُغْيَتِهَا وَأَقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي

(١) ديوان أبي فراس الحمداني ص ١٢١، قصيدة (أراك عصي الدمع).

(٢) ديوان الحطيئة ص ٢٨٤.

فقد عبر باسم الفاعل هنا ولكنه يريد أنت (المطعموم المكسو) بدليل قوله «دع المكارم لا ترحل لبغيتها»، إذ لا يعقل أن يجرده من المكارم ثم يصفه بأنه يطعم الناس ويكسوهم، والبيت قاله الحطيئة في الزبرقان بن بدر رضي الله عنه فرفع الزبرقان أمر الحطيئة لسيدنا عمر رضي الله عنه فعززه وأدبه، ومنه قولنا «نهاره صائم» و«ليلة قائم» أي مصوم فيه ومقوم فيه، وقد تقدم لك أن علاقة هذا الزمانية، لكن قد تختلف العلاقات باختلاف المعنى كما تختلف الأعراب باختلاف المعاني، وسيأتي لهذا مزيد تفصيل إن شاء الله.

وقد تكون العلاقة الفاعلية وذلك إذا ذكر اسم المفعول وأريد اسم الفاعل، ومنه قوله سبحانه: (إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا) [مريم ٦١] ف (مأتي) اسم مفعول، ولكن المراد اسم الفاعل أي إن وعده أت، قال تعالى: (إِنْ مَا تَوْعَدُونَ لَأْتِ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ) [الأنعام ١٣٤]، ومن هذا قولهم: «سَيْلٌ مُقْعَمٌ» بصيغة اسم المفعول، والمراد اسم الفاعل، وذلك من قولهم: «أَقْعَمَ السَّيْلُ الْوَادِيَّ» إذا ملأه، فالسيل مقعم وليس مقْعَم، ولكي تتضح لك صورة هذا المجاز نذكر لك مزيداً من الأمثلة:

١- قال تعالى: (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ) (غافر ٣٦).

٢- قال تعالى في شأن فرعون: (يَذْبَحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ) [القصص ٤].

واسناد البناء إلى هامان، والتذبيح والاستحياء إلى فرعون، إسناد مجازي علاقته السببية، لأن هامان سبب في البناء وهو المشرف عليه، ولأن فرعون هو السبب في التذبيح والاستحياء، والبابي في الحقيقة العَمَلَةُ والمذْبَحُ والمستحيي هم الجنود.

٣- قال المتنبي يصف ملك الروم بعد أن هزمه سيف الدولة^(١):

وَيَمْشِي بِهِ الْعُكَّازُ فِي الدَّيْرِ تَائِبًا وَمَا كَانَ يَرْضَى مَشْيِي أَشْقَرَ أَجْرَدًا

٤- وقال الفرزدق^(٢):

يَحْمِي إِذَا اخْتَرِطَ السُّيُوفُ نِسَاءَنَا ضَرْبُ تَطِيرُ لَهُ السَّوَاعِدُ أَرْعَلُ

(١) ديوانه ٦/٢، يقول: وصار يمشي في دير الرهبان على العكاز تائباً من الحرب بعد أن كان لا يرضى مشي الخيل السريع - لأن الجواد الأشقر عند العرب أسرع الخيل - بعد أن يش ونال منه الهم، والأجرد: القصير الشعر.

(٢) ديوانه ص ٤٩٠، اخترط السيف: أي استلكت، الأرعل: الذي يقطع اللحم فيدليه، المعنى: يشير إلى منعة قومه وقوتهم من خلال تصوير ضرباتهم العنيفة التي تقطع سواعد المعتدين، مما يعني حصانة نساء قومه المطلقة، فيا ليت لامتنا مثل هذه الحمية.

واسناد المشي إلى العكاز مجاز عقلي علاقته السببية، واسناد الحماية إلى الضرب مجاز عقلي علاقته السببية كذلك.

٥- وهذا مثل قولك: «بنى الإسلام لنا دولة لا تغيبُ عنها الشمس» فإن اسناد البناء للإسلام مجاز عقلي علاقته السببية.

٦- وقال آخر:

إِنَّا لَمِنْ مَعْشَرٍ أَفْنَىٰ أَوَائِلِهِمْ قِيلُ الْكَمَاةِ أَلَا أَيُّنَ الْمُحَامُونَا^(١)
٧- وقال المتنبي^(٢):

وَالهَمْ يُخْتَرِمُ الْجَسِيمَ نَحَافَةً وَيُشَيِّبُ نَاصِيَةَ الصَّبِيِّ وَيَهْرِمُ
واسناد الافناء إلى القول اسناد مجازي علاقته السببية كذلك؛ لأن القول سبب في الافناء. واسناد الاخترام والشيب والاهرام إلى الهم من المجاز العقلي وعلاقته السببية لأن الهم سبب في هذه الأمور.

٨- قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ﴾ [الأنعام ٦] اسناد الجري إلى الأنهار اسناد مجازي، لأن الأنهار لا تجري إنما يجري الماء الذي في الأنهار، اسناد الجري إلى الأنهار - إذن - مجاز عقلي علاقته المكانية.

٩- قال تعالى: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [سبأ ٣٣] اسناد المكر إلى الليل والنهار مجاز عقلي علاقته الزمانية لأنهما زمان المكر.

١٠- قال تعالى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ [الحاقة ٢١]، العيشة لا ترضى - كما تعلم - وإنما يرضاها الناس، فَوَصَّفُ الْعِيشَةِ بِأَنَّهَا رَاضِيَةٌ مجاز عقلي علاقته المفعولية لأنها عيشة مرضية.

١١- تقول: «ذهبنا إلى حديقة غناء وروضة فيحاء» الحقيقة أن الحديقة مكان للصوت الجميل، والرائحة الطيبة فهو مجاز عقلي علاقته المكانية.

(١) الكمأة: جمع كمي: وهو الشجاع المتكفي بسلاحه أي المستور به، أي أنهم ما إن سمعوا صيحة مستغيث حتى يجيبوه وقد فني أجدادهم في هذا الأمر.

(٢) ديوانه ٢٥١/٤، يخترم: يقطع ويستأصل، الجسيم: العظيم الجسم، النحافة: الهزال، الناصية: مقدم الرأس، يقول: إن الحزن إذا استولى على المرء أذهب جسم العظيم الجسد وهزله حتى يأتي عليه الهزال، ويشيب الصبي قبل الأوان حتى يصير كالهرم من الضعف والعجز.

قَدْ عَزَّ عِزُّ الْأُلَى لَا يَبْخُلُونَ عَلَى
أَوْطَانِهِمْ بِالْدَمِّ الْغَالِي إِذَا طُلِبَا

وأنت ترى هنا أنه قد اسند الفعل إلى المصدر، وهذا مجاز عقلي علاقته المصدرية، وإنما كان مجازاً: لأن العِزَّ لا يَعِزُّ وإنما يُعِزُّ به كما تقول: «يخاف الخوف».

١٢- قال تعالى: (وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا) [الإسراء ٤٥]، ومن شأن الحجاب أن يكون ساتراً فهو مجاز عقلي علاقته الفاعلية.

تقول الخنساء في رثاء أخيها صخر^(١):

تَرْتَعُ مَا رَتَعْتَ حَتَّى إِذَا ادَّكَّرْتَ فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارٌ

اسندت (العَجُول) التي في البيت الذي قبل هذا:

فَمَا عَجُولٌ عَلَى بَوِّطْطِيفٍ بِهِ لَهَا حَزِينَانِ إِصْغَارٌ وَإِكْبَارٌ^(٢)

اسندتها إلى المصدر (اقبال وإدبار) وإنما ارادت أنها مقبلة مدبرة فهو مجاز عقلي علاقته الفاعلية.

إن للمجاز العقلي في الكلام لشأناً عظيماً؛ ولذا فأنت تراه مرتكزاً في طبائع الناس يعبرون به وإن لم يعرفوا اسمه، ألا تسمعه يقولون «فلان أصلحه الزواج وغيره المال»، و«أنت نجت أمانتك» و«فلان نفعت تقوى والديه»، و«هذا رفعه العلم»، و«ذاك قتله طمعه»، و«هذه اشقاها جمالها»، و«تلك سما بها خلقها»، و«علمنا الاستعمار دروساً لا ننساها» و«هذا بيت مضيء»، ويقول بعضهم لبعض: «منزلك عامر»، و«سفرة دائمة»، إلى غير ذلك من العبارات الكثيرة وكلها من المجاز العقلي كما ترى.

ولقد أشار الشيخ عبد القاهر - رحمه الله - إلى هذا اللون من المجاز مبيناً ما له من فضيلة في القول، وقد سماه (المجاز الحكمي)، ومن الخير أن ننقل لك شيئاً مما كتبه في كتابه الدلائل لنختم به الحديث، ولا يفوتنا قبل ذلك أن ننبهك على أن المجاز العقلي قد جرت عادة

(١) ديوانها ص ٤٨، تصف الناقة حيث تمثل حزنها على أخيها بحزن هذه الناقة التي فقدت وليدها، فإنما هي إقبال وإدبار: لا تنفك تقبل وتدبر فهما - أي الإقبال والإدبار - سجية لها وديين.

(٢) العَجُول: يفتح العين: الثكلى من النساء والإبل التي فقدت ولدها سميت بذلك لعجلتها في ذهابها وإيابها جزعاً، البَوِّ: أن يُنحر ولد الناقة ويؤخذ جلده فيحشى ويدنى من أمه، وفي الديوان: (فإنما هي اعلان وأسار).

المؤلفين القدامى أن يذكروه في علم المعاني لا في علم البيان، كما يفعل المحدثون اليوم، وذلك عندما يتحدثون عن الاسناد الخبري، وهو الباب الأول من أبواب علم المعاني، يقسمونه إلى اسناد حقيقي، واسناد مجازي، وهو اسناد الفعل أو ما في معناه لغير ما هو له، وهو المجاز العقلي. ثم يقسمونه بعد ذلك إلى أربعة أقسام لأن كل مجاز عقلي - كما رأيت من قبل - لا بد له من طرفين: مسند، ومسند إليه وهذان الطرفان يمكنك أن تجدهما في كل مثال مما سبق كإسناد البناء إلى الإسلام في قولنا «بنى الإسلام لنا دولة»، وإسناد الصوم إلى النهار، فالطرفان إما أن يكونا:

١- حَقِيقَتَيْنِ نحو «أُنبت الربيعُ البقل».

٢- أو مجازيَّين نحو «أحيا الأرضَ شبابُ الزمان».

٣- أو مختلفين نحو «أحيا الأرضَ الربيعُ»، و«أُنبت البقلَ شبابُ الزمان»، ولا نرى في ذلك كثير فائدة في هذا الموضوع.

وحتى لا تتشعب بك السبيل نذكر لك ما وعدناك به من كلام الشيخ - رحمه الله تعالى -. يقول: «اعلم أن طريق المجاز والاتساع في الذي ذكرناه قبل، أنك ذكرت الكلمة وأنت لا تريد معناها ولكن تريد معنى ما هو رِدْفُ له أو شبيهه، فتجوزت بذلك في ذات الكلمة وفي اللفظ نفسه، وإذا قد عرفت ذلك فاعلم أن في الكلام مجازاً على غير هذا السبيل، وهو أن يكون التجوز في حكم يجري على الكلمة فقط وتكون الكلمة متروكة على ظاهرها ويكون معناها مقصوداً في نفسه، ومراداً من غير تورية ولا تعريض. والمثال فيه قولهم: «نهارك صائم»، و«ليلك قائم» و«نام ليلي» و«تجلى همي»: وقوله تعالى: (فَمَا رِبْحَتْ تِجَارَتُهُمْ) [البقرة ١٦] وقول الفرزدق^(١):

سَقَاهَا خُرُوقٌ فِي الْمَسَامِعِ لَمْ تَكُنْ عُلَاطًا وَلَا مَخْبُوطَةً فِي الْمَلَاغِمِ

أنت ترى مجازاً في هذا كله ولكن لا في نوات الكلم وانفس الالفاظ، ولكن في احكام أُجْرِيتَ عليها، افلا ترى أنك لم تتجاوز في قولك: «نهارك صائم»، و«ليلك قائم»، ولكن في أن اجريتهما خبرين على النهار والليل. وكذلك ليس المجاز في الآية لفظية (ربحت) نفسها ولكن في اسنادها إلى التجارة، وهكذا الحكم في قوله: (سقاها خروق): ليس التجوز في نفس (سقاها) ولكن في أن اسندنا إلى الخروق.

(١) دلائل الإعجاز ص ٢٩٧، والبيت ليس في ديوان الفرزدق، خروق في المسامع: أي ثقب في أذان الإبل وهي سمة لها، العلاط: سمة في عنق الإبل، مخبوضة: معلمة وموسومة، الملاغم: الفم والأنف والأشداق، ذكر إبل قوم من السادة ضلت، فعرف الناس من علاطتها أصحابها وعنوا بها. والمعنى: لم تكن هذه سمات إبله بل سماتها خروق في أذناها، ولما رآها الذائنون عن الحوض سقوها لعزة أصحابها فكأنما الخروق هي التي سقتها الماء لأنها دلت عليها فأوردتها الماء، وابتعدت الذائنين عنها.

افلا ترى أنك لا ترى شيئاً منها إلا وقد أريد بها معناه الذي وضع له على وجهه وحقيقته؟ فلم يرد بصائم غير الصوم، ولا بقائم غير القيام ولا بربحت غير الربح، ولا بسقت غير السقي، كما لم يرد بسالت في قوله * وسالت باعناق المطيِّ الاباطح * غير السيل.

واعلم أن الذي ذكرت لك في المجاز هناك من أن من شأنه أن يفخم عليه المعنى، وتحدث فيه النباهة قائم مثله ههنا فليس يشتهبه على عاقل أن ليس حال المعنى وموقعه في قوله * فنام ليلى وتجلي همي * كحاله وموقعه إذا أنت تركت المجاز وقلت: «فَنَمْتُ في ليلى وتجلي همي»، كما لم يكن الحال في قولك: «رَأَيْتُ أَسَدًا» كالحال في: «رَأَيْتُ رَجُلًا كَالْأَسَدِ» ومن الذي يخفى عليه مكان العلو، وموضع المزية، وصورة الفرق بين قوله تعالى: {فَمَا رِيحَتْ تِجَارَتُهُمْ} وبين أن يقال: «فما ربحوا في تجارتهم»، وإن اردت أن تزداد للأمر تبييناً فانظر إلى بيت الفرزدق:

يَحْمِي إِذَا اخْتَرَطَ السُّيُوفُ نِسَاغًا ضَرْبُ تَطِيرُ لَهُ السَّوَاعِدُ أَرْعَلُ

وإلى رونقه ومائه وإلى ما عليه من الطلاوة. ثم ارجع إلى الذي هو الحقيقة وقل، «نحمي إذا اخترط السيوف نساغا بضرب تطير له السواعد ارعل»، ثم اسبر حالك هل ترى مما كنت تراه شيئاً؟ وهذا الضرب من المجاز على حدته كنز من كنوز البلاغة، ومادة الشاعر المفلح والكاظم البليغ في الابداع والإحسان، والاتساع في طرق البيان، وأن يجري بالكلام مطبوعاً مصنوعاً، وأن يضعه بعيد المرام، قريباً من الافهام، ولا يغررك من أمره أنك ترى الرجل يقول: «أتى بي الشوق إلى لقائك»، و«سار بي الحنين إلى رؤيتك»، و«اقدمني بلدك حق لي على انسان»، واشباه ذلك مما تجده لسعته وشهرته يجري مجرى الحقيقة التي لا يشكل امرها، فليس هو كذلك أبداً بل يدق ويلطف حتى يمتنع مثله إلا على الشاعر المفلح، والكاظم البليغ، حتى يأتيك بالبدعة لم تعرفها والنادرة تأنق لها.

ثم ينبه الشيخ إلى قضية دقيقة لا بد أن نشير إليها يقول:

«واعلم أنه ليس بواجب في هذا أن يكون للفعل فاعل في التقدير إذا أنت نقلت الفعل إليه عدت به إلى الحقيقة مثل أنك تقول في «ربحت تجارتهم» ربحوا في تجارتهم وفي «يحمي نساغا ضرب» «نحمي نساغا بضرب»، فإن ذلك لا يتأتى في كل شيء، ألا ترى أنه لا يمكنك أن تثبت للفعل - في قولك - «اقدمني بلدك حق لي على انسان»: فاعلاً سوى الحق؟؟ وكذلك لا تستطيع في قول محمد اليزيدي^(١):

وَصَيَّرَنِي هَوَاكَ وَبِي لِحِينِي يُضْرَبُ الْمَائِلُ

(١) معاهد التنصيص ٨٢/١، المعنى: أي صيرني الله بهواك وحالي هذه - وهي أن يضرب بي المثل - أي أهلكني الله ابتلاءً بسبب هواك.

وقول أبي نواس^(١):

يَزِيدُكَ وَجْهُهُ حُسْنًا إِذَا مَا زِدْتَهُ نَظْرًا

أن تزعم أن لـ(صيرني) فاعلاً قد نُقل عنه الفعل فجعل للهوى كما فعل ذلك في «ربحت تجارتهم»، و«يحمي نساءنا ضرب»، ولا تستطيع كذلك أن تقدر للفعل (يزيد) في قوله «يزيدك وجهه»: فاعلاً غير الوجه، فالاعتبار إذن بأن يكون المعنى الذي يرجع إليه الفعل موجوداً في الكلام على حقيقته.

معنى ذلك أن القدوم في قولك: «أقدمني بلدك حق لي على انسان»، موجود على الحقيقة، وكذلك الصيرورة في قوله: «وصيرني هواك»، والزيادة في قوله: «يزيدك وجهه» موجودتان على الحقيقة، إذا كان معنى اللفظ موجوداً على الحقيقة لم يكن المجاز فيه نفسه، إذ لم يكن المجاز في نفس اللفظ كان لا محالة في الحكم، فاعرف هذه الجملة واحسن ضبطها حتى تكون على بصيرة من الأمر^(٢).

نقلت لك هذا النص من كلام الشيخ لكي تدرك ما اعطيه من دقة فهم، وقوة ادراك ينفذ منها إلى المعاني بصفاء قريحة، ولتدرك موقف الذين كانوا عالمةً عليه من عبارته هذه فلقد كان موقف الناقد المعترض، ولا بد أن نشرح لك كلمة الشيخ أولاً:

يقول: إن المجاز العقلي نوعان، نوعٌ يسهل فيه تقدير الفاعل، وجاء لذلك بمثالين اثنين قوله سبحانه: (أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ) [البقرة ١٦] فاسناد الربح إلى التجارة مجاز عقلي لأن التجارة لا تربح، إنما تكون سبباً في الربح، فالتقدير إذن (ما ربحوا في تجارتهم) فهو مجاز عقلي علاقته السببية. المثال الثاني قول الفرزدق: «يحمي نساءنا ضرب» فإن الضرب سبب في الحماية وقد تقدم لك هذا من قبل.

النوع الثاني من المجاز العقلي: ما لا يسهل فيه تقدير الفاعل، بل يحتاج إلى تأمل وروية وفكر، ومثلٌ لذلك بقوله: «أقدمني بلدك حق لي على انسان»، و«صيرني هواك»، وقوله: «يزيدك وجهه حسناً إذا ما زدته نظراً»، فإن في هذه الأمثلة جميعاً مجازاً عقلياً، ففي المثال الأول: الذي اقدمه البلد حق له على فلان، إذن قدومه للبلد بسبب الحق الذي له، وكذلك صيرني هواك فإن الهوى كان سبباً في تصديره ليضرب به المثل، وكذلك المثال الثالث كان الوجه سبباً في زيادته حسناً.

(١) معاهد التصحيح ٧٨/١.

(٢) دلائل الإعجاز ص ٢٢٧ - ٢٣٠.

يقول الشيخ: إن أي فعل من هذه الأفعال يصعب أن تجد له فاعلاً غير الذي ذكر له، ويخلص الشيخ من هذا إلى أنه لا يشترط في كل فعل في المجاز العقلي أن يكون قد استعمل أولاً للفاعل الحقيقي، وأن يستعمل بعد ذلك للفاعل المجازي - كما رأينا في الآية السابقة - {فما ربحت تجارتهم} وفي بيت الفرزدق: «يحمي إذا اخترط السيوف» البيت، ففاعل (ربح) على الحقيقة التجار، وفاعل (يحمي) على الحقيقة المقاتلون، وهناك نوع آخر من المجاز العقلي يُسند فيه الفعل إلى فاعله المجازي ابتداءً من غير أن يكون له فاعل حقيقي، لكن العقل يدرك بعد تأمل أن هذا الاسناد مجازي، فقله: «يزيدك وجهه حسناً» اسناد الزيادة إلى الوجه مجازاً قطعاً، لأن الوجه لا يزيد في الحقيقة، لكن هذا الفعل (يزيد) ليس له فاعل حقيقي يمكن أن تقدره له كما قدرنا للفعل (ربح) فاعلاً هم (التجار).

فَهْمُ الْعُلَمَاءِ لِكَلَامِ الشَّيْخِ

أرجو أن تكون قد أدركت ما يريده الشيخ. ولكن الذين جاؤوا بعده ردّوا قوله زاعمين أن الشيخ غاب عن فكره الفاعل الحقيقي في الأفعال السابقة (صيرني، اقدمني، يزيدك): وهو الله سبحانه، أي (ا قدمني الله)، و (صيرني الله)، و (يزيدك الله)، وأظنك يزداد عجبك إذا عرفت أن الذين ردوا كلام الشيخ هم الذين اختصروا كتبه، واذهبوا كثيراً من رونقها، وكان أولهم الإمام الرازي - رحمه الله - ومن بعده السكاكي صاحب المفتاح، ثم الخطيب صاحب التلخيص، هؤلاء الاعلام الثلاثة هم الذين ردّوا كلام الشيخ زاعمين أنه لم يدرك الفاعل الحقيقي، ولولا أن العلامة الفاضل السعد - رحمه الله - سعد الدين التفتازاني ويا ليتنا نرزق مثله في فهمه وإدراكه، أقول لولا أنه ردّ كلام أولئك واجاب عن الشيخ بلقي كلام الشيخ غير مقبول عند الكثير من الناس.

قال السعد - رحمه الله - في شرحه المختصر على التلخيص بعد أن ذكر اعتراض الرازي والسكاكي والقرزويني: «وفي ظني أن هذا تكلف، والحق ما ذكره الشيخ»^(١) يعني الشيخ عبد القاهر، وقد علق الدسوقي في حاشيته على كلام السعد بقوله: «قوله: (وفي ظني أن هذا...) أي الذي قاله المصنف (صاحب التلخيص) تبعاً للرازي والسكاكي تكلف، وذلك لأن تقدير الفاعل الموجود وهو الله تعالى في مثل هذه الأفعال السابقة تقدير لما لا يقصد في الاستعمال ولا يتعلق به الغرض في التراكيب؛ وعبارة بعض الشيوخ إنما كان تكلفاً لأن الفاعل مَنْ قام به الفعل، ولا يُقال: إنه تعالى قام به السرور وغيره مما ذكر»^(٢).

إن ما ذهب إليه الشيخ رجع فيه بحسه المرفه إلى آيات من الكتاب الحكيم وإلى كثير من النصوص البليغة، ولا يغيب عن الشيخ أن الله فعّال لما يريد، كل الذي أراد أن يقرره أن اسناد الفعل للفاعل ليس من الضرورة أن يمر بمرحلتين، أن يسند إلى فاعله الحقيقي أولاً، ثم يسند إلى فاعله المجازي بعد ذلك؛ بل قد يسند من أول وهلة إلى الفاعل المجازي، وهذا كلام دقيق كما قلت لك من قبل.

واعلم أن السكاكي صاحب المفتاح قد انكر المجاز العقلي وعدّ ذلك من باب الاستعارة المكنية وهو قول لا يستقيم وبخاصة إذا اردت تطبيقه تطبيقاً عملياً.

(١) شروح التلخيص للسعد التفتازاني وعليه حاشية الدسوقي ٢٦٣/١.

(٢) المرجع السابق.

الفصل الثاني المجاز اللفوي

المبحث الأول: المجاز المرسل

المجاز المرسل مجاز لفظي - كما عرف من قبل - علاقته غير المشابهة، وسمي مرسلًا، لأن الإرسال هو الإطلاق، فهو مطلق في علاقاته، أي ليس له علاقة معينة كما هو الشأن في الاستعارة، فالاستعارة علاقتها المشابهة كما عرفت، وللمجاز المرسل علاقات كثيرة، ولكن بعضها لا يخلو من تكلف وسنذكر لك أكثر هذه العلاقات دوراً في الكلام البليغ.

١- السببية: وذلك إذا كانت الكلمة المذكورة التي استعملت في غير ما وضعت له سبباً في المعنى المراد من القول، خذ مثلاً قولهم: «رعينا الغيث» فإن المراد من هذا القول أنهم رعوا النبات، فكلمة (الغيث) استعملت في غير ما وضعت له، ولكن هذا الغيث سبب في النبات، وهذا ما سوَّغ المجاز في هذه الكلمة.

ومن المجاز المرسل: إطلاق اليد على النعمة لأنها سببها، تقول: «لفلان يد عندي»، ومنه إطلاق اليد على القدرة، ومن المجاز المرسل قولهم لراعي الابل: «إن له عليها لأصبعا»، ذلك لما لحركة الأصبع من حسن التدبير والتسيير، ولعل من المفيد أن ننبهك هنا على أمرٍ قد يلتبس عليك.

عندما حدثناك عن المجاز العقلي ذكرنا أن من علاقاته السببية، وقد تتساءل: ما الفرق بين السببية في المجاز العقلي والسببية في المجاز المرسل؟ والحقيقة أن الفرق بينهما كبير وإن كانت التسمية واحدة، فالسببية في المجاز العقلي لم تخرج بالكلمات عما وضعت له في اللغة، فقلوه سبحانه: (فَمَا رِيَحَتْ تِجَارَتُهُمْ) [البقرة ١٦] استعملت فيه كلتا الكلمتين اعني (الربح) و (التجارة) في المعنى الذي وضعته اللغة لكل منهما، أما في قولنا: «رعينا الغيث» و «حلت يد فلان عندي» فإن كلمتي (الغيث) و (اليد) استعملت كل منهما في غير ما وضعت له، فقد استعمل الغيث في النبات، واليد في النعمة.

٢- المُسَبِّبِيَّةُ بفتح الباء الأولى: وذلك حينما يكون اللفظ المذكور مسبباً عن المعنى المراد، ويكون المعنى المراد سبباً في اللفظ المذكور، استمع إلى قوله تعالى: (وَيَنْزِلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا) [غافر ١٣] وأنت خبير بأن الله يكرم عباده بانزال الماء من السماء، وهذا الماء يكون سبباً في الرزق، فالرزق مُسَبَّبٌ عن الماء.

ومثل هذا قوله سبحانه: (يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَتَرْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَ أَتِكُمْ) [الأعراف ٢٦] فإن اللباس إنما هو من بعض النباتات المسببة عن الماء. وكذلك قوله سبحانه: (وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ) [الزمر ٦] ولعلك تدرك أنه قد يكون في هذا النوع أكثر من سبب واحد وأكثر من وساطة واحدة كما في الآيتين السابقتين^(١).

ومن هذا القبيل قوله سبحانه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ) [المائدة ٦] فإن المعنى: (إذا اردتم القيام إلى الصلاة)، لأنه لا يعقل أن يقوموا إلى الصلاة غير متوضئين، فالغسل مسبب عن الإرادة، وقوله سبحانه: (فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ) [النحل ٩٨] أي: (إذا أردت قراءة القرآن)، لأن الاستعاذة قبل القراءة وليست بعدها فالإرادة سبب والاستعاذة مسبب، وقوله سبحانه: (وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَانِلُونَ) [الأعراف ٤]، فإن مجيء البأس لا يترتب على الإهلاك لأنه هو الإهلاك نفسه، بل يترتب على الإرادة، والمعنى - والله أعلم - (أردنا إهلاكها فجاءها بأسنا) فأرادة الإهلاك سبب، ومجيء البأس مسبب عنهما. ومثل هذا قوله سبحانه: (إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا) [النساء ١٠] فالنار مسببة عما أكلوه ظلماً وعدواناً.

٣- الجزئية: تكون علاقة المجاز المرسل الجزئية إذا كان اللفظ المستعمل جزءاً من المعنى المراد وذلك كقوله سبحانه: (لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ) [التوبة ١٠٨] والحديث عن مسجد الضرار، والمراد من القيام الصلاة، ولما كان القيام جزءاً من الصلاة، حَسُنَ أَنْ يَسْتَعْمَلَ فِيهَا وَيَدُلَّ عَلَيْهَا، ومثله قوله سبحانه: (يَا أَيُّهَا الْمَزْمِلُ قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا) [المزمل ١ - ٢] ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: «من

(١) فاللباس المذكور في الآية الكريمة منسوج من القطن أو الصوف أو الكتان، والصوف أخذ من الماشية أو من بعض الأنعام، والنبات سبب فيه، والماء سبب للنبات، فكلمة اللباس التي امتن الله علينا بإنزالها من السماء مرت في أكثر من مرحلة، وكان لها أكثر من سبب، لأن الله نزل لنا الماء، واللباس مسبب عنه، ولكن بينهما وسائط متعددة، وكذلك تقول في [وانزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج].

قام رمضان ايماناً واحتساباً غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه»^(١).

ومن المجاز المرسل الذي علاقته الجزئية قوله سبحانه: (فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ) [النساء ٩٢] ولا شك أن المقصود تحرير الإنسان المؤمن، والرقبة جزء منه، ومن هذا إطلاق العين على الجاسوس، تقول: «ما اجدر امتنا أن تبث العينون لتتقي مكر عدوها».

وإذا رجعت إلى الأمثلة السابقة تدرك أن العلاقة الجزئية في المجاز لكي تؤدي غرضاً بيانياً لا بد لها من شروط فليس كل جزء يمكن أن يعبر به عن الكل، ألا ترى أن الرقبة التي عبر بها عن الانسان، هي من الأمور التي لا حياة بدونها؟؟ إذ لا يمكن أن نتصور انساناً يعيش وقد انتزعت رقبتة، ثم انظر إلى العين التي استعملت وأريد بها الجاسوس، ألا ترى أنها أكثر الأجزاء وخطرها شأناً لمن أراد مراقبة الأعداء؟؟ ثم انظر إلى القيام الذي استعمل وأريد منه الصلاة، ألا ترى أنه من اشرف أركانها وأعظمها؟؟.

الجزء الذي عبر به عن الكل في المجاز المرسل، لا بد له من أحد هذه الشروط التي ذكرناها لك في الأمثلة السابقة وهي:

- أ- أن يكون انتفاء الجزء يستدعي انتفاء الكل كما في الرقبة.
- ب - أن يكون الجزء هو المَعْوَلُ عليه أكثر من غيره من الأجزاء، كالعين التي أريد بها الجاسوس.
- ج - أن يكون الجزء ذا أهمية كالقيام بالنسبة للصلاة.

فإذا اردت أن تعبر عن فصاحة فلان من الناس تعبيراً مجازياً - تقول: «إنه لساننا الناطق»، لأن اللسان هو السبب المباشر في الكلام، وهكذا لا يجوز أن تعبر باللسان عن الجاسوس، ولا بالعين عن الخطابة، ولا باليد عن التفكير. فاليد في الأصل هي الجارحة، وقد منَّ الله بها على بعض مخلوقاته، فلإنسان يداً وجمعها أيدي، وقد تطلق اليد ويُعبر بها عن القوة أو العطاء أو النعمة، فإن أريد بها هذا المعنى الأخير جمعت على (أيادي) وهذا من دقة العربية وإحكامها ولا عجب، ألم يجعلها الله تعالى قوالب لكلامه سبحانه: (قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عَوَجٍ) [الزمر ٢٨].

وأنبهك هنا على شيء آخر وهو أن العبارة تستعمل فيها الكلمة فتكون من اسلوب المجاز المرسل حيناً والاستعارة حيناً والكناية حيناً آخر، كما أن هذا الاستعمال قد يكون استعمالاً حقيقياً، وإليك البيان:

(١) رواه مسلم، كتاب (صلاة المسافرين وقصرها)، باب (الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح) ١/٢٣٠هـ.

- يقول الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ) [المائدة ٦] وهذا لا شك استعمالٌ حقيقيٌ لليد.

- ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم لأمهات المؤمنين - عليهن رضوان الله -: «أَسْرَعُكُمْ بِي لِحَوْقًا أَطْوَلُكُمْ يَدًا»^(١). فهذا مجازٌ مرسلٌ لأنه عبرَ بطول اليد عن العطاء، وهي سببٌ فيه، فهو مجازٌ مرسلٌ علاقته السببية.

- وقد يكون إطلاق اليد من باب الاستعارة، استمع في ذلك إلى قول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم - ويا ليت المسلمين والعالم يفقهون هذا القول العظيم -: «المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يدٌ على من سواهم»^(٢).

- وقد يكون إطلاق اليد من باب الكناية، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»^(٣) - كما سيمر معك في باب الكناية، فانظر إلى فخامة اللغة ولغة الفخامة واعلم أن هذا مما لا تختص به هذه اللفظة وحدها (اليَد) فهو في اللغة كثير.

٤ - الكَلِيَّة: وذلك حينما نستعمل الكل ونريد الجزء، قال تعالى: (يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي

أَذَانِهِمْ) [البقرة ١٩] وأنت تعلم أن الأصبع لا يمكن أن يُجعل كُلُّه في الأذن، ولكن لما كان الغرض التمثيل لحال المنافقين بحال ذوي الصبِّ الذين تزعجهم أصوات الرعد، فلو استطاعوا أن يجعلوا أصابعهم كلها في أذانهم لفعلوا ذلك، عبرَ بالأصبع وأراد الأنملة، فالعلاقة بين الأصبع، والأنملة، علاقة الجزء بالكل، وهذا ما سوَّغ المجاز وحسنه، ومن هذا القبيل قولك (شربت ماء الفرات). وأنت إنما شربت جزءاً منه.

٥ - اعتبار ما كان: وهو أن يسمى الشيء المستعمل باسم ما كان عليه من قبل، ألا ترى إلى قوله تعالى: (وَأَتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ) [النساء ٢]: حيث سمَّى البالغين الذين أنسنا منهم رشداً (يتامى). وأنت تعلم أن اليتيم لا يجوز أن يعطى مالاً، ولكن الذي سوَّغ المجاز هنا، أنهم كانوا كذلك في الماضي، ومثله قوله سبحانه: (إِنَّهُ مِنْ يَأْتِ رَبِّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ

(١) أخرجه مسلم - كتاب (فضائل الصحابة) باب (١٧) من فضائل زينب أم المؤمنين رضي الله عنها حديث رقم (٢٤٥٢)

(٢) أخرجه الترمذي - كتاب (الجهاد) باب (في السرية تُرد على أهل العسكر) حديث رقم (٢٧٥١).

(٣) رواه البخاري - كتاب (الإيمان) باب (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده) ١٣/١ - ومسلم - كتاب (الإيمان) باب (تفاضل الإسلام وأي أمور أموره أفضل) (٦٥/١).

لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى) [طه ٧٤] وأنت تعلم أنه إنما كان مجرمًا في الدنيا، ومن هذا القبيل قولك: «أكلت قمحاً»، و«شربت بُنًّا» وأنت قد أكلت الخبز، وشربت قهوة البن.

٦- اعتبار ما يكون: وهو أن يُسمَّى الشيء المستعمل باسم ما يؤول إليه في المستقبل قال تعالى: (فَبَشِّرْهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ) [الصافات ١٠١] وفي آية أخرى (بَغْلَامٍ عَلِيمٍ) [الحجر ٥٣]، ولا شك أن العلم، والحلم سيؤول إليهما الأمر في المستقبل، وقال تعالى: (وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا) [نوح ٢٧]، وأنت تعلم أن المولود عند ولادته لا يكون كذلك وإنما يؤول إليهما فيما بعد. وقال تعالى: (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ) [الزمر ٣٠] ومن مات لا يخاطب. وقال تعالى: (إِنِّي أَرَأَيْتُ أَغْصِرُ خُمْرًا) [يوسف ٣٦] والمعصور إنما هو العنب الذي سيؤول إلى الخمر.

٧- الحالية: وهي أن يكون اللفظ المستعمل حالاً في المعنى المراد، فنطلق اسم الحال ونريد المحل، وذلك مثل قوله سبحانه: (وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وَجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) [آل عمران ١٠٧] فالمراد من الآية الكريمة أنهم خالدون في الجنة، ولكن لما كانت الجنة محلاً للرحمة، والرحمة حالة في الجنة، حسن أن يحل أحد المعنيين محل الآخر، أو إحدى الكلمتين محل الأخرى، وكذلك في قوله تعالى: (إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ) [الانفطار ١٣] وأنت تعلم أن الجنة محل للنعيم، وهو حال فيها.

ومنه قوله سبحانه: (يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ) [الأعراف ٣١] والمراد اللباس، ولما كان اللباس محلاً للزينة، والزينة حالة فيه، استعمل أحد المعنيين وأريد الآخر، ومثله قولك: «نَزَلْتُ بِبَنِي فَلَان» وأنت تريد ارضهم ودارهم، ولما كانت الديار محلاً لهم، وهم حالون فيها اطلقنا إحدى الكلمتين على الأخرى.

٨- المحلية: وهو أن يكون اللفظ المستعمل محلاً والمعنى المراد حالاً فيه، قال تعالى: (فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ) [العلق ١٧] والمراد أهل النادي الذي يحلون فيه، وقوله سبحانه: (وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ) [يوسف ٨٢] والمراد أهلها. وتقول «قرر المجلس كذا» والمراد المجتمعون، و«ذهبت الجامعة في رحلة علمية» والمراد من فيها، و«ملأت الكأس من الابريق» وأنت تريد من الماء الذي فيه.

٩ - الآلية: وهو أن تكون الكلمة المستعملة آلة لما هو مراد. قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ﴾ [إبراهيم ٤] والمراد (بلغتهم)، واللسان - كما نعلم - آلة للغة، وقال تعالى: ﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء ٨٤]، وذلك إذا كان معنى الآية (اجعل لي ذكراً حسناً) لأن اللسان آلة له، ويمكن أن يكون سبباً فيه فتكون العلاقة سببية، وقد تفسر الآية تفسيراً آخر: وهو أن يراد بلسان الصدق الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لأن الآية الكريمة وردت على لسان أبينا إبراهيم صلى الله عليه وآله وسلم، ومن دعائه كما جاء في كتاب الله: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ﴾ [البقرة ١٢٩] وعلى هذا التفسير يكون في الآية مجاز مرسل وعلاقته الجزئية لأن اللسان جزء من الإنسان، وصح استعمال الجزء هنا لأن عليه المعول فيما ذكر من أجله وهو تبليغ الدعوة^(١).

١٠ - المجاورة: وهو أن يسمى الشيء المستعمل باسم ما يجاوره كاطلاق اسم الراوية على المَزَادَة، والراوية هي الدابة التي تحمل المَزَادَة، والمَزَادَة: القَرَبُ التي يوضع فيها الماء، فيقولون «خلت الراوية من الماء» ويريدون المَزَادَة.

وقد ذكروا علاقات كثيرة للمجاز المرسل، وأمثلة كثيرة لكل علاقة، يظهر منها التصنع والتكلف^(٢)، ومما سبق تدرك أنك إن أردت أن تعرف علاقة المجاز المرسل فانظر إلى الكلمة المستعملة، فإن كانت سبباً والمعنى المراد مسبباً فالعلاقة سببية، وإن كانت مسبباً والمعنى المراد سبباً فالعلاقة المسببية، وإن كانت كلاً والمعنى المراد جزءاً فالعلاقة كلية، وإن كانت جزءاً والمعنى المراد كلاً فالعلاقة الجزئية، ولنذكر لك الآن بعض الأمثلة على المجاز المرسل من الشعر.

أمثلة على المجاز المرسل من الشعر

(١) قال المتنبي^(٣):

لَهُ أَيَادٍ عَلَيَّ سَابِقَةٌ أَعْدُ مِنْهَا وَلَا أَعْدِدُهَا
فاليد هي التي تمنح النعم فهي سبب فيها، فالعلاقة هنا السببية.

(١) وتدرك من هذه الآية الكريمة أن علاقة المجاز تختلف باختلاف المعنى المراد من الكلام وسيأتي مزيد تفصيل لهذا الكلام إن شاء الله.

(٢) راجع الانتقان للسيوطي رحمه الله، والفوائد المشوقة لابن النقيب الحنفي والذي كان يُنسب لابن القيم.

(٣) ديوانه ٢٨/٤.

(٢) ومنه قول جرير بن عطية^(١):

إِذَا سَقَطَ السَّمَاءُ بِأَرْضٍ قَوْمٍ رَعَيْنَاهُ وَإِنْ كَانُوا غَضَابًا
ومن البدهي أن السماء لا تُرعى، وتلك قرينة المجاز، فالذي يُرعى هو النبات، ولما كانت
السماء سبباً فيه حسنت هذه الكلمة في موضعها.

(٣) وقال عنتره^(٢):

فَشَكَّكْتُ بِالرَّمْحِ الْأَصَمَّ ثِيَابَهُ لَيْسَ الْكَرِيمُ عَلَى الْقَنَا بِمُحَرَّمٍ
أي شككت بالرمح جسمه، وإنما عبر بالثياب لجاورتها للقلب، فالمجاز مرسل علاقته
المجاورة.

(٤) قال ابن الزيات:

أَلَا مَنْ رَأَى الطُّفْلَ الْفَارِقَ أُمَّهُ بُعِيدَ الْكَرَى عَيْنَاهُ تَنْسَكِبَانِ
يريد بالعينين دمعهما، لأن الدمع هو الذي يسيل فالعين محل للدموع، أطلق المحل وأراد
الحال، فالمجاز مرسل علاقته المحلية^(٣).

(٥) وقال الشاعر:

أَلِمَّا عَلَى مَعْنٍ وَقُولًا لِقَبْرِهِ سَقَتَكَ الْغَوَادِي مَرْبَعاً ثُمَّ مَرْبَعاً^(٤)
أي الما على قبر معن، فاطلق الحال في القبر وهو معن وأراد المحل، فالمجاز مرسل
علاقته الحالية.

(٦) وقال معن بن اوس المزني في ابن أخته^(٥):

أَعْلَمُهُ الرَّمَايَةَ كُلَّ يَوْمٍ فَلَمَّا اشْتَدَّ سَاعِدُهُ رَمَانِي
وَكَمْ عَلَّمْتُهُ نَظْمَ الْقَوَافِي فَلَمَّا قَالَ قَافِيَةً هَجَانِي

(١) العمدة ٢/٢٦٦.

(٢) ديوانه ص ٢١٠ والبيت من معلقته.

(٣) ذكر صاحبها البلاغة الواضحة - رحمهما الله - أن هذا مجاز مرسل، والذي يبدو لنا أنه مجاز عقلي، إذ يقال فيه
ما قيل في (سال الوادي) و (فاض الكأس) ص ١٤٣، ولكل وجهه.

(٤) الغوادي: جمع غادية: وهي السحابة تمطر غيرة، المربع: الموضع يقام فيه زمن الربيع.

(٥) ديوانه ص ٧٢.

عبر الشاعر في البيت الثاني عن القصيدة بالقافية، والقافية جزء من القصيدة، فاطلق هنا الجزء وهو القافية وأراد الكل وهو القصيدة، فالمجاز مرسل علاقته الجزئية^(١).
(٧) وقال الشاعر يصف غيثاً:

أَقْبَلَ فِي الْمُسْتَنِّ مِنْ رَبَابِهِ أَسْنَمَةُ الْآبَالِ فِي سَحَابِهِ^(٢)
أسنمة: جمع سنام وهو ما علا من ظهر البعير، وأراد به الشاعر الغيث لأن الأسنمة لا تنزل من السماء إنما هي مسببة عن الغيث فعبر عنه - الغيث - بأسنمة الآبال لأنها مسببة عن النبات وهذا النبات مسبب عن الغيث فالمجاز مرسل علاقته السببية.
(٨) وقال السموأل^(٣):

تَسِيلُ عَلَى حَدِّ الظُّبَاتِ نَفُوسُنَا وَلَيْسَ عَلَى غَيْرِ الظُّبَاتِ تَسِيلُ
يريد بالنفوس الدماء لأنها التي تسيل ووجود النفس في الجسم سبب في وجود الدم فيه فالعلاقة السببية^(٤).

(٩) ويقول المتنبي في ذم كافور^(٥):
إِنِّي نَزَلْتُ بِكَذَابِينَ ضَيْفُهُمْ عَنِ الْقَرَى وَعَنِ التَّرْحَالِ مَحْدُودُ
يريد أنه نزل ببلد كذابين لأن الكذابين لا يُنزل بهم وإنما بمكانهم، فالمجاز مرسل علاقته الحالية.
(١٠) وقال الشاعر:

لَا أَرْكَبُ الْبَحْرَ إِنِّي أَخَافُ مِنْهُ الْمَعَاطِبُ^(٦)
طِينُ أَنَا وَهُوَ مَاءٌ وَالطِّينُ فِي الْمَاءِ ذَائِبُ
يريد بالبحر السفن التي تسير فيه، فاطلق المحل وأراد الحال، فالمجاز مرسل وعلاقته المحلية، وفي البيت الثاني: قوله «طين أنا» فهو مجاز مرسل علاقته اعتباراً ما كان.

(١) وإنما صح استعمال الجزء هنا لأن القافية هي من أخطر أجزاء القصيدة.

(٢) الرباب: السحاب الأبيض، المستن: يقال إستنت العين أي سال دمعها، والمقصود هنا نزول الغيث من السحاب

(٣) ديوانه ص ٥٥، الظبات: جمع ظبة وهي حد السيف.

(٤) وإن أردنا بالنفس الإنسان والدم جزء منه، كان مجازاً مرسلأ علاقته الجزئية.

(٥) ديوان المتنبي ١٤٢/٢، يقول: هم كذابون، فلاهم يقرونه ولا هم يتركونه يرحل عنهم، محدود: ممنوع.

(٦) المعاطب: جمع معطب وهو مكان العطب أي الهلاك.

(١١) وقال ابن المعتز^(١):

قَدْ انْقَضَتْ دَوْلَةُ الصِّيَامِ وَقَدْ بَشَّرَ سُقْمُ الْهَلَالِ بِالْعِيدِ
والسقم إنما يكون للأحياء، والذي أراده الشاعر ضعف الهلال، ولكن لما كان الضعف
غالباً سبباً عن السقم وكان السقم سبباً في الضعف صح هذا المجاز، فهو مجاز مرسل علاقته
السببية^(٢)

(١) ديوانه ٨٧/٣، الصناعتين ١٩٤، ديوان المعاني ٣٢٤/١.

(٢) وقد يكون البيت من باب الاستعارة - كما ستعرفه إن شاء الله - .

المبحث الثاني الاستعارة

الاستعارة في اللغة من العارية، وهي نقل الشيء من شخص إلى شخص، وفيها معنى الرفع والتحويل، يقال: استعار فلان من كنانته سهماً، إذا رفعه وحوله منها إلى يده، وهذا ما يرشد إليه الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث النبوي الشريف: «مثلُ المنافقِ كالشاةِ العائرة بين غنمين»^(١)، بمعنى أنها تنتقل وتتحول لا تستقر على أمر، وهذا المعنى أشارت إليه الآية الكريمة: (مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ) [النساء ١٤٣]، ولقد عرفنا من قبل أن هناك صلة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي، ومن هنا كانت الاستعارة في الاصطلاح ناتجة عن هذا المعنى اللغوي ومنبثقة عنه. ومع كثرة التعريفات التي قيلت في الاستعارة إلا أنها تلتقي جميعاً حول معنى واحد: وهو أن الاستعارة نقل اللفظ من معناه الذي عرف به ووضع له إلى معنى آخر لم يعرف به من قبل.

وإذا كانت الاستعارة بين الناس لا تكون إلا بين فئة يعرف بعضها بعضاً فليس للمستعير أن يستعير إلا ممن يعرفه وله به صلة، وإذا كانت هذه العارية تصبح من اختصاص المستعار له ولكنها لا تخرج عن ملك صاحبها، وإذا كان الشيء المستعار لا بد من أن يكون مناسباً للمستعار له، إذا كان كل ذلك صحيحاً مقبولاً فإننا نجد ذلك كله في الاستعارة الاصطلاحية. إن الذي يستعير ثوباً من غيره، لا بد أن يكون هذا الثوب مناسباً للمستعار له، فإن كان ضيقاً أو متسعاً فالاستعارة لا تفيد ولا تجدي، والاستعارة في الاصطلاح كذلك لا بد فيها من صلة بين المستعار منه والمستعار له، إذ لا يصح أن نستعير لفظاً من معنى لمعنى آخر لا صلة له به.

قيمة الاستعارة:

ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا: إن الاستعارة هي من أدق أساليب البيان تعبيراً، وأرقها تأثيراً، وأجملها تصويراً، وأكملها تأدية للمعنى، ولا غرو فهي منبثقة عن التشبيه الذي حدثناك عنه من قبل، وهل هي في الأصل إلا تشبيه؟! ولكنه تشبيه مضمَر في النفس، ومعنى هذا أننا لم نأت بتشبيه ما لنجعل منه استعارة، ولكننا نضمَر تشبيهاً ما في أنفسنا، ونحذف أحد طرفيه فنَدْعِي أن أحد الطرفين هو عين الآخر، فالاستعارة تشبيهٌ حُذِفَ أحد طرفيه، فبيئة الاستعارة الأولى التي ولدت فيها ومقوماتها الأساسية هي النفس، وهذه قضية لا بد أن تنتبه لها.

(١) رواه مسلم. كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، حديث رقم ١٧.

لا بد لكل استعارة من أن تشتمل على أركان ثلاثة:

(١) المستعار.

(٢) المستعار له.

(٣) المستعار منه.

ونود أن تكون على ذكر مما قررناه لك عند تعريف المجاز وعناصره الخمسة لأن ذلك يعينك على معرفة ما نريده هنا، ولكن كيف نفهم هذه الأركان الثلاثة في الاستعارة، المستعار والمستعار له والمستعار منه، لننعم النظر في الآية الكريمة: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. الر، كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم ١]، في هذه الآية الكريمة استعارات ثلاث، الظلمات، النور، الصراط، ولكل من هذه أركانها الثلاثة، وإليك البيان:

في الاستعارة الأولى؛ المستعار: كلمة (الظلمات)، والمستعار له: (الكفر) ولا بد أن تتساءل هنا: فأين المستعار منه؟ وأذكرك بما قلته لك عند تعريف المجاز، بأنه لا بد فيه من كلمة ومعنيين؛ المعنى الذي وضعت له الكلمة أولاً، والمعنى الذي استعملت فيه ثانياً، والمستعار هنا كلمة (الظلمات)، وهل يستعار الشيء إلا من صاحبه ومالكه؟ إذن لفظة (الظلمات) لا بد أن نستعيرها من معناها الذي وضعت له، فمعنى الظلمة إذن هو المستعار منه.

وقل هذا في الاستعارة الثانية، فالمستعار: (النور)، والمستعار له: (الايمان)، أما المستعار منه فهو المعنى الذي وضعت له كلمة (النور)، أما الاستعارة الثالثة ففي كلمة (صراط) فالمستعار كلمة (الصراط)، والمستعار له (الإسلام)، والمستعار منه المعنى الذي وضعت له العرب لكلمة (الصراط).

وعلى ضوء ما سبق يمكنك أن تستنتج أركان الاستعارة في قولنا: «عجبت من شمس تحمل بيمينها قمراً» و«رأيت أسداً يضيء المصحف قلبه» و«عرفت بحراً يعطي بكتفا يديه»، فالمستعار في هذه الاستعارات الثلاث كلمات: (الشمس)، (الأسد)، (البحر)، أما المستعار له (فالحسنة)، (والرجل الشجاع)، (والجواد)، والمستعار منه هو: المعنى الذي وضعت له العرب لكلمة (الشمس) وهو ذلك الجرم المعروف، والمعنى الذي وضعوه لكلمة (أسد) وهو ذلك السبع المعروف، والمعنى الذي وضعوه لكلمة (بحر) وهي تلك البقعة المائية من الأرض.

ويمكنك بعد هذا أن تدرك هذه القاعدة وهي أن المستعار له دائماً هو المشبه، وأن

المستعار منه هو معنى المشبه به، وأن المستعار - وهو الكلمة - لفظ المشبه به، ويمكنك أن تستنتج قاعدة أخرى وهي أهمية المشبه به في الاستعارة، إذ إنه الأساس لركنين من أركانها المستعار والمستعار منه، أما المشبه فليس إلا ركناً واحداً فقط، وهو المستعار له، وحرص على هذه القاعدة لاحتياجنا لها فيما بعد.

● الاستعارة مجاز لغوي أم عقلي

حدثناك من قبل أن الاستعارة مجاز لغوي، وهذا ما يرتأيه جمهور البيانين، ذلك لأن الاستعارة نُقل فيها المستعار من المعنى اللغوي الذي وضعته اللغة إلى معنى آخر، ويدعي بعضهم أن الاستعارة مجاز عقلي، لأننا حينما أطلقنا كلمة الأسد على الإنسان فإن العقل كان له شأن وتدخل في هذا الإطلاق، ويحتجون لقولهم هذا بأن الاستعارة لو لم تكن مجازاً عقلياً لما كان فيها ما يدعو إلى العجب، ومعنى هذا: لو كانت الاستعارة مجازاً لغوياً لم يكن في ذلك ما يدعو إلى الغرابة لأننا نعرف أننا نقلنا كلمة من معناها اللغوي لمعنى آخر، فحينما نقول: «كَلَّمْتُ شَمْساً»، ونريد حسناء فليس في هذا ما يدعو إلى الغرابة لأننا نعلم أن كلمة (الشمس) استعملت استعمالاً غير حقيقي، وليس في ذلك ما يدعو إلى العجب - كما قلنا من قبل - لكننا وجدناهم يعجبون من مثل هذه الاستعارة، وليس هذا العجب إلا لأنها مجاز عقلي كان للعقل الأثر كل الأثر فيه.

واستمع إلى قول الشاعر:

قَامَتْ تُظَلِّلُنِي مِنَ الشَّمْسِ نَفْسٌ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي
قَامَتْ تُظَلِّلُنِي وَمِنْ عَجَبٍ شَمْسٌ تُظَلِّلُنِي مِنَ الشَّمْسِ

وقول الآخر:

لَا تَعْجَبُوا مِنْ بَلَى غِلَاتِهِ قَدْ زَرَّ أَزْرَارُهُ عَلَى الْقَمَرِ

فالشاعر الأول يعجب من أن شمساً تظله من الشمس، ولو كانت الاستعارة مجازاً لغوياً لعرف أن الذي يظله انسان بهي الطلعة، ولا داعي حين ذلك للعجب لأن من الأمور الطبيعية أن يظلل انسان انساناً آخر من الشمس. أما الشاعر الثاني فإنه يبين لمن يخاطبهم أن لا يعجبوا من بلى غلاته، والغلاة ثوب ضيق يلي جسم الإنسان، يقول: لا تعجبوا من بلى ثوبه فإن هذا الممدوح قد زَرَّ أَزْرَارَهُ عَلَى الْقَمَرِ، ولو كان القمر استعارة لغوية أي انسان بهي الطلعة ما كان ليلى الثوب الذي يلبسه لأول مرة، إنما يلى الكتان - كما يقولون - إذا لامس القمر الحقيقي. أما عند ملامسة جسم الإنسان فلا، وأنت خبير بأن قضية التعجب التي

استدل بها هؤلاء لا يتم لهم بها دليل، ذلك لأن المقصود المبالغة، وتزيين الصورة بما يجلب الانتباه ويثير المشاعر وهذا لا يتنافى مع كون الاستعارة مجازاً لغوياً.

وكلام الشيخ عبد القاهر - رحمه الله - في دلائل الإعجاز يفهم منه هذا الرأي، إلا أنه استقر في كتاب أسرار البلاغة على أنها مجاز لغوي، وهو ما نرجحه ونميل إليه.

قرينة الاستعارة

والاستعارة كأي نوع من أنواع المجاز لا بد لها من قرينة وهذه القرينة قد تكون أمراً لفظياً، وذلك كالقول السابق:

* شمس تظللني من الشمس *

وقد تكون أمراً معنوياً يفهم من السياق، وسيمر بك كثير من الأمثلة لكلا النوعين.

الجامع في الاستعارة

لا ريب أنك تذكر وجه الشبه أحد أركان التشبيه، ولما كان الشأن في الاستعارة تشبيهاً مضمراً في النفس حذف أحد طرفيه كما عرفت، فلا بد أن يكون بينها وبين التشبيه نوع مماثلة، ووجه الشبه في التشبيه هو المعنى الذي ألحق من أجله المشبه بالمشبه به، ولكننا في الاستعارة نسميه إسماءً آخر، نسميه (جامعاً) وهو ما أطلقنا عليه اسم (علاقة) حينما تحدثنا عن المجاز وأقسامه:

بعد هذا تتبين أن الاستعارة لا بد فيها من الأمور التالية.

(١) المستعار والمستعار له والمستعار منه وهذه أركان الاستعارة.

(٢) القرينة: لفظية كانت أم معنوية ملفوظاً بها أم مدركة من السياق.

(٣) الجامع: وهو الجهة التي يشترك فيها المستعار منه والمستعار له.

أقسام الاستعارة

وإذا كنا قد قسمنا التشبيه من قبل باعتبارات مختلفة فإن للاستعارة تقسيمات كذلك باعتبارات متعددة، وسنحاول إن شاء الله أن نلم لك بأخطرها شائناً، وأكثرها فائدة.

فمن حيث الطرفان تنقسم الاستعارة أقساماً متعددة:

(أ) لأن الطرفين إما أن يكونا حسيين، أو عقليين، أو أحدهما حسياً والآخر عقلياً، وتبعاً لذلك قد يكون الجامع حسياً أو عقلياً كذلك.

(ب) ومن حيث لفظهما قد يكونان: مشتقين، أو غير مشتقين.

(ج) ومن حيث ذكرهما وعدمه فقد يذكر المستعار تارة، وقد يذكر المستعار له تارة أخرى.

(د) وقد يكونان مفردين، أو مركبين.

(هـ) وقد يمكن اجتماعهما في شيء واحد أو لا يجتمعان.

(و) وقد يذكر معهما ما يلائم المستعار له، أو المستعار منه، أو لا يذكر ما يلائم هذا ولا ذاك.

ومن حيث الجامع قد يكون الجامع أمراً قريباً مبتدلاً وقد يكون أمراً خاصاً يحتاج ادراكه إلى تأمل. تلك هي حيثيات التقسيم وإليك بيانها شرحاً وتفصيلاً.

التقسيم الأول للاستعارة

تنقسم الاستعارة باعتبار الطرفين من حيث ادراكهما بالحس أو بالعقل إلى الأقسام الآتية:

أولاً: استعارة محسوس لمحسوس: إذا كان طرفاها محسوسين والجامع قد يكون حسياً أو عقلياً.

ثانياً: استعارة معقول لمعقول: إذا كان الطرفان عقليين ولا يكون الجامع إلا عقلياً.

ثالثاً: استعارة محسوس لمعقول: وهذا إذا كان المستعار حسياً والمستعار له عقلياً.

رابعاً: استعارة معقول لمحسوس: وذلك إذا كان المستعار عقلياً والمستعار له حسياً. وإليك بيان ذلك:

أولاً: استعارة المحسوس للمحسوس، ونمثل لها:

(١) بقوله سبحانه: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ [الكهف ٩٩] فالمستعار الموج،

والمستعار له اضطراب يأجوج ومأجوج، وهما حسيان لأن كلا من موج الماء واضطراب

القوم يدرك بالحس والجامع بينهما وهو الحركة أمر حسي كذلك.

(٢) ومنه قوله سبحانه: (وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا) [مريم ٤] فالمستعار الاشتعال، والمستعار منه النار، والمستعار له انتشار الشيب في الرأس، وكل من المستعار له والمستعار منه أمر محسوس والجامع كذلك وهو الظهور.

(٣) قوله سبحانه: (وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ) [التكوير ١٨] فالمستعار التنفس، والمستعار له الاشراق، وكلاهما محسوس، وكذلك الجامع.

(٤) ومن استعارة المحسوس للمحسوس قوله سبحانه: (وَأَيُّ لَهْرٍ اللَّيْلُ نَسَلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ) [يس ٣٧]، فالمستعار السلخ، وهو كشط الجلد، والمستعار له هو ذهاب النهار عن الليل بدليل قوله (فَإِذَا هُمْ مَظْلَمُونَ)، والجامع عقلي لأنه تَرْتَبُ شَيْءٌ عَلَى شَيْءٍ.

(٥) ومنه قوله سبحانه: (وَفِي عَارٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ) [الذاريات ٤١] فالمستعار العقم: وهو صفة المرأة التي لا تلد، والمستعار منه المرأة، والمستعار له الريح التي ليس فيها غيث، والجامع عقلي وهو عدم النفع.

(٦) ومن هذا قوله سبحانه: (فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ) [الأنبياء ١٥]، فالمستعار قوله حصيداً، والمستعار منه الزرع لأنه هو الذي يحصد، والمستعار له المعذبون وكلها أمور محسوسة، والجامع: (الهلاك) وهو أمر عقلي.

(٧) ومن استعارة المحسوس للمحسوس قول مرارة بن منقذ^(١):

تَهْلِكُ الْمِدْرَاءُ فِي أَفْنَانِهِ فَإِذَا مَا أُرْسِلَتْهُ يَنْعَفِرُ
والمدراة هو المشط. والمستعار الأفنان، وهي الأغصان - كما تعلم -، والمستعار له الشعر، وهما أمران محسوسان، وكذلك الجامع: وهو الطول والنعومة.

(٨) ومنه قول المسيب بن علس^(٢):

وَإِنَّهُمْ قَدْ دُعُوا دَعْوَةً سَيَتَّبِعُهَا ذَنْبُ أَهْلَابٍ
والذنب الأهلبي: كثير الشعر، وقد استعير للجيش الجرار وكلاهما محسوس.

(١) الفضليات ص ٩٠ قصيدة رقم ١٦.

(٢) الصناعتين ص ٢١٨.

(٩) ومنه قول بشاقة بن عمرو^(١):

وَمِنْ نَسِجِ دَاوُودَ مَوْضُونَةٌ تَرَى لِلْقَوَاضِي فِيهَا صَافِيلاً
حيث استعار نسج الخيوط لسرد الدروع وكلاهما محسوس.

(١٠) ومن استعارة المحسوس للمحسوس قول المتنبي^(٢):

فِي الْخَدِّ أَنْ عَزَمَ الْخَلِيطُ رَحِيلاً مَطَرُ تَزِيدُ بِهِ الْخُدُودُ مُحُولاً
فالمستعار المطر، والمستعار له الدمع وكلاهما محسوس.

(١١) ومن استعارة المحسوس للمحسوس قول الحجاج: «وإن أمير المؤمنين نشر كنانته وعجم عياداتها فوجدني أصلبها عوداً فرماكم بي»، فالمستعار السهام، والمستعار له الرجال، وكلاهما محسوس.

(١٢) ومن استعارة المحسوس للمحسوس: قول مسكين الدارمي^(٣):

لِحَافِي لِحَافِ الضَّيْفِ وَالْبَيْتُ بَيْتُهُ وَلَمْ يُلْهِنِي عَنْهُ غَزَالُ مَقْنَعُ
أُحَدِّثُهُ إِنَّ الْحَدِيثَ مِنَ الْقِرَى وَتَعْلَمُ نَفْسِي أَنَّهُ سَوْفَ يَهْجَعُ
فالمستعار الغزال، والمستعار له المرأة الجميلة، وكلاهما محسوس، وأمثلة هذا النوع كثيرة. ونرجوا أن يكون فيما ذكرناه غنيّة لك.

ثانياً: استعارة المعقول للمعقول:

ونمثل لها بقوله سبحانه: (وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ) [الأعراف ١٥٤]،
فالمستعار السكوت، والمستعار له الزوال والذهاب، وكلاهما معقول لا يدرك بالحس. ومنه قوله
سبحانه: (قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا) [يس ٥٢]، فالمستعار الرقاد، والمستعار له الموت،

(١) الفضليات ص ٥٩، قصيدة رقم ١٠، نسج داوود: يريد الدروع، موضونة: أي نسجت حلقتي حلقتي (مضاعفة)، القواضب: السيوف القاطعة، الصليل: الصوت على الشيء اليابس.

(٢) ديوانه ج ٣، ص ٣٤٩ / أَنْ عَزَمَ: أي لأجل أن عزم والخليط الذي يخاطك ويعاشرك والمراد به الحبيب والخليط أيضاً القوم الذين أمرهم واحد، ومحول الخد: شحوبها وتقدر لحمها وذهاب نضرتها، والمطر من شأنه أن تذهب به البلاد ويخضر العشب.

(٣) ديوانه ص ٥١.

وكل من الرقاد و الموت لا يدرك بالحس. وفي الآية وجه آخر نحدثك عنه فيما بعد إن شاء الله، ومنه قوله سبحانه في وصف جهنم: (تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ) [الملك ٨]، فالمستعار الغيظ، والمستعار له حالة النار، في انتقامها من العصاة وكلاهما أمر معقول، ومنه قوله تعالى: (أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهَدَى) [البقرة ١٦]، فالمستعار الاشتراء والمستعار له الاستبدال وكلاهما معقول. ومنه قول عمرو بن كلثوم^(١):

أَلَا أَبْلِغِ النُّعْمَانَ عَنِّي رِسَالَةً فَمَجْدُكَ حَوْلِيَّ وَلَوْ مُكَ قَارِحُ
يريد أن يقول: إن مجده حادث وإن لؤمه قديم، أي أن مجده عارض ولكنه أصيل في اللؤم، والحوالي ما مر عليه حول، فالمستعار الحول، والمستعار له حدوث المجد وكلاهما معقول ومنه قول الخنساء^(٢):

وَقَدْ جَعَلَتْ فِي نَفْسِهَا أَنْ تَخَافَهُ وَلَيْسَ لَهَا مِنْهُ سَلَامٌ وَلَا حَرْبُ
فالسلم والحرب مستعاران لحالتي الصفاء والغضب وكلاهما من الأمور المعقولة.

ثالثاً: استعارة المحسوس للمعقول:

وأما استعارة المحسوس للمعقول، فمثل قوله سبحانه: (أَمْرٌ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمِرُ الْبَاسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَزَلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ) [البقرة ٢١٤]، فالمستعار (الزلزلة)، وهي أمر محسوس، والمستعار له (الضيق والحرَج) الذي يلقاه الأنبياء والمؤمنون وهو أمر معقول ومنه قوله سبحانه: (ضَرَبْتُ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةَ أَيْنَمَا يَفْعُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ) [آل عمران ١١٢]، فإن المستعار وهو (الحبل) محسوس، والمستعار له وهو (المعونة) معقول، والآية الكريمة نزلت في اليهود، وهي تصوير دقيق لواقعهم مع المسلمين هذه الأيام، فاليهود ضربت عليهم الذلة دائماً؛ أي أحاطت بهم، وهذا واقعهم على مدى التاريخ كله، ولكنهم

(١) البديع / ابن المعتز ص ٣١، الصناعتين ط الأولى ص ٢١٩ حولي: ما أتى عليه حول، والقارح من الإبل: ما أتى عليه خمس سنين أي أن لؤمه قديم ومتأصل.

(٢) ديوان الخنساء ط بيروت ١٩٦٣ ص ٩.

قد يجدون متنفساً لهم بحبلٍ من الله وحبلٍ من الناس، ونلاحظ هنا أنه قدم حبل الله على حبل الناس - وهناك ملحوظة أخرى وهي أن العطف كان بالواو، أي حبل من الله (و) حبل من الناس، ولم يكن (أو) فلم يقل «أو حبل من الناس» - وقد يتساءل القراء: قد يجد اليهود الحبل من الناس كما هو شأنهم مع أمريكا وغيرها، فكيف يجدون حبل الله؟! والجواب كما يظهر لي - والله أعلم - أن حبل الله لا يكون لهم من أجلهم؛ ولكن إنما يكون تأديباً للمسلمين، فما دام المسلمون غير ملتزمين بشرع الله فإن الله يعاقبهم بمد الحبل لليهود، وحينما يرجع المسلمون إلى تحكيم شرع الله ويتحقق قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون، حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم، يا عبد الله، هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله، إلا الغرقد، فإنه من شجر اليهود»^(١)، فهناك يفقد اليهود حبل الله ويفقدهم حبل الله يفقدون حبل الناس كذلك، ويتحقق قول الله تعالى: (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْفِيَاةِ مِنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) [الأعراف ١٦٧].

ومنه قوله سبحانه: (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكُنُوتَهُ قَبِيلُوتاً وَرَأَى ظُهُورَهُمْ) [آل عمران ١٨٧]، فالنبذ وهو طرح الشيء أمر محسوس، وهو المستعار، والمستعار له: الترك والإعراض وهو شيء معقول. ومنه قوله سبحانه: (وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ) [الأنعام ٦٨]، فإن الخوض: وهو الحركة في الماء أمر محسوس - وهو المستعار - والمستعار له وهو الهُزءُ بالآيات أمر معقول، ومنه قوله سبحانه: (وَتَبِعُونَهَا عِوَجاً) [الأعراف ٨٦]، والعوج: وهو في الأمور المادية أمر محسوس - وهو المستعار -، والمستعار له وهو الانحراف عن الحق والتبديل والتغيير أمر معقول، ومنه قوله سبحانه: (أَمَّنْ أَسَّسَ بَنِيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٍ أَمَّنْ أَسَّسَ بَنِيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَأَنهَارُ بِهِ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ) [التوبة ١٠٩]، فالمستعار البنيان وهو أمر محسوس، والمستعار له الاعتقاد وهو أمر معقول، ومنه قوله سبحانه: (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ) [الحجر ٩٤] فالصدع وهو شق

(١) أخرجه مسلم - كتاب الفتن وأشرط الساعة - باب (لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاد).

الأشياء الصلبة أمر محسوس وهو المستعار، والمستعار له: التبليغ وهو شيء معقول.

ومنه قوله سبحانه: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء ١٨]؛ فالقذف وهو: الإلقاء بشدة، والدمغ وأصله: كسر الدماغ أمران محسوسان، وكل منهما مستعار، والمستعار له علو الحق، وذهاب الباطل وهما معقولان. ومنه قوله سبحانه: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. الرِّكَابُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [إبراهيم ١]، فالظلمات والنور كلاهما مستعار وهما محسوسان، والمستعار له الإيمان والكفر معقولان. كذلك قوله سبحانه: ﴿إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة ٦]، فالصراط مستعار وهو محسوس لأنه الطريق، والمستعار له الإسلام وهو معقول، وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ...﴾ [طه ١٣١]، فالمستعار وهو مد العين محسوس، والمستعار له وهو الانشغال في الدنيا والرغبة فيها معقول. وكذلك قوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ تَرَأَتْهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهيمُونَ﴾ [الشعراء ٢٢٥]، فالمستعار وهو الوادي محسوس، والمستعار له وهي المعاني التي يسلكها الشاعر والأغراض التي يعالجها الشعراء عادة أمر معقول.

ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: «الإيمان بضغ وسئون شعبة»^(١) فالمستعار وهو الشعبة محسوس، والمستعار له خصال الإيمان وهي معقولة، كذلك قوله صلى الله عليه وسلم: «بُني الإسلام على خمس»^(٢) فالمستعار البيت ذو الدعائم وهو محسوس، والمستعار له أركان الإسلام وهو أمر معقول. وهذا غيض من فيض، وأظنك تتساءل عن سبب كثرة هذا النوع؟ وإذا رجعت إلى ما قررناه لك من قبل حينما حدثناك عن التشبيه ومقدمات الاستعارة تدرك السر لكثرة هذا النوع من الاستعارة.

فقد عرفت عند الحديث عن التشبيه أنه يكثر فيه تشبيه المعقول بالمحسوس لأن المحسوس أقرب للنفس وأسبق للحس، وقد عرفت حينما حدثناك عن الاستعارة، أن المستعار

(١) رواه البخاري كتاب الإيمان، باب (أمر الإيمان) ٢١/١، رواه مسلم كتاب الإيمان باب (بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها وفضيلة الحياء، وكونه من الإيمان) ٦٣/١.

(٢) رواه البخاري كتاب (الإيمان)، باب (الإيمان وقول النبي صلى الله عليه وسلم: بني الإسلام على خمس) ١٢/١، رواه مسلم كتاب (الإيمان) باب (بيان أركان الإسلام ودعائمه العظام) ٤٥/١.

له هو المشبه دائماً، وهذا ما تجده هنا في هذا النوع. أعني استعارة المحسوس للمعقول، فالمستعار - كما رأيت - محسوس، والمستعار له معقول، وقد عرفت أن المستعار له هو المشبه، والمستعار هو المشبه به، ففي قوله تعالى: (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) [إبراهيم ١] الذي مر من قبل رأيت أن كلاً من الظلمات والنور مستعار والكفر والإيمان مستعار له. ولو أردنا أن ننشئ تشبيهاً لشبهنا الكفر بالظلمات، والإيمان بالنور، وهو تشبيه معقول بمحسوس - كما ترى - .

وهو في الشعر كثير - كذلك - ومنه بيت الحماسة^(١):

قَوْمٌ إِذَا الشَّرُّ أَبْدَى نَاجِذِيهِ لَهُمْ طَارُوا إِلَيْهِ زُرَافَاتٍ وَوُحْدَانًا
فالمستعار السبع ذو المخالب وهو محسوس، والمستعار له العدوان وهو معقول. ومنه قول الآخر:

صَرَمَتْ حِبَالَكَ بَعْدَ وَصْلِكَ زَيْتَبُ وَالْدُّهْرُ فِيهِ تَصَرُّمٌ وَتَقْلُبُ
فالمستعار الحبل وهو محسوس، والمستعار له العهد وهو معقول، ومنه قول عمرو ابن كلثوم^(٢):

وَقَدْ هَرَّتْ كِلَابُ الْجِنِّ مِنَّا وَشَذَّبْنَا قَتَادَةَ مَنْ يَلِينَا
والقتادة شجر القتاد، والتشذيب قطع أغصانها وشوكها، فالمستعار القتادة وهي شجرة محسوسة، والمستعار له القوة والشوكة أي اضعفنا قوة وشوكة من يقرب منا وينازعنا. ومنه قول الخنساء ترثي أخاها صخرًا^(٣):

فَقَدْ خَلَّى أَبُو أَوْقَى خِلَالاً عَلَيَّ فَكُلُّهَا دَخَلَتْ شِعَابِي
فالمستعار هو شعاب الشجرة وهي محسوسة، والمستعار له جوانب النفس وهي معقولة.

رابعاً: استعارة معقول لمحسوس:

وهو لا شك أقل من سابقة لأن تشبيه المحسوس بالمعقول لا يكون إلا نادراً، وذلك إذا

(١) ديوان الحماسة ١/ ٢٣٠.

(٢) المعلقات ص ١٢٣. هَرَّتْ: كرهت، كائه يقول: رهبتنا كلابُ الجن لما نفعل بالإنس، وفي رواية: (كلاب الحي) أي شعراء.

(٣) المفضليات، قصيدة ١٥٣ ص ٤٨.

كان المعقول من الظهور بحيث نجعله أصلاً نشبه به المحسوس، ومثاله من كتاب الله تعالى: (إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَا كُرمِ الْجَارِيَةِ) [الحاقة ١١]، فالطغيان أمر معقول لأنه صفة للإنسان يعني تكبره وخروجه عن حد الاعتدال، وهو المستعار، والمستعار له ارتفاع الماء وعلوه وهو محسوس^(١) ومنه قوله سبحانه: (وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ) [الحاقة ٦]، فالعتو مستعار، وهو أمر معقول، والمستعار له شدة الريح، وهو أمر محسوس، وكذلك قوله سبحانه: (حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا) [محمد ٤]، فالمستعار الأوزار وهو معقول والمستعار له آلات الحرب وهي محسوسة وكذلك قول ميمون بن قيس:

وَأَعْدَدْتُ لِلْحَرْبِ أَوْزَارَهَا رِمَاحاً طِوَالاً وَخَيْلاً ذُكُوراً

التقسيم الثاني للاستعارة

تنقسم الاستعارة من حيث الطرفين - كذلك - إلى عنادية ووفاقية، ذلك لأن الطرفين أعني المستعار والمستعار له إن أمكن التقاؤهما فالاستعارة وفاقية، خذ مثلاً قول الله سبحانه (أَوَمِنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ) [الأنعام ١٢٢]، والمقصود أومن كان كافراً ضالاً فهديناه، المستعار الإحياء والمستعار له الهداية والإيمان، ترى أيمكن أن تجتمع الحياة مع الإيمان أم لا؟ أليس من الممكن أن يجتمع هذان الوصفان في شخص واحد؟. إن ذلك مما لا ينكره أحد، إذن هذه الاستعارة وفاقية.

وخذ مثلاً قوله سبحانه: (اشْتَرَوْا الضَّلَالَةَ بِالْهَدَى) [البقرة ١٦]، وقد عرفت أن المستعار الإشتراء والمستعار له الاستبدال، ألا يمكن أن يجتمع المستعار والمستعار له معاً؟ بلى، إن ذلك ممكن، فقد يكون الشخص مشترياً ومستبدلاً.

أما الاستعارة العنادية فهي التي لا يمكن أن يجتمع فيها طرفاها معاً، ونمثل له بقوله سبحانه في الآية السابقة: (أَوَمِنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ) [الأنعام ١٢٢]، وقد عرفت أن في قوله أحييناه استعارة وفاقية، بقيت في الآية استعارة أخرى لم نتحدث عنها، وهي في قوله تعالى: {مَيْتًا} وهو مستعار والمستعار له (الضلال) والموت والضلال لا يجتمعان لأن الضلالة وصفٌ للشخص في حال حياته أما إذا وصفناه بالضلال بعد موته فهو مجاز مرسل علاقته اعتبار ما كان.

(١) سيأتي لهذا مزيد تفصيل عند حديثنا عن الاستعارة في القرآن إن شاء الله.

ومن الاستعارة العنادية حديثك عن الشيء بضد ما تذكر، أي أن تذكر شيئاً ولكنك تريد ضده، وهذا قد يكون على سبيل التَّمْلُح أي التَّفَكُّه والتَّنَدُّر، كأن تقول: «رأيت شمساً» وتريد زنجية سوداء، و«رأيت حاتماً» وتريد بخيلاً، و«رأيت أسداً» وتريد جبناً، وقد يكون على سبيل التهكم كما في قوله سبحانه: (فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) [لقمان ٧]، وأنت تعلم أن البشارة إنما تكون في الخير، وكقوله سبحانه: (ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ) [الدخان ٤٩]، والمراد ما هو ضد هذين الوصفين، وما ذكره سبحانه عن قوم شعيب وقولهم له: (إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَكِيمُ الرَّشِيدُ) [هود ٨٧]، وقوله سبحانه: (قُلْ بِنَسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيْمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) [البقرة ٩٣]، فقوله تعالى: (إِيْمَانُكُمْ) تهكم بهم وقد كثرت هذه الاستعارة في الشعر العربي. يقول الدكتور أحمد الصاوي:

«وفي اطار التهكم ذهب الشعراء الجاهليون كل مذهب في تصوير ما نزل بساحة الأعداء من قتل صاروا بعده جزراً للضباع والسباع وجوارح الطير، وما ألقى في قلوبهم من رعب ففروا هاربين، ولكي يصور الشعراء الجاهليون ما كان قومهم يفعلونه بأعدائهم وهم يُصَلُّونهم نيران هذه الحروب الحامية الضارية راحوا يستعيرون الكأس في شماتة وتهكم لما يلقاه عدوهم من قتل وإيلام يذيقونه أياها مرة في أكثر الأحيان، ومشفوعة بما يخصصها بلون من ألوان النكال كأن تكون كالنار أو مملوءةً بالسم الناقع أو مكروهة الجرجات.

وهم وإن لم يذكروا الكأس مستعارةً يذكرون التصبيح أي تشبيهه غارة الصباح بِخَمْرَةِ الصباح على سبيل الاستعارة التصريحية الساخرة، وإذا تركوا هذا أو ذاك فكثيراً ما شبهوا العدو المغير بالضيف وعبروا عن التنكيل به بالقري تهكماً، وفي بعض الأحيان يقرنون بين الصورتين، صورة التصبيح والقري في أبيات متعاقبة.

هذا ولم يقتصر أمر التهكم على هذه الصورة بعينها، وإنما تراهم يستخدمون بجانب ذلك استعارة التشذيب والمعانقة تهكماً بعدوهم في أوقات الالتحام به في ساحات المعارك، وجدير بالذكر أن هذه الصور التهكمية جميعها وردت في شعر الحرب، وكأن هذا النوع من الشعر أمدٌ ميداناً، وأحسن جرياناً لهذا النوع من الصور لدقة المناسبة، وضرورة الفخر، ثم إنني رأيت مجال التهكم يكاد يكون منحصراً في هذه الصورة التي ذكرت»^(١).

«... يستعير عمرو بن كلثوم القري في أبيات يفخر بها على بكر فيقول متهكماً^(٢):

(١) فن الاستعارة ص ٩٠.

(٢) شرح المعلقات للزيزني ص ١٢٤ - ١٢٥، والمرداة: الصخرة التي تُكسَرُ بها الصخور.

نَزَلْتُمْ مَنَزِلَ الْأَضْيَافِ مِنَّا فَأَعَجَلْنَا الْقِرَى أَنْ تَشْتِمُونَا
قَرَيْنَاكُمْ فَعَجَلْنَا قِرَاكُمْ فُبَيَّلَ الصُّبْحُ مِرْدَاةً طَحُونَا

فقد جعل تعرضهم لمعاداتهم أو لعداوتهم مثلما يتعرض الضيف للقرى، فيجعل تقثيلهم بمثابة التعجيل بتقديم القرى للضيف كراهة شتمهم إن تأخر القرى عنهم. ويقول المعقر البارقي حليف بني عامر في يوم (شعب جيلة) لعامر وعبس على ذبيان وتميم^(١):

وَقَدْ رَحَقْتُ نُدَانُ تَبْغَى لِئَارِهَا وَجَاشَتْ تَمِيمٌ كَالْفُحُولِ تُخَاطِرُ
فَبَاتُوا لَنَا ضَيْفًا وَبَيْنَا بِنِعْمَةٍ لَنَا مُسْمِعَاتُ بِالْدُفُوفِ وَزَامِرُ
فَلَمْ نُقْرِهِمْ شَيْئًا وَلَكِنْ قَرَاهُمْ صَبُوحُ لَدَيْنَا مَطْلَعُ الشَّمْسِ حَازِرُ
وَصَبَحَهُمْ عِنْدَ الشُّرُوقِ كَتَائِبُ كَأَرْكَانِ سَلْمَى سَيَرُهَا مُتَوَاتِرُ

والاستعارة التهكمية في الأبيات غاية في الطرافة والجمال، ذلك لأن الشاعر جمع بين الضيافة والصُّبُوح فقد بات العدو في ضيافة القوم من بني عامر وعبس وكان لا بد من تقديم القرى له، وما كافي قراه عند مطلع الشمس سوى صبوح كتائب الحرب والفتك، التي ذاقوا منها الوبال والتنكيل، في الوقت الذي فيه بنو عامر ينعمون بسماع الغناء، ويطربون لضرب الدفوف، وهذه الصورة تنضم إلى الصورة الاستعارية لتبلغ بالمعنى أقصى حد من التهكم والسخرية الصادرة في الأساس عن انفعال قوي عميق^(٢).

(١) العقد الفريد ١٤٤/٥، الصبوح: ما يشرب في الصباح، حازر: الحامض من اللبن أو النبيذ، أركان سلمى: أقدامها.

(٢) فن الاستعارة ص ٦٣ - ٦٤

الاستعارة التصريحية والمكنية

١- الاستعارة التصريحية:

عرفت من قبل أن الاستعارة تشبيه حذف أحد طرفيه، وقد عرفت أن طرفي التشبيه هما المشبه والمشبه به، فالطرف المحذوف إذن تارة يكون المشبه وتارة يكون المشبه به. خذ مثلاً قوله سبحانه: ﴿إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة ٦] والصراط هو الطريق - كما عرفت من قبل - فقد شبه الدين بالصراط بجامع التوصيل إلى الهدف في كل منهما، وحذف المشبه وهو الإسلام وأبقى المشبه به، وخذ مثلاً قوله سبحانه: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الرَّكَّابُ أَتَرْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [إبراهيم ١] فقد شبه الكفر بالظلمات. والإيمان بالنور وحذف المشبه، وأبقى المشبه به، وخذ مثلاً قول المتنبي^(١):

تَعَرَّضَ لِي السَّحَابُ وَقَدْ قَفَلْنَا فَقُلْتُ إِلَيْكَ إِن مَعِيَ السَّحَابَا

فقد ذكرت كلمة السحاب مرتين: المرة الأولى في الشطر الأول ويعني به السحاب الحقيقي، والمرة الثانية في الشطر الثاني ويعني به الممدوح الكريم والقرينة التي تدل على ذلك كلمة (معي)، لأنه لا يعقل أن يكون معه السحاب الحقيقي، واستمع إلى قول المتنبي^(٢):

وَلَمْ أَرْ مِثْلِي مَنْ مَشَى الْبَدْرُ نَحْوَهُ وَلَا رَجُلًا قَامَتْ تُعَانِقُهُ الْأُسْدُ
فكل من كلمتي (البدر) و (الأسد) مشبه به في الأصل وقد حذف المشبه، وقرينة ذلك كلمة (مشى) في الشطر الأول، و (تعانقه) في الشطر الثاني لأن البدر لا يمشي، ولأن الأسد لا تعانق.

واستمع إلى قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ﴾ [النساء ٢٥] وأصل العنت: كسر العظم، وأريد به في الآية الكريمة المشقة التي يجدها الإنسان في مكابدة شهوته، كما يدل عليه سياق الآية بجامع الإيلام في كل منهما، فقد شبهت المشقة بكسر العظم، وحذف

(١) ديوان المتنبي ج١، ص ٢٧٢ قفلنا: رجعنا، وإليك: بمعنى أكف، يأمر السحاب بأن ينظر إلى الأمير يرجو مطره، كما ترجو الناس من السحاب مبالغة في جود الأمير حتى صار السحاب مفتقراً إلى سقيه.
(٢) ديوانه ج٢، ص ٩٧.

المشبه، واستمع إلى قول الشاعر^(١):

فَأَمْطَرَتْ لَوْلُؤًا مِنْ نَرْجِسٍ وَسَقَتْ
وَرَدًا وَعَضَّتْ عَلَى الْعُنَابِ بِالْبَرْدِ
ففي البيت خمس استعارات: فقد شبه الدمع باللؤلؤ، والعيون بالنرجس، والخدود بالورد، والأصابع بالعناب، والأسنان بالبرد.

ومن بديع الاستعارة قول امرئ القيس^(٢):

وَقَدْ أَغْتَدِي وَالطَّيْرُ فِي وَكُنَاتِهَا
بِمُنْجَرِدٍ قَيْدِ الْأَوَابِدِ هَيْكَلِ
لما كان فرسه سريعاً يمنع الصيد من الفرار وصفه بأنه قيد، والقيد هو ما يوضع في الرجل من الحديد؛ فيمنع المقيّد من الحركة، ومن هنا كان لطف الاستعارة، فالفرس في الحقيقة مانع للصيد من الفرار، ولكن امرأ القيس تناسى كلمة مانع وعبر بالقيد لأن القيد أقوى من المنع لأنه يحول بين المقيّد وبين الحركة.

في الأمثلة المتقدمة جميعها استعارات حذف منها أحد طرفي التشبيه، وقد رأيت أن الطرف المحذوف هو المشبه والمذكور هو المشبه به. كل استعارة من هذا القبيل حذف منها المشبه، وذكر المشبه به تسمى تصريحية؛ لأنه صرح فيها بلفظ المشبه به.

(١) وهو الواواء الدمشقي.

(٢) ديوان امرئ القيس تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ص ١٩، ٤٦. الوكنات: أعشاش الطير، المنجرد: الفرس القصير الشعر، ويقال إنه المنسلخ الماضي عند السباق، الأوابد: الوحش، الهيكل: الفرس الضخم، والمعنى أنه يخرج مبكراً - قبل خروج الطير من أعشاشها - بفرسه السريع الضخم الذي يمنع الصيد من الفرار.

٢- الاستعارة المكنية:

ولعلك تتوق نفسك إلى معرفة الاستعارة المكنية وهي التي حذف منها المشبه به وذكر المشبه، ونبدؤك بقول الله تبارك وتعالى يوصي الإنسان خيراً بوالديه: ﴿وَاحْضَرْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء ٢٤] ويقول سبحانه: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَضَتْ غَزْلَهُمَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا﴾ [النحل ٩١] ولنقف مع هاتين الآيتين.

كلمة (النقض) استعملت مرتين؛ مرة بجانب الغزل وهو ما يغزل من الصوف أو ما يشبهه، ومرة بجانب الأيمان، وأنت تعلم أن النقص يستعمل حقيقة للأشياء المادية فهو في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَضَتْ غَزْلَهُمَا﴾ استعمل فيما وضع له، لأنه وضع في تفريق الأشياء المادية، ولكن استعمالها في الآية الأولى ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ استعمال مجازي لأن الأيمان ليست شيئاً مادياً - كما تعلم - ولكن: أين الاستعارة في الآية الكريمة؟

إننا ونحن ننعم النظر في الآية الكريمة نجد أن الأيمان قد شبهت بالحبال بجامع (الربط) في كل منهما، ثم حذف المشبه به وهو (الحبال) وبقي المشبه وهو (الأيمان)، وقد رمزنا له بشيء من لوازمه أي أبقينا له صفة تدل عليه، وهي النقص لأن النقص في الحقيقة من لوازم الحبال فهي التي تنقض.

أما الآية الأولى فقد أمر الله الأبناء أن يذللوا للآباء، وقد شبه الذل بالطائر وحذف المشبه به ولكننا رمزنا له بشيء من لوازمه وهو الجناح، وهناك وجه آخر في الآية الكريمة وهو أن يشبه الجانب بالجناح فتكون الاستعارة تصريحية، وسنزيد حديثاً عنها فيما بعد إن شاء الله.

واستمع إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ»^(١) ولعلك تدرك بلا عناء ولا صعوبة أن هذه استعارة، فقد شبه الإسلام بالبيت فكما أن للبيت أركاناً ودعائم يقوم عليها، فكذلك الإسلام، ولكن حذف المشبه به وهو البيت، وأبقينا له شيئاً من صفاته الجوهرية أي رمزنا له بشيء من لوازمه وهو البناء؛ لأن البناء من لوازم البيت. واستمع كذلك

(١) تقدم تخريجه ص ١٧٢.

إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم «الإيمان بضع وسبعون شعبة»^(١) والشعبة شيء مادي كشعاب الجبال وشعاب الشجر، ففي الحديث الشريف تشبيه الإيمان وقد تعددت أصوله وقضاياها بالشجرة ذات الشعاب والفروع الكثيرة وحذف المشبه به وهو الشجرة، ولكننا رمزنا له بشيء من لوازمه وهو الشعبة.

واستمع إلى قول الشاعر^(٢):

وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ

وأظنك تدرك الآن على ضوء ما تقدم لك من الآيات والأحاديث السابقة أن الشاعر أراد تشبيه المنية بالسبع الذي لا يفرق عند افتراسه بين الناس، وكذلك المنية، وقد حذف المشبه به وهو السبع ورمز له بشيء من لوازمه وهي الأظفار. واستمع إلى قول ابن المعتز^(٣):

قَدْ انْقَضَتْ دَوْلَةُ الصِّيَامِ وَقَدْ بَشَّرَ سُقْمُ الْهَلَالِ بِالْعِيدِ (٤)
يَتَلَوُ الثُّرَيَّا كَفَاغِرِ شَرِّهِ يَفْتَحُ فَاهُ لَأَكْلِ عُنُقُودِ

فقد أضاف الدولة للصيام، والدولة في الحقيقة تكون لنوبي السلطان من الناس، فقد شبه الصيام بصاحب الدولة بجامع النفوذ في كل وحذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو الدولة.

ويقيني - بعد ذلك - أنك تتساءل عن سرّ الفرق بين النوعين، فالاستعارة التصريحية ذكر فيها المشبه به ولم يشر إلى المشبه بشيء. أما المكنية فقد حذف منها المشبه به ولكنه رمز له بشيء من لوازمه، ولكي يسهل الجواب عليك وييسر لك أمره، فأني أذكرك بما قررتك لك من قبل عندما حدثتك عن أركان الاستعارة، فلقد بينت لك أن للاستعارة أركاناً ثلاثة: المستعار له وهو المشبه، والمستعار والمستعار منه وهما لفظ المشبه به ومعناه.

المشبه به يشتمل على ركنين من أركان الاستعارة، إذن هو العنصر الرئيس، لذلك لا بدّ من فرق بينهما؛ لأن طبيعة كل منهما تختلف عن الآخر في الاستعارة، حذف المشبه يذهب بركن واحد من أركانها فقط، وحذف المشبه به يذهب بركنين اثنين، كان لا بدّ إذن من أن نرمز بشيء من لوازمه وإلا فقدت الاستعارة من الكلام، فلو حذفنا كلمة (جناح) وكلمة (نقض) من

(١) تقدم تخريجه ص ١٧٢.

(٢) وهو أبو نؤيب الهذلي، شرح اشعار الهذليين ٨٠/١.

(٣) ديوانه ٨٧/٣، الصناعتين ١٩٤.

(٤) وفي البيت مجاز آخر في قوله: (سقم الهلال) وقد حدثناك من قبل أنه مجاز مرسل علاقته السببية ولا مانع من أن تجعله استعارة مكنية كذلك فتشبه الهلال بالإنسان وتحذف المشبه به وترمز له بشيء من لوازمه وهو السقم.

الآيتين الكريمتين، وكلمتي (بُنيَ) و (شُعْبة) من الحديثين الشريفين وكلمة (دولة) وكلمة (أظفار) من البيتين السابقين، لزالَت الاستعارة ولأصبح الكلام من أسلوب آخر غير أسلوب الاستعارة فلو قيل «كن ذليلاً لوالديك»، و «الإيمان بضع وستون قولاً وعملاً»، و «لا تحنثوا في أيما نكم»، و «ذهب أثر الصيام»، و «الموت لا يفرق بين الناس». لم يكن ذلك من الاستعارة في شيء ولكن هذا الأثر الذي أبقيناه للمشبه به هو الذي دلّنا عليه.

بقيت في الاستعارة المكنية قضية خطيرة ذات شأن وأثر، وهي أن هذا الرمز للمشبه به، قد أضعفناه أو أسندناه إلى المشبه، فالنقض الذي هو من لوازم الحبال أسندناه للإيمان مع أن الإيمان لا توصف على الحقيقة بالنقض، والاظفار التي هي من لوازم السباع أسندناها للمنية، والمنية لا أظفار لها - كما تعلم - والجناح الذي هو من جوهريات الطير أضعفناه للذل ومن البدهي أن الذل لا أجنحة له، والدولة التي هي من لوازم ذي السلطان أضعفناها للصيام وهو معنى من المعاني، والشعبة التي أسندناها للإيمان هي شيء مادي والإيمان ليس كذلك، والبناء الذي أسندناه للإسلام من لوازم البيت، لأنه شيء مادي وليس الإسلام كذلك.

هذه العملية الفنية الرائعة، وهي اضافة أو اسناد أحد لوازم المشبه به إلى المشبه تسمى استعارة تخيلية، فلقد تخيلنا أن للمنية أظفاراً وأن للإيمان شعباً وأن للإيمان نقضاً وهكذا الأمثلة جميعها.

نستطيع أن ندرك بعد هذا أن كل استعارة مكنية لا بد أن تشتمل على استعارة تخيلية مكنية، هي مكنية لأنها حذف منها المشبه به، وهي تخيلية لأننا أضعفنا أو أسندنا ما هو من لوازم المشبه به إلى المشبه - ففي قول النبي صلى الله عليه وسلم: «بُني الإسلام على خمس»^(١) استعارتان:

(١) مكنية وهي تشبيه الإسلام بالبيت، وحذف المشبه به والرمز له بشيء من لوازمه وهو البناء.

(٢) وفي اسناد البناء للإسلام استعارة تخيلية، وهكذا الأمثلة السابقة جميعاً.

ومن هنا كانت الاستعارة المكنية أبلغ، وأكثر تأثيراً في النفس، وأجمل تصويراً، ذلك لأن العمل الإبداعي فيها أدقّ منه في الاستعارة التصريحية، ألا ترى أنها تبعث الحياة فيما ليس بحي؟ وتثير الحركة، وتنمي الخيال، فتضيف جمالاً وهي تضيف إلى الأشياء صفات تزينها وتجميلها.

قال الزمخشري عند تفسير قوله تعالى: {الَّذِينَ يَنْتَظِرُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِثَاقِهِ} [البقرة ٢٧].

«النقض: الفسخ وفك التركيب، فإن قلت من أين ساع استعمال النقض في ابطال العهد؟ قلت: من حيث تسميتهم العهد بالحبل على سبيل الاستعارة، لما فيه من ثبات الوصلة بين المتعاهدين. ومنه قول ابن التيهان في بيعة العقبة: «يا رسول الله، إن بيننا وبين القوم حبلاً ونحن قاطعوها، فنخشى إن الله عز وجل أعزك وأظهرك أن ترجع إلى قومك» وهذا من أسرار البلاغة، ولطائفها أن يسكتوا عن ذكر الشيء المستعار، ثم يرمزوا إليه بذكر شيء من روادفه، فينبهوا بتلك الرمزة على مكانته. ونحو قولك «شجاع يفترس أقرانه»، «وعالم يغترف منه الناس»، «وإذا تزوجت امرأة فاستوثريها»، لم تقل هذا إلا وقد نبهت على الشجاع والعالم بأنهما أسد وبحر، وعلى المرأة بأنها فراش»^(١).

وخذ مثلاً قول أبي تمام^(٢):

دَيْمَةٌ سَمَحَةُ الْقِيَادِ سَكُوبٌ مُسْتَغِيثٌ بِهَا الثَّرَى الْمَكْرُوبُ

فانظر كيف صور الديمة بأنها سمحة القياد، ثم انظر إلى التصوير الرائع كيف صور لك هذا الجماد وهو هذا التراب هذه الصورة الحية المتحركة؟ كيف صورهُ بصورة من يستغيث ويستجدي؟ وإذا سألت عن سر ذلك وجماله لم تجد سبباً لذلك إلا هذا الأسلوب الاستعاري، الاستعارة المكنية، فلقد شبه الثرى برجل مسَّ الكرب، وأحاطت به اللأواء، وتملكته البأساء والضراء، ولقد أضمر الشاعر كل ذلك ورمز له بكلمة واحدة هي كلمة (مستغيث)، ثم أسند هذه الاستغاثة إلى الثرى، فكأنك وأنت تراها تحس بهذه الاستغاثة، وانظر إلى البيت الحماسي:

قَوْمٌ إِذَا الشَّرُّ أَبْدَى نَاجِذِيهِ لَهُمْ طَارُوا إِلَيْهِ زُرَافَاتٍ وَوُحْدَانًا

ألا تراه كيف صور الشر بمفترس كَثُرَ عن أنيابه؟ وهل تظن أن جمال ذلك يعود لغير الاستعارة المكنية التخيلية؟! المكنية لأنه شبه الشر بمفترس، والتخيلية لأنه جعل للشر ناجذين يديهما. واستمع إلى قول الفرزدق^(٣):

وَالشَّيْبُ يَنْهَضُ فِي الشَّبَابِ كَأَنَّهُ لَيْلٌ يَصِيحُ بِجَانِبَيْهِ نَهَارُ

فهو يشبه الشيب وهو يلاحق الشباب ليزيله ويمحو آثاره، يشبه هذه الصورة بصورة الليل الذي يلاحقه النهار ليذهب أثره وليحل محله، هذا تشبيه تمثيل - كما رأيت - فهو تشبيه صورة بصورة، صورة سواد الشعر ليحل الشيب محله، بصورة سواد الليل الذي يطارده

(١) الكشف ١١٩/١، رواده: أي لوازمه، فاستوثريها: الوثيرة: الكثيرة اللحم.

(٢) ديوانه ٢٩١/١، قصيدة ٢٣، والبيت مطلع قصيدة في مدح محمد بن الهيثم بن شبانة.

(٣) ديوان الفرزدق ص ٩٠.

النهار، صورة شيء أسود يطارده شيء أبيض، ولكن الذي يعيننا الآن ما نحن بصدد، وهو ما في البيت من تصوير بالاستعارة المكنية التخيلية، ففي البيت استعارتان ألا ترى كيف أثار الحركة والحياة في الشيب وهو ينهض بالشباب؟ والنهوض من صفات الأحياء - كما تعلم - فقد شبه الشيب بذى حياة وقدره على النهوض وهذه المكنية وقد اسند النهوض إلى الشيب وتلك تخيلية.

أما الاستعارة الثانية فهي في الشطر الثاني فقد شبه النهار بذى الحاجة الذي يصيح لبلوغ حاجته، وحذف المشبه به ورمز له بكلمة (يصيح) ثم أسندها إلى النهار وهذه التخيلية - كما عرفت - وانظر إلى قول ابن المعتز^(١):

إِذَا تَرُومُ الثَّرِيَّاءَ فِي الْفُرُوبِ مَرَامًا
كَكَبِّ طِمْرٍ كَادَ يُلْقِي الْأَجَامًا

فقد شبه الثريا وهي تسير في غروبها برأس الطمر الهاوي إلى الأرض وقد كاد يلقي لجامه، ويعيننا ما في البيت من استعارة مكنية، فقد شبهت الثريا وهي تسرع نحو الغرب بذى حاجة يروم تحقيقها، وحذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو قوله: (تروم) لأن الروم إنما يكون عن قصد، وهذه الاستعارة المكنية، واسناد (تروم) إلى (الثريا) استعارة تخيلية، ألا ترى أن هذه الاستعارة بعثت الحياة في الثريا؟ ونشرت في جوانبها الإحساس؟ وأظنك تدرك الآن جمال هذه الاستعارة وتستطيع أن تتبين مواقعها، وتميز مواضعها.

فإذا سمعتهم يقولون: «هو يصفو ويكدر»، و«يمر ويحلو». أدركت أن هذه استعارات مكنية لأنهم قصدوا تشبيهه بالماء وبالعسل وبالصاب^(٢)، ثم حذفوا المشبه به ورمزوا له بشيء من لوازمه وهو يصفو ويكدر ويمر... الخ، فإن الصفاء والكدر من صفات الماء، والحلاوة من صفات العسل، والمرارة من صفات الصاب، واسنادها إلى الرجل استعارة تخيلية.

وإذا سمعت قول الحجاج «أني لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها»، فأنت تدرك أن هنا استعارتين مكنية وتخيلية حيث شبه الرؤوس بالثمار، وحذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو (أينعت) و (حان قطافها)، وهذه الاستعارة مكنية، واسناد الإيناع للرؤوس هو التخيل.

وهذا هو سعد بن ناشب يقول:

إِذَا هُمْ أَلْقَى بَيْنَ عَيْنَيْهِ عَزْمَهُ
وَنَكَبَ عَنْ ذِكْرِ الْعَوَاقِبِ جَانِبًا

(١) ديوان ابن المعتز ص ٦٣١، ككب: من اكب على الشيء إذا هوى عليه، الطمر: الفرس الكريم الرشيق.

(٢) الصاب: شجر مر له عصارة بيضاء كاللبن.

وَلَمْ يَسْتَشْرِ فِي رَأْيِهِ غَيْرَ نَفْسِهِ وَلَمْ يَرْضَ إِلَّا قَائِمَ السَّيْفِ صَاحِباً

فأنت ترى أنه قد شبه العزم بشيء يعني الإنسان، لأنه لا يلقي بين العينين إلا ما يعني الإنسان ويشغله ويروم تحقيقه بجامع العناية في كل وحذف المشبه به، ورمز له بشيء من لوازمه وهو (ألقى بين عينيه) على سبيل الاستعارة المكنية، واسناد الإلقاء إلى العزم استعارة تخيلية. وما أبدع قول المتنبي^(١):

وَتُحْيِي لَهُ الْمَالَ الصَّوَارِمُ وَالْقَتَا وَيَقْتُلُ مَا تُحْيِي التَّبَسُّمُ وَالْجِدَا

ففيه استعارتان مكنيتان، الأولى: وهي في الشطر الأول، حيث شبه المال وقد جمع بعد تفرق، وكثر بعد قلة، بالميت أعيدت له الحياة، وحذف المشبه به، ورمز له بشيء من لوازمه وهو الحياة. كما شبه تفریق المال بعد جمعه بالحي، ورمز له بشيء من لوازمه وهو (القتل)، واسناد الحياة والقتل إلى المال تخيل.

واستمع إلى قول البحري، من قصيدة له يحدثك فيها عن الربيع^(٢):

أَتَاكَ الرَّبِيعُ الطَّلُقُ يَخْتَالُ ضَاكِحاً مِنْ الْحُسْنِ حَتَّى كَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ
وَقَدْ نَبَّهَ النَّوْرُوزُ فِي غَلَسِ الدُّجَى أَوَائِلَ وَرْدٍ كُنَّ بِالْأَمْسِ نُومًا
يُفْتَقُّهَا بَرْدُ النَّدَى فَكَأَنَّهُ يَبِثُّ حَدِيثًا كَانَ أَمْسٍ مَكْتُمًا

فانظر إلى هذه الصورة الجميلة التي تمتليء حيوية ورقّة، وانظر إلى صور الاستعارة البديعة، فهذا الربيع قد جاءك طلقاً متبخترًا، كأنما هو فخور بخلته القشبية، وها هو يفتقر عن ابتسامات مختالاً ضاحكاً، فهي استعارة مكنية كما عرفت، حيث شبه الربيع بإنسان ذي بزة وهيئة جميلة، وها هو يختال ضاحكاً من حسنه، فانظر إلى هذه الاستعارة المكنية التخيلية المرشحة - إذ ذكر فيها ما يلائم المشبه به -.

ثم انظر إلى البيت الثاني، وها هو النيروز (شمّ النسيم) - كما يعرف في بعض البلدان - ينبه ويوقظ في غلس الليل وظلمته هذا الورد الذي كان يبدو عليه كسَلُ النوم، وها هو برد الندى - وما أجمل برد الندى - يفتق أكمام هذه الأزهار وتلك الورود، وها هي بعد أن تصحوا

(١) ديوان المتنبي ٤/٢.

(٢) ديوانه ٢٠٩٠/٤، الطلق: المشرق، النوروز= النيروز: وهو أكبر أعياد الفرس، ومعناه بالفارسية: اليوم الجديد، الغلس: ظلمة آخر الليل، يبث: ينشر.

يرسم الشاعر هنا لنا صورة الربيع، ويقدم لنا أجزاء الصورة متتابعة المعاني، إذ يمهّد في البيت الأول لهذه اللحظة الحلوة التي تنبه بها الطبيعة من غفوة كادت أن تكون مواتاً، ثم يصور لنا في البيتين التاليين هذا التنبيه الحالم الوداع. ديوان البحري - تحقيق حسن كامل الصيرفي ١٥/٨.

كأنما يتحدث بعضها مع بعض أو لكأنما تحدث الناظر إليها - بعد أن تفتقت - حديثاً لم يكن من قبل، لأنها كانت نوماً ذابلاً ذائبة.

وقبل أن انتقل بك إلى تقسيم آخر، لا بدّ أن تعلم أن فضل الاستعارة المكنية يكمن في أنها تبعث الحياة والحركة في الأشياء كلها، فهي يَقطُّة تخاطبك وتكلمك، ألا رأيت إلى التراب كيف يستغيث، وإلى الربيع كيف جاءك مختلاً ضاحكاً، ولكن حذار أن تظنّ أن في هذا القول انتقاصاً من الاستعارة التصريحية، فكلُّ لها صورتها الجميلة. وإذا كانت الاستعارة المكنية تبعث الحياة في الأشياء؛ فإن في الاستعارة التصريحية صوراً للمعاني الذهنية الفكرية المجردة، تجسدت فكانت توجيهات حيّة في مجالات الحياة جميعها، كما بينته لك من قبل، وكما سأبينه لك فيما بعد - إن شاء الله - في قوله سبحانه: (فَاذْعَبْ بِمَا تُؤْمَرُ) [الحجر ٩٤] وقوله: (بَلْ تَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ) [الأنبياء ١٨]، كلُّ من الأسلوبين إذن - أسلوب التصريحية واسلوب المكنية - له مسوغاته وسياقه وعناصره المؤثرة الجميلة.

التقسيم الرابع: الاستعارة التحقيقية والتخييلية

وعلى ضوء ما عرفت، هناك تقسيم رابع للاستعارة وهي أنها تقسم إلى تحقيقية وتخييلية، فالتحقيقية: ما يكون فيها المستعار له أمراً محققاً إما حساً كما تقول «رأيت أسداً» وتعني الرجل الشجاع، وهو أمر محقق الوجود في الخارج، وإما عقلاً كقوله تعالى: (إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) [الفاتحة ٦]، فالمستعار له وهو الإسلام أمرٌ محقق ومتصور في العقل وإن لم يكن له وجود محسوس. أما التخييلية فهي التي يكون المستعار له فيها أمراً متخيلاً غير متحقق، وذلك كاثبات الجناح للذئب، والنولة للصيامة، واللقاء للعزم، والاحياء أو القتل للمال.

ونظن أن الشيخ عبد القاهر - رحمه الله - هو أوّل من فصل الأمر وبين الفرق بين هذين النوعين موضحاً قيمة الاستعارة المكنية التخييلية، وما تقوم عليها من أسس جمالية، وتصوير بديع خلّاب، يقول:

« والثاني: أن يؤخذ الاسم عن حقيقته ويوضع موضعاً لا يبين فيه شيء يشار إليه، فيقال هذا هو المراد بالاسم والذي استعير له وجعل خليفة لاسمه الأصلي ونائباً منابه. ومثاله قول لبيد^(١):

(١) ديوانه ص ٢١٥، البيت رقم ٦٢ من معلقته، وغداة ربح: أي رب غداة ربح أي شديدة الريح، كَشَفْتُ، وفي رواية (وَزَعْتُ): أي كَفَفْتُ، قرّة: برد، يقال قرّة وقرّ كما يقال ذلة وذلل. إذ أصبحت بيد الشمال زمامها: أي إذا أصبحت الغنوة الغالب عليها ربح الشمال وهي أبرد الرياح، والمعنى: أنه إذا اشتد البرد كَفَفَتْه بإطعام الطعام واشغال النيران.

وَعَدَاةٍ رِيحٍ قَدْ كَشَفَتْ وَقِرَّةٍ إِذْ أَصْبَحَتْ بِيَدِ الشَّمَالِ زِمَامُهَا

وذلك أنه جعل للشمال يداً، ومعلوم أنه ليس هناك مشار إليه، يمكن أن تجري اليد عليه كاجراء الأسد والسيف على الرجل في قولك: «انبرى لي أسد يزأر»، و«سللت سيفاً على العدو لا يقل»، والظباء على النساء في قوله: «من الظباء الغيد» والنور على الهدى والبيان في قولك: «أبدت نوراً ساطعاً». وكاجراء اليد نفسها على من يعز مكانه كقولك: «اتناز عني في يد بها أبطش، وعين بها أبصر»، يريد إنساناً له حكم اليد وفعلها، وغناؤها ودفعها، وخاصة العين، وفائدتها وعزة موقعها، ولطف موضعها، لأن معك في هذا كله ذاتاً ينص عليها، وترى مكانها في النفس إذا لم تجد ذكرها في اللفظ. وليس لك شيء من ذلك في بيت لبيد، ليس أكثر من أن تخيل إلى نفسك أن الشمال في تصريف الغداة على حكم طبيعتها كالمدير المصروف لما زمامه بيده، ومقادته في كفه، وذلك كله لا يتعدى التخيل والوهم، والتقدير في النفس، من غير أن يكون هناك شيء يحس، وذات تتحصل، ولا سبيل لك إلى أن تقول: كنى باليد عن كذا وأراد باليد هذا الشيء أو جعل الشيء الفلاني يداً كما تقول: كنى بالأسد عن زيد وعننى به زيدا وجعل زيدا أسداً، وإنما غايتك التي لا مطلع وراءها أن تقول: أراد أن يثبت للشمال في الغداة تصرفاً كتصرف الإنسان في الشيء يقلبه، فاستعار لها اليد حتى يبالغ في تحقيق التشبيه.

وحكم الزمام في استعارته للغداة حكم اليد في استعارتها للشمال، إذ ليس هناك مشار إليه يكون الزمام كناية عنه، ولكنه وقى المبالغة شرطها من الطرفين فجعل على الغداة زماماً يكون اتم في اثباتها مصروفة، كما جعل للشمال يداً ليكون أبلغ في تصييرها مصروفة.

ويُفصل بين القسمين: أنك إذا رجعت في القسم الأول إلى التشبيه الذي هو المغزى من كل استعارة تفيد وجدته يأتيك عفواً كقولك في «رأيت أسداً»، «رأيت رجلاً كالأسد» ورأيت مثل الأسد أو شبيهاً بالأسد، وإن رُمته في القسم الثاني وجدته لا يواتيك تلك المواتاة، إذ لا وجه لأن يقول: «إذ أصبح شيء مثل اليد للشمال» أو «حصل شبيه باليد للشمال» وإنما يتراعى لك التشبيه بعد أن تخرق إليه سترأ وتعمل تأملاً وفكراً ويعد أن تغير الطريقة وتخرج عن الحد الأول^(١).

وخلاصة ما يريده الشيخ - رحمه الله - أن الاستعارة التحقيقية هي التي لها تحقق في الواقع، كالأسد الذي استعير للشجاع، والشمس التي استعيرت للحسنة، والبحر الذي استعير للجواد، فتلك أمور محققة في الواقع ولها وجود خارجي، أما التخيلية فليست كذلك، فليس لها وجود خارجي ولا تحقق واقعي، ألا ترى أنه ليس للشمال يد ولا يمكن أن يكون وليس للريح زمام، إنما هي سعة خيال الشعراء.

اجراء الاستعارة

وقبل أن نواصل حديثنا عن أقسام الاستعارة، نرى لزماً علينا أن نقف وقفة ميدانية، نحدثك فيها عن إجراء الاستعارة ونبادرك القول بأن إجراء الاستعارة لا نعني به إلا أن تروّز نفسك، وتختبر ادراكك اختباراً عملياً، بعد أن عرفت نظرياً بعض الجوانب في أسلوب الاستعارة. ونمثل لك هذا الإجراء بقضية الإعراب في النحو، وتقطيع الشعر في العروض، والميزان في الصرف، فمن أحاط بقواعد النحو وعرف مسأله، واستجمع أصوله وفصوله، فإنك لا تطمئن لمعرفته إلا عندما تجده بارعاً في اعراب الجمل، مبيناً مواقع اجزاءها من الإعراب، فإن لم يستطع ذلك فإن معرفته للقواعد والمأمه بالفصول لا تجديه شيئاً، كذلك الذي يدرس فن العروض، فإنك لا تعدّه حاذقاً إلا إذا كان يستطيع تقطيع البيت من الشعر، وبيان ما فيه من علل، وما يجوز وما لا يجوز، كذلك الذي يدرس علم الصرف، لا بد لكي يكون ذا مهارة وخبرة أن يزن الكلمات التي تمر به، ويدرك مواطن الإعلال والإبدال، والقلب ومواطن التصغير وكيفية، وأحوال النسب.

اجراء الاستعارة - إذن - هو الثمرة العملية التي يختبر بها دارس البيان. ولنذكر لك بعض الأمثلة لتقيس عليها غيرها، فإجراء الاستعارة في قوله تعالى: (فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ) [الحجر ٩٤]، تقول فيه: شبه التبليغ بالصدع بجامع المشقة في كل، وحذف المشبه على سبيل الاستعارة التصريحية، ثم اشتق من الصدع فعل الأمر (إِصْدَعْ) بمعنى (بَلِّغْ) على سبيل الاستعارة التبعية، التي سنحدثك عنها فيما بعد إن شاء الله. وتقول في قوله تعالى: (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً) [آل عمران ١٠٣] شبه العهد بالحبل بجامع النجاة في كل، وحذف المشبه وذكر المشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية.

وتقول في قوله سبحانه: (اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْبِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْنِهَا) [الحديد ١٧] شُبِّهَتِ الْأَرْضُ الْهَامِدَةُ، وقد أُنْبِتَتْ وَاهْتَزَتْ وَرَبَتْ، بِالْمَيِّتِ نُفَخَتْ فِيهِ الرُّوحُ، وحذف المشبه به، ورمز له بشيء من لوازمه وهو الاحياء على سبيل الاستعارة المكنية، واسناد الاحياء إلى الأرض استعارة تخيلية. ولك أن تجري الاستعارة على وجه آخر فنقول: شبه التزيين بالاحياء بجامع الفائدة في كل، واشتق من الاحياء (يحيي) بمعنى (يُزَيِّنُ) على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية وسيأتي لهذا مزيد تفصيل إن شاء الله.

وتقول في قوله سبحانه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ) [آل عمران ١١٨] شُبِّهَتِ الْوَلَايَةُ وَالْمُودَةُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَغَيْرِهِمْ بِبَاطِنِ الثُّوبِ الَّذِي يَلِي الْجَسْمَ، بجامع

القرب في كل، وحذف المشبه وذكر المشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية. وتقول في قول ابن المعتز^(١):

جُمِعَ الْحَقُّ لَنَا فِي إِمَامٍ قَتَلَ الْبُخْلَ وَأَحْيَا السَّمَاخَا

شبه البخل برجل مقتول، وشبه السماحة برجل بُعث فيه الحياة بعد القتل، وحذف المشبه به في الموضعين ورمز له بشيء من لوازمه وهو (قَتَلَ) و (أَحْيَا)، على سبيل الاستعارة المكنية التخيلية.

وإذا أردت أن تجري الاستعارة في قولك: «يفتك بنا عدونا بسلاحه، ونحن نقله بالتصريحات» شبه ما نتوهمه مما يؤذي العدو بالقتل، على سبيل الاستعارة التصريحية التهكمية. وتقول في قوله سبحانه: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا) [الملك ١٥] شبّهت الأرض وقد سخرها الله لنا، بالحيوان المذل، وحذف المشبه به - وهو الحيوان - ورمز له بشيء من لوازمه وهي المناكب على سبيل الاستعارة المكنية، وإضافة المناكب إلى الأرض استعارة تخيلية. وتجري الاستعارة في قول ابن المعتز^(٢):

سَأَلَتْ عَلَيْهِ وَجُوهَ الْحَيِّ حِينَ دَعَا أَنْصَارُهُ بِوُجُوهِ كَالدَّنَانِيرِ

فالسيل - كما تعلم - للماء واسندها لوجوه الحي، شبه سرعة الناس في إجابة دعوته - الممدوح - بالماء في سرعة سيله وتدفقه، وحذف المشبه به على سبيل الاستعارة المكنية. واسند السيل الذي هو من لوازم المشبه به - الماء - إلى المشبه على سبيل الاستعارة التخيلية.

أما قوله سبحانه: (إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ) [الملك ٧]، وقوله سبحانه: (إِذَا رَأَوْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيظًا وَزَفِيرًا) [الفرقان ١٢] فلك أن تقول في الآية الأولى: شبه جهنم بصاحب الصوت البشع، وحذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه، وهو الشهيق، على سبيل الاستعارة المكنية التخيلية، ولك أن تجري الاستعارة هكذا: شبه ما يُسمع من غليان جهنم بالشهيق. بجامع الاستبشاع في كل، وحذف المشبه، وذكر المشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية. وتقول في الآية الثانية: شبّهت جهنم بمن يرقب عدوه ويتحفز للإيقاع به، وحذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو (رَأَى) على سبيل الاستعارة المكنية، وأسندت الرؤية لجهنم على سبيل الاستعارة التخيلية.

(١) ديوانه ص ١٢٣.

(٢) دلائل الإعجاز ص ١١٨، بوجوه كالدنانير: أي مشرقة متلألئة مسرورة وذلك من الثقة بشجاعتهم والزهو برزيعهم.

وكما أجريت الاستعارة في قوله: (سمعوا لها شهيقاً) نجريها في قوله: (سمعوا لها نغيظاً وزفيراً) وستعلم أن اجراء الاستعارة يمكن أن تتبّع فيه أكثر من طريقة واحدة، وتسلك فيه أكثر من سبيل، وسنزيدك إلماً بهذا الموضوع - بإذن الله - بعد أن نكمل لك بقية أقسام الاستعارة لتكون الفائدة أتم وليكون الموضوع أكثر شمولاً.

التقسيم الخامس

الأصلية والتبعية

كانت التقسيمات السابقة للاستعارة - كما رأيت - باعتبارات مختلفة، فتارة من حيث المحسوس والمعقول أي من حيث ما يدرك بالحواس أو لا، ومن حيث اجتماع ركنيها أو عدم اجتماعهما، ومن حيث وجود المشبه أو المشبه به، ومن حيث تحقق المستعار له أو عدم تحققه، ونقسمها الآن من حيثية أخرى وهي لفظ المستعار، ففي هذا التقسيم ننظر إلى لفظ المستعار، من أي فئة هو، من فئات الكلمة المعروفة: الإسم، والفعل والحرف؟، ولنرى كذلك أي الفصائل التي ينتسب إليها؛ أينسب إلى فصيلة المشتقات أم إلى فصيلة الجوامد؟ وأنت تعلم أنهم قد قسموا الكلمة إلى إسم وفعل وحرف، وقسموا الإسم إلى جامد ومشتق، ويعنون بالمشتق ما أخذ عن غيره. أما الجامد فقد يكون اسم جنس: كالأسد، والانسان، وقد يكون اسم معنى: كالقتل، والطغيان، والصدع، وأظن الفرق بينهما واضحاً لا يحتاج إلى شرح، فاسم الجنس له وجوده في الخارج، أما اسم المعنى فليس من هذا القبيل إنما يقوم بغيره، ألا ترى أنه ليس هناك شيء اسمه القتل له وجوده في الخارج إنما هو معنى يقوم بغيره كالقاتل الذي حدث منه القتل، والمقتول الذي وقع عليه، وكذلك الطغيان، والصدع، والعدل، والإيمان.

إذا عرفت هذه المقدمات فاعلم أنهم قد نظروا في هذا التقسيم للفظ المستعار فوجدوه تارة جامداً، وذلك مثل قوله سبحانه: (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) [إبراهيم ١]، وكقول المتنبي السابق:

وَلَمْ أَرْ قَبْلِي مَنْ مَشَى الْبَدْرُ نَحْوَهُ وَلَا رَجُلًا قَامَتْ تُعَانِقُهُ الْأُسْدُ

وتارة وجدوه مشتقاً، ومن المشتقات: الفعل واسم الفاعل، واسم المفعول، واسما الزمان والمكان، واسم الآلة، فإذا كان المستعار اسماً جامداً سميت الاستعارة أصلية، وإذا كان المستعار مشتقاً سميت الاستعارة تبعية، ومن الاستعارة التبعية - كذلك - أن تكون الاستعارة في الحرف أو اسم الإشارة، وتدرك من هذا أن الأعلام الشخصية لا تجري فيها الاستعارات، إلا إذا اشتهر العلمُ بصفة من الصفات فأصبح صالحاً لأن يكون مشبهاً به، فقد اشتهر حاتم

بالكرم، وسحبان بالخطابة، وبأقل بالفهاهة^(١)، فأصبحت هذه الأعلام صالحة لأن يشبه بها لا من حيث هي أعلام شخصية، ولكن من حيث ما اشتهرت به من صفات، وعلى هذا فإن أبا بكر - رضي الله عنه - اشتهر بحروب الردة لما كان له من فضل قمعها، فيمكن أن تستعير هذا الاسم لمن يقف مثل هذا الموقف، وكذلك اشتهر عمر - رضي الله عنه - بالعدل فيمكن أن تستعير هذا الاسم لمن عرف بالعدل في سيرته وحكمه، ومثل هذا (المتنبى) في الشعر، و (أبو رغال)^(٢) في الخيانة، و (صلاح الدين) في التحرير، و (بطرس الناسك)^(٣) في الحقد على الإسلام، والاستعارة في هذه جميعاً استعارة أصلية.

يمكنك أن تمثل للاستعارة الأصلية إذن بقولك: «لا بد لهذا الليل من آخر»، و «ولا بد أن يحمل المشعل صلاح الدين»، و «سلاقي أبو رغال مصيره»، و «ما أحوج الردة التي نحياها اليوم إلى أبي بكر».

أما الاستعارة التبعية فيمكن أن نمثل لها بقوله سبحانه: (أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَى) [البقرة ١٦]، ويقول: (وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ) [الأعراف ١٥٤]، ويقول سبحانه: (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ) [الحجر ٩٤]، ويقول: (وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ) [الكهف ٩٩]، ويقول: (إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَا كُفْرِي الْجَارِيَةِ) [الحاقة ١١]، هذه الاستعارات جميعها - كما ترى - أفعال بعضها ماضٍ، وبعضها مضارع، وبعضها أمر، ففي الآية الأولى الاستعارة في قوله سبحانه: (اشترُوا)، وفي الآية الثانية في قوله: (سكت)، وفي الآية الثالثة في قوله سبحانه: (اصدع). وهكذا فعلاً (يموج) و (طغى) في الآيتين الرابعة والخامسة، وقبل أن نبين لك الاستعارات في هذه الآيات لا بد من الإشارة إلى علة التسمية. فتسميه الاستعارة بالأصلية لأنها لم تُبنَ على غيرها. أما التبعية فلأنها مبنية على استعارة أخرى فهي تابعة لها في اجرائها، بيان ذلك:

إن قوله سبحانه: (أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَى) المقصود به (استبدلوا الضلالة بالهدى)، لأن الضلالة لا تشتري كما نعلم، ولكنها يمكن أن تُستبدل بغيرها، ولكننا عند إجراء الاستعارة، لا نقول: شبه (استبدلوا) بـ (اشترُوا)، إنما نقول: شبه الاستبدال بالشراء

(١) أي التعلثم بالنطق وعدم القدرة على الافصاح.

(٢) هو قسي بن منبه من بني ابياد، صاحب القبر الذي يرجع إلى اليوم بين مكة والطائف، يضرب مثلاً للخيانة لأنه كان دليل الحبشة لما غزوا الكعبة وهلك معهم.

(٣) أحد قادة الحروب الصليبية كان فصيحاً شديداً التأثير في تحريض الأوروبيين على الحروب الصليبية.

وحذف الاستبدال. أو نقول إذا أردنا أن نتناسى التشبيه ألبتة: استعير الشراء للاستبدال ثم اشتق منه (اشترى) بمعنى (استبدلوا) على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.

وفي الآية الثانية يقال: استعير السكوت للزوال لأن الغضب لا يسكت وإنما يزول، واشتق من السكوت (سكت) بمعنى (زال)، ويقال في الآية الثالثة: استعير الصدع للتبليغ واشتق منه (إصدع) بمعنى (بلغ)، أما الآية الرابعة فيقال فيها: استعير الموج للحركة أو الاضطراب واشتق منه (يموج) بمعنى (يضطرب)، وهكذا في الآية الخامسة نقول: شبه ارتفاع الماء الخارج عن حد الاعتدال بالطغيان واشتق من الطغيان (طغى) بمعنى (ارتفع).

وهكذا نقول في (ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ) [آل عمران ١١٢] شبه الدوام واللزوم بالضرب بجامع الاحاطة والبقاء في كل، واشتق منه (ضُرِبَ) بمعنى (لُزِمَ)، وفي قوله سبحانه: (إِعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا) [الحديد ١٧]، استعير الإحياء للتزيين. واشتق منه (يُحْيِي) بمعنى (يُزَيِّنُ) وفي قول ابن المعتز السابق:

جُمِعَ الْحَقُّ لَنَا فِي إِمَامٍ قَتَلَ الْبُخْلَ وَأَحْيَا السَّمَاخَا
استعير القتل لانتفاء البخل واشتق منه (قَتَلَ) بمعنى (أَذْهَبَ) واستعير الإحياء للوجود واشتق منه (أَحْيَا) بمعنى (أَوْجَدَ وَأَبْقَى).

ومن الاستعارة التبعية قولهم: «نطقت الحال بكذا»، «كلمتني عيناه»، «قالت أسارير وجهه»، ومنه قوله:

أَشَارَتْ بِطَرْفِ الْعَيْنِ خَيْفَةً أَهْلَهَا إِشَارَةً مَخْزُونٍ وَلَمْ تَتَكَلَّمْ
فَأَيَّقَنْتُ أَنَّ الطَّرْفَ قَدْ قَالَ مَرْحَبًا وَأَهْلًا وَسَهْلًا بِالْحَيِّبِ الْمُتَيَّم

فأثبات النطق للحال، والتكلم للعينين، والقول للطرف، استعارات تبعية، فقد شبه وضوح الدلالة بالنطق والتكليم، واستعير المشبه به للمشبه، واشتق من النطق والتكليم والقول (نَطَقَ) و (تَكَلَّمَ) و (قَالَ) بمعنى (ظَهَرَ).

الاستعارة التبعية في الفعل:

والاستعارة في الفعل يمكن أن ندركها من الفاعل، كالأمثلة السابقة في قوله سبحانه: (وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ) [الأعراف ١٥٤]، و «نطقت الحال بكذا»، وقد ندركها من المفعول كما في قوله سبحانه: (إِعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا)، وقول ابن المعتز:

(قتل البخل وأحيا السماحا)، ألا ترى أنه لولا المفعول به هنا لم يكن في الكلام استعارة؟ لأن اسناد الاحياء إلى الله حقيقة، واسناد القتل كذلك إلى الإمام حقيقة، وقد تكون هناك استعارة في الفعل ولكننا لا ندركها من الفاعل ولا من المفعول به الأول وإنما ندركها من المفعول الثاني. خذ مثلاً قولنا: «نقري عدونا» ألا ترى أن هذه الجملة لا تحتل استعارة لأن (نقري) معناه (نكرم) ويمكن أن يكون ذلك على سبيل الحقيقة لكنك إذا قلت: «نقري عدونا سهاماً مسمومة» فإنك لا تشك أن في الكلام استعارة ولكنك أدركتها من المفعول الثاني وهو قولك: (سهاماً) لأن السهام لا تصلح للقري، وعلى هذا جاء قول القطامي^(١):

لَمْ تَلَقْ قَوْمًا هُمْ شَرُّ لِإِخْوَتِهِمْ مِنْ عَشِيَّةٍ يَجْرِي بِالدَّمِ الْوَادِي
نُقْرِيهِمْ لَهُذِمَّاتٍ نَقْدُ بِهَا مَا كَانَ خَاطَ عَلَيْهِمْ كُلُّ زَرَادٍ^(٢)

وكل الذي عرفته عن الاستعارة في الفعل إنما هي باعتبار مدلوله ومعناه. وقد ذكرنا أن هناك استعارة أخرى في الفعل لا من حيث معناه ووادته وإنما من حيث هيئته وصيغته، وأنت تعرف أن الفعل قد يكون ماضياً، أو مضارعاً، فإذا استعملت صيغة مكان صيغة كأن تستعمل صيغة الماضي مكان صيغة المضارع، فإنهم عدواً ذلك من الاستعارة، ذلك لأن صيغة الماضي استعملت في غير موضعها. مثلاً لذلك بقوله سبحانه: (أَتَى أَمْرُ اللَّهِ) ثم قال: (فَلَا

تَسْتَعْجِلُوهُ) [النحل ١]، ومعنى هذا أن أمر الله سيأتي بدليل قوله: (فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ) وقالوا في اجراء الاستعارة: إنه شبه الإتيان في المستقبل بالإتيان في الماضي بجامع التحقق في كل، لأن وعد الله لا يتخلف، واستعار لفظ المشبه به للمشبه ثم اشتق من الإتيان (أتى) بمعنى (يأتي) على سبيل الاستعارة التبعية التصريحية والقرينة لفظية وهي قوله: (فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ)، ومنه قوله سبحانه: (وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا)

[الأعراف ٤٤]، وقوله سبحانه: (وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ)

[الأعراف ٤٨]، وقوله سبحانه: (وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ

الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ) [الأعراف ٥٠]، فهذه الأفعال الماضية أريد منها المستقبل؛ لأنها

حديث عن يوم القيامة، ولكننا شبهنا المستقبل بالماضي بجامع التحقق والوجود في كل، ثم

(١) ديوان القطامي عمير بن شبيب التغلبي ٦٣/٢، أسرار البلاغة تحقيق هـ. ريتز ص ٥١.

(٢) نقريهم من قرئت الضيف، واللهمز من الأسنة: القاطعة، واللهمزيات منسوبة إليها، والقُدُ: القطع، وَضَمَنَ (خاط) معنى (قُدَّ) فعدها بـ (على)، وَزَدَ الدُّرُوعَ وَسَرَدَهَا: نَسَجَهَا.

اشتق من النداء (نادى) بمعنى (ينادي)، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، والقرينة معنوية، لأن الحديث عن يوم القيامة، وقال الشاعر:

وَأَعْلَمُ أَنْزِي سَأْكُونُ رَمْسًا إِذَا سَارَ النَّوَاعِجُ لَا يَسِيرُ
فَقَالَ السَّائِلُونَ لِمَنْ حَفَرْتُمْ فَقَالَ الْمُخْبِرُونَ لَهُمْ وَزِيرٌ^(١)

فقد عبّر بالماضي في قوله: «فقال المخبرون» وأراد المضارع.

وَأَعْلَمُ أَنِّي ذَكَرْتُ هَذَا مَجَارَةً لِلْقَوْمِ فَقَدْ أوردوا هذا في كتبهم فكرهت مخالفتهم، فالقرآن الكريم كثيراً ما يستعمل الماضي في مكان المضارع، أو المضارع في مكان الماضي، وذلك لاستحضار الصورة لتكون أكثر تأثيراً في النفس، فهو حينما يذكر يوم القيامة - مثلاً - يذكر لنا مشاهدته التي تحدث فيه بصيغة الماضي لأنه جسد لنا هذا اليوم كأننا نعيشه، وكثيراً ما يذكر لنا أشياء مضت بصيغة المضارع لتكون مستحضرةً أمامنا.

اجراء آخر للاستعارة

إذا تأملت الاستعارات السابقة جميعاً وجدت أن كل استعارة تبعية تجيء قرينتها استعارة مكنية، ولكي نبين لك الأمر جلياً نذكرك بما عرفته من قبل، بأن كل استعارة وكل مجاز لا بد له من قرينة تمنع من ارادة المعنى الحقيقي.

خذ مثلاً الآية السابقة {اشْتَرَوْا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى} وهي استعارة تبعية كما عرفت وابتحث عن قرينتها ستجد أن هذه القرينة هي الضلالة. وخذ مثلاً قوله سبحانه: {وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ} وقد عرفت أن الاستعارة في قوله (سكت). وإذا بحثت عن قرينتها وجدتها في كلمة الغضب وهكذا الاستعارات الباقية.

وعلى هذا يمكنك اجراء الاستعارة إجراءً آخر غير الذي عرفته من قبل، عرفت من قبل أننا شَبَّهْنَا الاستبدال بالاشتراء واشتققنا منه (اشتروا) بمعنى (استبدلوا) على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، والوجه الآخر الذي يمكننا أن نجري عليه الاستعارة أن نقول: شَبَّهْتُ الضلالة بالسَّلعة، وحذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو (اشتروا) على سبيل الاستعارة المكنية، ونقول في قوله سبحانه: {وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ} شَبَّهْتُ الْغَضَبُ بِالْإِنْسَانِ، وحذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو السكوت على سبيل الاستعارة المكنية. ونقول في قول ابن المعتز * قَتَلَ الْبَخْلُ وَأَحْيَا السَّمَاخَا * شَبَّهْتُ كُلًّا مِنَ الْبَخْلِ وَالسَّمَاحَةِ بِالْإِنْسَانِ، وحذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو القتل والإحياء.

(١) تفسير الطبري ٧٠/٨، الرمس: القبر، النواعج: جمع ناعجة وهي الناقة السريعة

كل استعارة تصريحية تبعية - كما رأيت إذن - يمكن أن نجريها استعارة مكنية، ولكن حذار أن تجري الاستعارتين معاً فتعدها تصريحية مكنية في وقت واحد، فلا بد أن تلزم الاستعارة حالة واحدة، وأنت مخيرٌ في أيهما شئت، ولكن تبقى قضية الذوق الفصيل فيما ينبغي أن ترجحه من هذين الوجهين، خذ مثلاً قول المتنبي في وصف أسد^(١):

وَرَدُّ إِذَا وَرَدَ الْبُحَيْرَةَ شَارِباً وَرَدَّ الْفُرَاتَ زَّيْبِرُهُ وَالنَّيْلَ

والزئير كما تعلم هو صوت الأسد وليس من شأنه أن يرد وإنما من شأنه أن يصل، فيقال: (وصل صوته إلى كذا) ولا يقال (ورد)، إذن لا بد من استعارة في قوله (ورد) فقد شبه وصول صوت الأسد إلى الفرات بورود الماء بجامع انتهاء كل إلى غايته، ثم استعير لفظ الورود وهو المشبه به إلى الوصول وهو المشبه، واشتق من (الورود)، بمعنى (الوصول) (ورد) بمعنى (وصل) على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، أما أنها تصريحية فلأنها ذكر فيها لفظ المشبه به وهو الورود الذي اشتقت منه (ورد)، وأما أنها تبعية فلأنها جرت في المشتق وهو (ورد)، ويمكنك أن تجري الاستعارة على وجه آخر فتقول شبه الزئير بحيوان ثم حذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو (ورد)، وبقيننا أنه وإن جاز ذلك من الناحية الصناعية إلا أننا لا نرجحه من حيث فنّ الذوق. وهذا ما حرصت أن أنبهك عليه، إلا أنك في اجراء الاستعارة لا ينبغي أن تطغى عليك الناحية الصناعية بل عليك أن تحكم الذوق فيما تختاره وترتأيه، وإليك مثلاً آخر:

قدمت لك قول أبي تمام عند الاستعارة المكنية:

دَيْمَةٌ سَمَحَةُ الْقِيَادِ سَكُوبٌ مُسْتَغِيثٌ بِهَا الثَّرَى الْمَكْرُوبُ

وقد عرفت أن المشبه به محنوف وأن هنا استعارتين مكنية وتخيلية، ولكن يمكنك أن تجري الاستعارة اجراءً آخر فتقول: شبهت حاجة التراب إلى الماء بالاستغاثة، فاستعير المشبه به للمشبه واشتق من الاستغاثة (مستغيث) بمعنى محتاج على طريق الاستعارة التصريحية التبعية، لأن (مستغيث) اسم فاعل، والقرينة التي تمنع من ارادة المعنى الحقيقي (الثرى) لأنه ليس من شأنه أن يستغيث.

قل لي بربك وأنت توازن بين هذا الطريق في اجراء الاستعارة وبين ما قبله، أترتابُ في أن الذوق والفن والجمال الذي يحرك جوانب النفس ويثير مكامن الشعور، إنما هو في الطريق الأول الذي أجريت فيه الاستعارة على أنها مكنية. وخذ مثلاً قول ابن المعتز الذي قدمته لك من قبل * تروم الثريا * حيث أجرينا الاستعارة فذكرنا أنها مكنية تخيلية، وعلى القاعدة التي

عرفت يمكنك أن تجري الاستعارة بطريق آخر تجعلها تصريحية تبعية بأن تشبه سير الثريا بالروم وتستعير المشبه به للمشبه، وتشق من الروم (يروم) بمعنى (يسير)، ولكن هل تجد الحركة والحياة والشباب الذي وجدته هناك؟ اللهم لا!

وتلك قضية اثرت أن أنبهك عليها لأنني لم أجد أحداً من الفضلاء والكاتبين أشار إليها، مع أنها تستحق الإشارة - كما رأيت -

الاستعارة التبعية في غير الفعل

وكما تكون الاستعارة التبعية في الفعل تأتي كذلك في غيره من المشتقات، فمن مجيئها في اسم الفاعل، قولك لأحد التلاميذ: «هذا قاتلك عاقبتُه عقاباً شديداً»، والقتل إزالة الحياة، ولكنك تقصد الضرب المؤلم، فقد شبهت الضرب الشديد بالقتل بجامع الإيلام في كل، ويعد أن استعرت القتل للضرب اشتقت منه (قاتل) بمعنى ضارب على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، والقرينة الخطاب لأن المقتول لا يخاطب. ومن مجيئها اسم مفعول قولك، «هذا مقتول فلان» أي مضروبه، وتقول - وقد سئلت عن كتاب لأحد المستغربين المنتسبين لهذه الأمة باسمائهم - : «إنه مخزون الشر» وتُسأل عن تصريحات لأحد الساسة فتقول: «إنها مجتمع الهزائم»، أو تصف اذاعة الأعداء فتقول: «إنها مرتكز الكذب» فكل من (مرتكز) و (مجتمع)^(١) و(مخزون) اسم مفعول.

ومن مجيئها اسم تفضيل قولك: «هذا أَقْتُلُ من فلان» أي أشد ضرباً. ومن مجيئها في اسم الآلة قولك لمن أراد أمراً من إنسان ما «مفتاحه فلان» تعني صديقاً له أو موظفاً معه، فقد شبهت الصداقة بالفتح بجامع الوصول للغاية في كل، ثم استعير من الفتح (مفتاح) وهو اسم آلة. وقول الرجل لزوجته: «أنت منشار جيبي ومطرقة رأسي» فلقد استعار النشر لفراغ الجيب، والطرق لتعب الرأس واشتق منهما اسمي آلة وهما (منشار) و (مطرقة)، وأن تتحدث عن رجل بأنه (مقراض الأعداء) أو عن أحد اللاهين بأنه (مزمار الحي).

ومن مجيئها اسم مكان قوله سبحانه: (قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ) [يس ٥٢]، فلقد حدثناك من قبل عن الاستعارة في الآية الكريمة من أنها استعارة معقول لمعقول، حيث شبه الموت بالرقاد وكلاهما معقول، وإنما جاز هذا التشبيه لأن الرقاد أمر طبعي فيهم، فهم ينامون ويستيقظون، ثم حذف المشبه، فالاستعارة تصريحية، وهي أصلية - كذلك - لأن مرقد مصدر ميمي بمعنى الرقاد. ولكننا الآن نجري لك

(١) وقد تكون كل من (مجتمع) و (مرتكز) اسم مكان

الاستعارة في الآية الكريمة على وجه آخر، وإياك أن تجد حرجاً في هذا فمن الممكن أن يكون للمثال الواحد أكثر من جهة: فتارة نجعله استعارة، وتارة مجازاً مرسلًا، كما رأينا في مثل قوله سبحانه: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان ٧].

والذي يعنينا هنا أن كلمة (مرقد) في الآية الكريمة يمكن أن تفسر بمكان الرقاد وهو القبر ويقال في إجراء الاستعارة شبه الموت بالرقاد واستعير لفظ المشبه به للمشبه واشتق منه مرقد بمعنى القبر على سبيل الاستعارة التبعية.

ويمكن أن تمثل للاستعارة في اسم الزمان بقولك: «يا للأسف ما بال أمتنا تعيش في مغرب صباها، حبذا لو نشهد مطلع شمسها» فإن المغرب والمطلع اسما زمان - كما تعلم - وأنت تقصد زمان الضعف والقوة، فاستعرت المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، ومثل هذا قولك: «متى نرى مغرب شمس العدو ومرقد» فهنا استعارتان تبعيتان إحداهما في اسم الزمان والأخرى في اسم المكان.

الاستعارة في الحرف:

بقي أن نحدثك عن الاستعارة التبعية في الحرف ولعلك تتساءل: أليس الحرف جامداً والاستعارة التبعية إنما تكون في المشتقات؟ ثم كيف تكون الاستعارة في الحرف والحرف لا يدل على معنى في نفسه؟ إنما يدل على معنى في غيره؟ فكيف تكون الاستعارة في الحرف أولاً؟ ولماذا سميت تبعية مع أن الحرف ليس من المشتقات ثانياً؟ وهي قضية جديرة بالتجلية والبيان.

قسّم النحويون الكلمة إلى اسم وفعل وحرف جاء لمعنى، فالإسم ما دل على معنى في نفسه غير مقترن بزمان، والفعل ما دل على معنى في نفسه مقترناً بزمان والحرف ما دل على معنى في غيره، ألا ترى أن (هل) لا يفهم معناها إلا إذا اقترنت بغيرها، كذلك (من) و (على) و (في)، وبحسب وجود الحرف في الجملة يكون معناه، فإذا قلت: «جئت من البيت إلى المسجد»، «الطلاب في الحجرة»، «صعد على المنصة»، فإننا ندرك أن (من) للابتداء، و(إلى) للانتهاء و(في) للظرفية، و(على) للاستعلاء.

إذا عرفت هذا كله، فاعلم أنهم حينما جعلوا الاستعارة في الحرف فإنهم لم ينظروا إلى الحرف نفسه، وإنما نظروا إلى متعلق معنى الحرف، ومتعلق معنى الحرف من المشتقات ولكي نتصور ذلك لا بد من أن نمر بمراحل ثلاث:

أولاً: الحرف.

ثانياً: معنى الحرف.

ثالثاً: متعلق هذا المعنى.

وسنمثل لك بما يسهل لك هذه القضية إن شاء الله. مثلاً قوله سبحانه يحدثنا عن حقد فرعون وغيظه وهو يقول للسحرة الذين آمنوا برب هارون وموسى: (فَلَا تُطْعَمُونَ أَيَدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا تُصَلِّبُنَا فِي جُذُوعِ النَّخْلِ) [طه ٧١]، وأنت تعلم أن (في) للظرفية، وتعلم كذلك أن التصليب يكون على جذوع النخل - ولا يغرنك ما يقال من أن (في) بمعنى (على) فحروف الجر لا تتناوب كما يرى المحققون - لا بد من معرفة السبب الذي اختيرت من أجله كلمة (في)، وهذا ما سنعرفه عند حديثنا عن الاستعارة في القرآن. إن ما يعيننا الآن اجراء هذه الاستعارة، ولا بأس أن نذكرك قبل هذا الاجراء بالأمور الثلاثة التي حدثناك عنها: الحرف، ومعناه، ومتعلق المعنى. فالحرف (على)، ومعناه الاستعلاء ومتعلق هذا المعنى هؤلاء المستعلون المصلبون على جذوع النخل. والحرف الثاني (في)، ومعناه الظرفية، ومتعلق الظرفية، هؤلاء المظروفون في جذوع النخل.

ففي الآية الكريمة: شبه متعلق معنى (على) بمتعلق معنى (في)، ومعنى (على) الاستعلاء ومعنى (في) الظرفية، فشبه متعلق الاستعلاء بمتعلق الظرفية، أي شبه المستعلي على الشيء بمن هو حال فيه بجامع الثبوت، فشبه المصلوبين وهم على جذوع النخل بمن هو في هذه الجذوع نفسها، هذه الاستعارة التبعية في الحرف. وإليك مثلاً آخر:

يقول الأب عن ابنه العاق «عَلَّمْتُهُ لِيُؤْذِنِي» ألا ترى أن الأب لم يعلم الابن ليؤذيه؟ وإنما علمه ليكرمه، وهذه اللام تسمى لام التعليل، فمن أسباب تعليم الأب لابنه أن يبره ويوقره، ولكن العاقبة كانت شيئاً آخر، فاستعيرت اللام التي هي للعلل للدلالة على العاقبة، بجامع ترتب كل منهما على ما قبله.

ومثل هذا قولنا «ضَحِينًا فَخُضْنَا أَكْثَرَ مِنْ حَرْبٍ مَعَ عَدُونَا لِنُهْزِمَ وَلِنَتَنَازَلَ عَنِ الْأَرْضِ وَالْمَقْدَسَاتِ» ونحن لم ندخل الحرب من أجل هذا إنما دخلناها لنرضي الله ونرفع راية الدين، ونحرر الأرض، ونحمي العرض، لكن عاقبة الحروب كانت - كما نراه الآن - واللام للتعليل - كما عرفت - فشبه متعلق معنى التعليل بما آل إليه الأمر من العاقبة التي رأيت لَتَرْتَّبِ كُلِّ مِنْهَا عَلَى مَا قَبْلَهُ، فإن كلاً من الانتصار، وتحرير الأرض، والتفريط فيها، مترتب على ما قبله وهو دخول الحرب، فالانتصار لا بد له من حرب والنتيجة المخزية تترتب على الحرب كذلك.

واظنك تدرك الآن الاستعارة التبعية في قوله تعالى: (فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ

عَدُوًّا وَحَزَنًا) [القصص ٨]، وهم لم يلتقطوه لهذا، إنما علة الالتقاط أن يكون لهم قرة عين، ولكن لأن كلا من هذين الأمرين: أعني كونه عدواً وحزناً، وكونه قرة عين مترتب على الالتقاط، شبّهت العلة بالعاقبة واستعير معنى اللام الدالة على التعليل للدلالة على العاقبة على سبيل الاستعارة التبعية التصريحية.

وهكذا يمكنك أن تمثل للاستعارة التبعية في الحرف: «المسلم في قمة الجبال مسكنه، بل في الشهب منزلته» والمراد (على).

أما الاستعارة في اسم الإشارة فكقولك: «هذا حق» وأنت تعلم أن الإشارة للمحسوس، ولكننا استعنا اسم الإشارة من المحسوس للمعقول بجامع تحقق الوجود في كل منهما على سبيل الاستعارة التبعية.

أرجو أن يكون قد استبان لك أمر هذه الاستعارة ولنواصل الحديث عن أقسامها. ولنصل الحديث عن أقسام الاستعارة بعبء بعض.

التقسيم السادس: الاستعارة التمثيلية

ما أظنك إلا أنك تذكر تشبيه التمثيل ولا زالت صورته الخلابة البديعة تحتل من نفسك محلها، وتبعث فيك الإعجاب، والحق أن بين الاستعارة التمثيلية والتشبيه التمثيلي نسباً وصله، فالتشبيه التمثيلي - كما رأيت - هو تشبيه مركب، وجه الشبه فيه صورة منتزعة من متعدد، ليس إذن تشبيهاً مفرداً، كذلك الاستعارة التمثيلية، فأنواع الاستعارات التي مرت بك من قبل هي استعارات مفردة، ولذا فهي تسمى مجازاً مفرداً، ولذا يطلق بعضهم على الاستعارة التمثيلية اسم المجاز المركب.

الاستعارة التمثيلية إذن أن تشبه صورة بصورة لما بينهما من صلة من حيث المعنى ثم تحذف الصورة الأولى - المشبه - ويبقى المشبه به، خذ مثلاً قول الله تبارك وتعالى: (وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا) [البقرة ١٨٩]، هدف الآية الكريمة - والله أعلم بمراده - توجيه للمسلمين أن لا ينشغلوا بغير ما يعود عليهم بالخير والفائدة، فلقد سأل الصحابة رضوان الله عليهم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الهلال ما باله يبدو صغيراً ثم يكبر ثم يعود كما بدأ، فارشدهم الله تبارك وتعالى إلى أنه من الأحرى بهم أن يسألوا عما يجديهم، وأن يعيشوا مع واقعهم، وأن تكون للأمور أولوياتها، فقال سبحانه: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْآهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا) فقد شبّهت حالة الذي يعنى بغير ما يجديه، وينشغل بغير واقعه، ويعطي الأولوية في البحث لما من شأنه التأخير، ويترك ما من شأنه أن يُبحث، - كما هو شأن أمتنا اليوم - شبّه حال هذا بحال الذي يأتي البيت من ظهره، فهو مضطر أن ينقب ويخرب ليستطيع دخول البيت، وكان من حقه أن يلج البيت من بابه فهو أيسر من جهة، وليس فيه الضرر والخراب من جهة أخرى. فأنت ترى أنه قد

ذكر المشبه به وهو من يأتي البيت من ظهره ولا يأتيه من بابه وهو صورة مركبة، ألا ما أخوج أمتنا إلى أن تعمل بهذا التوجيه الرباني؛ حتى تستطيع أن تترك غايتها وتلتحق بالركب قبل أن يفوت الأوان، وتصلح من شأنها قبل أن يتسع الخرق على الراقع، ليتها تنبذ هذه الخلافات الجانبية التي لا أقول إنها لا تجديها شيئاً؛ بل إنها - ويعلم الله - تمزق ذاتها وتطمع فيها عدوها فتتهون عليه بعد أن تهون على الله تعالى.

ومن الاستعارة التمثيلية قول النبي صلى الله عليه وسلم: «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين»^(١) وقد قاله صلى الله عليه وسلم لأبي عزة الشاعر، وقد كان يهجو الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين، فلما أسير أظهر الندم، فمن عليه النبي صلى الله عليه وسلم، ولكنه عاد بعد ذلك إلى سيرته الأولى، فلما أسير المرة الثانية، رغب أن يمن عليه، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم هذا القول العظيم، الذي صار مثلاً يضرب.

تلك هي الاستعارة التمثيلية وهي مما اشتهر على السنة الناس حتى أولئك الذين لم يدرسوا البلاغة أو الاستعارة أو المجاز، ألا تسمعهم يقولون لمن يزاول أمراً يمكن أن يكون فيه خطر عليه واضرار به «فلان يلعب بالنار»، ويقولون فيمن لا يسير على سنن أبيه في الصفات الطيبة «النار تخلف رماداً»، ويقولون في عكس هذا «من الشوك يجنى الورد»، وفيمن يعمل عملاً لا طائل تحته «هو يحرق في البحر»، ويقولون في الخطأ يكون سببه كبير القوم: «إن التلم الأعوج من الثور الكبير» يعنون الاعوجاج في حرث الأرض جاء من الثور الكبير لأنهم يحرقون على ثورين، ويقولون لمن باشر العمل بعد انتهائه «يحج الناس راجعون»، ويقولون لمن لا يسد غيرة مسده «إذا حضر الماء بطل التيمم».

والاستعارة التمثيلية يعدونها من أكثر الاستعارات بلاغة وتأثيراً، وإذا اشتهرت صارت مثلاً، وحينئذ لا ينبغي أن يغير فيه شيء، والمثل هو ما شبه مضره بمورده أي تشبه الحالة التي ضرب لها بالحالة التي قيل فيها أول مرة، فإذا لم يحسن انسان عمله ولقي من جراء ذلك ضرراً، قيل له: «يداك أوكتا وفوك نفخ» والوكاء الربط، وهذه الجملة قيلت أول مرة لرجل ملأ قربته من الماء، وبعد أن نفخها وربطها لم يحسن ربطها فلما رفعها حل رباطها، وسقطت من يده، فابتغى المساعدة من بعض الناس ف قيل له: «يداك أوكتا وفوك نفخ» أي: يداك ربطتا القربة وفمك نفخها، فأصبح مثلاً يضرب لكل من تشبه حالته حالة ذلك الشخص.

وهذا مثل آخر يضرب لمن فوت فرصة وضيع شيئاً كان ضمن إمكاناته: «الصيف ضيعت اللبن» وقد قيل أول مرة لامرأة تركت زوجها وأبت أن ترجع إليه، ولكنها فيما بعد أدركت ندمها وطلبت الرجوع، فقال لها: «الصيف ضيعت اللبن» فأصبح يضرب مثلاً لكل من

(١) رواه البخاري - كتاب الأدب - باب (لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين) ٢٢٧١/٥، ومسلم - كتاب (الزهد) - باب (لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين) ٢٩/٤.

تشبه حالته حالة هذه المرأة، فإذا قيل لرجل أو رجال فإنه يقال كما ورد (بكسر التاء). ويقال لمن يظلم ظلماً مزبوجاً، ويحيف على الناس في أكثر من جهة «أَحْشَفًا وَسُوءَ كَيْلِهِ» وسببه أن بعضهم اشترى تمراً فأعطاه البائع تمراً رديئاً من جهة، وبخسه الكيل من جهة ثانية، فقال له «أَحْشَفًا وَسُوءَ كَيْلِهِ» والحشف: التمر الرديء، فيضرب لكل من أشبهت حالته حالة ذلك الشخص.

ومن الاستعارة التمثيلية قولهم لمن يحاول شيئاً لا يستطيعه لعدم قدرته عليه «تبتغي الصيد في عريسة الأسد» وعريسة الأسد مكانه، ومن الاستعارة التمثيلية لمن عاد بعد سفر «عاد السيف إلى قِرابه»، ولمن وسَّد إليه الأمر الذي يستحقه «أَخَذَ القوسَ باريها».

ومن الاستعارات التمثيلية قولهم: «فلان يرقم على الماء»، و«ينفخ في غير فحم»، و«يضرب في حديد بارد»، لمن يعمل العمل لا طائل تحته. ولا يُرجى منه خير.

ومن الاستعارة التمثيلية قولهم: «إنك لا تجني من الشوك العنب»، و«إنما تزرع ما تحصد»، شبهت حال من يريد الخير دون أن يعمل بأسبابه، ومن يرجو الشيء ممن ليس أهلاً له بحال من يريد عنباً من الشوك. ومنه قول الشاعر صالح بن عبد القدوس:

إِذَا وَتَرْتَ امْرَأً فَاحْذَرِ عَدَاوَتَهُ مَنْ يَزْرَعُ الشُّوكَ لَا يَحْصُدُ بِهِ عِنْباً

ومن الاستعارة التمثيلية قول الإمام الشافعي رضي الله عنه^(١):

أَنْتُمْ دُرٌّ بَيْنَ سَارِحَةِ الْفَنَمِ وَأَنْشِدُ مَنْظُوماً لِرَاعِيَةِ النَّعَمِ

فقد شبه حال الذي يلقي الحكم في غير أهلها، والعلم لمن لا يعرف قدره بمن ينثر الدر أمام الماشية، ومن الاستعارة التمثيلية ما يقال للحكيم يضع الأمور في نصابها «أصاب المحزَّ، وطَبَّقَ المفصل»، و«وضع الهناء مواضع النقب»، فقولهم: «أصاب المحز وطبق المفصل» يقال للجزار الذي يضرب بالسكين فيصيب بها المفصل الذي يسهل فيه الحزَّ، وقولهم: «وضع الهناء موضع النقب» والهناء: القطران والنقب: جمع نقبة وهي محل الجرب في الإبل وهو داء يصيب الأنعام.

ومن الاستعارة التمثيلية قولهم: «قَبْلَ الرَّمَاءِ تُمْلَأُ الكَنَائِنُ» والكنانة هي ما توضع فيه السهام، فقد شبهوا حال الذي يريد أن يعمل عملاً قبل أن يعدَّ له عدته بحال الذي يريد الرمي قبل أن يملأ كنانته بالسهام. ومن الاستعارة التمثيلية قولهم لمن قال قولاً حاسماً: «قَطَعْتَ جَهِيْزَةً قَوْلَ كُلِّ خَطِيْبٍ» وقولهم:

إِذَا قَالَتْ حَذَامٌ فَصَدَّقْـوْهَا فَإِنَّ الْقَوْلَ مَا قَالَتْ حَذَامٌ

(١) ديوان الشافعي ص ١١١.

وقولهم: «عندَ جهينةَ الخبرِ اليقين»، ومن الاستعارة التمثيلية قول المتنبي^(١):
وَمَنْ يَكُ ذَا فَمِ مُرٌّ مَرِيضٍ يَجِدُ مُرّاً بِهِ الْمَاءَ الزُّلْالَ
يقال لمن لا يفرق بين الجيد والردى، لأن المتنبي قاله لمن يعيبون عليه شعره.
وأظنك لا يعسر عليك بعد ما عرفت اجراء هذه الاستعارة، وأنت تجد أن المشبه فيها قد
حذف، وذكر المشبه به حيث استعير لفظه للمشبه، ويمكنك أن تجعل من هذه الاستعارة قوله
سبحانه: (حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا) [محمد ٤]، فالمشبه اطفاء نار الكفر.

• هل هناك مجاز مركب غير الاستعارة؟؟

ونتساءل الآن، وقد عرفنا من قبل أن المجاز اللغوي إما أن يكون استعارة أو مجازاً
مرسلاً، نتساءل: هل المجاز المركب في الاستعارة وحدها فحسب؟.

أكثر الكاتبين من الأقدمين يرون أن المجاز المركب كما يكون في الاستعارة يكون في
المجاز المرسَل كذلك، وإن كان كثير من المحدثين لا يشير إلى هذا الموضوع. فالمجاز المرسَل
عندهم قسمان: (مفرد): وهو الذي حدثناك عنه من قبل، (ومركب): ويعنون به كل جملة خرجت
في معناها عن غرضها الأساسي، ولترجع بك ولترجع أنت بذاكرتك كذلك إلى علم المعاني.

عرفت هناك أن الغرض الأساسي من إلقاء الخبر أمران اثنان: الفائدة، ولأزم
الفائدة^(٢)، ولكنك عرفت أن هذا الخبر قد يخرج عن هذين الغرضين الأساسيين إلى أغراض
كثيرة تُعرف من السياق، وقد ذكرنا لك هناك جملة من هذه الأغراض كالتحسر، والاستعطاف،
واظهار الضعف إلى غير ذلك من الأغراض الكثيرة، فقول سبحانه: (رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ
مِنِّي) [مريم ٤]، وقوله سبحانه: (رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى) [ال عمران ٣٦]، وقوله: (كُلُّ نَفْسٍ
ذَائِقَةُ الْمَوْتِ) [آل عمران ١٨٥]، هذه الجمل وأمثالها خرج الخبر فيها عن حقيقته، وكل جملة
من هذا النوع استعملت في غير ما وضعت له لأن الخبر وضع للفائدة أو لازمها، فإذا دلَّ على
شيء آخر، فإن هذه الدلالة لا تكون حقيقية، ألم نعرف المجاز بأنه استعمال اللفظ في غير ما
وضع له؟ وهذه الجمل الخبرية استعملت في غير ما وضعت له، ومثل هذا الاستعمال يعدونه
مجازاً مرسلاً مركباً. ولما كان المجاز المرسَل متعدد العلاقات - كما عرفت من قبل - فإن مثل
هذه الجمل تكون العلاقة فيها اللزومية، لأن كلاً من التحسر، والضعف، والاستعطاف وما
أشبهها لازم للخبر.

(١) ديوان المتنبي ج٣، ص ٢٤٤، الزلال: العذب الصافي الذي يزل في الحلق.

(٢) راجع كتاب (البلاغة فنونها وأفانها) ج١، ص ٦٦ للمؤلف.

خلاصة القول: أن كل جملة خبرية لم يكن الغرض منها الفائدة أو لازمها هي مجاز مرسل مركب علاقته اللزومية، ولا تظن هذا في الجمل الخبرية وحدها فهو في الجمل الانشائية كذلك، وقد عرفت من قبل أن الجمل الانشائية قد تخرج عن موضوعها الأساسي وغرضها الأصلي^(١). عرفت مثلاً: أن أدوات الاستفهام وهو من الانشاء قد تخرج إلى معانٍ كثيرة غير الاستفهام، وكذلك الأمر والنهي، والتمني والنداء، فأَيُّ قسم خرج عن معناه الذي وضع له، وغرضه الذي سيق من أجله فهو مجاز مرسل مركب علاقته اللزومية، فإذا قصد من الاستفهام النفي أو التقرير أو التعجب أو أي غرض آخر فهو مجاز مرسل مركب، وكذلك الأمر إذا قصد به التهديد، أو الارشاد أو التعجيز، فهو مجاز مرسل مركب. وقل هذا في أقسام الانشاء جميعها.

وعلى هذا تدرك أن قوله تعالى: (فَهَلْ أَنتُم مِّنْهُمْ) [المائدة ٩١]، مجاز مرسل مركب علاقته اللزومية لأن صيغة الاستفهام خرجت عن حقيقتها التي وضعت لها إلى معنى آخر هو الأمر، لأن المعنى (إِنْتَهُوا). وأن قوله تعالى: (أَتَخْشَوْنَهُم) [التوبة ١٢]، مجاز مرسل مركب لأن الاستفهام خرج عن حقيقته إلى شيء آخر وهو النهي، وأن قول أبي ريشة:

أُمْتِي هَلْ لَكَ بَيْنَ الْأُمَمِ مِنْبَرٌ لِلْسَيْفِ أَوْ لِلْقَلَمِ

مجاز مرسل مركب لأن أداة الاستفهام خرجت عن حقيقتها إلى معنى آخر وهو التقرير. وأن قوله سبحانه: (اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ) [فصلت ٤٠]، مجاز مرسل مركب، لأن صيغة الأمر فيه خرجت عن مدلولها الذي وضعت له إلى معنى آخر وهو التهديد، والعلاقة في هذا كله اللزومية، هذه المعاني الفرعية لازمة للمعاني الأصلية الرئيسة التي وضعت لها هذه الصيغ أعنى الاستفهام والأمر وغيرهما.

ومن هنا تدرك أن المجاز قسمان: مفرد ومركب، وكما قُسم المفرد إلى استعارة ومجاز مرسل، يقسم المركب أيضاً إلى استعارة ومجاز مرسل، إلا أن الاستعارة تسمى تمثيلية فهي فرع عن تشبيه التمثيل، والمجاز المرسل المركب لا يسمى كذلك، وأن هذا المجاز يكون في جملة خبرية أو انشائية خرجت عن معناها الأصلي. ولنعد الآن لنحدثك عما بقي من أقسام الاستعارة.

(١) راجع كتاب (البلاغة فنونها وأفانها) ج ١ للمؤلف ص ١٠٢ وما بعدها.

التقسيم السابع: تقسيمها من حيث الجامع

الجامع في الاستعارة هو ذلك الذي سميناه وجه الشبه في التشبيه، وإنما كان جامعاً لأننا بوساطته استطعنا أن نجمع بين حقيقتين بعيدة كل منهما عن صاحبتهما، وإلا فكيف استعرنا الصدع للتبليغ، والموج للحركة، والطغيان لارتفاع الماء، والشمس للحسنة، والسحاب للجود، في كل من هذه الأمثلة حقيقتان أو شيئان متباعدان كالشق والتبليغ مثلاً، أو الشمس والحسنة، وهذا الجامع ينبغي أن يكون في المستعار منه وهو المشبه به أقوى منه في المستعار له وهو المشبه.

(١) وقد عرفت أن هذا الجامع قد يكون محسوساً إذا كان طرفاً الاستعارة حسيين مثل قوله سبحانه: (وَأَيُّ لَهِمُّ اللَّيْلِ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ) [يس ٣٧]، وقد يكون معقولاً كقوله تعالى: (بَلْ تَقْدِرُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ) [الانباء ١٨] كما مر معك من قبل فارجع إليها إن شئت.

(٢) كما أن هذا الجامع قد يكون داخلياً في مفهوم الطرفين اعني المستعار له والمستعار منه، وتسمى الاستعارة الداخلية، وقد لا يكون كذلك، بل يكون صفة مشتركة بينهما، ومثال هذا - اعني كونه صفة مشتركة - قولك: «رأيت أسداً يحمي شمساً من الذئاب» - فهذه استعارات ثلاث - فالجامع وهو الشجاعة في الاستعارة الأولى، والحسن في الاستعارة الثانية، والغدر في الثالثة. كل هذه صفات مشتركة بين طرفي الاستعارة، المستعار منه والمستعار له، فالشجاعة صفة مشتركة بين الأسد والرجل، كذلك الحسن بين الشمس والفتاة، والغدر بين الانسان وبين الذئب.

الجامع هنا ليس داخلياً في مفهوم أحد الطرفين، ولعلك تتساءل: ما معنى كونه ليس داخلياً في مفهوم أحد الطرفين؟ وإليك الجواب:

مفهوم أي شيء هو تعريفه وحقيقته، فمفهوم الإنسان الحيوان المفكر الناطق، أو الجسم الحساس المتحرك بالارادة، ومفهوم الأسد الحيوان المفترس، ومفهوم المسجد البناء المعد للعبادة، والجامع الذي ذكرناه في الأمثلة السابقة ليس داخلياً في مفهوم أي من الطرفين، فالشجاعة ليست داخلية في مفهوم الإنسان ولا الأسد، وكذلك الحسن ليس داخلياً في مفهوم الشمس ولا المرأة، لأننا حينما نعرفهما لا نجد كلمة الحسن جزءاً من التعريف. وإذا عرفت هذا فلنرجع إلى القسم الأول وهو ما كان الجامع فيه داخلياً في طرفي الاستعارة.

استمع إلى قوله سبحانه وتعالى: (وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا) [الأعراف ١٦٨]، وإلى

قوله صلى الله عليه وسلم يبين لنا أن خير الناس: «رَجُلٌ مُمَسِّكٌ بَعَنَانَ فَرَسِهِ كَلَّمَا سَمِعَ هَيْعَةً طَارَ إِلَيْهَا»^(١)، وإلى قول الحماسي:

قَوْمٌ إِذَا الشَّرُّ أَبْدَى نَاجِذِيهِ لَهُمْ طَارُوا إِلَيْهِ زُرَافَاتٍ وَوَحْدَانَا

ففي الآية الكريمة استعير التقطيع للتفريق، لأن المراد: (وفرقتهم في الأرض)، والجامع بين التقطيع والتفريق هو انفكاك الأجزاء بعضها عن بعض، وهو في التقطيع أشد وأقوى، وهذا الجامع تجده أمراً لا بد منه في مفهوم كل من التقطيع والتفريق، وإذا أردت أن تعرف التقطيع، عرفته بأنه زوال الأجزاء بعضها عن بعض وكذلك التفريق.

وكذلك في قول النبي صلى الله عليه وسلم، استعير الطيران للعدو، والجامع وهو الاسراع في الحركة للوصول إلى الهدف داخل في مفهوم كل من الطيران والعدو، ويمكننا أن نجري هذا في قوله سبحانه: (وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ) [سبأ ١٩]، إذا فسرنا التمزيق بالتفريق.

(٣) وتنقسم الاستعارة باعتبار الجامع تقسيماً ثالثاً وهو الذي يعيننا أكثر من غيره لما له من أثر في الاستعارة وحسنها وجمالها، وهو تقسيمها من حيث الجامع إلى قريبة وبعيدة أو عامية وخاصية، وبعضهم يطلق على القريبة: (المُبْتَدَلَة) وما نظن أن كل قريبة كذلك. ونرجع بك لتستذكر الحديث عن التشبيه حينما قسمناه إلى قريب وغريب وذكرنا أسباب الغرابة، وعلى ضوء ما قرناه هناك يمكنك أن تدرك أن كل استعارة لا يكون الجامع فيها أمراً يحتاج إلى تأمل، فهي استعارة قريبة كقولك: «رأيت شمساً»، و«وردت بحراً» وأن كل استعارة كان الجامع فيها أمراً يحتاج إلى تأمل واستنتاج، فهي استعارة خاصة، يقول الشيخ عبد القاهر - رحمه الله -:

« اعلم أن من شأن هذه الأجناس أن تجري فيها الفضيلة وأن تتفاوت التفاوت الشديد، أفلا ترى في الاستعارة العامية المبتذل كقولنا: «رأيت أسداً»، و«وردت بحراً»، و«لقيت بديراً» والخاصي النادر الذي لا تجده إلا في كلام الفحول، ولا يقوى عليه أفراد الرجال كقوله:

*** وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ الْمَطِيِّ الْإِبَاطِحُ^(٢) ***

(١) رواه مسلم، كتاب الامارة، باب (فضل الجهاد والرياط) ١٥٠٣/٣. ممسك بعنان الفرس: أي متأهب ومنتظر واقف بنفسه على الجهاد في سبيل الله. هَيْعَة: الصوت عند حضور العدو.

(٢) هذا عجز بيت مختلف في نسبته وهو:

أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ الْأَحَادِيثِ بَيِّنَاتًا
وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ الْمَطِيِّ الْإِبَاطِحُ

والمطي: جمع مطية وهي الدواب والأنعام، والإباطح: جمع بطحاء: وهي الأودية. فهو يقول: إن تلك الأودية لم يجر فيها الماء وإنما جرت فيها أعناق تلك المطي وعبر بالأعناق كناية عن كثرتها وازدحامها وسرعتها في المشي.

أراد أنها سارت سيراً حثيثاً في غاية السرعة. وكانت سرعةً في لين وسلاسة كأنها كانت سيولاً وقعت في تلك الأباطح فجرت بها، ومثل هذه الاستعارة في الحسن واللفظ وعلو الطبقة في هذه اللفظة بعينها قول الآخر:

سَأَلَتْ عَلَيْهِ شِعَابُ الْحَيِّ حِينَ دَعَا أَنْصَارَهُ بِوُجُوهِ كَالْدَّنَانِيرِ^(١)

أراد أنه مطاع في الحي، وأنهم يسرعون إلى نصرته، وأنه لا يدعوهم لحرب أو نازل خَطْبٍ، إلا أتوه وكثروا عليه وازدحموا حواليه، حتى تجدهم كالسيول تجري من ها هنا وها هنا، وتنصب من هذا أو ذاك حتى يغص بها الوادي ويطفح منها.

ومن بديع الاستعارة ونادرها، إلا أن جهة الغرابة فيه غير جهتها في هذا، قول يزيد بن مسلمة بن عبد الملك^(٢) يصف فرساً له، بأنه مؤدب وأنه إذا نزل عنه وألقى عنانه في قَرْبُوس^(٣) سرجه، وقف مكانه إلى أن يعود إليه:

عَوَّدْتُهُ فِيمَا أَزُودُ حَبَائِبِي إِهْمَالَهُ وَكَذَاكَ كُلُّ مُخَاطِرِ

وَإِذَا احْتَبَى قَرْبُوسُهُ بَعْنَانِهِ عَلَكَ الشَّكِيمَ إِلَى أَنْصِرَافِ الزَّائِرِ^(٤)

فالغرابة ها هنا في الشبه وفي أن استدرك أن هيئة العنان في موقعه من قربوس السرج، كالهئية في موقع الثوب من ركبة المحتبى، وليست الغرابة في قوله:

* وسالت بأعناق المطي الأباطح *

(١) بوجوه كالدنانير: أي مشرقة متلألئة مسرورة وذلك من الثقة بشجاعتهم وزهواً بزعيمهم، ولو كانوا خائفين لجأوا متناقلين بوجوه باسرة عليها غيرة الخوف وظلمة الكآبة.

(٢) لا يوجد ذكر لشاعر بهذا الاسم ولعل الصواب أنه لمحمد بن يزيد بن مسلمة بن عبد الملك بن مروان، انظر دلائل الإعجاز - تحقيق ياسين الأيوبي هامش ص ١٢٦.

(٣) القربوس: هو جنو السرج، أي الأعواد المعوجة من عيدانه.

(٤) الاحتباء: هو أن يشد الرجل ركبته إلى بطنه بنحو ثوب يمتد من جانبيه إلى ظهره. ويحتمل أن يكون فاعل احتبى هو (القربوس) بتنزيله منزلة الرجل المحتبى، فكان القربوس ضمَّ الفرس ورأسه إليه بالعنان كما يضم المحتبى ركبته إليه، ويحتمل أن يكون (قربوسه) مفعول (احتبى) مضمناً معني (جمع)، ويكون الفاعل ضميراً عائداً على الفرس، والمعنى: جمع هذا الفرس قربوسه إليه بعنانه كما يضم المحتبى ركبته إليه بثوب ونحوه، والاحتمال الثاني أتم وأدخل في تحقيق التشابه: لأن القربوس في الهيئة أعلى من فم الفرس، وهذه الحالة هي التي تنطبق على حالة الاحتباء، إذ إن ركبتي المحتبى تكونان في الهيئة أعلى من ظهره، والعنان: اللجام، والشكيم والشكيمة: هي الحديدية المعترضة في فم الفرس، وقد أراد بالزائر نفسه، وإنما عبر عن نفسه بالزائر لدلالته على كمال تأدب فرسه. انظر: المنهاج الواضح / حامد عوني ٢٤٢/٣.

على هذه الجملة^(١) وذلك أنه لم يُغَرَّبْ لأنَّ جعل المَطْيِّ في سرعة سيرها وسهولته كالمااء يجري في الأبطح فإن هذا شَبَّهَ معروف ظاهر ولكن الدقة واللفظ في خصوصية أفادها بأن جعل (سال) فعلاً للأباطح، ثم عداه بالباء، ثم بأن ادخل الأعناق في البيت فقال: «بأعناق المطي» ولم يقل بالمطي ولو قال: سالت المطي في الأباطح، لم يكن شيئاً، وكذلك الغرابة في البيت الآخر ليس في مطلق معنى سال، ولكن في تعديته بعلى والباء، وبأن جعله فعلاً في قوله: «شعباب الحي» ولولا هذه الأمور كلها لم يكن هذا الحسن، وهذا موضع يدق الكلام فيه. وهذه أشياء من هذا الفن.

اليومُ يَوْمَانِ مُذْ غُيِّبْتَ عَنْ بَصَرِي نَفْسِي فِدَاؤُكَ مَا ذَنْبِي فَأَعْتَذِرُ
أُمْسِي وَأُصْبِحُ لَا أَلْفَاكَ وَاحْزَنَّا لَقَدْ تَأَنَّقَ فِي مَكْرُوهِ الْقَدَرِ^(٢)
- سوار بن المضرب وهو لطيف جداً:

بِعَرَضٍ تَنُوفَةٍ لِلرَّيْحِ فِيهَا نَسِيمٌ لَا يَرُوعُ التُّرْبَ وَإِنْ^(٣)
- بعض الأعراب^(٤):

وَلَرُبَّ خَصَمٍ جَاهِدِينَ نَوِي شَذَا تَقْذِي عِيُونُهُمْ بِهِتْرٍ هَاتِرٍ
لُدَّ ظَارَتْهُمْ عَلَى مَا سَاءَهُمْ وَخَسَأَتْ بَاطِلُهُمْ بِحَقِّ ظَاهِرٍ^(٥)
- ابن المعتز^(٦):

(١) أي على هذا النمط.
(٢) اليوم يومان: يريد أن طول اليوم تضاعف عليه لآلم البعد، تأنق في مكروهي القدر: أي تفنن في تعذيب القدر، تأنق في الشيء: أي اتقنه وجوَّده وتفنن فيه.
(٣) تنوفة: الأرض الواسعة البعيدة الأطراف التي لا ماء بها ولا أنيس، وإن: من الونى وهو الضعف أو التعب، فانظر كيف وصف النسيم بالضعف والتعب لأنه لا يثير التراب، وانظر إلى تعبيره عن إثارة التراب بـ (يروع).
(٤) وهو ثعلبة بن صغير ويقال: ابن أبي صغير، المفضليات رقم (٤).
(٥) الشذا: الحدة والأذى والشر، تقذي عيونهم: أي تقذف القذى وهو الوسخ الأبيض في مجرى الدمع. وهناك رواية (تقذي صبورهم) الهتر: سقط القول وباطله. اللد: جمع ألد وهو الشديد الخصومة، والظار: أن تجعل أربع نياق فلكثر على حوار واحد ترضعه، يريد أنه جمع عليهم حججاً كثيرة، وفي كتب اللغة ظأره على ما يسوءه: أكرهه على الشيء وأصله: حمل الناقة على ارضاع حوارٍ غيرها.
(٦) ديوانه (من الطرديات) ص ٢٧.
(٧) في الديوان: (حتى إذا ما عرف الصيد الضار) أي الضاري: وهو الكلب ومعنى (أنصار): أي انضم وانجمع أو مال، يصف بازي الصيد.

حتى إذا ما عرف الصيّد أنصَّارُ وأذن الصبحُ لنا في الإبصارُ (٧)
 المعنى: حتى إذا تهيأ لنا أن نبصر شيئاً، لما كان تعذر الإبصار منعاً من الليل، جعل
 مكانه عند ظهور الصبح اذناً من الصبح. وله (١):

بَخِيلٌ قَدْ بَلِيَتْ بِهِ يَكْدُ الْوَعْدِ بِالْحَجَجِ (٢)
 وله (٣):

يُنَاجِنِي الْإِخْلَافُ مِنْ تَحْتِ مَطْلِهِ فَتَخْتَصِمُ الْأَمَالُ وَالْيَأْسُ فِي صَدْرِي (٤)
 ومما هو في غاية الحسن - وهو من هذا الفن - قول الشاعر وأنشده الجاحظ (٥):
 لَقَدْ كُنْتُ فِي قَوْمٍ عَلَيْكَ أَشْحَةٌ بِنَفْسِكَ إِلَّا أَنْ مَا طَاحَ طَائِحُ
 يَوْبُونَ لَوْ خَاطُوا عَلَيْكَ جُلُودَهُمْ وَلَا تَدْفَعُ الْمَوْتَ النَّفُوسُ الشَّحَائِحُ (٦)
 قال:

وإليه ذهب بشار في قوله (٧):
 وَصَاحِبٍ كَالدُّمْلِ الْمُمِدِّ حَمَلْتُهُ فِي رُقْعَةٍ مِنْ جِلْدِي
 ومن سرُّ هذا الباب أنك ترى اللفظة المستعارة قد استعيرت في عدة مواضع، ترى لها
 في بعض ذلك ملاحظة لا تجدها في الباقي، ومثال ذلك أنك تنظر إلى لفظة (الجسر) في قول

(١) ديوانه ١/٢٣١.

(٢) يكد الوعد بالحجج: أي يدفع الوعد بإيراد الحجج، وهناك رواية أخرى وهي:

بخيلٌ قد شقيتُ به يكد الوعد (بالحجج)

واللجج: هو التماذي في الناد.

(٣) ديوانه ٢/٢٥٩.

(٤) الاخلاف: اخلاف الوعد، المظل: المماثلة بالوعد وعدم الوفاء به.

(٥) البيان والتبيين ١/٥٠.

(٦) طاح: هلك، أي ما هلك، وقُدِّر له الهلاك فهو طائح: أي هالك لا محالة، لا يردُّ عنه الهلاك رادُّ.

(٧) ديوانه ٢/٢٢٧، المُدُّ: من أمد الجرح أي حصلت فيه المدة وهي ما يجتمع في الجرح أو الدمل من قيح.

(٨) ديوانه ١/٢٠٠، والقصيد في مدح المعتصم بالله، يجتاب: يقطع المسافة، واللجة: معظم الماء.

أبي تمام^(٨):

لَا يَطْمَعُ الْمَرْءُ أَنْ يَجْتَابَ لُجَّتَهُ بِالْقَوْلِ مَا لَمْ يَكُنْ جِسْراً لَهُ الْعَمَلُ
وقوله^(١):

بَصُرْتُ بِالرَّاحَةِ الْعُظْمَى فَلَمْ تَرَهَا تُتَالِ إِلَّا عَلَى جِسْرٍ مِنَ التَّعَبِ
فترى له في الثاني حسناً لا تراه في الأول ثم تنظر إليها في قول ربعة الرقي^(٢):
قُولِي نَعَمْ، وَنَعَمْ إِنْ قُلْتَ وَاجِبَةً قَالَتْ عَسَى، وَعَسَى جِسْرٌ إِلَى نَعَمْ
فترى لها لطفاً وخلاصة وحسناً ليس الفضل فيه بقليل.

ومما هو أصل في شرف الاستعارة أن ترى الشاعر قد جمع بين عدة استعارات قصداً
إلى أن يلحق الشكل بالشكل، وأن يتم المعنى والشبه فيما يريد. مثاله قول امرئ القيس^(٣):
فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ وَأَرْدَفَ أَعْجَازاً وَنَاءً بِكُلِّ كَلٍ
لما جعل الليل صلباً قد تمطى به ثني ذلك فجعل له أعجازاً قد أردف بها الصلب، وثلاث،
فجعل له كلكلاً قد ناء به فاستوفى له جملة أركان الشخص وراعى ما يراه الناظر من سواده
إذا نظر قدامه وإذا نظر إلى خلفه وإذا رفع البصر ومده في عرض الجو^(٤).

ومن كلام الشيخ ندرك أن الاستعارة قد تكون قريبة من حيث الجامع، ولكن مجيئها
على نظم مخصوص يكسبها جمالاً وروعة، ويزيدها حسناً وابداعاً، وقد مثل الشيخ بما سمعت
من قبل. * وسالت بأعناق المطي الأباطح * ويقول الآخر:

سَأَلْتُ عَلَيْهِ شِعَابُ الْحَيِّ حِينَ دَعَا أَنْصَارَهُ بِوُجُوهِهِ كَالدُّنَانِ سِيرِ
وأنت تعلم أن استعارة السيل لسرعة السير أمر مألوف ومعروف، ولكن القالب الذي
وضعت فيه الاستعارة أكسبها هذه القشابة^(٥) والطلاوة، فلم يقل سألت المطي الأباطح، ولم

(١) ديوانه ١٧/١، والقصيدة في مدح المعتصم أيضاً.

(٢) ديوانه ص ٩١.

(٣) سبق شرح البيت ص ١٢٣.

(٤) دلائل الإعجاز ص ١١٧.

(٥) القشيب: الشيء الجديد التنظيف الحسن.

يقول * سال عليه أنصاره * ولو قيل هذا لكانت الاستعارة قريبة ليس فيها رُوح حسن ولا ربح عطر، ولكنه أسند السيل للأباطح مع أنه حري به أن يسند للمطي، ثم ذكر كلمة الأعناق وهي لفظة من الشيخ أفاد منها كل من جاء بعده.

وقد تكون الاستعارة قريبة كذلك، إلا أنها تتضمن معنى لتصبح ذات غرابة فتدخل في سلك الاستعارات البعيدة الخاصة. انظر إلى قول المتنبي^(١):

لَمْ تَلَقْ هَذَا الْوَجْهَ شَمْسُ نَهَارِنَا إِلَّا بِوَجْهِهِ لَيْسَ فِيهِ حَيَاءُ
ألا ترى أن قوله «ليس فيه حياء» هو الذي خلع على هذا البيت الحياة.

والخلاصة أن الاستعارة الخاصة هي التي يبدع فيها المتكلم، فيجمع بين الأشياء التي تكون أكثر غرابة، انظر إلى قول كثير يمدح عبد العزيز بن مروان^(٢):

غَمَرُ الرَّدَاءِ إِذَا تَبَسَّمَ ضَاحِكًا غَلَقَتْ لِضِحْكِهِ رِقَابُ الْمَالِ
ألا ترى أن استعارة الرداء للعطاء لا يفسد لها كل واحد، فكما أن الرداء يستر صاحبه ويقيه كل شر؛ فإن العطاء كذلك يرد عنه كثيراً من المنال.

ومن الاستعارات البديعة الغريبة ما ذكره صاحب العمدة لطُفَيْلُ الغَنَوِي، وهو ممن أعجب به أئمة اللغة كتغلب وغيره^(٣):

فَوَضَعْتُ رَحْلِي فَوْقَ نَاجِيَةٍ يَقْتَاتُ شَحْمَ سَنَامِهَا الرَّحْلُ
وفي رواية (جَعَلْتُ كُورِي فَوْقَ نَاجِيَةٍ)، والناجية الناقة السريعة، وهو كناية عن أنه كثير الأسفار لا يريح ناقته أبداً، والاستعارة التي تعنينا في قوله «يققات شحم سنامها الرجل»، أن وجود الرجل على الناقة دائماً ينتقص من شحم سنامها، ذلك لما في كثرة السفر وطوله من المشقة على الناقة، فعبر عن انتقاص الرجل من الشحم بالاقتيات، فشبّه الانتقاص بالاقتيات لأن في كليهما إزالة، فالاقتيات فيه إزالة للقوت، وكذلك الانتقاص، ثم اشتق من الاقتيات (يققات) بمعنى (ينتقص)، وهي استعارة تصريحية تبعية كما عرفت، ولك أن تجري الاستعارة

(١) ديوان المتنبي ١/١٥٥، يقول: لا حاجة للشمس مع ضياك ونورك، ومن ثم كان طلوعها وقاحةً منها وقلة حياء، واستعار للشمس وجهاً للمشكلة.

(٢) شروح التلخيص ٤/٣٥٥، الإيضاح ٢/١٧١، غمرُ الرداء: كناية عن الكرم وسعة الفضل، غلقت: أي استحقت لسواه كما يقال: (غلق الرهن) أي أصبح المرهون حقاً للراهن، رقاب المال: أي ازمئتها، فقد شبهها بالماشية، والمعنى (أن من كرمه أن مجرد ابتسامة في وجه من يسأله تكفي لأن يصبح المال حقاً للسائل).

(٣) العمدة لابن رشيقي ١/٢٧٤.

بوجه آخر، وهو أن يشبه الرجل بذى حياة، ويحذف المشبه به ويرمز له بشيء من لوازمه وهو (يقتات) على سبيل الاستعارة الأصلية المكنية، واسناد الاقتيات إلى الرجل استعارة تخييلية، فانظر أي الطريقتين تبتهج بها نفسك ولا تنس القاعدة التي أرشدتك إليها من قبل.

- وفي هذا المعنى يقول كلثوم بن عمرو العتابي:

وَمِنْ فَوْقِ أَكْوَارِ الْمَهَارَى لِبَانَةٌ أَحَلَّ لَهَا أَكْلَ الذُّرَى وَالْغَوَارِبِ^(١)

والذرى والغوارب: جمع ذروة، وغارب: ومنه المثل: «لا زال يقتل له في الذروة والغارب» وهو مثل يضرب لمن يتصنع ويتلطف لإنسان ما حتى يبلغ حاجته منه، شبهت حاله بحال من يتلطف للبعير حتى يذله، فهي استعارة تمثيلية.

وشبيه به قول أبي تمام^(٢):

فَقَدْ أَكَلُوا مِنْهَا الْغَوَارِبَ بِالسُّرَى فَصَارَتْ لَهَا أَشْبَاحُهُمْ كَالْغَوَارِبِ

وزاد أبو تمام على صاحبيه تشبيهاً بديعاً كما رأيت.

ومن الاستعارة الخاصة قول الشاعر:

عَزَمَاتُهُ مِثْلُ النُّجُومِ ثَوَاقِبًا لَوْ لَمْ يَكُنْ لِلثَّاقِبَاتِ أَقْوَلُ^(٣)

«فإن تشبيه العزم بالنجوم في الثقوب - وهو النفوذ - مبتذل قريب ولكن وصف الأفول وعروضه للثاقبات دون العزمات، وما في ذلك من الدلالة على أن المشبه أتم من المشبه به في وجه الشبه. أبرز التشبيه في صورة ممتعة وكساه خيالاً بديعاً رائعاً»^(٤).

ويُعد من هذا الضرب قول أبي دلالة يصف بغلته^(٥):

أَرَى الشَّهْبَاءَ تَعْجِزُنْ إِذْ غَدَوْنَا بِرِجْلَيْهَا وَتَخْبِزُنْ بِالْيَدَيْنِ

«شبه حركة رجليها حيث لم تثبتا على موضع تعتمد بهما عليه، وهوتا ذاهبتين نحو

(١) المرجع السابق، أكوار: جمع كُور: وهو القطيع من الإبل أو البقر المهارى: وفي رواية المطايا، لبانة: الحاجة من غير فاكة الذرى: جمع ذروة: وهي أعلى السنام، الغوارب: جمع غارب: وهو السنام.

(٢) ديوان أبي تمام ٢٠٩/١ والبیت من قصيدة في مدح أبي دلف القاسم العجلي، الغوارب: مرّ في البيت السابق. يقول: إنهم ارهقوا المطايا وأنهكوها في السير حتى ذابت استميتها وبنوا وهم على متونها كأنهم أسنمة لها.

(٣) عزماته: جمع عزمة وهي التصحيح والعزم، الثواقب: النوافذ في الظلمات، الأفول: الغروب، وجواب الشرط محذوف تقديره: (لتم التشبيه).

(٤) المنهاج الواضح / حامد عوني ١٥٩/٣. (٥) شروح الايضاح ٣٩/٥.

(٦) أسرار البلاغة ص ٢٢٠

يديها بحركة يدي العاجن فإنهما لا تثبتان في موضع بل تَزَلَّانِ إلى قُدَامِ لرخاوة العجين، وشبه حركة يديها بحركة يدي الخابز، فإنه يثني يده نحو بطنه، ويحدث فيها ضرباً من التقويس»^(٦).

وبالجملة فإن في ثنايا تراثنا الأدبي كثيراً من هذه الاستعارات البديعة ونرجوا أن يكون ما ذكرناه نافعاً لك، ودافعاً يدفعك للتقريب ويدفع عنك التثريب.

لَا تَقْلُ قَدْ ذَهَبَتْ أَرْبَابُهُ كُلُّ مَنْ سَارَ عَلَى الدَّرْبِ وَصَلْ

التقسيم الثامن: تقسيم الاستعارة باعتبار

الملائم إلى مرشحة ومجرّدة ومطلقة

هذا التقسيم للاستعارة ليس باعتبار أحد أجزائها، وليس باعتبار الطرفين، وليس باعتبار الجامع كذلك، وإنما هو باعتبار ما يناسب ويلئم أحد طرفي الاستعارة - أعني المستعار له أو المستعار منه -، ولذا آثرت تأخير هذا التقسيم، لأنه يتعلق بشيء خارج أركان الاستعارة وعناصرها، وهو مما يدق مسلكه، لذا أرجو أن تتنبه له فتجد له سيرك، وتكد له فكرك وهو حري بذلك كله.

عرفت أن أركان الاستعارة المستعار والمستعار منه والمستعار له، فالمستعار هو لفظ المشبه به، والمستعار منه معناه، والمستعار له هو المشبه وإذا نظرت إلى أي استعارة ما، سواء كان مما ذكرناه لك، أم مما لم يذكر فإنك ستجد أنها قد يذكر معها ما يناسب المشبه به - أعني المستعار والمستعار منه -، أو ما يناسب المشبه وهو المستعار له، بيان ذلك:

إن الاستعارة جمعت بين حقيقتين مختلفتين، وكل منهما لها أوصاف خاصة بها، فالمستعار له، له أوصاف تختص به لا يتصف بها المستعار منه، كذلك المستعار منه يتصف بأوصاف لا يمكن أن يتصف بها المستعار له، إذا قلت «رأيت بحراً» فالمستعار وهو البحر له أوصاف خاصة به كتلاطم الأمواج، واللجة، والساحل، والعمق، وكثرة الدُرِّ، والمستعار له وهو الإنسان له أوصاف خاصة به كذلك كالشمس، والعطاء باليدين، والابتسام. وإذا قلت: «رأيت أسداً» فإن المستعار وهو الأسد له أوصافه الخاصة به كالزئير، وتلبد الشعر، وطول الأظفار. وللمستعار له أوصاف خاصة به كذلك، كالضرب بالسيف، والرمي بالنبال، وحمل السلاح، وإذا قلت: «رأيت شمساً» فإن المستعار وهو الشمس له أوصافه الخاصة به كالتوهج والرفعة، والمستعار له، له أوصافه كذلك كالتبسم والشمي والحياء.

ومما ييسر لك هذا الأمر أن نذكرك بقرينة الاستعارة وبخاصة في قسميها التصريحية والمكنية، إن أي استعارة تصريحية إذا بحثت عن قرينتها فإن هذه القرينة هي مما يلائم

المشبه ويناسبه، ألا ترى إلى قوله سبحانه: (وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ) [الكهف ٩٩]، هذه استعارة تصريحية، لأنه شبه اضطراب يأجوج ومأجوج بالموج، وإذا بحثت عن قرينة هذه الاستعارة فلن تجدها إلا كلمة (بعضهم) و (في بعض) وأظنك لا ترتاب بأن هذا يلائم المشبه ولا يلائم المشبه به.

وإذا نظرت إلى قوله:

* شمس تظللني من الشمس *

فإن القرينة هنا (تظللني) وهي مما يلائم المشبه، وإذا قرأت قوله سبحانه: (أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَىٰ) [البقرة ١٦]، فهذه استعارة تصريحية لأنه شبه الاستبدال بالاشتراء، والقرينة (الضلالة) وهي مما يلائم المشبه، وأخيراً:

* فقلت إليك إن معي السحابا *

استعارة تصريحية والقرينة (معي) وهي تلائم المشبه.

أما الاستعارة المكنية فلقد عرفت أنها هي التي يحذف منها المشبه به، ويرمز له بشيء من لوازمه، فالقرينة في الاستعارة المكنية تلائم المشبه به. ألا ترى إلى قوله سبحانه: (وَآخِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ) [الإسراء ٢٤]، وقوله: (يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ) [البقرة ٢٧]، وقول الشاعر:

* وإذا النية انشبت أظفارها *

وقد ذكرنا لك هذا من قبل.

قرينة الاستعارة التصريحية تلائم المشبه إذن، وقرينة الاستعارة المكنية تلائم المشبه به، إلا أننا في تقسيمنا هذا نبحث عن شيء غير القرينة زائد عليها، فهم يقسمون الاستعارة بعد استيفاء قرينتها إلى مرشحة ومجردة ومطلقة، ذلك أن الاستعارة إذا ذكر معها ما يلائم ويناسب المشبه به فهي المرشحة أو الموشحة، والترشيح هو التقوية، يقال: رشحت الصبي باللبن إذا قويته، وإنما كانت كذلك، لأن الاستعارة قائمة على تناسي التشبيه، وأنت تستعير لفظ المشبه به للمشبه، فإذا ذكرت معها ما يلائم المشبه به فقد زدتها قوة لأنك تناسيت المشبه تناسياً تاماً. أما إذا ذكر مع الاستعارة ما يلائم المشبه فهي استعارة مجردة لأنك جردتها مما يناسب المشبه به، ونزلت بها عن رتبته السابقة بذكرك معها ما يلائم المشبه، فكأنك تشير إليه وتذكر به من نسيه. أما إذا لم يذكر معها شيء من هذين - أي ما يلائم المشبه به أو المشبه -

فهي الاستعارة المطلقة، وإنما كانت مطلقة لخلوها عن الترشيح والتجريد، وهناك حالة ثانية للمطلقة كذلك، وهي أن يُذكر معها الأمران، أي ما يلائم المشبه به وما يلائم المشبه، ومن هنا تدرك أن قرينة الاستعارة التصريحية، وإن كانت تلائم المشبه إلا أن الاستعارة لا تسمى مجردة، وأن قرينة الاستعارة المكنية وإن كانت تلائم المشبه به إلا أن الاستعارة لا تسمى مرشحة، لأن الترشيح والتجريد لا يكون لهما دور إلا بعد أن تستوفي الاستعارة قرينتها. وأعلى هذه المراتب الترشيح ثم الاطلاق وأضعفها التجريد لما عرفت من قبل.

خلاصة القول أن الاستعارة تنقسم إلى مرشحة ومجردة ومطلقة، فالمرشحة ما ذكر معها ما يلائم المشبه به، والمجردة ما ذكر معها ما يلائم المشبه، والمطلقة ما لم يذكر معها شيء، أو ذكر الملائمان معاً، والترشيح والتجريد لا يكونان إلا بعد أن تستوفي الاستعارة قرينتها، وأظنك قد استوعبت هذا كله من الناحية النظرية ولتعد نفسك الآن لتقطف ثمرة هذا الغرس بما ستتوقه من الناحية التطبيقية العملية.

أولاً: الاستعارة المرشحة:

(١) قال تعالى: (إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) [الفاتحة ٦] هذه استعارة تصريحية - كما عرفت من قبل -، فقد استعير الصراط للإسلام، والقرينة طلب الهداية من الله، أما كلمة مستقيم فإنها تناسب الطريق وتلائمه، إذن ذُكر الاستقامة ترشيحاً للاستعارة.

(٢) قال تعالى: (أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهَدَىٰ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ) [البقرة ١٦]، استعير الشراء للاستبدال - كما عرفت من قبل - على سبيل الاستعارة التصريحية، والقرينة الضلالة، لأنها تستبدل ولا تُشتري. بقي قوله تعالى: (فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ) وهذا الوصف يناسب المستعار وهو الاشتراء، الاستعارة مرشحة إذن.

(٣) قال تعالى: (بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ) [الأنبياء ١٨]، والقذف والدمغ مستعاران - كما عرفت من قبل - لغلبة الحق وذهاب الباطل، وقوله سبحانه: (فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ) يلائم المشبه به فالاستعارة مرشحة.

(٤) قال تعالى: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا...) [الملك ١٥]، حيث شُبِّهَت الأرض بالحيوان، ثم ذكرت المناكب وهي للحيوان، وليس الترشيح إلا هذا.

(٥) قال أحد الصعاليك وهو أبو خراش وله قصة معروفة^(١):

فَلَيْسَ كَعَهْدِ الدَّارِ يَا أُمَّ مَالِكٍ وَلَكِنْ أَحَاطَتْ بِالرَّقَابِ السَّلَاسِلُ
وقد كان بينه وبين هذه المرأة صلة في الجاهلية فلما أسلم بيّن لها أن الأمر قد تغير، وأن الإسلام قد حال بينه وبين الفحش والرذيلة، فشبّه الإسلام بالسلاسل، وحذف المشبه على سبيل الاستعارة التصريحية، والقرينة معنوية بالطبع، وذكر الاحاطة بالرقاب مما يلائم المشبه به وهي السلاسل، وهكذا ندرك أن الاستعارة مرشحة.

(٦) قال البحتري:

وَأَرَى الْمَنَايَا إِن رَأَتْ بِكَ شَيْبَةً جَعَلَتْكَ مَرْمَى نَبْلِهَا الْمُتَوَاتِرِ
فقد شبه المنايا بالانسان، القرينة (أرى) لأن المنايا لا تُرى كما تعلم، وقوله: «مرمى نبلها» شيء يلائم المشبه به، لأن الانسان هو الذي يُرمى بالنبل فهي استعارة مرشحة.

(٧) وقال السري الرفاء^(١):

وَقَدْ كَتَبْتُ أَيْدِي الرَّبِيعِ صَحَائِفًا كَأَنَّ سَطُورَ الْبَرْقِ حُسْنًا سَطُورُهَا
فهذه استعارة مكنية حيث شبه الربيع بالانسان، ورمز له بشيء من لوازمه وهي الأيدي، وضافتها للربيع على سبيل الاستعارة التخيلية والتخيلية قرينة المكنية - كما عرفت من قبل - وقوله صحائف ترشيح لأنه يلائم المشبه به وهو الانسان.

(٨) وأظنك لو تأملت قول المتنبي^(٢):

أَتَى الزَّمَانُ بَنُوهُ فِي شَبَابِهِ فَسَرُّهُمْ وَأَتَيْنَاهُ عَلَى هَرَمٍ
أدركت أن فيه استعارة مرشحة حيث شبه الزمان بانسان، وقد استوفت الاستعارة قرينتها وهي في قوله: «أتى الزمان بنوة» ثم ذكر الشبيبة والهرم، وهي تلائم المشبه به.

(١) ديوان السري الرفاء ص ٢٢٣.

(٢) ديوان المتنبي ٢٩٦/٤.

(٣) ديوان أبي تمام ٣٧٥/٢، والقصيدة في مدح أبي دلف.

(٩) كذلك قول أبي تمام (٣):

نَامَتْ هُمُومِي عَنِّي حِينَ قُلْتُ لَهَا هَذَا أَبُودُلْفٍ حَسْبِي بِهِ وَكَفَى
تجد فيه استعارة مرشحة كذلك، حيث شبه الهموم بانسان، وحذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو قوله (نامت) وهذا الفعل هو قرينة الاستعارة المكنية، فقد استوفت الاستعارة قرينتها كما رأيت. أما قوله: «فقلت لها» فهو يلائم المشبه به، لأن الهموم لا تخاطب فالاستعارة مرشحة.

ثانياً: الاستعارة المجردة:

(١) قال تعالى: (وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتُهُ كَالرَّمِيمِ) [الذاريات ٤١]، شبه الريح الذي ليس فيه مطر بالمرأة التي لا تلد، فلفظ العقم خاص بالمرأة وقد استعير للريح، والاستعارة تصريرية وقد استوفت قرينتها، ثم قال سبحانه: (مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتُهُ كَالرَّمِيمِ) [الذاريات ٤٢]، وهذا وصف يناسب الريح ويلئمها، فقد ذكر في هذه الاستعارة ما يلائم المشبه فهي مجردة.

(٢) قال تعالى: (وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ سَخَرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا) [الحاقة ٦]، فقد شبهت الشدة بالعتو، فالاستعارة تصريرية، ثم قال: (سَخَرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ) وهذا يناسب الشدة ويلئمها، فالاستعارة مجردة.

(٣) قال سبحانه: (فَإِذَا قَامَ اللَّهُ لِبَاسِ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ) [النحل ١١٢]، فقد شبه الجوع وما يتركه من أثر في النفس باللباس الذي يحيط بالجسم كله، والاذاقة تلائم المشبه وهو الجوع، فالاستعارة مجردة، ولو قال كساها الله لكانت مرشحة، لأن الكسوة مما يناسب اللباس، وسيأتيك عن هذه الاستعارة البديعة مزيد تفصيل.

(٤) قال أحد شعراء الجاهلية (١):

(١) شرح ديوان الحماسة.

(٢) ديوان المتنبي ٣/٢٤٩، أن عزم: أي لأجل أن عزم.

دَعَوْتُ بَنِي قَيْسٍ إِلَيَّ فَشَمَّرْتُ خَنَازِيذُ مِنْ سَعْدٍ طِوَالُ السَّوَاعِدِ
فقد استعار الخنازيد، وهي كرام الخيل لكرام الرجال، وذكر التشمير وهو مما يلائم
المشبه وهم الرجال.

(٥) قال المتنبي^(٢):

فِي الْخَدِّ أَنْ عَزَمَ الْخَلِيطُ رَحِيلاً مَطَرْتُ زَيْدُ بِهِ الْخُدُودُ مُحُولاً
المستعار المطر، والمستعار له الدمع، والقرينة قوله: «في الخد»، ثم قال: «تزيد به الخدود
محولاً» وهذا مما لا شك يناسب الدمع ويلائمه، ولما كان الدمع هو المشبه كانت الاستعارة مجردة.

(٦) وقال المتنبي^(١):

وَحَجَّبَتِ النَّوَى الظُّبَيَّاتِ عَنِّي فَسَاءَعَدَتِ الْبَرَاقِعَ وَالْحِجَالَ^(٢)
المستعار الظبيات، والمستعار له الحسناوات، وقد استوفت الاستعارة قرينتها في قوله:
(وحجبت النوى)، وذكر البراقع والحجال يناسب المشبه ويلائمه، لأن البراقع والحجال ليست
من صفات الأطباء، الاستعارة إذن مجردة.

(٧) وقال سعيد بن حميد^(٣):

وَعَدَ الْبَدْرُ بِالزِّيَارَةِ لَيْلاً فَإِذَا مَا وَفَى قَضَيْتُ نُثُورِي
المستعار البدر والمستعار له المرأة الواعدة، وقد استوفت الاستعارة قرينتها، وهي
قوله «في الزيارة» ثم قال: «إذا وفى» وهذا وصف يلائم المشبه فالاستعارة مجردة.

ثالثاً: الاستعارة المطلقة:

وقد عرفت أن المطلقة قسمان ما لا يذكر معه شيء مما يلائم المشبه أو المشبه به، أو ما
يذكران فيهما معاً، وسنمثل لك لكل واحد من هذين على حدة، فمن القسم الأول الذي لم يذكر
فيه شيء مما يلائم المشبه والمشبه به.

قال تعالى: {إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَا كُرْفِي الْجَارِيَةِ} [الحاقة ١١]، وقوله سبحانه:

(١) ديوان المتنبي ٣/٢٢٨.

(٢) النوى: البعد والفراق، الحجال: الخدود. يقول: لما ارتحلوا احجبهم عن عيني، فساعدت النوى ما كان يحجبهن عني
من قبل من البراقع والخدود.

(٣) طبقات ابن المعتز ٢٠٠ - ٢٠١، أسرار البلاغة ص ٢٩١.

(لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) [إبراهيم ١]، وقوله سبحانه: (ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ) [النساء ٢٥]، وقوله سبحانه: (وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ) [الأعراف ١٥٤].

قال قُرَيْطُ بْنُ أُنَيْفٍ:

قَوْمٌ إِذَا الشَّرُّ أَبْدَى نَاجِذِيهِ لَهُمْ طَارُوا إِلَيْهِ زُرَاقَاتٍ وَوُحْدَانَا
وهذه استعارة مطلقة فقد شبه الشر بالسبع، والقرينة أبدى ناجذيه ولم يذكر في البيت شيء يلائم المستعار أو المستعار له.

القسم الثاني: ولنمثل لك للاستعارة المطلقة التي ذكر فيها ما يلائم الطرفين:

تقول: «تعال إلى بحرٍ يُفَرِّقُ من يعانده ويرفق بمن يسانده» فقولنا يفرق يناسب المستعار وقولنا يرفق يناسب المستعار له، وقال بدر بن يوسف الذهبي:

هَلُمَّ يَا صَاحِ إِلَى رَوْضَةٍ يَجْلُو بِهَا الْعَانِي صَدَا هَمِّهِ
نَسِيمُهَا يَعْتَرِفُ فِي ذَيْلِهِ وَزَهْرُهَا يَضْحَكُ فِي كُمَّهِ

في قوله: «همه» استعارة مكنية شبه فيها الهم بمعدن يصدأ، وحذف المشبه به، ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو صدأ، والقرينة اثبات الصدأ للهم، و(العاني) يناسب المشبه، و(يجلو) يناسب المشبه به، فالاستعارة مطلقة.

وقال زهير بن أبي سلمى^(١):

فَشَدُّ وَلَمْ يُفَزَعْ بِوُتَا كَثِيرَةٍ لَدَى حَيْثُ أُلْقَتْ رَحْلُهَا أُمُّ قَشْعَمٍ
لَدَى أَسَدٍ شَاكِي السَّلَاحِ مُقْدَفٍ لَهُ لِبْدٌ أَظْفَارُهُ لَمْ تَقْلَمْ

ففي البيت الثاني استعارة مطلقة، فإن قوله شاكي السلاح ملائم للمستعار له لأن الأسد ليست له هذه الصفة، وقوله: «له لبْدٌ أَظْفَارُهُ لَمْ تَقْلَمْ» يلائم المستعار لأن هذه من خصائص الأسد، ومثله قول الآخر^(٢):

رَمَتْنِي بِسَهْمٍ رِيشُهُ الْكُحْلُ لَمْ يَضُرْ ظَوَاهِرَ جِلْدِي وَهُوَ لِلْقَلْبِ جَارِحٌ

(١) ديوان زهير بن أبي سلمى ص ٢٨، فشد: الشدة - الحملة، أم قشعم: كنية المنية، يقول واصفاً حصين: (فحمل حصين على الرجل الذي أراد قتله بأخيه، ولم يخف ببوتا كثيرة: أي لم يتعرض لغيره عند ملقى رجل المنية. شاكي السلاح: أي كامل السلاح (من الشوكة وهي العدة)، مُقْدَفٌ: أي يُقْدَفُ به كثيراً إلى الوقائع، اللبد: جمع لبدة الأسد وهي ما تلبد من شعره، أظفاره لم تقلم: يريد أنه لا يعتريه عيب ولا ضعف. (٢) الطراز ١/٢٣٧.

الاستعارة في كتاب الله

ليس غرضنا في هذا البحث أن نحدثك عن أقسام الاستعارة في الآيات الكريمة، فليدرك معنا الكثير من ذلك، وإنما غرضنا أن نلقي الضوء ما استطعنا على خصائص الاستعارة القرآنية ومميزاتها، وما فيها من مقومات الحس وعناصر الجمال، ولقد حاول بعض الكاتبين قدامى ومحدثين - مشكورين - أن يبرزوا بعض هذه الخصائص، فمن القدامى الرماني في رسالته (النكت في إعجاز القرآن)، ومن المحدثين الدكتور أحمد أحمد بدوي في كتابه (من بلاغة القرآن) وسنطلعك على طرف من كل منهما فيما بعد إن شاء الله.

وأول ما نبادرك به القول، أن من أول خصائص الاستعارة القرآنية: حسن التصوير، فليست الاستعارة مجرد كلمة استعملت في غير ما وضعت له، ولكنها مع هذا تبرز لك المعنى المتحدث عنه بصورة خلابة جذابة، تجسم لك المعنى وتشخصه، فتنتشر ظلاله في النفس فيحدث في جوانبها حركة حيّة، ترهف الحس، ولكي تستكمل هذه الصورة عناصرها، لا بدّ من عنصر آخر في الاستعارة القرآنية، ونعني بهذا العنصر اختيار الكلمات لتكون قوالب لهذه الاستعارات، فهذه الألفاظ، ألفاظ منتقاة مختارة، لا يمكن أن يسدّ غيرها مسدها مهما بذل في سبيل ذلك من محاولات.

واختيار اللفظة اختياراً موضوعياً، نتج عنه عنصر ثالث من جمال العناصر في هذه الاستعارة، ونعني به الإيجاز، ذلك لأن اللفظة المختارة يستقل بها المعنى فلا يكون فضفاضاً، كما أنها تكون مستقرة في مكانها ليست قلقلة ولا مضطربة، ومن هنا جاء الإيجاز، إذ المعنى المراد المعبر عنه بهذه اللفظة لا يمكن أن يستوفي بمثلها من الألفاظ، فإذا أردت أن تغيرها فأنت بحاجة إلى ألفاظ كثيرة، وقد لا تسد هذه الألفاظ مسدها كذلك. وهناك عنصر جمالي آخر للاستعارة القرآنية يتصل بالنظم، فإذا كانت العناصر السابقة تخص اللفظة المفردة، فإن هذا العنصر يتصل بالجملة التي ركبت فيها الاستعارة.

هذا كله مما يتصل بجمال الصورة ودقة اللفظ، وإحكامه، وهناك أمر آخر تختص به الاستعارة القرآنية جدير بالإعجاب؛ ذلكم هو المعنى والمضمون الذي يتصل بموضوع الآية الكريمة، وهذه الخصائص التي حدثت عنها حديثاً موجزاً، مما يتصل باللفظ والمعنى والشكل والمضمون، سيأتيك خبرها مفصلاً، فأعد لها نفسك وعقلك وحسك، ومن الله العصمة، وعليه التكلان.

بَصَائِرُ يَجْتَلِيهَا كُلُّ نَبِيٍّ بَصِيرٍ وَحِكْمَةٌ يَجْتَالِيهَا كُلُّ نَبِيٍّ أَدَبٍ

(١) قال سبحانه: (بَلْ تُقَذِّفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ) [الأنبياء ١٨]، والاستعارة - كما مرّ معك - في كلمتي القذف والدمغ، واختيار هاتين الكلمتين منتهى

الإعجاز لما فيه من قيم فذة، فالقذف هو الإلقاء بقوة، ولكنه القاء ما هو ضخّم وكبير، والدمغ هو كسر الدماغ الذي تزول به الحياة، القذف إذن لا بد فيه من عنصرين، أحدهما: يتصل بالقاذف: وهو أن يكون ذا حزم وعزيمة، والآخر يتصل بالمقذوف: وهو أن يكون ضخماً عظيماً.

اختيار الكلمتين إذن فيه إيجاز واختصار - كما رأيت - ولكن ليس هذا فحسب، ألا ترى أن في اختيار الكلمتين كذلك بعثاً للقوة في نفوس المؤمنين لكي يكونوا ذوي بأس، هذا من جهة وإرشادهم من جهة ثانية كيف يصوّبون سهامهم حتى يصيبوا من عدوهم مقتلاً، لذا أوثرت كلمة (الدمغ)، فقد تكسر رجلُ عدوك أو يده، وقد تصيب أي موضع من جسمه، لكن ذلك كله لا يحول بينه وبين أن يرد عليك سهامك في نحره، لا يحول بينه وبين أن يوقعك في مصادئه، لأن إصابته التي أصبته بها لم تحل بينه وبين أن يستغرق في تفكيره ومكره ليرد لك الكيلَ كيلين، أظن أنك أدركت الآن، بل أقول تذوقت هذا الأثر الذي تركته كلمة (الدمغ) في نفسك، هكذا تعلمنا هذه الاستعارة القرآنية كيف نحكم الخناق على عدونا، حتى لا تمكنه فرصته ولا تذهب غصته. ثم قف أمام هذه الصورة الموحية المُحسّنة مرة أخرى وانظر إلى النظم الذي رتبت فيه، (نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق) فانظر إلى موقع (الباء) وموقع (على)، وإلى هذه الفاءات المتعاقبة، وانظر إلى ما تفيد من الاستعلاء والسرعة، سرعة ازهاق الباطل كأنه لا يجد الفرصة التي يستطيع فيها أن يملك أنفاسه أو يستجمع قواه، ليست القضية - إذن - قضية استعارة فحسب.

(٢) قال سبحانه: (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ) [الحجر ٩٤]، عرفت نوع الاستعارة من قبل، ولكننا نود هنا أن نقف عند اختيار هذه الكلمة، لنذكر ما تحمله حروفها من معنى، ولا تنس أن الآية مكية التنزيل، وأنت تعلم ما في الصدع - وهو الشق للأشياء الصلبة -، ما فيه من مشقة وكسر، ألا ترى أن اللفظة الكريمة تشعر المسلمين بعظم الرسالة والمسؤولية الملقاة على عواتقهم، وما ينبغي أن يقوموا به من عمليات ليكسروا الحواجز وينقبوا الأسوار التي تحول بين الإسلام وبين قلوب أولئك المعرضين؛ ثم انظر إلى ما فيها من إيجاز، ولو أنه قال: (اجهر بما تؤمر) أو (بلغ) لفات معانٍ كثيرة، افادتها هذه الكلمة.

وقد يخطر ببالك فتتسائل: «ألم تذكر كلمة التبليغ في القرآن الكريم؟»، أقول لك: بلى، وذلك قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ) [المائدة ٦٧]، وهذا وأيم الله لهو شاهد صدقٍ وحقٍ على أن القرآن الكريم كتابُ الله، تربع على قمة البيان وتسند ذروة الاستاذية، إن القرآن الكريم يعبر بالاستعارة حيناً، كما في قوله: (فاصدع) وبالحقيقة حيناً، كما في قوله: (بلغ)، حسب ما يتطلبه السياق وتقتضيه المناسبة، وتدعو إليه الحاجة.

إن الآية الأولى (فاصدع بما تؤمر) مكية كما علمت؛ فهي من سورة الحجر، وليس بخاف عليك ما كان يلقاه الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه من شدة المشقة وهم يبلغون دعوة الله، أما الآية الأخرى (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك) فهي مدنية النزل - من سورة المائدة - وأنت خبير بالفرق العظيم بين ما كان يلقاه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في مكة المكرمة، وبين ما كان في المدينة المنورة - على ساكنها أفضل الصلاة والتسليم -. تلكم هي عظمة فن القول وجماله، وصحة المعنى وتماحه.

(٣) قال تعالى حاكياً عن فرعون ما قاله للسحرة: (وَأَصْلَبْنَاهُ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ) [طه ٧٨]، وكل الذي عرفناه عن هذه الاستعارة أنها استعارة في الحرف، حيث استعير متعلق معنى (في) لمتعلق معنى (على) كما حدثناك من قبل، ولكن يبقى بعد ذلك العنصر الابداعي في هذه الاستعارة، ألا ترى أن كلمة (في) تصور لنا نفسية فرعون ومن على شاكلته وهم كثر تصويراً تاماً، هذه النفسية التي تمتلئ غيظاً وحقداً على أولئك المؤمنين الذين كان يرجو بهم الغلبة، كل هذا تصوره كلمة (في) بهذا الایجاز، وكلمة (على) بالطبع لا تفيد الكثير من هذا، وإياك أن تستمع لمن يقول إن حروف الجر تتناوب، وإن (في) بمعنى (على)، إن هذه الكلمة تقول لنا إن فرعون لا يريد أن يصلبهم على الجنوع فحسب، بل يود أن تتلاشى أجسامهم في جنوع النخل، فانظر إلى هذا المعنى الذي جاءت من أجله الاستعارة، وهل يكفي أن تقول إنها استعارة حرف لحرف؟.

(٤) قال تعالى في شأن المنافقين: (لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مَدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ) [التوبة ٥٧]. والجموح صفة الفرس، وهي التي إذا حمل عليها لا يردّها اللجام، وما أظنه كافياً أن يقال إنه شبه اسراعهم في السير بالجموح على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، إن اختيار الكلمة يبين لنا هذا الهلع الذي يسيطر على المنافقين، وكيف أنهم يتمنون لو استطاعوا أن يحثوا السير رغم كل الموانع والأسباب، ثم انظر إلى الصيغة التي جاءت فيها الاستعارة وهي صيغة الفعل المضارع الدال على التجدد، ثم انظر إلى الضمير الذي جاء للتخصيص ولتقوية الحكم وهو قوله تعالى (وهم).

(٥) قال تعالى: (وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنَ عَلَيْهِمْ وَخَفَضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ) [الحجر ٨٧ - ٨٨]، وفي آية أخرى: (وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ

الدُّنْيَا) [طه ١٣١]، وقل لي بربك، هل تجد استعارة بديعة اشتملت على روائع الحسن كهذه - مع كثرة الاستعارات البديعة في أقوال الناس - لا تمدنّ عينيك، وأين هذا من قولنا: (لا تطمح)، (لا تتمنّ) و (لا ترغب)، وفكر في كلمة (ولا تمدنّ) وكيف جاءت عقب التفضل بإيتاء السبع المثاني والقرآن العظيم مؤكدة، وذكر العينين معاً، وما تشير إليه هذه الجملة من الرغبة، ذلك أن الذي يمدّ عينيه إلى شيء ما لا يكون إلا بعد أن تهيمن على النفس الرغبة في هذه الحاجة.

مد العينين إذن لشيء ما، ناشئ عن الرغبة الملحة في النفس، ثم انظر إلى قوله: (واخفض جناحك)، وما فيها من لين الجانب والحنو كما يحنو الطائر على صغاره ليمنعهم من كل عاد وليرد عنهم كل أذى. وكذلك كان سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(٦) قال تعالى: (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُنْهٍ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ) [النحل ١١٢]، ففكر ملياً في هذه الاستعارة، أئت تعلم أن المناسب للإذاقة الطعم، والمناسب للباس الكسوة، ولكن القرآن لم يقل اذاقها الله طعم الجوع كما لم يقل كساها الله لباس الجوع ولو قيل هذا لبقى الكلام من قبيل الاستعارة، ولكن اختيار الكلمة في القرآن - كما قلنا من قبل - اختيار له أسسه ومسوغاته، فلماذا جاء النظم الكريم على ما هو عليه؟ لماذا أُوثرت كلمة الإذاقة على كلمة الكسوة فقال: (اذاقها) ولم يقل: (كساها)؟.

أظنك لا تماري في أن ما تحدثه الإذاقة من أثر في النفس لا تحدثه كلمة (كسوة)، فالإذاقة هي التي تترك في النفس أثراً لا نجده لكلمة (كسوة) إن كان لها أثر، أما لمْ أُوثرت كلمة لباس على كلمة طعم، فأئت تعلم أن الاحاطة التي في اللباس لا نجدها في الطعم، فالطعم إنما يكون في جزء من اجزاء الجسم. أما اللباس فمن شأنه الاحاطة التامة بالجسم، ولهذا جاء التعبير القرآني على هذا المنوال دون قولنا «أذاقها طعم الجوع» أو «كساها لباس الجوع».

والخلاصة أنه عبر بالإذاقة لأن أثرها في النفس أعظم من أثر الكسوة، وعبر باللباس لأن احاطته أعظم من احاطة الطعم، فنظر في كل من الكلمتين إلى ناحية، نظر في كلمة الإذاقة إلى الأثر وفي كلمة اللباس إلى الاحاطة وصدق الله، (كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ) [هود ١] وصدق الله: (قُلْ أَتَرَاهُ الَّذِي يَعْلَمُ السَّرْفَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) [الفرقان ٧].

(٧) قال تعالى: (إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَا كُفْرِي الْجَارِيَةَ) [الحاقة ١١]، وقد عرفت نوع الاستعارة من قبل، والسؤال: لِمَ أُوثِرَت كلمة (طغى)؟ فإذا عرفنا أن هذا اللفظ جاء مناسباً للسياق الذي جاء فيه، استطعنا أن نتذوق الاستعارة، ألا ترى أن القوم ما أصابهم هذا العذاب إلا بسبب طغيانهم، هذا الطغيان الذي ليس له مثيل. واقرأ قول الله تبارك وتعالى يحدثنا عن قوم نوح بعد أن حدثنا عن غيرهم: (وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ وَشُودً فَمَا أَبْقَىٰ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ) [النجم ٥٠ - ٥٢].

(٨) قال تعالى: (وَاشْتَغَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا) [مريم ٤]، فانظر إلى كلمة الاشتغال ولم أُوثِر على كلمة الانتشار؟ وانظر إلى الشيب كيف يدب شيئاً فشيئاً ثم يهجم ليزيل كل أثر للشباب، كما تشتعل النار بعد أن تأخذ ببعض أجزاء الحطب، وليس هذا فحسب، انظر كيف اسند الاشتغال إلى الرأس ولم يقل اشتعل شيب الرأس ولو قيل هذا لبقيت الاستعارة على ما هي عليه. وقارن بين هذا وبين قولك «اشتعلت النار في البيت» و«اشتعل البيت ناراً»، وسل الله الرحمة للشيخ عبد القاهر الذي نبه على هذه الدقيقة.

(٩) ومن بدائع الاستعارات في القرآن أنه يأتيك بالكلمة في موضع ثم يختار غيرها في موضع آخر، مع أن المتعلق للكلمتين واحد، خذ كلمة (القلوب) مثلاً: تجد أن القرآن الكريم تارة استعمل لها كلمة (الربط)، وتارة كلمة (الختم)، والربط والختم كلاهما فيه إحكام إلا أن الختم جاء في معرض الذم (خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ) [البقرة ٧]، وجاء الربط في معرض الامتنان (وَلَيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ) [الأنفال ١١]، (وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا) [القصص ١٠]، فما سرُّ هذه الدقيقة القرآنية.

من المعلوم أن الختم على الشيء يكون لشيء في داخله، ولا زلنا نسمع أنه إذا كان هناك مكان فيه ريبة ومحذور، فإنهم يقولون: «خُتِمَ بالشمع الأحمر» أما الربط فإنما يكون بشيء أو على شيء أو دُعَتْه ما هو ثمين ونفيس، فهم يربطون على ما فيه نفائسهم، لذلك جاءت الآيات القرآنية تشير إلى هذين المعنيين في مواضع كثيرة، (خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ) في سورة البقرة، و (خَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ) في سورة الجاثية، أي صارت - تلك القلوب غير قابلة لخروج شيء من الكفر منها، أو دخول شيء من الإيمان إليها، أما الربط فإنه يعنى احتفاظها بما فيها من إيمان كما يحتفظ الشيء المربوط بما فيه من نفائس.

(١٠) وقريب من هذا (السمع)، كما في الآية السابقة (خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ

سَمِعِهِمْ). وحينما كان الحديث عن الفتية الذين آمنوا بربهم قال: (فَضَرَبْنَا عَلَى أَذَانِهِمْ) [الكهف ١١]، فالختم على السمع يقال فيه ما قيل في الختم على القلوب، أما الضرب على الأذان فليس فيه تعطيل لها، ولا إزالة لقدرتها، ولا ذهاب لعنصر الحياة فيها، بل كان أمراً أرادَهُ اللهُ تعالى خارجاً عن إصابة هذه الحاسة، لحِكْمِ تَتَّصِلُ بهؤلاء الفتية الذين آمنوا بربهم فزادهم هدى.

(١١) وقريبٌ من هذا (الصَّبُّ والافراغ) حيث نقرأ قوله سبحانه: (رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا) [البقرة ٢٥٠]، وقوله: (فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ) [الفجر ١٣]، ما أعظم هذه الاستعارة، فمع ما فيها من روعة التعبير وجمال التصوير، نجدُ فيها ما يَهْزُ النفس ويرعب القلب (فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ)، أما الصَّبُّ فهو الازالة الكثيرة، وأما السوطُ فهو الخط، والأمم التي استحققت هذا كانت كثيرة الذنوب معقدة الفواحش، والجزاء من جنس العمل، فالكثره يلائمها الصَّبُّ، وتعدد السيئات يلائمها السوط، وهكذا نفهم من الآية الكريمة أن عاقبة المفسدين أن يصب عليهم العذاب، أي يُراقُ عليهم كأنما هو أبواب القرب المفتحة، وأن يكون هذا العذاب أنواعاً متعددة، فكثرة العذاب وشدته تبيينها كلمة (فصب)، وتنوع العذاب تشير إليه كلمة (سوط)، ولقد تحقق هذا قديماً وتحقق حديثاً، فما أكثر ما يعانيه العالم اليوم - وقد خرج عن جادة الحق - من أنواع البأساء والضراء، فالأمراض الجسمية والنفسية والعقلية، والضيقُ والقحطُ والخواءُ الروحي، كلها وغيرها مما تشير إليه الآية الكريمة (فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ). أما الافراغ في قوله: (رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا) فإنما يكون من وعاء يُفَرِّغ منه، وهكذا افراغ الصبر إنما هو فيضٌ من رحمة الله، فتأمل وقل لي بربك، هل تنوقت ما في الآيتين من روعةٍ وفنٍ وجمال؟!.

(١٢) قال تعالى: (أَوْ مِّنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ) [الأنعام ١٢٢]، وكل الذي أريد أن أقفك عليه في هذه الاستعارة، أن كلمة (مَيِّت) التي وردت في الآية الكريمة تختلف عن كلمة (مَيِّت) فالمَيِّت هو الذي من شأنه أن يموت سواء مات أم لم يموت، قال تعالى: (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ) [الزمر ٣٠]، أما (مَيِّت) فلا تقال إلا لمن تحقق موته، وأظنك أدركت الآن سبب استعمالها في كتاب الله تعالى.

ما نظن أننا نستطيع أن نقف أمام كل استعارة من كتاب الله، واكتفي بما ذكرته لك وسأنتقل لك كما وعدتك بعض ما قاله العلماء، فمن ذلك ما ذكره الرماني فقد قسم البلاغة إلى

عشرة أقسام أحدها الاستعارة وقد ذكر لها أمثلة كثيرة من كتاب الله نختار لك بعضها:

«قال الله عز وجل: (وَقَدَّمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا) [الفرقان ٢٢]، حقيقة (قَدَّمْنَا) هنا (عَدَّمْنَا)، و (قَدَّمْنَا) أبلغ منه لأنه يدل على أنه عاملهم معاملة القادم من السفر، لأنه من أجل امهاله لهم عاملهم كمعاملة الغائب عنهم ثم قدم فراءهم على خلاف ما أمرهم، وفي هذا تحذير من الاغترار بالامهال، والمعنى الذي يجمعهما العدل، لأن العمد إلى ابطال الفاسد عدل والقدوم أبلغ لما بَيَّنَّا».

«... وقال عز وجل: (بِرِّيحٍ صَرَّصٍ عَاتِيَةٍ) [الحاقة ٦]، حقيقته (شديدة) والعتو أبلغ منه لأن العتو شدة فيها تمرد، وقال تعالى: (سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ) [المك ٨]، شهيقاً: حقيقته صوتٌ فظيغٌ كشهيق الباكى، والاستعارة أبلغ منه وأوجز والمعنى الجامع بينهما قبح الصوت. (تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ) حقيقته: من شدة الغليان بالانتقاد، والاستعارة أبلغ منه، لأن مقدار شدة الغيظ على النفس محسوس مدرك ما يدعو إليه من شدة الانتقام، فقد اجتمع شدة في النفس تدعو إلى شدة انتقام في الفعل، وفي ذاك أعظم الزجر وأكبر الوعظ وأدل على سعة القدرة وموقع الحكمة».

«... وقال تعالى: (ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا) [المدثر ١١]، (ذرني) ها هنا مستعار، وحقيقته: ذر عقابي ومن خلقت وحيداً بترك مسألتي فيه، إلا أنه أخرج لتفخيم الوعيد مخرج ذرني وإياه لأنه أبلغ، وإن كان الله تعالى لا يجوز عليه المنع، وإنما صار أبلغ لأنه لا منزلة من العقاب إلا وما يقدر الله تعالى عليه منها اعظم. وهذا اعظم ما يكون من الزجر... وقال تعالى: (وَتَوَدُّونَ أَنْ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونَ لَكُمْ) [الأنفال ٧]، اللفظ ها هنا بالشوكة مستعار وهو أبلغ، وحقيقته السلاح، فذكر الحد الذي به تقع المخافة واعتمد على الإيماء إلى النكتة، وإذا كان السلاح يشتمل على ماله حدٌ وما ليس له حد، فشوكة السلاح هي التي تبقى».

«وقال تعالى: (وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ) [الأعراف ١٤٩]، هذا مستعار، وحقيقته : ندمو لما رأوا من أسباب الندم، إلا أن الاستعارة أبلغ للإحالة فيه على الاحساس لما يوجب الندم بما سقط في اليد فكانت حاله أكشف في سوء الاختيار لما يوجب من الوبال»^(١).

وننقل لك الآن شيئاً من كتاب (من بلاغة القرآن) للدكتور أحمد أحمد بدوي: «قال سبحانه: (وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جُمُعًا) [الكهف ٩٩]، فكلمة (يموج) لا تقف عند حد استعارتها لمعنى (الاضطراب) بل إنها تصور للخيال هذا الجمع الحاشد من الناس احتشاداً لا تدرك العين مداه حتى صار هذا الحشد الزاخر كبحر، ترى العين منه ما تراه في البحر الزاخر من حركة وتموج واضطراب، ولا تأتي كلمة (يموج) إلا موحية بهذا المعنى ودالة عليه، وقال سبحانه: (رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا) [مريم ٤]، وهنا لا تقف كلمة اشتعل عند معنى (انتشر) فحسب، ولكنها تحمل معنى دبيب الشيب في الرأس في ببطء وثبات، كما تدب النار في الفحم مبطئة، ولكن في دأب واستمرار، حتى إذا تمكنت من الوقود اشتعلت في قوة لا تبقي ولا تذر، كما يحرق الشيب ما يجاوره من شعر الشباب، حتى لا يذر شيئاً إلا التهمة وأتى عليه وفي اسناد الاشتعال إلى الرأس ما يوحي بهذا الشمول الذي التهم كل شيء في الرأس....».

«وقال تعالى: (وَأَيُّ لَهِمُّ اللَّيْلِ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمُ مُظْلَمُونَ) [يس ٣٧]، فكلمة (نسلخ) تصور للعين انحسار الضوء عن الكون قليلاً قليلاً، ودبيب الظلام إلى هذا الكون في بطء، حتى إذا تراجع الضوء ظهر ما كان مختفياً من ظلمة الليل، وقال تعالى: (وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ) [الذاريات ٤٢]، ففي العقم ما يحمل إلى النفس معنى الاجذاب الذي تحمله الريح معها.»

«... ومن ذلك قوله تعالى: (إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَغْفُورَ الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ النَّكَاحِ) [البقرة ٢٣٧]، فإنك تشعر في كلمة العقدة بهذا الربط القلبي الذي يربط بين قلبي الزوجين....».

«... وتأمل كذلك قوة كلمة (زلزلوا) في قوله تعالى: (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمِرُ الْبَاسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ) [البقرة ٢١٤]، ولو أنك جهدت في أن تضع كلمة مكانها ما استطاعت أن تؤدي معنى هذا الاضطراب النفسي العنيف.»

«... وقوله سبحانه: (فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَبَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا

فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَاقَامَهُ} [الكهف ٧٧]، وكأنما الجدار لشدة وهنه وضعفه
يُؤَثِّرُ الراحة لطول ما مر به من زمن»^(١).

ويمكنك أن تقف أمام أي استعارة من كتاب الله لتجد روعة الابداع وجمال الايقاع
وبهاء الصورة.

ولعلك تدرك الفرق بين هذين الاسلوبين، اسلوب الرمانى العالم المتكلم، واسلوب
الدكتور بدوي، الأديب والناقد. وكيف أن كلاً منهما تناول الاستعارة، فاسلوب الرمانى اسلوب
الدقة الكلامية والتحديد المنطقي، ولكن صاحب كتاب (من بلاغة القرآن)، بعيد عن هذا الوادي،
فهو يطلعك على براعة التصوير، وما في ذلك للخيال من خصوصية، ولاختيار الكلمة من روعة.
وليس هدفنا أن نفاضل بين الرجلين - رحمهما الله - أو بين القديم والحديث، ولكل وجهة هو
موليها.

المجاز المرسل في كتاب الله

ولا تظن أن الاستعارات القرآنية وحدها هي التي حازت السبق، بل إن أنواع المجاز جميعاً كانت لها هذه المنزلة، صحيح أن الاستعارة هي أكثر أنواع المجاز تجسيداً للصورة وسأذكر لك بعض الأمثلة من المجاز المرسل.

(١) خذ مثلاً قوله تعالى: ﴿جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾ [نوح ٧]، اتظن أن اختيار كلمة الأصابع بدل الأنامل جاءت من أجل المجاز فحسب؟، ليس الأمر كذلك، إن هذا المجاز جاء في سياق الحديث عن المنافقين وما أصابهم من الحيرة، فهم من الصواعق والرعد القاصف يود أدهم لو استطاع أن يجعل أصبعه كله في أذنه، فالتعبير بالأصبع إذن جاء تصويراً لهذا الهلع الذي ملأ قلوبهم، وهيمن على نفوسهم.

(٢) قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَرْمُلُ قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمل ١]، إن التعبير بالقيام بدل الصلاة جاء لهدف عظيم، ذلك أن القيام هو من أكثر أركان الصلاة التي يكابد الإنسان فيها نفسه، كيف لا وهو محل تلاوة الكتاب الكريم.

(٣) قال تعالى: ﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف ٨٢]، ولم يقل: (وسل أهلها)، ألا ترى أن هذه العبارة تدل على ما يعتمل في نفوس أخوة يوسف عليه السلام، ليبرهنوا على صدقهم؟ بأنهم يتمنون أن لا يسأل الناس فحسب، بل كل شيء في القرية من أرض وبيوت وغير ذلك، لأن ذلك كله سينطق بصدقهم.

(٤) قال تعالى: ﴿وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء ٢]، ألا ترى أن التعبير باليتامى له هدفه، فهو يريد أن يشعر الأوصياء بأن هؤلاء وإن بلغوا مبلغ الرجال و{أنستم منهم رشداً}، فلا تظنوا أن ذلك يهون شأن المحافظة على أموال هؤلاء، فكما حافظتم على أموالهم في صغرهم، فلا بد أن تؤبوا لهم كاملة غير منقوصة.

(٥) قال تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ [العلق ١٧]، واختير المجاز هنا كائنه يقول: «لِيَدْعُ كُلَّ مَنْ يُسْتَنْصَرُ بِهِ مِنْ بَشَرٍ وَحَجَرٍ وَالْهَيْةِ فِي زَعْمِهِ».

(٦) قال تعالى: ﴿فَبِئْسَ رَحْمَةً اللَّهُ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [ال عمران ١٠٧]، واختيار المجاز هنا ما أظنه خافياً عليك، إذ كل هذه ليست إلا مظهراً من مظاهر رحمته تعالى. وهكذا لو استعرضت كل مجاز مرسل في كتاب الله تعالى لوجدت هناك سرّاً استعمل من أجله المجاز، هذا فضلاً على ما فيه من إيجاز.

المجاز العقلي في كتاب الله

- (١) قال تعالى: (يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ) [القصص ٤]، واسناد التذبيح إلى فرعون اشارةً إلى بطشه وقسوته من جهة، وإلى أن جنده إمعاتٌ من جهة أخرى.
- (٢) قال تعالى: (فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا) [النمل ١٣]، وهو اشارة إلى ما في الآية من وضوح الدلالة، فهي كافية في كل حين.
- (٣) قال تعالى: (إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا) [مريم ٦١]، ولم يقل آتياً، ليبين أن لله التصرف في كل شيء (فمأتي) اسم مفعول، كالمضروب لا بد له من ضارب، كذلك (المأتي) بحاجة إلى من يأتي به.
- (٤) قال تعالى: (حِجَابًا مَسْتُورًا) [الإسراء ٤٥]، ويقال فيه ما قيل فيما قبله. فالحجاب لا يستر بنفسه وإنما الله الذي يجعله كذلك.
- وصدق الله تلك آيات الكتاب الحكيم.

الاستعارات في كلامه صلى الله عليه وسلم

- ولنذكر لك طرفاً من جوامع الكلم التي اعطيتها النبي الكريم عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم.
- (١) فمن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: «بُني الإسلام على خمس»^(١)، ألا ترى أن تشبيه الإسلام بالبيت له احياءاته الكثيرة ونفحاته المتعددة؟، أليس البيت هو الذي يؤوي من فيه ويستتره؟ أليس البيت هو الذي تجتمع فيه الأسرة؟، أليس البيت هو الذي يقي أصحابه عوادي الأذى وغوائل السوء؟ والحق أن هذا شأن الإسلام لكل من دخل فيه حتى أولئك المنافقين لأنه يحقن دمائهم.
- (٢) ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: «الإيمان بضع وستون شعبة»^(٢) ألا تجد أن تشبيه الإيمان بالشجرة، ذات الفروع الكثيرة والأفنان المتعددة، يشير أولاً إلى قوة هذه الشجرة وكثرة ثمارها وعدم سهولة تسلقها؟، ثم ألا تجد أن الإيمان كذلك؟.

(١) سبق تخريجه ص ١٧٢.

(٢) سبق تخريجه ص ١٧٢.

فانظر إلى جوامع كلمه - صلى الله عليه وسلم - وكيف استعار البيت للإسلام والشجرة للإيمان، ويعلمُ الله أن في ذلك قمة البيان، لا من حيثُ التصوير فحسب بل من حيث الدقة والموضوعية. استعير البيتُ للإسلام لأن البيت كما قلنا يؤوي من فيه ليشعروا بالطمأنينة؛ ذلكم لأن البيت سكن لأصحابه، وصدق الله ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ [النحل ٨٠]، لذا قد نجد الذين اسلموا بالسننتهم دون قلوبهم نفعهم هذا الإسلام في دنياهم، فكان لهم سَكَنًا، لكنهم لم تهنأ نفوسهم بما وراء هذا مما فرح به المؤمنون، لذا استعيرت الشجرة للإيمان؛ لأنها هي التي يُتَفَيَّأ ظلها أولاً، ثم هي بعد ذلك وقبله صاحبة الثمار التي يذوق حلاوتها المؤمنون. البيت استعير للإسلام إذن لأنه سَكَنٌ فحسب، أما الشجرة ففيها ما وراء هذا من ظلٍ وحلاوةٍ وطيبٍ ثمر وزكي رائحة، قف أمام هاتين الاستعارتين النبويتين العظيمتين وانعم النظر ثم انعم وانعم، وقل لي بربك. أي بيان وأي موضوعية ودقة في التعبير، وسمو في المعنى يمكن أن تجده في هاتين وغيرهما من كلامه صلى الله عليه وسلم، ورحم الله أمير الشعراء حيث يقول:

فَمَا عَرَفَ الْبَلَاغَةَ ذُو بَيَّانٍ إِذَا لَمْ يَتَّخِذْ لَهُ كِتَابًا

(٢) ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: «لا تستضيئوا بنار المشركين»^(١) والمقصود به - والله أعلم - (لا تعتمدوا على آرائهم ولا تركنوا إليهم) ثم انظر إلى استعمال كلمة النار بدل النور وما تحمله من دقة وموضوعية وجمال صورة، وهل النار إلا محرقة أكثر من كونها صالحة للاضاءة؟ وهل يجني المسلمون من استعانتهم بالمشركين وولائهم لهم غير هذه النار التي تحرق كل شيء، وما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم، وماذا جنينا من ولائنا وخضوعنا لأمریکا وغيرها إلا البوار والوبال.

(٤) يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «أُحِدُ جَبَلٍ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ»^(٢)، إن غزوة أحد كانت من أعظم الغزوات التي ركز عليها القرآن الكريم وذلك لما فيها من عبر ودروس، لا عجب إذن أن يقول النبي صلى الله عليه وسلم هذا القول. ويرى بعض الكاتبين أن هذا من قبيل المجاز المرسل حيث عبر بالمحل الوارد وأراد الحال، ولكن الذي تميل إليه النفس، ويطمئن إليه القلب: أن الحديث من باب التصوير بالاستعارة، فقد شُبِّه أحدٌ بصاحب المناقب الطيبة الذي من شأنه أن يُحِبَّ وَيُحَبَّ، وحذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو الحب على سبيل الاستعارة المكنية، واسناد الحب إلى أحد استعارة تخيلية، والنبي عليه وآله الصلاة والسلام يوجه المسلمين إلى أحد لكي تبقى آثاره ودروسه النبراس الهادي

(١) رواه الإمام أحمد ٩٩/٣.

(٢) رواه البخاري كتاب (الجهاد) باب (فضل الخدمة في الغزو) ١٠٥٨/٣.

للمسلمين، ولیدرکوا أن ما أصاب المسلمين في أحد ليس إلا سنة من سنن الله، وسنن الله لا تتخلف، فهذه الاستعارة البديعة موحية بإيجازها بكل ما من شأنه أن يحول بين المسلمين وبين أن ينجرفوا في أودية الأوهام التي يمكن أن تسول بها لهم أنفسهم وشياطينهم فيعتمدوا على أنهم مسلمون بالإسم وينسوا ما كان يوم أحد وفي أحد.

(٥) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ رضي الله عنه: «الصوم جنة والصدقة تطفي الخطيئة كما يطفى الماء النار»^(١) وفي الحديث نفسه «رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروه سنامه الجهاد»، وفي هذا الحديث يقول صلى الله عليه وسلم: «وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم» فانظر كيف جعل للإسلام عموداً وذروة سنام، وهما استعارتان بديعتان، فقد شبه الإسلام ببيت واسع، وجعل الصلاة العمود من هذا البيت، فهي استعارة مكنية تخيلية كما عرفت من قبل، وجعل الصلاة عمود الإسلام دليل على شرفها ومنزلتها وكونها الأساس الذي لا يغني عنه شيء.

(٦) أما قوله صلى الله عليه وسلم: «والصدقة تطفي الخطيئة كما يطفى الماء النار»^(٢) فانظر كيف شبه الخطيئة بالنار، وانظر إلى جمال هذا التشبيه. إن الخطيئة لا تحرق صاحبها في الآخرة فحسب، وإنما هي نار في الدنيا كذلك، تأتي على كل عناصر الخير في صاحبها. وبعد أن أدركت جمال التشبيه نقف مع جمال الاستعارة، ولا تنس كذلك ما في الصدقة من استعارة حيث شبهت بالماء، لأن الماء هو الذي يطفى النار، ولكن الصدقة هي التي تطفي الخطيئة، ذلك أن الإنسان عندما يتصدق فإنما يتغلب على شحه من جهة، ويذهب تأجج نار الشهوة من نفسه من جهة أخرى.

(٧) بقيت في الحديث الشريف استعارتان هما في الحقيقة أجد الاستعارات إحداها قوله صلى الله عليه وسلم: «وهل يكب الناس على وجوههم في النار إلا حصائد ألسنتهم»^(٣) واللسان من أعظم الجوارح خطراً على صاحبه.

يَمُوتُ الْفَتَى مِنْ عَثْرٍ بِلِسَانِهِ وليس يموت المرء من عَثْرَةِ الرَّجُلِ
وآلة الحصاد كالمنجل تأخذ كل ما في طريقها نافعاً أو غير نافع، مفيداً أو غير مفيد، واللسان الذي لا يتحرى الحق كذلك، فالاستعارة مكنية، فقد شبه اللسان بالمنجل مثلاً وحذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهي الحصاد، وأضافته الى اللسان إستعارة تخيلية.

(٨) والثانية قوله صلى الله عليه وسلم: «وذروة سنامه الجهاد»^(٤) وإذا كان الإسلام قد شبه بالبيت أولاً، وقد ذكرنا ما في ذلك من إحياءات وماله من ظلال، فلقد شبه هنا بسفينة

(١) رواه ابن ماجه، كتاب (الفتن) باب (كف اللسان في الفتنة) ١٣١٤/٢.

(٢) رواه ابن ماجه، كتاب (الفتن) باب (كف اللسان في الفتنة) ١٣١٤/٢.

(٣) رواه ابن ماجه، كتاب (الفتن) باب (كف اللسان في الفتنة) ١٣١٤/٢.

(٤) رواه ابن ماجه، كتاب (الفتن) باب (كف اللسان في الفتنة) ١٣١٤/٢.

الصحراء ذلكم الجمل، الذي كانوا يعولون عليه في قطع المسافة من جهة، وحمل الاثقال من جهة، وكانوا يجدون فيه الجمال والراحة من جهة ثالثة، ثم انظر كيف جعل الجهاد ذروة السنام، وذروة السنام ارفع ما في الجمل وأعلاه، أليس في ذلك إحياء للمسلمين وحث لهم بهذا التصوير النبوي البديع الرائع بأن الجهاد وهو القمة التي تتلاشى أمامها أمور كثيرة، وإذا كان الجهاد ذروة سنام الإسلام فهو حث للمسلمين، أن يصعدوا إذا أرادوا أن يسعدوا.

(٩) ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: «يا أُنْجَشَةُ رِفْقاً بِالْقَوَارِيرِ»^(١) وهذه استعارة عجيبة لأنه صلى الله عليه وسلم شبه النساء في ضعف النحائز، ووهن الفرائز، بالقوارير الرقيقة التي يوهنها الخفيف ويصدعها اللطيف، فنهى عن أن يسمعن ذلك الحاوي ما يحرك مواضع الصبوة وينقص معاهد العفة»^(٢).

(١٠) ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: «لا تَسْأَلِ الْمَرْأَةَ طَلَاقَ أُخْتِهَا لِنِكَاحٍ مَا فِي إِنْائِهَا»^(٣) وفي هذا الكلام استعارة لأنه عليه الصلاة والسلام، أراد أن المرأة لا ينبغي لها أن تطلب طلاق أختها، لتتصل بالزوج الذي كان لها طلباً لأن تجرّ حظها إليها وتستبد بالنفع عليها، فتكون كأنها اكتفت ما في إنائها أي أملت الاناء إلى نفسها فقلبته لتستفرغ ما فيه وتستأثر عليها به. يقال كَفَّاتِ الْإِنَاءَ إِذَا كَبَّتُهُ، واكتفأته إذا شربت ما فيه أجمع، أو أكلت ما فيه أجمع»^(٤).

وهذه لعمر الحق تربية للأخلاق ما أشد حاجتنا إليها.

وهذا الأسلوب كثير في كلامه صلى الله عليه وسلم كقوله: «هَذِهِ مَكَّةُ رَمَتْكُمْ بِأَفْلَازٍ كَبِيرِهَا»، «إِنَّ الْإِسْلَامَ لَيَأْرِزُ إِلَى الْمَدِينَةِ كَمَا تَأْرِزُ الْحَيَّةُ إِلَى جُحْرِهَا»^(٥).

أما أسلوب الاستعارات التمثيلية وما فيه من جمال وإيجاز فذاك هو سحر البيان:

(١) فمن هذا قوله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ الْمُنْبِتَّ لَا أَرْضاً قَطَعَ وَلَا ظَهراً أَبْقَى» وفي هذا من النهي عن الغلو ما فيه.

(١) رواه البخاري كتاب (الأدب)، باب (المعاريض منبوحة الكذب) ٢٢٩٤/٥.

(٢) المجازات النبوية/ الشريف الرضي ص ٣٥، والنحائز: الطبائع مفردها نحيزة.

(٣) رواه البخاري، كتاب (اليبوع)، باب (لا يبيع على بيع أخيه) ٧٥٢/٢، ورواه مسلم، كتاب (النكاح)، باب (تحريم الخطبة على خطبة أخيه حتى يأتى له أو يترك) ١٠٣٣/٢.

(٤) المجازات النبوية ص ٥٠.

(٥) رواه البخاري كتاب (فضائل المدينة، باب (الايماز يأرز إلى المدينة) ٦٦٣/٢، ليأرز: لينضم أهله ورجتمعون، جحرها: سكنها الذي تأمن إليه.

(٢) ومنه ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم - وإن كان فيه ضعف - «إِيَّاكُمْ وَخَضِرَاءَ الدَّمَنِ».

(٣) ومنه بديع القول: «لَا يَلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جَحْرٍ مَرَّتَيْنِ» - قاله عليه الصلاة والسلام لأبي عزة الشاعر، وقد أسر في بدر، لكن النبي صلى الله عليه وسلم من عليه وأطلقه ثم أسر في أحد فطلب من النبي صلى الله عليه وسلم أن يمن عليه فقال: «لَا يَلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جَحْرٍ مَرَّتَيْنِ» وقد ذهب بعض الكاتبين إلى أن المقصود بهذا الشاعر نفسه، وهو تعريض بأنه ليس مؤمناً، لأن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين، ولكن الذي نراه غير هذا المعنى، وهو أن المؤمنين لدغوا من هذا الشاعر أول مرة ولكنهم بعد ذلك تركوا هذا الجحر وما فيه، وها هم الآن يتعرضون للدغ مرة ثانية والمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين، فهو تشبيه لهذا الشاعر بالأفعى.

(٤) ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: «هَذَا حَمِيَّ الْوُطَيْسِ»^(١) والوطيس هو التنور الذي يخبز فيه، وأول من نطق بهذا الرسول عليه وآله الصلاة والسلام وهي استعارة تمثيلية، يشبه أمر الحرب حينما يشتد أوارها بالوطيس حينما تشعل فيه النار.

المجاز المرسل في قوله صلى الله عليه وسلم:

أما أسلوب المجاز المرسل في قوله صلى الله عليه وسلم فهو كثير كذلك وهو من الأساليب المعبرة المبنية على الإيجاز

(١) استمع إلى قوله صلى الله عليه وسلم: «اليد العليا خيرٌ من اليد السفلى»^(٢) وما فيه من فضيلة التوجيه وحسن الإرشاد، وروعة العفة تتوج المسلم دائماً، وأنت تعلم أن المقصود إنما هو صاحب اليد، ولكن لما كانت اليد هي التي تأخذ وتُعطي عبر بها، فهو مجاز مرسل علاقته الجزئية.

(٢) وانظر إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنْ مَكَّةَ حَرَّمَهَا اللَّهُ»^(٣) وقد حرم الله ما فيها وما حولها، فهو مجاز مرسل علاقته المحلية - كما عرفت -.

(٣) وانظر إلى قوله صلى الله عليه وسلم: «إِنْ مِنْ أَكْبَرِ الْكِبَائِرِ أَنْ يَسُبَّ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ ! قَالُوا وَكَيْفَ يَسُبُّ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ وَيَسُبُّ

(١) رواه مسلم، كتاب (الايمان)، باب (في غزوة حنين) ١٣٩٩/٣.

(٢) رواه مسلم، كتاب (الزكاة)، باب (بيان أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح) ٧١٧/٢.

(٣) رواه البخاري كتاب (العلم)، باب (ليبلغ الشاهد الغائب) ٥١/١.

وأخرجه مسلم كتاب (الحج)، باب -تحريم مكة وصيدها وخلوها) رقم ١٣٥٤.

أُمُّهُ فَيَسِبُّ أُمَّهُ» ^(١) فانظر إلى قوله صلى الله عليه وسلم: «أن يسب الرجل والديه» إنه مجاز مرسل علاقته السببية كما ترى، ولكن هل تظن أن روعته تقف عند هذا الحد؟ ألا تجد فيه هذا الإلهاب، وذلك التحذير الذي من شأنه أن يحمل المسلم ليبتعد عن كل ما من شأنه عقوق والديه؟.

(٤) واستمع إلى قوله صلى الله عليه وسلم: «عَجِبَ رَيْثًا مِنْ قَوْمٍ يُقَادُونَ إِلَى الْجَنَّةِ بِالسَّلَاسِلِ» ^(٢) وهم في الحقيقة إنما يقادون لدار الإسلام التي توصلهم إلى الجنة، فهو مجاز مرسل علاقته المسببية، ويظهر لي أننا يمكن أن نوجه الحديث توجيهاً آخر، فنجعله من باب الاستعارة التمثيلية فنشبه حال الذي يُحْمَلُ على الخير حملاً، ويرغم عليه إرغاماً بحال من يقاد إلى الجنة بالسلاسل، وقد عرفت من قبل أن النص الواحد يمكن أن نلمح فيه وجوهاً بيانية كثيرة باعتبارات متعددة.

(٥) واستمع إليه صلى الله عليه وسلم وهو يُعِدُّ لغزوة تبوك «من كان معه فَضْلٌ ظَهَرَ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا ظَهَرَ لَهُ» ^(٣) ويقصد بالظهر هنا الركوبة المعدة للجهاد، ولما كان الظهر هو المقصود عبر به عن الدابة من إطلاق الجزء على الكل، فهو مجاز مرسل علاقته الجزئية.

(٦) أما قوله عليه الصلاة والسلام: «إلبسوا من ثيابكم البياض» ^(٤) والثياب ليست إلا محلاً للبياض فهو مجاز مرسل علاقته الحالية.

(٧) واستمع إلى قوله صلى الله عليه وسلم: «الولدُ للفراش وللعاهر الحجر» ^(٥) ففي الجملة الأولى مجاز مرسل علاقته المحلية، وفي الجملة الثانية مجاز مرسل علاقته الآلية لأن الفراش محل والحجر آلة.

(٨) أما قوله صلى الله عليه وسلم: «من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا» ^(٦) فهو مجاز مرسل علاقته اعتبار ما يكون.

(١) رواه مسلم كتاب (الايمان)، باب (بيان الكبائر وأكبرها) ٩١/١. ورواه أحمد ١٦٤/٢.

(٢) رواه البخاري كتاب (الجهاد)، باب (الأسارى في السلاسل) ١٠٩٦/٣.

(٣) رواه مسلم كتاب (اللقة)، باب (استحباب المؤاساة بفضول المال) ١٣٥٤/٣.

(٤) رواه الترمذي كتاب (الجنائز)، باب (ما يستحب من الأكفان) ٢١٥/٤.

(٥) رواه البخاري كتاب (البيوع)، باب (تفسير المشبهات) ٧٢٤/٢.

ومعنى الحديث: (الولد للفراش): الولد تابع لصاحب الفراش وهو من كانت المرأة موطوءة له حين الولادة، (وللعاهر الحجر) للزاني الخيبة والحرمان ولا حق له في الولد. والعرب تكني عن حرمان الشخص بقولها: «لها الحجر وله التراب».

(٦) رواه البخاري كتاب (الزكاة)، باب (وجوب الزكاة) ٥٠٦/٢.

وفي هذا الحديث يتكلم الرسول الكريم عن الاعرابي الذي سأل عن أصول الإسلام وعزم على الالتزام بها من غير زيادة ولا نقصان.

(٩) واستمع إلى قوله صلى الله عليه وسلم يُرَغَّبُ في زيارة المريض: «من عاد مريضاً لم يزل في خُرْفَةِ الجنة حتى يرجع»^(١) وعائد المريض إنما يعود في بيته، إلا أن هذا العمل من شأنه أن يوصل فاعله إلى خُرْفَةِ الجنة، وهو مكان جني ثمرها، فهو من اطلاق المسبب وإرادة السبب، هو مجاز مرسل إذن علاقته المسببية.

(١٠) ومثل هذا قوله صلى الله عليه وسلم: «لا تُشَدُّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى»^(٢)، وشد الرحال إنما هو ناشئ عن العناية والاحلال، فهو مجاز مرسل علاقته المسببية كذلك. وهذا كثير في كلامه صلى الله عليه وسلم.

(١) رواه مسلم كتاب (البر والصلة والآداب)، باب (فضل عيادة المريض) ١٩٨٩/٤.

وفي رواية (مَخْرَفَةٌ) وهي سكة بين صفيين من نخل، يخترق (يجني) من أيهما شاء. وقيل: المخرقة: الطريق. أي أنه على طريق تؤديه إلى طريق الجنة. أما (خرقة الجنة) فهي اسم ما يجنى من النخل حتى يدرك.

(٢) رواه البخاري كتاب (التطوع)، باب (فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة) ٢٩٨/١.

ورواه مسلم كتاب (الحج)، باب (سفر المرأة مع محرم إلى حج وغيره) ٩٧٥/٢.

المجاز العقلي في قوله صلى الله عليه وسلم:

(١) قال صلى الله عليه وسلم: «عليكم هدياً قاصداً، فإنه من يُشَادَّ هذا الدِّينَ يَغْلِبْهُ»^(١) وهو مجاز عقلي علاقته المفعولية كما عرفت من قبل لأن المراد هدياً مقصوداً.

(٢) ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: «كُلُّ هَوًى شَاطِنٍ فِي النَّارِ» وهذا مجاز لأنه وصف الهوى بالشطون وهو البعد وأراد به تباعد صاحبه عن الرشد، وتراميه إلى الغي، وقال أبو عبيدة: «الشاطن ها هنا الْمُغَوِّجُ عن الحق، والهوى على الحقيقة ليس بجسم فيوصف بالقرب والبعد والزوال واللبث، وسمي الشيطان شيطناً لأنه شطن عن أمر ربه أو أبعد في مذاهب غيه، ومنه قيل نَوِيَّ^(٢) شَطْوَانٍ وَبُئِرُ شَطْوَانٍ ومن ذلك سمي الحبل شطناً لأنه يبلغ القعر العميق والماء البعيد. وفي هذا الخبر أيضاً مجاز آخر، وهو أنه عليه الصلاة والسلام جعل الهوى الشاطن في النار، ومراده صاحب الهوى الشاطن وهو الذي يمتد به هواه فيقذفه في المضال ويحمّله على المزال، ونظير هذا: الخبر الآخر، وهو قوله عليه الصلاة والسلام: «عليكم بالصدق فإنه من البرّ وهما في الجنة وإياكم والكذب فإنه من الفجور وهما في النار»^(٣) وأراد عليه الصلاة والسلام صاحب الصدق والبرّ، وصاحب الكذب والفجور»^(٤).

وإن أردت مزيداً من جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم فكتب السنة زاخرة ونرشدك إلى المجازات النبوية للشريف الرضي، وإلى الفصل الذي كتبه أديب العربية الأستاذ مصطفى صادق الرافعي - رحمه الله - في كتابه إعجاز القرآن.

(١) أخرجه أحمد في المسند ٤/٤٢٢ من حديث أبي برزة الأسلمي.

(٢) النووي: الرفيق في السفر.

(٣) أخرجه ابن ماجه/ أبواب الدعاء حديث رقم (٢٨٤٩) - ص ٥٥٠

وأخرجه الإمام أحمد - مسند أبي بكر الصديق - حديث رقم (٤)، (١٧).

(٤) المجازات النبوية ص ٧٦.

بلاغة الاستعارة

اسلوب الاستعارة من أكثر الأساليب تأثيراً في النفس، وارهافاً للحس، ولذا فقد كثرت في الكلام المطبوع من شعر الجاهليين، كما كثرت في كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، من قبل أن تقعد له القواعد، وقد تقدم لنا من قبل تقسيم الاستعارة إلى خاصة وعامة، وبيننا أن من روعة الاستعارة أنها تجمع بين الحقائق المتباعدة، فهي إذن ليست محسناً بلاغياً ككثير من المحسنات، إنما هي جوهر الأسلوب الأدبي وركيزته الأولى، صحيح أن هذه الاستعارة لا ينبغي أن تكون متكلفة، ولذا نجد النقاد عابوا على بعض الشعراء بعض استعاراتهم.

إن وظيفة الاستعارة إذن لا تقف عند مجرد التزيين والتحلية، كما أنها ليست شرحاً ولا توضيحاً، وليست تقوية ولا تدعيماً لمعنى نثري، وإنما تبدو قيمتها في الحقيقة في أنها وسيلة اكتشاف العالم الداخلي للشاعر، بكل ما فيه من خصوصية وتفرد وتميز، لا تستطيع اللغة العادية التجريدية أن تعبر عنه أو توصله إلى القارئ، وعلى ذلك يتحدث ناقد معاصر عن الاستعارة فيقول:

«الاستعارة تقرب بين حقيقتين بعيدتين إحداهما عن الأخرى كل البعد، وقد تجردتا من أي علاقة يمكن فهمها، فهذه الاستعارة أكثر من أن تكون مجرد استعارة عادية، وربما هي التي تتضمن الاداة المثلث في المعرفة»^(١).

ولقد عرفنا عندما تحدثنا عن التشبيه أن الشيء الواحد يمكن أن يكون مشبهاً به من جهات كثيرة، وهذا المعنى أكثر وضوحاً في الاستعارة، ولا عجب إذن أن الاستعارة يمكن أن تكون سبباً في تغيير كثير من الأخلاق، فلطالما كانت سبباً في كرم بخل وجوده وجرأة جبان وشهرة خامل، أليست تظهر الجماد بصورة الناطق؟ أليست تكسو الأشياء الجرداء حُللاً قشبية^(٢) خضراء؟ ألم تر كيف اعطتك المعاني الكثيرة بأقل الألفاظ، وهي مع ذلك كله تجسّد لك الانفعالات والمشاعر، ألم تر أنك تلمس فيها الجدة فتأنس إليها نفسك، فتجد الكلمة الواحدة تصاغ في أكثر من قالب وتصور بأكثر من ريشة واحدة؟، ومع ذلك فإنك تجد لكل صورة عناصر جمالها الخاصة بها، وأسباب الحس، وملاعب العواطف.

(١) فن الاستعارة دراسة تحليلية في البلاغة والنقد مع التطبيق على الأدب الجاهلي/ د. أحمد عبد السيد الصاوي - الهيئة المصرية العامة للكتاب فرع الإسكندرية ص ٣٤٤.
(٢) القشيب: الشيء الجديد النظيف الحسن.

ولقد مر معك الكثير من هذا، وأزيدك على ما تقدم فنقف أمام هذين المثالين أحدهما قول كثير^(١):

غَمَرُ الرَّدَاءِ إِذَا تَبَسَّمَ ضَاحِكًا غَلَقَتْ لِضِحْكَتِهِ رِقَابُ الْمَالِ
أما المثال الآخر^(٢):

يُنَازِعُنِي رِدَائِي عَبْدُ عَمْرٍو رُوَيْدَكَ يَا أَخَا عَمْرٍو بْنِ بَكْرِ
لِي الشَّطْرُ الَّذِي مَلَّكَتْ يَمِينِي وَدُونَكَ فَاعْتَجِرْ مِنْهُ بِشَطْرٍ

ذكرت كلمة الرداء في كل من البيتين كما رأيت وهي مستعارة في كلا الموضعين، ولكن الذي يزيدك عجباً أنها استعيرت في البيت الأول لغير ما استعيرت له في البيت الثاني، فقد استعيرت في البيت الأول للمعروف، والمعنى الذي تصوره الشاعر والذي يجمع بين المستعار والمستعار له، أي بين الرداء والمعروف بديع لطيف المأخذ، ذلك أن الرداء يستر صاحبه ويرد عنه سوءاً ويقيه ضرراً، وليس المعروف في ذلك كله بأقل من الثوب، وكلمة (غمر) جاءت تجريداً للاستعارة لأنها تلائم المشبه وهو المعروف، لأن الغمر: الكثير، فلا يقال كثير الثوب ولكن كثير المعروف، ثم يكمل الصورة بقوله: «إذا تبسم ضاحكاً غلق لضحكته رقاب المال» يقال غلق الرجل، إذا ضجر وغضب، وغلق الرهن في يد المرتهن إذا لم يستطع صاحبه أن يرده إليه. ومعنى البيت أن المدحوح إذا تبسم ضاحكاً غضبت الأموال وأيقنت أنها ذاهبة من عند صاحبها مملوكة لغيره.

ولنأت للمثال الثاني الذي ذكرت فيه كلمة (الرداء). ولكنه ليس المعروف هنا، إنما هو السيف، واستعارة الرداء للمعروف رأينا فيها جمال الصورة ودقة المسلك ولطف المأخذ، ولكن ما معنى استعارة الرداء للسيف؟ فإذا عرفنا أن السيف يقي صاحبه الشر، ويرد عنه غائلة السوء وعوادي الأذى، أدركنا جمال الاستعارة ودقتها وما لها من شأن، إلا أن الاستعارة الأولى كانت مجردة لأنها ذكر فيها ما يلائم المشبه وهي كلمة الغمر لأنها تلائم المال، أما هذه فمرشحة، لأنه ذكر فيها ما يلائم المشبه به وهو الرداء، وهي كلمة (الاعتجار) لأن الاعتجار هو التلطف والتلف بالثوب، ولتكمل الحديث عن هذه الصورة.

فلقد عبر عن السبب الذي من أجله مد السيف إلى عبد عمرو بالمنازعة، فكأن السيف وهو بينهما يتجاذبه كل منهما فيقول له رويدك يا هذا، ليكن السيف بيننا وليأخذ كل منا بشطر

(١) الإيضاح ١٧١/٢، شروح التلخيص ٢٥٥/٤.

(٢) الكشاف ٤٩٨/٢، اعتجر: يقال اعتجر بالعمامة إذا لفها على رأسه.

منه. أما أنا فلي الشطر الذي ملكته يدي ويعني به مقبض السيف، وأما أنت فخذ الشطر الآخر واعتجر به وهذا من قبيل التهكم، فقد عبر عن اختراق السيف لصدرة بالاعتجار والتلفع، ولذا فهم يقولون: إن الاستعارة أبلغ من الحقيقة، ولكن ليس معنى هذا أن المعنى الذي تدل عليه الاستعارة أكثر من المعنى الذي تدل عليه الحقيقة، فإذا قلت «رأيت بحراً» وتعني الجواد الكريم فليس معنى هذا أن هذا القول - اعني قولك - «رأيت بحراً» - يدل على الكرم أكثر من قولك «رأيت جواداً» أو «رأيت كريماً»، أي أن الاستعارة ليس فيها زيادة كم على ما في الحقيقة، كذلك إذا قلت: «رأيت أسداً» و«رأيت شجاعاً»، لا تدل الأولى على أنه أكثر شجاعة، كل ما تدل عليه الاستعارة أنها تقرب المعنى وتؤكد به وتزيد وضوحاً، ولقد فطن الشيخ عبد القاهر إلى هذه الحقيقة فهو يقول: «اعلم أن سبيلك أولاً أن تعلم أن ليست المزية التي تثبت لها الأجناس على الكلام المتروك على ظاهره والمبالغة التي تدعى لها في أنفس المعاني التي يقصد المتكلم إليها بخبره، ولكنها في طريق اثباته لها وتقريره إياها...

كذلك ليست المزية التي تراها لقولك «رأيت أسداً» على قولك «رأيت رجلاً» لا يتميز عن الأسد في شجاعته وجرأته»، أنك قد افدت بالأول زيادة في مساواته بالأسد، بل إنك افدت تأكيداً وتشديداً وقوة في اثباتك له هذه المساواة، وفي تقريرك لها، فليس تأثير الاستعارة إذن في ذات المعنى وحقيقته بل في إيجابه والحكم به.

وهكذا قياس المثل ترى المزية أبداً في ذلك تقع في طريق اثبات المعنى دون المعنى نفسه، فإذا سمعته يقولون: إن من شأن هذه الأجناس أن تكسب المعاني نبلاً وفضلاً، وتوجب لها شرفاً، وأن تفخمها في نفوس السامعين، وترفع أقدارها عند المخاطبين فإنهم لا يريدون الشجاعة والقرى وأشباه ذلك من معاني الكلم المفردة، وإنما يعنون اثبات معاني هذه الكلم لمن تثبت له، ويخبر بها عنه»^(١).

بعد هذا يمكننا أن نجمل خصائص الاستعارة ومميزاتها فيما يلي:

١- التزيين أو التجميل.

٢- الاختصار أو الإيجاز.

٣- الجودة.

٤- الإيضاح.

وقد تضمن كلام الشيخ عبد القاهر هذه الخصائص، يقول: «اعلم أن الاستعارة في الحقيقة هي في هذا الضرب دون الأول، وهي أمد ميداناً وأشد افتتاناً، وأكثر جرياناً وأعجب

(١) دلائل الإعجاز ص ١١٤ / تعليق محمد عبد المنعم خفاجي.

حسناً وإحساناً، وأوسع سعة، وأبعد غوراً وأذهب نجداً في الصناعة وغوراً^(١)، من أن تُجمع شُعْبُها وشُعُوبُها وتحصر فنونها وضروبها، نعم واسحر سحراً، وأملأ بكل ما يملأ صدرأ ويمتّع عقلاً، ويؤنس نفساً ويوفر أنساً وأهدى إلى أن تُهدى إليك عذارى قد تخير لها الجمال، وعُني بها الكمال، وأن تُخرج لك من بحرها جواهر إن باهتُها الجواهر مدت في الشرف والفضيلة باعاً لا يقصر وأبدت من الأوصاف الجليّة محاسن لا تنكر وردت تلك بصفرة الخجل ووكلتها إلى نسبتها من الحجر، وأن تُثير من معدنها تبرأ لم تر مثله، ثم تصوغ فيها صياغات تعطل الحلى، وتترك الحلى الحقيقي، وأن تأتيك على الجملة بعقائل يأنس إليها الدين والدنيا وشرائف لها من الشرف الرتبة العليا، وهي أجل من أن تأتي الصفة على حقيقة حالها، وتستوفي جملة جمالها.

ومن الفضيلة الجامعة فيها: أنها تبرز هذا البيان أبداً في صورة مستجدة تزيد قدره نبلاً وتوجب له بعد الفضل فضلاً، وإنك لتجد اللفظة الواحدة قد اكتسبت فيها فوائد، حتى تراها مكررة في مواضع، ولها في كل واحدة من تلك المواضع شأن مفرد، وشرف منفرد وفضيلة مرموقة وخلابة موموقة.

ومن خصائصها التي تذكر بها، وهي عنوان مناقبها أنها تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ، حتى تخرج من الصدفة الواحدة عدة من الدرر وتجني من الغصن الواحد أنواعاً من الثمر.

وإذا تأملت أقسام الصنعة التي بها يكون الكلام في حدّ البلاغة، ومعها يستحق وصف البراعة، وجدتها تفتقر إلى أن تُغيرها حلاها، وتقصر عن أن تنازعها مداها، وتصادفها نجوماً هي بدرها وروضاً هي زهرها، وعرائس ما لم تعرها حليها فهي عواطل وكواعب ما لم تحسنها فليس لها في الحسن حظ كامل، فإنك لترى بها الجماد حياً ناطقاً، والأعجم فصيحاً، والأجسام الخرس مبينةً والمعاني الخفية بادية جليّة.

وإذا نظرت في أمر المقاييس وجدتها ولا ناصر لها أعز منها، ولا رونق لها ما لم ترزنها، وتجد التشبيهات على الجملة غير معجبة ما لم تكنها وإن شئت أرتك المعاني اللطيفة التي هي من خبايا العقل كأنها قد جسمت حتى رأتها العيون، وإن شئت لطف الأوصاف الجسمانية حتى تعود روحانية لا تنالها إلا الظنون^(٢).

وكل الذي تقدم كان حديثاً عن الاستعارة نفسها، وينبغي أن لا تنسى أننا ينبغي أن نضيف إلى ما ذكرناه من قبل قضية لها شأنها وخطرها، وهي أن الاطار الذي توضع فيه

(١) الغور: هو ما انخفض من الأرض، والنجد: ما ارتفع منها.

(٢) أسرار البلاغة ص ٤٦ - ٤٨ / تحقيق محمد عبد العزيز النجار.

الاستعارة، والقالب الذي يحيط بها، لا بد أن يكون متناسباً متلائماً في قوته وحسنه، فتجمل به الاستعارة وتكمل، ولا تكون كالدرة النفيسة في اللعبة الرخيصة، أو كالعرق الأخضر في الأرض الجرداء. ذلك أن الاستعارة وما يشبهها من الأساليب البلاغية يمكن أن تسمو بالمعنى الذي تحدثت عنه، وإن لم يكن شيئاً يذكر، كما أن المعنى الجيد قد يذهب بجودته القالب الركيك الذي صيغ فيه. يقول الأستاذ أحمد حسن الزيات: «وربما جعلوا سر البلاغة في جمال الصياغة، قال أبو هلال: «وليس الشأن في إيراد المعاني، لأن المعاني يعرفها العربي والعجمي والقروي والبدوي، وإنما هو في جودة اللفظ وصفائه، وكثرة طلاوته ومائه، مع صحة السبك والتركيب، والخلو من أود النظم والتأليف، وليس يُطلب من المعنى إلا أن يكون صواباً، ولا يقنع من اللفظ بذلك حتى يكون على ما وصفناه من نعوته التي تقدمت... ولهذا تأثق الكاتب في الرسالة والخطيب في الخطبة والشاعر في القصيدة ببالغون في تجويدها، ويغفلون في ترتيبها ليدلوا على براعتهم... ولو كان الأمر في المعاني لطحوا أكثر ذلك فربحوا كدّاً كثيراً»^(١).

والحق أن أظهر الدلالات في مفهوم البلاغة هي أناقة الديباجة ووثاقة السرد ونساعة الإيجاز وبراعة الصنعة فإذا كان مع كل ذلك المعنى البكر والشعور الصادق كان الإعجاز. وليس أدل على أن الشأن الأول في البلاغة إنما هو لرونق اللفظ وبراعة التركيب من أن المعنى المبذول أو المرنول أو التافه قد يتسم بالجمال ويظفر بالخلود إذا جاد سبكه وحسن معرضه، ولا بأس أن أقدم إليك مثلاً من آلاف الأمثلة بلغ معناه الغاية في السوقية والفحش، ومع ذلك تحب أن تسمعه وتحفظه وتعيده لأنه بلغ من سر الصناعة غاية تطلع دونها أكثر الأقلام.

قال أبو العيناء الأعمى لابن ثوبة: «بلغني ما خاطبت به أبا الصقر وما منعه من استقصاء الجواب إلا أنه لم ير عرضاً فيمضغه ولا مجداً فيهدمه»، فقال له ابن ثوبة: «ما أنت والكلام يا مكدي»^(٢).

فقال أبو العيناء: لا ينكر على ابن ثمانين سنة قد ذهب بصره وجفا سلطانه، أن يعول على اخوانه... ثم رماه بمعنى فاحش مكشوف فقال له ابن ثوبة «الساعة أمر أحد غلماني بك»، فقال له أبو العيناء: «أيهما؟ الذي إذا خلوت ركب، أم الذي إذ ركبت خلا؟».

فانظر في هذه الجملة الأخيرة تراه رمى ابن ثوبة في نفسه وفي زوجه، وهما معنيان سوقيان يترددان كل ساعة على ألسنة السبّابين من أوشاب العامة، وإنك مع ذلك تقف من هذه الجملة موقف المشدود المعجب، تحرك بها لسانك، وتعمل فيها فكرك، وتعرضها على مقاييس البلاغة وشروطها فتطول على كل قياس وتزيد على كل شرط. تأمل هذا الإيجاز البارح بحذف

(١) انتهى كلام أبي هلال، ثم يتابع الزيات كلامه: (والحق أن أظهر الدلالات....

(٢) المكدي: الذي يسال الناس.

متعلقات الفعلين (خلا وركب) وفيها جوهر المعنى واصابة الغرض؛ تجد سر البلاغة كله فيه لأن هذا الحذف مع وضوح المعنى قد نزه الكلام عن صراحة الفحش وصان المتكلم عن ذكر القبيح، فلو أنه قال خلوت بكذا وخلا بكذا، وركبت كذا وركب كذا، لأنحط الكلام عن مقام البلاغة وصار بهذر العامة وكان بحسب البليغ هذا الإيجاز المشرق ولكنه ضم إليه أنواع البديع (العكس) ، (اسلوب الحكيم) فعكس الفعلين واستعملهما في معنيين مختلفين، وكل ذلك في غير تكلف ولا تعسف ولا غموض.

فأنت ترى أن الصياغة وحدها هي التي سمت بهذه المعاني الخسيسة إلى أفق البلاغة فتداولتها الألسن وتناقلتها الكتب، وليس حال المعنى في ذلك حال اللفظ فإن اللفظ في ذاته كال موسيقى يخلب الأذن ويلف الشعور وإن لم يترجم، أما المعنى فكال كهرباء، إذ لم يكن لفظه جيد التوصيل انقطع تياره فلا يعرب ولا يطرب، اقرأ قول القائل:

لَمَّا أَطْعَمْنَاكُمْ فِي سُخْطٍ خَالِقِنَا لَا شَكَّ سَلَّ عَلَيْنَا سَيْفَ نِقْمَتِهِ
ثم وازن معناه الشريف ونسجه السخيف، بما رويت لك من كلام أبي العيلاء، فلا يسعك إلا أن تقول كما أقول:

«إن القدر يوضع في أنية الذهب فيقبل ويحمل، وإن المسك يوضع في نافجة»^(١) الطين فيرفض ويهمل»^(٢).

والذي قاله الأستاذ الزيات - رحمه الله - ومع ما استوفاه من تأمل وتأنق إلا أن من الحق أن نقرر هنا أن المعنى الذي استوفى جمال الصياغة وعناصر البلاغة، لا ينبغي أن يكون فيه اسفاف ورعونة، فيؤدي ويذهب بالقيم التي تنمي الفضيلة وتسمو بالحق، والذي نراه أن القيم على تعددها ينبغي أن يوازن بعضها بعضاً، فقيمة الجمال حري بها أن تشد من أزر الحق والخير، ولا تنفصل هذه القيم بعضها عن بعض بما يترتب على هذا الانفصال والانفصام من اضرار ومفاسد، فإذا انفردت قيمة الجمال عن قيمة الحق فسد الخلق، وإذا انفصلت قيمة الخير عن قيمة الجمال فسد الذوق، اذكر لك مثالين لتوازن بينهما من حيث الشكل والمضمون، والنتيجة مترتبة عليهما معاً.

أما الأول: «فما روي عن سيدنا علي كرم الله وجهه: «ألا إن الخطايا خيل شمس حُمِلَ عليها أهلها، وخُلِعَتْ لُجُمُهَا، فَتَقَحَّمَتْ بِهِمْ فِي النَّارِ. وَإِنِ التَّقْوَى مَطَايَا ذُلٍّ حُمِلَ عَلَيْهَا أَهْلُهَا، وَأُعْطُوا أَرْزَمَتَهَا، فَأَوْرَدَتْهُمْ الْجَنَّةَ» تجد هنا صورتين: صورة الفرس الشموس لم يروض ولم

(١) النافجة: وعاء المسك.

(٢) دفاع عن البلاغة ص ٢٥ - ٢٨.

يلجم فيندفع براكبه جامحاً لا يثنى حتى يتردى به في جهنم، وصورة الناقة الذلول قد سلس خطوها وخف عنانها فتنتلق بصاحبها في رسم كالنسيم حتى تدخل به الجنة. ثم تجد عاطفتين: عاطفة النفور من الألم الذي يشعر به الخاطئ المستطار وقد جمحت به خطاياها الرعن في اوعار الأرض حتى ألقته في سواء الجحيم، وعاطفة الميل إلى لذة المتقي الوداع وقد سارت به تقواه سيراً ليناً حتى ابلغته جنة النعيم.

ذلك من حيث المضمون، أما من حيث الشكل فتجد اختيار الألفاظ المناسبة كالمطايا وما يلائمها من الانقياد والايراد هنا، وكالخيول وما يوائمها من الشماس والتقحم هناك. والفروق الطبيعية بين هذين الحيوانين في هذين المكانين لا تخفى على ذي لب، ثم تجد بعد ذلك هذا التأليف المتوازن المحكم الرصين وهذه المقابلة البديعية بين عشرة معان لا تكلف في صوغها ولا تعسف»^(١).

والمثال الثاني فهذه الأبيات التي نقلها ابن الأثير في المثل السائر وهو يتحدث عن الاستعارة وهو قول عبد السلام بن رغبان المعروف بديك الجن:

لَمَّا نَظَرْتُ إِلَيَّ عَنْ حَدَقِ الْمَهَا وَيَسَمْتُ عَنْ مُتَفَتِّحِ النُّوَارِ
وَعَقَدْتُ بَيْنَ قَضِيبِ بَانَ أَهْيَفٍ وَكَثِيبِ رَمْلٍ عُقْدَةَ الزُّنَارِ
عَفَرْتُ خَدِّي بِالنَّارِ لَكَ طَائِعَاً وَعَزَمْتُ فِيكَ عَلَى دُخُولِ النَّارِ^(٢)

«وهذه الأبيات لا تجد لها في الحسن شريكاً، ولأن يسمى قائلها شحوراً أولى من أن يسمى ديكاً»^(٣).

وانظر إلى القيمة في كل من القولين وستجد البون الشاسع.

وخلاصة القول أننا كما ينبغي أن نعتد بجمال الصياغة في الاستعارة البليغة، وروعة الأسلوب وجودة السبك، وأصالة المعنى، فحري أن لا نهمل القيمة التي تبعث بها الاستعارة إلينا، حتى لا تطفئ قيمة على قيمة، وإذا كان ذلك عاماً في الأساليب البلاغية، فهو في الاستعارة أولى لما لها من أثر في النفس.

وانقل هنا كلمة للأستاذ عبد الحميد الفراهي، اختتم بها هذا الباب، يقول: «فاعلم أن النطق زهرة تخرج من كمال الفهم، وصلاح البنية، فليس لأحد من الحيوان فطنة كفطنة

(١) دفاع عن البلاغة ص ٦٣ - ٦٤.

(٢) المها: جمع مهاء وهي البقرة الوحشية، النوار: الزهر، البان ضرب من الشجر.

(٣) المثل السائر لابن الأثير ١/٣٧٧.

الانسان، ولا لسان كلسانه، فمن كان أكملهم علماً وجسماً كان أشرفهم، ولا يخفى عليك أن اللسان طوعُ الفهم بعدما سُوِّيت خلقته فهو آلهٌ يقبلها العقل. وهذا الأمر يهديك إلى أن حسن النطق ليس في الحقيقة من جهة نغمته، كنغمة البلب، بل حسنه في كونه آلهٌ صحيحةٌ للعقل، لكيلا يَقْصُرَ أدنى الإقْصَار عن افْصَاح ما أَرادَه العقل، وعن ابلاغه إلى قلب السامع، فالنطق هو الرسول بين العقل والعقل، فاجعل هذا الأمر الفطري أُمُّ الأمر، وقطبَ رحاه، لا المحاكاة؛ فإنها أمر ثانوي لتكتسب به وسائل النطق، فلو لم يكن النطق في الانسان لما استطاع المحاكاة، فإن نظرنا من جهة الحكمة إلى أسباب الكلام تبين لنا أن قوة النطق هو العلة الفعلية. وأما المعاني ثم الألفاظ فهما المادة، فالنطق يأخذ المعاني ويلبسهما الفاظاً، سواء كانت مما ابتدعها أو مما تعلمها الانسان بوسيلة المحاكاة، وأما العلة الغائية فرسالة العقل، فإن الأمر العام الذي يجري إليه النطق ليس غير هذا، وأما اللذة فليس من غاية الكلام بل ما من قوة إلا وفي استعمالها لذة، كأنَّ كُلَّ قوة بطبعها تشاقُّ البروز إلى الفعل، فالجاهل يستعمل القوة للذة والعامل لحكمتها، فحكمتها أحق بإسم الغاية. وأما العلة الصورية فحسن الكلام، فلا يكون كماله إلا من جهة كمال الإبلاغ، فالإبلاغ هو معيار حسن الكلام.

واعلم أن حسن البلاغ وكماله يحتوى حسن ما يُبلَّغُه من الصور والمعاني، وهو أولى باللحاظ فلا نقيم وزناً للكلام أبْلَغُ بكمال الصحة شيئاً خبيثاً من نفس متدنسة، فالخَرَسُ أَحْسَنُ من هذا النطق، وهذا رأي يستدعي بياناً لصحته، فإن أبا جعفر قدامة صاحب نقد الشعر وهو أول من جعله فناً من العلوم، قال قولاً يضل به الغافل، وإن كان له وجه صحيح فقال: «ليس فحاشة المعنى في نفسه مما يزيل جودة الشعر فيه، كما لا يعيب جودة النجارة في الخشب مثلاً رداً في ذاته»، وقال أيضاً: «إن الشاعر ليس يوصف بأن يكون صادقاً، بل إنما يراد منه إذا أخذ في معنى من المعاني كأنه ما كان أن يجيده في وقته الحاضر، فلم يرد من الشعر إلا شيئاً نازلاً وبضاعةً دنيئةً كما هو وجه أكثر المنتسبين إليه، وإليهم الإشارة في قوله تعالى: (وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ) [الشعراء ٢٢٤] ونحن نلتمس محاسن الكلام كما يليق به، وكما وضعته الفطرة الإلهية، ويقتضيه كمال قوة النطق، ويستعمله الشاعر أو الخطيب الجدير بهذا الإسم»^(١).

فاعلم أن الشعر ليس إلا قسماً من أقسام الكلام، والكلام ليس اسماً للجرس المحض، بل هو شيء مركب من المعنى والصوت، والشيء المركب يحكم بحسنه لحاظاً إلى أصل الأمر فيه. مثلاً إنك لا تصف بالملاحه وجه رجل أعور أفطس إذا وجدت إحدى عينيه

(١) هنا انتهى كلام قدامة، ثم يتابع الفراهي كلامه: فاعلم أن الشعر...

مليحة، فكذلك الأمر في حسن الكلام، نعم إن شئت قلت: إن وزن هذا الشعر أو صوته حسن. ثم نُؤزِرُ هذا الرأي بأمر اقرب إلى الكلام من جهة الإبلاغ، وهو أن الكلام لا يبلغ قلب العاقل إلا أن يكون معناه شريفاً، ولا اعتبار لتأثر الحمقى والأشرار، فإننا إنما نعطي الأشياء اسماً لحاظاً إلى سلامة الحال، وإلا لزمك أن تسمي الكلام حسناً وقبيحاً معاً، أو لا تسميه شيئاً. وهذا أمر يتضح لك كل الإيضاح إذا بحثنا عن أسباب بلوغ المعاني القلوب، فترى أن الألفاظ ربما تصرف عن قواعدها الصحيحة العامة لأجل المعنى الذي يبلغ نفسه بقوة فيه ويجد الألفاظ حجاباً وثقلاً عليه، كما أن ملكاً جعل نفسه سفيراً، فالبليغ هو المعنى، واللفظ مركبه، فالمعنى أجدر باللحاظ في حسن الكلام. فذاك برهانان، ثم نعرزهما بثالث: وهو أن العرب لم يحمداوا الكلام إلا لحسن معناه، وليس لهم نزوع إلى قولٍ أدنى الخبث، فإنهم يذمون ويستحقرونه، كما قال زهير بن أبي سلمى^(١):

وَذِي نِعْمَةٍ تَمَمَّتْهَا وَشَكَرْتَهَا وَخَصِمٌ يَكَادُ يَغْلِبُ الْحَقَّ بَاطِلُهُ^(٢)
دَفَعَتْ بِمَعْرُوفٍ مِّنَ الْقَوْلِ صَائِبٍ إِذَا مَا أَضَلَّ النَّاطِقِينَ مَفَاصِلُهُ^(٣)
وَذِي خَطَلٍ فِي الْقَوْلِ يَحْسَبُ أَنَّهُ مُصِيبٌ فَمَا يَلْمُ بِهِ فَهُوَ قَائِلُهُ^(٤)
عَبَاتَ لَهُ حِلْمًا وَأَكْرَمَتْ غَيْرَهُ وَأَعْرَضَتْ عَنْهُ وَهُوَ بَادٍ مَقَاتِلُهُ^(٥)

فانظر كيف جعل معروف القول صائبه، وبيّن أن حسن القوافي ربما يضل الناس، ولكن بازاء المعروف يضمحل رونقه، فإذا جاء الحق زهق الباطل، ثم كيف استحق من يقول كل ما يجري على لسانه، ولم يرد أنهما لم يبلغا معناه، ولكنه عده غير صائب نكر، ذا خطل يرده القلب، فهل تظن أنهم يسمون أمثاله بليفاً، أم تظن إن رأيت بذيئاً يشتم أحداً، ذاهباً في كل مذهب من الاستعارة والتشبيه، ومصوراً لكل أمرٍ قبيح، فهل تسميه بليفاً أو فصيحاً، فهذا يبين لك أن حسن الكلام تابع لحسن المعنى، فلا تسمي الكلام حسناً إلا بعد أن حسن معناه، ولا نترك للكلام فضيلة إلا صحة الاداء، فإذا أدى الكلام من قلب المتكلم أدى حقه، ولكنه مع ذلك غير بليغ إن لم يكن المعنى مما يبلغ القلب، وكثر في كلام العرب ذم الفحش والخنا والهجر

(١) ديوانه ص ٥٦، والقصيدة في مدح حصين بن حذيفة.

(٢) يقول: تَنَعَّمُ فَتَتَمُّ ما انعمت به، وإذا أُسْدِيَتْ إِلَيْكَ نِعْمَةٌ شَكَرْتَهَا.

(٣) دفعت بمعروف: يريد: ورب خَصِمٌ دفعته بمعروف من القول، مفاصله: من قولهم (طبق المفصل) أي أن الجزار الحاذق إذا أراد أن يقطع اللحم اصاب المفصل، فأراد أنه إذا لم يهتد الناطقون إلى مفاصل الكلام، فإنك مهتد إليها.

(٤) الخطل في القول: الخطأ، ما يَلْمُ به: أي ما يحظره من الكلام، وهذا في وصف خصمه.

(٥) عبث له حِلْمًا: أراد: حلمت عليه وصفحت عنه وقد بدت لك مقاتله.

والبذاذة^(١)، حتى إذا خلط شعرهم بهذه المساوي صار ساقطاً، ألا ترى كيف أمر الحجر بقتل ابنه امرئ القيس لقول الشعر، وسماء الناس ضليلاً. وكيف ذموا النابغة لمدحه الملوك. والعرب تحب مدح الشاكر وذم الساخط وتأنف عن مدح المتذلل^(٢).

(١) البذاذة: رثاثة الثياب.

(٢) جمهرة البلاغة / المعلم عبد الحميد الفراهي - سلسلة الدائرة الحميدية / طبع بالهند سنة ١٣٦٠هـ، ص ٩ - ١١.

الباب الثالث الكناية

تعريفها وأركانها،

والكناية لغة أن نتكلم بالشيء ونريد غيره، وهي مصدر كالعناية والرماية والهداية، يقال هدى هداية، ورعى رعاية ورمى رماية وكنى كناية، والظاهر أن فعلها من نوات الياء، كنى يكنى مثل هدى يهدي ورمى يرمي، وحكى بعضهم فيه لغة أخرى وهي أنه واوي واستشهدوا له بما أنشده الجوهري^(١).

وإنِّي لأَكْنُو عَنْ قَدُورٍ بَغْيَرَهَا وَأَعْرِبُ أَحْيَانًا بِهَا وَأَصَارِحُ
(وقدُر) بفتح القاف وضم الدال: اسم امرأة. والأول أفصح لأنهم يقولون في المصدر (كناية) ولم يقولوا (كناوة).

ومعرفة المعنى اللغوي تمهد لنا للمعنى الاصطلاحي، ومن هنا فقد عرفوا الكناية في الاصطلاح (بأن تريد المعنى وتعبر عنه بغير لفظه) كأن تريد اثبات الكرم لإنسان ما، ولكنك تعبر عنه بغير اللفظ الموضوع له، فتقول مثلاً: (كثير الرماد) ولا شك أن كثرة الرماد لم توضع لمعنى الكرم، وهذا الذي اختاره الشيخ عبد القاهر - رحمه الله - ، وقريب منه التعريف الذي اشتهر فيما بعد للكناية وهو (أن تطلق اللفظ وتريد لازم معناه مع قرينه لا تمنع من ارادة المعنى الحقيقي).

وهذا التعريف نستطيع ونحن نلقي الضوء عليه أن نفرق بين الكناية وبين المجاز، فلقد عرفت أن المجاز لا بد فيه من قرينة تمنع من ارادة المعنى الحقيقي، أما القرينة في الكناية فلا تمنع من ارادة المعنى الحقيقي، بل يجوز ارادته كذلك، وإنما قلنا يجوز ارادته لأن بعض الكنايات لا يمكن أن نحملها على المعنى الحقيقي للفظ، ومع ذلك فإن هذا لا يدخلها في المجاز، فالمعول في الكناية إذن أن تعبر عن المعنى بغير لفظه.

ومما سبق تدرك أن الكناية لا بد لها من أركان ثلاثة:

- ١- اللفظ المكنى به.
- ٢- المعنى المكنى عنه.
- ٣- القرينة التي تجعل المعنى الحقيقي غير مراد سواء كانت هذه الارادة ممكنة أم غير ممكنة.

وإليك أمثلة توضح ذلك كله:

إذا أردت أن تعبر عن ترف امرأة من النساء وعزها وغناها، يمكنك أن تعبر عن ذلك بقولك: « فلانة نؤوم الضحى » فنؤوم الضحى هو اللفظ الذي كنيته به، والترف والدلال هو المعنى الذي كنيته عنه، والقرينة معنوية يدل عليها السياق ولا ريب أن بإمكانك أن تريد المعنى الحقيقي كذلك، أي أنها كثيرة النوم تظل نائمة إلى هذا الوقت، وكذلك إذا قلت: « فلان كثير الرماد » فإنك تكني به عن كرمه، فالركن الأول: اللفظ الذي كنيته به، وهو «كثير الرماد» والركن الثاني: المعنى الذي كنيته عنه، وهو (الكرم) والركن الثالث: القرينة التي فهمت من تضاعيف الكلام وسياقه.

وهذا اللفظ قد لا يكون له وجود، فكثرة الرماد مثلاً لا وجود لها اليوم لأن أكثر الناس لا يستعملون الحطب، ومع هذا فتظل هذه الكناية باقية صحيحة الاستعمال بيئة في أسلوبها وقد نكني عن طول فلان بأنه (طويل النجاد) وهي حمائل السيف، وأنت تعلم أنه لا سيف اليوم ولا سكين ولكن هذه الكناية باقية وقد تعبر عن كرم شخص وعزه بقولك: «المجد بين ثوبيه» كناية عن عزه وسؤدده، وأنت خبير بأن هذا التعبير لا يجوز أن نحمله على الحقيقة لأن المجد ليس شيئاً محسوساً حتى يلقي بين الثوبين.

بعد هذا تدرك أن أسلوب الكناية من الأساليب البيانية التي يتسابق فيها البلغاء وتتفاوت فيها أقدامهم ومنازلهم لأنه يحتاج إلى اللمحة الذكية والغوص على المعنى، والمجيء باللفظ الذي يمكن أن يدل عليه دون تكلف أو تصنع، فنحن في الكناية ننطق باللفظ وبالجمله من القول، لكننا نريد بها معنى آخر ولا نريد يقيناً معناها الحقيقي، ولا يضيرنا بعد ذلك أكان المعنى الحقيقي ممكناً كقولك: «نؤوم الضحى» و«كثير الرماد» أم غير ممكن كقولنا: «المجد بين برديه» وسواء كان لهذا اللفظ وجود، أم لم يكن له وجود كقولنا «كثير الرماد» و«طويل النجاد» فقد لا يكون رماد ولا نجاد ولكن تبقى اللفظ قيمته التعبيرية وأسلوبه البياني.

أقسام الكناية

ولقد اطبق العلماء على تقسيم الكناية إلى أقسام ثلاثة، ذلك لأنهم بعد البحث والاستقصاء وجدوا أن المعنى المكنى عنه إما أن يكون صفة كقولهم: « كثير الرماد » فإنه كناية عن الكرم، والكرم صفة - كما تعلم - لأنهم يقصدون بالصفة الصفة المعنوية وليس النعت عند النحويين وإما أن يكون موصوفاً وذلك كقول أمير الشعراء^(١):

وَلِي بَيْنَ الضُّلُوعِ دَمٌ وَلَحْمٌ هُمَا الْوَاهِي الَّذِي تَكَلَّ الشُّبَّابَا

(١) الشوقيات ٦٧/١.

فقد كنى بقوله هذا عن القلب، وإما أن يكون نسبة والنسبة هي اثبات شيء لشيء أو نفيه عنه، وذلك كالمثال المتقدم « الكرم بين برديه » والمراد اثبات الكرم للمدوح وسنحاول توضيح كل من هذه الأقسام الثلاثة ومن الله العون.

أولاً: الكناية عن الصفة:

ولكي يسهل عليك معرفة هذا القسم نبادر القول بعلاماته ومميزاته، فضابط هذا القسم أن تذكر الموصوف وتنسب له صفة، ولكنك لا تريد هذه الصفة وإنما تريد لازمها ففي قولك: «فلان كثير الرماد» ذكر للموصوف وهو فلان، وذكر لصفته وهي كثرة الرماد ولكنك لم ترد هذه الصفة نفسها، بل أردت صفة لازمة لها وهي الكرم لأن كثرة الرماد تنشأ عن كثرة النار، وهذه تنشأ عن كثرة الحطب وهي تنشأ عن كثرة الطبخ، وذلك نتيجة كثرة الضيفان، والكرم لازم لذلك كله وفي قولك: «خديجة نؤوم الضحى» ذكر للموصوف (خديجة) وذكر لصفته (نؤوم الضحى) ولكنك لم ترد الصفة نفسها وإنما أردت لازم هذه الصفة وهو الترف، لأن (نوم الضحى) ناتج عنه.

وفي قولك: «فلان طويل النجاد» ذكر للموصوف وذكر لصفته ولكنك تريد غيرها (طول القامة) ذلك لأن السبب في طول النجاد طول القامة، وقولك: «نحن أمة لانملك قلم الرصاص» كناية عن حرية التعبير، و«نحن أمة لاتملك سكيناً» كناية عن الضعف، فلقد ذكرت الموصوف ولكن الصفات التي ذكرتها ليست هي المقصودة بالذات، إنما قصدت ما تنشأ عنه هذه الصفات، وقولك: «ما أضيع الذين يطأطئون الجباه لغير الله» فلقد ذكرت الموصوف وذكرت له صفة وأردت لازمها وهو الذل.

ومن هذا قولهم: «فلان جبان الكلب مهزول الفصيل» كناية عن الكرم، فإن (جبان الكلب) هو من اعتاد كلبه رؤية الزائرين، ومن عادة الكلب أن ينبج كلما رأى غريباً في البيت، لكن كثرة الزائرين جعلت الكلب يترك نباحه، وكثرة الزائرين تدل على الكرم كما تعلم ومن هذا قول الشاعر^(١):

وَمَا يَكُ فِيَّ مِنْ عَيْبٍ فَأَنْتَ جَبَانُ الْكَلْبِ مَهْزُولُ الْفَصِيلِ

وأبدع من هذا قول نصيب^(٢):

لِعَبْدِ الْعَزِيزِ عَلَى قَوْمِهِ وَغَيْرِهِمْ مِثْلُ ظَاهِرَةِ

(١) هذا البيت لابن هرمة، الصناعتين ص ٢٤٢.

(٢) القصيدة في مدح عبد العزيز بن مروان، ديوان نصيب بن رباح ص ٩٩.

فَبَابُكَ أَسْهَلَ أَبْوَابِهِمْ وَدَارُكَ مَاهُؤْلَةٌ عَامِرَةٌ
وَكَلْبُكَ أَنْسٌ بِالزَّائِرِينَ مِنَ الْأُمِّ بِابْنَتِهَا الزَّائِرَةِ
وأبدع منه قول الآخر (١):

يَكَادُ إِذَا مَا أَبْصَرَ الضَّيْفَ مُقْبِلًا يَكْلُمُهُ مِنْ حُبِّهِ وَهُوَ أَعْجَمُ
فانظر الى هذه المبالغة في الكناية كيف جعل الكلب يكلم الضيفان، ويرحب بهم مع أنه لا يستطيع النطق، وأما قولهم مهزول الفصيل فهو كناية عن الكرم كذلك، فالفصيل ابن الناقة، إلا أن كثرة الضيوف وما يشربونه من لبن النياق، تجعل الفصل مهزولاً لأنه لا يشبع من لبن أمه، ومنه قول الشاعر وقد تقدم من قبل:

لَا أُمْتِعُ الْعُوْذَ بِالْفِصَالِ وَلَا أَبْتَاعُ إِلَّا قَرِيبَةَ الْأَجَلِ
فهو كناية عن الكرم لأنه لا يمتع النوق بأبنائها وفصلانها، فإنه ينحرها، كما أنه لا يبتاع الا قريبة الأجل، فهي لا تمكث في بيته بل تنحر عند دخولها بيته.

ومن هذا النوع من الكنايات قول الشاعر:

لَا يَرْفَعُ الضَّيْفُ عَيْنًا فِي مَنَازِلِنَا إِلَّا إِلَى ضَاحِكٍ مِنَّا وَمُبْتَسِمٍ
وهذه كناية بديعة أخرى عن الكرم، إذ يلزم من الضحك والابتسام في وجه الضيف الحفاوة به وهذا يستلزم الكرم، وهو من (الايماء) الذي سيمر بك بعد قليل.

وأبدع منه قول المتنبي في رثاء أحدهم (٢):

أَلَسْتُ مِنَ الْقَوْمِ الْأَلَى مِنْ رِمَاحِهِمْ نَدَاهُمْ وَمِنْ قَتْلَاهُمْ مُهْجَةُ الْبُخْلِ
فانظر كيف استعار للبخل مهجة، ثم للكرم رماحاً طعنت هذه المهجة، فهذه كناية عن كرمهم وافنائهم للبخل بجودهم.

ومنه قول الخنساء في أخيها صخر (٣):

(١) هذا البيت لابن هرمة، الحماسة ٢٤٨/٢

(٢) القصيدة في رثاء أبي الهيجاء عبدالله بن سيف النولة

الآلى: بمعنى اللذين، ندهم: كرمهم، يقول: - مخاطباً الميت - :

أنت من القوم الذين كرمهم من سلاحهم، والبخل من قتلاهم، أي أنهم أفنوا البخل بجودهم

(٣) لم أجد هذا البيت في ديوانها.

طَوِيلُ النَّجَادِ رَفِيعُ الْعِمَادِ كَثِيرُ الرَّمَادِ إِذَا مَا شَتَا

وهذه ثلاث كنايات عن ثلاث صفات، الأولى كناية عن الطول وهي (طويل النجاد)

والثانية عن السؤدد والرياسة وهي: (رفيع العمد) والثالثة عن الكرم وهي (كثير الرماد).

ومنه قول المتنبي^(١):

فَمَسَّاهُمْ وَبَسَطَهُمْ حَرِيرٌ وَصَبَّحَهُمْ وَيُسْطُهُمْ تُرَابٌ

يعني أنهم كانوا في المساء يتصفون بالعزيز والأمن، ولكن أصبحوا يتصفون بالذل، وهما كنايتان بديعتان (فبسطهم حرير) كناية عن عزهم وغناهم و(بسطهم تراب) كناية عن ذلهم وفقرهم، ومنه قول المتنبي^(٢):

تَشْتَكِي مَا اشْتَكَيْتُ مِنْ أَلَمِ الشُّوقِ إِلَيْهَا وَالشُّوقُ حَيْثُ النُّحُولُ

وهي كناية بديعة كذلك كنى بها عن صفة، وهي كذب محبوبته يقول انها تشتكي من الفراق، كما اشتكته، ولكنها كاذبة في شكواها وفيما تدعيه من شوق، فإن الشوق الصادق يبرح بصاحبه فيجعله نحيل الجسم، وهذا ما أصابني بالفعل، أما هي فليست كذلك، ومنه قوله يصف فرسه^(٣):

وَأَصْرَعُ أَيَّ الْوَحْشِ قَفَّيْتُهُ بِهِ وَأَنْزَلُ عَنْهُ مِثْلَهُ حِينَ أُرْكَبُ

يقول إن فرسه سريع أيا كان الوحش الذي يتبع هذا الفرس، ولكنه حين ينزل عنه لا يجد له تعباً ولا نصباً ولا سامة، فكلتا حالتيه سواء، حينما يركبه وحينما ينزل عنه، فهو فرس كريم عتيق، ومنه قوله في مديح سيف الدولة^(٤):

إِلَى كَمْ تَرَدُّ الرُّسُلَ عَمَّا أَتَوْا لَهُ كَأَنَّهُمْ فِي مَأْ وَهَبَتْ مَلَامٌ

ومعنى البيت: أنك ترد رسل ملك الروم الذين جاؤوا يطلبون الهدنة، غير مبال ولا متردد، وهذا الرد المنبعث من الثقة والقوة والجرأة والشجاعة، وما أشبه ردك لهؤلاء بردك الملامة عن نفسك بما وهبت من عطايا للسائلين، فكلمة (ملام) متعلقة بـ(ما وهبت) فهنا صفتان: الشجاعة والجدود وقد كنى عنهما كما رأيت.

(١) ديوان المتنبي ٢١٣/١.

(٢) ديوان المتنبي ٢٦٧/٣.

(٣) ديوان المتنبي ٢٠٤/١.

(٤) ديوان المتنبي ١١٠/٣.

ومنه بيت الحماسة^(١):

لَا يَسْأَلُونَ أَخَاهُمْ حِينَ يَنْدُبُهُمْ فِي النَّائِبَاتِ عَلَى مَا قَالَ بُرْهَانًا

والمقصود بهذا القول أن يبين شجاعتهم واسراعهم في اجابة الداعي وقال النابغة
يصف نساءً وهن في الأسر^(٢):

يُخَطِّطْنَ بِالْعِيدَانِ فِي كُلِّ مَنْزِلٍ وَيُخْبِرُنَّ رُؤْمَانَ النُّدِيِّ النَّوَاهِدِ

وشبيهه بهذا قول ذي الرمة^(٣)

عَشِيَّةَ مَالِي حِيلَةٌ غَيْرَ أَنْنِي بِلَقْطِ الْحَصَى وَالْخَطِّ فِي الْأَرْضِ مُوَلِّعٌ

أَخْطُ وَأَمْحُو الْخَطَّ ثُمَّ أُعِيدُهُ بِكَفِّي وَالْغُرْبَانِ فِي الدَّارِ وَقَعٌ

والتخطيط بالعيدان كناية عن الهم والحزن. (والغربان في الدار) كناية عن خلوها من
الناس.

ومنه قول طرفة بن العبد^(٤):

أَنَا الرَّجُلُ الضَّرْبُ الَّذِي تَعْرِفُونَهُ خَشَّاشُ كِرَاسِ الْحَيَّةِ الْمُتَوَقِّدِ

وهذا كناية عن الحذق والذكاء والمهارة.

ومنه قول أبي تمام في مدح ابن شبانة^(٥):

فَإِنْ أَنَا لَمْ يَحْمَدْكَ عَنِّي صَاحِرًا عَدُوُّكَ فَاعْلَمْ أَنَّنِي غَيْرُ حَامِدٍ

يقول مخاطباً ممدوحه: إذا لم يبلغ مدحي لك مبلغاً من الحسن والجمال بحيث يجبر
حسنه عدوك أن يحفظه وينشده - وبالتالي يكون هذا قمة الصغار والذل له، إذ يتغنى بمدح
عدوه - يقول إذا لم يكن مدحي كذلك فلا تعدني مادحاً. فانظر كيف كنى عن جودة مدحه، ثم
تخيل أي سعة من الخيال تمتع بها الشاعر وأي مستوى من النوق بلغ.

(١) شرح ديوان الحماسة ٢٢/١.

(٢) ديوان النابغة ص ٩٧، العمدة ٢٠٦/١.

(٣) ديوان ذي الرمة ص ٢٧٤ .. (والغربان في الدار وقع) أي الدار خالية والغربان فيها.

(٤) ديوان طرفة بن العبد ص ١١٤، الضرب: الخفيف اللحم، خشاش: رجل لطيف الرأس ماض سريع الدخول في
الأمور، المتوقد: الشديد النشاط

(٥) ديوان أبي تمام ٧٧/٢، والقصيد في مدح محمد بن الهيثم بن شبانة، وأراد أبو تمام بمدح عمو ممدوحه: حفظة
مدحه - أي مدح أبي تمام - وانشاده اياه

ومن الكنايات المشتهرة كذلك (فلانة ناعمة الكفين) (نقية الثوب) و (فلان طاهر الذيل) فالجملة الأولى كناية عن الترف والدلال، وفي الثانية كناية عن العفة والثالثة كذلك، ومن الكنايات المشتهرة «قرع فلان سنه» كناية عن الندم، لأن الإنسان حينما يندم يقرع أسنانه بعضها ببعض، و «فلان هجر الفأر بيته» كناية عن الفقر، و «فلان يشار اليه بالبنان» كناية عن الشهرة، و «فلان عريض القفا» كناية عن البله والخور أو الغباء، ومنها قولهم «فلان يمشي على بيض» إذا كان بطيئاً في مشيته، و «فلان ركب جناحي نعام» كناية عن سرعته، ومنها قولهم «فلان يمشي على ثلاثة» و «فلان لوت الليالي كفه على العصا»، هما كنيتان عن الكبر والهرم، «فلان قلع أسنانه» كناية عن التجربة والحكمة، و «فلان لا يرى غيره» كناية عن الكبر والاعجاب بالنفس، وقولهم «فلان منخرق الجيب» كناية عن كثرة الانفاق، «قوي الساعد مفتول العضلات» كناية عن القوة «رابط الجأش» كناية عن الشجاعة، «كثير الاخوان، لين الجانب» عن حسن الخلق واليسر في المعاملة.

هذه الكنايات إذا امعنت فيها النظر وجدت أن كل واحدة منها ذكر فيها الموصوف وذكر له صفة، إلا أنها لم تكن هي المرادة، انما المراد صفة غيرها، وهذا ضابط الكناية عن الصفة - كما عرفت من قبل - وهنا أمر آخر لابد أن أنبه عليه أرجع الى الكنايات السابقة تجد أن بعضها كثرت فيه الوسائط على حين قلت في بعضه الآخر، كما أنك تجد بعض الكنايات واضحة المأخذ، سهلة الاستنتاج، بينما يحتاج بعضها الآخر الى تأمل وفكر، خذ مثلاً قولنا «فلان كثير الرماد» ألا تجد أن هنا وسائط كثيرة بين المكنى به والمكنى عنه، أعني بين كثرة الرماد والكرم، لأن كثرة الرماد تستلزم كثرة النار وهذه تستلزم كثرة الحطب، وهذا يستلزم كثرة الطبخ، وهي تستلزم كثرة الضيفان المستلزمية للكرم، لكن قولنا «فلان طويل النجاد» و «فلانة بعيدة مهوى القرط»، وهما كنيتان عن الطول لا تستلزمان شيئاً، فإن طول النجاد يلزم منه طول القامة، وكذلك (بعيدة مهوى القرط) وهو ممتد من شحمة الأذن الى الكتف.

فهاتان كنيتان لا تحتاجان الى تأمل - كما رأيت - إحداهما كثرت فيها الوسائط، ويسمى السكاكي تلويحاً، والأخرى قلت فيها الوسائط ويسمى السكاكي ايماءً وإشارة أما إذا كانت الكناية محتاجة الى تأمل كقولنا «فلان عريض القفا» أو «عريض الوسادة» وهما كنيتان عن البله والغباء - كما عرفت - لكن الأولى نجد فيها الوسائط أكثر من الثانية، فإنها تسمى رمزاً عند السكاكي فالسكاكي نظر في تقسيم الكناية - إذن - إلى كثرة الوسائط وقلتها من جهة وإلى سهولة الاستنتاج من جهة أخرى فإذا كانت الكناية سهلة الإدراك وكثرت فيها الوسائط سماها تلويحاً كقولنا: «كثير الرماد» وإذا قلت وسائطها مع سهولتها سماها إشارة وإيحاء كقولنا: «طويل النجاد» «بعيدة مهوى القرط»، أما إذا كانت بحاجة الى تأمل وفكر فإنه يسميها رمزاً سواء كثرت وسائطها كقولنا: «عريض القفا» أم قلت كقولنا «عريض الوسادة».

ثانياً: الكناية عن الموصوف:

ضابط هذا النوع من الكناية أن نذكر الصفة والنسبة ولا نذكر الموصوف المكنى عنه، عرفت في القسم الأول وهو الكناية عن الصفة أننا ذكرنا الموصوف ونسبنا له صفة ما، ولكن لم تكن هي الصفة المرادة، وأظنك تلمح من هذا التعريف أن الكناية لا بد فيها من موصوف وصفة ونسبة، ففي الكناية عن الصفة نذكر هذه الثلاث، إلا أن الصفة المذكورة غير الصفة المرادة، فقولنا: «فلان كثير الرماد» ذكرنا فيه الموصوف ونسبنا له صفة معينة كنيانا بها عن صفة أخرى.

أما في هذا القسم فنحن نذكر الصفة والنسبة فحسب ولا نذكر الموصوف، ولكي يتضح لك الفرق بين القسمين، ينبغي أن تعلم أن الصفة في القسم الأول كانت كناية عن صفة أخرى، أما الصفة في هذا القسم فإن الغرض من ذكرها أن نتوصل بها إلى الموصوف المحذوف المكنى عنه، استمع مثلاً إلى قول شوقي الذي تقدم:

وَلِي بَيِّنَ الضُّلُوعِ دِمٌّ وَلَحْمٌ هُمَا الْوَاهِي الَّذِي تُكَلِّ الشُّبَّابَا

وهو كناية عن القلب، ألا ترى أن المذكور هنا، والذي كنى به عن القلب ليس في الحقيقة إلا صفة لهذا القلب، فالقلب بين الضلوع والقلب دم ولحم. وهذه الصفات كما ترى لا يتصف بها إلا القلب ألا ترى أنه لو اقتصر على الدم واللحم ماصح أن يكون كناية عن القلب، لأن اليد دم ولحم وكثير من الجوارح يمكن أن تكون كذلك، ولكن الذي حسن الكناية هنا في هذا البيت أن مجموع هذه الصفات المذكورة لا تصدق إلا على القلب، ومن أمثلة هذا القسم قوله سبحانه: (أَوْ مَنْ يَنْشَأُ فِي الْحَلِيَّةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ) [الزخرف ١٨]، ولكي تتذوق الكناية نبين لك أن الآية الكريمة جاءت رداً على العرب في جاهليتهم، وقد كانوا يكرهون البنات ويدونهن ومع ذلك كانوا يزعمون أن الملائكة بنات الله، فجاءت الآية ناعية عليهم مقررّة جهلهم، مسفهة أحلامهم وعقولهم، يقول الله سبحانه: (وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادٍ جُزْءاً إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ) [الزخرف ١٥ - ١٦] وقال تعالى: (وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثَاءً) [الزخرف ١٩].

ومعنى الآيات أنكم اصطفيتم البنين لكم وجعلتم البنات لله، جعلتم له من ينشأ في الحلية ولا يكون في خصومته مبيناً قوياً وهذه صفة للنساء كما تعلم، فإنهن ينشأن في الحلي ولا يبن في خصامهن وهو ما عناه شاعرهم حين قال^(١)

كُتِبَ الْقَتْلُ وَالْقِتَالُ عَلَيْنَا وَعَلَى الْغَانِيَاتِ جَرُّ الذُّيُولِ

(١) وهو عمرو بن أبي ربيعة.

ففي الآية الكريمة كناية، فاللفظ المكنى وهو قوله: (من ينشأ في الحلية...) أما المكنى عنه فهو النساء، وإذا نظرت الى الصفة وهي التنشئة في الحلية وجدتها مختصة بالنساء ولكن في أيماننا هذه استوى فيها الماء والخشبة وأصبح كل يشبه الآخر، وهذا يذكرنا بقول المتنبي^(١):

وَمَنْ فِي كَفِّهِ مِنْهُمْ قَنَاءٌ كَمَنْ فِي كَفِّهِ مِنْهُمْ خِضَابٌ
وفيه كناية عن الموصوف كذلك، فهو يقول: إن رجالهم أصبحوا كالنساء لأن قوله «من في كفه قناء» كناية عن الرجال، و«من في كفه خضاب» كناية عن النساء.

ومنه قول الشاعر^(٢):

وَالْقَادِسِيَّةُ حَيْثُ زَاخَمَ رُسْتُمُ كُنَّا الْحُمَاءَ نَهْزُ كَالْأَشْطَانِ
الضَّارِبِينَ بِكُلِّ أْبْيَضٍ مُخْذَمٍ وَالطَّاعِنِينَ مَجَامِعَ الْأَضْفَانِ
فإن مجامع الأضغان كناية عن القلب، لأنها صفة له في الحقيقة، ومنه قول البحري في قصيدته التي يتحدث فيها عن طعنه للذئب^(٣):

فَاتَّبَعْتُهَا أُخْرَى فَاضْلَلْتُ نَصْلَهَا بِحَيْثُ يَكُونُ اللَّبُّ وَالرُّعْبُ وَالْحَقْدُ
يريد أنه طعنه في قلبه ولكنه لم يذكر القلب، وإنما ذكر صفة كنى بها عن القلب، وهي قوله: «حيث يكون اللب والرعب والحد» ومنه قول الآخر:

قَوْمٌ تَرَى أَرْمَاحَهُمْ يَوْمَ الْوَعَى مَشْفُوفَةً بِمَوَاطِنِ الْكِتْمَانِ
فـ(مواطن الكتمان) صفة القلوب وقد كنى بها عنه، وهكذا إذا قلت «صفا لي مجمع لب فلان» فأنت تريد القلب، ولكنك لم تذكره وإنما كنى عنه بصفته، وهكذا تراهم يكونون عن القلوب بهذه الأوصاف المختلفة إلا أنها جميعاً تختص بالقلب كمواطن الكتمان، وهو كذلك مجمع اللب والرعب والحد وهو موطن الأسرار كما يقول أبو نواس في الخمر:

وَلَمَّا شَرِبْنَاهَا وَدَبَّ دَيْبُهَا إِلَى مَوْطِنِ الْأَسْرَارِ قُلْتُ لَهَا: قِفِي

(١) ديوان المتنبي ٢١٣/١.

(٢) وهو عمرو بن معدى كرب، ديوانه ص ١٧٤، والبيت من قصيدة قالها بعد فتح نهاوند على يد النعمان بن مقرن.

(٣) ديوان البحري ٣٧١/١.

وهو الدم واللحم بين الضلوع - كما قال شوقي. ومنه قول المعري في وصف
السيف^(١):

سَلِيلُ النَّارِ دَقَّ وَرَقَ حَـتَّى كَـأَنَّ أَبَاهُ أَوْرَثَهُ السُّـلَـلَا
فقد كنى عن السيف بهذه الأوصاف التي سمعت من الدقة والرقّة.

ومن الأمثلة المتقدمة تدرك أن الكناية عن الموصوف تنقسم الى قسمين، فاللفظ المكنى به
قد يكون وصفاً واحداً، (كموطن الأسرار) و (مجمع اللب والرعب والحدق)، وإما أن يكون
أوصافاً متعددة لابد منها جميعاً لتحقيق الكناية، ألا ترى الى قول شوقي الذي كنى به عن
القلب بأنه بين الضلوع ويأته دم ولحم، ولو أنه اقتصر على الدم واللحم ما صلحت هذه الكناية.

ويمكن أن نمثل لك بمثال آخر، وهو ما يذكره القوم في كتبهم «زارني حيُّ مُستوي
القامة عَرِيضُ الأظفار» فمجموع هذه الصفات كناية عن الإنسان، ولو أخذنا كل صفة على
حدة ما صلحت هذه الكناية، فلو اقتصرنا على كلمة (حي) لشارك الإنسان جميع الأحياء، ولو
اقتصرنا على (مستوى القامة) فقط، لشمّل ذلك بعض الجمادات أو بعض الحيوانات
كالتمساح، ولعلك معي في أن هذا المثال ليس ذا قيمة فنية أو روعة بيانية، مع أن الأقدمين
والمحدثين اجتمعوا على ذكره، ولم تعدم اللغة أمثلة حية مستلهمة من الواقع، كأن تكني بلون
وطعم وشكل عن فاكهة معينة، وباللين والطيب والحسن والحساسية عن المرأة.

ولم لا نمثل لذلك ونحن نستصرخ الأمة ونهيب بها كي تقضي على المكر والجبن والبخل
والطغيان، والافساد والحدق أليست هذه الصفات جميعاً يمكن أن نكني بها عن اليهود، لأن
مجموعها منطبق عليهم.

ثالثاً: الكناية عن النسبة،

في القسمين السابقين كنيّا بصفة عن صفة تارة، وبالصفة عن الموصوف تارة أخرى
ولكننا في هذا القسم الثالث سنسلك مسلكاً آخر سنذكر الصفة والموصوف الا أننا بدلاً من أن
ننسب هذه الصفة لصاحبها فسوف ننسبها لشيء آخر والنسبة هي اثبات شيء لشيء أو نفيه
عنه. فالنسبة في قولنا «المؤمنون اعزاء» هي اثبات العزة للمؤمنين، وفي قولنا «المؤمن ليس
جباناً» النسبة نفي الجبن عن المؤمن.

(١) السليل: الولد، السلال، والسل: داء يَدْنَفُ الإنسان منه، يقول: إن هذا السيف ولد النار لأنه نشأ في النار حين
أخرج من المعدن، فتراه دقيق الشفرتين حتى كأنه ورت داء السل من أبيه، فدنف: أي أجهد العشق. شروح ديوان
سقط الزند ٩٨/١.

ولنبادرك بمثال ينير لك الطريق، إذا قلت «فلان المجد بين ثوبيه» و«الكرم بين برديه» فأنت انما تريد أن تثبت له الكرم والسيادة، وقد ذكرت هاتين الصفتين، كل مافي الأمر أنك لم تنسبهما لصاحبهما، فلم تقل الكرم والمجد لفلان، وإنما نسبتهما لشيء آخر (البردين والثوبين). ولما كانت النسبة اثبات شيء لشيء أو نفيه عنه، فلا بد أن نمثل لهذا القسم بنوعين من الأمثلة:

الأول: ماكانت الكناية فيه اثباتاً.

والثاني: ماكانت فيه نفيًا.

أمثلة القسم الأول

ومن أمثلة القسم الأول: المثال السابق، ومنه قولك: «لقد كثر المكر في ساحة اعدائكم أيها العرب، وما هو المكر قد نسج في ثيابهم» فهذه صفات كما ترى لم تنسبها للعدو مباشرة، إنما نسبت لشيء آخر: للساحة وللثوب، ولعل في هذا الأسلوب تزييناً للقول، ولعله أكثر تأثيراً في النفوس كذلك. ومن هذا قول زياد الأعجم^(١):

إِنَّ السَّمَاحَةَ وَالْمُرُوءَةَ وَالنَّدَى
فِي قُبَّةٍ ضُرِبَتْ عَلَى ابْنِ الْحَشْرِجِ

فقد ذكر هذه الصفات ولم ينسبها لابن الحشرج مباشرة وإنما جعلها في قبة مضروبة عليه ومنه قول أبي نواس^(٢):

فَمَا حَاذَهُ جُودٌ وَلَا حَلَّ دُونُهُ
وَلَكِنْ يَسِيرُ الْجُودُ حَيْثُ يَسِيرُ

ففي الشطر الثاني من البيت كناية عن نسبه لأنه يريد أن يثبت الجود للممدوح ولكنه كنى عن ذلك فجعل الجود ملازماً له يسير حيث يسير ومنه قول الشاعر:

لَا يَنْزِلُ الْمَجْدُ إِلَّا فِي مَنَازِلِنَا
كَالنَّوْمِ لَيْسَ لَهُ مَأْوَى سِوَى الْمُقْلِ^(٣)

ففي الشطر الأول كناية يراد بها نسبة - هي اثبات المجد لهم - ذلك أن قصر نزول المجد على منازلهم انما هو اثبات المجد لهم.

ومنه قول المتنبي في مدح كافور^(٤)

(١) مفتاح العلوم ص ١٧٢، وابن الحشرج: هو عبدالله بن الحشرج من سادات قيس وأحد ولاة الدولة الأموية، كان جواداً كثير العطاء.

(٢) البيت من قصيدة في مدح الخطيب بن عبد الحميد العجمي ديوانه ص ٢٩٩.

(٣) ولا تنس أن في البيت تشبيهاً ضمناً، كما مر معك في باب التشبيه.

(٤) ديوان المتنبي ١/١٥٨، يزري: أي يستهين.

إِنَّ فِي تَوْكِ الَّذِي الْمَجْدُ فِيهِ لَخَيْرِيَاءُ يُزْرِي بِكُلِّ ضِيَاءٍ

والأصل أن يضيف المجد والنور للمدح ولكنه نسبهما لثوبه، وقال الشاعر:

الْيُمْنُ يَتَّبِعُ ظِلَّهُ وَالْمَجْدُ يَمْشِي فِي رِكَابِهِ

واليمن والمجد صفتان له ولكنه نسبهما لظله وركابه.

أمثلة القسم الثاني:

ومثال الكناية عن النسبة في النفي قول الشنفرى الأزدي^(١):

يَبِيتُ بِمَنْجَاةٍ مِنَ اللُّومِ بَيَّتُهَا إِذَا مَا بَيُّوتُ بِالْإِلَامَةِ حِلَّتِ

فهو وصف للمرأة بالعفة، ونفي للملام عنها ولكنه لم يصرح بهذا بل نفى نسبة اللوم عن بيتها ومنه قول العرب «متلك لا يبخل» وهي كناية عن نفي البخل عنه ومنه قولك: «المسلم لا يعطى الذلة» ومن هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»^(٢) وهي كناية عن أن من يؤذي المسلمين ليس مسلماً، وإن لم يذكر الموصوف هنا إلا أنه فهم من الحديث الشريف.

خلاصة القول أن الكناية عن النسبة هي اثبات الصفة لغير الموصوف أو نفيها عن غيره مع أن المراد اثباتها له أو نفيها عنه.

ففي قوله «المجد بين ثوبيه» المكنى به نسبة المجد للثوبين، والمكنى عنه اثبات المجد للممدوح المتحدث عنه.

هذه أقسام الكناية أرجو أن تكون قد بان لك وظهرت أقسامها بجلاء ولا مانع أن يشتمل المقطع الواحد على هذه الأقسام جميعاً. استمع الى هذا القول، الذي هو نفثة فؤاد مُعْنَى، وصرخة محزون ملهوف. أصبح بها - ويعلم الله - وقد بلغ السيل الزبى، دونما تكلف ولا تصنع، راجياً أن تجد محلها في القلوب كيف لا وقد نسجت من ذكرى الخامس عشر من أيار، ذكرى اغتصاب فلسطين: «يا أبناء الصحراء ويانبال السماء، إن عدوكم الذي أرفع لبنان الحقد وازدحمت ساحاته مكرأوا شتملت ثيابه على الكراهية واللؤم، قد لبس لكم ثوب النمر وقلب لكم ظهر المجن ولا بد له من رابطي الجأش مفتولي السواعد في أثوابهم أساد هواصر، فوجهوا سهامكم الى مجامع حقه ومواطن غله، أليس من العار أن تسمعه سجع الحمام ويسمعهكم زئير الأسد، فلتكن العزة حيث تسيرون، والقوة حيث تحلون وترحلون

(١) الفضليات ص ٤١.

(٢) سبق الحديث ص ١٥٦.

فلتطبقوا عليه بمقابض حديدية، ولا تنسوا أن أسلافكم قد بنوا أبياتهم في الشهب، ومشوا فوق رؤوس الحقب، واستولوا على الزمان في ريعان شبابه، وزاحمت هاماتهم نجوم السماء رفعة وعطروا بسيرتهم كل ناحية وبقعة»

هذه الكلمة إذا تأملتها وجدت فيها أقسام الكناية الثلاث ويمكنك أن تستخرج كل قسم على ضوء ما عرفته من قبل.

بين الكناية والتعريض

تباينت آراء البيانين واختلفت كلمتهم، فمنهم من ذهب الى أن الكناية والتعريض شيء واحد، ومنهم من جعل التعريض قسمًا من الكناية، وآخرون ذهبوا الى أن الكناية تختلف عن التعريض، ولعلنا نذهب هذا المذهب، فلقد عرفت أن الكناية هي الستر وهي أن تعبر باللفظ وتريد لازم معناه، فهناك صلة بين اللفظ المكنى به والمعنى المكنى عنه، حيث ينتقل الفكر من الملزوم الى اللازم.

أما التعريض فهو امالة الكلام الى عرض - بضم العين - وهو: الجانب والناحية تقول: (عرضت بفلان) وذلك إذا قلت قولاً لغيره وأنت تعنيه هو - إياك أعني واسمعي يا جارة - فالتعريض إذن أن نذكر جملة من القول نريد بها شيئاً آخر، ولكن هذا الشيء لا يفهم بطريق اللزوم كما رأينا في الكناية، وإنما يفهم من السياق. وقد حدثناك في علم المعاني في باب القصر حيث بينا لك أن القصر بـ (إنما) يدل على التعريض، وذلك مثل قوله سبحانه: (إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ) [الزمر ٩]، (إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ) [الأنعام ٣٦]، (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) [فاطر ٢٨] وقول العباس بن الأحنف^(١):

أَنَا لَمْ أُرْزَقْ مَحَبَّتَهَا إِنَّمَا لِلْعَبْدِ مَا رُزِقَا

ومثل قولك: «إنما الصديق عند الضيق» ففي هذا كله تعريض فارجع اليه^(٢).

ونزيدك هنا فنيين لك أن باب التعريض باب واسع لا يقتصر على (إنما) وحدها. خذ مثلاً قول الحماسي^(٣) الذي قدمناه لك في الكناية:

لَا يَسْأَلُونَ أَخَاهُمْ حِينَ يَنْدُبُهُمْ فِي النَّائِبَاتِ عَلَى مَاقَالِ بُرْهَانًا

(١) دلائل الإعجاز ص ٢٤٥.

(٢) راجع البلاغة فنونها وأفنانها للمؤلف ج ١ ص ٢٨٦.

(٣) الحماسة ج ١، ص ٢٣.

وقد قدمنا لك أنه كناية عن صفة، ولكنك إذا عرفت السياق الذي قيل فيه تدرك أن فيه تعريضاً كذلك، فقد قاله الشاعر وهو يلوم قومه لأنهم لم ينجدوه، فهو في ظاهره ثناء على قوم، هم المذكورون في أول القصيدة.

لَو كُنْتُ مِنْ مَازِنٍ لَمْ تَسْتَبِحْ إِبْلِي
بَنُو اللَّقِيطَةِ مِنْ نَسْلِ ابْنِ شَيْبَانَ

وهو مع ذلك تعريض بقومه. دليل ذلك قوله:

إِذَا لَقَامَ بِنَصْرِي مَعْشَرُ خُشْنٍ
عِنْدَ الْحَفِيطَةِ إِنْ نُو لَوُثَّةٍ لَأَنَا

قَوْمٌ إِذَا الشَّرُّ أَبْدَى نَاجِذِيهِ لَهُمْ
طَارَارُوا إِلَيْهِ زُرَافَاتٍ وَوُحْدَانَا

لَا يَسْأَلُونَ أَخَاهُمْ حِينَ يَنْدُبُهُمْ
فِي النَّائِبَاتِ عَلَى مَا قَالَ بُرْهَانَا

ولعمرو الحق إن هذه الأبيات جديرة أن يقال اليوم، وما هم أهل فلسطين يتعرضون لأقسى أساليب البشاعة من اليهود الحاقدين، حتى إنهم ليضربونهم من الجو بسلاح الطائرات الفاشمة الأمريكية (ف١٦). كذلك المسلمون في بقاع الدنيا؛ ففي الشيشان يتعرض المسلمون إلى الحقد الروسي، وفي البوسنا يتعرضون للحقد الصربي، وفي غير هذه المواطن من العالم، فمتى يستيقظ المسلمون؟! نرجوا أن يكون قريباً.

وخذ ما حدثناك عنه من قبل «لا يجد الفأر في بيته شيئاً» فإذا عرفت أن امرأة عرضت لقيس بن سعد وقالت: «اشكو اليك قلة الفأر في بيتي» ففهم مقالتها وأجاب سؤالها، فملاً بيتها طعاماً وكساء، أدركت أن ذلك من باب التعريض.

ونحسب أن ابن الأثير - رحمه الله - من أكثر البيانيين الذين تحدثوا في هذا الموضوع فوفاه حقه وإليك طرفاً من قوله: «وأما التعريض فهو اللفظ الدال على الشيء من طريق المفهوم، لا بالوضع الحقيقي ولا المجازي، فإنك إذا قلت لمن تتوقع صلته ومعروفه بغير طلب: «والله إنني لمحتاج وليس في يدي شيء وأنا عريان والبرد قد أذاني» فإن هذا وأشباهه تعريض بالطلب، وليس هذا اللفظ موضوعاً في مقابلة الطلب، لا حقيقة ولا مجازاً، إنما دل عليه من طريق المفهوم، بخلاف دلالة اللمس على الجماع، وعليه ورد التعريض في خطبة النكاح كقولك للمرأة: «إنك الخلية وإنني لعزب» فإن هذا وأمثاله لا يدل على طلب النكاح حقيقة ولا مجازاً، والتعريض أخفى من الكناية، لأن دلالة الكناية لفظية وضعية من جهة المجاز، ودلالة التعريض من جهة المفهوم لا بالوضع الحقيقي ولا المجازي، وإنما سمي التعريض تعريضاً لأن المعنى فيه يفهم من عرضه، أي من جانبه، وعرض كل شيء: جانبه.

وأعلم أن الكناية تشمل اللفظ المفرد والمركب معاً، فتأتي على هذا تارة وعلى هذا أخرى، وأما التعريض فإنه يختص باللفظ المركب، ولا يأتي في اللفظ المفرد ألبته، والدليل على ذلك أنه

لا يفهم المعنى فيه من جهة الحقيقة ولا من جهة المجاز، وإنما يفهم من جهة التلويح والاشارة وذلك لا يستقل به اللفظ المفرد ولكنه يحتاج في الدلالة عليه الى اللفظ المركب»^(١).

«.... وأما التعريض فقد سبق الاعلام به وعرفناك الفرق بينه وبين الكناية، فمما جاء منه قوله تعالى: (قَالُوا أَأَتَتْكَ هَذِهِ الْهَيْئَتَانِ يَا إِبْرَاهِيمَ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْظُرُونَ) [الأنبياء ٦٢] وغرض إبراهيم صلوات الله عليه وسلامه من هذا الكلام اقامة الحجة عليهم، لأنه قال: (فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْظُرُونَ) وذلك على سبيل الاستهزاء وهذا من رموز الكلام، والقول فيه إن قصد إبراهيم عليه السلام لم يرد به نسبة الفعل الصادر عنه إلى الصنم، وإنما قصد تقريره لنفسه وإثباته على أسلوب تعريض يبلغ فيه غرضه من الزام الحجة عليهم، والاستهزاء بهم....».

«... ومن هذا القسم أيضاً قوله تعالى: (فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِآدِ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ) [هود ٢٧]، فقوله تعالى: (مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا) تعريض بأنهم أحق بالنبوة منه، وأن الله لو أراد أن يجعلها في أحدٍ من البشر لجعلها فيهم، فقالوا: هب أنك واحد من الملائكة وموازٍ لهم في المنزلة، فما جعلك أحق منهم بها؟ ألا ترى إلى قولهم: (وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ).

وكان مروان بن الحكم والياً على المدينة من قبل معاوية فعزله، فلما قدم عليه قال له: عزلتك ثلاث لو لم تكن إلا واحدة منهن لأوجبت عزك: احداهن أنني أمرتك على عبد الله بن عامر وبينكما ما بينكما فلم تستطع أن تشتفي منه، والثانية كراحتك أمر زياد، والثالثة: أن ابنتي رملة إستعدتك على زوجها عمر بن عثمان فلم تُعدها، فقال له مروان: أما عبد الله بن عامر فإني لا أنتصر منه في سلطاني، ولكن إذا تساوت الأقدام علم أين موضعه، وأما كراحتي أمر زياد فإن سائر بني أمية كرهوه، وأما استعداد رملة على عمر بن عثمان، فوالله إنه لتأتي علي سنة وأكثر وعندي بنت عثمان فما أكشف لها ثوباً - يريد بذلك أن رملة إنما استعادت لطلب الجماع - فقال له معاوية: يا ابن الوزع^(٢) لست هناك، فقال له مروان: هو ذاك، وهذا من التعريضات اللطيفة.

ومثله في اللطافة ما يروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وذاك أنه كان يخطب

(١) المثل السائر ص ١٩٨.

(٢) الوزع: دابة صغيرة تعرف في بعض المناطق بالسطحية.

يوم الجمعة، فدخل عثمان بن عفان رضي الله عنه فقال عمر: أية ساعة هذه؟ فقال عثمان: يا أمير المؤمنين، انقلبتُ من أمر السوق فسمعت النداء فما زدتُ على أن توضأتُ فقال عمر: والوضوء أيضاً، وقد علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمرنا بالغسل؛ فقله: «أية ساعة هذه» تعريض بالإنكار عليه لتأخره عن المجيء إلى الصلاة وترك السبق إليها، وهو من التعريض المعرب عن الأدب.

ووقفت في كتاب العقد على حكاية تعريضية حسنة الموقع، وهي أن امرأة وقفت على قيس بن عباد، فقالت: أشكو إليك قلة الفأر في بيتي، فقال: ما أحسن ما ورت عن حاجتها، املئوا لها بيتها خبزاً وسمناً ولحماً.

ومن خفي التعريض وغامضه ما ورد في الحديث النبوي وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج وهو محتضن أحد ابني ابنته وهو يقول: «والله إنكم لتجبنون وتبخلون وتجهلون، وإنكم لمن ربحان الله، وإن آخر وطأة وطئها الله بوج». اعلم أن وجاً واد بالطائف، والمراد به غزاة حنين، حنين: واد قبل وج، لأن غزاة حنين أوقع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم مع المشركين، وأما غزوات الطائف وتبوك اللتان كانتا بعد حنين فلم يكن فيهما وطأة: أي قتال، وإنما كانتا مجرد خروج إلى الغزو من غير ملاقات عدو ولا قتال، ووجه عطف هذا الكلام وهو قوله صلى الله عليه وسلم: «وإن آخر وطأة وطئها الله بوج» على ما قبله من الحديث وهو التأسف على مفارقة أولاده، لقرب وفاته، لأن غزوة حنين كانت في شوال سنة ثمان، ووفاته صلى الله عليه وسلم كانت في ربيع الأول من سنة إحدى عشرة وبينهما سنتان ونصف، فكأنه قال وإنكم لمن ربحان الله، أي من رزقه، وأنا مفارحكم عن قريب إلا أنه صانع^(١) عن قوله وأنا مفاركم عن قريب بقوله: «إن آخر وطأة وطئها الله بوج» وكان ذلك تعريضاً بما أراده وقصده من قرب وفاته صلى الله عليه وسلم.

ومما ورد من هذا الباب شعراً قول الشَّيْذَرِ الحارثي:

بَنِي عَمْنَا، لَا تَذْكُرُوا الشَّعْرَ بَعْدَمَا دَفَنْتُمْ بِصَحْرَاءِ الْغُمَيْرِ الْقَوَافِيَا

وليس قصده ما هنا الشعر، بل قصده ما جرى في هذا الموضع من الظهور عليهم والغلبة، إلا أنه لم يذكر ذلك بل ذكر الشعر وجعله تعريضاً بما قصده: أي لا تفخروا بعد تلك الواقعة التي جرت لكم ولنا بذلك المكان.

ومن أحسن التعريضات ما كتبه عمرو بن مسعدة الكاتب إلى المأمون في أمر بعض أصحابه، وهو: «أما بعد؛ فقد استشفع بي فلان إلى أمير المؤمنين ليتطول في إلحاقه بنظرائه من

(١) أي عَرَضَ أو كُنَى.

الخاصة، فاعلمته أن أمير المؤمنين لم يجعلني في مراتب المستشفعين، وفي ابتدائه بذلك تعدّي طاعته، فوقّع المأمون في ظهر كتابه قد عرفت تصريحك له وتعرضك لنفسك وقد أجبناك إليهما»^(١).

الكناية في كتاب الله تعالى

جرباً على ما عودناك من قبل، نذكر لك شيئاً من الكناية في كتاب الله تعالى وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم.

كتاب الله هو نهاية البلاغة وهو أعلى طبقات البيان، ارفعها عماداً وأكثرها مداداً، ولأسلوب الكناية من ذلك نصيب وافر، إلا أن للكناية في القرآن الكريم أهدافاً متعددة، وأسباباً متنوعة وأغراضاً ذات شأن.

١- فقد تأتي الكناية في كتاب الله تعالى لتصوير لك المعنى المعقول في صورة محسوسة، وقد عرفت ما للحسيات من أثر في النفوس.

استمع إلى قوله سبحانه وهو يرد على ذوي العقائد الفاسدة، الذين يزعمون أن الملائكة بنات الله، ومع هذا فهم إذا بُشِّرَ أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم، يقول تعالى: (أَوَمَنْ يُنْشَأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ) [الزخرف ١٨]، وقف أمام هذه الكناية البديعة الرفيعة الموحية.

قال الزمخشري: «ينشأ في الحلية أي يتربى في الزينة والنعمة وهو إذا احتاج إلى مجاثاة الخصوم ومجاراة الرجال كان غير مبين، ليس عنده بيان، ولا يأتي ببرهان يحتج به على من يخاصمه... وفيه أنه جعل النشء في الزينة والنعمة من المصايب والمذام، وأنه من صفة ربات الحجال، فعلى الرجل أن يجتنب ذلك ويأنف منه ويربأ بنفسه عنه، ويعيش كما قال عمر رضي الله عنه: «اخشوشنوا وَتَمَعَّدُوا وَإِنْ أَرَادَ أَنْ يَزِينَ نَفْسَهُ زِينَهَا مِنْ بَاطِنٍ بِلِبَاسِ التَّقْوَى»^(٢).

واستمع إلى قوله سبحانه ينفر من البخل وينهى عن التبذير: (وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا) [الإسراء ٢٩]، وانظر إلى هذه

(١) المثل السائر ٢١٢ - ٢١٥.

(١) الكشف ٢٤٣/٤. (تَمَعَّدُوا): أي عيشوا عيشة العرب الأول: أي عيشة خشنة فيها شظفٌ وشدة؛ لا عيشة المترهلين؛ لأنها تؤدي إلى الترف والبطر، فتحول بينكم وبين الجهاد والعمل، واللفظ (تمعدوا) نسبة إلى معد أبي العرب الأول.

الصورة المحسوسة التي تصل إلى جذور النفس، فصورة اليد المغلولة إلى العنق يمكن لكل واحد أن يتصورها بدون عناء ولا تكلف، ولم يجعلها مغلولة فحسب، ولكنها إلى العنق كذلك، ووازن بين هذا التعبير وبين قولنا اجتنب البخل؛ تجد فروقاً كثيرة بين اللفظين، وانظر إلى قوله كل البسط لتدرك أن النهي ليس عن أي حالة من حالات البسط، وإنما عن البسط الذي فيه تفريط.

واستمع إلى قوله سبحانه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْرٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَرَّابٌ رَّحِيمٌ) [الحجرات ١٢]، فانظر إلى هذه الصورة في النهي عن الغيبة [أحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه] أليس النيل من العرض كتمزيق اللحم؟ وهل هناك شيء تنفر منه النفس أكثر من أكل لحم الانسان؟ فكيف إذا كان هذا الانسان أخاً؟! وانظر إلى قوله (ميتاً) وكيف تزيد هذه الصورة بشاعة واشمئزازاً، وإذا كان اللحم المأكول لحم ميت فكذلك المغتاب تنال منه وهو لا يدري ولا يعلم، فالقرآن يرشدنا إلى أننا ينبغي أن ننفر من الغيبة كما تنفر من هذه الصورة، صورة أكل لحم الأخ ميتاً، تلك صورة محسوسة لشيء معنوي، عبر عنها بهذه الكناية الموحية الهادفة.

وقف مع قوله سبحانه: (فَإِنَّ لَهُنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُنَّ وَلَا جَانٌ) [الرحمن ٥٦]، وهي كناية عن العفة، ولكن أين هذا التعبير من قولنا: «هن عفيفات»، فالتعبير القرآني يصور لنا أن هؤلاء النسوة قد قصرن الطرف عن غير أزواجهن، فهذه القناعة وتلك العفة طبيعة فيهن، فهن لا يتجاوزن بنظراتهن أحداً من الرجال.

٢- ومن أهداف الكناية في القرآن الایجاز، وإن كانت تلك ميزة في الأساليب القرآنية جميعاً، إلا أن في هذا النوع زيادة إيجاز. انظر إلى قوله سبحانه: (فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ) [البقرة ٢٤]، وقد جاءت الآية الكريمة في سياق التحدي (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله) [البقرة ٢٣]، أي إن لم تستطيعوا أن تأتوا بسورة من مثله، ولن تستطيعوا ذلك فاتركوا العناد، وانقادوا لهذا النبي وآمنوا بهذا القرآن. فانظر كيف كنى عن هذا كله وغيره بهاتين الكلمتين الجامعتين (فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا) وما فيهما من روعة الایجاز ونهايته ومثله قوله سبحانه: (وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ) [الحج ٧٧]، وقوله: (لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) [المائدة ٧٩].

٣- ومن أهداف الكناية في كتاب الله تعالى (التهذيب)؛ نتعلم الأدب في الحديث حتى لا نشير

العبارات نزوات النفوس، وكوامن العواطف، وسهام الغرائز، وأين هذا مما سمّوه أدباً مكشوفاً - وما هو بأدب - استمع إلى قوله سبحانه: (ما المسيح ابن مريم إلا رسولٌ قد خلت من قبله الرسلُ وأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَاكُلَانِ الطَّعَامَ) [المائدة ٧٥]، وقف أمام قوله: (ياكلان الطعام)، والكناية لفظ اطلق وأريد لازم معناه - كما عرفت - وماذا ينتج عن الأكل، إنه التغوُّط، ولكن القرآن اكتفى بالملزوم فكفى بالأكل عما بعده، وهذا يتنافى مع الألوهية، فما أبدع هذا المنطق وما أنظف هذا الأسلوب. واستمع إلى قوله سبحانه: (نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَاتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ) [البقرة ٢٢٣]، وما تبعته كلمة (الحَرْث) وتدل عليه من الغايات النبيلة.

واستمع إلى قوله سبحانه: (فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَأَبْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ) [البقرة ١٨٧]، وإلى قوله: (وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ) [النساء ٢١]، وقوله: (أَوْجَاءَ أَحَدٍ مِنْكُمْ مِنَ الْغَايَةِ) [المائدة ٦]، هذه الكنايات مع إيجازها وإيحائها حيث نستشف منها المعنى كاملاً غير منقوص، نجدها ذات أدب رفيع وهي تعلم وتهذب. وأخيراً نستمع إلى قوله سبحانه: (فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) [البقرة ٢٢٢]، تلك كناية عن موصوف، ولكي تدرك الروعة القرآنية وتسمو مع الآيات الكريمة لا بأس أن تستمع إلى بعض أقوال الشعراء من كنايات في هذا المعنى نفسه، قال أبو نواس:

أَتَتْ بِجَرَابِهَا تَكْتَالُ فِيهِهِ فَقَامَتْ وَهِيَ فَارِغَةُ الْجِرَابِ

وقال المتنبي^(١):

إِنِّي عَلَى شَفَقِي بِمَا فِي خُمْرِهَا لِأَعِفُّ عَمَّا فِي سَرَاوِيلَاتِهَا

وقال الشريف الرضي^(٢):

يَحِنُّ إِلَى مَا تَضُمَّنُ الْخُمْرُ وَالْحَلَى وَيَصْدَفُ عَمَّا فِي ضَمَانِ الْمَازِي

(١) ديوان المتنبي ٣٤٨/١.

(٢) ديوان الشريف الرضي ٤٤٧/١. الخُمُر: جمع خمار: وشاح، ويجمع أيضاً على خُمُرٍ واخْمِرَة، يصدف: يُعرض، ضمان المأز: ما تحويه المأز والحزم من الخصر وما حوله.

وهناك كنايات كثيرة ليست بخير من التصريح، أثرتنا خلوا الكتاب منها، وأظنك مع تفضيلك لكناية الرضي على غيرها، إلا أن الكناية القرآنية تبقى محتفظة بشموخها ورفعتها وترفعها، مع وقار وعفة.

ومن كنايات القرآن البديعة:

- قوله تعالى: (فَاصْبَحْ يَقْلَبُ كَفَيْهِ عَلَى مَا أَتَقَّ فِيهَا) [الكهف ٤٢]. فهذه كناية عن الندم؛ لأن النادم يفعل ذلك عادة.

- قوله تعالى: (أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا) [المائدة ٦٠]، اثبت الشر لمكان الشيء، كناية عن إثباته لهم وهي أبلغ في الدلالة على شرهم.

- قوله تعالى: (وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّهُمْ أَمْرٌ تُتَّبَنُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ) [الرعد ٢٣]، أي بشركاء لا يعلمهم سبحانه، وإذا كان لا يعلمهم - وهو عالم بكل شيء مما كان أو يكون، فهم لا حقيقة لهم، فهو نفي لهم بنفي لازمهم.

واعلم أن موضوع الكناية من أول الموضوعات البيانية التي تحدث عنها العلماء، تجد هذا في مجاز القرآن لأبي عبيدة، وهو من أقدم المؤلفات، حيث كان تأليفه عام مئة وثمانية وثمانين للهجرة (١٨٨هـ)، وقد تحدث فيه عن كثير من كنايات القرآن وغيرها من الأساليب البيانية، وفي هذا أبلغ رد على الذين يزعمون أن بلاغتنا بعيدة عن الأصالة تدين بالتبعية لارسطو وغيره.

الكنائيات في أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم

وإذا استعرضنا السنة النبوية وجدنا أسلوب الكناية يؤدي دوره البياني إيجازاً وتصويراً، ووظيفته الاجتماعية تعليمياً وتهذيباً، وسنذكر لك طرفاً من هذه الكنائيات من جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم.

(١) وليكن أولها قوله صلى الله عليه وسلم: «أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ»^(١) وهي كناية بديعة - كما ترى - عبر بجوامع الكلم عن الكلمات المؤثرة المشتمة على المعاني الكثيرة، إلى ما هنالك من صفات للكلمة المؤثرة.

(٢) ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: «رُؤْيَاكَ سَوْقًا بِالْقَوَارِيرِ»^(٢) يريد بذلك النساء فكنى عنهن بالقوارير^(٣).

(٣) ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: «خِيَارُكُمْ أَلْيَنُكُمْ مَنَاقِبَ فِي الصَّلَاةِ»^(٤) فهي كناية لطيفة، عبر بلين المناكب عن سهولة الانقياد وسرعة الحركة لسد الفرج في الصلاة.

(٤) وقال صلى الله عليه وسلم: «مَنْ كَانَتْ الْآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ غَنَاهُ فِي قَلْبِهِ وَجَمَعَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قَدَرَ لَهُ، فَلَا يُمَسِّنِي إِلَّا فَقِيرًا وَلَا يُصْبِحُ إِلَّا فَقِيرًا، وَمَا أَقْبَلَ عَبْدٌ عَلَى اللَّهِ بِقَلْبِهِ إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ تَنْقَادُ إِلَيْهِ بِالْوُدِّ وَالرَّحْمَةِ، وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ خَيْرٍ إِلَيْهِ أَسْرَعَ»^(٥)، ففيه كنائيات بديعة لطيفة، فكنى بقوله من كانت الآخرة همه عن التمسك بدين الله، ويقول: «جعل الله غناه في قلبه» عن القناعة بما قسم الله له من رزق وهكذا.

(٥) ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنَّهُ كَانَتْ امْرَأَةٌ فِيمَنْ كَانَ مِنْ قَبْلِنَا وَكَانَ لَهَا ابْنٌ عَمَّ يُحِبُّهَا فَرَاوَدَهَا عَنْ نَفْسِهَا، فَاْمْتَنَعَتْ عَلَيْهِ حَتَّى إِذَا أَصَابَتْهَا شِدَّةٌ فَجَاءَتْ إِلَيْهِ تَسْأَلُهُ فَرَاوَدَهَا فَمَكَّنَتْهُ مِنْ نَفْسِهَا، فَلَمَّا قَعَدَ مِنْهَا مَقْعَدَ الرَّجُلِ مِنَ الْمَرْأَةِ قَالَتْ لَهُ: لَا يَحِلُّ لَكَ أَنْ

(١) أخرجه البخاري - كتاب التعبير - باب (رؤيا الليل) (١١)، ومسلم - كتاب المساجد ومواضع الصلاة - حديث (٥).

(٢) سبق الحديث ص ٢٣١.

(٣) قدمنا لك من قبل أن هذا من باب الاستعارة، ولكننا قدمنا لك كذلك أن النص الواحد يمكن أن تنظر إليه من أكثر من حيثة واحدة.

(٤) أخرجه أبو داود في (السنن) - كتاب الصلاة - باب (تسوية الصفوف) حديث رقم: (٦٧٢)، ص ١٦٠.

(٥) أخرجه الإمام أحمد في المسند ١٨٣/٥ حديث رقم (٢١٩٢٥).

تَقْضُ الْخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ، فَقَامَ عَنْهَا وَتَرَكَهَا»^(١).

(٦) وقال صلى الله عليه وسلم: «لقد أخفتُ في الله ما لم يُخَفْ أحدٌ وأوذيتُ في الله ما لم يُؤَذَّ أحدٌ، ولقد أتى عليّ ثلاثون ما بين يومٍ وليلةٍ ومالي ولا ليلٍ من الطعامِ إلا شيءٌ يواريه إبطُ بلالٍ»^(٢) وهذه كناية عن القلة.

(٧) وقال صلى الله عليه وسلم: «خِصَاءُ أُمْتِي الصِّيَامِ»^(٣) كناية عن شدة تأثير الصيام على النفس.

(٨) وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنه جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «يا رسول الله هلكت. قال: وما أهلكك، قال: حَوَّلْتُ رَحْلِي الْبَارِحَةَ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «أَقْبِلْ وَأَدْبِرْ وَاتَّقِ الدُّبَرَ وَالْحَيْضَةَ»^(٤).

(٩) ولما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الركيعة جاءه بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءٍ في نفر من قومه من أهل تهامة فقال: «تَرَكْتُ كَعْبَ بْنَ لُؤْيٍ وَعَامَرَ بْنَ لُؤْيٍ نَزَلُوا عِدَادَ مِيَاهِ الْحُدَيْبِيَّةِ مَعَهُمُ الْعُوذُ الْمُطَافِيلُ، وَهُمْ مُقَاتِلُوكَ وَصَائُوكَ عَنِ الْبَيْتِ»^(٥).

(١٠) وقال صلى الله عليه وسلم: «إِذَا مَشَتْ أُمْتِي الْمُطِيطَاءُ»^(٦)، وخدمتها أبناءُ الملوكِ فارس والروم سَلَطَ شِرَارُهَا عَلَى خِيَارِهَا»^(٧).

(١١) وقال صلى الله عليه وسلم: «مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الْجَنَّةَ»^(٨).

(١٢) ويروى أن عمرو بن العاص زوج ولده عبد الله رضي الله عنه فمكثت المرأة عنده ليالي ثلاثاً لَمْ يَدْنُ مِنْهَا. وإنما كان مُلْتَفِتاً إِلَى صَلَاتِهِ فَدَخَلَ عَلَيْهَا عَمْرُو بَعْدَ ثَلَاثٍ فَقَالَ: «كَيْفَ تَرَيْنَ بَعْلَكَ؟ فَقَالَتْ نَعَمْ الْبَعْلُ إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَفْتَشْ لَنَا كَنَفًا وَلَا قُرْبَ لَنَا مَضْجَعًا».

(١) رواه البخاري كتاب البيوع، باب (٩٨) (إذا اشتري شيئاً لغيره بغير إذنه فرضي)، حديث رقم ٢١٠٢.

(٢) رواه الترمذي أبواب صفة القيامة، باب بعض ما لاقاه صلى الله عليه وسلم أول أمره حديث رقم ٢٤٧٤ قال أبو عيسى: حديث حسن صحيح غريب.

(٣) رواه أحمد بن حنبل / المسند ج٢، ص ١٧٣.

(٤) رواه الترمذي كتاب تفسير القرآن، باب (من سورة البقرة رقم (٢) حديث ٢٩٨٤ قال أبو عيسى: حديث حسن غريب.

(٥) رواه البخاري - كتاب الشروط - باب (١٥) الشروط في الجهاد والمصالحة في الحرب وكتابة الشروط، حديث رقم (٢٥٨١)، العوذ: جمع عائد: وهي الناقة التي مضى على ولادتها عشرة أيام، المطافيل: يقال: طَلَقَتِ الناقةُ طِفْلاً: أي ربت طفلاً.

(٦) المطيطاء: التبخر ومد اليدين في المشي، وفي التنزيل: (ثم ذهب إلى أهله يتمطى).

(٧) رواه الترمذي كتاب الفتن باب رقم ٧٤ حديث رقم ٢٢٦٢، قال أبو عيسى: حديث غريب.

(٨) رواه البخاري كتاب الرقاق باب (٢٣) (حفظ اللسان) حديث رقم ٦١٠٩.

(١٣) وقال صلى الله عليه وسلم: «المؤذنون أطولُ أعناقاً يومَ القيامة»^(١).

وهذه الكنايات، وأنت تقف مع كل واحدة منها، تجد لها أهدافها المتعددة، وكنا نودُّ أن نقف معك عند كل كناية، ولكن بدا لنا أن الأمر من السهولة بحيث لا يحتاج إلى شرح وتبسيط.

(١) رواه مسلم كتاب الصلاة باب فضل الأذان، وهرب الشيطان عند سماعه رقم (٨) حديث رقم ٣٨٧.

بلاغة الكناية

لا نودُّ هنا أن نفاضل بين الأساليب البليانية، أيها أكثر بلاغة، وأنفذ سحراً، وأكثر تأثيراً، فلكل أثره الذي يمتاز به عن غيره، إلا أننا نودُّ أن نقرر هنا أن لأسلوب الكناية لونه الخاص به فهو من حيث التأثير - كما رأيت - ومن حيث الملاحظة والعذوبة يشترك مع غيره من الأساليب السابقة، إلا أننا نجد فيه ما لا نجده في غيره.

فهو أولاً مع إمتاعه يمتاز بالإقناع، لأنه لا يأتيك بالدعوى إلا ومعها دليلها، ألا ترى أن قولهم: «كثير الرماد»، التي يكون بها عن الكرم إنما جاءت دليلاً محسوساً لإثبات هذا الكرم، وكذلك كل كناية إن تأملت، تجد أنها جاءت دليلاً على المعنى المراد منها.

وربما تقول: لقد حدثتنا عن هذا وما يشبهه، في بعض أنواع التشبيه، كالتشبيه الضمني وغيره من أنواع التمثيل، فلقد جاءت بعض التشبيهات أدلة لإثبات ما ادَّعينا، ونحن لا ننكر هذا، كيف وقد جئنا له بالأمثلة الكثيرة، ولكن مع ذلك يبقى فرق بينه وبين الكناية، فهذا في بعض أنواع التشبيه - كما رأيت -، ولكننا نجده في كل كناية، على معنى أنه ليس كل تشبيه نجد فيه دليلاً على دعوى نريدها، إنما هو في نوع خاص منه، ولكن كل كناية كذلك، ثم إن هناك فرقاً بين التشبيه وبين الكناية كذلك، فالكناية أوجز لفظاً، ففي التشبيه لا بد من بيتين أو بيت واحد على الأقل فمثال البيتين:

دَانِ إِلَى أَيْدِي الْعُقَاةِ وَشَاسِعُ عَنْ كُلِّ نِدْفٍ فِي النَّدَى وَضَرِيبِ
كَأَبْدَرِ أَفْرَطٍ فِي الْعُلُوِّ وَضَوِّهِ لِلْعُصْبَةِ السَّارِبِينَ جِدُّ قَرِيبِ

فأنت ترى أن البيت الأول اشتمل على الدعوى، واشتمل البيت الثاني على دليل، ومثال البيت الواحد:

فَإِنْ تَفُقِ الْأَنْعَامَ وَأَنْتَ مِنْهُمْ فَإِنَّ الْمِسْكَ بَعْضُ دَمِ الْغَزَالِ

فأين هذا من الإيجاز الذي نجده في قولنا «كثير الرماد».

خلاصة القول أن من خصائص الكناية، ومميزاتها أنها دليل على الدعوى التي نريد إثباتها، وهذا ذاتي في الكناية ولكنه عارض في بعض أنواع التشبيه.

وهناك ميزة أخرى للكناية، وهي أننا نستطيع أن نعبر بوساطتها عن كثير مما نتحاشى التصريح به، فهي باب واسع تجد النفس فيها المكنم الآمن، والطريق الذي ليس فيه خطورة ولا وعورة، والمسلك الخالي من كل ما يجلب التعب والأذى.

ألا ترى أنك بأسلوب الكناية يمكنك أن تشفي غلة نفسك، فكم من كلمة لا تود التصريح

بها تَرْفَعاً، فتجد في الكناية متنفساً فتنقل من المعنى المكشوف إلى المعنى المكسوف، وربما كان ذلك خشيةً لا تَرْفَعاً، فتتال بأسلوب الكناية من خصمك وتبلغ ما لا تستطيعه في غيرها.

يقول الأستاذ علي الجارم^(١):

«الكناية مظهر من مظاهر البلاغة، وغاية لا يصل إليها إلا من لطف طبعه وصفت قريحته، والسُرُّ في بلاغتها أنها في صور كثيرة تعطيك الحقيقة مصحوبة بدليلها، والقضية وفي طيها برهانها كقول البحري في المديح^(٢):

يَغْضُونَ فَضْلَ اللَّحْظِ مِنْ حَيْثُ مَا بَدَأَ لَهُمْ عَنْ مَهَيْبٍ فِي الصُّدُورِ مُحَبَّبٍ
فإنه كنى عن إكبار الناس للمدوح وهيبته إياه، بغض الأبصار الذي هو في الحقيقة برهان على الهيبة والإجلال، وتظهر هذه الخاصة جليةً في الكنايات عن الصفة والنسبة.

ومن أسباب بلاغة الكناية أنها تضع لك المعاني في صورة المُحَسَّات، ولا شك أن هذه خاصّة الفنون، فإن المصور إذا رسم لك صورة للأمل أو اليأس بهرك وجعلك ترى ما كنت تعجز عن التعبير عنه واضحاً ملموساً.

فمثلاً «كثير الرماد» في الكناية عن الكرم، و«رسول الشر» في الكناية عن المزاح، وقول البحري^(٣):

أَوَمَا رَأَيْتَ الْمَجْدَ أَلْقَى رَحْلَهُ فِي آلِ طَلْحَةَ ثُمَّ لَمْ يَتَحَوَّلِ
في الكناية عن نسبة الشرف إلى آل طلحة، كلُّ ذلك يبرز لك المعاني في صورة تشاهدها وترتاح نفسك إليها.

ومن خواص الكناية أنها تمكنك من أن تشفي غلتك من خصمك من غير أن تجعل له إليك سبيلاً، ودون أن تخذش وجه الأدب وهذا النوع يسمى بالتعريض، ومثاله قول المتنبي في قصيدة يمدح بها كافوراً ويعرض بسيف الدولة^(٤):

رَحَلْتُ فَكَمْ بَاكِ بِأَجْفَانِ شَادِنٍ عَلَيَّ وَكَمْ بَاكِ بِأَجْفَانِ ضَيْفَمٍ^(٥)

(١) البلاغة الواضحة ص ١٣٩.

(٢) ديوان البحري ١١٧/١، والبيت في مدح الفتح بن خاقان.

(٣) ديوانه ١٦٠/٢.

(٤) ديوان المتنبي ج٤، ص ٢٦٤.

(٥) الشادن ولد الغزال، والضيفم: الأسد، أراد بالباكي باجفان الشادن: المرأة الحسناء، وبالباكي باجفان الضيفم: الرجل الشجاع، يقول كم من نساء ورجال بكوا على فراقه وجزعوا لارتحالي.

- وَمَا رَبَّةُ الْقُرْطِ الْمَلِيحِ مَكَائُهُ بِأَجْزَعٍ مِنْ رَبِّ الْحُسَامِ الْمُصَمِّ (١)
 فَلَوْ كَانَ مَا بِي مِنْ حَبِيبٍ مُقْتَمٍ عَذَرْتُ وَلَكِنْ مِنْ حَبِيبٍ مُعَمِّ (٢)
 رَمَى وَاتَّقَى رَمِيَّ وَمِنْ دُونِ مَا اتَّقَى هَوَى كَاسِرُ كَفِّي وَقَوَسِي وَأَسْهُمِي (٣)
 إِذَا سَاءَ فِعْلُ الْمَرْءِ سَاعَتْ ظُنُونُهُ وَصَدَقَ مَا يَعْتَادُهُ مِنْ تَوْهُمِ (٤)

فإنه كنى عن سيف الدولة أولاً بالحبیب المعمم، ثم وصفه بالغدر الذي يدعي أنه من شيمة النساء، ثم لاهه على مبادرته بالعنوان، ثم رماه بالجبن لأنه يرمي ويتقي الرمي بالاستتار خلف غيره، على أن المتنبى لا يجازيه على الشر بمثله؛ لأنه لا يزال يحمل له بين جوانحه هوى قديماً يكسر كفه وقوسه وأسهمه إذا حاول الفصال، ثم وصفه بأنه سيء الظن بأصدقائه لأنه سيء الفعل كثير الأوهام والظنون، حتى ليظن أن الناس جميعاً مثله في سوء الفعل، وضعف الوفاء، فانظر كيف نال المتنبى من سيف الدولة هذا النيل كله من غير أن يذكر من اسمه حرفاً.

هذا ومن أوضح ميزات الكناية: التعبير عن القبيح بما تُسبغ الأذان سماعه، وأمثلة ذلك كثيرة جداً في القرآن الكريم وكلام العرب، فقد كانوا لا يعبرون عما لا يحسن ذكره إلا بالكناية، وكانوا لشدة نخوتهم يكنون عن المرأة بالبيضة والشاة.

ومن بدائع الكنايات قول بعض العرب:

أَلَا يَا نَخْلَةً مِنْ ذَاتِ عِرْقٍ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ السَّلَامُ
 فإنه كنى بالنخلة عن المرأة التي يحبها.

ولعل عبد القاهر أشار لكثير من هذا حينما حدثنا عن الكناية بأنها أبلغ من الإفصاح، وليس معنى هذا أنها تدل على الكثرة من حيث الكم - كما يقولون - فقولنا: «فلان كثير الرواد» لا يفهم منه أنه يدل على كثرة الكرم، أكثر من قولنا هو جواد لا يبخل بشيء، لكن الكناية أكثر تأثيراً في النفس وأكثر تأكيداً للمعنى الذي نريد. يقول الشيخ رحمه الله:

- (١) القُرْطُ: ما يعلق في شحمة الأذن، والحسام: السيف القاطع، والمصمم الذي يصيب المفاصل ويقطعها.
 (٢) أراد بالقنع: المرأة لأن سميتها القناع، والمعمم: الرجل لأنه يلبس العمامة. يقول: لو كان الذي أشكوه (الغدر بي) من امرأة لعذرتها ولكنه من رجل.
 (٣) المعنى: إن حبي إياه منعني عن المكافأة بالاساءة، عبّر بالرمي عن الاساءة وعن أمنه من المكافأة بالهجاء بالإتقاء.
 (٤) المعنى: المسيء يسيء الظن وما يخطر بقلبه من التوهم على اساءة غيره يصدق ذلك؛ فكلمنا سمع عن غيره كلام سوء ظنه فيه.

«قد أجمع الجميع على أن الكناية أبلغ من الافصاح، والتعريض أوقع من التصريح، وأن للاستعارة مزية وفضلاً، وأن المجاز أبداً أبلغ من الحقيقة، إلا أن ذلك وإن كان معلوماً على الجملة، فإنه لا تطمئن نفس العاقل في كل ما يطلب العلم به حتى يبلغ فيه غايته، وحتى يغفل الفكر إلى زواياه، وحتى لا يبقى عليه موضع شبهة ومكان مسألة، فنحن وإن كنا نعلم أنك إذا قلت: «هو طويل النجاد» و«هو جم الرماد». كان أبهى لمعناك، وأنبل من أن تدع الكناية وتصرح بالذي تريد، وكذا إذا قلت: «رأيت أسداً» كان لكلامك مزية لا تكون إذا قلت: «رأيت رجلاً هو والأسد سواء في معنى الشجاعة، وفي قوة القلب وشدة البطش وأشبه ذلك»، وإذا قلت: «بلغني أنك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى». كان أوقع من صريحه الذي هو قولك: «بلغني أنك تتردد في أمرك» وإنك في ذلك كمن يقول: «أخرج ولا أخرج» فيقدم رجلاً ويؤخر أخرى. ونقطع على ذلك حتى لا يخالجنا شك فيه فإنما تسكن أنفسنا تمام السكون إذا عرفنا السبب في ذلك والعلة، ولم كان كذلك، وهيأتنا له عبارة تفهم عنا من نريد افهامه. وهذا هو القول في ذلك.

اعلم أن سبيلك أولاً أن تعلم أن ليست المزية التي تثبتها لهذه الأجناس على الكلام المتروك على ظاهره، والمبالغة التي تدعي لها أنفس المعاني التي يقصد المتكلم إليها بخبره، ولكنها في طريق اثباته لها وتقديره إياها. تفسير هذا أن ليس المعنى إذا قلنا: «إن الكناية أبلغ من التصريح» أنك لما كنييت عن المعنى زدت في ذاته بل المعنى أنك زدت في اثباته فجعلته أبلغ وأكد وأشد. فليست المزية في قولهم: «جم الرماد»، أنه دلّ على قرى أكثر بل أنك اثبت له القرى الكثير من وجه هو أبلغ وأوجبته إيجاباً هو أشد، وادعيته دعوى أنت بها انطق وبصحتها أوثق».

«... أما الكناية فإن السبب في أن كان للاثبات بها مزية لا تكون للتصريح؛ أن كل عاقل يعلم - إذا رجع إلى نفسه - أن أثبات الصفة باثبات دليلها وإيجابها بما هو شاهد في وجودها، أكد وأبلغ في الدعوى من أن تجيء إليها فتثبتها هكذا ساذجاً غفلاً؛ وذلك أنك لا تدعي شاهد الصفة ودليلها إلا والأمر ظاهر معروف وبحيث لا يشك فيه ولا يظن بالمخبر التجوز والغلط»^(١).

(١) دلائل الإعجاز، تحقيق رشيد رضا ص ٥٥.

علم البديع

البديع لغة واصطلاحاً:

جاء في لسان العرب المحيط: (بَدَعَ الشَّيْءُ يَبْدَعُهُ بَدْعاً، وَابْتَدَعَهُ: انشأه وبدأه، وَبَدَعَ الرُّكْبَةَ: استنبطها وأحدثها وَرَكِبِي بَدِيعٌ: حديثُهُ الحفر، وَالبَدِيعُ وَالبَدْعُ: الشيء الذي يكون أولاً. وفي التنزيل: (قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ) [الأحقاف ٩]، أي ما كنت أول من أرسل، قد أرسل قبلي رسل كثير)^(١).

وإذا كان البديع لغة: الجديد والحديث، فإن المعنى الاصطلاحي للبديع منسجم تمام الانسجام مع هذا المعنى اللغوي، فلقد أطلق البديع فناً من فنون القول على ما أحدثه الشعراء المولدون^(٢) من اساليب بيانية، كمسلم بن الوليد، وبشار وأبي تمام، إلا أن أول كتاب ظهر يحمل هذا الاسم هو البديع لعبد الله بن المعتز (٢٩٦هـ)، وذكر في مقدمته بأنه أراد أن ينبه على أن هؤلاء الشعراء ليسوا هم الذين اخترعوا هذا الفن من القول، ولكنهم أكثروا منه وغلوا فيه.

لمحة تاريخية:

ولقد كانت فنون البديع تشمل أكثر المباحث البلاغية، وعلى التحديد تشمل ما يعرف اليوم بمسائل علم البيان وبعض القضايا في علم المعاني، وهذا يظهر مما كتبه ابن المعتز ومن بعده قدامة في نقد الشعر، ونتيجة لحتمية التطور بدأت قضايا البديع تكون مجموعة خاصة لتفصل عن غيرها، فإذا كان المجاز والكناية بأقسامها، والتشبيه كذلك، إذا كانت أولئك جميعاً تعدّ من البديع فلقد أصبحت فيما بعد تكون فناً خاصاً.

ولما ازدهرت العلوم البلاغية على يد الشيخ عبد القاهر - رحمه الله -، لم تكن هذه العلوم استقرت على النهج الأخير الذي عرف فيما بعد، إلا أن الشيخ - رحمه الله تعالى - شاء الله له أن يكتب سفره النفيسين ليخلد ذكره: (دلائل الإعجاز) و (أسرار البلاغة)، تحدث في الأول عن نظرية النظم وهو ما عرف فيما بعد بعلم المعاني، وتحدث في الثاني عما عرف بعد بعلم البيان، ولكنه لم يفصل بين هذين العلمين، حيث نجده يستعمل كلمة النظم وكلمة البيان غير مفرق بينهما، ولم يول الفنون البديعية كبير عناية، وإنما اقتصر على ذكر نوعين: السجع والتجنيس، وكان ذكره لهما منشقاً عن نظرية النظم التي أراد بيانها وشرحها.

(١) لسان العرب المحيط ١/١٧٤.

(٢) الشعراء المولدون: هم الشعراء من آباء عرب وأمهات غير عربيات.

ونظن أن أول من فصل بين مسائل علمي المعاني والبيان الإمام الزمخشري - رحمه الله -، كما يظهر ذلك في مقدمة كتابه، ولم يكن يعد مسائل البديع من صلب البلاغة، ثم جاء السكاكي فنهج نهج الزمخشري، فذكر المحسنات البديعة في القسم الثالث من مفتاحه، لا على أنها علم مستقل، بل على أنها محسنات فحسب.

ويظهر أن أول من جعل هذه المسائل علماً مستقلاً بدر الدين بن مالك في مصباحه، حيث قسم البلاغة إلى ثلاثة فنون هي المعاني والبيان والبديع، وهذا هو ما استقر عليه الأمر إلى يومنا هذا، فعلم المعاني هو نظرية النظم التي تتحقق به هذه المقولة: «لكل مقام مقال»، على أن البلاغة سيظل علماً المعاني والبيان ركنيهما الرئيسين الأساسيين، وعلم البيان هو الذي يؤدي به المعنى الواحد بصور متعددة، وعلم البديع يأتي بعد هذين العلمين، فهو علم المحسنات. وهذه المحسنات، قد تكون من جهة اللفظ، أو من جهة المعنى كما ستعرفه.

وحينما أصاب البلاغة ما أصابها من جمود وذبول وذبول أصيب به دارسوها أخذ الناس يتبارون في هذه المحسنات البديعة، مهما طغى ذلك على رونق المعنى وجمال الأسلوب، وصار هم كل واحد أن يستنتج أكثر من غيره من الأنواع، فابن أبي الأصبع مثلاً في تحرير التحبير يُنَيِّف على العشرين بعد المائة من الأنواع البديعية، ثم كان فيما بعد ما يسمى بالبديعيات، وهي منظومات في مدح الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

ولقد جنت هذه الصنعة البديعية على البلاغة أيما جناية، وكثير من الأنواع التي كانوا يذكرونها كان بعضها متداخلاً في بعضه الآخر، ومن جهة أخرى فإن الكثير منها حقه أن يذكر في علم المعاني، كالاتفات، والاحتراس، والايغال، والاعتراض، والتتميم، مما حدثناك عنه هناك في الجزء الأول من هذا الكتاب، ونحن لا ننكر أن بعض هذه الأنواع تكسب الكلام جمالاً ما دامت غير متكلفة.

من كل ما سبق نستخلص أن علم البديع هو العلم الذي يوشى به الكلام بأوجه الحسن، وقد يكون ذلك الحسن من جهة اللفظ وقد يكون من جهة المعنى، ومن هنا فلقد قسموا مباحث هذا العلم إلى قسمين:

أولاً: المحسنات المعنوية.

ثانياً: المحسنات اللفظية.

فالمحسنات المعنوية هي ما يرجع الجمال فيها إلى المعنى، والمحسنات اللفظية هي ما يرجع الجمال فيها إلى اللفظ، وليس معنى هذا، أن ينظر إلى هذه المحسنات بعيدة عن الأساليب التي قررت في علمي المعاني والبيان، بل الحق أن ننظر إلى النص نظرة موضوعية شاملة، حيث يجب أن يكون مطابقاً لمقتضى الحال كما قرر في علم المعاني، وأن يكون بأسلوب مؤثر، بعيداً عن التعقيد كما قرر في علم البيان.

أما إذا أردنا أن نأخذ هذه المحسنات على حدة، فذلك من شأنه أن يؤدي إلى التكلف، وإلى أن يصبح الكلام بارداً ممجوجاً، ويظهر فيه التصنع المقوت، ولذا كانت مباحث هذا العلم تذكر بعد فني المعاني والبيان، وسنقتصر على ذكر بعض هذه المحسنات مما يظهر أثره في تحسين القول، ومما له أثر في تزيين الكلام، متجنبين الإغراب، والاغراق في كل ما لا طائل من ذكره.



الفصل الأول

المحسنات المعنوية

المبحث الأول: الطباق:

والطباق في الأصل مصدر، يقال طبقتُ بين الشيئين طباقاً، وقد لوحظ هذا المعنى في الطباق الاصطلاحي، فالطباق في الاصطلاح هو الجمع بين الشيء ومقابله أو الشيء وضده، وقد يكون الشيئان المجموع بينهما إسمين أو فعلين أو حرفين.

فمثاله في الاسمين، الظلمات والنور في قوله سبحانه: ﴿كَتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [إبراهيم ١]، والسماء والأرض في قوله سبحانه: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ) [الأنعام ١]، والإنس والجن في مثل قوله سبحانه: ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُوا بِمِثْلِهِ﴾ [الإسراء ٨٨]، وقوله سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ [التغابن ٢]، وقوله سبحانه: ﴿وَنَحْسِبُهُمْ أَيَّاقًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ [الكهف ١٨]، ومنه قول الشاعر:

وأصدعُ شَكِّي بِالْيَقِينِ وَإِنِّي لِنَفْسِي عَلَى بَعْضِ الْمَسَاءَةِ حَابِسٌ
وقول الشاعر:

إِنَّمَا الدُّنْيَا هِبَاتٌ وَعَوَارٍ مُسْتَرْدَّةٌ
شِدَّةٌ بَعْدَ رَخَاءٍ وَرَخَاءٌ بَعْدَ شِدَّةٍ

تقول: «الحياة إما سلم وإما حرب»، و«الوضع الذي تعيشه امتنا مستهجن إذ لا هو سلم ولا هو حرب»، ومن كلمات النبوة الجامعة «اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت»^(١).

ومثاله في الفعلين قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن ٧]، وقوله سبحانه: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ [النجم ٤٣]، ومنه قوله سبحانه:

(١) رواه مسلم كتاب الصلاة، باب ٤٠ (ماذا يقول إذا رفع رأسه من الركوع) حديث ٤٧٧.

(والذي هو يَطْعَمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ والذي يَمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ) [الشعراء ٧٩ - ٨٠]، وقوله سبحانه: (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُدْلِلُ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) [آل عمران ٢٦]، وفي الأثر «رحمان الدنيا والآخرة ورحيمهما تعطي منهما من تشاء أرحمنا رحمة تغفينا بها عن رحمة من سواك»، وكذلك ما جاء في الدعاء «اللهم اغننا بالافتقار إليك ولا تفقرنا بالاستغناء عنك»^(١)، ومنه قول دعبل الخزاعي^(٢):

لَا تَعْجَبْنِي يَا سَلَامُ مِنْ رَجُلٍ ضَحِكَ الْمَشِيبُ بِرَأْسِهِ فَبَكَى
ومثاله في الحرفين قوله سبحانه: (لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ) [البقرة ٢٨٦]، وقولك: «الأمة التي تستحق الحياة لا تسكت عما لها من حقوق ضعفاً وجبناً، ولا تترك ما عليها من الواجبات كسلاً وأنانية»، ومنه قول الشاعر:

عَلَى أَنْنِي رَاضٍ بِأَنْ أُحْمِلَ الْهُوَى وَأُخْلَصُ مِنْهُ لَا عَلَيَّ وَلَا لِيَا
وقد يكون الطباق بين اسم وفعل وذلك مثل قوله: (أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ) [الأنعام ١٢٢]، فالمقابلة هنا بين (ميتاً) وهي الاسم، و (أحييناه) وهي الفعل. ومنه قول طفيل الغنوي^(٣):

بَسَاهِمِ الْوَجْهِ لَمْ تُقْطَعْ أَبَاجِلُهُ يُصَانُ وَهُوَ لِيَوْمِ الرُّوعِ مَبْذُولُ
وقد يكون ادراك الطباق واضحاً جلياً لا خفاء فيه كما مر، فأنبت تجد أنه من السهل عليك أن تدرك كل معنيين متقابلين في الأمثلة السابقة، وقد يحتاج إلى نوع من الفكر والتأمل، وذلك كما في قوله سبحانه: (مِمَّا خَطَبَيْنَاهُمْ أَغْرَقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا) [نوح ٢٥]، فلاول وهلة قد يظن أن ليس في الآية الكريمة طباق، ولكننا حينما نعرف أن ادخال النار معناه الإحراق فكأنه قيل: (أغرقوا فأحرقوا)، يظهر لنا الطباق في الآية الكريمة.

(١) رواه مسلم - كتاب الصلاة - باب (ماذا يقول إذا رفع رأسه من الركوع).

(٢) معاهد التنصيص ١٨٤/٢.

(٣) الصناعتين ص ٣٠٣، أي قليل لحم الوجه لطول غزوه وكثرة عتقه، لم تقطع أباجله: أي لم يصبه داء يقطعه البيطار، والأبجل: عرق في الرجل. والطباق هنا بين الفعل (يُصَان) والاسم (مَبْذُول).

أقسام الطباق:

والطباق قد يكون طباق ايجاب لا نفي فيه، وقد يكون طباق سلب، فطباق الايجاب ما تقدم، ومثال طباق السلب قوله سبحانه: (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) [الروم ٦-٧]، وقوله: (أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ) [النجم ٥٩ - ٦٠]، وقوله: (فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْا النَّاسَ) [المائدة ٤٤]، ومنه قول السموأل^(١):

وَتُنْكِرُ إِن شِئْنَا عَلَى النَّاسِ قَوْلَهُمْ وَلَا يُنْكِرُونَ الْقَوْلَ حِينَ نَقُولُ
ومنه قول البحري^(٢):

يُقَيِّضُ لِي مِنْ حَيْثُ لَا أَعْلَمُ الْهَوَى وَيَسْرِي إِلَيَّ الشَّوْقُ مِنْ حَيْثُ أَعْلَمُ
وقول أبي الطيب المتنبّي^(٣):

فَلَقَدْ عُرِفْتَ وَمَا عُرِفْتَ حَقِيقَةً وَلَقَدْ جُهِلْتَ وَمَا جُهِلْتَ خُمُولًا^(٤)
وقول الآخر:

خُلِقُوا وَمَا خُلِقُوا لِمَكْرَمَةٍ فَكَأَنَّهُمْ خُلِقُوا وَمَا خُلِقُوا
رُزِقُوا وَمَا رُزِقُوا سَمَاحَ يَدٍ فَكَأَنَّهُمْ رُزِقُوا وَمَا رُزِقُوا
وقول الآخر:

شَيْبَتْنِي وَمَا يَشَيْبُنِي السِّنُّ هُمُومٌ تَنَرَّى وَدَهْرٌ عَنِيْدُ

(١) ديوان المعاني ٥٩/٢، العقد الفريد ٢/٤.

(٢) ديوانه ٢٢٩/٢.

(٣) ديوانه ٣٦٢/٣.

(٤) الخامل: الساقط الذي لا نباهة له ولا شهرة، يقول إن الناس قد عرفوك بما ظهر من سخايتك وجودك ولكنهم لم يعرفوك حق معرفتك لأنهم لا يبلغون كنه قدرك، وإذا لم يعرفوك حق المعرفة فقد جهلوك، فليس جهلهم أياك لأنك خامل الذكر.

المبحث الثاني: بين الطباق والمقابلة:

جمهور العلماء على أن المقابلة غير الطباق، والمقابلة عندهم أن يوتى بمعنيين فأكثر ثم بما يقابل هذه المعاني. أما الطباق فلا يكون إلا بين معنى واحد وما يقابله، فأنت ترى أن الطباق والمقابلة من حيث الموضوع شيء واحد، كل ما في الأمر أن الطباق يكون بين معنيين، أما المقابلة فيشترط لها أكثر من ذلك. ولا نرى ضرورة لهذا الاصطلاح ما دام الموضوع واحداً، ولم لا تكون المطابقة والمقابلة شيئاً واحداً، وتكون بين المعنى الواحد وما يقابله، أو بين معنيين وما يقابلهما، أو بين ما يزيد على اثنين، ولا مشاحة في الاصطلاح، كما يقولون.

وقد عرفت في الطباق كيف أننا نأتي بالمعنى وما يقابله أو يضادّه، ونحدثك الآن عن المقابلة أو المطابقة فيما هو أكثر من ذلك.

التقابل في اثنين:

فمثالها في أمرين قوله سبحانه: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جِزَاءَ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة ٨٢]، فقد جمع بين الضحك والبكاء والقلة والكثرة، وقوله سبحانه: ﴿أَذِلَّةً عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةً عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة ٥٤]، وقوله: ﴿يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء ٥٧]، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه»^(١) وما روي عنه عليه الصلاة والسلام «أحب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضك يوماً ما، وأبغض بغيضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما»^(٢). ومنه قول النابغة^(٣):

فَتَى كَانَ فِيهِ مَا يَسُرُّ صَدِيقَهُ عَلَى أَنْ فِيهِ مَا يَسُوءُ الْأَعَادِيَا
ومنه قول الشاعر:

فَوَاعَجَباً كَيْفَ اتَّفَقْنَا فَنَاصِحٌ وَفِيٍّ وَمَطْوِيٍّ عَلَى الْغِلِّ غَادِرٌ

(١) رواه مسلم كتاب البر، باب فضل الرفق حديث ٧٨: ٢٠٠٤/٤٤.

(٢) رواه الترمذي كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الاقتصاد في الحب والبغض رقم (٦٠)، حديث رقم ١٩٩٨، قال أبو عيسى: غريب لا نعرفه بهذا الإسناد إلا من هذا الوجه.

(٣) العمدة ١٤/٢.

ومنه قول ابن المعتز^(١):

جُمِعَ الْحَقُّ لَنَا فِي إِمَامٍ قَتَلَ الْبُخْلَ وَأَحْيَا السَّمَاخَا

ومنه قول المتنبي^(٢):

إِذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الْكَرِيمَ مَلَكَتْهُ وَلَوْ أَنَّكَ أَكْرَمْتَ اللَّئِيمَ تَمَرَّدَا

التقابل في ثلاثة:

ونمثل له بقوله سبحانه: (يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ) [الأعراف

١٥٧]، فهنا ثلاثة معان قابلتها ثلاثة آخر، أما الثلاثة الأولى: فهي (يحل لهم الطيبات)، وأما

الثلاثة الأخر: فهي (يحرم عليهم الخبائث)، فالمقابلة بين (يحرم ويحل)، (لهم وعليهم)،

(الخبائث والطيبات) ففي كل اسمُ وفعلٌ وحرفٌ ومنه قول أبي الطيب:

فَلَا الْجُودُ يُفْنِي الْمَالَ وَالْجِدُّ مُقْبِلٌ وَلَا الْبُخْلُ يُبْقِي الْمَالَ وَالْجِدُّ مُدْبِرٌ

(فالجود) يقابله (البخل)، (وافناء المال) يقابله (ابقاؤه)، (ومقبل) يقابله (مدبر)، ومنه

قول جرير:

وَبَاسِطٌ خَيْرٌ فَيْكُمْ بِمِيزَانِهِ وَقَابِضٌ شَرٌّ عَنْكُمْ بِسِمَالِهِ

وقال البحتري^(٣):

فَإِذَا حَارَبُوا أَذَلُّوا عَزِيزًا وَإِذَا سَالَمُوا أَعَزُّوا ذَلِيلًا

ومنه قول أبي دلالة^(٤):

مَا أَحْسَنَ الدِّينَ وَالْدُنْيَا إِذَا اجْتَمَعَا وَأَقْبَحَ الْكُفْرَ وَالْإِفْلَاسَ بِالرَّجُلِ

فقد قابل بين الحسن والقبح، والدين والكفر، والدنيا والإفلاس. ومنه قول الخليفة

الراشد: «الضعيف منكم قوي عندي حتى آخذ الحق له، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ

الحق منه». ومنه قولنا: «رحم الله أسلافنا، فلقد رفعوا الحق فوق رؤوسهم، ووضعوا الباطل

(١) سبق البيت ص ١٨٨.

(٢) ديوان المتنبي ٢٨٨/١.

(٣) ديوان البحتري ٢٩٢/٢، والبيت من قصيدة في مدح محمد بن علي بن عيسى القمي.

(٤) معاهد التنميص ٢٠٧/٢.

تحت أرجلهم، وكانوا رهبان ليل رحماء، وفرسان نهار أقوياء، وما كانوا يجمدون في حق مع ضعيف، ولا يذوبون في باطل مع قوي».

التقابل فيما فوق الثلاثة:

مثالها فيما ما فوق ثلاثة: قوله سبحانه: (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنِيْرُهُ لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنِيْرُهُ لِلْعُسْرَى) [الليل ٥-٦]، فمقابل العطاء البخل، ومقابل التقوى الاستغناء، ومقابل التصديق التكذيب، ومقابل اليسر العسر. ومنه قول الشاعر المتنبي^(١):

أَزُورُهُمْ وَسَوَادُ اللَّيْلِ يَشْفَعُ لِي وَأُنْثَنِي وَيَبَاضُ الصُّبْحُ يَغْفِرِي بِـي
وقول الشاعر:

عَلَى رَأْسِ عَبْدٍ تَاجٌ عِزٌّ يَزِينُهُ وَفِي رِجْلِ حُرٍّ قَيْدٌ ذُلٌّ يُشِينُهُ
فقد قابل بين الرأس والرجل، والعبد والحر، والتاج والقيد، والعز والذل، والزين والشين. وبالجمله فهذا النوع من البديع يكون مقبولاً، إذا كان النظم الذي جاء فيه مطابقاً لمقتضى الحال، وكان خالياً من التعقيد، خالياً من الصنعة المتكلفة كذلك.

المبحث الثالث: التورية:

وهي مصدر مثل تحلية وتخليه وتعمية وتنقية، يقال ورى الخبر تورية إذا ستره وأظهر غيره، وهذا المعنى اللغوي يرشدنا إلى المعنى الاصطلاحي، فالتورية في الاصطلاح: أن يذكر اللفظ المفرد ويكون له معنيان، أحدهما قريب والآخر بعيد، ويكون البعيد هو المراد ولا بد لها من قرينة تبين المعنى المراد، وهذه القرينة تدرك بالتأمل.

استمع إلى قول ذلك الجبان:

أَقُولُ وَقَدْ شَدَوُا إِلَى الْحَرْبِ غَارَةً دَعَوْنِي فَأَنْتَ أَكُلُ الْخُبْزِ بِالْجُبْنِ
وأنت تعلم أن للجبن معنيين، معنى قريباً وهو الجبن الذي يؤكل، ومعنى بعيداً وهو ضد الشجاعة، والمراد هنا هذا المعنى البعيد، والقرينة «أقول وقد شدوا إلى الحرب غارة» وإن كان المعنى القريب هو المتبادر لأنه جاء مع أكل الخبز.

(١) ديوان المتنبي ١٨٨/٨، وسواد الليل يشفع لي: أي يستر علي، وبياض الصبح يغفر لي: أي يشهر بي ويدل علي.

وقال ابن الظاهر:

شَكَرْتُ لِنَسَمَةِ أَرْضِكُمْ كَمْ بَلَّغْتِ عَنِّي تَحِيَّةَ
لَا غَرَوَانُ حَفِظْتُ أَحَا دَيْتَ الْهَوَى فَهِيَ الذُّكْيَةُ

والتورية في كلمة (ذكية) فإن لها معنيين، أحدهما قريب وهو الساطع الرائحة، والثاني بعيد وهو الفطنة، وهذا هو الذي قصده الشاعر. ومنه قول أبي الحسين الجزار:

كَيْفَ لَا أَشْكُرُ الْجِرَارَةَ مَا عِشْتُ حِفَاطَظاً وَأَهْجُوراً الْآدَابَا
وَبِهَا صَارَتِ الْكِلَابُ تُرَجِّينِي وَبِالشُّعْرِ كُنْتُ أَرْجُو الْكِلَابَا

وكلمة الكلاب لها معنيان: أحدهما قريب متبادر إلى الذهن وهو الحيوان المعروف، وسبب تبادر هذا المعنى للذهن التمهيد له بذكر الجزار، والثاني بعيد وهو لئام الناس وهذا هو المعنى الذي قصد إليه الشاعر.

وقال بدر الدين الذهبي:

يَا عَاذِلِي فِيهِ قُلْ لِي إِذَا بَدَا كَيْفَ أَسْأَلُو؟
يَمُرُّ بِي كُلُّ وَقْتٍ وَكُلُّ مَا مَرَّ يَحُلُو

وكلمة (مر) لها معنيان: أحدهما قريب وهو المرور، والآخر بعيد وهو ضد الحلوة، وهذا ما قصده الشاعر. وقال نصير الدين الحمامي:

أَبْيَاتُ شِعْرِكَ كَالْقُصُورِ وَلَا قُصُورَ بِهَا يَغُوقُ
وَمِنْ الْعَجَائِبِ لَفْظُهَا حُرٌّ وَمَعْنَاهَا رَقِيقُ

فكلمة (رقيق) لها معنيان: معنى قريب متبادر وهو العبد المملوك، وسبب تبادره إلى الذهن ذكره للكلمة (حر)، والمعنى البعيد هو اللطيف السهل، وهو ما أراده الشاعر. وقال ابن دانيال:

يَا سَائِلِي عَنْ حِرْقَتِي فِي الْوَدَى وَأَضِيعَتِي فِيهِمْ وَإِفْلَاسِي
مَا حَالُ مَنْ دَرَّهَمٌ إِنْفَاقِهِ يَأْخُذُهُ مِنْ أَعْيُنِ النَّاسِ

فإن في قوله: «يأخذه من أعين الناس» معنيين معنى قريباً، وهو أنه يأخذ الدرهم أجراً لعلاج العيون، وسبب تبادر هذا المعنى إلى الذهن حيثه عن حرقته، والمعنى البعيد أنه يأخذ الدرهم من الناس رغماً عنهم، وهذا هو المعنى المراد هنا.

وقال سراج الدين الوراق:

أَصُونُ أَدِيمَ وَجْهِي عَنْ أَنْاسٍ لِقَاءِ الْمَوْتِ عِنْدَهُمُ الْأَدِيبُ
وَرَبُّ الشُّعْرِ عَنْهُمْ بَغِيضٌ وَلَوْ وَأَفَى بِهِ لَهُمْ حَبِيبُ

فكلمة (حبيب) لها معنيان: معنى قريب وهو المحبوب، وسبب تبادر هذا المعنى إلى الذهن ذكره كلمة (بغيض)، ومعنى بعيد وهو اسم الشاعر أبي تمام وهو حبيب بن أوس، وهذا هو الذي أراده الشاعر.

والتورية كما رأيت من الأمثلة السابقة أساسها الذي بنيت عليه، هو اللفظ المشترك، والمشارك هو ما اتحد لفظه واختلف معناه. كالعين التي تطلق على عين الماء وعلى العين المبصرة وغيرهما، وكلمة الصقر التي تطلق على الحيوان المعروف وعلى اللب الحامض، وَخَطَطَ الشعر في أذن الفرس والدبس الرطب.

ولقد فطن لهذا النوع ابن دريد فآلف فيه كتاب (الملاحن) ذكر فيه كثيراً من الكلمات المشتركة، سواء كانت من الجوامد أم من المشتقات، فكلمة (لَعِبْتُ) المعنى القريب منها اللعب، ولكن لها معنى بعيداً آخر وهو سيل اللعب، فإذا قلت: «ما لعبت على هذه الأرض، ولا أعرتها حشاشة نفسي»، فالمعنى القريب أنك تنفي اللعب عن نفسك، ولكنك تقصد أنه ما سال لعباك على ما في هذه الدنيا. وإذا قلت: «ما ظلمت فلاناً وما أذيت بالصقر»، فالمعنى القريب أنك نفي عن نفسك ظلمه وايداعه بالحيوان المعروف، ولكن المعنى البعيد أنك ما أسقيته (الظليم) وهو اللب قبل أن يروب، وما أذيتك كذلك باللب الحامض، فمن معاني الصقر اللب الحامض كما عرفت.

ونحن نقبل التورية إذا كان لها سبب مقبول، ولم يكن فيها تكلف وجور على المعنى، ونلاحظ من كتب البلاغة والأدب أن أكثر ما مثّلوا به للتورية جُلّه ليس من كلام المتقدمين، على النقيض مما رأينا في الاستعارة والتشبيه وأنواع المجاز، وهذا يدلنا على أن هذه المحسنات قد صارت فيما بعد من الأمور المتكلفة، لذا فإن ما نقبله منها ما كان متسقاً مع قواعد البلاغة، فالبلاغة كل لا يتجزأ. فلا يمكننا أن نستحسن في فن من فنونها ما كان مستقبلاً في فن آخر.

المبحث الرابع: حسن التعليل:

من المحسنات المعنوية، حسن التعليل، وهذا الموضوع يقوم في أساسه على التظرف والتفكه، ومن هنا كان بحاجة إلى فطنة وبديهة، ويقصدون بحسن التعليل أن يأتي المتكلم للشيء الذي يتحدث عنه بعلّة ليست له، تظرفاً ومبالغة. وقد يكون هذا الشيء ليس له علة، ولكن الأديب يأبى إلا أن يعلله، وقد يكون له علة ولكن المتكلم يتناساها ليأتي بعلّة أخرى.

سألني أحدهم وقد ظهر الشيب في وجهي، (ما هذا؟) فقلت: «صنعت لأحدهم معروفاً وكان من الصالحين فدعا لي قائلاً: «بَيِّضَ اللَّهُ وَجْهَكَ» فاستجيبت دعوته.

وقريب من هذا قول الشاعر^(١):

قَدْ يَشِيبُ الْفَتَى وَلَيْسَ عَجِيباً أَنْ يُرَى النُّورُ فِي الْقُضَيْبِ الرُّطِيبِ
فالشيب معروفة أسبابه معلومة علله، ولكننا وجدناهم قد عللوه بغير ما هو له.
ومما عدوه من حسن التعليل ما علل به بعض الشعراء زلزالاً حدث في مصر فقال:
مَا زُلْزِلَتْ مِصْرُ مِنْ سُوءٍ أُرِيدَ بِهَا لَكِنَّا رَقَصَتْ مِنْ عَدْلِهِ طَرِيباً
فجعل الزلزال ناشئاً عن عدل ممدوحه وهو تعليل كما ترى.

وقريب من هذا التعليل تعليل القعود عن الجهاد، بأن العدو وإن هزمنا في معارك ثلاث أو أربع، إلا أننا نهزمه كل يوم في معركة سياسية، وبأن العدو لم يبلغ أمنيته لأنه يريد أن ينال من الأنظمة، فأمنيته الأنظمة وليست الأرض. وقال الشاعر:
مَا قَصَرَ الْغَيْثُ عَنْ مِصْرٍ وَتُرْبَتِهَا طَبَعاً وَلَكِنْ تَعْدَاكُمْ مِنَ الْخَجَلِ
فهو يعلل لعدم وجود الغيث بكثرة فضل الممدوح وخيره، وهذا كالذي يعلل قطع الكهرباء في الليل المظلم بنور فلان من الناس.

ولعلك أدركت الآن ما يراد بحسن التعليل في علم البديع وإليك بعض الأمثلة:

(١) يعلل المتنبي لنزول المطر من السماء بعلّةٍ طريفةٍ غريبةٍ في قوله^(٢):

لَمْ تَحْكْ نَائِكَ السَّحَابُ وَإِنَّمَا حُمَّتْ بِهِ فَصَيَّبُهَا الرُّحْضَاءُ

يقول: لا تظن أن هذا السحاب يمكن أن يحاكيك في عطائك أو يجاريك في كرمك، لأن هذا أمر ميثوس منه، فليس للسحاب أن يَطْمَعَ فيه، كل ما في الأمر أن السماء أصابها عرقٌ من الحمى حسداً لك فمرضت، فما تراه من الماء النازل، ليس إلا أثراً لهذه الحمى التي أصيبت بها السماء، ونحن نعلم أن الحمى إذا ألت بإنسانٍ ما كَثُرَ عَرَقُهُ، فكأن هذا الماء النازل هو عرق من هذا المرض.

(١) سبق البيت ص ٧٥.

(٢) ديوان المتنبي ١/٨٥٤، النائل: العطاء، الرُّحْضَاءُ: أي العرق أثر الحمى.

(٢) ومن حسن التعليل قول المتنبي كذلك^(١):

مَا بِهِ قَتْلُ أَعْدَائِهِ وَلَكِنْ يَتَّقِي إِخْلَافَ مَا تَرْجُو الذُّنَابُ

يقول: إن ممدوحه ليس به حاجة إلى قتل أعدائه فهو يبسط سلطانه عليهم من غير قتل، كل ما في الأمر أنه لا يريد أن يخيب رجاء الذناب، فالذناب التي تعيش في سلطانه ترجوا أن لا تجوع إبان حكمه وامارته، فهو إن قتل أعداءه فإنما من أجل الذناب حتى لا يخلفها ما ترجوه.

(٣) ومن حسن التعليل قول ابن نباتة في وصف الفرس^(٢):

وَأَدْهَمَ يَسْتَمِدُّ اللَّيْلُ مِنْهُ وَتَطْلُعُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ الثُّرَيَّا
سَرَى خَلْفَ الصَّبَاحِ يَطِيرُ زَهْوً وَيَطْوِي خَلْفَهُ الْأَفْلَاقَ طَيًّا
فَلَمَّا خَافَ وَشَكَ الْفَوْتُ مِنْهُ تَشَبَّثَ بِالْقَوَائِمِ وَالْمَحْيَا

يقول إن فرسه لشدة سواده يستمد الليل سواده منه، ولكن فرسه مع هذا السواد الشديد أبيض القوائم والوجه، فكيف جاء هذا البياض في قوائم الفرس ووجهه، مع شدة سواده؟! يعلل ابن نباتة ذلك بقوله: إن فرسه سريع العدو، عجيب في سرعته فهو قد عدا يريد أن يسبق الصباح، ولما أيقن الصباح أنه مسبوق وأن لا قبل له بسبق هذا الفرس، احتال حتى لا يسبق فتشبث بقوائم هذا الفرس ومحياه، فهذا البياض ليس إلا من تشبث الصبح حينما خشي أن يسبق!.

(٤) وفي هذا المعنى يقول ابن نباتة كذلك:

فَكَأَنَّمَا لَطَمَ الصَّبَاحُ جَبِينَهُ فَأَقْتَصَّ مِنْهُ فَخَاضَ فِي أَحْشَائِهِ

وهو معنى عجيب حقاً وتعليل غريب، يقول إن الصبح اعتدى على فرسه، فلطمه في جبينه، فهذا البياض الذي في جبين الفرس ليس إلا من لطمه الصبح، ولكن هذا الفرس لا يسكت على ضيم ولا يقابل الاعتداء بالمودة، شأنه شأن صاحبه، وليس كأولئك الذين يسكتون على الاعتداء ويعطلون ذلك بالكرم والتسامح. خلاصة القول أن الفرس أراد أن يقتص من الصبح فلم يكتف أن يلطمه لطمه واحدة، بل خاض بقوائمه في أحشاء الصبح، فابيضت هذه القوائم فانظر إلى هذين التعليلين، بياض جبهة الفرس، كان بسبب لطمه الصبح، وبياض قوائمه لأنه أراد أن يقتص من الصبح فخاض في أحشائه، فانظر كيف جعل للصبح أحشاء

(١) ديوان المتنبي ٢٦٢/١.

(٢) النيتة ٢٣٦٢/٢.

وهي استعارة مكنية فيها حسن تخييل كما عرفت من قبل.

(٥) ومن حسن التعليل قول أبي هلال العسكري^(١):

زَعَمَ الْبَنَفْسُجُ أَنَّهُ كَعَذَارِهِ حُسْنًا فَسَأَلُوا مِنْ قَفَاهُ لِسَانَهُ

والعذار هو أول ما يبدو من الشعر على الخد، والبنفسج ورق يبدو من خلفه يشبه اللسان، وأبو هلال يريد أن يعلل لهذه الظاهرة وهي كون هذا الورق يبدو من خلف البنفسج، فكيف يعللها وبم؟، يقول لقد زعم البنفسج زعماً غير صحيح، وادّعى دعوى كاذبة، زعم أنه يشبه عذار ممسوحة، ولا بد للمدّعي افتراء أن ينال جزاءه، وهذا ما كان للبنفسج بالفعل فلقد سلّوا لسانه من قفاه عقاباً له على ذلك الزور وهذا الافتراء.

(٦) ومن حسن التعليل قول أبي طالب المأموني في مدح بعض الوزراء^(٢):

لَا يَنْزُقُ الْإِغْفَاءَ إِلَّا رَجَاءً أَنْ يَرَى طَيْفَ مُسْتَمِيحٍ رَوَّاحاً

فهو يدّعي بأن هذا الوزير لا ينام، لأن في النوم راحة ولكن لما كانت عادة السائلين أن يأتوا نهاراً ليُعْطُوا ما سألوا، أما في الليل فهم منقطعون عن السؤال، لذا فإن هذا الوزير ينام ليلاً علّه يراه في منامه فيستريح لرؤيتهم.

(٧) ومن بديع حسن التعليل قول ابن المعتز^(٣):

قَالُوا اشْتَكَيْتُ عَيْنَهُ فَقُلْتُ لَهُمْ مِنْ كَثْرَةِ الْقَتْلِ نَالَهَا الْوَصَبُ

حُمُرُهَا مِنْ دِمَاءٍ مَنْ قَتَلْتُ وَالدَّمُ فِي النَّصْلِ شَاهِدٌ عَجَبُ

ونحن نعلم أن العين تشتكي بسبب الرمد أو المرض، ولكن ابن المعتز عدل عن هذه العلة، ويبيّن أن شكوى العين ليست لشيء من هذا، إنما شكواها لكثرة من قتل من أولئك الذين أصابتهم سهامها، فحمرّة العين ناشئة عن كثرة القتل، وهي من دم أولئك الذين قتلتهم بغير قود - أي دية -.

(٨) ومن حسن التعليل قول الرافعي - رحمه الله -:

إِنَّمَا الْإِسْلَامُ فِي الصَّحْرَا امْتَهَدَ لِيَجِيءَ كُلُّ مُسْلِمٍ أَسَدَ^(٤)

(١) ديوان العسكري ص ٢٢٤.

(٢) الايضاح ٧٠/٦، الرواح: وقت العشي أي علّه يرى طيف السائلين ليلاً (وقت العشي).

(٣) ديوان ابن المعتز ص ٣٤، الوصب: المرض، النصل: حد السيف.

(٤) امتهد: أي اتخذ الصحراء مهذاً، والمعنى كانت الصحراء مهد الإسلام ليكون المسلمون أساداً؛ إذ مهد الأسود الصحراء.

(٩) ومن هذا القبيل حسن التعليل في رجم الزاني المحصن - أي المتزوج - «أنه بهذه الفاحشة يهدم بيت الزوجية» فهو يرمج بالحجارة ليعرف أن هذه الحجارة هي حجارة البيت الذي هدمه.

(١٠) ومن هذا القبيل ما قيل «إن الله لم يخلق المرأة من رأس الرجل حتى لا تستعبده وتذله ولم يخلقها من قدميه حتى لا يستعبدها ويسلبها شخصيتها، وإنما خلقت من ضلع قريب من القلب حيث الحنان والرحمة» وهذا كثير، وبخاصة عند المتأخرين.

ونظرة في الأمثلة المتقدمة تجد أن حسن التعليل يقوم على المبالغة، ولكننا في بعض الأحيان كما رأينا نجد فيها تكلفاً وتصنعاً كما رأينا في تعليل زلزال مصر وعدم نزول الفيث.

المبحث الخامس: تأكيد المدح بما يشبه الذم وعكسه أي تأكيد الذم بما يشبه المدح:

جعلوا هذا القسم من المحسنات المعنوية في علم البديع فالأول، وهو تأكيد المدح بما يشبه الذم، وله اسلوبان من القول:

الأسلوب الأول: أن يذكر صفة ذم منفية، ثم يأتي باداة الاستثناء، فيتوهم السامع أنه يريد أن يستثني من هذا المنفي شيئاً يذم به الممدوح، ذلك لأن المستثنى يخالف المستثنى منه، فإذا قلنا: «استيقظت الأمم المظلومة من رقدها إلا أمتنا» فالمستثنى هنا مخالف للمستثنى منه.

ففي هذا الأسلوب ننفي عيباً ثم نستثنى شيئاً، إلا أن هذا المستثنى عند التأمل نجده مدحاً آخر. استمع إلى قول النابغة الذبياني (١):

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سَيُوفَهُمْ بِهِنَّ فُلُوكَ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ

فقد نفى العيب كما رأيت بقوله: (ولا عيب فيهم)، ثم جاء باداة الاستثناء فتوهم أنه يريد أن يثبت عيباً، ولكن هذا الذي استثناه لم يكن سوى مدح على مدح.

وجعلوا منه قوله سبحانه - ما قاله السحرة لفرعون -: (وَمَا تَنْفَعُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتَنَا) [الأعراف ١٢٦]، وقوله سبحانه: (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْفَعُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ) [المائدة ٥٩]، وقوله سبحانه: (وَمَا نَعْمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)

(١) الإيضاح ٧٥/٦، القول: الثوم جمع ثم، القراع: المجادلة، الكتائب: الجيوش.

[البروج ٨]، كذلك قوله سبحانه: (لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا) [الواقعة ٢٥ - ٢٦]. قال ابن الرومي:

لَيْسَ بِهِ عَيْبٌ سِوَى أَنَّهُ لَا تَقَعُ الْعَيْنُ عَلَى شَبَهِهِ
وقال آخر:

وَلَا عَيْبَ فِي مَعْرُوفِهِمْ غَيْرَ أَنَّهُ يُبَيِّنُ عَجْزَ الشَّاكِرِينَ عَنِ الشُّكْرِ
وقال ابن نباتة المصري:

وَلَا عَيْبَ فِيهِ غَيْرَ أَنِّي قَصَدْتُه فَاَنْسَتْنِي الْأَيَّامُ أَهْلًا وَمَوْطِنًا
وقال آخر:

وَلَا عَيْبَ فِيكُمْ غَيْرَ أَنَّ ضَيُوفَكُمْ تُعَابُ بِنِسْيَانِ الْأَحِبَّةِ وَالْوَطَنِ
وقال صفي الدين الحلي:

لَا عَيْبَ فِيهِمْ سِوَى أَنَّ النَّزِيلَ بِهِمْ يَسْأَلُونَ عَنِ الْأَهْلِ وَالْأَوْطَانِ وَالْحَشَمِ
الاسلوب الثاني: أن يذكر المتكلم صفة مدح ثم يستثنى منها صفة، فيظن أن المستثنى مذموم، ولكن في الحقيقة يكون مدحاً على مدح، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: «أنا أفصح العرب بيد أني من قريش» ومنه قول النابغة الجعدي^(١):

فَتَى كَمَلْتُ أَخْلَاقَهُ غَيْرَ أَنَّهُ جَوَادُ فَمَا يُبْقِي عَلَى الْمَالِ بَاقِيَا
وقول الآخر:

وَجُوهُ كَأَزْهَارِ الرِّيَاضِ نَضَارَةٌ وَلَكِنَّهَا يَوْمَ الْهِجَاكِ صُخُورُ
أما تأكيد الذم بما يشبه المدح فله اسلوبان كذلك:

الأول: أن ينفي صفة خير ثم يأتي بأداة الاستثناء فيتهم أنه يريد مدحاً.

الثاني: أن يثبت صفة ذم ثم يأتي بأداة الاستثناء فيتهم أنه يريد مدحاً إلا أن المستثنى يكون ذماً كذلك.

ومثال الأسلوب الأول: «لا خير فيهم إلا أنهم يجبنون عن الحق»، «لا أيمان لهم إلا أنهم

(١) ديوان النابغة الجعدي ص ١٧٣.

يضيعون الأمانة»، «لا جمال في القصيدة إلا أنها معوجة الوزن»، «لا فائدة في الكتاب إلا أنه كثير الأخطاء اللغوية»، «لا عمق في البحث إلا أنه كثير الاستطراد».

ومثال الأسلوب الثاني: «قوم يخشون اعداءهم إلا أنهم يَفْتَكُون بنويعهم»، «هم يبذرون المال إلا أنهم يسلبون حقوق الناس»، «هم يضحكون لخصومهم إلا أنهم قساة على بني جلدتهم»، «يكثرون من اللغو في الباطل إلا أنهم يسكتون عن الحق» ومنه قول الشاعر:

لَيْيَمُ الطَّبَاعِ سِوَى أَنَّهُ جَبَّانٌ يَهُونُ عَلَيْهِ الْهَوَانُ

المبحث السادس: اسلوب الحكيم:

من المحسنات المعنوية اسلوب الحكيم، وتدرك لأول وهلة من هذه التسمية، أنه يبنى على الحكمة في مخاطبة الناس، فاسلوب الحكيم أن تحدث مخاطب بغير ما يتوقع وهو ضربان:

الأول: إما أن نتجاهل سؤال المخاطب فنجيبه عن سؤال آخر لم يسأله.

الثاني: وإما أن نحمل كلامه على غير ما كان يقصده ويريده، وفي هذا توجيه للمخاطب إلى ما ينبغي عليه أن يسأل عنه، أو يقصده من كلامه.

ومن أمثلة الضرب الأول قوله سبحانه: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا) [البقرة ١٨٩]، فلقد سأل الصحابة رضوان الله عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما بال الهلال يبدو صغيراً ثم يكبر ثم يعود كما بدأ؟» كان سؤالهم عن السبب والعلة، لكن القرآن الكريم قال: (قل هي مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ)، وهذه الاجابة ليس عن سبب تغير الهلال، إنما هي عن الحكمة منه، فقد سألوا عن العلة والسبب، ولكن القرآن الكريم أجابهم عن الحكمة من تغير الأهلة وهي أنها مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ، سألوا عن شيء ولكنهم أجيبوا عن شيء آخر، وهذا فيه من الحكمة ما فيه، كأنه يقول لهم، حري بكم أن تسألوا عما يمس واقعكم، ألا ترى أنه قال لهم بعد ذلك (وليس البرُّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها).

ومثل هذا قوله سبحانه: (يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَتَقَرَّمُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّهِ الدِّينُ وَالْآفَرِينِ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ) [البقرة ٢١٥]، فقد سألوا عما ينفقون ولكن القرآن الكريم أجابهم عن سؤال آخر وهو لمن ينبغي أن تكون النفقة.

ومثل هذا أن يسألك أحد الطلاب الكسالى عن موعد الامتحان والمادة المقررة فتقول له: «من أراد النجاح فلا بد أن يشمر عن ساعد الجد». وأن يسألك أحد الجشعين الذين يمتصون دماء الناس وعرقهم «كيف يمكن أن تسترد أمتنا السليب والمقدس؟ كيف تنشيء نفسها تنشئة عسكرية؟» فتجيبه بقولك: «إن أول خطوة في رقي الأمم أن لا يبغى بعضها على بعض، وأن يأخذ الضعيف فيها حقه من غير تعتعة ولا مشقة، وأن يرحم بعضها بعضاً»، وإذا سألك مستبدٌ عن عوامل القوة وأسبابها في الأمم أجبتك بقولك «إن أول ما تمتاز به الأمم المتقدمة حرية التعبير عن الرأي».

فأنت ترى في هذه الأمثلة جميعاً أن الإجابة لم تكن عن السؤال نفسه، إنما كانت عن سؤال آخر كان حرياً به أن يسأل عنه، وكأننا نقول للسائل بلطف وأدب ونوق: «جدير بك أن تسأل غير هذا السؤال، جدير بك أن تسأل عن كذا وكذا»، وقد تكون عدم الإجابة عن سؤال السائل، لأنه لم يستطع استيعاب السؤال لصغر سنّه أو قصر ادراكه.

استمع إلى هذا الأب وقد جاءه ولده يسأله عن بعض القضايا التي تاهت فيها الفلسفة وحرارٌ بها المتكلمون، جاء يسأله عن ما هية الروح وما هية النفس والفرق بينهما، والأب يدرك أن ولده لا يستطيع استيعاب هذه القضايا، فكيف يتصرف مع ولده يا ترى؟ لنستمع إليه:

جَاعِئِي ابْنِي يَوْمًا وَكُنْتُ أَرَاهُ لِي رِيحَانَةٌ وَمَصْدَرُ أَنْسِ
قَالَ مَا الرُّوحُ؟ قُلْتُ إِنَّكَ رُوحِي قَالَ مَا النَّفْسُ؟ قُلْتُ إِنَّكَ نَفْسِي

ألم تر كيف كان الأب حكيماً حقاً، حيث جنب ولده ما يعسر عليه فهمه ويصعب عليه ادراكه.

قد يسألك سائل وأنت تهاتفه من أين تتكلم، ولا تريد أن تخبره عن المكان الذي أنت فيه، فتقول: «من فمي»، فيدرك ويكف عن السؤال. «قيل إن رجلاً من أهل الحيرة جاء خالد بن الوليد رضي الله عنه فسأله خالد فيم أنت؟ قال في ثيابي فقال علام أنت؟ قال على الأرض فقال: كم سنك؟ قال اثنتان وثلاثون، فقال: اسألك عن شيء وتجيبنى بغيره؟ فقال: إنما أجبت عما سألت».

ومثال الضرب الثاني وهو أن تحمل كلام المخاطب على غير ما يقصد، وهو قريب من الضرب الأول، إلا أن الضرب الأول كان ناشئاً عن سؤال كما رأيت، وإليك بعض الأمثلة التي تبينه، وأظنك قد سمعت حكاية الحجاج، فقد بلغه أن القبعثري، لما ذكر الحجاج بينه وبين أصحابه في بستان قال: اللهم سود وجهه، واقطع عنقه، واسقني من دمه، فوشى به إلى الحجاج. فلما مثل بين يديه وسأله عن ذلك قال: إنما أردت العنب فقال الحجاج: لأحملنك على الأدهم؛ وكان يقصد أنه سيقيده بالحديد. فقال هذا الرجل «مثل الأمير يحمل على الأدهم

والأشهب»، وقد حمل كلام الحجاج على غير ما قصد، فالأدهم الذي يريد الحجاج القيد، ولكن الرجل حملة على الفرس، قال الحجاج: إنه حديد قال الرجل: «لأن يكون حديداً خير من أن يكون قديداً»^(١)، ومثل هذا قول ابن حجاج عبد الله بن أحمد البغدادي^(٢):

قَالَ ثَقُلْتُ إِذْ أَتَيْتُ مِرَاراً قُلْتُ ثَقُلْتُ كَاهِلِي بِالْأَيَادِي
قَالَ طَوَّلْتُ قُلْتُ أَوْلَيْتُ طَوَّلاً قَالَ ابْرَمْتُ قُلْتُ حَبْلَ مَوْدَةٍ وَدَادِي

فانظر إلى هذا الخلق الرفيع وكيف أراد أن يقي صاحبه الذلة، ويذهب عنه الحرج، يقول له أنا ثقلت عليك بكثرة ما أسأل، ولكنه يرد هذا المعنى بأن الأمر على العكس من ذلك، فأنت إنما ثقلت كاهلي بالنعم فلك الشكر، قال لقد طولت عليك وأخذت من وقتك، فيقول له لقد أوليت طَوَّلاً - أي نَعَمًا - فيحمل كلمة طولت على غير ما قصدتها المتكلم، قال: أبرمت أي جعلتك تسأم مني وتضيق بي، فيحملها المخاطب محملاً آخر، فيقول إنما أبرمت حبل مودة وعهد صفاء.

وهاك بعض الأمثلة مما اشتهر في الأسلوب الحكيم. قال الشاعر:

وَلَقَدْ أَتَيْتُ لِصَاحِبِي وَسَأَلْتُهُ فِي قِرْضٍ دِينَارٍ لِأَمْرِ كَانَا
فَأَجَابَنِي وَاللَّهِ دَارِي مَا حَوَتْ عَيْنًا فَقُلْتُ لَهُ وَلَا إِنْسَانَا

فالمخاطب حمل كلمة عيناً على الذهب، لكن المتكلم حملها على العين الباصرة.. وهذا ما لم يقصده المخاطب.

وقال آخر:

طَلَبْتُ مِنْهُ دِرْهَمًا يَوْمًا فَأَظْهَرَ الْعَجَبُ
وَقَالَ ذَا مِنْ فِضَّةٍ يُصْنَعُ لَا مِنْ الذَّهَبِ

وفي هذا صرف للمخاطب عن طلبه للدینار، فقد ذهب الشاعر يشرح له مم يصنع الدرهم، وأنه من الذهب والفضة ليشعر المخاطب بأنه كان ينبغي له أن لا يطلب مثل هذا الطلب.

وسئل أحد العمال: ماذا ادخرت من المال؟ فقال لا شيء يعادل الصحة.

(١) المعنى: أن يكون هذا الفرس قوياً خيراً من أن يكون ضعيفاً.

(٢) البيتة ٣/٣، نهاية الأرب ١٧١/٧.

وقال الشاعر:

وَلَمَّا نَعَى النَّاعِي سَأَلْنَاهُ خَشْيَةً وَلَلْعَيْنِ خَوْفَ الْبَيْنِ تَسْكَابُ أَمْطَارِ
أَجَابَ: قَضَى قُلْنَا لَهُ: حَاجَةُ الْعُلَا فَقَالَ: مَضَى قُلْنَا: بِكُلِّ فَخَارِ

فقد حمل المخاطب كلمة (قضى) على انجاز الحوائج وقضائها، أما المتكلم فقصد منها الموت. وكذلك قوله (مضى) أراد المتكلم (مات)، وحملها المخاطب على أنه ذهب بالفضل ولم يدع لأحد شيئاً.

هذه بعض المحسنات المعنوية ولعل ما اقتصرنا عليه هو أخطرها شأناً وأكثرها فائدة، وقد ذكروا كثيراً من هذه المحسنات كما عرفت من قبل، وإن كان كثير منها لا فائدة فيه، وبعضها متداخل في بعضه الآخر، وثالث فيه تكلف، وإليك بعضها بإيجاز:

تجاهل العارف:

وهو قريب من الاسلوب الحكيم.

وهو أن يسأل المتكلم عن شيء يعلمه إلا أنه يظهر بمظهر غير العالم، وذلك لغرض من الأغراض التي يقتضيها المقام، كالتعجب أو التوبيخ أو المبالغة في المدح أو الذم، فمثال التعجب قوله سبحانه: (أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ) [الطور ١٥]، ومثال التوبيخ قولك: «ما بال سَوَاءَ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» [الطور ١٥]، ومثال المدح قول الشاعر:

أَيَا شَجَرَ الْخَابِرِ مَالِكَ مُورِقاً كَأَنَّكَ لَمْ تَجْزَعْ عَلَى ابْنِ طَرِيفٍ

ومثال المبالغة في المدح قول البحري^(١):

أَلْمُعُ بَرَقَ سَرَى أَمْ ضَوْءُ مِصْبَاحٍ؟ أَمْ ابْتِسَامَتُهَا بِالْمُنْظَرِ الضَّاحِي؟

وقول محمد الأسمر:

زَهْرُ الرَّبِيعِ يُرَى أَمْ سَادَةٌ نُجُبُ وَزَهْرَةٌ أَيْنَعَتْ أَمْ حَفْلَةٌ عَجَبُ

ومثال المبالغة في الذم قول زهير:

وَمَا أُدْرِى وَسَوْفَ إِخَالُ أُدْرِى أَقْوَمُ أَلْ حِصْنِ أَمْ نِسَاءُ

(١) ديوانه: ص ٢٢، العمدة ٢/٢٥.

وقولك: «لا أدري اقلوبهم من صخر أم عقولهم».

والحق أن هذا الضرب حريٌّ به أن يكون في علم المعاني، فهو إلى أبوابه أقرب وبموضوعه أصدق، وكثير من هذه المحسنات كذلك، ولقد أحسن السكاكي صنعاً حينما عدّ كثيراً منها من علم المعاني. وقد آثرت أن أنبه على هذه القضية.

العكس:

وهو أن نقدم في الكلام جزءاً ونؤخر جزءاً آخر، ثم نعكس فنجعل المقدم مؤخراً، والمؤخر مقدماً، وقد يكون في جملة واحدة كقولك: «المعري شاعر الفلاسفة وفيلسوف الشعراء»، و«علي محمود طه شاعر المهندسين ومهندس الشعراء» وقولك: «كلام الملوك ملوك الكلام».

وقد يكون في جملتين كقوله سبحانه: (يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ) [الروم ١٩]، (لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهَا) [المتحنة ١٠]. ومن العكس قول الشاعر:

طَوَّيْتُ بِإِحْرَازِ الْفُنُونِ وَنَيْلِهَا رِدَاءَ شَبَابٍ وَالْجُنُونِ فُنُونُ
فَحِينَ تَعَايَيْتُ الْفُنُونِ وَحَظَّهَا تَبَيَّنَ لِي أَنَّ الْفُنُونِ جُنُونُ

وحينما طغت الصنعة البديعية، وبعدت عن الموطن الأساسي للبلاغة، صار العكس عكس ما تقتضيه قواعد البلاغة كقول ذلك القائل:

كَأْتَنَّا وَالْمَاءَ مِنْ حَوَائِنا قَوْمٌ جُلُوسٌ حَوْلَهُمْ مَاءُ
وقريب من هذا قول القائل:

إِنَّ لِلْوَجْدِ فِي فُؤَادِي تَرَائِكُمْ لَيْتَ عَيْنِي قَبْلَ الْمَمَاتِ تَرَائِكُمْ
فِي هَوَاكُمُ يَا سَادَتِي مِتُّ وَجَدًّا مِتُّ وَجَدًّا يَا سَادَتِي فِي هَوَاكُمُ

والحق أن قضية العكس يمكن أن تقبل إذا كانت تعكس غرضاً بيانياً لتجليه، وإذا كان يقتضي ذلك المقام، ونظن أن للعكس المقبول صلة بعلم المعاني كذلك. ألا ترى إلى قوله تعالى: (لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهَا)، وإلى قوله: (يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ) وفي آية أخرى: (وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ) [الأنعام ٩٥]، فانظر إلى التغيرات في النظم وكيف عبر بالاسم تارة في قوله: «هن حل» وبالفعل تارة في قوله: «ولا هم يحلون» وكذلك الآية الثانية.

المشكلة:

وهي أن نقصد شيئاً بلفظ آخر؛ أعني أن نذكر كلمة ولكننا لا نريد معنى هذه الكلمة، وإنما ذكرناها لوقوعها في مصاحبة لفظة تشبيهها.

استمع إلى قوله سبحانه: (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا) [الشورى ٤٠]، إن جزاء السيئة لا يسمى سيئة، ولكن لما ذكرت كلمة السيئة أولاً ذكرت كلمة السيئة ثانية من باب المشكلة. ومثله قوله سبحانه: (فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ) [البقرة ١٩٤]، ألا ترى أن رد الاعتداء لا يسمى اعتداءً، ولكنها المشكلة ومنه قوله سبحانه: (تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ) [المائدة ١١٦]، ومنه قوله سبحانه: (نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ) [التوبة ٦٧].

اللف والنشر:

وهو أن نذكر عدة أشياء ثم نذكر لكل واحدٍ ما يناسبه وما يتصل به اعتماداً على فهم المخاطب، وهو قسمان:

١- اللف والنشر المرتب: وهو أن نذكر الأشياء المتعددة، ثم نذكر ما يتصل بها على سبيل الترتيب، الأول للأول والثاني للثاني وهكذا.

٢- اللف والنشر المشوش: وهو أن نذكر الأشياء ثم نذكر ما يتصل بها، ولكن لا على سبيل الترتيب، فربما نذكر المتقدم للمتأخر والمتأخر للمتقدم وهكذا.

وإليك الأمثلة لكل قسم من القسمين:

- فمن أمثلة القسم الأول: (وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ) [القصص ٧٣]، فقد جمع الليل والنهار ثم ذكر لكل ما يختص به، فذكر أولاً ما يختص بالليل وهو (لتسكنوا فيه)، ثم ذكر ما يختص بالنهار وهو (لتبتغوا من فضله)، ومنه قول الشاعر (١):

عُيُونٌ وَأَصْدَاغٌ وَفَرْعٌ وَقَامَةٌ وَخَالٌ وَوَجَنَاتٌ وَفَرْقٌ وَمَرَشَفٌ

(١) اصداغ: جمع صدغ: وهو جانب الوجه من العين إلى الأنف، الفرع: الشعر التام، الفرق: الفرق من الرأس: الفاصل بين صفيين من الشعر، المرشف: موضع الرشف وعنى به هنا الفم، بانة: مؤنث البان: وهو ضرب من الشجر سبط القوام لين، ورقه كورق الصفصاف يشبه به الحسان، القرقف: هو الماء البارد الصافي.

سُيُوفٌ وَرِيحَانٌ وَلَيْلٌ وَيَانَةٌ وَمِسْكٌ وَيَاقُوتٌ وَصُبْحٌ وَقَرْقَفٌ

ومثال اللف والنشر المشوش: كقول الشاعر^(١):

وَلَحْظُهُ وَمُحْيَاهُ وَقَامَتُهُ بَدْرُ الدُّجَا وَقَضِيبُ الْبَانَ وَالرَّاحُ

فبدر الدُّجَا: راجع إلى المحيّا الذي هو الوجه، وقضيب البان راجع إلى القامة، والراح راجع إلى اللحظ.

(١) البان: ورد معناها في شرح البيت السابق، الراح: الخمر.

الفصل الثاني المحسنات اللفظية

المبحث الأول: الجناس:

من المحسنات اللفظية الجناس، ولعله زينتها وأشهرها، ولذا خصّه والسجع الشيخ عبد القاهر بالذكر، ويسمى المجانسة والتجانس، وهو أن يتفق اللفظان في النطق ويختلفا في المعنى، ومعنى هذا أنك تذكر الكلمة في موضعين فيكون لها في كل موضع معنى يختلف عن الآخر، وقد تكون الكلمتان اسمين أو فعلين، أو تكون احدهما اسماً والآخرى فعلاً، وهو قسمان: جناس تام وجناس ناقص.

فالجناس التام أن تتفق الكلمتان في أربعة أشياء.

- ١- في نوع الحروف.
- ٢- في الشكل.
- ٣- في العدد.
- ٤- وفي الترتيب.

والجناس الناقص أن تختلف الكلمتان في واحد من هذه الأربع. واعلم أن الجناس إنما يقبل في الكلام إذا كانت الصنعة فيه توافق الطبع، قال الشيخ رحمه الله:

«أما التجنيس فإنك لا تستحسن اللفظتين إلا إذا كان موقع معنييهما من العقل موقعاً حميداً، ولم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيداً، أترك استضعفت تجنيس أبي تمام في قوله^(١):

ذَهَبَتْ بِمُذْهَبِهِ السَّمَاحَةُ فَالْتَوَتْ فِيهِ الظُّنُونُ أَمْذَهَبٌ أَمْ مُذْهَبٌ؟

واستحسن تجنيس القائل (حتى نجا من خوفه وما نجا)^(٢) وقول المحدث هو أبو الفتح البستي على الأصح:

نَاطِرَاهُ فِيمَا جَنَى نَاطِرَاهُ أَوْ دَعَانِي أُمْتُ بِمَا أَوْدَعَانِي

(١) ديوان أبي تمام ١٢٩/١، والبيت من قصيدة في مدح الحسن بن وهب. ذهب بمذهبه: يحتمل وجهين فتح الميم وضمها، فعلى الفتح يكون المعنى: ذهب بطريقته السماحة أي غلبت عليه، كما يقال: «ذهب فلان بالمجد» أي حازه وصار له، وعلى الضم يكون المعنى ذهب بشيابه المذهبة أي أنه يخلعها ويبدلها هبة وعطاءً، مُذْهَب: ادمان وتوسوس في عمل ما. يقول: «إنه يبذل حتى رداءه الثمين في العطاء حتى التبس أمره على الناس فلم يدروا إذا كان ما يصدر منه عن عقيدة عاقلة أم أنه خرج فيه عن طوره لأنه خرق به مألوف عاداته، والمعنى أنه يدأب على ما يثير دهشة الآخرين من العطاء فلا يفقهون له تفسيراً».

(٢) (نجا) الأولى بمعنى أحدث - من الحدث الذي ينقض الوضوء - والثانية بمعنى خلص.

الأمر يرجع إلى اللفظ؟ أم لأنك رأيت الفائدة ضعفت عن الأول وقويت في الثاني؟ ورأيتك لم يزدك بمذهب ومذهب على أن أسمعك حروفاً مكررة، تروم لها فائدة فلا تجدها إلا مجهولة منكرة، ورأيت الآخر قد أعاد عليك اللفظة كأنه يخدعك عن الفائدة وقد أعطاه، ويوهمك كأنه لم يزدك، وقد أحسن الزيادة ووفاهها، فبهذه السريرة صار التجنيس - وخصوصاً المستوفى منه المتفق في الصورة - من حلى الشعر، ومذكوراً في أقسام البديع.

فقد تبين لك أن ما يعطي التجنيس من الفضيلة أمر لم يتم إلا بنصرة المعنى، إذ لو كان باللفظ وحده لما كان فيه مستحسن، ولما وجد فيه إلا معيب مستهجن ولذلك ذم الاستكثار منه والولع به، وذلك أن المعاني لا تدين في كل موضع لما يجذبها التجنيس إليه، إذ الألفاظ خدم المعاني والمُصَرِّفَة في حكمها، وكانت المعاني هي المالكة سياستها، المستحقة طاعتها، فمن نصر اللفظ على المعنى كان كمن أزال الشيء عن جهته وأحال عن طبيعته، وذلك مظنة من الاستكراه، وفيه فتح أبواب العيب والتعرض والشين...».

«... وعلى الجملة فإنك لا تجد تجنيساً مقبولاً ولا سجعاً حسناً، حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه، وساق نحوه، وحتى تجده لا تبتغي به بدلاً، ولا تجد عنه حوالاً، ومن هاهنا كان أحلى تجنيس تسمعه، وأعلاه وأحقه بالحسن وأولاه ما وقع من غير قصد من المتكلم إلى اجتلابه وتأهب لطلبه، أو ما هو لحسن ملائمة - وإن كان مطلوباً - بهذه المنزلة، وفي هذه الصورة. وذلك كما يمثلون به أبدأ قول الشافعي - رحمه الله تعالى - وقد سئل عن النبيذ فقال: «اجمع أهل الحرمين على تحريمه» ومما تجده كذلك قول البحري^(١):

يَعْشَى عَنِ الْمَجْدِ الْغَيْبِيُّ وَلَكِنْ تَرَى فِي سُؤْدُدٍ أَرَبًا لِفَيْرٍ أَرِيبٍ^(٢)
وإليك أمثلة لكل من النوعين.

(١) الجناس التام: قال تعالى: (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِرُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ) [الروم ٥٥]، فقد ذكرت الساعة مرتين ولكل منهما معنى، فالساعة الأولى القيامة، والثانية الجزء من الزمن. ومنه قولك: «علا قدر النبي صلى الله عليه وسلم على كل قدر» فالكلمة الأولى فعل، والثانية حرف. وقال الشاعر:

نَاطِرَاهُ فِيمَا جَنَى نَاطِرَاهُ أَوْ دَعَانِي بِمَا أُمْتُ أَوْ دَعَانِي

(١) ديوان البحري ٦٤٥/١، والبيت من قصيدة في مدح اسحق بن توبخت، يعشى: من عشى: أي ساء بصره في الليل والنهار، السؤدد: الشرف والرفعة.

(٢) أسرار البلاغة ص ١٧ - ٢٠.

فالكلمة الأولى وهي ناظراه فعل أمر مبني على حذف النون، والالف فاعل، والكلمة الثانية مرفوعة بالالف لأنها مثنى، وكذلك كلمة أو دعاني، فهي مركبة من كلمتين (أو) وهي حرف عطف، ودعاني وهي فعل أمر بمعنى اتركاني، وأما أو دعاني الثاني فهي فعل ماضٍ.

ومنه قول أبي تمام:

فَأَصْبَحْتُ غُرْرُ الْأَيَّامِ مُشْرِقَةً بِالنُّصْرِ تَضْحَكُ مِنْ أَيَّامِكَ الْغُرْرُ

فالغُرر الأولى بمعنى البياض والاشراق، والثانية بمعنى الكرم والشرف.

وقال كذلك^(١):

مَا مَاتَ مِنْ كَرَمِ الزَّمَانِ فَإِنَّهُ يَحْيَا لَدَى يَحْيَى بْنِ عَبْدِ اللَّهِ

ف(يحيا) الأولى من الحياة وهي فعل، والثانية اسم لشخص، ومنه قول الآخر في رثاء صغير:

وَسَمِيئُهُ يَحْيَى لِيَحْيَا فَلَمْ يَكُنْ إِلَى رَدِّ أَمْرِ اللَّهِ فِيهِ سَبِيلُ

وقال أبو نواس^(٢):

عَبَّاسُ عَبَّاسُ إِذَا احْتَدَمَ الْوَغَى وَالْفَضْلُ فَضْلُ وَالرَّيِّعُ رِيْعُ

وقال المتنبّي:

لِسَيْفِ الدَّوْلَةِ اتَّسَقَتْ أُمُورُ رَأَيْنَاهَا مُبَدَّدَةَ النُّظَامِ

سَمَا وَحَمَى بَنِي سَامٍ وَحَامِ فَلَيْسَ كَمِثْلِهِ سَامٌ وَحَامِ

فـ (سام وحام) في الشطر الأول من البيت الثاني هما ولدان من أولاد نوح عليه السلام وقوله (سام وحام) في الشطر الثاني من السموّ والحماية. وقال أبو سعيد المخزومي^(٣):

حَدَقُ الْأَجَالِ أَجَالُ وَالْهَوَى لِلْمَرءِ قَتَالُ

فالأجال الأولى جمع (إجل) بكسر الهمزة وسكون الجيم: وهو القطيع من بقر الوحش،

(١) ديوان أبي تمام ٣٤١/١ تمام

(٢) ديوان أبي نواس ص ٩٢

(٣) الوافي في العروض والقوافي، ورقة ٦٦، تحرير التحبير ص ٣٩٢

والثانية جمع (أَجَلَ) بفتح الهمزة وفتح الجيم وهو أمد العمر.. وقال أبو تمام^(٤):

إِذَا الْخَيْلُ جَابَتْ قَسَطَلَ الْحَرْبُ صَدَعُوا صُدُورَ الْعَوَالِي فِي صُدُورِ الْكَتَائِبِ

ف (صدور) الأولى بمعنى أعالي الرماح، والثانية نحور الأعداء. وقال آخر:

إِذَا رَمَاكَ الدَّهْرُ فِي مَعْشَرٍ قَدْ أَجْمَعَ النَّاسُ عَلَى بُغْضِهِمْ

فَدَارِهِمْ مَا دُمْتَ فِي دَارِهِمْ وَأَرْضِهِمْ مَا دُمْتَ فِي أَرْضِهِمْ

(فدارهم) الأولى وهي فعل أمر والثانية اسم، وكذلك (أرضهم) فالأولى أمر والثانية

اسم. وقال أبو العلاء المعري:

لَمْ نَلْقَ غَيْرَكَ إِنْسَانًا يُلَاذُ بِهِ فَلَا بَرَحْتَ لِعَيْنِ الدَّهْرِ إِنْسَانًا

ف (انسان) الأولى جنس بني آدم، والثانية ما يرى في سواد العين. وقال أبو الفتح

البستي^(٢):

كُلُّكُمْ قَدْ أَخَذَ الْجَامَ وَلَا جَامَ لَنَا

مَا الَّذِي ضَرَّ مُدِيرَ الْجَامِ لَوْ جَامَلْنَا

فاللفظ الأول مركب من كلمتين هما (جام) بمعنى الكأس، و (لنا) جار ومجرور، والثاني

مفرد وهو فعل ماض من المجاملة، بمعنى (عاملنا بالجميل).

ومثل هذا الأقوال المشتهرة:

رَأَيْتُ النَّاسَ قَدْ مَالُوا إِلَى مَنْ عِنْدَهُ مَالٌ

وَمَنْ لَا عِنْدَهُ مَالٌ فَعَنَّهُ النَّاسُ قَدْ مَالُوا

رَأَيْتُ النَّاسَ قَدْ ذَهَبُوا إِلَى مَنْ عِنْدَهُ ذَهَبٌ

وَمَنْ لَا عِنْدَهُ ذَهَبٌ فَعَنَّهُ النَّاسُ قَدْ ذَهَبُوا

(٢) الجناس الناقص: قلنا إن الجناس الناقص أن تختلف الكلمتان في نوع الحرف أو شكله

أو عدده أو ترتيبه. فالاختلاف في نوع الحروف كقوله تعالى: (فَأَمَّا الْبَيْتَرُ فَلَا تَهَرُ وَأَمَّا

(١) ديوان أبي تمام ٢٠٧/١، والبيت من قصيدة في مدح أبي دلق العجلي، يقول: إِذَا شَقَّتْ الْخَيْلُ غِبَارَ الْحَرْبِ فَأَبْنَاهُمْ
يَطْعَنُونَ الْأَبْطَالَ بِالرَّمَا حَتَّى يَكْسِرُوهَا فِي صُدُورِهِمْ.

(٢) الإيضاح ٩٤/٦، معاهد التنصيص ٢٢١/٣.

السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ) [الضحى ٩ - ١٠]، فقد اختلف اللفظان (تقهر وتنهر) في حرفي القاف والنون. وقال تعالى: (وَهُرْيَنَهِونَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ) [الأنعام ٢٦]، فاختلفت الكلمتان في حرف الهمزة وحرف الهاء. ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: «الخيَلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرِ»^(١) فاختلفت الكلمتان (الخيَلُ والخير) في حرف اللام والراء. وقال تعالى: (وَأِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدَّاعُوا بِهِ) [النساء ٨٣]، فكلمة (أمر) وكلمة (أمن) اختلفتا في حرف الراء وحرف النون. وقوله تعالى: (ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمَا كُنْتُمْ تَرْحُونَ) [غافر ٧٥]، وقال البحتري^(٢):

أَلِمَافَاتٍ مِّنْ تَلَاقٍ تَلَافٍ أَمْ لِشَاكِ مِنَ الصَّبَابَةِ شَافٍ
فاختلفت كل كلمتين من (تلاق وتلاف) و (شاك وشاف) في حرف من حروفهما وقال كذلك^(٣):

نَسِيمُ الرُّوضِ فِي رِيحٍ شَمَالٍ وَصَوْبُ الْمُزْنِ فِي رَاحٍ شَمُولٍ
ومن الاختلاف في شكل الحروف قول ابن الفارض^(٤):

هَلَا نَهَاكَ نَهَاكَ عَنْ لَوْمٍ أَمْرِيٍّ لَمْ يُلَفْ غَيْرَ مُنْعَمٍ بِشَقَاءٍ
فه (نهاك) الأولى مفتوحة النون وهي فعل، والثانية مضمومة وهي بمعنى العقل ومنه قول أبي العلاء^(٥):

وَالْحُسْنُ يَظْهَرُ فِي بَيِّنَتَيْنِ رَوْنُقُهُ بَيَّتَ مِنَ الشَّعْرِ أَوْ بَيَّتَ مِنَ الشَّعْرِ
فالأول ساكن العين بمعنى النظم، والثاني مفتوح العين وهو الشعر المعروف، وكقوله تعالى: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ) [الصافات ٧٢ - ٧٣]، فالمنذرين الأولى بكسر الذاَل اسم فاعل، والثانية بفتح الذاَل اسم مفعول.

(١) رواه مسلم - كتاب الزكاة - باب اثم مانع الزكاة حديث ١٦.

(٢) ديوان البحتري ٦٠١/٢، التلافي: التدارك. والمعنى: هل يمكن أن يدرك ما فات؟!.

(٣) ديوان البحتري ١٦٠/٢، العمدة ٢٢٣/١، الصوب: الانصباب والنزل، المزن: السحاب، شمول: الخمر، وقيل البارد منها، الراح: الوعاء الذي يوضع الخمر فيه.

(٤) ديوان ابن الفارض ص ٦٧.

(٥) ديوان سقط الزند ص ١٠٧.

ومن الاختلاف في عدد الحروف قوله تعالى: (وَالْتَفَتِ السَّاقِ السَّاقِ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقِ) [القيامة ٢٩ - ٣٠]، فعدد حروف المساق زائد على عدد حروف كلمة الساق. وقول الخنساء في رثاء أخيها صخر:

إِنَّ الْبُكَاءَ هُوَ الشَّفَاءُ مِنَ الْجَوَى بَيْنَ الْجَوَانِحِ

فالجوانح عدد حروفها زائد عن عدد حروف كلمة الجوى. وكقول أبي تمام^(١):

يَمْدُونُ مِنْ أَيْدٍ عَوَاصٍ عَوَاصِمٍ تَصُولُ بِأَسْيَافٍ قَوَاضٍ قَوَاضِبٍ

وقال البحتري^(٢):

لَئِنْ صَدَقْتُ عَنَّا فَرُبَّهٗ أَنْفُسٍ صَوَادٍ إِلَى تِلْكَ الْخُدُودِ الصَّوَادِفِ

وقال حسان بن ثابت رضي الله عنه^(٣):

وَكُنَّا مَتَى يَغْزُ النَّبِيُّ قَبِيلَهُ نَصِلُ جَانِبَيْهِ بِالْقَنَا وَالْقَنَابِلِ

ومن الاختلاف في ترتيب الحروف، قول عبد الله بن رواحة - رضي الله عنه -:

وَتَحْمِلُهُ النَّاقَةُ الْأَدْمَاءُ مُعْتَجِرًا بِالْبُرْدِ كَالْبَدْرِ جَلَى نُورَهُ الظُّلُمَا^(٤)

والشاهد في قوله: «البرد وكالبرد» ومنه قول أبي الطيب^(٥):

مُنْعَمَةٌ مُنْعَمَةٌ رَدَاحٌ يُكَلِّفُ لَفْظُهَا الطَّيْرَ الْوُقُوعَا

أي ممنعة يمنعها أهلها ويحمونها، ورداح صفحة الآلية أو ثقيلة الأوراك والشاهد في قوله ممنعة ومنعمة.

(١) ديوان أبي تمام ٢١٣/٢، يقول: إنهم يمدون أيديهم الصلبة التي تأتي الذل بسيف قاطعة تقطع بالحق على الباطل.

(٢) ديوان البحتري ١٠٢/٢، والبيت من قصيدة في مدح اسحق التبريدي، صدقت: مالت، الصوادي: الشديدة العطش، وفي رواية (إلى تلك الوجوه)، الصوادي: المائلة، رُبَّهٗ مثل ثَمَّةٗ يقال رَبُّ وَدِيَّةٗ.

(٣) ديوان حسان بن ثابت - رضي الله عنه - ص ٣١٥، القنابل: جمع قنبلة - بفتح القاف: وهي الجماعة من الخيل ومن الناس. يقول: متى يغزُ النبي قبيلةً نحقق به بخيلنا وسلامنا ذائدين عنه مدافعين.

(٤) معتجراً: أي لافاً العمامة على رأسه.

(٥) ديوان المتنبي ٢٥٨/٢، امرأة رداح: ضخمة العجيزة ثقيلة الأوراك، كذلك ناقة رداح وكبش رداح أي ضخمة الآلية، وروحة رداح أي عظيمة. يقول: إذا سمعت الطير لفظها وقعت لحسنه.

وقال أبو تمام^(١):

بَيْضُ الصَّفَائِحِ لَا سُودُ الصَّحَائِفِ فِي مُتُونِهِنَّ جَلَاءُ الشُّكِّ وَالرَّيْبِ
وقول الأحنف:

حُسَامُكَ فِيهِ لِلْأَحْبَابِ فَتُحْجِ وَرُمُحُكَ فِيهِ لِلْأَعْدَاءِ حَنْفُ
والشاهد في قوله فتح وحتف.

وليك أمثلة مما اشتهر على الألسنة من هذا النوع من جناس تام أو جناس ناقص.

قال بعض الحكماء: «الدُّنْيَا دَارُ مَفَرٍّ وَلَيْسَتْ دَارَ مَقَرٍّ، فَلَا تَغْتَرَّ فِيهَا بِأَمَلٍ فَإِنَّمَا تَقْتَرُ لَكَ عَنْ أَلَمٍ، فَهِيَ إِذَا حَلَّتْ أَوْ حَلَّتْ، وَإِذَا رَمَتْ أَوْ رَمَتْ، وَإِذَا أَقْبَلَتْ بَلَتْ وَإِذَا صَبَتْ أَوْ أَوْصَبَتْ، وَهَذِهِ الْقُبُورُ تُبْنَى وَلَكِنَّمَا مَا تُبْنَى، فَأَدِمِ النَّظَرَ وَكُنْ عَلَى حَذَرٍ، وَاعْلَمْ أَنَّ خَيْرَ الْمَعَانِي مَا يَحِبُّ إِلَيْكَ الْمَعَالِي وَيُبْعِدُكَ عَنِ الْمَعَاصِي».

وقال آخر: «الْخَبِيَّةُ تَذْهَبُ بِالْهَيْبَةِ، وَالْمَنِيَّةُ تَضْحَكُ مِنَ الْأُمْنِيَّةِ، كَمَا تَضْحَكُ الْقُبُورُ مِنَ الْقُصُورِ، فَخِذِ الْعِبْرَةَ وَاسْكِبِ الْعِبْرَةَ، وَاعْلَمْ أَنَّ خَيْرَ الْمَعَاشِرَةِ مَا يُوْجِبُ الْمُبَاشَرَةَ، فَدَعْ التَّهْجَمَ وَالتَّهْكَمَ، وَتَجَنَّبِ التَّعْدِيَّ وَالتَّحْدِيَّ، وَاحْذَرِ الْعَدُوَّ إِلَّا عَلَى عَدُوٍّ أَدَارَكَ حَرِيَّتَهُ وَنَبَلَهُ، وَأَرَادَكَ أَنْ تَذَلَّ وَتَبْلَى، وَاعْلَمْ أَنَّ لِكُلِّ مُسْتَبَدٍّ عِلَامَاتٍ فَإِذَا عَلِمَاتُ».

المبحث الثاني: السجع:

من المحسنات اللفظية السجع: وهو أن تتفق الفاصلتان في الحرف الأخير، والفاصلة في النثر كالفافية في الشعر، وتسمى كل من الجملتين فقرة، وأحسن السجع ما تساوت فقرته.

واعلم أن السجع مأخوذ من قولهم سجعت الحمامة، ولا يكون محموداً مقبولاً، إلا إذا كان غير متكلف، وكان اللفظ فيه تابعاً للمعنى، أما إذا كان متكلفاً وكان المعنى تابعاً للفظ فهو من السجع المذموم، وقد ذمّه النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: «أُسْجِعُوا كَسْجَعِ الْكُهَّانِ»^(٢).

ومثال السجع المحمود ما جاء في الحديث الشريف: «اللهم أعط منفقاً خلفاً وأعط

(١) ديوان أبي تمام ٤٠/١، من قصيدته المشهورة في مدح المعتصم بعد فتح عمورية. وعنى بالصحائف - جمع صحيفة - وبالصفائح - جمع صفيحة - السيوف.

(٢) رواه مسلم كتاب القسامة، باب دية الجنين ووجوب الدية في قتل الخطأ وشبه العمد على عاقلة الجاني باب (١١) حديث ١٦٨٢.

ممسكاً تلفاً» (١)، وقال صلى الله عليه وسلم: «رحم الله عبداً قال خيراً فغنم أو سكت فسلم» (٢).

وقد اختلفوا في وقوع السجع في كتاب الله تعالى فمنعه قوم منهم الرماني والباقلاني فيما كتبه في إعجاز القرآن، وقالوا: إن ما جاء على صورة السجع في كتاب الله كقوله: (يا أيها المدثر فمر فأندبر وربك فكبر وثيابك فطهر) [المدثر ١ - ٤]، وقوله تعالى: (والمُرسلات عرفاً فالعاصفات عصفاً) [المرسلات ١ - ٢]، وقوله سبحانه: (إن عذاب ربك لواقع ما له من دافع) [الطور ٢ - ٨]، ومثل قوله: (في سدر مخضود وطلح منضود وظل ممدود) [الواقعة ٢٨ - ٣٠]، وغيره في التنزيل كثير، قالوا: إن ذلك لا يسمى سجعا وإنما هو فواصل. وقد أطال الباقلاني الكلام في ذلك.

وأجازه قوم منهم ابن الأثير في المثل السائر وإليك شيئاً مما قاله في هذا:

« السجع، وحده أن يقال: تواطؤ الفواصل في الكلام المنثور على حرف واحد: وقد ذمه بعض أصحابنا من أرباب هذه الصناعة، ولا أرى لذلك وجهاً سوى عجزهم أن يأتوا به، وإلا فلو كان مذموماً لما ورد في القرآن الكريم، فإنه قد أتى منه بالكثير، حتى إنه ليؤتى بالسورة جميعها مسجوعة، كسورة (الرحمن)، وسورة (القمر)، وغيرهما، وبالجمله فلم تخل منه سورة من السور، فمن ذلك قوله تعالى: (إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيراً خالدين فيها أبداً لا يجدون ولياً ولا نصيراً) [الأحزاب ٦٤]، وكقوله تعالى: (طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى تنزيلاً ممن خلق الأرض والسماوات العلى الرحمن على العرش استوى له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى) [طه ١ - ٨] ... وأمثال ذلك كثير.

وقد ورد على هذا الأسلوب من كلام النبي صلى الله عليه وسلم شيء كثير أيضاً:

فمن ذلك ما رواه ابن مسعود رضي الله عنه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «استحيوا من الله حق الحياء» قلنا: إنا لنستحي من الله يا رسول الله. قال: «ليس ذلك، ولكن

(١) رواه مسلم كتاب الزكاة، باب (١٧) (في المنفق والمسك) حديث ١٠١٠.

(٢) قال في كشف الخفاء رواه الديلمي عن أنس مرفوعاً ج١، ص ٥١٤.

الاستحياء من الله أن تحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، وتذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا»^(١).

ومن ذلك ما رواه عبد الله بن سلام فقال: (لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فجئت في الناس لأتظر إليه، فلما تبينت وجهه علمت أنه ليس بوجه كذاب فكان أول شيء تكلم به أن قال: «أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلّوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام»^(٢)).

فإن قيل إن النبي صلى الله عليه وسلم قال لبعضهم منكراً عليه وقد كلمه بكلام مسجوع أسجعاً كسجع الكهان....، ولولا أن السجع مكروه لما أنكره النبي صلى الله عليه وسلم.

فالجواب عن ذلك أنا نقول: لو كره النبي صلى الله عليه وسلم السجع مطلقاً لقال: «أسجعاً» ثم سكت، وكان المعنى يدل على إنكار هذا الفعل لم كان؟ فلما قال: «أسجعاً كسجع الكهان» صار المعنى معلقاً على أمر، وهو إنكار الفعل لم كان على هذا الوجه؟، فعلم أنه إنما ذم من السجع ما كان مثل سجع الكهان لا غير، وأنه لم يذم السجع على الإطلاق، وقد ورد في القرآن الكريم، وهو صلى الله عليه وسلم قد نطق به في كثير من كلامه، حتى أنه غير الكلمة عن وجهها اتباعاً لها بأخواتها من أجل السجع فقال لأبني بنته - الحسن والحسين رضي الله تعالى عنهما - : «اعيزه من الهامة والسامة، وكل عين لامة»^(٣) وإنما أراد مُلِمةً لأن الأصل فيها من أَلَم فهو مُلِمٌ، وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم: «أرجعن مأزوراتٍ غير مأجورات»^(٤)، وإنما أراد مؤزورات من الوزر، فقال: مأزورات لمكان مأجورات، طلباً للتوازن والسجع، وهذا مما يدل على فضيلة السجع^(٥).

على أن هذا الحديث النبوي الذي يتضمن إنكار سجع الكهان عندي فيه نظر، فإن ألهم يسبق إلى إنكاره، يقال: فما الكهان الذي يتعلق الإنكار به ونهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ والجواب عن ذلك أن النهي لم يكن عن السجع نفسه، وإنما النهي عن حكم الكاهن الوارد باللفظ المسجوع، ألا ترى أنه لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجنين

(١) رواه الترمذي أبواب صفة القيامة باب (٢٥) حديث رقم ٢٤٦٠، قال أبو عيسى: حديث غريب.

(٢) رواه الترمذي كتاب الأطعمة، باب ما جاء في فضل إطعام الطعام رقم ٤٥، حديث (١٨٥٥) قال أبو عيسى: حديث حسن صحيح.

(٣) رواه الترمذي كتاب الطب، باب (١٨) حديث (٢٠٦١) قال: حديث حسن صحيح.

(٤) رواه ابن ماجه كتاب الجنائز، باب ما جاء في اتباع النساء الجنائز باب رقم (٥٠) حديث رقم (١٥٧٨).

(٥) لسنّا مع ابن الأثير في تأويل الحديثين فكلّمة لامة ومأزورات لهما وجه آخر من الجمال غير ما ذكره.

بغرة عبد أو أمة قال الرجل: «أُدي من لا شرب ولا أكل ولا نطق ولا استهل ومثل ذلك يطل» فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اسجعا كسجع الكهان» أي اتتبع سجعا كسجع الكهان.

وكذلك كان الكهنة كلهم كانوا إذا سئلوا عن أمر جاؤا بالكلام مسجوعاً...

... فالسجع إذن ليس بمنهي عنه، وإنما المنهي عنه هو الحكم المتبوع في قول الكاهن، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أسجعا كسجع الكهان» أي أحكماً كحكم الكهان، وإلا فالسجع الذي أتى به ذلك الرجل لا بأس به لأنه قال: «أدي من لا شرب ولا أكل ولا نطق ولا استهل ومثل ذلك يطل» وهذا كلام حسن من حيث السجع وليس بمنكر لنفسه وإنما المنكر هو الحكم الذي تضمنه في امتناع الكاهن أن يدي الجنين بغرة عبد أو أمة.

واعلم أن الأصل في السجع إنما هو الاعتدال في مقاطع الكلام، والاعتدال مطلوب في جميع الأشياء، والنفس تميل إليه بالطبع، ومع هذا فليس الوقوف في السجع عند الاعتدال فقط، ولا عند تواطؤ الفواصل على حرف واحد، إذ لو كان ذلك هو المراد من السجع لكان كل أديب من الأدباء سجاعاً، وما من أحد منهم لو شداً شيئاً يسيراً من الأدب إلا ويمكنه أن يؤلف ألفاظاً مسجوعة ويأتي بها في كلامه، بل ينبغي أن تكون الألفاظ المسجوعة حلوة حادة طنانة رنانة لا غثة ولا باردة، وأعني بقولي غثة باردة أن صاحبها يصرف نظره إلى السجع نفسه من غير نظر إلى مفردات الألفاظ المسجوعة وما يشترط لها من الحسن، ولا إلى تركيبها وما يشترط له من الحسن....».

«... فإذا صُفِّي الكلام المسجوع من الفثاة والبرد فإن وراء ذلك مطلوباً آخر وهو أن يكون اللفظ فيه تابعاً للمعنى، لا أن يكون المعنى فيه تابعاً للفظ، فإنه يجيء عند ذلك كظاهر مموه، على باطن مشوه، ويكون مثله كغمم من ذهب على نصل من خشب، وكذلك يجري الحكم في الأنواع الباقية الآتي ذكرها من التجنيس والترصيع وغيرهما».

... فإن قيل: فإذا كان السجع أعلى درجات الكلام على ما ذهبنا إليه، فكان ينبغي أن يأتي القرآن كله مسجوعاً، وليس الأمر كذلك بل منه المسجوع ومنه غير المسجوع.

قلت في الجواب: إن أكثر القرآن مسجوع حتى أن السورة لتأتي جميعها مسجوعة.. وما منع أن يأتي القرآن كله مسجوعاً إلا أنه سلك به مسلك الإيجاز والاختصار، والسجع لا يواتي في كل موضع من الكلام على حد الإيجاز والاختصار فترك استعماله في جميع القرآن لهذا السبب.

وها هنا وجه آخر هو أقوى من الأول، ولذلك ثبت أن المسجوع من الكلام أفضل من غير المسجوع، وإنما تضمن القرآن غير المسجوع؛ لأن ورود غير المسجوع معجزاً أبلغ في باب الإعجاز من ورود المسجوع، ومن أجل ذلك تضمن القرآن القسمين.

واعلم أن للسجع سرّاً هو خلاصته المطلوبة، فإن عُرِيَ الكلام المسجوع منه فلا يعتدّ به أصلاً، وهذا شيء لم ينبه عليه أحد غيري وسأبينه ها هنا، وأقول فيه قولاً هو أبين مما تقدم، وأمثل لك مثلاً إذا حذوته أمنت الطاعن والعائب، وقيل في كلامك، ليبليغ الشاهد الغائب، والذي أقوله في ذلك هو أن تكون كل واحدة من السجعتين المزوجتين مشتملة على معنى غير المعنى الذي اشتملت عليه اختها، فإن كان المعنى فيهما سواء فذاك هو التطويل بعينه، لأن التطويل إنما هو الدلالة على المعنى بالألفاظ يمكن الدلالة عليه بدونها، وإذا وردت سجعتان تدلّان على معنى واحد كانت احدهما كافية في الدلالة عليه، وجُلُّ كلام الناس المسجوع جار عليه، وإذا تأملت كتابة المُعلّقين ممن تقدم كالصّابي وابن العميد وابن عباد وفلان وفلان فإنك ترى أكثر المسموع منه كذلك، والأقل منه على ما أشرت إليه....».

«فالكلام المسجوع إذاً يحتاج إلى أربع شرائط:

الأولى: اختيار مفردات الألفاظ على الوجه الذي أشرت إليه فيما تقدم.

الثانية: اختيار التركيب على الوجه الذي أشرت إليه أيضاً فيما تقدم.

الثالثة: أن يكون اللفظ في الكلام المسجوع تابعاً للمعنى، لا المعنى تابعاً للفظ.

الرابعة: أن تكون كل واحدة من الفقرتين المسجوعتين دالة على معنى غير المعنى الذي

دلت عليه اختها. فهذه أربع شرائط لا بد منها»^(١).

المبحث الثالث: ردُّ العجز على الصدر:

من المحسنات اللفظية في علم البديع رد العجز على الصدر، ورد العجز على الصدر يكون في النثر وفي الشعر، وهو أن تأتي بلفظين مكررين أو متجانسين فنجعل أحدهما في أول الجملة والآخر في آخرها، أو أن يكون أحدهما في الشطر الأول من الشعر والثاني في الشطر الآخر، وإنما قلنا أحد اللفظين المكررين أو المتجانسين، لأن اللفظتين قد تكونان من معنى واحد ومن مادة واحدة، وقد يكون كل منهما من مادة.

فمثال اللفظتين المختلفتين من حيث المادة قوله سبحانه: {قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِّنْ

الْقَالِينَ} [الشعراء ١٦٨]، فكلمة قال من القول، وكلمة قالين من القلى وهو البغض، قال تعالى:

{مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى} [الضحى ٣]، وقولك: «سائلُ اللّئيم يرجع ودمعهُ سائل» فسائل

الأولى من السؤال والثانية من السيلان. وقولك: «رب قوم لا يشربون الماء وإنما يشربون ربّاً»

فرب الأولى حرف للتقليل والثانية عصير العنب وقولك: «ما جارَ مثلُ مَنْ أَهَانَ جَارَهُ». وهو

قريب من الجناس كما ترى، إلا أن هذا جاءت إحدى الكلمتين في أول الجملة والثانية في آخرها، ولا يشترطون ذلك في الجناس. والجناس لا بد فيه من اختلاف الكلمتين من حيث المعنى، وقد يتحد المعنى هنا.

ومثال الثاني: أي ما اتحدت مادته قوله تعالى: ﴿وَتَخَشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ [الأحزاب ٣٧]، وقوله: ﴿اتَّخَشَوْهُمْ فَلَا إِلَهَ إِلَّا أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة ١٣]، وقوله: ﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران ٨].

ومثاله في الشعر قول المغيرة بن عبد الله (الأقيشر)^(١):

سَرِيعٌ إِلَى ابْنِ الْعَمِّ يَلْطِمُ خَدَّهُ وَلَيْسَ إِلَى دَاعِي النَّدَى بِسَرِيعٍ
ومنه قول المعري^(٢):

فَوَاعَجَبَا كَمْ يَدْعِي الْفَضْلَ نَاقِصُ وَوَا أَسَفَا كَمْ يُظْهِرُ النِّقْصَ فَاضِلُ

ونكتفي بهذا القدر وإذا أردت مزيداً فارجع إلى إيضاح القزويني، أو تحرير التحبير لابن أبي الأصبع، وستجد مصداقية ما قلته لك من قبل، من أنك ستجد التكرار أو التكلف أو التداخل في كثير من هذه التي سموها محسنات.

ولنذكر لك كما عودناك من قبل من بدائع القرآن وبدائع السنة المشرفة.

(١) الأغاني ٨٤/١٠ - ٩٧ / تحرير التحبير ص ١١٦.

(٢) ديوان سقط الزند ص ٢٢٩.

بدائع القرآن

يتسق ذكر البديع في القرآن الكريم مع غيره من الأساليب التي جاءت في أرفع درجات البلاغة، لذلك نجد أن ما جاء في القرآن منه، - أي من هذا البديع - كان أولاً في غاية الحسن، مطبوعاً ليس فيه أثر للصنعة أو الكلفة كما رأينا في أنواع البديع الكثيرة وبخاصة عند المتأخرين، كما جاء كذلك غير منفصل عما يقتضيه النظم، ويتطلبه المقام، أي أن بدائع القرآن لم تأت منفصلة عن روعة النظم التي عرفناها في علم المعاني، كما لا يأتي منفصلاً عن جمال الصورة التي عرفناها في علم البيان.

نقول هذا لأننا عرفنا أن كثيراً من أنواع البديع المتكلفة كان يُجاء بها لذاتها فحسب، دون مراعاة لما يقتضيه النظم أو ينسجم مع الصورة البلاغية، فكانت بحق جناية على البلاغة، وجراًة على البيان، ولقد مرّ معنا بعض الآيات الكريمة عند الحديث عن أنواع البديع، ونودّ هنا أن نتوسع بعض الشيء في ذكر بدائع القرآن الكريم، على عادتنا حينما تحدثنا عن التشبيه والاستعارة والكناية، وليس معنى هذا أننا سنبالغ في عد الأنواع البديعية، ونتكلف لها في استنتاج الأمثلة والشواهد، فهذا ليس منهجنا ولا ينسجم مع فكرة هذا الكتاب، ومن أراد ذلك فمرشده لـ (بديع القرآن) لابن أبي الأصبع (والاقتان) للإمام السيوطي - رحمهما الله تعالى - فلقد ذكر صاحب بديع القرآن أكثر من مائة نوع اختصرها صاحب الاقتان وزاد عليها - كما يقول - وهذه الأنواع هي: (المجاز، والاستعارة، والتشبيه، والكناية، والإرداف، والتمثيل، والابحار، والاتساع، والإشارة، والمساواة، والبسط، والإيغال، والتتميم، والاحتباس، والاستقصاء، والتذييل، والزيادة، والترديد، والتكرار، والتفسير، والإيضاح، ونفي الشيء بإيجابه، والمذهب الكلامي، والقول بالموجب، والمناقضة، والانتقال، والإسجال، والتسليم، والتمكين، والتوشيح، والتسهم، ورد العجز على الصدر، وتشابه الأطراف، ولزوم ما لا يلزم، والتخيير، والتسجيع، والتسريع والإيهام: وهو التورية، والاستخدام، والاتفات، والاطراد، والانسجام، والإدماج، والإفتتان، والاقتدار، وأتلاف اللفظ مع اللفظ، وأتلاف اللفظ مع المعنى، والاستدراك، والاستثناء، وتأكيد المدح بما يشبه الذم، والتفويف، والتغاير، والتقسيم، والتدبيج، والتنكيت، والتضمين، والجناس، وجمع المؤنث والمختلف، وحسن النسق، وعتاب المرء نفسه، والعكس، والعنوان، والفرائد، والقسم، والمبالغة، والمطابقة، والمقابلة، والمواربة، والمراجعة، والنزاهة، والابداع، والمقارنة، وحسن الابتداء، وحسن الختام، وحسن التخلص، والاستطراد^(١):

(١) بديع القرآن لابن أبي الأصبع المصري تحقيق د. حنفي شرف مطبعة نهضة مصر سنة ١٩٥٧م.

وسنذكر بعض ما يسمح به المقام ويفتح به العلام، مفيدتين مما ذكره الأوائل، فإذا بدأنا بالمحسنات المعنوية وجدنا ما جاء منها في كتاب الله تعالى على غاية من الحسن، لا يستطيع أحد أن يفصله على حدة، على معنى أنه لم يأت ثانوياً، إنما جاء في صلب النظم، ولنقف مع قوله سبحانه: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران ٦٥].

هاتان الايتان الكريمتان يستخرج منهما علماء البديع أكثر من محسن واحد، ولكن هذه المحسنات على تعددها نجد أنها جاءت في صلب النظم ومن مقتضياتها، فإذا وقفنا أولاً مع قوله: ﴿اللهم مالك الملك﴾ نجد أن الآية بدأت بهذا النداء المنبئ عما بعده، والذال بحق على العظمة، فهو نداء يستدل منه السامع على عظمة الحق تبارك وتعالى، فهو كالعنوان الدال على موضوع الكتاب وهو نوع من البديع، كما رأيت في أسماء الأنواع التي نقلناها عن ابن أبي الأصبع.

فإذا وقفنا مع قوله سبحانه: ﴿تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء﴾، رأينا تلك العظمة في التصوير والروعة في الأسلوب لا تقف عند الطباق أو المقابلة فحسب بين (تؤتي) و (تنزع) و (تعز) و (تذل)، ولا يمكننا أن نفصل ذلك عن قوله: (من تشاء)، هذه الجملة التي يظهر فيها أمران كبيران: العموم في كلمة (مَنْ) والارادة المهيمنة في قوله (تشاء)، أليس هذا النظم في هذا الأسلوب يجعل الانسان في حذر دائم، لأنه لا يملك لنفسه شيئاً، وإنما ما شاء الله كان.

ثم لتقف مع قوله سبحانه: ﴿تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي﴾ تلك صورة أخرى من صور العظمة، وعلماء البديع يسمون هذا عكساً، ولكن أين هو من العكس الذي مرت معك أمثلته من قبل، والتي ظهر فيها التكلف والتصنع والتعمل، وقل لي بربك أيمكنك أن تفصل هذا العكس عن الصورة البلاغية في هذا النظم، التي تتمثل في اختيار كلمتي (تولج) و(تخرج) - وهم يسمون ذلك جناساً ناقصاً - حيث جاءت في صيغة المضارع الدالة على التجدد دائماً، وهما صورتان في الكون والحياة، صورة الزمان وصورة الخلق.

وكيف جاءت هذه المقابلة سلسلة بين النهار والليل والميت والحي، وهكذا نرى أن الوان البديع في كتاب الله تعالى لم تأت من قبيل المحسنات فحسب.

وهكذا يمكنك أن تقف مع قوله سبحانه: (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنِيْرُهُ لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنِيْرُهُ لِلْعُسْرَى وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى فَأَنْذَرْنَكُمْ نَارًا تَلْقَى لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى) [اليل ه - ١٨]، أنعم النظر في هذه الآيات وستجد فيها أنواعاً كثيرة من البديع: المقابلة بين الآيات الثلاث الأولى والآيات التي بعدها. أي بين قوله: (أعطى واتقى وصدق) وقوله: (بخل واستغنى وكذب) وبين (العسرى) و (اليسرى)، وما فيه من التقسيم كذلك، وبين قوله (يغنى) و (تردى)، وما بين قوله: (علينا) و (لنا)، و (الآخرة) و (الأولى)، و (الأشقى) و (الأتقى). ولكن هذه الأنواع جميعاً جاءت في هذا القالب من النظم في هذه الصور المزدوجة، وتزيد الروعة في نفسك إذا عرفت أن هذه الآيات جاءت في سورة الليل: (وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى) [الليل ١ - ٤].

هل يمكنك أن تفصل هذه الأنواع البديعية جميعها عن صورة النظم وجمال التركيب؟، كيف ابتدأت السورة بالقسم، ثم كان جوابه هذه الجملة المؤكدة (إن سعيكم لشتى) الذي بنى عليها هذا التقسيم فيما بعد، ولولاها ما كان ليصح ذلك، ثم هذه الأداة الدالة على التأكيد (أما) ثم هذا العموم في قوله (من)، ثم في هذه الإرادة العادلة (فسنيسره)، وهكذا إذا انعمت النظر في جميع آيات السور الكريمة تجد أن ما فيها من بديع إنما هو من لب النظم.

وقف مع قوله سبحانه: (وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيْمًا فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى فَأَمَّا الْيَتِيْمَ فَلَا تُهْرَ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) [الضحى ١ - ١١].

واستخرج ما شئت من أنواع البديع سواء من المقابلة بين (والضحى والليل إذا سجي)، و (والآخرة والأولى)، أم مما يسمونه (اللف والنشر) في قوله: (ألم يجدك يتيماً

فَأَوَى) إلى آخر السورة، حيث ذكره بنعم ثلاث نعمة الأيواء وهو يتيم، ونعمة الهداية وهو حائر، ونعمة الغنى وهو عائل، ثم رتب عليها ما يقابلها، فإذا كنت يتيماً فَأَوَاكَ اللَّهُ (فأما اليتيم فلا تنهر)، وإذا كنت ضالاً حائراً فهذاكَ اللَّهُ وعلمكَ (فأما السائل فلا تنهر) ويعني به سائل العلم، وإذا كنت عائلاً فَأَغْنَاكَ اللَّهُ وأنعم عليك (وأما بنعمة ربك فحدث).

ولكن ترى أيمكننا أن نقف مع أنواع البديع في السورة الكريمة منفصلة عن النظم الخلاب والبيان الجذاب؟ اللهم لا، وهذا كثير في كتاب الله تبارك وتعالى، لا يمكن حصره ويصعب استقصاؤه، وقد تحتاج بعض الآيات إلى تأمل ورؤي.

قف مثلاً مع قوله سبحانه وهو يحدثنا خبر آدم في سورة (طه): (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدْرَاكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٌ لَّا يَبْلَى فَاكْلَا مِنْهَا فَبَدَّتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفَقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وُرْقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى) [طه ١١٦ - ١٢٣].

وتأمل قوله سبحانه: (الآن تجوع فيها ولا تعرى)، و(أنك لا تظمأ فيها ولا تضحى)، حيث جمع بين الجوع والعري، والظمأ والضحوة، والمتبادر للذهن أن يجمع بين الجوع والظمأ، ولكن القرآن الكريم عدل عن هذا المتبادر، لأن الجوع الصق بالعري، لأن الجوع خلو من الطعام والعري خلو من الكساء، وفي الظمأ والضحوة كليهما حرارة.

وانظر إلى المناسبة بين قوله تعالى: (شَجَرَةَ الْخُلْدِ وَمُلْكٌ لَّا يَبْلَى)، وبين قوله سبحانه: {عَصَى وَغَوَى}، وما بعدها {اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى}، وبين قوله سبحانه: {فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى} وما بعده من هذا التقسيم، مما يمكنك أن تستخرجه بذهنك وتدركه بقريحتك، لكن ذلك كله لا ينبغي أن نقف به عند هذه المحسنات منفصلة عن روعة النظم وجمال الصورة.

وانظر إلى الجمع والتقسيم في قوله سبحانه: (وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) [النور ٤٥]، وإلى قوله سبحانه: (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُؤْتِي اللَّهَ) [فاطر ٣٢]، وإلى قوله سبحانه: (يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ سُعِيُّبٌ وَسَعِيدٌ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقَّوْا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ) [هود ١٠٥ - ١٠٧].

وهكذا لو أردت أن تستعرض أنواع المحسنات البديعية، وجدت من ذلك في كتاب الله ما يستريح له الطبع وتأنس به النفس. انظر إلى اسلوب التورية في قوله سبحانه: (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ) [الذاريات ٤٧ - ٤٨]، فإن كلمة (أيد) لها معنيان معنى قريب وهو جمع يد، ومعنى بعيد وهو القوة والإحكام، وهو المراد هنا -والله أعلم- وليس هذا في الآية فحسب، بل انظر إلى ما بين السماء والأرض (بنيناها وفرشناها).

وانظر إلى التورية في قوله سبحانه: (الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ) [الرحمن ٥ - ٦]، فالنجم له معنيان الساطع في السماء وهو المعنى القريب، والنبات الذي ليس له ساق وهو المعنى البعيد، وهو المراد هنا، وإن كان ذكر الشمس والقمر يجعل الأول هو المتبادر للذهن.

ولقد مرت معك من قبل أمثلة للمشكلة في مثل قوله سبحانه: (تَعَلَّمْ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمْ مَا فِي نَفْسِكَ) [المائدة ١١٦]، وهو مثال أيضاً لطباق السلب بين (تعلم) و (لا أعلم)، وهذا يؤيد ما قلناه من قبل من أن بدائع القرآن الكريم ليست فنوناً جيء بها من أجل التنميق فحسب، إنما هي في صلب المعنى وجوهر النظم.

قف مثلاً مع هذه الآيات الكريمة: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ

اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يَضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ، الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) [البقرة ٢٦ - ٢٧]، وانظر إلى المشاكلة في قوله: (لا يستحي أن يضرب مثلاً)، ثم انظر إلى اسلوب المقابلة في قوله سبحانه: (بعوضة فما فوقها)، وبين قوله: (أمنوا وكفروا) وبين قوله: (يضل ويهدي)، و (يقطعون ويوصل)، إلى غير ما هنالك مما في الآيات الكريمة. وإليك طرفاً مما ذكره جاز الله الزمخشري.

يقول عند قوله تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَتُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ) [البقرة ١٣]، مشيراً إلى المقابلة في الآية الكريمة وفي التي قبلها وهي قوله سبحانه: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ) [البقرة ١١]، يقول: «فإن قلت: فَلِمَ فُصِّلَتْ^(١) هذه الآية بـ (لا يعلمون) والتي قبلها بـ (لا يشعرون)؟ قلت: لأن أمر الديانة والوقوف على أن المؤمنين على الحق وهم على الباطل، يحتاج إلى نظر واستدلال حتى يكتسب الناظر المعرفة، وأما النفاق وما فيه من البغي المؤدي إلى الفتنة والفساد في الأرض فأمر دنيوي مبني على العادات، معلوم عند الناس، خصوصاً عند العرب في جاهليتهم وما كان قائماً بينهم من التغاور والتناحر، والتحارب والتحازب، فهو كالمحسوس المشاهد، ولأنه قد ذكر السفه وهو جهل، فكان ذكر العلم معه أحسن طباقاً له»^(٢).

ويقول عند قوله سبحانه: (وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى) [البقرة ١١١].

«والمعنى: قالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً، وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى، فلف بين القولين ثقة بأن السامع يردُّ إلى كل فريق قوله، وأمثاً من الإلباس لما علم من التعادي بين الفريقين وتضليل كل واحد منهما لصاحبه»^(٣).

(١) أي لماذا كانت فاصلة الآية [لا يعلمون].

(٢) الكشف ١، ص ٦٤.

(٣) الكشف ١، ص ١٧٧.

ويقول عند قوله سبحانه: (فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمْ الشَّهْرَ فَلْيَصُهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرٍ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَذَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) [البقرة ١٨٥].

فقوله (ولتكمّلوا) علة الأمر بمراعاة العدة، (ولتكبّرُوا) علة ما علم من كيفية القضاء والخروج من عهدة الفطر، (ولعلكم تشكرون) علة الترخيص والتيسير. وهذا نوع من اللفظ لطيف المسلك لا يكاد يهتدي إلى تبينه إلا الثّقاب المحدث من علماء البيان^(١).

فإذا جئت إلى المحسنات اللفظية وجدت جمال اللفظ دون أن ينال ذلك من المعنى شيئاً، ولقد مر معنا من قبل أمثلة للجناس مثل قوله تعالى: (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ) [الروم ١٢]، ومثل قوله سبحانه: (يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ) [النور ٤٣] وقوله سبحانه: (يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ) [الأنعام ٢٦]، وكله منسجم مع النظم، والذي نود أن نوكدّه هنا بأن القرآن الكريم مع عنايته باختيار الألفاظ إلا أن هذا الاختيار مع ما يتوخى فيه من دقة للدلالة على الموضوع ورقة في المعنى، فإنه لا يقيم لجانب التنسيق والتنميق في الألفاظ وزناً إذا كان ذلك على حساب المعنى، ويمكن أن نمثل لذلك بكثير من الآيات الكريمة.

أنعم النظر في قوله سبحانه: (وَيَذْبَحُونَ أَبْنَاءَ كُفْرٍ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَ كُفْرٍ) [إبراهيم ٦]، وأنت تعلم أن المنسجم مع لفظ الأبناء، لفظ البنات، ولكن القرآن لم يقل ويستحيون بناتكم، وذلك لأن في لفظ النساء معنى قصد إليه القرآن، ولو أنه ذكر البنات لفات هذا المعنى، والقرآن يقصد أن آل فرعون لن يقتلوا البنات الوليدات كما يفعلون ذلك مع الأبناء، بل سيقبون عليهن حتى يكبرن ويصرن نساءً، ولا شك أن في هذا من الإذلال والاهانة والإيلام للنفس الكثير الكثير.

واستمع إلى قوله سبحانه: (إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدَاكَ وَإِنْ تُغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) [المائدة ١١٨]، والمتبادر إلى الذهن أن يقول الغفور لأنه هو المناسب والمتسق مع قوله (إن تغفر لهم)، ولكن القرآن لم يلق بالأل لهذه المناسبة اللفظية، ذلك لأنها ستخل بالمعنى المراد من الآية الكريمة، وهو أنه لن يغفر للعاصين، قال السيوطي: «فإن قوله وإن تغفر لهم يقتضي أن تكون الفاصلة (الغفور الرحيم) وكذا نُقِلَتْ عن مصحف أبيّ وبها قرأ ابن

(١) الكشف ج ١، ص ٢٢٨.

شنبوذ، وذكر في حكمته أنه لا يغفر لمن استحق العذاب إلا من ليس فوقه أحد يردُّ عليه حكمه، فهو العزيز أي الغالب، والحكيم هو الذي يضع الشيء في محله، وقد يخفى وجه الحكمة على بعض الضعفاء في بعض الأفعال فيتوهم أنه خارج عنها وليس كذلك، فكان في الوصف بالحكيم احتراس حسن، أي إن تغفر لهم مع استحقاقهم العذاب فلا معترَض عليك لأحد في ذلك، والحكمة فيما فعلته»(١).

واستمع إلى قوله سبحانه: (وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ) [يوسف ١٧]، ولم يقل (وما أنت بمصدق)، ذلك لأن في كلمة مؤمن ما لا يوجد في كلمة مصدق ولذا أثر القرآن جانب المعنى. وأنعم النظر في قوله سبحانه: (اتَّذِعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ) [الصافات ١٢٥]، ويتساعل بعضهم لِمَ لَمْ يقل (وَتَدْعُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ) فَإِنْ - (تَدْعُونَ) بمعنى (تعبدون) و(تَدْعُونَ) بمعنى (تتركون) - فيهما تناسب من حيث اللفظ، ولكن القرآن مع ذلك أهمل هذا التناسب ولم يعره عناية، ذلك لأن هناك فرقاً بين (تَدْعُونَ) و (تذرون)، وإن كانا في الظاهر كما يظن الناس معناهما واحد وهو الترك فكلمة (دع) إنما تقال في جانب الشيء الذي له في حياة الانسان شأن مأخوذ من توديع المسافر، وقد قُرِئ شاذاً (ما ودَعَكَ ربك وما قلى)، أما كلمة (ذر) فتقال بجانب الشيء الذي لا يُعْتَنَى به ومنه الوَذَرَة وهي قطعة من اللحم تطرح لأنها لا تصلح للأكل، ولذا لا تقول (ذر صديقك) و (ذر هذا الكتاب) إذا كان مفيداً، إنما تقول (دع صديقك الآن) و (دع هذا الكتاب الآن) وتقول (ذر فلاناً لأنه غير سوي) و (ذر هذا الكتاب لأنه كثير المغالطات)، ولا يجوز أن تقول (دع)، ومن هنا تدرك السر في اختيار الكلمة القرآنية؛ اختيار (تذرون) على (تدعون)، لأنهم لم يرجوا لله وقاراً، ولم يقدروه سبحانه حق قدره.

وأخيراً قف مع قوله سبحانه: (فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ) [الحاقة ٣٥]، ولو أن القرآن يقصد تنميق اللفظ على حساب المعنى لقال (ولا شرابٌ إلا من حميم) ولكن القرآن عدل عن ذلك كله فقال (فليس له اليوم هاهنا حميمٌ ولا طَعَامٌ إلا من غسيلين).

وبعد، فبدائع القرآن الكريم لا تخرج عن هذا السنن الذي ذكرته لك، وهو الانسجام بين الموضوع المتحدَّث عنه، والألفاظ التي اختيرت له، والمعاني المرادة من هذه الألفاظ، وتلك لعمر الحق آية الجمال وحكمة البيان.

البديع في الحديث الشريف

أما البديع في السنة المطهرة فهو منسجم كذلك مع فصاحة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو الذي نعى على المتشدين المتفريقين، وكان يكره التكلف في كل شيء، لا عجب أن يكون ما جاء من أسلوب البديع في كلامه الشريف - إذن - منسجماً مع هذه المبادئ مطبوعاً غير مصنوع وسنكتفي بذكر أمثلة لتقف أمامها وتدرك ما تشير إليه من رقة في الطبع، ودقة في الوضع، وما تحدثه من راحة في السمع، والأمثلة الشريفة التي نذكرها تشتمل على كثير من المحسنات المعنوية واللفظية من طباق ومقابلة ومشاكلة وجناس وسجع وصحة تقسيم وغير ذلك مما يمكن أن تستخرجه بنفسك.

١- يقول صلى الله عليه وسلم: «اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أسرفت، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت»^(١).

٢- وكان يقول صلى الله عليه وسلم إذا رفع رأسه من الركوع: «سمع الله لمن حمده، ربنا لك الحمد، ملء السماوات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد، أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد، لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد»^(٢).

٣- وقال صلى الله عليه وسلم للأَنْصار رضي الله عنهم: «انكم لتكثرُّون عند الفزع، وتقلون عند الطمع».

٤- وقال صلى الله عليه وسلم: «الظلم ظلمات يوم القيامة»^(٣) وقوله لهرقل عظيم الروم في كتاب بعثه صلى الله عليه وسلم له جاء فيه: «أما بعد أسلم تسلم، واسلم يؤتكَ الله أجرك مرتين، وإن توليت فإن عليك اثم الأريسيين»^(٤).

٥- عن أبي واقد الليثي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما هو جالس في المسجد والناس معه، إذ أقبل ثلاثة نفر، فأقبل اثنان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وذهب واحد قال: «فوقفا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأما أحدهما فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها وأما الآخر فجلس خلفهم وأما الثالث فأدبر ذاهباً، فلما فرغ رسول الله

(١) رواه البخاري كتاب الدعوات، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم اغفر لي ما قدمت وما أخرت باب (٦١) حديث ٦٠٣٥.

(٢) رواه مسلم كتاب الصلاة باب اعتدال أركان الصلاة وتخفيفها في تمام.

(٣) رواه البخاري كتاب المظالم باب الظلم ظلمات يوم القيامة باب رقم (٩) حديث رقم ٢٣١٥.

(٤) رواه مسلم كتاب الجهاد رقم (٣٢) باب كتاب النبي إلى هرقل يدعو إلى الإسلام رقم ٢٦.

صلى الله عليه وسلم قال: ألا أخبركم عن النفر الثلاثة؟ أما أحدهم فأوى إلى الله فأواه الله، وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه، وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه» (١).

٦- وعن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليها وعندها امرأة قال من هذه قالت فلانة، تذكر من صلاتها قال: «مَهْ عليكم بما تطيقون فوالله لا يَمَلُّ الله حتى تملوا، وكان أحب الدين إليه ما داوم عليه صاحبه» (٢).

٧- وقال صلى الله عليه وسلم: «عَصِيَّةٌ عَصَتِ اللَّهَ وَغَفَرُ اللَّهُ لَهَا وَأَسْلَمَ سَالِمَهَا اللَّهُ» (٣).

٨- وقال صلى الله عليه وسلم: «ليس لك من مالِك إلا مَا أَكَلْتَ فَأَقْنَيْتَ أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ» (٤).

٩- قال صلى الله عليه وسلم: «لَعَلَّهُ كَانَ يَتَكَلَّمُ بِمَا لَا يُعْنِيهِ أَوْ يَبْخُلُ بِمَا لَا يَنْقُصُهُ» (٥).

١٠- وقال صلى الله عليه وسلم وقد رأى أبا مسعود البصري يضرب عبداً له: «اعلم أبا مسعود، والله لله أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا» (٦).

١١- عن عائشة قالت: جلس احدى عشرة امرأة، فتعاهدن وتعاقدن أن لا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئاً قالت الأولى: زوجي لَحْمٌ جَمَلٌ غَثٌّ، عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ، لَا سَهْلٌ فَيُرْتَقَى وَلَا سَمِينٌ فَيُنْتَقَلُ، قالت الثانية: زوجي لَا أَبْتُ خَيْرُهُ، إِنِّي أَخَافُ أَنْ لَا أَذَرُهُ، إِنْ أَذْكَرُهُ أَذْكَرُ عَجْرُهُ وَبَجْرُهُ، قالت الثالثة: زوجي الْعَشْتَقُ، إِنْ أَنْطَقَ أَطْلُقَ وَإِنْ أَسْكُتَ أَعْلَقُ، قالت الرابعة: زوجي كَلِيلُ تَهَامَةٍ لَا حَرَّ وَلَا قُرَّ، وَلَا مَخَافَةَ وَلَا سَامَةَ، قالت الخامسة: زوجي إِنْ دَخَلَ فَهَدْ، وَإِنْ خَرَجَ أَسَدٌ، وَلَا يَسْأَلُ عَمَّا عَهِدَ، قالت السادسة: زوجي إِنْ أَكَلَ لَفٌّ، وَإِنْ شَرِبَ أَشْتَقَفَّ، وَإِنْ اضْطَجَعَ أَتَفَّ، وَلَا يُولِجُ الْكَفَّ لِيَعْلَمَ الْبَيْتُ، قالت السابعة: زوجي غَيَايَاءُ، أَوْ عَيَايَاءُ طَبَاقَاءُ، كُلُّ دَاءٍ لَهُ دَاءٌ، شَجَكَ أَوْ فَلَكَ أَوْ جَمَعَ كَلَالاً لَكَ، قالت الثامنة: زوجي الْمَسُّ مَسُّ أَرْثَبٍ وَالرَّيْحُ رِيحُ زَرْثَبٍ، قالت التاسعة: زوجي رَفِيعُ الْعِمَادِ، طَوِيلُ النَّجَادِ، عَظِيمُ الرَّمَادِ، قَرِيبُ الْبَيْتِ مِنَ النَّادِ، قالت العاشرة: زوجي مَالِكٌ وَمَا مَالِكٌ، مَالِكٌ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ، لَهُ إِبِلٌ كَثِيرَاتُ الْمُبَارَكِ، قَلِيلَاتُ الْمَسَارِحِ، وَإِذَا سَمِعْنَ صَوْتَ الْمِزْهَرِ، أَيْقَنَ أَنَّهُنَّ هَوَالِكُ، قالت الحادية

(١) رواه البخاري كتاب العلم رقم (٣) باب من قعد حيث ينتهي به المجلس ومن رأى فرجة في الحلقة فجلس فيها رقم (٨) حديث رقم ٦٦.

(٢) رواه البخاري كتاب الايمان رقم (٢) باب أحب الدين إلى الله أنومه رقم (٣١) حديث ٤٣.

(٣) أخرجه البخاري - كتاب المناقب باب (ذكر أسلم وظفار ومزنية وجهينة وأشجع)، حديث رقم ٣٥١٣.

(٤) رواه البخاري كتاب الاستسقاء باب دعاء النبي اجعلها عليهم سنين كسني يوسف رقم (٢) حديث رقم ٩٦١.

(٥) رواه الترمذي كتاب الزهد باب ما جاء فيمن تكلم فيما لا يعنيه رقم الباب (١١) رقم الحديث ٢٣١٧ قال الترمذي حديث غريب.

(٦) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - مسند الشاميين - حديث رقم : (١٧٢١٥)، ص ١٢٣٠، وتمة الحديث قول أبي مسعود: «فحلفت أن لا أضرب مملوكاً أبداً».

عشرة: زوجي أبو زرع، فما أبو زرع، أناس من حلي أذني، وملأ من شحم عضدي وبجحتني فبجحت إلي نفسي، وجدني في أهل غنيمة بشق، فجعلني في أهل سهيل وأطيط ودانس ومنق، فعنده أقول فلا أقبح، وأرقد فأنصبح، واشرب فأنفتح. أم أبي زرع فما أم أبي زرع عكومها رداح وبيتها فساخ، ابن أبي زرع فما ابن أبي زرع، مضجعه كمسل شطبة ويشبعه ذراع الجفرة، بنت أبي زرع فما بنت أبي زرع، طوع أبيها وطوع أمها، وملأ كسائها وغيط جارتها، جارية أبي زرع فما جارية أبي زرع لا تبث حديثنا تبثياً، ولا تنقث ميرتنا تنقيتاً، ولا تملأ بيتنا تعشيشاً. قالت: خرج أبو زرع والأوطاب تمخض فلقى امرأة معها ولدان لها كالفهدين، يلعبان من تحت خصرها برمانتين، فطلقني ونكحها، فنكحت بعده رجلاً سرياً ركب شرياً وأخذ خطياً وأراح علي نعمة ثرياً، وأعطاني من كل رائحة زوجاً وقال: كلي أم زرع وميري أهلك، قالت: فلو جمعت كل شيء اعطانيه ما بلغ اصغر أنية أبي زرع»

قالت عائشة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كنت لك كأبي زرع لأم زرع»^(١).

١٢- قال صلى الله عليه وسلم: «الخير معقود في نواصيها الخير»^(٢).

(١) أخرجه البخاري كتاب النكاح (٧٠) باب حسن المعاشرة مع الأهل (٨٢) حديث رقم ٤٨٩٣.

تعاقدن: أخذن على أنفسهن أن يصدقن وتوافقن على ذلك (غث) شديد الهزال (فينتقل) لا ينقله الناس إلى بيوتهم لهزاله، وتعني بهذا قلة خيره وبخله، وهو مع ذلك شامخ بأنفه شرس في خلقه متكبر متعجرف (أبث) اشيع وأظهر حديثه الطويل الذي لا خير فيه (لا انزه) لا أتركه لطوله وكثرته فلا استطيع استيفاه (عجره ويجره) عيوبه الظاهرة وأساراه الكامنة أو ظاهره المستور الحال وباطنه الرديء

صدره عند الجماع على صدرها فيرتفع عنها اسفله فيثقل عليها ولا تستمتع به (كل داء له داء) ما تفرق في الناس من العيوب موجود لديه ومجتمع فيه والداء المرض (شجك) جرحك في رأسك (فلك) جرحك في أي جزء من بدنك (جمع كلاً لك) أي جمع بين الشج والجرح وتعني أنه كثير الضرب وشديد فيه لا يبالي ما إذا أصاب به (المس مس أرنب) أي حسن الخلق ولين الجانب، كمس الأرنب إذا وضعت يدك على ظهره فإنك تحس بالنعومة واللين (ريح أرنب) هو نبت طيب الرائحة تعني: أنه طيب رائحة العرق، لنظافته وكثرة استعماله للطيب (رفيع العماد) هو العمود الذي يرفع عليه البيت ويدعم به، وهو كناية عن الرفعة.

(العشيق) السبيء الخلق أو الطويل المذموم (أعلق) ابقى معلقه لا معلقة ففترج غيره، ولا ذات زوج فانتفع به (تهامة) من التهم وهو ركود الريح أو المراد مكة، تريد أنه ليس فيه اذى بل فيه راحة ولذة عيش. كليل تهامة معتدل ليس فيه حر مفرط ولا برد قارس، (قر) برد (سامة) ملل (فهد) كالفهد وهو حيوان شديد الوثوب. تعني أنه كثير النوم فلا ينتبه =

= إلى ما يلزمها إصلاحه من معائب البيت: وقيل تعني: إنه يثب عليها وثوب الفهد أي يبادر إلى جماعها من شدة حبه لها، فهو لا يصبر عنها إذا رآها (أسد) تعني إنه إذا صار بين الناس كان كالأسد في الشجاعة (عهد) لا يتفقد ماله وغيره لكرمه، وقيل المراد أنه يعاملها معاملة وحشية، وهو بين الناس أشد قسوة، ولا يسأل عن حالها ولا يكثر بها (لف) أكثر من الأكل مع التخليط في صنوف الطعام بحيث لا يبقى شيئاً (اشتق) استقصى ما في الإناء (التف) بثوبه وتحنى عنها فلا يعاشرها (لا يولج الكف) يولج يدخل، أي لا يمد يده إليها ليعلم حزنها وسوء حالها (البث) الحزن الشديد (غياياء) لا يهتدي لمسلك يسلكه لمصالحه (عياياء) لا يستطيع اتیان النساء من العي وهو الضعف (طباقاء) أحق تطبيق عليه الأمور وقيل: يطبق

والشرف (طويل النجاد) حمائل السيف، وهو كناية عن طول قامته (عظيم الرماد) أي لكثرة ما يوقد من النار وهو كناية عن الكرم وكثرة الضيوف (الناد) هو كناية عن الكرم والسؤدد، لأن النادي مجلس القوم ومتحدثهم، فلا يقرب منه إلا من كان كذلك، لأنه يتعرض لكثرة الضيوف (مالك وما مالك) أي ما أعظم ما يملك (مالك خير من ذلك) عنده من الصفات ما هو خير من كل ما ذُكرتْ (كثيرات المبارك) تبرك كثيراً لتحلب ويسقى حليبها (قليلات المسارح) لا يتركها تسرح للرعي إلا قليلاً، حتى يبقى مستعداً للضيوف (صوت المزهر) الدف الذي يضرب عند مجيء الضيفان (هواك) مذبحات، لأنه قد جرت عادته بذلك: يضرب الدف طرباً بالضيوف ثم يذبح لهم الإبل، فأبلى قد اعتادت هذا وأصبحت تشعر به (أناس حلي الذني) حركهما بما مالاها به من ذهب ولؤلؤ (ملاً شحم عضدي) سممني وملا بدني شحمًا، بكثرة اكرامه، وسمن العضدين دليل سمن البدن، (بججني) عظمني وفرحني (فبججت إلي نفسي) عظمت عندي (أهل غنيمة) أصحاب أغنام قليلة، وليسوا أصحاب إبل ولا خيل (بشق) مشقة وضيق عيش (اطيط) صوت الإبل أي أصحاب خيل وإبل ووجودهما دليل السعة والشرف (دائس) يدوس الزرع ليخرج منه الحب وهي البقرة (مُنق) يزيل ما يخلط به من قشر ونحوه، وتعني أنه لو زرع إلى جانب ما ذكرته من النعم (أقبح) لا يرد قولي ولا يقبحه، بل يقبله ويستظرفه (أرقد فاتصيح) أنام حتى الصبيحة = من الاشارات والتحليلات تاركاً لقرحتك وأرجيتك أن تجلب الصور بذهنك بعد أن تختلب أذنك، وأظنك إذا استوعبت ما قلته لك من قبل، فإن من اليسير عليك أن تدرك دون عناء وأن تتنوق دون مشقة الأحاسيس والصور المتعددة في أولئك الشعراء، وتدرك كيف يمسون

= وهي أول النهار، وتعني أنها ذات خدم يكفونها المؤونة والعمل (فاتفتح) أي: لا أنقل من مشروبي ولا يقطعه علي شيء حتى أرتوي، وفي رواية (فاتفتح) أي أشرب حتى أرتوي وأصبح لا أرغب في الشراب (عكوما) جمع عكم وهو الوعاء الذي تجمع فيه الأمّعة ونحوها (رداح) كبيرة وعظيمة (فساح) واسع كبير وهو دليل سعة الثروة والنعمة (مضجعه) موضع نومه (كمسل شطبة) صغير يشبه الجريد المشطوب من قشره، أي هو مهفف كالسيف المسلول من غمده (الجفرة) الأنثى من المعز إذا بلغت أربعة أشهر وفصلت عن أمها (ملء كسانها) أي تملأ ثوبها لامتلاء جسمها وسمنتها (غيط جارتها) تغيظ ضررتها لجمالها وأدبها وعفتها (تبث) تذيب وتقشي (تبثيثاً) مصدر بث (تنقث) تنقث وتذهب (ميرتنا) طعامنا وزادنا (تغشيشاً) لا تترك القمامة مفرقة في البيت كأعشاش الطيور وقيل: هو كناية عن عفتها وحفظ فرجها فهي لا تملأ البيت وسخاً بأخدانها وأطفالها من الزنا وفي رواية (تغشيشاً) من الغش أي لا تملؤها بالخيانة، بل هي ملازمة للنصح فيما هي فيه (الأوطاب) جمع وطب وهو وعاء اللبن (تمخض) تحرك لاستخراج الزبد (كالفهدين) في الوثوب (برمانتين) ثديين صغيرين حسنين كالبرمانتين من حيث الرأس، والاستدارة فيهما نوع طول، بحيث إذا نامت قريبا من وسطها حيث يجلس ولدان (سرياً) شريفاً وقيل: سخيّاً (ثريا) جيداً يستشري في سيره أي يمضي فيه بلا فتور ولا انقطاع (خطياً) منسوباً إلى الخط وهو موضع بنواحي البحرين، تجلب منه الرماح (أراح) من الإراحة، وهو الاتيان إلى موضع البيت بعد الزوال (نمّاً) إيلاً ونحوها (ثرياً) كثيراً (من كل راحة) من كل شيء يأتيه (زوجاً) اثنين أو صنفاً (ميري أهلك) صليهم وأوسع عليهم من الطعام (ما بلغ أصغر آنية أبي زرع) لا يملؤها وهو مبالغة أي: كل ما أكرمني به لا يساوي شيئاً من إكرام أبي زرع [صحيح البخاري شرح د. مصطفى ديب البغا ج ٥، ص ١٩٨٨، (٢) سبق تخريجه ص ٣٠٢.

الصور البيانية في الشعر الحديث

وعدتك في أثناء الحديث عن الصور البيانية أن أكتب لك شيئاً عن الصور البيانية في الشعر المعاصر، ذلك لأن الكثيرين من المؤلفين يقتصرون في الصور البيانية على ما للشعراء الأقدمين، من تشبيه واستعارة وكناية، وكثير من أنواع البديع كذلك، وفي الشعر الحديث صور حية رائعة ليس من الإنصاف أن تهمل ويسدل عليها الستار، وسأكتفي بالنقل وقليل موضوعاتهم برفق وكيف يتَّسم شعرهم بالرقّة، وستجد وضوح الصورة وجمالها تشبيهاً كانت تلك الصورة أم استعارة أم كناية، كما ستجد أنواعاً من البديع دون تكلف أو تعسف.

أولاً: أمير الشعراء:

استمع إلى قول أمير الشعراء^(١):

عَرَضُوا الأمانَ على الخَواطِرِ	وَاسْتَعْرِضُوا السُّمُرَ الخَواطِرِ ^(٢)
فَوَقَفْتُ في حَذَرٍ، وَيَأْبَى	القلبُ إلا أنْ يُخَاطِرَ
يا قلبُ شَأْنَكَ والهَوَى	هذي الغُصُونُ وأنت طائرُ
إن التبي صادتُك تسعى	بالقلوب لها النواظرُ
يا ثغرها أمسيتُ كالغُـ	واص، أحلم بالجواهرُ
بالحظّها، من أمّها؟	أو من أبوها في الجائرُ
يا شعرها، لا تسع في	هتكي منشآت الليل سائرُ
يا قدّها، حتّام تغدو	عاذلاً وتروح حائرُ
وبأيّ ذنبٍ قد طعنّت	حشاي يا قدّ الكبائرُ

وإذا وقفت أمام هذه الأبيات فستجد صوراً خلابة مختلفة، وأول ما يقابلك هذا الجناس التام في كلمتي الخواطر، والجناس الناقص في (عرضوا) و(استعرضوا)، ولكنه جناس صاغه الشاعر من أحاسيسه ومشاعره، ولكن الشأن ليس لهذا الجناس أن يؤخذ منفصلاً عن غيره من الصور البديعة، فانظر كيف عبّر عن القنود المهتزة بالرماح، ثم انظر إلى الصور التشبيهية في قوله (هذي الغصون وأنت طائر)، وانظر إلى الاستعارة البديعة في قوله (صابتك)، وفي

(١) ديوانه ١٢٤/٢.

(٢) السمر: الرماح والخواطر: المهتزازات، يقال خطر الرمح إذا اهتز وهي هنا كناية عن القنود.

قوله (تسعى بالقلوب).

ثم انظر إلى تلك الصورة في البيت الخامس وقد صور الثغر بأنه مليء باللؤلؤ، ولما كان اللؤلؤ في أعماق البحر لا بد له من غواص جاء بهذا التشبيه، فهو غواص يحلم بالجواهر، وقف عند هذه الصورة الحية - وقارن بينها وبين ما مرّ معك من قبل - التي تتحدث عن الثغر ويقيننا أنك تحسّ هنا، بما لم تحس به هناك.

ويستمر أمير الشعراء يحكي لنا بهذه الصورة الشعرية شجيّ لحنه، فهذا الشعر حريّ به أن يستره لا أن يهتكه، أليس شعرها كالليل، ثم أليس الليل ساتراً لا فاضحاً، وكذلك هذا القد الذي يشبه الرمح، والرمح من شأنه أن يطعن.

نحن لا نودّ هنا أن نقف مع تحليل الأبيات تحليلاً تاماً، اعني تحليلاً بيانياً وتحليلاً وجدانياً، فمن شأن هذا أن يطيل بنا التطواف ولكن هدفنا هو الأول فحسب - أعني التحليل البياني -، فمعدرة إن لم نقف مع الشاعر أو الناثر في كل ما بثه في شعره من فكرة وعاطفة ومشاعر، ومع القطعة في ألفاظها وعناصرها.

٢- ويقول أمير الشعراء في قصيدته منظر الشروق والغروب في عالم الماء من أعلى السفينة^(١):

لمن غُرّة تنجلي من بعيد	بمرأى كما الحُلم ضاح سعيد؟
تَهْزُ الوجودَ تباشيرُها	كما هزّ مِنْ والديه الوليدُ
هي الشمسُ، كانت كما شاءها	مما ت القديم، حياة الجديدُ
تردُّ المياهَ إلى حدّها	وتُبلي جبال الصفا والحديدُ
وتطلّع بالعيش أو بالردى	على الزرع: قائمه والحصيدُ
وتسعى لذا الناسِ مهما سعتُ	بخير الوعود، وشرّ الوعيدُ
وقد تتجلى إذا أقبلتُ	بنُعمى الشقي، وبُؤسى السعيدُ
وقد تتولى إذا أدبرتُ	وليست بمأمونة أن تعودُ
فما للغروب يهيجُ الأسى	وكان الشروقُ لنا أيّ عيد؟
كذا المرء ساعة ميلاده	وساعة يدعو الحمام العنيدُ

وليس بجارٍ ولا واقِعٍ سوى الحقِّ مما قضاه المُرِيدُ

وهذه صورة رائعة ثانية من صور أمير الشعراء، يحدثك عن الطبيعة التي أبدعتها يد الصانع جل وعلا، ولكنه حديث متصل بهذا الانسان كذلك، هذا الانسان الذي خلقت هذه الطبيعة من أجله، يجد فيها أنسه، وعناصر بقاءه، ولكن فيه عناصر تلاشيهِ كذلك.

يُسَرُّ المرءُ ما ذهب الليالي وكان ذهابُهن له ذهاباً

فانظر إلى كل من التشبيهين في البيت الأول، فهو في الشطر الأول تشبيه محسوس بمعقول، وفي الشطر الثاني تشبيه محسوس بمحسوس، وبالطبع ليس هذا موطن الروعة في البيت، ولكنها الصورة التي اختارها الشاعر، ومن منّا ليس للحلم السعيد في نفسه أثر طيب ومن منا لا يهزه هذا الحلم، وإن كل والدين يمتلكهما هذا التشبيه، وتلك سنة الله أن يهز كل وليد والديه، هذه الهزة هزة الطرب والفرح.

ثم انظر إلى حديثه عن الشمس وهذه المقابلات الرائعة «معات القديم»، «حياة الجديد»، «العيش والردى»، «قائمه والحصيد»، «خير الوعود وشر الوعيد»، «نعمة الشقي وبؤسى السعيد»، ولا تنس التصوير بالمجاز العقلي في مثل قوله: «تبلى»، «تسعى» إلى غير ما يمكن أن تستخرجه أنت بفكرك وقريحتك.

وهذا كثير في شعر شوقي، فمن الاستعارات في شعره قوله في قصيدة (غاب بولونيا)^(١):

يا غابَ بولون، ولسي ذِمٌّ عليك، ولي عهودُ
خَفَقَتْ لرؤيتك الضلوعُ وزُلْزَلَ القلبُ العميدُ^(٢)
وقوله في قصيدته (أنس الوجود)^(٣):

قف بتلك القصور في اليم غرقى ممسكاً بعضُها من الذعر بعضاً
كعذارى اخفَيْنَ في الماء بضاً^(٤) سابحات به، وأبدَيْنَ بضاً
مشرفات على الزوال، وكانت مشرفات على الكواكب نهضاً

(١) غاب بولونيا منتزه مشهور في بارس، ديوانه ج، ص ٢٧.

(٢) العميد: الذي هذه العشق.

(٣) الديوان ج، ص ٥٧.

(٤) البض: الرخيص الجسد.

وشبابُ الفنونِ ما زال غصا

شباب من حولها الزمان وشابت

وقوله في مناجاة النيل:

للضفتين جديدها لا يَخْلُقُ

وبأيّ نول أنت ناسج برده

فإذا حَضَرَتْ أخضوضر الاستبرقُ

تسود ديباجاً إذا فارقتها

عجبا وأنت الصانع المتأنقُ

في كل أونة تبدل صيغة

ومن الكنايات في شعره: قوله في قصيدته (ذكرى المولد)^(١):

تُبدّل كل أونة إهابا

أخا الدنيا أرى ننيك أفعبى

وأترعُ في ظلال السلم نابا^(٢)

وإن الرُقْطَ أيقْظُ هاجعاتٍ

وتفنيهم وما برحت كعابا^(٣)

ومن عجب تشيّب عاشقيها

لبستُ بها فأبليتُ الثيابا

فمن يغتر بالدنيا فإني

ولي ضحكُ اللبيب إذا تغابى

لها ضحكُ القيانِ إلى غبيّ

وذقتُ بكأسها شَهْداً وصابا

جنيتُ بروضِها ورداً وشوكاً

وقوله في نفس القصيدة

هما الواهي الذي ثكل الشبابا^(٤)

ولي بين الضلوع دمٌ ولحمٌ

وصفّق في الضلوع، فقلت: ثابا^(٥)

تسرّب في الدموع، فقلت: ولّى

ونكتفي من شعر أمير الشعراء بهاتين القطعتين البديعيتين وهما بحق نواتا أثر في

النفس أولاهما من قصيدته الأندلسية يقول^(٦):

(١) الديوان ج١، ص ٦٩.

(٢) الرقّط جمع رقطاء وهي الحية على جلدها سواد مشوب البياض، واترع: اسرع.

(٣) الكعاب: الجارية الناهد.

(٤) الواهي الضعيف: ثكل الشباب: فقده والمقصود بالدم واللحم هنا القلب.

(٥) ثاب: رجع بعد ذهاب.

(٦) الديوان ١/١٠٥.

يا نائح الطلح اشباه عوادينا
ماذا تقص علينا غير أن يدا
رمى بنا البين أيكاً غير سامرنا
كل رمته النوى: ريش^(٢) الفراق لنا
إذا دعا الشوق لم نبرح بمُصَدِّعٍ
فإن يك الجنس يا ابن الطلح فرقنا
لم تأل ماءك تحناناً، ولا ظمأً
تجر من فنن^(٥) ساقاً إلى فنن
أساة^(٦) جسمك شتى حين تطلبهم

والثانية من قصيدته (خلافة الإسلام) يقول^(٨):

عادت أغاني العرس رجع نواح
كفنت في ليل الزفاف بثوبيه
شيعت من هلع بعبرة ضاحك
ضجت عليك ماذن، ومنابر
ونُعيت بين معالم الأفراح^(٩)
ودفنت عند تبلج الإصباح^(١٠)
في كل ناحية، وسكرة صاح^(١١)
وبكت عليك ممالك، ونواح

(١) الطلح: نوع من الشجر سمي به واد بظاهر اشبيليا كان ابن عباد شديد الولوع به، عوادينا: عوادي الدهر النازلة بنا، وهي مصائبه.

(٢) ريش: من راش السهم ألصق عليه الريش.

(٣) أدكارا: تذكرأ.

(٤) أفانين: اجناس.

(٥) الفن: الغصن المستقيم.

(٦) الاساة: الأطباء.

(٧) النطس: الأطباء الحذاق.

(٨) الديوان ١٠٥/٨.

(٩) الأغاني: جمع أغنية: وهي ما يترنم به ويتغنّى فيه من شعر ونحوه، والرجع: ما يرد من في المكان الخالي على الإنسان إذا رفع صوته، والمعالج جمع معلم: وهو موضع الشيء الذي يظن فيه وجوده.

(١٠) تبلج الإصباح: اشراقه وانارته.

(١١) الهلع: الجزع الشديد. والعبرة: الدمعة قبل أن تغيص وقيل هي تحلب الدمع.

الهندُ والهةٌ، ومصرُ حزينَةٌ تبكي عليكِ بدمعٍ سَحَاحٍ^(١)
والشَّامُ تسألُ والعراقُ وفارسُ أمَحَا من الأرضِ الخلافةُ ما حِ؟
وأنتِ لكِ الجُمُعُ الجلائلُ مائِماً فقعدن فيه مقاعد الأنواحِ^(٢)

ثانياً شاعر النيل حافظ إبراهيم:

وحافظ شاعر الوطنية، وكم من صرخة قوية، وكم من زفرة قلب، وكم من لوعة أسي، كانت ترتسم على شفاه قصائده يهيب بالامة ويحذر الشباب وقد أحاط بهم عدوهم، احاطة الذئاب بقطعان الغنم، ونختار لك هذه الأبيات لتلمح ما فيها من تصوير بالكناية تارة وبالاستعارة أخرى تصويراً يجسّد الأحداث وينطق الجماد ويذكر أوار الجهاد قال -رحمه الله-

لمصر أم لربوع الشام تنتسب هنا العلا وهناك المجد والحسبُ
خدران للضاد لم تُهتِكِ سُتُورُهُمَا ولا تحوّلُ عن مغناهما الأدبُ
أم اللغات غداة الفخر أمهمو وإن سألت عن الآباء فالعربُ
إذا أملت بواد النيل نازلة باتت لها راسيات الشام تضطربُ
وإن دعاني ثرى الأهرام نو ألم أجابه في نرى لبنان ينتحبُ
لو أخلص النيل والأردن ودهم تصافحت منهما الأمواه والشعبُ

وإليك هذه الأبيات لتستخرج ما فيها من صور بالتشبيه وصور بالكناية:

متى أرى النيل لا تحلو موارده لغير مرتهبٍ لله مُرتقبِ
فقد غدت مصرُ في حال إذا نُكرتُ جادت جفوني لها باللولؤ الرطبِ
كأنني عند ذكري ما ألمّ بها قرمُ تردّد بين الموت والهربِ
إذا نطقَتُ فقاعُ السجن مُتكأً وإن سكتُ فإن النفس لم تطبِ
ايشتكي الفقر غادينا ورائحنا ونحن نمشي على أرض من الذهبِ

(١) الوالهة: الحزينة، أو التي ذهب عقلها حزناً، وسحاح: كثير السح وهو أن يسيل الماء من أعلى إلى أسفل.

(٢) الجمع: واحدها جمعة وهي الصلاة المفروضة بهذا الاسم، والأنواح: النائحات.

والقومُ في مصر كالاسفنج قد ظفرتُ
بالماء لم يتركوا ضرعاً لمحتلبِ
وأخيراً تلك صرخة من صرخات شاعر النيل حينما كملت الأفواه ومرّغت الجباه،
واختنقت الكلمة وقيدت حرية الصحافة ويا حسرة الأمة العربية، فلا نقول ما أشبه اليوم
بالبارحة، بل شتان شتان وما أبعد اليوم عن البارحة....!

إِنَّ الْبَلِيَّةَ أَنْ تَبَاعَ وَتُشْتَرَى مِصْرٌ وَمَا فِيهَا وَأَنْ لَا تَنْطَقَا
كَانَتْ تَوَاسِينَا عَلَى الْأَمْنَا صُحُفٌ إِذَا نَزَلَ الْبَلَاءُ وَأُطْبِقَا
فَإِذَا دَعَوْتُ الدَّمْعَ فَاسْتَعَصَى بَكَتْ عَنَا أَسَى حَتَّى تَفْصَ وَتَشْرِقَا
كَانَتْ لَنَا يَوْمَ الشَّدَائِدِ أَسْهَمًا نَرْمِي بِهَا وَسَوَاقًا يَوْمَ اللَّقَا
كَانَتْ صِمَامًا لِلنَّفُوسِ إِذَا غَلَّتْ فِيهَا الْهَمُّومَ وَأُوشِكَتْ أَنْ تَزْهَقَا
كَمْ نَفَسْتُ عَنْ صَدْرٍ حُرٍّ وَاجِدٍ لَوْلَا الصَّمَامُ مِنَ الْأَسَى لَتَمَزَّقَا
مَالِي أَنْوَحُ عَلَى الصَّحَافَةِ جَازِعًا مَاذَا أَلَمَ بِهَا؟ وَمَاذَا أَحْدَقَا
قَصُّوا حَوَاشِيهَا وَظَنُوا أَنَّهُمْ أَمَنُوا صَوَاعِقَهَا فَكَانَتْ أَصْعَقَا
وَأَتُوا بِحَازِقِهِمْ يَكِيدُ لَهَا بِمَا يَنْتَنِي عَزَائِمَهَا فَكَانَتْ أَحْذَقَا
فاستمع وحاول أن تتذوق هذه الصورة البيانية عليها تهز من نفسك أو ترهف حسك.

ثالثاً: الرافعي،

وإليك بعضاً من صور التشبيه عند الرافعي، يقول:

إِنِّي أَرَى الشَّمْسَ تَحْتَ الْبَحْرِ مُطْفَأَةً وَالْمَاءُ مَا زَالَ ذَا بَأْسٍ عَلَى النَّارِ
كَأَنَّمَا هُوَ كَفُّ الْأَرْضِ قَدْ بَسَطَتْ إِلَى السَّمَاءِ فَجَادَتْهَا بِدِينَارِ
ويشبه إنساناً يبطره غناه ويطغيه فيغفل عما يجره الطغيان من عوامل قد تؤدي إلى
الضعة بعد الرفعة أو إلى الهلاك بعد السلامة بالبهايم التي ترعى لكنها تعمى عن رؤية الشوك
الكثير وكل ذلك من أجل قليل من العشب.

أَرَى الْإِنْسَانَ يَطْغَى حِينَ يَغْنَى وَمَا أَوْلَى الْهَبْوَطِ مِنَ الصُّعُودِ
كَمَا تَعْمَى الْبِهَائِمُ حِينَ تَرعى عَنْ الشُّوكِ الْكَثِيرِ لِأَجْلِ عَوْدِ

رابعاً: الشاعر أبو سلمى:

وأبو سلمى عاش مأساة فلسطين فناها فمه وانتحبها دمه، ومن قصائده (يا رفاق الفكر):

يا رِفاقَ الفِكرِ أعياننا السُّرى	وطَوِينُنا: دُرُوباً وِطَاحاً
نَحْنُ خُضُنَا ثُورَةَ الفِكرِ مَعاً	واقْتَحَمَناها: مِيايِبنَ وَسَاحاً
وَكَتَبْنَا بِاللُّظَى أَحْرَفُها	وَنَسَجْنَا لَهَبَ الحَرْفِ وشَاحاً
مُنْذُ خَطَّ الحَرْفُ تاريخَ الدُّنا	حَطَّ القَيْدَ، وبِالظُّلُمِ أَطَاحاً
هذهِ الحِريَةُ الحُمراءُ ما	عَرَفَتْ إِلا فِلَسْطِينَ مَراحاً
بَكَتِ الأحرارُ في أوطانِها	كَيْفَ لا تَبْكِي حِمانا المُستَباحاً
شَرَدُوا أَهْلِي، وصَحْبِي فَعَلَى	كُلِّ رَبِّ شَبَّحُ النُّكْبَةِ لاحاً
نَاحَتِ الأَرْضُ عَلَى أَرْبابِها	أَيْنَ مَنْ يَسْمَعُ مِنْ أَرْضِي النُّواحِ
يا رِفاقَ الفِكرِ حُرّاً ثائِراً	إِنَّ في حُرِّيَةِ الفِكرِ اصْطِلاحاً
حَارِبُوا الظُّلْمَ مَدَى الدَّهْرِ إِلى	أَنْ يَرَفَّ الكَوْنُ طُهرًا وصِلاحاً
وَإِذا المُستَغْمِرُونَ انتَشَرُوا	يُمْلِأُونَ الأَرْضَ جَوْرًا واجْتِراحاً
حَرَرُوا الدُّنْيا مِنْ استعمارِها	شَرَفَ الإنسانُ أَنْ يَقْضِيَ كِفاها

خامساً: وهذه صرخة من صرخات أمير البيان شكيب أرسلان:

قائلاً محذراً أُمته يوم أن أطلبت الدنيا على الخلافة العثمانية. وفيها من الكنايات البديعة ما كان حرياً أن يتأثر به القوم، ولكن كان ما كان، والله الأمر من قبل ومن بعد، يقول:

فَيَا وَطَنِي لا تَبْرِكِ الحَزْمَ لَحْظَةً	بعضرِ احيطت بالزحام مناهله
وَكِنْ يَقْضَى لا تَسْتَنْمِ لِمَكِيدَةِ	ولا لِكلامِ يشبه الحق باطله
وَكَيْدِ عَلَى الأتراك قِيلَ مَصُوبِ	ولكن لصيد الأمتين حباله
تَذَكَّرْ قَدِيمَ الأَمْرِ تَعْلَمُ حَدِيثَهُ	فكل أخير قد نمته أوائله
إِذا غالت الجلى أَخاك فَإِنَّهُ	لقد غالك الأمر الذي هو غائله

فليست بغير الاتحاد وسيلة
وليس لنا غير الهلال مظلة
ولو لم يقدنا عبرة خطب غيرنا
سيعلم قومي أنني لا أغشهم
لمن عاف أن تغشى عليه منازلُه
ينال لديها العز من هو أمله
لهان ولكن عندنا من نسائله
ومهما استطال الليل فالصبح واصلُه

ونرى من المناسب في آخر المطاف، أن نزيد شيئاً من الصور البيانية من خلال أبياتٍ من بعض القصائد اخترناها لك - أيها القارئ الكريم - تلامس واقعنا وتتحسس جراحاتنا وتذكر الأملنا وأماننا، أملين أن توتي في نفسك أثرها، وأن تتذوق ما فيها من صورٍ بيانيةٍ بنفسك بعد أن خضت غمار هذا الكتاب.

أولاً: قصيدة أبي تمام في مدح المعتصم بعد فتح عمورية:

السِّيفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءٍ مِنَ الْكُذْبِ^(١)
بِخُصِّ الصَّفَائِحِ لَاسُودَ الصَّحَائِفِ فِي
وَالْعِلْمُ فِي شُهْبِ الْأَرْمَاحِ لَامِعَةٍ
أَيْنَ الرُّوَايَةِ أَمْ أَيْنَ النُّجُومِ وَمَا
فَتَحَ الْفَتْوحِ تَعَالَى أَنْ يُحِيطَ بِهِ
فَتَحَ تَفْتَحَ أَبْوَابُ السَّمَاءِ لَهُ
يَا يَوْمَ وَقَعَةِ عَمُورِيَّةٍ انْصَرَفَتْ
أَبْقَيْتِ جِدَّ بَنِي الْإِسْلَامِ فِي صُعْدِ
تَدْيِيرُ مُعْتَصِمٍ بِاللَّهِ مُنْتَقِمِ
رَمَى بِكَ اللَّهُ بُرْجِيهَا فَهَدَمَهَا
لَيَّيْتَ صَوْتًا زَبَطْرِيًّا^(٢) هَرَقْتَ لَهُ
فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّعِبِ
مُتَوْنِهِنَّ جَلَاءَ الشُّكِّ وَالرَّيْبِ
بَيْنَ الْخَمْسِينَ لَا فِي السَّبْعَةِ الشُّهُبِ
صَاغُوهُ مِنْ زُخْرَفٍ فِيهَا وَمِنْ كَذِبِ
نَظْمٍ مِنَ الشُّعْرِ أَوْ نَثْرٍ مِنَ الْخُطْبِ
وَتَبَرَّرُ الْأَرْضُ فِي أَثْوَابِهَا الْقُشْبِ
مِنْكَ الْمُنَى حُفْلًا مَعْسُولَةَ الْحُلْبِ
وَالْمُشْرِكِينَ وَدَارَ الشُّرْكِ فِي صَبَابِ
لِلَّهِ مُرْتَقِبٍ فِي اللَّهِ مُرْتَغِبِ
وَلَوْ رَمَى بِكَ غَيْرُ اللَّهِ لَمْ يُصِبِ
كَأْسَ الْكَرَى وَرِضَابَ الْخُرْدِ الْعُرْبِ

(١) كان المنجمون قد قالوا: رأينا في الكتب أن عمورية لا تفتح في هذا الوقت، وإنما وقت نضج التين والعنب.
(٢) كانت امرأة اعتدي عليها في (زيطرة) فصرخت (وامعتصماه) فلما وصل الخبر إلى المعتصم أخذته الحمية، والغضب لله وقال: لبيك وأخذ في الاستعداد.

بَصُرَتْ بِالرَّاحَةِ الْكُبْرَى فَلَمْ تَرَهَا

تُنَالُ إِلَّا عَلَى جِسْرِ مِنَ التَّعَبِ

ثانياً: قصيدة أبي البقاء الرندي في رثاء الأندلس:

لِكُلِّ شَيْءٍ إِذَا مَا تَمَّ نَقْصَانُ

فَلَا يُفَرُّ بِطَيْبِ الْعَيْشِ إِنْسَانُ

هِيَ الْأُمُورُ كَمَا شَاهَدَتْهَا بُولُ

مَنْ سَرَّهُ زَمَنُ سَاعَتِهِ أَرْزَمَانُ^(١)

وَهَذِهِ الدَّارُ لَا تَبْقَى عَلَى أَحَدٍ

وَلَا يَدُومُ عَلَى حَالٍ لَهَا شَانُ

يَمِزُّقُ الدَّهْرُ حَتَّمَا كُلَّ سَابِغَةٍ

إِذَا نَبَتَ مَشْرِفِيَّاتُ وَخُرْصَانُ^(٢)

ثم يقول:

فَجَائِعُ الدَّهْرِ أَنْوَاعُ مُنَوَّعَةٍ

وَلِلزَمَانِ مَسَرَّاتٌ وَأَحْزَانُ

وَلِلْحَوَادِثِ سِلْوَانٌ يُسَهِّلُهَا

وَمَا لِمَا حَلَّ بِالْإِسْلَامِ سِلْوَانُ

دَهَى الْجَزِيرَةِ أَمْرٌ لَا عَزَاءَ لَهُ

هَوَى لَهُ أَحَدٌ وَأَنهَدَ ثَهْلَانُ^(٣)

أَصَابَهَا الْعَيْنُ فِي الْإِسْلَامِ فَارْتَزَاتُ

حَتَّى خَلَّتْ مِنْهُ أَقْطَارُ وَبِلْدَانُ^(٤)

فَاسْأَلْ بِلَنَسِيَّةٍ مَا شَأْنُ مُرْسِيَّةٍ

وَأَيْنَ شَاطِئِيَّةٍ أَمْ أَيْنَ جِيَّانُ

وَأَيْنَ قُرْطُبِيَّةٍ دَارُ الْعُلُومِ، فَكَمْ

مِنْ عَالِمٍ قَدْ سَمَا فِيهَا لَهُ شَانُ

وَأَيْنَ حِمَصُ وَمَا تَحْوِيهِ مِنْ نُزْهِ

وَنَهْرُهَا الْعَذْبُ فَيَاضُ وَمَلَانُ^(٥)

قَوَاعِدُ كُنْ أَرْكَانُ الْبِلَادِ فَمَا

عَسَى الْبَقَاءُ إِذَا لَمْ تَبْقَ أَرْكَانُ

تَبْكِي الْحَنَفِيَّةَ الْبَيْضَاءُ مِنْ أَسْفٍ

كَمَا بَكَى لِفِرَاقِ الْإِلْفِ هَيْمَانُ^(٦)

عَلَى دِيَارٍ مِنَ الْإِسْلَامِ خَالِيَّةٍ

قَدْ أَفْقَرَتْ وَلَهَا بِالْكَفْرِ عِمْرَانُ

(١) بول: متداولة.

(٢) السابغة: الدروع. والمشرفيات: السيوف، ونبوها: ألا تصيب الضريبة، والخرصان: أراد بها الرماح.

(٣) أحد وثهلان: جبلان.

(٤) وفي رواية (أصابها العين في الإسلام فامتحتت).

(٥) حمص: اسم أشبيلية، سميت بذلك لأن الفاتحين من أهل حمص الشام نزلوها.

(٦) الحنيفة البيضاء: الإسلام.

حَيْثُ الْمَسَاجِدُ قَدْ صَارَتْ كَنَائِسَ مَا
حَتَّى الْحَارِيبُ تَبْكِي وَهِيَ جَامِدَةٌ
ثم يقول:

أَلَا نَفُوسُ أَيْيَاتُ لَهَا هِمَمٌ
يَا مَنْ لِدَلَّةِ قَوْمٍ بَعْدَ عِزِّهِمْ
بِالْأُمْسِ كَانُوا مُلُوكًا فِي مَنَازِلِهِمْ
فَلَوْ تَرَاهُمْ حَيَارَى لَا دَلِيلَ لَهُمْ
وَلَوْ رَأَيْتُ بُكَاهُمْ عِنْدَ بَيْنَعِمِهِمْ
يَا رَبُّ أُمَّ وَطِفْلٍ حِيلَ بَيْنَهُمَا
وَطِفْلَةٍ مِثْلُ الشَّمْسِ إِذْ طَلَعَتْ
يَقُودُهَا الْعِلْجُ لِلْمَكْرُوهِ مُكْرَهَةً
لِمِثْلِ هَذَا يَذُوبُ الْقَلْبُ مِنْ كَمَدٍ

فِيهِنَّ إِلَّا نَوَاقِيسُ وَصُلْبَانُ
حَتَّى الْمَنَابِرُ تَرْتَثِي وَهِيَ عِيدَانُ

أَمَّا عَلَى الْخَيْرِ أَنْصَارُ وَأَعْوَانُ
أَحَالَ حَالَهُمْ كُفْرُ وَطُغْيَانُ
وَالْيَوْمَ هُمْ فِي بِلَادِ الْكُفْرِ عُبْدَانُ^(١)
عَلَيْهِمْ مِنْ ثِيَابِ الذِّلِّ أَلْوَانُ
لَهَالِكَ الْأَمْرُ وَاسْتَهْوَتْكَ أَخْزَانُ
كَمَا تُفَرِّقُ أَرْوَاحَ وَأَبْدَانُ
كَأَنَّمَا هِيَ يَأْقُوتُ وَمَرْجَانُ^(٢)
وَالْعَيْنُ بِأَكْيَةِ وَالْقَلْبُ حَيْرَانُ
إِنْ كَانَ فِي الْقَلْبِ إِسْلَامٌ وَإِيمَانُ

ثالثاً: قصيدة (الأندلس الجديدة) لأحمد شوقي:

يَا أُخْتُ أُنْدَلُسِ، عَلَيْكِ سَلَامٌ
نَزَلَ الْهَلَاكُ عَنِ السَّمَاءِ، فَلَيْتَهَا
أُزْدَى بِهِ، وَأَزَالَهُ عَنْ أَوْجِيهِهِ
جُرْحَانٍ تَمْضِي الْأُمْتَانُ عَلَيْهِمَا

هَوَتْ الْخِلَافَةُ عَنْكَ وَالْإِسْلَامُ^(٣)
طَوِيَتْ، وَعَمَّ الْعَالَمِينَ ظَلَامٌ
قَدَرُ يَحُطُّ الْبَدْرُ وَهُوَ تَمَامُ^(٤)
هَذَا يَسِيلُ، وَذَاكَ لَا يَلْتَمَامُ^(٥)

(١) عبدان: عبيد.

(٢) الطفلة: الفتاة الناعمة.

(٣) يا أخت أندلس: يخاطب مدينة أدرنة، وقد كانت من أمهات المدن العثمانية في مقدونية، وبها مقابر كثير من سلاطين آل عثمان. جاءت الأنباء بغلبة البلغار عليها في الحرب سنة (١٩١٢) بعد أن أبلت حاميتها في الدفاع عنها بلاءً حسناً.

(٤) أزدى به: وضع من شأنه. والأوج: العلو.

(٥) جرحان: أحدهما خروج أدرنة من أيدي المسلمين، والثاني خروج الأندلس من أيديهم. والامتان: هما العرب أيام نكبة الأندلس، والترك أيام ضياع أدرنة.

بِكَمَا أُصِيبَ الْمُسْلِمُونَ، وَفِيكُمَا
لَمْ يُطَوِّ مَاتُهَا، وَهَذَا مَاتُمْ
مَا بَيْنَ مَصْرَعِهَا وَمَصْرَعِكِ انْقَضَتْ
خَلَّتِ الْقُرُونُ كَلِيلَةً، وَتَصَرَّمَتْ
وَالدَّهْرُ لَا يَأْلُو الْمَالِكَ مُنْذِرًا
ثم يقول:

صَبْرًا أَدْرَنَةً! كُلُّ مَلِكٍ زَائِلٌ
خَفَّتِ الْأَذَانُ، فَمَا عَلَيْكَ مُوَحَّدٌ
وَحَبَّتْ مَسَاجِدُ كُنْ نُورًا جَامِعًا
يَدْرُجْنَ فِي حَرَمِ الصَّلَاةِ قَوَانِيًا
وَعَفَتْ قُبُورُ الْفَاتِحِينَ، وَقُضَّ عَنْ
نُبِشَتْ عَلَى قَعَسَاءِ عِزَّتِهَا، كَمَا
فِي ذِمَّةِ التَّارِيخِ خَمْسَةُ أَشْهُرٍ
السَّيْفُ عَارٍ، وَالْوَبَاءُ مُسَلِّطٌ
وَالْجُوعُ فَتَاكٌ، وَفِيهِ صَحَابَةٌ

(١) البراع: القلم. والصمصام: السيف

(٢) لم يطو مَاتُهَا: أي ماتم الأندلس.

(٣) خلت: مضت. وتصرمت: انقضت.

(٤) لا يألوا: لا يقصروا ولا يبطئوا.

(٥) صبراً أدرنه: أي أصبري صبراً.

(٦) خفت: سكن وانقطع. والموحد: من يعتقد أن الله واحد لا شريك له ولا ولد. والجمع: هي صلوات الجمع الأسبوعية.

(٧) خبت: سكنت. والأسد هم الرجال الذاهبون إلى المساجد. والآرام: النساء الذاهبات إليها، والرئم: الطلي الأبيض.

(٨) يدرجن: يمشين، والضمير للكرام في البيت المتقدم. والقوانت: جمع قانته، من القنوت، وهو الطاعة والدعاء.

(٩) عفت: اضمحلت ومُحيت. (وقض جندل ورجام): أي كسر متفرقاً، والجندل: الحجارة. والرجام: ما يبني عليه البئر وتعرض فوقه الخشبة للدلو.

(١٠) العزة القعساء: المنبعة الثابتة.

(١١) خمسة أشهر: هي مدة حصار أدرنه.

(١٢) السيف عار: أي مجرد من غمده كما يتجرد الإنسان من ثيابه، والمراد أن القتال مستمر. والوباء مسلط: هو الوباء الذي يحدث عادة في كل مكان يكثر فيه القتل والقتال، ويكون محصوراً من الخارج. والسيل خوف: أي مخيف. والثلوج ركام: أي متراكم بعضها فوق بعض.

ضَنُّوا بِعِرْضِكَ أَنْ يُبَاعَ وَيُشْتَرَى
عَرِضُ الْحَرَائِرِ لَيْسَ فِيهِ سُوَامٌ^(١)
ضَاقَ الْحِصَارُ كَأَنَّمَا حَلَقَاتُهُ
فَلَكَ، وَمَقْدُونُفَاتُهَا أَجْرَامٌ^(٢)
وَرَمَى الْعِدَى، وَرَمَيْتِهِمْ بِجَهَنَّمَ
مِمَّا يَصُوبُ إِلَهُ لَا الْأَقْسَامُ
بِعِثَ الْعَدُوُّ بِكُلِّ شِبْرٍ مُهْجَةً
وَكَذَا يُبَاعُ الْمَلِكُ حِينَ يُرَامُ^(٣)
مَا زَالَ بَيْنَكَ فِي الْحِصَارِ وَبَيْنَهُ
شُمُ الْحُصُونِ، وَمِثْلُهُنَّ عِظَامٌ^(٤)
حَتَّى حَوَاكِ مَقَابِرَ، وَحَوَيْتِهِ
جُنُتًا، فَلَا غَبْنَ وَلَا اسْتِذْمَامٌ^(٥)

رابعاً: قصيدة « حوار أمام بوابة الهزيمة » للعشماوي^(٦) ومنها:

أَوْ مَا لَنَا فِي الْمَجْدِ أَلْفُ حِكَايَةٍ
تَعَبَتْ عَلَى تَدْوِينِهَا الْأَقْلَامُ
أَوْ مَا جَرَتْ أَنْهَارُنَا رَقْرَاقَةً
بِالْخَيْلِ تُرْفَعُ فَوْقَهَا الْأَعْلَامُ
أَوْ مَا لَدَيْنَا النَّبْعُ يَصْفُو مَاؤُهُ
وَعَلَيْهِ مِنْ شَفَفِ الْقُلُوبِ زَحَامُ
أَوْ لَمْ نَكُنْ جِسْرَ النِّجَاةِ لِعَالَمٍ
يَشْقَى بِهِ الضُّعَفَاءُ وَالْأَيْتَامُ
أَوْ مَا سَرَى فِي الْكَوْنِ صَوْتُ بِلَالِنَا
وَعَلَى صِدَاةِ تَهَاوَتِ الْأَصْنَامُ
أَوْ لَمْ تَكُنْ ذَاتُ السَّلَاسِلِ لَوْحَةً
مَرْسُومَةً وَإِبَاؤُنَا الرِّسَامُ
أَوْ مَا رَأَى الْيَرْمُوكُ كَيْفَ اسْتَبْشَرَتْ
بِزَوْغِ فَجْرِ الْمُسْلِمِينَ الشَّامُ
أَوْ لَمْ تَكُنْ لِلْقَادِسِيَّةِ قِصَّةً
أَذَلَى بِوَصْفِ شُمُوخِهَا الصِّفْصَامُ
أَوْ لَمْ نُعَلِّقْ فِي الْمَدَائِنِ شَمْعَةً
بَيَضَاءَ فَرَأَمَاهَا الْإِظْلَامُ

(١) الحرائر: جمع حرة. والسوام (بضم السين): أن تعرض السلعة ويذكر ثمنها.

(٢) الفلك: مدار النجوم. والأجرام: هي الأجسام التي في الفلك.

(٣) المهجة: الروح أو دم القلب، أي أن العدو لم يترك إلا بعد أن بذل في كل شبر من أرضك رجلاً من رجاله.

(٤) شم الحصون: أي الحصون العالية.

(٥) حواك: ملكك. والاستذمام: فعل ما يقتضي الدم، والمعنى: أن الحصون بقيت ثابتة بينك وبين الأعداء كما كان بينك وبينهم من عظام القتلى أكوام كالحصون، فلم يأخذك إلا بعد أن صارت مقابر لرجالهم جثثاً هامدة وبهذا لم تفعلي ما فيه غين ولا ما يقتضي الذم.

(٦) هو عبد الرحمن بن صالح العشماوي ولد سنة ١٣٢٥ هـ في قرية من قرى منطقة الباحة جنوب السعودية أنهى دراسته من جامعة الإمام محمد بن سعود وحصل منها على شهادة البكالوريا وعين مدرساً بها.

أَوَلَمْ نَلْقَئْهُ قَيْصَرًا وَحُشُودَهُ
أَوَلَمْ تَخُضْ بَحْرَ الْبُطُولَةِ خَيْلَنَا
أَوَلَمْ تَقُلْ لِلصِّينِ خَيْلٌ قَتِيلَةٌ
أَوَلَمْ تَصْنَعْ حِطَّيْنِ لَحْنًا خَالِدًا
أَوَلَمْ تَكُنْ فِي عَيْنِ جَالُوتٍ لَنَا
أَوْ هَكَذَا تَطْوِي عَزَائِمَ جِبَالِنَا
قُلْ لِي أَبِي أَنْظِلْ نَأْكُلْ خُبَزَنَا
قُلْ لِي أَبِي أَنْظِلْ نَشْرَبْ مَائِنَا
قُلْ لِي أَبِي أَيُّبَيْتُ طِفْلٌ سَاهِرًا
وَرِمَتْ عُيُونُ الْمُخْبِرِينَ وَرَاءَهُ
سَكَنُوا لِأَنَّ السَّيْفَ مَسْأُولٌ إِذَا
سَيْفَانِ يَا أَبَتَاهُ سَيْفٌ عَدُوَّنَا
كُفِّرْ وَرَبِّكَ يَا أَبِي يَنْصِي بِنَا
قُلْ لِي أَبِي أَنْظِلْ نَعْلِكَ صِمَّتِنَا
أَنْظِلْ نَخْفِضُ لِلصَّلَيبِ رُؤُوسَنَا
أَوْ هَكَذَا أَبَتَاهُ نَنْسَى دِينَنَا
كَانَ الْأَبُ الْمُسْكِينُ يَحْبِسُ دَمْعَهُ
أُبْنِي لَا تَنْطِقْ فَقَدْ أَلْجَمْتَنِي

دَرْسًا تَحَارُ أَمَامَهُ الْأَفْهَامُ
وَيَقْلِبُ أَنْدَلَسَ لَهَا إِعْظَامُ
جِئْنَا يَزِفُ صَهِيلَنَا الْإِقْدَامُ
تَهْفُوا إِلَى أَنْغَامِهِ الْأَنْغَامُ
هَمَمٌ لِرَدْعِ الْمُعْتَدِينَ عِظَامُ
قِصَصُ تَصَوُّرٍ فَحْشَهَا الْأَفْلامُ
وَعَلَيْهِ مِنْ دَمِنَا الْمُرَاقِي إِدَامُ
وَالْقُدْسُ يَهْتَكَ عِرْضُهَا وَتَظَامُ
فِي كَفِّهِ حَجَرٌ وَنَحْنُ نَنَامُ
وَعَلَى شِفَاهِ الصَّامِتِينَ حُطَامُ
نَطَقُوا بِمَا لَا يَرْغَبُ الْأَقْزَامُ
صَلَتْ وَسَيْفٌ سَأَلَهُ الْحُكَّامُ
شَرًّا وَنَحْنُ كَأَنَّنا الْأَنْعَامُ
وَعَلَى الْأَنْوَفِ مَذَلَّةٌ وَرَغَامُ
وَيَنَامُ فَوْقَ فِرَاشِنَا الْحَاخَامُ
وَيَزِيحُنَا عَنْ مَجْدِنَا اسْتِسْلَامُ
وَلِحَزْنِهِ بَيْنَ الضُّلُوعِ ضِرَامُ
أَوَاهُ كَمْ يُؤْذِي الْكَرِيمَ لِحَامُ

خامساً: قصيدة (قناديل على مآذن القدس) للشاعر صالح الجيتاوي^(١)

لي في هواكِ مدائنٌ ومرايـعُ
وعلى جبينكِ قُبـلـتي، وأهـلَّتـي
يا قدسُ يا فرحَ الحياةِ إذا ارتوى
وإذا شدا في الأيكِ صَبٌّ فهو في
أرقُّ الوجود على غِلـلَتِكِ التـي
رَسَمَ الوجود جمالها وكمالها
وأنا على شفة الخلود مُعاقِرُ
وعلى مَدَى إيماءِ عَيْنِكَ قائمُ
إن كان حُبُّكَ حَـجَّةً مبرورةً
فأنا ببايـكِ ناسكُ، وعلى رُموشِكِ
رَوَيْتُ شِعري في صَلاتِكَ مُتَخَنَأُ
والبيـضُ تسجدُ في أرومتِكَ التـي
في راحتِكَ حمائمٌ وولائمٌ
حَلَاكِ بَدْرُ، والبـدورُ أهـلُّـةُ
حَفَلَتْ به الدنيا لـديـكِ، وأشـرقُ
جَلَى جبينكُ ما الحـيالُ وما السُّرى
وَهَجُ الكرامةِ كَعَبَةٌ للعاشقـين
فَخُـلُّ العليِّ على الصـفـيِّ وِلايـةُ
تَبْقَى القلوبُ حـيـالَها مَشـوبـةُ

وعلى شَجَاكِ سحائبٌ تتدافعُ
للْبُشْرِيَّاتِ عِزائِمُ وطلائعُ
ظمأً، فَمِنْ عَيْنِكَ فِيهِ نِوَاذِعُ
سِرّاً ابتسامتِكَ الحزينةُ خاشعُ
تسقي الخيال، شمائلُ وروائعُ
وظلالها، والحادثاتُ ذرائعُ
طيب اللِّمأ، وفمُ الأثيرةِ شافعُ
وعلى شَذَاكِ مُرَابِطٌ ومُقَارِعُ
يحدو لها الحادي ويهفو السامعُ
عاشقُ، وعلى بحوركِ ضارِعُ
والقلب في سُبُحاتِ وجهكِ راكمُ
وظِفَ الغمامُ لها وأوفى الزراعُ
وكتائبُ ومواكبُ ومَصَارِعُ
حَدَبَتْ عليه، مُبَارِكُ ومُبَايِعُ
المسرى وقامت للخيال مجامعُ
صَنَعَا، فما بخلا، وجَلَّ الصانعُ
إِقَامَةٌ وشفاعةٌ ومدامعُ
والكون بالأمر المهيمنِ صادعُ
وإذا غفـتُ فعلى رُؤَاكِ هـواجـمُ

(١) هو صالح عبد الله أحمد الجيتاوي ولد عام ١٩٤٣م في قرية من قرى نابلس بفلسطين وهو حاصل على شهادة بكالوريوس في الهندسة المدنية وعضو في رابطة الأدب الإسلامي ومن مؤلفاته ديوان (صدى الصحراء) و (قناديل على مآذن القدس) الذي اخترنا منه هذه القصيدة.

يا قدسُ مالي في هواكِ تَقِيَّةُ
يَرْضَى الذي يَرْضَى، ويسخطُ ساخطُ
ما ظَلَّ غيرُ حُشاشةٍ أَرَمَى بها
حَطَمَ الزمانُ عمودَ رُوحِي، وانثنى
فأنا الغريبُ على حِياضِكِ، والمدى
جاسوا بأنفاسِ الصدورِ وما رَعَوْا
مِنْ تاجرٍ شَرِبَ الدماءَ رواحِلا
أو فاجرٍ أَلْقَنَهُ أَقْبِيَّةُ الرَّدَى
سَكَرَانُ ما عَرَفَ الصلاةَ ولا الهُدَى
هَزَلْتُ على سُوحِ الطَّمَّاحِ قَضِيَّةُ
قالوا السلامُ، قُلِّ السلامُ على
أَنَا المَلُومُ إذا رفعتِ عَقِيرَتِي
أَنَا المَلُومُ إذا رَجَمْتُ خَطِيئَةً
القدسُ قدسي والقَبَابُ صوامعي

فالعمرُ دونكِ أَجْدُبُ وبِلاقِعُ
سَيَّانٍ عِنْدِي، لست فيكِ أَصانِعُ
وَلَيْزَنُ رُمِيتُ بها فَإِنْسِي بَائِعُ
لضُلُوعِ مملكتي، وَلَجَّ الطامِعُ
لَمَعُ السرابِ، وأُعِيدُ تتصارعُ
إِلَّا، وأوحى شيخُهم فتبايعوا
أو خانِعِ أَدْمَى قَفَاهُ الصافِعُ
بين الضلُوعِ، وما عساهُ الضالِعُ
واليومَ عن عَتَبَاتِها يترافعُ
فُرسانُها عَوَّارُها المُتَدافِعُ
السلامُ، وقل على هذا السلامَ زَعازِعُ
فَهَفَّتْ إِلَيَّ بلابلُ وَسَواجِعُ
أَطُّ الحَطِيمُ لِهَوَاهَا والجامِعُ
ولهم كهوفُ للخَنَّا وصوامِعُ

خاتمة

بعد هذا التطواف مع البلاغة في فنونها وأفنانها، نرى لزماً أن نختم بكلمة موجزة نعرض فيها لتلك الأزمة الخانقة، التي تعيشها بلاغتنا ولغتنا على السواء، ونظن أننا في هذه الرحلة الطويلة مع البلاغة العربية، استطعنا أن ندرك بما لا يدع مجالاً للشك والارتياب بأن هذه البلاغة، سواء في مباحثها، أم في اتصال هذه المباحث بعضها مع بعض، أم في الأمثلة والنصوص قديمها وحديثها، أقول نستطيع أن ندرك أن هذه البلاغة في أصالتها ومرونتها واستيعابها لكل ما تنتجه القرائح، القرائح اللوامح الوقادة، والطبائع المسترسلة المنقادة، لا تعوزها الدقة، ولا تقتقر إلى عنصر غربي غريب، لتكمل به وتكمل.

ولكن ما يتفطر له القلب ويحار له اللب أن نجد من يجردون على هذه البلاغة سيوفهم ويصوبون لها سهامهم - وما نظن أن كالبلاغة مستهدفاً - رغم أن تراثنا كله مستهدف، ولكنها بصفة خاصة كانت هدف الرماة، وان تعجب فعجب أمر أولئك الذين يتباكون عليها زاعمين أنهم بناتها، ويعلم الله أنهم جناة وليسوا بناءة، فكم من متظاهر بإنه من دعائها وما هو في الحقيقة إلا من نعاتها، ولو أن هذه السهام كانت من أعدائها فحسب، لكان من السهل أن تنقي هذه السهام بأصالتها وقوتها، ولكن المؤلم أن هذه السهام من الأدعياء والدعاة كذلك.

(١) ونحن نسمع بين الحين والحين دعوات مشبوهة لطحها وتناسيها بحجة أنها شاخت وهرمت، وصارت لا تواكب الحياة الأدبية ولا تصلح للعصر الذي نعيش فيه.

(٢) وفريق آخر يتهمها في ولادتها ونشأتها، وأصلها وأصالتها، فتارة يزعمون أنها يونانية الأب والأم واللحم والدم، وتارة يدعون أنها هندية الخال والعم، وثالثة يقولون عليها بأنها فارسية الكيف والكم.

(٣) وفريق ثالث: يتهمها في رجالها، فهم لا يملكون الفهم، بل يعيشون على الوهم.

وقد خصصنا كتابنا الثالث في البلاغة لهذه الافتراءات جميعها.

ونحن على يقين من أن هذه الحملة الشعواء والهجمة النكراء على بلاغتنا ولغتنا، ليست إلا أثراً من الحقد على كتاب العربية، والذي كان له الفضل في نشأة البلاغة العربية، فالحملة على البلاغة وتشكيكهم فيها رأوا أنها جزء من الحملة العامة على تراث هذه الأمة، فلقد توصلهم إلى هذا الهدف أكثر مما توصلهم إليه الحملة على الشعر الجاهلي.

ولا ننكر أن هناك من حسنت نيتهم فتأثروا عن غير قصد بهذه الدعوات المشبوهة، وهؤلاء ينحون باللائمة على السكاكي الذي عمل على جمود البلاغة وذبولها وتساقط أوراقها، ونحن لا نناقشهم في هذا، إلا أن الذي لا نرضاه أن ترمى هذه البلاغة بالعقم، صحيح أن

السكاكي فلسف البلاغة وعقدها، ولكننا لا ننسى أنه وضع لها المصطلحات الدقيقة، التي كان لا بد منها للبلاغة لتصبح علماً له شخصيته المتميزة.

وإذا كنا نشفق على البلاغة، فلم لا نرجع بها إلى مصادرها الأولى مفيدتين من التحليل الدقيق الذي وضعه السكاكي ومن بعده، مهملين كل ما لا يتفق مع شخصية هذه البلاغة العربية، وكثير من أولئك الطاعين يودون أن تترجم البلاغة للأمم الغربية لتحل محل بلاغتنا، وهم يتخبطون في ذلك، فبعضهم يرى أن نستغني عن كل مباحثنا البلاغية، لتحل محلها دراسات مبنية على الأصول الأوروبية، وأولئك لم تكن لهم وجهة واحدة، فهم يتخبطون أكثر مما يخططون، نحن لا ننكر بل ندعو إلى أن يصبح البحث البلاغي عندنا شاملاً، بحيث لا يقف عند الجملة والجملتين، وتلك قضية لن نعدمها في تراثنا البياني لا كما يزعم بعض الكاتبتين^(١).

أما ما يدعى من وجوب طرح كثير من مباحث هذه البلاغة، فما نظن ذلك مستقيماً مع حقائق العلم وواقع الأمر كذلك، نعم إن ما يمكن طرحه هي تلك الأبحاث التي أقحمت على البلاغة وحشيت فيها حشواً كالجامع الذي وضعه السكاكي في مباحث الفصل والوصل، وبعض تقسيمات التشبيه وبعض الفنون البديعية التي يظهر فيها التكلف.

وإننا على يقين من أن هذه البلاغة العربية إذا هيئ لها نوو النيات الحسنة ممن وهبوا صفاء القرائح وتهيات لهم سعة الاطلاع وكان ينمي ذلك كله غيرة على تراث هذه الأمة، فإن البلاغة ستواكب كل متطلبات هذا العصر كما واكبت العصور التي قبله، وستؤدي رسالتها كما أدتها من قبل، وستفسر لنا عن لآليء ودرر، وتكشف لنا كثيراً من وجوه إعجاز الكتاب الخالد.

قلت من قبل أن هناك من لا نشك في حسن نيتهم، لكنهم تأثروا بقوة الأصوات من حولهم فراحوا ينادون كذلك بأصوات عالية بوجوب تغيير هيكل البلاغة تغييراً تاماً، وإليك بعض هذه الآراء كما نقلها صاحبنا كتاب نحو بلاغة جديدة الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي والدكتور عبد العزيز شرف.

وذهب محمد عرفة إلى وجوب فهم التراث فهماً جيداً، وإلى الاضافة عليه، والتجديد فيه.

وذهب الخولي إلى أن تقسيم البلاغة إلى علوم ثلاثة هي المعاني والبيان والبديع لا طائل تحته، ولا جدوى منه: وإلى أن البحث البلاغي يجب أن يشمل الكلمة والجملة والفقرة والقطعة الأدبية جميعاً دون البحث عن الجملة أو الجملتين فحسب، كما ذهب إلى أن طريقة العجم وأصحاب الفلسفة في البلاغة يجب اجتنابها، ليقوم مكانها دراسات فنية تعتمد على الاحساس

(١) راجع ما كتبه الدكتور شوقي ضيف في كتابيه النقد والبلاغة تطور وتاريخ وسنزيد هذه القضية تحليلاً في كتابنا إعجاز القرآن.

بالجمال والتعبير عنه، وهذه الدراسات نجدها في علم النفس الذي يجب أن نبحث في أثره في التعبير الأدبي، وفي دراسة الوجدان وعلاقته بمظاهر الشعور من ناحية العمل الفني، وفي الخيال والذاكرة والذوق والاحساس، وتحدث في كتابه فن القول عن مسائل كثيرة حول البلاغة ومشكلاتها، وذهب إلى أن فن القول يدور حول أقسام ثلاثة:

١- المبادئ.

٢- المقدمات.

٣- البحوث.

والمبادئ لتعريفنا بفن القول وأهدافه وغاياته وصلته بغيره من الدراسات. والمقدمات تدور حول دراسات علم النفس وغيره من حيث اتصال ذلك كله بالتعبير الأدبي، والبحوث تسير في بحث الكلمة والجملة، والفقرة، والقطعة، ثم ندرس الأسلوب وأنواعه: من أسلوب فكاهي وتهكمي ورمزي وغير ذلك.

ويذهب أحمد الشايب إلى أن البلاغة يمكن حصرها في موضعين رئيسين، هما: الأسلوب والفنون الأدبية. ففي الفنون الأدبية ندرس مادة الكلام من حيث اختيارها وتقسيمها وتنسيقها، وقواعد هذه الفنون: كالقصة والرسالة والمناظرة والتاريخ والمقالة والوصف، وسوى ذلك.

وفي الأسلوب ندرس الكلمة والصورة والجملة والعبارة وأنواع الأسلوب.

وينادي العلياني بأن يقتصر البيان على بحوث التشبيه والحقيقة والمجاز والكناية وعلم المعاني عنده متصل بالأدب وبكتبه. وكذلك البديع يدرس كما يدرس علم المعاني^(١).

أما مؤلفا كتاب نحو بلاغة جديدة فهما ينادينان بوجوب تغيير هيكل هذه البلاغة ويتلخص رأيهما في ما يلي:

«أ - يحذف ما نسميه علم المعاني والبديع ويحل محلها فن الأسلوب، على أن تكون موضوعات بحث هذا العلم، هي: صور التعبير البلاغي بلاغة الإيجاز، بلاغة الأطناب، بلاغة القصر، قوة الأسلوب وعذوبته، أسلوب الالتفات، أسلوب التجريد - الأسلوب الحكيم، أسلوب الخبر، أسلوب الانشاء، أسلوب التكرير، الذوق البلاغي وأثره في الأسلوب، الاستناد إلى الفاعل وغيره، بلاغة الاستناد العقلي، ثقافة الكاتب والأسلوب، الطبع والصناعة، ويدخل في الصناعة بعض الصور التي هي مباحث ما نسميه بعلم البديع.

(١) نحو بلاغة جديدة ص ١٧٨.

ب - يحذف ما نسميه علم البيان ويحل محله (فن الخيال البياني) أو «الصور البيانية» ويشتمل هذا على ما يلي: الحقيقة والخيال، الخيال في التشبيه - الخيال في الكناية - الخيال في الإستعارة - الخيال في حسن التعليل - الفكرة الفلسفية والتعبير - الخيال والمبالغة - صور الخيال في البيان العربي - التجديد في الخيال.

وإن أردنا اسماً قديماً لهذا الفن فما أحرانا أن نطلق عليه (فن المعاني) بدلاً من البيان ونطلق على الفن السابق وهو فن الأسلوب اسم فن البيان.

ج - يحذف من البلاغة كل ما يتصل بالنحو العربي عن مثل: مباحث باب المسند وياب المسند إليه.

د - يحذف منها كل ما يتصل بالمنطق والفلسفة.

هـ - تختار أمثلة جديدة لشتى بحوث البلاغة من ناصع الأدب العربي ويليغه في مختلف العصور وبخاصة مما يحفظه الطلاب من نصوص أدبية على أن توجد هذه النصوص في مختلف المدارس والمعاهد في العالم العربي للفرق المتساوية.

ينشأ درس للنقد البلاغي يدرس فيه شخصية الأديب وسمات أدبه، وخصائصه الأسلوبية، وتجديده البياني، ومدى ما يشتمل عليه أدب الأديب من عاطفة وصدق وأثارة، ومدى ما وصل إليه الأديب من تجديد في فنه الأدبي»^(١).

ومع تقديرنا لهذا الذي ذكرناه، إلا أننا لا نجد فيه أموراً جوهريّة، باستثناء ما ذكرناه في رقم (د) وهو بحث ما يتعلق بالفلسفة، أما ما عدا ذلك فلا تعدو أن تكون خلافاً في اللفظ والمصطلح فلماذا نسمي علم المعاني علم البيان ونغير اسم علم البيان فنسميه علم المعاني، وكيف يمكن أن نقطع الصلة بين البلاغة والنحو وبوابة العربية متصلة الفروع، وما الداعي إلى أن نحذف مباحث المسند والمسند إليه مع إنها لب المعاني - كما نعلم - وكيف يمكن أن ندرس مباحث الحذف والذكر والتقديم والتأخير والتعريف والتذكير، بل أسلوب القصر كذلك، كيف يمكن أن ندرسها منفصلة عن المسند أو المسند إليه والفعل والفاعل والمفعول؟.

صحيح أننا لا ينبغي أن نجتمع هذه المباحث فندرسها في المسند على حدة وفي المسند إليه كذلك كما فعل السكاكي ومن بعده، إنما نرجع بها إلى صنيع الشيخ عبد القاهر - رحمه الله - فندرس أسلوب الحذف على حدة سواء كان في المسند إليه أم في المسند أم في المفعول، كذلك نفعل في أسلوب التقديم والقصر والتعريف والتذكير، وهو ما سرنا عليه في الكتاب الأول الذي تحدثنا فيه عن علم المعاني.

(١) نحو بلاغة جديدة ص ١٨٢.

إن الدعوة لتغيير البلاغة العربية، لا تختلف في ظننا عن الدعوة إلى تغيير مباحث النحو، التي أشرنا إليها في خاتمة كتابنا علم المعاني.

ولا يظن أحد أننا من أنصار الدعوة إلى الجمود، نحن ندعو إلى التجديد، ولكنه تجديد يبقى لبلاغتنا ولغتنا بل لتراثنا كله جوهره وأصالته، وإننا ليحدونا الأمل ويملاً نفوسنا الرجاء بأن يهيئ الله لهذه البلاغة بخاصة واللغة بعامة الغيورين على تراث هذه الأمة وشخصيتها حتى لا نفقد أعز ما نملك وما به قوامنا وبقاؤنا. والله يجزي المخلصين خير الجزاء.

وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

فهرس الآيات

الآية	رقمها	السورة	رقم الصفحة
«أهدنا الصراط المستقيم»	٦	الفاتحة	١٣٦ ، ١٧٢ ، ١٧٧ ، ١٨٥ ، ٢١٣ ،
« ختم الله على قلوبهم »	٧	البقرة	٢٢٢
« وإذا قيل لهم لا تفسدوا »	١١	البقرة	٣١٦
«وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن»	١٣	البقرة	٣١٦
«أولئك الذين اشتروا الضلالة			
بالهدى فما ربحت تجارتهم»	١٦	البقرة	١٤٨ ، ١٥٠ ، ١٥٣ ، ١٧٠ ، ١٧٤ ، ١٩٠ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ،
«مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً»	١٧	البقرة	١٨ ، ٩٥
«يجعلون أصابعهم في آذانهم»	١٩	البقرة	٩٥ ، ١٥٦
«وإن كنتم في ريب مما نزلنا»	٢٣	البقرة	٢٦٤
«إن الله لا يستحي أن يضرب»	٢٦- ٢٧	البقرة	٣١٦
«الذين ينقضون عهد الله»	٢٧	البقرة	١٨٢ ، ٢١٢
«قل بئسما يأمركم به إيمانكم»	٩٣	البقرة	١٧٥
«وقالوا لن يدخل الجنة إلا من	١١١	البقرة	٣١٦
«ربنا وابعث فيهم رسلاً»	١٢٩	البقرة	١٥٨
«ومثل الذين كفروا كمثل»	١٧١	البقرة	٩٧
«فمن شهد منكم الشهر فليصمه»	١٨٥	البقرة	٣١٧
«فالآن باشروهن وابتغوا»	١٨٧	البقرة	٢٦٥
«كذلك يبين الله آياته للناس»	١٨٧	البقرة	٩

٩١	البقرة	١٨٧	«هن لباس لكم وأنتم لباس لهن»
٢٩٢ ، ٩٧	البقرة	١٨٩	«يسألونك عن الأهلة قل هي
٢٩٧	البقرة	١٩٤	«فمن اعتدى عليكم فاعتدوا
٢٢٥ ، ١٧٠	البقرة	٢١٤	«أم حسبتم أن تدخلوا الجنة»
٢٩٢	البقرة	٢١٥	«يسألونك ماذا ينفقون»
٢٦٥	البقرة	٢٢٢	«فإذا تطهرن فأتوهن»
٢٦٥	البقرة	٢٢٣	«نساؤكم حرث لكم»
٢٢٥	البقرة	٢٣٧	«إلا أن يعفون أو يعفو الذي
			بيده عقدة النكاح»
٢٢٣	البقرة	٢٥٠	«ربنا أفرغ علينا صبراً»
٩٣	البقرة	٢٦١	«مثل الذين ينفقون أموالهم في
			سبيل الله»
٩٣	البقرة	٢٦٤	«يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا
			صدقاتكم»
٩٣	البقرة	٢٦٥	«ومثل الذين ينفقون أموالهم
			ابتغاء مرضات الله»
٩	البقرة	٢٦٦	«كذلك يبين الله لكم الآيات»
٢٨٠	البقرة	٢٨٦	«لا يكلف الله نفساً إلا وسعها»
١١٠ ، ٩١	البقرة	٢٧٥	«الذين يأكلون الربا»
٣١٠	آل عمران	٨	«وهب لنا من لدنك رحمة»
١٠٩	آل عمران	١٠	«إن الذين كفروا لن تغني عنهم
٣١٢ ، ٢٨٠	آل عمران	٢٦	«قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك
٢٠١	آل عمران	٣٦	«رب إنني وضعتها أنثى»

١٠٨	آل عمران	٤٧	«قالت رب أنى يكون لى ولد ولم
١٨٧	آل عمران	١٠٣	«واعتصموا بحبل الله جميعاً»
٢٢٧ ، ١٥٧	آل عمران	١٠٧	«وأما الذين أبيضست وجوههم ففي
١٩١ ، ١٧٠	آل عمران	١١٢	«ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا»
٩٤	آل عمران	١١٧	«مثل ما ينفقون فى هذه الحياة
١٨٧	آل عمران	١١٨	«يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا
			بطانة من دونكم»
١٠	آل عمران	١٣٨	«وهدى وموعظة للمتقين»
٢٠١	آل عمران	١٨٥	«كل نفس ذائقة الموت»
١٧١ ، ٩	آل عمران	١٨٧	«وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا
٢٢٧ ، ١٥٦	النساء	٢	«وأوتوا اليتامى أموالهم»
١٥٤	النساء	١٠	«إن الذين يأكلون أموال اليتامى
٢٦٥	النساء	٢١	«وكيف تأخذونه وقد أفضى
٢١٦ ، ١٧٧	النساء	٢٥	«ذلك لمن خشي العنت منكم»
٩	النساء	٢٦	«يريد الله ليبين لكم»
٣٠٣	النساء	٨٣	«وإذا جاءهم أمر من الأمن»
١٥٥	النساء	٩٢	«فتحرير رقبة مؤمنة»
٩٣	النساء	١٢٨	«وأحضرت الأنفس الشح»
٩٢	النساء	١٢٩	«ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين
			النساء ولو حرصتم»

١٦٣	النساء	١٤٣	«مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء
١٠٨	النساء	١٦٣	«إنا أوحينا إليك كما أوحينا

١٥٦، ١٥٤	المائدة	٦	«يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة»
٢٦٥	المائدة	٦	«أو جاء أحد منكم من الغائط»
٢٨١	المائدة	٤٤	«فلا تخشوا الناس واخشون»
٢٨٢	المائدة	٥٤	«أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين»
٢٩٠	المائدة	٥٩	«قل يا أهل الكتاب هل تنقمون
٢٦٦	المائدة	٦٠	«أولئك شر مكاناً»
٢١٩	المائدة	٦٧	«يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك»
٢٦٥	المائدة	٧٥	«ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد
٢٦٤	المائدة	٧٩	«لبئس ما كانوا يفعلون»
٢٠٢	المائدة	٩١	«فهل أنتم منتهون»
١٠٩	المائدة	١١٠	«وإذ خلق من الطين كهيئة
٣١٥، ٢٩٧	المائدة	١١٦	«تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما
٣١٧	المائدة	١١٨	«إن تعذبهم فإنهم عبادك»
٢٧٩	الأنعام	١	«الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض»
١٤٦	الأنعام	٦	«وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم»
٣١٧، ٣٠٣	الأنعام	٢٦	«وهم ينهون عنه وينأون عنه»
٢٥٩	الأنعام	٣٦	«إنمّا يستجيب الذين يسمعون»
١٧١	الأنعام	٦٨	«وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا»
١٠٨	الأنعام	٩٤	«ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم

٢٩٦	الأنعام	٩٥	«ومخرج الميت من الحي»
١٨٠ ، ٢٢٣ ، ١٧٤	الأنعام	١٢٢	«أومن كان ميتاً فأحييناه»
١٠٠	الأنعام	١٢٥	«فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام»
١٤٥	الأنعام	١٣٤	«إن ما توعدون لآتٍ وما أنتم بمعجزين»
١١٢	الأنعام	١٥٣	«وأن هذا صراطي مستقيماً
١٥٤	الأعراف	٤	«وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا»
١٥٤	الأعراف	٢٦	«يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً
٢٦	الأعراف	٢٧	«يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان»
١٠٤	الأعراف	٢٩	«كما بدأكم تعودون»
١٥٧	الأعراف	٣١	«يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل
١٠٧	الأعراف	٤٠	«كذلك نجزي المجرمين»
١٠٧	الأعراف	٤١	«وكذلك نجزي الظالمين»
١٩٢	الأعراف	٤٤	«ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار»
١٩٢	الأعراف	٤٨	«ونادى أصحاب الأعراف رجالاً
١٩٢	الأعراف	٥٠	«ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة»
١٠٤	الأعراف	٥٧	«وهو الذي يرسل الرياح بشراً
١٧١	الأعراف	٨٦	«وتبغونها عوجاً»

٢٩٠	الأعراف	١٢٦	«وما تنتقم منا إلا أن آمنا بآيات
٢٢٤	الأعراف	١٤٩	«ولما سقط في أيديهم»
٢١٦ ، ١٩١ ، ١٩٠ ، ١٦٩	الأعراف	١٥٤	«ولما سكت عن موسى الغضب»
٢٨٣	الأعراف	١٥٧	«يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم
			الخبائث»
١٧١	الأعراف	١٦٧	«وإذ تأذن ربك ليعيثن عليهم»
٢٠٣	الأعراف	١٦٨	«وقطعناهم في الأرض أمماً»
٩٠ ، ٤٦	الأعراف	١٧١	«وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة»
٩٩ ، ٤٧	الأعراف	١٧٥	«واتلوا عليهم نبأ الذي آتيناه
٩٧	الأعراف	١٧٩	«ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن
٢٢٤	الأنفال	٧	«وتودون أن غير ذات الشوكة
			تكون لكم»
٢٢٢	الأنفال	١١	«وليربط على قلوبكم»
٣١٠ ، ٢٠٢	التوبة	١٣	«أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه»
٢٢٠	التوبة	٥٧	«لو يجدون ملجأ أو مغارات أو
٩٥	التوبة	٦٤	«يحذر المنافقون أن تنزل عليهم
			سورة»
٢٩٧	التوبة	٦٧	«نسوا الله فنسيهم»
١٠٨	التوبة	٦٨	«وعد الله المنافقين والمنافقات
١٠٨	التوبة	٦٩	«كالذين من قبلكم كانوا أشد
٢٨٢	التوبة	٨٢	«فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً»
١٥٤	التوبة	١٠٨	«لا تقم فيه أبداً لمسجد أسس على
١٧١	التوبة	١٠٩	«أفمن أسس بنيانه على تقوى من

٢٨ ، ١٠٣	يونس	٢٤	«إنما مثل الحياة الدنيا كماءٍ أنزلناه
١٠١	يونس	٢٧	«والذين كسبوا السيئات جزاء
			سيئة»
٢٢١	هود	١	«كتاب أحكمت آياته ثم فصلت»
٢٦١	هود	٢٧	«فقال الملأ الذين كفروا من قومه»
٩٠	هود	٤٢	«وهي تجري بهم في موجٍ كالجبال»
١٤٤	هود	٤٣	«لا عاصم اليوم من أمر الله»
١٧٥	هود	٨٧	«إنك لأنت الحليم الرشيد»
٣١٥	هود	١٠٥-١٠٧	«يوم يأت لا تكلم نفس»
٣١٨	يوسف	١٧	«وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا
١٥٧	يوسف	٣٦	«إنني أراني أعصر خمراً»
٢٢٧ ، ١٥٧	يوسف	٨٢	«واسأل القرية»
١١٦ ، ١٠٠ ، ٧٧	الرعد	١٤	«له دعوة الحق والذين يدعون من
٢٦٦	الرعد	٣٣	«وجعلوا لله شركاء قل سموهم»
١٦٤ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٧ ، ٢٧٩ ، ٢١٦ ، ١٨٩	إبراهيم	١	«الر. كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات»
١٥٨	إبراهيم	٤	«وما أرسلنا من رسولٍ إلا بلسان
٣١٧	إبراهيم	٦	«ويدَّبِّحُونَ ابناكم ويستحيون»
٩٨ ، ٤٦	إبراهيم	١٨	«مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم
٩	إبراهيم	٤٥	«وسكنتم في مساكن الذين ظلموا
١٥٧	الحجر	٥٣	«بغلامٍ علیم»
٢٢٠	الحجر	٨٨-٨٧	«ولقد آتيناك سبعاً من المثاني

١٨٧، ١٨٥، ١٧١، ١٣٦، ٢١٩، ١٩٠	الحجر	٩٤	«فاصدع بما تؤمر»
١٩٢	النحل	١	«أتى أمر الله فلا تستعجلوه»
١١٠	النحل	١٧	«أفمن يخلق كمن لا يخلق»
٩	النحل	٤٤	«وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس
١١٧، ١٠٣	النحل	٧٧	«والله غيب السماوات والأرض»
٢٢٩	النحل	٨٠	«والله جعل لكم من بيوتكم سكناً»
١٧٩	النحل	٩١	«وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم»
٩٢	النحل	٩٢	«ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها»
١٥٤	النحل	٩٨	«فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله»
٢٢١، ٢١٥	النحل	١١٢	«فأذاقها الله لباس الجوع والخوف»
١١٢، ١٧٩	الإسراء	٢٤	«واخفض لهما جناح الذل من
٢٦٣	الإسراء	٢٩	«ولا تجعل يدك مغلولة إلى
٢٢٨، ١٤٧	الإسراء	٤٥	«وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك
٢٨٢	الإسراء	٥٧	«يرجون رحمته ويخافون عذابه»
٢٧٩	الإسراء	٨٨	«قل لنن اجتماعت الإنس والجن»
٢٢٣	الكهف	١١	«فضربنا على آذانهم»
٢٧٩	الكهف	١٨	«وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود»
٢٦٦	الكهف	٤٢	«فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق»
١٠٢، ٢٨	الكهف	٤٥	«واضرب لهم مثل الحياة الدنيا»
٢٢٦	الكهف	٧٧	«فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية»
٢٢٥، ٢١١، ١٩٠، ١٦٧، ١٣٦	الكهف	٩٩	«وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض»

٢٢٥ ، ٢٢٢ ، ٢٠١ ، ١٦٨	مريم	٤	«رب إني وهن العظم مني واشتعل
٢٢٨ ، ١٤٥	مريم	٦١	«إنه كان وعده مأتيا»
٣٠٦	طه	٨-١	«طه ما أنزلنا عليك القرآن
			لتشقى»
٢٢٠ ، ١٩٧	طه	٧١	«فلاقطعن أيديكم وأرجلكم من
١٥٧	طه	٧٤	«إنه من يأتي ربه مجرمًا»
٣١٤	طه	١١٦-١٢٣	«وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم
٢٢١ ، ١٧٢	طه	١٣١	«ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا
١٦٨	الأنبياء	١٥	«فما زالت تلك دعواهم حتى
١٨٥ ، ١٧٢ ، ٢٠٣ ،	الأنبياء	١٨	«بل نقذف بالحق على الباطل»
٢١٨ ، ٢١٣			
٢٦١	الأنبياء	٦٢	«قالوا أأنت فعلت هذا بالهتنا يا
١٠١	الحج	٣١	«ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من
			السماء»
٢٦٤	الحج	٧٧	«وافعلوا الخير»
٩١	النور	٣٥	«اللّه نور السماوات والأرض»
٩٨ ، ٤٥ ، ٢٧	النور	٣٩	«والذين كفروا أعمالهم كسراب
٩٨	النور	٤٠	«أو كظلمات في بحرٍ لجّي»
٣١٧	النور	٤٣	«يكاد سنا بريقه يذهب بالابصار
٣١٥	النور	٤٥	«واللّه خلق كل دابة من ماء»
٢٢١	الفرقان	٦	«قل أنزله الذي يعلم السر في
			السماوات»
١٨٨	الفرقان	١٢	«إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا

٢٢٤، ٩٨	الفرقان	٢٣	«وقدمنّا إلى ما عملوا من عمل
٢٨٠	الشعراء	٧٩-٨٠	«والذي هو يطعمني ويسقيني»
١٥٨	الشعراء	٨٤	«واجعل لي لسان صدقٍ في
			الآخرين»
٣٠٩	الشعراء	١٦٨	«قال إني لعملكم من القالين»
١٧٢	الشعراء	٢٢٥	«ألم ترى أنهم في كل وادٍ يهيّمون»
٢٢٨	النمل	١٣	«فلما جاءتهم آياتنا»
١٠٤، ٥٦	النمل	٨٨	«وترى الجبال تحسبها جامدة»
٢٢٨، ١٤٥، ١٤٠	القصص	٤	«إن فرعون علا في الأرض»
١٩٧	القصص	٨	«فالتقطه آل فرعون ليكون لهم
			عدواً»
٢٢٢	القصص	١٠	«وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً»
١٤٤	القصص	٥٧	«أولم نمكن لهم حرماً آمناً»
٢٩٧	القصص	٧٣	«ومن رحمته جعل لكم الليل
١٠٨	العنكبوت	١٠	«ومن الناس من يقول آمنا»
١١٦، ١٠٠	العنكبوت	٤١	«مثل الذين اتخذوا من دون الله»
١٨	العنكبوت	٤٣	«وتلك الأمثال نضربها للناس»
٢٨١	الروم	٦-٧	«ولكن أكثر الناس لا يعملون»
٣١٧	الروم	١٢	«ويوم تقوم الساعة»
٢٩٦	الروم	١٩	«يخرج الحي من الميت ويخرج
٣٠٠	الروم	٥٥	«ويوم تقوم الساعة يقسم
١٩٦، ١٧٥	لقمان	٧	«فبشره بعذاب أليم»
٩٠	لقمان	٣٢	«وإذا غشيهم موج كالثقل

٩٦	الأحزاب	١٩	«أشحة عليكم فإذا جاء الخوف»
١١٠	الأحزاب	٣٢	«يا نساء النبي لستن كأحد من
٣١٠	الأحزاب	٣٧	«وتخشى الناس واللّه أحق أن
٣٠٦	الأحزاب	٦٤	«إنّ اللّه لعن الكافرين وأعد لهم
٢٠٤	سبأ	١٩	«ومزقناهم كل ممزق»
١٤٦	سبأ	٣٣	«بل مكر الليل والنهار»
١٠٤	فاطر	٩	«كذلك التشور»
٢٥٩	فاطر	٢٨	«إنما يخشى اللّه من عباده
			العلماء»
٣١٥	فاطر	٣٢	«ثم أورثنا الكتاب الذين
			اصطفينا»
١٣٣	يس	٧	«لقد حق القول على أكثرهم»
٢٢٥ ، ٢٠٣ ، ١٦٨ ، ١٣٦	يس	٣٧	«وآية لهم الليل نسلخ منه النهار
٩٠	يس	٣٩	«والقمر قدرناه منازل»
١٩٥ ، ١٦٩	يس	٥٢	«قالوا يا ويلنا من بعثنا من
٢٦	الصافات	٦٢	«أذلك خير نزلاً أم شجرة الزقوم»
١٠٧ ، ٤٧	الصافات	٦٥	«طلعها كأنه رؤوس الشياطين»
٣٠٣	الصافات	٧٣-٧٢	«ولقد أرسلنا فيهم منذرين»
١٥٧	الصافات	١٠١	«فبشرناه بغلام حليم»
٣١٨	الصافات	١٢٥	«أتدعون بعلاً وتذرون أحسن
١٥٤	الزمر	٦	«وأنزل لكم من الأنعام ثمانية
			أزواج»
٢٥٩	الزمر	٩	«إنمّا يتذكر أولو الألباب»

١٥٥	الزمر	٢٨	«قرأناً عربياً غير ذي عوج»
٢٢٣ ، ١٥٧	الزمر	٣٠	«إنك ميت وإنهم ميتون»
١٣٣	غافر	٦	«وكذلك حققت كلمة ربك»
١٥٣	غافر	١٣	«وينزل لكم من السماء رزقاً»
١٤٥ ، ١٤٠	غافر	٣٦	«فقال فرعون يا هامان ابن لي
٣٠٣	غافر	٧٥	«ذلكم بما كنتم تفرحون في

الأرض»

٢٠٢	فصلت	٤٠	«اعملوا ما شئتم»
٢٩٧	الشورى	٤٠	«وجزاء سيئة سيئة مثلها»
١٠٤	الزخرف	١١	«كذلك تخرجون»
٢٥٤	الزخرف	١٥	«وجعلوا له من عبادته جزءاً»
٢٥٤	الزخرف	١٦	«أم اتخذ مما يخلق بنات»
١٦٣ ، ٢٥٤	الزخرف	١٨	«أو من ينشأ في الحلية وهو في
٢٥٤	الزخرف	١٩	«وجعلوا الملائكة الذين هم عباد
١٧٥	الدخان	٤٩	«ذوق إنك أنت العزيز الكريم»
٢٧٥	الأحقاف	٩	«قل ما كنت بدعاً من الرسل»
٣٠	الأحقاف	٢٤	«فلماً رأوه عارضاً مستقبل
٢٠١ ، ١٧٤	محمد	٤	«حتى تضع الحرب أوزارها»
٩٧	محمد	١٢	«والذين كفروا يتمتعون ويأكلون»
٩٦	محمد	٢٠	«ويقول الذين آمنوا لولا أنزلت

سورة»

٩٤	الفتح	٢٩	«محمد رسول الله»
٢٦٤	الحجرات	١٢	«يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً

١٠٤	ق	١١	«كذلك الخروج»
٢١٥ ، ١٦٨	الذاريات	٤١	«وفي عادٍ إذ أرسلنا عليهم الريح»
٢٢٥ ، ٢٢٥	الذاريات	٤٢	«ما تذر من شيء أتت عليه إلا
٣١٥	الذاريات	٤٨-٤٧	«والسماء بنيناها بأبيد وإننا
٣٠٦	الطور	٨-٧	«إن عذاب ربك لواقع ما له من
٣٩٥	الطور	١٥	«أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون»
٢٧٩	النجم	٤٣	«وأنه هو أضحك وأبكى»
٢٢٢	النجم	٥٢-٥٠	«وأنه أهلك عاداً الأولى»
٢٨١	النجم	٦٠-٥٩	«أقمّن هذا الحديث تعجبون»
٢٩	القمر	٧	«يخرجون من الأحداث كأنهم
جراد منتشر»			

١٠١ ، ٤٦ ، ٢٩	القمر	١٩	«إننا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً»
١٠١	القمر	٣١	«إننا أرسلنا عليهم صيحة»
١٠	الرحمن	٢-١	«الرحمن. علم القرآن»
٣١٥	الرحمن	٦-٥	«الشمس والقمر بحسبان
٢٧٩	الرحمن	٧	«والسماء رفعها ووضع الميزان
١٠٩ ، ٤٧	الرحمن	١٤	«خلق الإنسان من صلصال»
٩٠ ، ٤٦	الرحمن	٢٤	«وله الجوار المنشئات»
١٠٥	الرحمن	٣٧	«فإذا انشقت السماء فكانت»
٢٦٤	الرحمن	٥٦	«فيهن قاصرات الطرف»
١١٧ ، ٥٠ ، ٢٨	الرحمن	٥٨	«كأنهن الياقوت والمرجان»
٢٩١	الواقعة	٢٦-٢٥	«لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً»

٣٠٦	الواقعة	٢٨-٣٠	«في سدر مخضود وطلح منضود»
١٩١، ١٨٧	الحديد	١٧	«اعلموا أن الله يحيي الأرض»
١٠٢	الحديد	٢٠	«اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب»
٤٦	الحديد	٢١	«وجنة عرضها كعرض السماء»
٢٩٦	المتحنة	١٠	«لا هن حل لهم ولا هم يحلون
٩٢	الصف	٤	«إن الله يحب الذين يقاتلون»
٩٩، ٦٦، ٦٥، ٦٤، ٤٤، ٣٣	الجمعة	٥	«مثل الذين حملوا التوراة»
٩٥	المنافقون	٤	«وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم»
٢٧٩	التغابن	٢	«هو الذي خلقكم فمنكم كافر»
١٨٨	الملك	٧	«إذا القوا فيها سمعوا لها»
٢٢٤، ١٧٠	الملك	٨	«تكاد تميز من الغيظ»
٢١٣، ١٨٨	الملك	١٥	«هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً»
١٠٧	القلم	٣٣	«كذلك العذاب ولعذاب الآخرة
١١٠	القلم	٣٥	«أفنجعل المسلمين كالمجرمين
٢٢٤، ٢١٥، ١٧٤	الحاقة	٦	«وأما عاد فأهلكوا بريح صرصرٍ
١٠١، ٤٦، ٢٩	الحاقة	٧	«فترى القوم فيها صرعى»
١٣٦، ١٧٤، ١٩٠، ٢١٦، ٢٢٢	الحاقة	١١	«إنا لما طغى الماء حملناكم في

الجارية»

١٤٦	الحاقة	٢١	«فهو في عيشة راضية»
٣١٨	الحاقة	٣٥	«فليس لهم اليوم ها هنا حميم»
١٠٥	المعارج	٨	«يوم تكون السماء كالمهل»
١٠٤	المعارج	٤٣	«يوم يخرجون من الأجداث»

٢٢٧، ١٤١	نوح	٧	«جعلوا أصابعهم في آذانهم»
٢٨٠	نوح	٢٥	«مما خطيئاتهم اغرقوا فأدخلوا
١٥٧	نوح	٢٧	«ولا يلدوا إلا فاجراً كفّاراً»
٢٢٧، ١٥٤، ١٤١	المزمل	٢	«قم الليل إلا قليلاً»
١٠٨	المزمل	١٥	«إنا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً
٣٠٦	المدثر	٤-١	«يا أيها المدثر قم فأنذر وربك
٢٢٤	المدثر	١١	«ذرني ومن خلقت وحيداً»
٩٦	المدثر	٤٩	«فما لهم عن التذكرة معرضين»
٣٠	الإنسان	١٩	«إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً»
٣٠٦	المرسلات	٢-١	«والمرسلات عرفاً. فالعاصفات
٣٠٤	القيامة	٣٠-٢٩	«والتفت الساق بالساق إلى ربك»
١٦٨	التكوير	١٨	«والصبح إذا تنفس»
١٥٧	الإنفطار	١٣	«إن الأبرار لفي نعيم»
١٩٠	البروج	٨	«وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا
١٤٤	الطارق	٥	«فلينظر الإنسان مما خلق»
٢٢٣	الفجر	١٣	«فصب عليهم ربك سوط عذاب»
٣١٣	الليل	٤-١	«والليل إذا يغشى والنهار إذا
٢٨٤	الليل	٦-٥	«فأما من أعطى واتقى وصدق
٣١٣	الليل	١٨-٥	«فأما من أعطى واتقى وصدق
٣١٣	الضحى	١١-١	«والضحى والليل إذا سجى ما
			ودعك ربك»
٣٠٩	الضحى	٣	«ما ودعك ربك وما قلى»
٣٠٣	الضحى	١٠-٩	«فأما اليتيم فلا تقهر وأما

٢٣	الشرح	٣	«الذي أنقض ظهرك»
٢٢٧ ، ١٥٧	العلق	١٧	«فليدع نادية»
١٠١	الفيل	٥	«فجعلهم كعصفٍ مأكول»

فهرس الأحاديث

الحديث

رقم الصفحة

- ١- «أحب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون...» ٢٨٢
- ٢- «أحد جبل يحبنا ونحبه» ٢٢٩
- ٣- «إذا مشيت أمتي الميطاء وخدمتها أبناء الملوك...» ٢٦٨
- ٤- «أرجعن مأزورات غير مأجورات» ٣٠٧
- ٥- «استحيوا من الله حق الحياء» ٣٠٦
- ٦- «أسجعاً كسجع الكهان» ٣٠٨ ، ٣٠٥
- ٧- «أسرعكن بي لحوقاً أطولكن يداً» ١٥٦
- ٨- «أسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين...» ٣١٩
- ٩- «اسمعوا وأطيعوا ولو استعمل عليكم عبد حبشي...» ١١٥
- ١٠- «اعطيت جوامع الكلم» ٢٦٧
- ١١- «اعلم أبا مسعود والله لآقدر عليك منك على هذا» ٣٢٠
- ١٢- «أعيذه من الهامة والسامة وكل عين لامة» ٣٠٧
- ١٣- «أقبل وأدبر واتق الدبر والحیضة» ٢٦٨
- ١٤- «ألا أخبركم عن النفر الثلاثة؟ أما أحدهم فأوى...» ٣٢٠
- ١٥- «ألبسوا من ثيابكم البياض» ٢٣٣
- ١٦- «أنا أفصح العرب بيد أني من قريش» ٢٩١
- ١٧- «إن الإسلام ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها» ٢٣١
- ١٨- «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه...» ٢٨٢
- ١٩- «إن مكة حرمها الله» ٢٣٢
- ٢٠- «إن من أكبر الكبائر أن يسب الرجل والديه...» ٢٣٢
- ٢١- «إن من البيان لسحرا» ١٠
- ٢٢- «إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى» ٢٣١
- ٢٣- «إنكم لتكثرلون عند الفزع وتقلون عند الطمع» ٣١٩
- ٢٤- «إنه كانت امرأة فيمن كان من قبلنا» ٢٦٧
- ٢٥- «اياكم وخضراء الدمن» ٢٣٢
- ٢٦- «الإيمان بضع وستون شعبة» ٢٣٧ ، ٣٠٤
- ٢٧- «أيها الناس افشوا السلام وأطعموا الطعام...» ٣٠٧
- ٢٨- «البذاء والبيان شعبتان من النفاق» ١٠
- ٢٩- «بني الإسلام على خمس» ٢٢٨ ، ١٨١ ، ١٧٩ ، ١٧٢

- ٢٦٨ - ٣- «تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي...»
- ١١٤ - ٣١- «تعرض الفتن على القلوب كالحصير...»
- ٣٢٠ - ٣٢- «جلس إحدى عشرة امرأة فتعاهدن وتعاقدن...»
- ٢٦٨ - ٣٣- «خصاء أمتي الصيام»
- ٢٦٧ - ٣٤- «خياركم اليكم مناكب في الصلاة»
- ٢٠٤ - ٣٥- «خير الناس رجلٌ ممسك بعنان فرسه...»
- ٣٢١ ، ٣٠٣ - ٣٦- «الخيول معقود في نواصيها الخير...»
- ٢٣٠ - ٣٧- «وذروة سنامه الجهاد»
- ٣٠٥ - ٣٨- «رحم الله عبداً قال خيراً فغنم أو سكت فسلم»
- ٢٨٠ - ٣٩- «رحمن الدنيا ورحيمهما...»
- ٣١٩ - ٤٠- «سمع الله لمن حمده ربنا لك الحمد...»
- ٥٨ - ٤١- «والصلاة نور والصدقة برهان...»
- ٢٣٠ - ٤٢- «الصوم جنة والصدقة تطفئ الخطيئة...»
- ٣١٩ - ٤٣- «الظلم ظلمات يوم القيامة»
- ٢٣٣ - ٤٤- «عجب ربنا من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل»
- ٣٢٠ - ٤٥- «عصية عصت الله وغفار غفر الله لها...»
- ٢٣٥ - ٤٦- «عليكم بالصدق»
- ٢٣٥ - ٤٧- «عليكم هدياً قاصداً فإنه من يشاد هذا الدين يغلبه»
- ٣٣ - ٤٨- «قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها»
- ٢٣٥ - ٤٩- «كل هوى شاطن في النار»
- ٢٣١ - ٥٠- «لا تسأل المرأة طلاق أختها لتكفأ ما في إنائها»
- ٢٢٩ - ٥١- «لا تستضيؤا بنار المشركين»
- ٢٣٤ - ٥٢- «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد...»
- ١٧١ - ٥٣- «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود»
- ٢٣٢ ، ١٩٩ - ٥٤- «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين»
- ٢٦٨ - ٥٥- «لقد أخفت في الله ما لم يخف أحد وأوذيت في الله...»
- ٣٢٠ - ٥٦- «لعله كان يتكلم بما لا يعنيه...»
- ٣٠ - ٥٧- «لقد وجدته جحراً»
- ١١٢ - ٥٨- «للدنيا أهون على الله من هذا عليكم»
- ٣٠٥ - ٥٩- «اللهم أعط منفقاً خلفاً وأعط ممسكاً تلفاً»
- ٣١٩ - ٦٠- «اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت...»
- ٢٨٠ - ٦١- «اللهم اغننا بالإفطار إليك...»

- ٢٧٩ -٦٢- «اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت»
- ٣٢٠ -٦٣- «ليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفقيت...»
- ٢٦٩ -٦٤- «المؤذنون أطول أعناقاً يوم القيامة»
- ١١٣ -٦٥- «المؤمن للمؤمن كالبينان يشد بعضه بعضاً»
- ١١٧ -٦٦- «مالي ومال الدنيا ما أنا في الدنيا إلا...»
- ١١٤ -٦٧- «مثل البخيل والمنفق كمثّل رجلين عليهما جبتان من حديد..»
- ١١٣ -٦٨- «مثل الصلوات الخمس كمثّل نهر جار...»
- ١١٤ -٦٩- «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم...»
- ١١٣ ، ٣٢ -٧٠- «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن ويعمل به...»
- ١١٣ -٧١- «مثل المؤمن كمثّل الخامة من الزرع...»
- ١١٣ -٧٢- «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم...»
- ١٦٣ -٧٣- «مثل المنافق كالشاة العائرة بين غنمين»
- ١١٤ -٧٤- «مثلي كمثّل رجل استوقد ناراً...»
- ١١٤ -٧٥- «مثلي ومثّل الأنبياء كمثّل رجل بنى داراً...»
- ٢٥٨ ، ١٥٦ -٧٦- «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»
- ١٥٦ -٧٧- «المسلمون تتكافأ دماؤهم»
- ٢٣٣ -٧٨- «من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة...»
- ٢٣٤ -٧٩- «من عاد مريضاً لم يزل في خرفة الجنة حتى يرجع»
- ١٥٥ -٨٠- «من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر...»
- ٢٦٧ -٨١- «من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه...»
- ٢٣٣ -٨٢- «من كان معه فضل ظهر فليعد على من لا ظهر له»
- ٢٦٨ -٨٣- «من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة»
- ٣٢٠ -٨٤- «مَهْ عَلَيْكُمْ لما تطيقون...»
- ١١٧ ، ٤٨ ، ٢٧ -٨٥- «الناس كإبل مئة لا تجد فيها راحلة»
- ٢٣٢ -٨٦- «هذا إذا حمي الوطيس»
- ٢٣١ -٨٧- «هذه كلها طرق الشيطان وسبله وهذا صراط الله...»
- ٢٦٢ -٨٨- «هذه مكة رمتكم بافلاذ كبدها»
- ٢٣٠ -٨٩- «والله إنكم لتجبنون وتبخلون...»
- ٢٣٣ -٩٠- «وهل يكب الناس على وجوههم»
- ٢٦٧ ، ٢٣١ -٩١- «الولد للفراش وللعاهر الحجر»
- ٢٣٢ -٩٢- «يا أنجشة رفقاً بالقوارير»
- ٢٣٢ -٩٣- «اليد العليا خير من اليد السفلى»
- ٥٦ -٩٤- «ينطلق أحدكم إلى أخيه يعضه»

فهرس القوافي

(٤)

الصفحة	القائل	القافية	صدر البيت
٣٨	السري الرفاء	(ضَحَاءُ)	لقي النجوم وقد طلعت بمثلها
١٢٧	الحارث بن حلزة	(الثَّوَاءُ)	أَذْنَتْنَا بَيْنِهَا أَسْمَاءُ
٢٠٩	المتنبي	(حَيَاءُ)	لم تلق هذا الوجه شمسُ نهارنا
٢٨٧	المتنبي	(الرَّحْضَاءُ)	لم تحك نائلك السَّحَابَ وَإِنَّمَا
٢٩٥	زهير	(نِسَاءُ)	وما أَدْرِي وَسَوْفَ إِخَالُ أَدْرِي
٢٩٦	—	(مَاءُ)	كَأَنَّنَا وَالْمَاءُ مِنْ حَوْلِنَا

(٤)

٥٧	—	(الماءِ)	والريح تعبثُ بالغصون وقد جرى
٢٥٨	المتنبي	(ضِيَاءِ)	إِن فِي ثَوْبِكَ الَّذِي المجدُ فِيهِ
٣٠٣	ابن الفارض	(بَشْقَاءِ)	هَلَا نَهَاكَ نَهَاكَ عَنْ لَوْمِ امْرِئٍ
٢٨٨	ابن نباته	(أَحْشَانِهِ)	فكَأَنَّمَا لَطَمَ الصَّبَاحُ جَبِينَهُ

(ب')

١٧٧ ، ١٤	المتنبي	(السَّحَابَا)	تعرض لي السحابُ وقد قفلتَا
٢٠٠ ، ٢٠	صالح بن عبد القدوس	(عَنْبَا)	إِذَا أَوْتَرْتَ امْرَأً فَاحْذَرِ عِدَاوَتَهُ
٧٠ ، ٣٢ ، ٢٢	—	(غَرْبَا)	أَنْتَ نَجْمٌ فِي رَفْعَةٍ وَضِيَاءٍ
٢٩	—	(عَنْدَلِيَا)	وطنيورٍ مليح الشكل يحكي
١٢٠	المتنبي	(ثاقبا)	كالبرد من حيث التفت رأيتهُ
١٢١	المتنبي	(سَحَابِيَا)	كالبحر يقذف للقريب جواهرأ
١٤٧	—	(طَلْبَا)	قد عزَّزَ الألى لا ييخلون على
١٥٩	جرير بن عطية	(غَضَابَا)	إِذَا سَقَطَ السَّمَاءُ بِأَرْضِ قَوْمٍ
١٨٣	سعد بن ناشب	(جَانِبَا)	إِذَا هُمْ أَلْقَى بَيْنَ عَيْنَيْهِ عِزْمَهُ

١٨٤	سعد بن ناشب	(صَاحِبًا)	ولم يستشِر في رأيهِ غير نَفْسِهِ
٢٢٩	أحمد شوقي	(كِتَابًا)	فما عَرَفَ البلاغةَ ذو بيان
٢٥٤ ، ٢٤٨	أحمد شوقي	(الشِّبَابًا)	وَلِيَّ بَيْنِ الضُّلُوعِ دَمٌ وَلَحْمٌ
٢٨٥	أبي الحسين الجزار	(الآدَابًا)	كَيْفَ لَا أَشْكُرُ الجَزَارَةَ مَا عَشْتُ
٢٨٥	أبي الحسن الجزار	(الكَلَابًا)	وبها صارت الكلاب ترجيني
٢٨٧	—	(طَرَبًا)	ما زلزلت مِصرُ من سوءٍ أريدُ بها

(بُ)

٣٠ ، ٢٠	—	(الرَّطْبُ)	وتأخذه عند المكارم هزّة
٣١	أبو فراس	(ثِيَابُ)	وقد صار هذا الناسُ إِلَّا أَقْلَهُم
١١٧	نو الرمة	(ذَهَبُ)	كحلاء في برجٍ صفراءُ في نعيمٍ
١٢٧	علقمة الفحل	(مَشِيبُ)	طحابك قلبُ في الحسان طروبُ
١٢٧	النابعة الذبياني	(كوكِبُ)	فإنك شمسُ والملوك كواكبُ
١٢٩	—	(عَاتِبُ)	تكادُ تميدُ الأرضُ بالناسِ إِنْ رَأَوْ
١٢٩	—	(كواكِبُ)	هو الشمسُ رَاقَتِ يَوْمَ سَعْدٍ فَأَفْضَلَتْ
١٦٨	المسيب بن علس	(أَهْلِبُ)	وإنهم قد دعوا دعوة
١٧٠	الخنساء	(حَرْبُ)	وقد جَعَلَتْ في نَفْسِهَا أَنْ تَخَافَهُ
١٧٣	—	(وَنَقْلُ)	صرمت حبالك بعد وصلك زينب
١٩٤ ، ١٨٢	أبو تمام	(المَكْرُوبُ)	ديمة سمحة القيادة سكوب
٢٥١	المتنبي	(تَرَابُ)	فمَسَاهُم وبسطهم حَرِيرُ
٢٥١	المتنبي	(أَرْكَبُ)	وأصرع أي الوحش قفيته به
٢٥٥	المتنبي	(خَضَابُ)	ومن في كفه منهم قنأة
٢٨٦	سراج الدين الوراق	(الْأَدِيبُ)	أصون أديم وجهي عن أناسٍ
٢٨٦	سراج الدين الوراق	(حَبِيبُ)	وَرَبُّ الشَّعْرِ عندهم بغِيضُ
٢٨٨	المتنبي	(الذَّنَابُ)	ما به قتلُ أعاديهِ ولكن
٢٨٩	ابن المعتز	(الْوَصْبُ)	قالوا اشتكت عينه فقلت لهم
٢٨٩	ابن المعتز	(عَجَبُ)	حُمُرَتْهَا من دماءٍ من قتلْت
٢٩٥	محمد الأسمر	(عَجَبُ)	زَهْرُ الربيع يَرَى أُمَّ سَادَةٍ نُجْبُ
٢٩٩	أبو تمام	(مُذْهَبُ)	ذهب بمذهبه السماحة فالتوت
٣٠٢	—	(ذَهَبُ)	رأيت الناس قد ذهبوا
٣٠٢	—	(ذَهَبُوا)	ومن لا عنده ذهبُ

(ب)

٢٧٠ ، ١٢١ ، ٧١ ، ٦٧ ، ١٩	البحتري	(وَضْرِبِ)	دانِ إلى أيدي العفاة وشاسعُ
٢٧٠ ، ١٢١ ، ٧٢ ، ٦٧ ، ١٩	البحتري	(قريبِ)	كالبدر افراط في العلو وضوءُه
٤٥	—	(الذبابِ)	ويومٍ عند بابِ أبي نعيمٍ
٥٠	—	(الخطوبِ)	أنت كالليث في الشجاعة والإقدام
٨٥ ، ٧٤	البحتري	(خُبِ)	وقد زادها افراط حسنِ جوارها
٨٥ ، ٨٤	البحتري	(غَيْهَبِ)	وحسنُ دراري الكواكب أن تُرى
٢٨٧ ، ١١٦ ، ٧٨ ، ٧٥	أبو تمام	(الرُّطْبِ)	قد يشيبُ الفتى وليس عجيباً
١٢٤ ، ٨١	امرؤ القيس	(يُثَقَّبِ)	كأن عيون الوحش حول خبائنا
١٢٢	النابغة	(الكواكبِ)	كليني لهم يا أميمة ناصب
١٢٢	النابغة	(بأيبِ)	تطاول حتى قلتُ ليس بمنقضٍ
١٢٢	النابغة	(جانِبِ)	وصدر أراح الليل عازبَ همه
١٢٤	امرؤ القيس	(مخلِبِ)	كأن تشوفه بالضحي
١٢٤	امرؤ القيس	(يُسَلِّبِ)	إذا برَّ عنه جلالُ له
٢٠٨	أبو تمام	(التَّعَبِ)	بصرت بالراحة العظمى فلم ترها
٢١٠	كلثوم بن عمرو العتابي	(الغوارِبِ)	ومن فوق اكوارِ المهاري لبانةُ
٢١٨	—	(أدبِ)	بصائر يجتليها كل ذي بصرٍ
٢٦٥	أبو نواس	(الجَرابِ)	أنت بجرايها تكتال فيه
٢٧١	البحتري	(مُحَبِّ)	يغضون فضل اللحظ من حيث ما
٢٨٤	المتنبي	(بي)	أنزورهم وسوادُ الليل يشفع لي
٢٩٠	النابغة الذبياني	(الكتائبِ)	ولا عيبَ فيهم غير أن سيوفهم
٣٠٠	البحتري	(أريبِ)	يعشى عن المجد الغبي ولن ترى
٣٠٤	أبو تمام	(قواضبِ)	يمدون من أيد عواص عواصم
٣٠٥	أبو تمام	(الرَّيبِ)	بيض الصفائح لا سودُ الصحائف في
٣٠٢	أبو تمام	(الكتائبِ)	إذا الخيل جابت قسطل الحرب صدعوا
١٦٠	—	(سحابهِ)	اقبل في المستن من ربابه
٢٥٨	—	(رِكاِبِه)	اليمن يتبع ظلَّه

(بُ)

٨٠	عنتره	(المُلْتَهَبُ)	يتابع لا يبتغي غيره
١٦٠	—	(المعاطبُ)	لا أركب البحر إني
١٦٠	—	(ذائبُ)	طين أنا وهو ماء
٢٩٤	—	(العَجَبُ)	طَلَبْتُ منه درهماً
٢٩٤	—	(الذَّهَبُ)	وقال ذا من فضةٍ

(تُ)

٢٥١	الخنساء	(شَتَا)	طويلُ النجاد رفيعُ العماد
-----	---------	---------	---------------------------

(تُ)

٥٢	—	(زَيْتُ)	إنما النفسُ كالزجاجة والعلم سراجُ
٥٢	—	(مَيْتُ)	فإذا اشرقت فإنك حيٌّ

(تُ)

١٥	ابن الأنباري	(المُعْجَزَاتِ)	علوُ في الحياة وفي الممات
١٥	ابن الأنباري	(الصلَاتِ)	كأن الناس حولك حين قاموا
١٥	ابن الأنباري	(للصلَاةِ)	كأنك قائمٌ فيهم خطيباً
٦٧	كثير	(وتَوَلَّتِ)	لقد اطمعنتي بالوصال تبسماً
٦٧	كثير	(وتجلَّتِ)	كما ابرقت قوماً عطاشاً غمامةً
١١٧	أبو حسن الأنباري	(بالهبَاتِ)	مددت يديك نحوهم احتفالاً
٢٥٨	الشنفرى الأزدي	(حَلَّتِ)	يبيت بمنجات من اللوم بيتها

(جُ)

٤٤	الشماخ	(مَشِيحُ)	كأنَّ المتن والشرخين منه
----	--------	-----------	--------------------------

(ج)

٣١ ، ٢٣	نو الرمة	(الفراريج)	كأن أصوات من ايغالهن بنا
٢٠٧	ابن المعتز	(بالحجج)	بخيل قد بليت به
٢٥٧	زياد الأعجم	(الحشرج)	إن السماحة والمروءة والندى

(ح)

٨٣ ، ٣١	ابن المعتز	(انفتاحاً)	فكأن البرق مصحف قار
١١٩	ابن الرومي	(قدحاً)	مبارك الوجه ميمون نقيبه
١٢٨	أبو داود	(الجناحاً)	إذا شاء راكمه ضمه
٢٨٣ ، ١٩١ ، ١٨٨	ابن المعتز	(السماحاً)	جمع الحق لنا في إمام
٢٨٩	أبو طالب المأموني	(رواحاً)	لا يذوق الإغفاء إلا رجاء

(ح)

١١٨ ، ١١٠ ، ٣٧	محمد بن وهيب	(يمتدح)	وبد الصباح كأن غرته
١١٨	—	(يفتح)	وتفتح لا كانت فما لورأيته
١٧٠	—	(قارح)	ألا أبلغ النعمان عني رسالة
٢٠٧	عمرو بن كلثوم	(الأباطح)	أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا
٢٠٧	الجاحظ	(طائح)	لقد كنت في قوم عليك أشجة
٢١٧	الجاحظ	(الشحائح)	يودون لوخاضوا عليك جلودهم
٢٤٧	—	(جارح)	رمتني بسهم ريشة الكحل لم يضر
٢٩٨	الجوهري	(أصارح)	وأنني لأكنو عن قدور غيرها
	—	(الراح)	ولحظه ومحياه وقامته

(ح)

٢٩٥	البحثري	(الضاحي)	المتع برق سري أم ضوء مصباح
-----	---------	----------	----------------------------

(ح)

١٥	أبو نواس	(يصيحُ)	بُحَّ صوت المال مما
٥٠ ، ٣٩	البحري	(أقاحُ)	كأنما يبسم عن لؤلؤ
٣٠٤	الخنساء	(الجوانحُ)	إن البكاء هو الشفاءُ

(د)

٥٠	البحري	(مَزِيداً)	ذات حسنٍ لو استزادت من الحسن
٥٠	البحري	(وجيداً)	فهي كالشمس بهجةً والقضيب
١١٩	الحريري	(فاصلداً)	لا ولا رام قابسُ
١٤٥	المتنبي	(أجرداً)	ويمشي به العكاز في الدير تائباً
١٨٤	المتنبي	(وَالْجَدّاً)	وتُحيي له المال الصوارم والقنا
٢٨٣	المتنبي	(تَمَرِّداً)	إذا أنت أكرمت الكريم ملكتهُ
٢٧٩	—	(مُسْتَرْدَّةً)	إنما الدنيا هباتُ
٢٧٩	—	(شِدَّةً)	شِدَّةٌ بعدَ رخاءٍ

(د)

٥٤ ، ٥١	ابن المعتز	(وقدُ)	ليلٌ ويدرُ وغصنُ
٥١	ابن المعتز	(وخذُ)	خمرٌ ودرٌ ووردُ
١٢٦	الطرماح	(ويُغَمِّدُ)	يبديو وتضمرة البلادُ كأنه
١٦٠	المتنبي	(محدودُ)	إني نزلت بكذا بين ضيفهم
١٨٩ ، ١٧٧	المتنبي	(الأسدُ)	ولم أر مثلي من مشى البدر نحوه
٢٥٥	البحري	(الحقدُ)	فأتبعتهَا أخرى فأضللت نصلها
٢٨١	—	(عَنيدُ)	شَيَّيتني وما يشيئني السنُّ

(د)

٢٠	أبو نؤيب	(غَمْدُ)	تريدين كيما تجمعيني وخالداً
----	----------	----------	-----------------------------

٣٦	البحتري	(بِمَدَادِ)	على باب قنسرين والليل لاطحٌ
٣٨	ابن الرومي	(الْوَجْدِ)	لو كنت يوم الوداع حاضراً
٣٨	ابن الرومي	(خَدَ)	لم تر إلا الدموع ساكبةً
٣٨	ابن الرومي	(وَرَدِ)	كأن تلك الدموع قطرندي
٣٩	القاضي التنوخي	(الخنودِ)	اقحوانٌ معانقٌ لشقيقٍ
٣٩	القاضي التنوخي	(التسهيدي)	وعيونٌ من نرجسٍ تتراعى
٣٩	السلامي	(النُهودِ)	ربما تبيت أناقلي
٥٢	ابن المعتز	(البرْدِ)	تبسمُ وقطوبٌ في ندىً ووغىً
١٨٠ ، ١٦١ ، ٦٧ ، ٦٥	ابن المعتز	(بالعيدِ)	قد انقضت بولة الصيام وقد
١٨٠ ، ٦٧ ، ٦٥	ابن المعتز	(عنقُودِ)	يتلو الثريا كفاغرٍ شره
٧٢	أبو تمام	(حسُودِ)	وإذا أراد الله نشرَ فضيلة
٧٢	أبو تمام	(العودِ)	لولا اشتعالُ النار فيما جاورت
٧٧ ، ٧٣	أبو تمام	(تتجددِ)	وطولُ مقامِ المرء في الحي مخلُوق
٧٧ ، ٧٣	أبو تمام	(بسرمدِ)	فإني رأيت الشمس زيدت محبةً
	النايغة	(العودِ)	نظرت إليك بحاجةٍ لم تقضها
	النايغة	(الفردِ)	من وحشٍ وجرةٍ موشي اكارعه
١٢٦	طرفة بن العبد	(باليدِ)	يشق حباب الماء حيزومها بها
١٢٦	طرفة بن العبد	(باليدِ)	لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى
١٢٦	طرفة بن العبد	(يتخذُ)	ووجه كأن الشمس حلت قناعها
١٢٦	الحطيئة	(المُمددِ)	ترى بين لحييها إذا ما تزغمت
١٨٧	—	(بالبرْدِ)	فأمطرت لؤلؤاً من نرجس وسقت
١٩٢	القطامي	(الوادي)	لم تلق قوماً هم شرُّ إخوتهم
١٩٢	القطامي	(زُرَادِ)	نقريهم لهذميات نقد بها
٢٠٧	بشار	(جلدي)	وصاحب كالدمل الممد
٢١٥	—	(السواعدِ)	دعوت بني قيس إلي فشمرت
٢٥٢	النايغة	(النواهدِ)	يخططن بالعيديان في كل منزل
٢٥٢	طرفة بن العبد	(المتوقدِ)	أنا الرجلُ الضرب الذي تعرفونه
٢٥٢	أبو تمام	(حامدِ)	فإن أنا لم يحمدك عني صاغراً
٢٩٤	ابن حجاج عبد الله البغدادي	(بالأيادي)	قال ثقلت إذ أتيتُ مراراً
٢٩٤	ابن حجاج عبد الله البغدادي	(وإداي)	قال طولت قلت أوليت طولاً

(د)

١١٨ ، ٨٤ ، ٢٤	محمد الصنوبري	(تَصَعَّدْ)	وَكَاثَنُ مُحَمَّرُ الشَّقِيقِ
١١٨ ، ٨٤ ، ٢٤	محمد الصنوبري	(زَبَرَجَدْ)	أَعْلَامُ يَاقُوتِ نَشْرَنِ
٢٨٩	الرافعي	(أَسَدْ)	إِنَّمَا الْإِسْلَامُ فِي الصَّحْرَا امْتَهَدَ
٢٥	أبو الغنائم الحمصي	(المزردْ)	خَوْذُ كُنْنٍ بَنَانِهَا
٢٥	أبو الغنائم الحمصي	(زَبَرَجَدْ)	سَمَكُ مِنَ الْبَلُورِ فِي

(ر)

٨١ ، ٦٤ ، ٦٢ ، ٢٢	قيس بن الأسلت	(نَوْرَا)	وَقَدْ لَاحَ فِي الصَّبْحِ الثَّرِيَا لِمَنْ رَأَى
٣٣	ابن بابك	(فَأَبْصَرَا)	وَأَرْضٍ كَأَخْلَاقِ الْكَرِيمِ قَطَعْتَهَا
١٢٠	البحتري	(بَبِلَنْجَرَا)	شَرَفُ تَزِيدٍ بِالْعِرَاقِ إِلَى الَّذِي
١٢٠	البحتري	(أَقْمَرَا)	مِثْلَ الْهَالِلِ بَدَا فَلَمْ يَبْرَحْ بِهِ
١٥٠	أبو نواس	(نَظَرَا)	يَزِيدُكَ وَجْهَهُ حَسَنًا
١٧٤	ميمون بن قيس	(ذُكُورَا)	وَأَعْدَدْتُ لِلْحَرَابِ أَوْزَارَهَا
٢٤٩	نُصَيْبُ	(ظَاهِرُهُ)	لِعَبْدِ الْعَزِيزِ عَلَى قَوْمِهِ
٢٥٠	نُصَيْبُ	(عَامَرُهُ)	فَبَابِكَ أَسْهَلُ أَبْوَابِهِمْ
	نُصَيْبُ	(الزَّائِرُهُ)	وَكَلْبِكَ أَنْسُ بِالزَّائِرِينَ

(ز)

٢٤	نو الرمة	(نَزَرُ)	لَهَا بَشَرٌ مِثْلُ الْحَرِيرِ وَمِنْطَقُ
٤٢	الخنساء	(نَارُ)	وَإِنْ صَخْرًا لَتَأْتِمُ الْهَدَاةُ بِهِ
٤٢	بشار	(الْحَذَارُ)	كَأَنَّ فَوَادِهِ كَرَّةٌ تَنْزَى
٤٢	بشار	(السَّرَارُ)	يُرْوَعُهُ السَّرَارُ بِكُلِّ امْرِئٍ
٤٨	الخنساء	(نَارُ)	أَغْرُ ابْلُجُ تَأْتِمُ الْهَدَاةُ بِهِ
٥٢	محمد بن لنكك	(نَهَارُ)	الْخَدُ وَرْدُ وَالْعَذَارُ رِيَاضُ
٩٦	—	(بَقَرُ)	لَا يَخْدَعُكَ اللَّحَى وَلَا الصُّورُ
٩٦	—	(مَطَرُ)	تَرَاهُمْ كَالسَّحَابِ مَنْتَشِرًا
٩٦	—	(ثَمَرُ)	فِي شَجَرِ السَّرْوِ مِنْهُمْ شَبَهُ
١٢٧	الأفوه الأودي	(دَوَادُ)	إِنْ تَرَى رَأْسِي فِيهِ قَذَعُ
١٤٤	أبو فراس	(الْبَدَرُ)	سَيَذْكُرُنِي قَوْمِي إِذَا جَدَّ جَدَّهُمْ

١٤٧	الخنساء	(وَأُبَارُ)	ترتع ما رتعت حتى إذا ادكرت
١٤٧	الخنساء	(اَكْبَارُ)	فما عجول على بوّ تطيف به
١٦٨	مراره بن منقذ	(يَنْعَفِرُ)	تهلك المدراة في أفنانه
١٧٦	المعقر البارقي	(تَخَاطَرُ)	وقد زحفت دودان تبغي لثأرها
١٧٦	المعقر البارقي	(وَزَامِرُ)	فباتوا لنا ضيفاً وبتنا بنعمة
١٧٦	المعقر البارقي	(حَازِرُ)	فلم نُقرهم شيئاً ولكن قراهم
١٧٦	المعقر البارقي	(مُتَوَاتِرُ)	وصبحهم عند الشروق كتائب
١٨٢	الفرزدق	(نَهَارُ)	والشيب ينهض في الشباب كأنه
١٩٣	—	(لا يَسِيرُ)	وأعلم أنني ساكون رمساً
١٩٣	—	(وَزِيرُ)	فقال السائلون لمن حَفَرْتُم
٢٠٦	—	(فَاعْتَذِرُ)	اليوم يومان مُذْ غيبتَ عن بصري
٢٠٦	—	(الْقَدَرُ)	أمسي وأصبح لا ألقاك واحزنا
٢٥٧	أبو نواس	(يسيرُ)	فما حازه جودٌ ولا حل دونه
٢٨٢	أبو نواس	(غادرُ)	فوا عجباً كيف اتفقنا فَنَاصِحُ
٢٨٣	أبو الطيب	(مُدْبِرُ)	فلا الجودُ يفني المال والجد مقبلُ
٢٩١	—	(صُخُورُ)	وجوه كَأَزارِ الرياضِ نضارةٌ
٣٠١	أبو تمام	(الغررُ)	فأصبحت غرر الأيام مشرقةً
٢٤	أبو العتاهية	(حوافرُه)	وزحف له تحكي البروق سيوفه

(ر)

٢٠	مروان بن أبي حفصة	(الْأَبَاعِرُ)	زوامل للأشعار لا علم عندهم
٢٠	مروان بن أبي حفصة	(الْفَرَائِرُ)	لعمرك ما يدري البعير إذا غدا
٢٣	تميم بن مقبل	(بِالْحَجَرِ)	وللفؤادِ وجيبٌ تحت ابهره
٣٩	سعيد بن الشاه	(مَرَمَرُ)	ورمانة شبهتها إذ رأيتها
٣٩	سعيد بن الشاه	(مُعْصَفَرُ)	منمنمة صفراء نضد حولها
٦٨	ابن الرومي	(بِالْبَصَرِ)	ما أنس لا أنس خبازاً مررت به
٦٨	ابن الرومي	(كَالْقَمَرِ)	ما بين رؤيتها في كفه كرةٌ
٦٨	ابن الرومي	(بِالْحَجَرِ)	إلا بمقدار ما تنداح دائرةٌ
٦٨	ابن الرومي	(الشعرُ)	أولُ بدءِ المشيبِ واحدةٌ
٦٨	ابن الرومي	(الشررُ)	مثل الخريف العظيم تبدأه

٧٧	ابن لنك	(الصُورِ)	إذا أخو الحسن اضحى فعله سمجاً
٧٧	ابن لنك	(الضُرِّ)	وهبه كالشمس في حسنٍ أَلَمْ ترنا
١١٨	—	(عَنْبَرِ)	انظر إليه كزورقٍ من فضةٍ
١٢٨	الخنساء	(الفَخْرِ)	جارى أباه فأقبلاً وهما
١٦٥	—	(الفَقْرِ)	لا تعجبوا من بلى غلالته
٢٠٨ ، ٢٠٥ ، ١٨٨	ابن المعتز	(كالدانيرِ)	سالت عليه وجوه الحي حين دعاً
٢٠٥	محمد بن يزيد بن	(مُخاطرِ)	عودته فيما أزور حبابي
٢٠٥	مسلمة بن عبد الملك		
	محمد بن يزيد بن	(الزَّائِرِ)	وإذا احتبى قربوسه بعنانه
	مسلمة بن عبد الملك		
٢٠٦	ثعلبة بن صغير	(هاتِرِ)	ولرب خصم جاهدين ذوي شذا
٢٠٦	ثعلبة بن صغير	(ظاهِرِ)	لُدَّ ظأرتهم على ما ساءهم
٢٠٧	ابن المعتز	(صَدْرِي)	يُنَاجيني الإخلاف من تحت مطله
٢١٤	البحثري	(المُتَوَاتِرِ)	وأرى المنايا إن رأت بك شبيهةً
٢١٦	سعيد بن حميد	(نُذُورِي)	وعَدَ البدرُ بالزيارة ليلاً
٢٣٧	—	(بَكْرِ)	ينازعني ردائي عبدُ عمرو
٢٣٧	—	(بَشْطَرِ)	لي الشطرُ الذي ملكت يميني
٢٤٢	ديك الجن	(النُّوَارِ)	لما نظرت إليَّ عن حدقِ المها
٢٤٢	ديك الجن	(الزُّنَّارِ)	وعقدت بين قضيب بان أهيف
٢٤٢	ديك الجن	(النَّارِ)	عَفَرْتُ خذي بالثرى لك طائِعاً
٢٦٥	الشريف الرضى	(المَازِرِ)	يَحِنُّ إلى ما تضمن الخُمُرُ والحلَى
٢٩١	—	(الشُّكْرِ)	ولا عيب في معروفهم غير أنه
٢٩٥	—	(أَمطارِ)	ولما نعى النَّاعِي سألناه خشيةً
٢٩٥	—	(فَخَّارِ)	أجاب: قضى قُلْنَا له: حاجة العُلا
٣٠٣	أبو العلاء المعري	(الشَّعْرِ)	والحُسْنُ يظهر في بيتين رونقُهُ

(د)

٢٤	امرؤ القيس	(القَطْرُ)	كأن المدام وصوب الغمام
٢٤	امرؤ القيس	(المُسْتَحِرُّ)	يُعلُّ به بَرْدُ أنيابها
٤٤	—	(حمارِ)	بل لو رأنتي أخت جيراننا
٢٠٦	ابن المعتز	(الإبصارِ)	حتى إذا ما عرف الصيدُ أنصارُ

(سُ)

٤٤	نو الرمة	(الحناسُ)	ورمل كأوراق العذارى قطعته
	—	(أسُ)	لا يكن عهدك ورداً
٢٧٩	—	(حابِسُ)	وأصدعُ شكِّي باليقين وإنني

(س)

١٤٤	الخطيئة	(الكاسي)	دع المكارم لا ترحل لبغيتها
١٦٥	—	(نفسِي)	قامت تظللني من الشمس
١٦٥	—	(الشمسِ)	قامت تظللني ومن عجب
٢٨٥	ابن دانيال	(إفلاسي)	يا سائلي عن حرفت في الوري
٢٨٥	ابن دانيال	(النَّاسِ)	ما حالُ من درهمُ إنفاقه
٢٩٣	—	(أنسِ)	جاعني ابني يوماً وكنت أراه
٢٩٣	—	(نَفْسِي)	قال ما الروح قلت إنك رُوحِي
	ابن المعتز	(غَرْسِه)	وإنَّ من أدبته في الصبا
	ابن المعتز	(يَيْسِه)	حتى تراه مورقاً ناضراً

(ض)

١٢٧	الأشعر الجعدي	(مضى)	هل بان قلبك من سليمي فاشتفى
-----	---------------	-------	-----------------------------

(ض)

٣٨	خالد الكاتب	(بعضِ)	عشية حيَّاني بوردي كأنه
----	-------------	--------	-------------------------

(ع)

١٥٩	—	(مربعاً)	المّا على معنٍ وقولا لقبره
٣٠٤	أبو الطيب المتنبي	(الوقوعاً)	مُنْعَمَةٌ مُمْنَعَةٌ رِدَاحُ
٦٦ ، ٥٣	القاضي التنوخي	(الرَّفْعَةُ)	كأنما المريخ والمشتري
٦٦ ، ٥٣	القاضي التنوخي	(شَمْعَةٌ)	منصرفٌ بالليل عن دعوةٍ

(غ)

٣٥ ، ٣٤ ، ٣٢	القاضي التنوخي	(ابتدأُ)	كأنَّ النجوم بين دجاها
٣٤	القاضي التنوخي	(ودأُ)	ربُّ ليل قطعته كصدودٍ
٣٥	القاضي التنوخي	(الأسماُ)	موحشٌ كالثقلِ تقذى به العينُ
٣٥	القاضي التنوخي	(انقطاعُ)	مشرقات كأنهن احتجاجُ
٥٧	الشريف الرضي	(تَضَعُ)	أرسي النسيم بواديكم ولا برحت
٥٧	الشريف الرضي	(الهمُ)	ولا يزالُ جنينُ النبت ترضعه
٨٧	الأعشى	(كَرَعُ)	تقصُ السفينُ بجانبيه كما
	النايفة	(واسعُ)	فإنك كالليل الذي هو مدركي
١٢٧	عمرو بن معدي كرب	(هجوُ)	أمن ريحانة الداعي السميع
١٣٠	—	(تمصُ)	بها ضُربُ أذنان العطاء كأنه
١٦٩	مسكين الدارمي	(مُقَنِّعُ)	لحافي لحاف الضيف وبיתי بيته
١٦٩	مسكين الدارمي	(يَهْجُ)	أحدثه إنَّ الحديث من القرى
١٨٠	—	(لا تنفُ)	وإذا المنية أنشبت أظفارها
٢٥٢	نو الرمة	(مُولُ)	عشية مالي حيلة غير أنني
٢٥٢	نو الرمة	(وُقِعُ)	أخط وأمحو الخط ثم أعيده
٣٠١	أبو نواس	(ربيعُ)	عباس عباس إذا احتدم الوغى

(ع)

٣٦	ابن طباطبا	(وُقُوعُ)	كأنَّ انتضاء البدر من تحت غيمةٍ
١٢٧	—	(أربُعُ)	فأنتك والله السوابق بعدها
٣١٠	المغيرة بن عبد الله الأقيشر	(يسريعُ)	سريعٌ إلى ابن العم يلطمُ وخذه (يسريعُ)

(ف)

٦٩	—	(التَّلَفَا)	إني وأياك كالصادي رأى نهلاً
٦٩	—	(مُنْصَرَفَا)	رأى بعينيه ماءً عزَّ مورده
٢١٤	أبو تمام	(كَفَى)	نامت همومي عني حين قلت لها

(ف)

٣١ ، ٢٣	الحارث بن سعيد التغلبي	(أَلَفُ)	غزالُ فوق ما أَصْفُ
٢٩٧	—	(مَرَشَفُ)	عُيُونُ وَأَصْدَاغُ وَفَرَعُ وَقَامَةٌ
٢٩٨	—	(وَقَرَقَفُ)	سُيُوفُ وَرِيحَانُ وَلَيْلُ وَبَانَةٌ
٣٠٥	الأحنف	(حَتَفُ)	حُسَامُكَ فِيهِ لِلأَحْبَابِ فَتْحُ
١٢١	ابن الرومي	(شَرَفُهُ)	دهرٌ علا قدرُ الوضيع به
١٢١	ابن الرومي	(جِيفُهُ)	كالبحر يرسب منه لؤلؤه

(ف)

٢٥٥	أبو نواس	(قَفِي)	ولمَّا شربناها ودب دبيبها
٢٩٥	—	(طَرِيفُ)	أيا شجر الخابور مالك مورقاً
٣٠٣	البحري	(شَافُ)	ألفات من تلاقى تلاف
٣٠٤	البحري	(الصَّوَادِفُ)	لئن صدفت عناً فربةً أنفُسِ

(ق)

٣٦	التنوخي	(اتَّقَا)	فانهض بنارٍ إلى فحم كأنهما
٢٥٩	التنوخي	(عَشَقَا)	جاءت ونحن كقلب الصبِّ حين سلا
	العباس بن الأحنف	(رَزَقَا)	أنا لم أرزق محبتها

٣٥	الصاحب بن عباد	(مُشْتَاقَهُ)	يا أيها القاضي الذي نفسي له
٣٥	الصاحب بن عباد	(أَخْلَاقَهُ)	أهديتُ عطراً مثل طيب ثنائهِ

(ق)

٦٢ ، ٣١ ، ٢٥	ابن المعتز	(عَقِيقُ)	كأن عيون النرجس الغض حولنا
٧٥	—	(مُنْطَلَقُ)	لا يَألف الدرهم المضروب صررتنا
٧٨	البحترى	(وَرَوْنَقُ)	ضحوك إلى الابطال وهو يروعهم
١٢٠	أحمد بن أبي بغل	(يَتَسَقُ)	المرءُ مثلُ هلالٍ حين تُبْصِرُهُ
١٢٠	أحمد بن أبي بغل	(يَنْمَحِقُ)	يزدادُ حتى إذا ما تَمَّ أعقبه
١٢١	أبو أمامه	(يُفَرِّقُ)	وإنَّا وما تلقى لنا إن هجوتنا
٢٨١	—	(خُلُقُوا)	خُلُقُوا وما خلُقوا لمكرمة
٢٨١	—	(رُزِقُوا)	رُزِقُوا وما رُزِقُوا سماح يدٍ
٢٨٥	نصير الدين الحمامي	(يَعُوقُ)	أبيات شعرك كالقصور
٢٨٥	نصير الدين الحمامي	(رَقِيقُ)	ومن العجائب لفظها

(ق)

٣٥ ، ٣٣	أبو طالب الرقي	(يَعْشَقُ)	ولقد ذكرتكَ والظلام كأنَّه
٥٣	ابن المعتز	(شَفَقُ)	كأنَّه وكان الكأس في فمه
٦٦ ، ٥٣	ابن المعتز	(شَفَقُ)	كأنَّه وكان الكأس في يده
٥٤	أبي طالب الرقي	(أَزْرَقُ)	وكان أجرام النجوم لوامعاً
١٢٨	امرؤ القيس	(تَرْتَقِي)	ورحنا بكابن الماء يجنب وسطنا
	امرؤ القيس	(مُحَلَّقُ)	كان غلامي إذا علا حال متنه

(ق)

٨٢	ابن المعتز	(أَفُقُ)	غدوت في ثوبٍ من الليل خلق
٨٢	ابن المعتز	(يَعْلَقُ)	ذي منسرٍ أقنى إذا شك خرق
٨٢	ابن المعتز	(رَمَقُ)	فكل عظم مفصل إذا علق
٨٢	ابن المعتز	(يَنْفَقُ)	كأنها نرجسة بلا ورق

(ك)

٧٣	الرافعي	(وَنَسَاكَ)	يا من على الحب ينسانا ونذكره
٧٣	الرافعي	(أَخْفَاكَ)	إن الظلام الذي تجلوه يا قمرُ
٢٨٠	دعبل الخزاعي	(فَبَكَى)	لا تعجبي يا سَلَمٌ من رجلٍ

(ك)

٢٣	ذو الرمة	(اللَوَائِكِ)	كَأَنَّ عَلَى أُنْيَابِهَا كُلِّ سَحَرَةٍ
----	----------	---------------	---

(ل)

٤٩ ، ٢٩	أبو بكر الخالدي	(وَمَنَالَا)	يا شببيه البدر حسناً
٤٩ ، ٢٩	أبو بكر الخالدي	(وَاعْتَدَالَا)	وشببيه الغصن ليناً
٦٧ ، ٣٩	أبو فراس الحمداني	(فَصْلَا)	والماء يفصل بين زهر الروض
٦٧ ، ٣٩	أبو فراس الحمداني	(نَصْلَا)	كبساط وشيٍ جردت
٤٩	أبو بكر الخالدي	(وَمِلَالَا)	أنت مثل الورد لوناً
٤٩	أبو بكر الخالدي	(زَالَا)	زاد ناحتي إذا ما
٥٠	—	(الْفَزَالَا)	مرت بنا رأد الضحى
٦٩	المتنبي	(عليلا)	يطأ الثرى مترقفاً من تيهه
١١٩	أبو تمام	(شَمَانَلَا)	لهفي على تلك الشواهد منها
١٢٠	أبو تمام	(نَائِلَا)	لغدا سكونهما حجى وصباهما
١٢٠	أبو تمام	(كاملَا)	إنَّ الهلال إذا رأيت نُموهُ
١٢٢	ابن الرومي	(صَقِيلَا)	فبذات نفسك ما يكون بهاؤُها
١٦٩	بشاعة بن عمرو	(صَلِيلَا)	ومن نسج داوود موضونة
٢١٥ ، ١٦٩	المتنبي	(مُحُولَا)	في الخدِّ إن عَزَمَ الخَليط رَحِيلاً
١٩٤	المتنبي	(وَالنِيلَا)	وَرَدُّ إِذَا وَرَدَ الْبُحِيرَةُ شَارِبَا
٢٠١	المتنبي	(الزَّلَالَا)	ومن يك ذا فمٍ مر مريض
٢١٦	المتنبي	(الْحَجَالَا)	وحجبت النوى الظليبات عَنِّي
٢٥٦	أبو العلاء المعري	(السَّلَالَا)	سَلِيلُ النَّارِ دَقُّ وَرَقٍّ حَتَّى

٢٨١	المتنبي	(خُمُولاً)	فلقد عرفت وما عُرِفَتْ حَقِيقَةُ
٢٨٣	البحري	(ذَلِيلًا)	فإِذَا حَارَبُوا أَذَلُّوا عَزِيزًا
٨٨	حسان بن ثابت	(نَزُولَهَا)	وَقَافِيَةٍ عَجَتْ بَلِيلَ رَزِينَةٍ

(ج)

٣٧	جندح المري	(القنَادِيلُ)	نجومه رُكْدٌ ليست بَزَائِلَةٌ
٧٣	أبو العلاء المعري	(المتَطَوَّلُ)	وإن كنت تبغي العيش فابِغِ توسطاً
٧٣	أبو العلاء المعري	(كَوَامِلُ)	توفى البدر النقص وهي أهْلَةٌ
٨٥	ابن بابك	(وَيَفْعَلُ)	ورأكَ للتشريف أهلاً فاجتبي
١٢٠ ، ٨٥	ابن بابك	(يَكْمُلُ)	وأعرت شطر الملك ثوب كماله
١٣٠	الشمخ	(الثَّالِثُ)	كأنما منثنى اقماع ما مرطت
١٤٩ ، ١٤٥	الفرزدق	(ارْعَلُ)	يحمي إذا اخترط السيوف نساغاً
١٤٩	محمد اليزيدي	(المَثَلُ)	وصيرني هواك وبني
١٦٠	السموأل	(تَسِيلُ)	تسيل على حدّ الظلمات نفوسنا
٢٠٧	أبو تمام	(العملُ)	لا يطمع المرء أن يجتاب لُجَّتَهُ
٢٠٩	ثعلب	(الرحلُ)	فوضعتُ رحلي فوق ناجيةٍ
٢١٠	—	(أَقُولُ)	عزماته مثل النجوم ثواقباً
٢١٣	أبو خراش	(السَّلَاسِلُ)	فليس كعهد الدار يا أم مالك
٢٥١	المتنبي	(النَّحْوُ)	تشتكي ما اشتكت من ألم الشوق
٢٥١	المتنبي	(مَلَامُ)	إلى كم تُردُّ الرُّسل عما أتوا له
٢٨٠	طفيل الغنوي	(مَبْذُولُ)	بِسَاهِمِ الوجه لم تَقْطَعْ أَبَاجِلُهُ
٢٨١	السموأل	(نَقُولُ)	وننكر إن شئتَنا على الناس قولهم
٢٨٥	بدر الدين الذهبي	(أَسْأَلُ)	يا عاذلي فيه قُلْ لي
٢٨٥	بدر الدين الذهبي	(يَحْلُو)	يَمُرُّ بي كُلُّ وقتٍ
٣٠١	—	(سَبِيلُ)	وسميته يحيى ليحيا فلم يكن
٣٠١	أبو سعيد المخزومي	(قَتَالُ)	حَدَقُ الأَجَالِ آجَالُ
٣٠٢	—	(مَالُ)	رأيتُ الناس قد مالوا
٣٠٢	—	(مَالُوا)	ومن لا عنده مال
٣١٠	أبو العلاء المعري	(فَاضِلُ)	فوا عَجَباً كم يدَّعي الفضل ناقصٌ
١٤	أبو تمام	(سَاحِلُهُ)	هو البحر من أي النواحي أتيتَه
٤٥	جرير	(بَاطِلُهُ)	زيوم كإبهام القطاة مزينٍ

٤٥	جرير	(وَحَبَّائِلُهُ)	رزقنا به الصيد الغرير ولم نكن
٤٥	جرير	(عَاذِلُهُ)	وذلك يومٌ خيرُه دون شرِّه
٧٢ ، ٦٥ ، ٦٢	ابن المعتز	(قَاتِلُهُ)	اصبر على مضض الحسود
٧٢ ، ٦٥ ، ٦٢	ابن المعتز	(تَأْكُلُهُ)	فالنار تأكل نفسها
٢٤٤	زهير بن أبي سلمى	(بَاطِلُهُ)	وَذِي نِعْمَةٍ تَمَمْتُهَا وَشَكَرْتُهَا
٢٤٤	زهير بن أبي سلمى	(مَقَاصِلُهُ)	دفعت بمعروف من القول صائب
٢٤٤	زهير بن أبي سلمى	(قَائِلُهُ)	وذي خطلٍ في القول يحسب أنه
٢٤٤	زهير بن أبي سلمى	(مَقَاتِلُهُ)	عبأت له حلماً وأكرمت غيره

(ل)

٢٥٠ ، ١٤	إبراهيم بن هرمة	(الْأَجَلِ)	لا أمتعُ العوذ بالفصال
١٤٩ ، ١٥	إبراهيم بن هرمة	(الْفَصِيلِ)	وما يك في من عيب فإني
٣١ ، ٢٢	الطغرائي	(وَكَلِ)	وذي شطاط كصدر الرمح معتقلٍ
٢٣	امرؤ القيس	(بِقَتَالِ)	يغطُّ غطيظُ البكر شدَّ خناقَه
٢٥	امرؤ القيس	(أَغْوَالِ)	ايقتلني والمشرقي مضاجعي
٣٧	ابن الرومي	(سَيْلِ)	حبرُ أبي حفصٍ لعابُ الليل
٣٧	ابن الرومي	(كَيْلِ)	
٣٨	ابن المعتز	(بِخَالِ)	غلالة خده صبغت بورد
٤٣	امرؤ القيس	(جَنْدَلِ)	كأنَّ الثريا علقت في مصامها
١٢٣ ، ٤٣	امرؤ القيس	(بِيذْبُلِ)	فيالك من ليلٍ كأنَّ نجومه
٤٣	امرؤ القيس	(مَزْمَلِ)	كأنَّ اباناً في أفانين ودقه
٥١	—	(كَالْيَالِي)	صدغُ الحبيب وحالي
٥١	—	(كَالْأَلِي)	وثغره في صفاء
١٢٤ ، ٥١	امرؤ القيس	(الْبَالِي)	كأنَّ قلوب الطير رطباً ويابساً
١٢٣ ، ٦٩	امرؤ القيس	(لِيِبْتَلِي)	وليلٍ كموج البحر أرخى سدوله
٢٧٠ ، ١١٦ ، ٧٨ ، ٧٤	المتنبي	(الْغَزَالِ)	فإن تفق الأنام وأنت منهم
٧٥	أبو تمام	(الْعَالِي)	لا تنكري عطل الكريم من الغنى
١٢٢	أبو تمام	(بِصْقَالِ)	والسيف ما لم يُلف فيه صيقلُ
٢٠٨ ، ١٢٣	امرؤ القيس	(بِكُكَّالِ)	فقلت له لما تمطى بصلبه
١٢٣	امرؤ القيس	(بِأَمَثَلِ)	ألاأيها الليل الطويلُ ألا انجلي
١٢٤	امرؤ القيس	(حَالِ)	سموت إليها بعد ما نأه لها

١٧٨	امرؤ القيس	(هَيْكَل)	وقد اغتدي و الطيرُ في وكناتها
٢٣٧ ، ٢٠٩	كثير	(المال)	غَمَرُ الرداء إذا تبسم ضاحكاً
٢٣٠	—	(الرَّجُل)	يموتُ الفتى من عَثْرَةٍ بلسانه
٢٥٠	المتنبي	(البُخْل)	أُلسْتُ من القوم الألى من رماحهم
٢٥٤	—	(الذُّيُول)	كتب القتل والقتال علينا
٢٥٧	—	(المَقْل)	لا ينزل المجدُ إلّا في منازلنا
٢٧١	البحري	(يتحوّل)	أوماً رأيت المجد ألقى رَحْلَهُ
٢٨٣	جرير	(بِشْمَالِهِ)	وباسط خير فيكم بيمينه
٢٨٣	أبو دلامة	(بِالرَّجُل)	ما أحسنَ الدين والدنيا إذا اجتمعا
٢٨٧	—	(الْخَجَل)	ما قصرَ الغيثُ عن مصرٍ ترتبها
٣٠٤	حسان بن ثابت	(القنابِل)	وكُنّا متى يغزُ النبي قبيلة
٣٠٣	البحري	(شَمُول)	نسيمُ الروض في ريح شمالٍ

(ج)

٢٩	السري الرفاء	(الأسْلُ)	مفتولةٌ مجدولةٌ
٤٠	ابن بابك	(المناصِلُ)	فما سيلٌ تخلصه المحاني
٨٣	—	(الجَبَلُ)	والشمس كالمرآة في كف الأشل
٢١١	—	(وَصَلُ)	لا تقل ذهباً أربابُهُ

(م)

١٥	مسلم بن الوليد	(ظلاماً)	تظلمَ المالُ والأعداء من يده
٣٧	ابن المعتز	(مُعْلَمًا)	فخلتُ الدجى والفجرُ قد مد خيطه
١٢٠	أبو بكر الخوارزمي	(لِماماً)	أراك إذا أعسرت خيَمت عندنا
١٢٠	أبو بكر الخوارزمي	(اقاماً)	فما أنت إلا البدر إن قلَّ ضوءه
١٢١	الغزي	(طمأً)	هو البحر لا يأس من دره
١٨٣	ابن المعتز	(مَراماً)	إذ تروم الثريا
١٨٣	ابن المعتز	(اللَّجاماً)	ككَب طمرٍ
١٨٤	البحري	(يَتَكَلَّمًا)	أذاك الربيع الطلق يختال ضاحكاً
١٨٤	البحري	(نُومًا)	وقد نبه النوروز في غلس الدجى

١٨٤	البحري	(مُكْتَمًا)	يفتقها بردُ الندى فكأنه
٣٠٤	عبد الله بن رواحة	(الظُلْمًا)	وتحملةُ الناقةِ الأدماءُ مُعْجَرًا

(م)

٢٠	المتنبي	(الكَرْمُ)	كم تطلبون لنا عيباً فيعجزكم
٢٠	المتنبي	(الهِرْمُ)	ما أبعد العيب والنقصان عن شيمي
٧٤	المتنبي	(الْجَهَامُ)	ومن الخير بقاءُ سيبك عني
١١٦ ، ٧٨ ، ٧٤	—	(الرُّغَامُ)	وما أنا منهم بالعيش فيهم
٧٥	—	(ايلامُ)	من يهن يسهلُ الهوانُ عليه
٧٥	ابن الرومي	(أَلِيمُ)	ويلاه إن نظرت وإن هي اعرضت
١١٨	—	(تَلَطُّمُ)	وإذا أشار محدثاً فكأنه
١٢١	ابن الرومي	(مُبْرَمُ)	فتى عزمه سيفُ حسامٍ وسيفه
١٤٦	المتنبي	(وَيُهِرَمُ)	والهم يخترمُ الجسيمُ نحافة
٢٧٢	—	(السَّلَامُ)	ألا يا نخلةً من ذات عرقٍ
٢٨١	البحري	(أَعْلَمُ)	يقيضُ لي من حيث لا أعلمُ الهوى
٨٤	المتنبي	(خَاتَمُهُ)	بليت بلى الأطلال إن لم أقف بها

(م)

١١٧ ، ٢٨ ، ٢٧	البوصيري	(يَنْفَطِمُ)	والنفسُ كالطفلٍ إن تهمله
٢٨	البوصيري	(الْحَزْمُ)	كانهم في ظهور الخيلِ نبتُ ربي
٥٠	أحمد شوقي	(بِالْعَلَمِ)	لما خطرت به التفوا بسيدهم
٥٧	أحمد شوقي	(اللَّجْمُ)	جبت السماوات أو ما فوقهن بهم
٨٥	ابن الرومي	(التعظيم)	ثم حاولت بالثقييل تصغيري
٨٥	ابن الرومي	(التَضْرِيمُ)	كالذي طأطأ الشهاب ليخفي
١١٧	عنتره	(الْأَسْحَمُ)	فيها اثنتان وأربعون حلوبةً
	عدي بن الرقاع	(جاسم)	وكانها بين النساءِ اعارها
	عدي بن الرقاع	(بِنَانُمُ)	وسنانُ أقصده النعاسُ فرنقت
١٢٩	عنتره	(المترنم)	وخلأ الذبابُ بها فليس ببارحٍ
١٢٩	عنتره	(الأجذم)	هَزَجاً يحك ذراعه بذراعه

١٣٠	النابعة الجعدي	(المُسَهَّم)	رمى ضرع نابٍ فاستقلَّ بطعنة
١٤٨	الفرزدق	(المَلَأَغَم)	سقاها خُرُوقٍ في المِسامعِ لم تَكُنْ
١٥٩	عنتره	(بِمُحَرَّم)	فشككت بالرمح الأصم ثيابه
١٩١	ابن المعتز	(تَتَكَلَّم)	اشارت بطرف العين خيفة أهلها
١٩١	ابن المعتز	(الْمُتَيَّم)	فأيقنت أَنَّ الطَّرْفَ قد قال مرحباً
٢٠٠	—	(حَذَام)	إذا قالت حذام فصَدَّقوها
٢٠٢	عمر بن أبي ريشة	(لِلْعَلَم)	أمتي هل لك بين الأمم
٢٠٨	ربيعة الرقي	(نَعَم)	قُولي نَعَمْ، ونَعَمْ إن قلت واجبةٌ
٢١٤	المتنبي	(هَرَم)	أتى الزَّمانُ بنوه في شيبته
٢١٧	زهير بن أبي سلمى	(قَشَعَم)	فشدَّ ولم يُفزعُ بيوتاً كثيرة
٢١٧	زهير بن أبي سلمى	(تُقَلِّم)	لدى أسد شاكي السلام مقذف
٢٥٠	—	(مُبْتَسِم)	لا يرفع الضيف عينا في منازلنا
٢٧١	المتنبي	(ضَيْغَم)	رحلتُ فكم باكٍ بأجفانٍ شادنٍ
٢٧٢	المتنبي	(المُصَمِّم)	وما ربةُ القُرطِ المليح مكانه
٢٧٢	المتنبي	(مُعَمِّم)	فلو كان ما بي من حبيبٍ مقنَّعٍ
٢٧٢	المتنبي	(أَسْهَمِي)	رمى واتقى رميي ومن دون ما
٢٧٢	المتنبي	(تَوْهَم)	إذا ساءَ فِعْلُ المرءِ ساءَ ظَنونه
٢٩١	صفي الدين الحلي	(والْحَشَم)	لا عيب فيهم سوى أن النزيل بهم
٣٠١	المتنبي	(النِّظَام)	لسيف الدولة اتسقت أمورُ
٣٠١	المتنبي	(وَحَام)	سما وحمى بني سام وحامٍ
٢١٧	بدر بن يوسف الذهبي	(هَمَّة)	هَلُمَّ يا صَاحِ إلى رَوْضَةٍ
٢١٧	بدر بن يوسف الذهبي	(كُمَّة)	نسيمها يعثرُ في ذيله

(م)

٥٢	المرقش الأكبر	(عَم)	النشرُ مسكٌ والوجوه دنانيرُ
٢٠٠	الإمام الشافعي	(النَّعَم)	أأنثرُ دُرّاً بين سارحة الغنم
٢٩٦	—	(تَرَاكُم)	إنَّ للوجد في فؤادي تراكم
٢٩٦	—	(هَوَاكُم)	في هواكُم يا سادتي متٌ وجداً
٣٠٢	—	(بُغْضِهِم)	إذا رماكَ الدهر في معشرٍ
٣٠٢	—	(أَرْضِهِم)	فدارهم ما دمت في دارهم

(ن)

٤٢	أبو نواس	(العيونا)	فإذا ما اجتليتها فهباء
٤٢	أبو نواس	(المكنونا)	أكل الدهرُ ما تجسم منها
٤٢	أبو نواس	(يكونا)	فهي بكرٌ كأنها كلُّ شيءٍ
٤٣	أبو نواس	(ايدينا)	في كؤوسٍ كأنهنَّ نجوم
٤٣	أبو نواس	(فيينا)	طالعاتٍ مع السقاة علينا
١٢٧	عمرو بن كلثوم	(الأندرينا)	ألا هبي بصحنك فأصبحينا
	بشار	(احيانا)	يا قومُ أنني لبعض الحيِّ عاشقة
	بشار	(كانا)	قالوا لمن لا ترى تُهدي فقلت لهم
١٤٦	—	(المُحامونا)	إننا لمن معشرٍ أفنى أوائلهم
٢١٦ ، ٢٠٤ ، ١٨٢ ، ١٧٣	—	(وَوُحْدَانَا)	قومٌ إذا الشرُّ أبدى ناجذيه لَهُمْ
١٧٣	عمرو بن كلثوم	(يلينا)	وقد هرتُ كلابُ الجنِّ منَّا
١٧٦	عمرو بن كلثوم	(تَشْتُمُونَا)	نَزَلْتُمْ منزلَ الأضيافِ منا
١٧٦	عمرو بن كلثوم	(طَحُونَا)	قريناكم فجعَلنا قِرَاكم
٢٦٠ ، ٢٥٩ ، ٢٥٢	—	(بُرْهَانَا)	لا يسألون أخاهم حين يندبهم
٢٥٥	—	(الأضغان)	الضاريين بكل أبيض مُخْذَم
٢٦٠	—	(شَيَّيَانَا)	لو كنت من مازنٍ لم تستبح إبلي
٢٦٠	—	(لَنَا)	إذا لَقَامَ بنصري معشر خشن
٢٦٠	—	(وَوُحْدَانَا)	قومٌ إذا الشرُّ أبدى ناجذيه لَهُمْ
٢٩١	ابن نباتة المصري	(مَوْطِنَا)	ولا عيب فيه غير أنني قَصَدْتُهُ
٢٩٤	—	(كَانَا)	ولقد أتيت لصاحبي وسألتهُ
٢٩٤	—	(إِنْسَانَا)	فأجابني والله داري ما حَوَتْ
٣٠٢	أبو الفتح البُستي	(لَنَا)	كلكم قد أخذ الجأَم
٣٠٢	أبو الفتح البُستي	(جَامَلْنَا)	ما الذي ضرَّ مُديرَ
٣٠٢	أبو العلاء المعري	(إِنْسَانَا)	لم نلق غيرك إنساناً بلأذبه
٢٨٩	أبو هلال العسكري	(لِسَانُهُ)	زعمَ البنفسجُ أنه كعذاره

(ن)

٢٧	أبو العلاء المعري	(دُخَانُ)	وكانار الحياة فمن رمادٍ وأخرها
----	-------------------	-----------	--------------------------------

٣٨	أبو نواس	(عيون)	لدى نرجسٍ غُضِّ القُطافُ كأنه
١١٧	—	(جبين)	ما العمرُ إلا ليلةٌ
٢٩٢	—	(الهوان)	لئيمِ الطُّباعِ سوى أنَّه
٢٩٦	—	(فنون)	طويت بإحرازِ الفنونِ ونيلها
٢٩٦	—	(جنون)	فحين تعاطيتِ الفنونِ وحظَّها
٢٨٤	—	(يشينه)	على رأسِ عبدٍ تاجٌ عزَّ يزينه

(ن)

٧٥	—	(الكفن)	لا يعجبَنَ مضيماً حسنُ بَرتِه
٧٩	أبو الحسن بن مقله	(واتاني)	لستُ ذا ذَلَّةٍ إِذا عَضَنِي الدهرُ
٧٩	أبو الحسن بن مقله	(الإخوان)	أنا نارٌ في مرتقىِ نظرِ الحاسدِ
٨١	امرؤ القيس	(بدخان)	جمعتُ رديناً كأنَّ سَنانَه
٨٣	المعري	(الغضبان)	يسرعُ الملحُ في احمرارٍ كما
٨٢	ابن المعتز	(بجفون)	فجاعتُ بها في كَأْسِها ذهبيَّةٌ
١١٧	بشار	(خيزران)	إذا قامتُ لمشيَّتِها تَنَت
١٢٦	النَّمري	(تراني)	لو كنتُ بالعنقاءِ أو بأسومها
١٢٨	—	(ثمان)	ألا يا ديارَ الحيِّ في البردانِ
١٢٨	—	(دقان)	فلم يبقَ منها غيرُ نَوِيٍّ مهدمٍ
١٢٨	—	(مكان)	وأثارُ هابٍ أوراقِ اللونِ سافرت
١٢٩	—	(يعتركان)	قفارُ مَروَراتٍ يحارُّ بها القُطا
١٢٩	—	(يرتديان)	يثيرانِ من نسجِ العجاجِ عليهما
١٥٩	ابن الزيات	(تنسكبان)	ألا من رأى الطُفْلَ المَفارِقَ أمه
١٥٩	معن بن أوس المزني	(رمانِي)	أعلمه الرماية كل يومٍ
١٥٩	معن بن أوس المزني	(هجانِي)	وكم علمته نظمَ القوافي
٢٠٦	معن بن أوس المزني	(وان)	بِعِرضِ تنوِّفٍ للرَّيحِ فيها
٢١٠	أبو دلامة	(باليدِين)	أرى الشهباءَ تَعَجِّنُ إذ غَدونا
٢٥٥	—	(كالأشطانِ)	والقادسية حيث زاحمُ رستمُ
٢٥٥	—	(الكتمانِ)	قومٌ تَرى أرماحهم يومَ الوغى
٢٨٤	—	(بالجبنِ)	أقولُ وقد شَدَّوا إلى الحربِ غارَةً
٣٠٠ ، ٢٩٩	أبو الفتح البُستي	(أودعاني)	ناظرُهُ فيما جنى ناظرُهُ

(ن)

٢٩١

—

(وَالْوَطَنُ)

ولا عيب فيكم غير أنْ ضيوفكم

(هـ)

٦٨

أبو تمام

(شَجَاهَا)

ولم أفهم معانيها ولكن

٦٨

أبو تمام

(يَرَاهَا)

فبت كائنني أعمى معنى

١٢٨

عدي بن الرقاع

(نَسَجَاهَا)

يتعاوران من الغبار ملاءة

١٢٨

عدي بن الرقاع

(نَشْرَاهَا)

تطوى إذا وردا مكاناً جاسياً

١٣٠

عدي بن الرقاع

(مَدَّاهَا)

تزجي اغنْ كَأَنَّ إبرة رَوْقَه

١٣٠

جرير

(أَبْلَدَهَا)

عرف الديار توهماً فاعتادها

١٥٨

المتنبي

(أَعْدَدَهَا)

له أياد علي سابقة

١٨٦

ليبيد

(زَمَامُهَا)

وغداة رِيح قد كشفت ورقة

٢١٤

السري الرفاء

(سَطَّوْهَا)

وقد كتبت أيدي الربيع صَحَائِفاً

٢٦٥

المتنبي

(سَرَاوِيلَاتِهَا)

إِنِّي على شَغْفِي بِمَا فِي خُمْرِهَا

(هـ)

٢٩١

ابن الرومي

(نَقَمْتَه)

لما أطعناكم في سُخْط خالقنا

٣٠١

أبو تمام

(شَبَّهَهُ)

ليس به عيب سوى أَنَّهُ

(عَبَدَ اللَّهَ)

ما مات من كرم الزمان فإنه

(ي)

٢٦٢

الشَّمِيزُ الحَارِثِي

(الْقَوَافِيَا)

بني عَمْنَا، لا تذكروا الشعر بعدما

٢٨٠

—

(لِيَا)

علي أَنَّنِي راضٍ بِأَنْ أحمِلَ الهوى

٢٨٢

النابغة

(الْأَعَادِيَا)

فتى كان فيه ما يسر صديقه

٢٨٥

ابن الظاهر

(تَحِيَّة)

شكراً لنسمة أرضكم

٢٨٥

ابن الظاهر

(الذِّكْيَةُ)

لا غرورَ إِن حَفَظْتَ أَحَا

٢٨٨

ابن نباته

(الْثُرَيَّا)

وأدهم يستمدُّ الليل منه

٢٨٨

ابن نباته

(طَيِّبَا)

سرى خلف الصباح يطير زهواً

٢٨٨

ابن نباته

(الْمُحَيَّا)

فلما خاف وشك الفوت منه

٢٩١

النابغة الجعدي

(بَاقِيَا)

فتى كملت أخلاقه غير أَنَّهُ

فهرس القصائد

مطلع القصيدة	قافيتها	أسمها	القائل	الصفحة
١- عرضوا الأمان على الخواطر	الخَوَاطِرُ	—	أحمد شوقي	٣٢٣
٢- لمن تنجلي من بعيد	سعيد	—	أحمد شوقي	٣٢٤
٣- يا غاب بولون ولي	عهد	غاب بولينا	أحمد شوقي	٣٢٥
٤- قف بتلك القصور في اليم	بعضا	أنس الوجود	أحمد شوقي	٣٢٥
٥- بأي نول أنت ناسج بردة	يخلق	مُنَاجاة الليل	أحمد شوقي	٣٢٦
٦- أخوا الدنيا أرى دنياك أفعى	إهابا	ذكرى المولد	أحمد شوقي	٣٢٦
٧- يا نائح الطلح أشباه عوادينا	لوادينا	الأندلسية	أحمد شوقي	٣٢٧
٨- عادت أغاني العرس رجع	الافراح	خلافة الإسلام	أحمد شوقي	٣٢٧
٩- لمصر أم الربوع الشام تنتسب	الحسب	—	حافظ إبراهيم	٣٢٨
١٠- متى أرى النيل لا تجلو	مرتقب	—	حافظ إبراهيم	٣٢٨
١١- إن البلية أن تباع وتشتري	تنطقا	—	حافظ إبراهيم	٣٢٩
١٢- إن أرى الشمس تحت البحر	النار	—	الرافعي	٣٢٩
١٣- أرى الإنسان يطغى حين	الصعود	—	الرافعي	٣٢٩
١٤- يا رفاق الفكر أعيانا السرى	وبطاحا	يا رفاق الفكر	أبو سلمى	٣٣٠
١٥- فيا وطني لا تبرك الحزم	مناهل	—	شكيب أرسلان	٣٣٠
١٦- السيف أصدق انباء من	اللعب	—	أبو تمام	٣٣١
١٧- لكل شيء إذا ما تم نقصان	إنسان	—	أبو البقاء الرندي	٣٣٢
١٨- يا أخت أندلس عليك سلام	الإسلام	الأندلس الجديدة	أحمد شوقي	٣٣٣
١٩- أو ما لنا في المجد ألف	الأقلام	حوار أمام بوابة الهزيمة	العشماوي	٣٣٥
٢٠- لي في هواك مدائن ومرابع	تتدافع	قنادل على مآذن القدس	صالح الجيتاوي	٣٣٧

فهرس الأعلام

١- إبراهيم بن هرمة: ١٤، ١٥، ٢٤٩، ٢٥٠.

هو أبو اسحق إبراهيم بن علي بن سلمة الفهري المدني، شاعر زمانه، أحد البلغاء، من شعراء الدولتين الأموية والعباسية، توفي سنة ١٧٦هـ.

٢- ابن الأثير: ١٠، ٥٩، ٢٤٢، ٢٦٠، ٣٠٦.

هو نصر الله بن محمد الشيباني أبو الفتح ضياء الدين المعروف بابن الأثير الكاتب، ولد سنة ٥٥٨هـ في جزيرة ابن عمر، وتعلم بالموصل حيث نشأ أخواه، ولي الوزارة للملك السلطان صلاح الدين وهو قوي الحافظة يحفظ شعر أبي تمام والبحري وغيرهما. مات ببغداد سنة ٦٣٧هـ من كتبه: المثل السائر.

٣- أحمد أحمد بدوي: ١٠٧، ٢١٨، ٢٢٥، ٢٢٦.

٤- أحمد شوقي: ٥٠، ٥٧، ٢٢٩، ٢٤٨، ٢٥٤، ٣٢٣، ٣٣٣.

أحمد شوقي بن علي بن أحمد شوقي، أشهر شعراء العصر الأخير، ولقب بأمرهم، مولده ووفاته بالقاهرة عالج أكثر فنون الشعر، اتسعت ثروته وعاش مترفاً توفي سنة ١٣٥١هـ - ١٩٣٢م.

٥- أحمد الصاوي: ١٧٥.

أحمد بن محمد بن الخلوتي الصاوي، نسبة إلى قرية (صاء الحجر) من قرى إقليم الغربية بمصر، وكان فقيهاً مالكياً صوفياً تابعاً في سلوكه للشيخ أبي البركات الدوير، وله مؤلفات في الفقه والتصوف، لكن أشهرها هو حاشيته على تفسير الجلالين. كانت وفاته بالمدينة المنورة بعد أن أنهى حاشيته سنة ١٨٢٥م - ١٢٤١هـ.

٦- الأحنف بن قيس: ٢٠٥.

بن معاوية بن حُصَيْن التميمي، سيد تميم، وأحد العظماء الدهاء الفصحاء الشجعان الفاتحين، يضرب به المثل في الحلم توفي بالكوفة.

٧- أبو قيس بن الأسلت: ٢٢، ٦٢، ٨١.

لا يُعرف أسمه على وجه التحديد، سوى أنه عرف باسم أبي قيس، والأسلت لقب أبيه،

وأسمه عامره بن جُشم بن وائل بن الأوس بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن مالك ابن الأوس بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر، وأبو قيس شاعر جاهلي أسندت له الأوس حربها وجعلته رئيساً عليها، فكفى وساد وأسلم ابنه عقبة بن أبي قيس، واستشهد يوم القادسية.

٨- الأشعر الجعدي الجعفي: ١٢٧.

٩- ابن أبي الأصبع: ٢٧٦، ٣١٠، ٣١١، ٣١٢.

عبد العظيم بن عبد الواحد بن ظافر بن عبد الله بن محمد بن جعفر بن الحسن المصري المعروف بابن أبي الأصبع، أديب شاعر ولد بمصر وتوفي بها من آثاره بدائع القرآن توفي سنة ٦٥٤هـ.

١٠- الراغب الأصفهاني: ٩.

هو الحسين بن محمد أبو القاسم الأصفهاني، أديب من العلماء، سكن بغداد، من كتبه: المفردات، ومقدمة في التفسير، وله كذلك تفسير مخطوط توفي سنة ٥٠٢هـ.

١١- الأصمعي: ١١، ١٢٤، ١٢٩.

عبد الملك بن قريب بن علي بن أصمع الباهلي، أبو سعيد الأصمعي: رواية العرب، وأحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان توفي سنة ٢١٦هـ.

١٢- ابن الاعرابي: ٤٥.

محمد بن زياد المعروف بابن الاعرابي، أبو عبد الله، رواية نسابه، علامة باللغة، من أهل الكوفة، له عدة كتب منها معاني الشعر توفي سنة ٢٣١هـ.

١٣- الأعشى: ٨٧.

عامر بن الحارث بن رباح الباهلي بن همدان، شاعر جاهلي يكنى «أبا قحطان» أشهر شعره رائية له في رثاء أخية لأمه «المنتشر بن وهب» أوردها البغدادي برمتها، وقيل اسمه عمر.

١٤- الأفوه الأودي: ١٢٧.

صلاة بن عمرو بن مالك، من بني أود، من مزجج: شاعر يمني جاهلي، يكنى أبا ربيعة، توفي فيما يقرب سنة ٥٠ قبل الهجرة.

المغيرة بن عبد الله بن معرض الأسد، أبو معرض شاعر هجاء عالي الطبقة من أهل بادية الكوفة ولد في الجاهلية ونشأ في أول الإسلام عاش عمراً طويلاً وكان عثمانياً وأدرك دولة عبد الملك بن مروان وقتل بظاهر الكوفة خنقاً بالدخان نحو سنة ٨٠هـ، ولقب بالأقيشر لأنه كان أحمر الوجه أقشر، وكان يغضب إذا دعي به.

١٦- أبو أمامة مولى عبد القيس: ١٢١.

١٧- امرؤ القيس: ٢٣، ٢٤، ٢٦، ٤٣، ٥١، ٥٣، ٦٩، ٨١، ٨٨، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٨، ١٢٨، ١٧٨، ٢٠٨، ٢٤٥.

امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي من بني أكل المرار، أشهر شعراء العرب على الإطلاق، يمني الأصل مولده نجد، توفي حوالي سنة ٨٠ قبل الهجرة.

١٨- ابن الأنباري: ١٥، ١١٧.

القاسم بن محمد بن بشار الأنباري أبو محمد اديب، نحوي لغوي محدث، اخباري لقي سلمة وامثاله من اصحاب الفراء وجماعة من اللغويين، من تصانيفه خلق الإنسان وله شعر توفي سنة ٩١٦م - ٣٠٤هـ.

١٩- أبو حسن الأنباري: .

٢٠- ابن بابك: ٣٣، ٤٠، ٨٥، ١٢٠.

عبد الصمد بن منصور بن حسن بن بابك أبو القاسم شاعر مجيد مكث من أهل بغداد له ديوان شعر...! توفي ببغداد سنة ٤١٠هـ.

٢١- الباقلاقي: ٣٠٦.

محمد بن الطيب أبو بكر القاضي توفي سنة ٤١٣هـ من أهل البصرة، شيخ الأشاعرة في عصره، له كتب كثيرة منها إعجاز القرآن.

٢٢- البحتري: ١٩، ٣٦، ٣٩، ٥٠، ٧٤، ٧٨، ٨٥، ١٢٠، ١٢١، ١٨٤، ٢١٤، ٢٥٥، ٢٧١، ٢٨١، ٢٨٣، ٢٩٥، ٣٠٠، ٣٠٣، ٣٠٤.

الوليد بن عبيد بن يحيى الطائي أبو عبادة البحتري شاعر كبير يقال لشعره سلاسل الذهب ولد بمنبج... وتوفي سنة ٢٨٤هـ.

٢٣- بدر الدين بن مالك: ٢٧٦.

محمد بن محمد بن عبد الله بن عبد الله بن مالك، بدر الدين بن الإمام جمال الطائي الدمشقي، كان اماماً فهماً ذكياً، حاد الخاطر، اماماً في النحو والمعاني والبيان والبدیع والعروض والمنطق، جيد المشاركة في الفقه والأصول. مات سنة ٦٨٠هـ، ومن تصانيفه شرح الفية والده ابن مالك، شرح لاميته، المصباح في اختصار المفتاح في المعاني.

٢٤- بدر بن يوسف الذهبي: ٢١٧، ٢٨٥.

يوسف بن لؤلؤ بن عبد الله الدمشقي الذهبي (بدر الدين) من شعراء الدولة الناصرية بدمشق، وتوفي بها من آثاره ديوان شعر، ولد سنة (٦٠٧هـ - ١٢١٠م) وتوفي (٦٨٠هـ - ١٢٨١م).

٢٥- أبو الفتح البُستي: ٢٩٩، ٣٠٢.

علي بن محمد بن الحسين بن يوسف بن محمد بن عبد العزيز البُستي، شاعر عصره وكاتبه، ولد ببست قرب سجستان، وكان من كتاب الدولة السامانية في خراسان، توفي ٤٠٠هـ.

٢٦- بشار بن برد: ٤٢، ٥٤، ١١٧، ٢٠٧، ٢٧٥.

بشار بن برد العقيلي أبو معاذ أشعر المولدين على الاطلاق... كان ضريباً نشأ في البصرة.. وتوفي سنة ١٦٧هـ.

٢٧- بشاقة بن عمرو: ١٦٩.

بشاقة بن عمرو بن هلال المري من شعراء المفضليات خال زهير بن أبي سلمى جاهلي كان مقعداً من الولادة.

٢٨- أحمد بن أبي بغل: ١٢٠.

محمد بن يحيى بن أبي البغل أبو الحسين، كاتب، من وزراء المقتود العباسي، توفي مسجوناً في حدود سنة ٢٩٩هـ، له ديوان الرسائل.

٢٩- البوصيري: ٢٧، ٢٨، ١١٧.

محمد بن سعيد بن حماد بن عبد الله الصنهاجي البوصيري المصري، شرف الدين أبو

عبد الله شاعر حسن الديباجة، نسبتة إلى بوصير من مصر وأصله من المغرب... توفي بالاسكندرية ٦٩٦هـ.

٣٠- التنوخي: ٢٢، ٣٤، ٣٦، ٣٩، ٥٣.

علي بن محمد بن أبي الفهم داود بن إبراهيم بن تميم أبو القاسم التنوخي، أديب شاعر عالم بأصول المعتزلة ولد بانطاكية... وتوفي سنة ٣٤٢هـ.

٣١- السعد التفتازاني: ٤٧، ١٥٢.

هو مسعود بن عمر صاحب الشروح الشهيرة انتهت إليه علوم البلاغة له كثير من الحواشي، من أهم مصنفاته تلخيص المفتاح توفي سنة ٢٩٢هـ.

٣٢- أبو تمام: ١٤، ٦٨، ٧٢، ٧٣، ٧٥، ٧٧، ١١٩، ١٢٢، ١٨٢، ١٩٤، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢١٠، ٢١٤، ٢٥٢، ٢٧٥، ٢٨٦، ٢٩٩، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٤، ٣٠٥، ٣٣١.

حبيب بن أوس بن الحارث الطائي أبو تمام الشاعر الأديب أحد أمراء البيان ولد في جاسم بسوريا ورحل إلى مصر... وتوفي سنة ٢٣١هـ.

٣٣- تميم بن مقبل: ٢٣.

تميم بن أبي بن مقبل، من بني العجلان، من عامر بن صعصعة أبو كعب، شاعر جاهلي، أدرك الإسلام وأسلم فكان يبكي أهل الجاهلية عدّ في المخضمين وكان يهاجي النجاشي الشاعر، توفي بعد سنة ٣٧هـ.

٣٤- ثعلب: ٤٥، ٢٠٩.

أحمد بن يحيى بن زيد بن سيار الشيباني بالولاء أبو العباس المعروف بثعلب إمام الكوفيين في النحو واللغة كان راوية للشعر محدثاً مشهوراً بالحفظ وصدق اللهجة ثقة حجة ولد ومات في بغداد، توفي ٢٩١هـ.

٣٥- الجاحظ: ١١، ١٨، ٤٧، ٩٩، ٢٠٧.

عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء الليثي أبو عثمان الشهير بالجاحظ كبير أئمة الأدب ورئيس الفرقة الجاحظية من المعتزلة، مولده ووفاته بالبصرة، فلج في آخر عمره وكان مشوه الخلقة ومات والكتاب على صدره قتلتة مجلدات من الكتب وقعت عليه توفي ٢٥٥هـ.

٣٦- القاضي أبي الحسن الجرجاني:

علي بن محمد بن علي المعروف بالشريف الجرجاني، فيلسوف من كبار العلماء بالعربية ولد في تاكو (قرب استراباد) ودرس في شیراز ولما دخلها تيمور فر الجرجاني إلى سمرقند ثم عاد إلى شیراز بعد موت تيمور فأقام إلى أن توفي. توفي سنة ٨١٦هـ.

٣٧- عبد القاهر الجرجاني: ٧، ١١، ١٨، ٢٣، ٢٦، ٣٤، ٤٠، ٤٤، ٥٩، ٦٠، ٦١، ٦٣، ٦٤، ٦٥، ٧١، ١١٩، ١٣٩، ١٤٧، ١٤٩، ١٥١، ١٥٢، ١٦٦، ١٨٥، ٢٠٤، ٢٢٢، ٢٣٨، ٢٤٧، ٢٧٢، ٢٧٥، ٢٩٩، ٣٤٢.

عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، أبو بكر، واضع أصول البلاغة، كان من أئمة اللغة، من أهل جرجان له شعر رقيق من كتبه (أسرار البلاغة) و (دلائل الإعجاز)، توفي سنة ٤٧١هـ.

٣٨- ابن جريج: ١٠.

عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج أبو الوليد وأبو خالد: فقيه الحرم المكي كان إمام أهل الحجاز في عصره وهو أول من صنف التصانيف في العلم بمكة، رومي الأصل من موالى قريش مكي المولد والوفاة، قال الذهبي: كان ثباً لكنه يدلس. توفي سنة ١٥٠هـ.

٣٩- جرير: ٤٥، ١٣٠، ١٥٩، ٢٨٣.

جرير بن عطية بن حذيفة الخَطَفِي بن بدر الكلبي اليربوعي من تميم. كان أشعر أهل عصره، ولد ومات في اليمامة. وكان هجاءً مرأً فلم يثبت أمامه غير الفرزدق والأخطل وكان عفيفاً وهو من أغزل الناس شعراً وكان يكنى بأبي حُرْزَة. توفي سنة ١١٠هـ.

٤٠- جعفر بن يحيى البرمكي: ١١.

جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي، أبو الفضل وزير الرشيد العباسي وأحد مشهوري البرامكة ومقدميهم، ولد ونشأ في بغداد استوزره الرشيد ملقياً إليه أزمة الملك وكان يدعوه أخي فانقادت له الدولة ثم نقم الرشيد على البرامكة فقتله في مقدمتهم فصيح المنطق بليغ القول. توفي سنة ١٨٧هـ.

٤١- جوبة بن النضر: ٧٥.

٤٢- الجوهري: ٢٤٧.

إبراهيم بن سعيد الجوهري أبو إسحاق، من أعلام رجال الحديث من أهل بغداد أصله من طبرستان روى عنه أصحاب الكتب الستة عدا البخاري قال الإمام أحمد بن حنبل: هو كبير الكتاب اكتبوا عنه، له (المسند) في الحديث، مات مرابطاً بعين زربي (في نواحي الكوفة) توفي سنة ٢٤٧هـ.

٤٣- الحارث بن حلزة: ١٢٦.

الحارث بن حلزة بن يزيد اليشكري الوائلي ولد نحو سنة ٥٠ ق. هـ: شاعر جاهلي، من أهل بادية العراق، وهو أحد أصحاب المعلقة، كان أبرص فخوراً، ارتجل معلقته بين يدي عمرو بن هند الملك بالحيرة، جمع بها كثيراً من أخبار العرب ووقائعهم مات نحو سنة ٥٧٠م.

٤٤- الحارث بن سعيد التغلبي: ٢٢، ٣١.

الأمير أبو فراس، الحارث بن سعيد بن حمدان التغلبي، الشاعر المفلق، كان رأساً في الفروسية، والجد، وبراعة الأدب، وكان الصاحب بن عباد يقول: بُدئ الشعر بملك وهو امرؤ القيس، وخُتم بملك وهو أبو فراس، أَسْرَتَهُ الروم جريحاً، فبقي بقسطنطينية أعواماً، ثم فداه سيف الدولة منهم بأموال، وأعطاه أموالاً جزيلة وخيلاً وممالك. قُتِل بناحية تدمر سنة ٣٥٧هـ، وكلَّ عمره ٣٧ سنة.

٤٥- حافظ إبراهيم: ٣٢٨.

محمد حافظ بن إبراهيم فهمي المهندس الشهير بحافظ إبراهيم شاعر مصر القومي ومدون أحداثها نيفاً وربع قرن، ولد في ذهبية بالنيل كانت راسية أمام دير وط/ مات أبوه بعد عامين من ولادته ثم ماتت أمه بعد قليل فنشأ يتيماً. نظم واشتغل في المحاماة ثم في الجيش ثم محرراً في (الأهرام) لقب شاعر النيل كان قوي الحافظة حاضر النكتة جهوري الصوت بديع الالقاء، توفي سنة ١٣٥١هـ - ١٩٣٢م.

٤٦- ابن حجاج (عبد الله بن أحمد البغدادي) ٢٩٤.

حسين بن أحمد بن محمد بن جعفر بن محمد بن الحجاج النيلي البغدادي أبو عبد الله شاعر فحل من كتاب البويهري غلب عليه الهزل، قال الذهبي شاعر العصر وسفيه الأدب وأمير الفحش كان أمة وحده في نظم القبائح وخفة الروح. وقال صاحب النجوم الزاهرة يضرب به المثل في السخف والمداعبة والأهاجي. نسبته إلى قرية النيل بين بغداد والكوفة. توفي سنة ٣٩١هـ.

٤٧- الحجاج بن يوسف الثقفي، ١٦٩، ١٨٣، ٢٩٣.

الحجاج بن يوسف الثقفي، قائد، داهية، سفاك، خطيب، ولد ونشأ في الطائف وانتقل إلى الشام قاتل عبد الله بن الزبير بأمر عبد الملك بن مروان، ثم ولي مكة والطائف والعراق، وثبتت له الإمارة عشرون سنة مات سنة ٩٥هـ.

٤٨- الحريري، ١١٩.

عبد الله بن قاسم بن عبد الله اللخمي أبو محمد: فاضل عارف بالتاريخ والأنساب أندلسي من أهل اشبيلية يعرف بالحرار وحولها إلى الحريري فعرف بكليهما له (الدرر والفوائد) معجم شيوخه توفي في حصار الروم اشبيلية سنة ٦٤٦هـ.

٤٩- حسان بن ثابت، ٨٨، ٣٠٤.

حسان بن ثابت بن المنذر الخزرجي الأنصاري أبو الوليد الصحابي شاعر النبي صلى الله عليه وسلم وأحد المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام، عاش ستين سنة في الجاهلية ومثلها في الإسلام لم يشهد مع النبي صلى الله عليه وسلم مشهداً لعله أصابته وكان يضرب بلسانه روثه أنفه، من طوله كان شديد الهجاء فحل الشعر، توفي سنة ٥٤هـ.

٥٠- أبو الحسين الجزار، ٢٨٥.

عبد الله بن محمد الجزار أبو الحسين: عالم بالعربية من تلاميذ المبرد وثلعب له مصنفات في (علوم القرآن) وكتاب (المختصر) في علم العربية. توفي سنة ٢٢٥هـ.

٥١- الخطيئة جرول بن أوس، ٨٤، ١٢٩، ١٤٤.

جرول بن أوس بن مالك العبسي أبو ملكية: شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام كان هجاءً عنيفاً لم يكد يسلم من لسانه أحد وهجا أمه وأباه ونفسه وأكثر من هجاء الزبرقان بن بدر. توفي سنة ٤٥هـ.

٥٢- حنّـدج بن حنّـدج المري، ٣٧.

٥٣- خالد الكاتب، ٣٨.

خالد بن يزيد البغدادي أبو الهيثم المعروف بالكاتب شاعر غزل من الكتّاب أصله من خراسان ومولده بها عاش وتوفي في بغداد كان يهاجي أبا تمام عاش عمراً طويلاً حتى دق عظمه ورق جلده، شعره رقيق أكثره غزل، توفي سنة ٢٦٢هـ.

٥٤- أبو بكر الخالدي: ٢٩، ٤٩.

أبو بكر محمد بن هاشم بن وعلّة بن عثمان بن بلال الخالدي (نسبة إلى الخالدية من قرى الموصل). عرف بالخالدي الكبير تفريقاً له عن أخيه سعيد الذي عرف بالخالدي الصغير، وعرفا باسم الخالدين، وقد اشتهرا في الموصل عمل أبو بكر خازن كتب لسيف الدولة الحمداني، له آثار أدبية وتاريخية وديوان شعر رقيق، وكان أديباً حسن الإنشاء رقيق الشعر واسع الإطلاع. حصلت مهاجاة بين الخالدين وبين السري الرفاء الذي اتهمهما بسرقة شعر له ولكشاجم، لهما كتاب «الأشباه والنظائر» ويعرف بحماسة الخالدين، ولهما «أخبار أبي تمام ومحاسن شعره» توفي سنة (٣٨٠هـ - ٩٩٠م).

٥٥- أبو خراش الهذلي: ٢١٣.

خويلد بن مرة من بني هذيل من مضر شاعر مخضرم وفارس فاتك مشهور ادرك الجاهلية والإسلام واشتهر بالعوف فكان يسبق الخيل أسلم وهو شيخ كبير عاش إلى زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه (نهشته أفعى فقتلته). توفي سنة ١٥هـ.

٥٦- الخنساء: ٤٢، ١٢٨، ١٤٧، ١٧٠، ١٧٣، ٢٥٠، ٣٠٤.

تماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد الرياحية السلمية من بني سليم من قيس عيلان من مضر أشهر شواعر العرب وأشعرهن على الإطلاق عاشت أكثر عمرها في الجاهلية وأدركت الإسلام فأسلمت - أكثر شعرها وأجوده رثاؤها لأخويها صخر ومعاوية اللذين قتلا في الجاهلية توفيت سنة ٢٤هـ.

٥٧- أبو بكر الخوارزمي: ١٢٠.

محمد بن العباس الخوارزمي أبو بكر من أئمة الكتاب وأحد الشعراء العلماء كان ثقة في اللغة ومعرفة الأنساب له ديوان شعر، ولد في خوارزم وتوفي في نيسابور سنة ٣٨٣هـ.

٥٨- ابن دانيال: ٢٨٥.

محمد بن دانيال بن يوسف الخزاعي الموصلّي: شمس الدين (طبيب رمدي كحال) من الشعراء أصله من الموصل ولد فيها ونشأ وتوفي في القاهرة سنة ٧١٠هـ. وكانت له دكان كحل في داخل باب الفتوح.

٥٩- دعبل الخزاعي: ٢٨٠.

دعبل بن علي بن رزين الخزاعي أبو علي، شاعر هجاء أصله من الكوفة أقام ببغداد له أخبار وشعره جيد وكان صديق البحتري كان بذية اللسان مولعاً بالهجو والخط من أقدار الناس وهجاء الخلفاء: الرشيد والمأمون والمعتصم والواثق فمن دونهم وطال عمره فكان يقول: لي خمسون سنة أحمل خشبتي على كتفي أدور على من يصلبني عليها فما أجد من يفعل ذلك، توفي سنة ٢٤٦هـ.

٦٠- أبو دلالة: ٢١٠، ٢٨٣.

زند بن الجون الأسدي بالولاء، أبو دلالة شاعر مطبوع من أهل الظرف والدعابة أسود اللون جسيم وسيم كان أبوه عبداً لرجل من بني أسد وأعتقه وكان يتهم بالزندقة لتهتكه، توفي سنة ١٦١هـ.

٦١- ديك الجن «عبد السلام بن رغبان»: ٢٤٢.

عبد السلام بن رغبان بن عبد السلام بن حبيب الكبي المعروف بديك الجن شاعر مجيد فيه مجون من شعراء العصر العباسي سمي بديك الجن لأن عينيه كانت خضراوين أصله من سلمية (قرب حماة) ولم ينتجع بشعره، توفي سنة ٢٣٥هـ.

٦٢- أبو ذؤيب:

خويلد بن خالد بن محرث أبو ذؤيب من بني هذيل بن مدركة من مضر شاعر فحل مُحْضَرَم أدرك الجاهلية والإسلام وسكن المدينة واشترك في الغزو والفتوح حمل بشرى فتح إفريقية إلى عثمان رضي الله عنه، ومات بمصر. قال البغدادي: هو أشعر هذيل من غير مدافعة أدرك النبي صلى الله عليه وسلم ليلة وفاته وهو مسجى وشهد دفنه. توفي سنة ٢٧هـ.

٦٣- ذو الرمة: ٢٣، ٢٤، ٣١، ٤٤، ١١٧، ٢٥٢.

غيلان بن عقبة بن فهيس بن مسعود العدوي من مصر، أبو الحارث ذو الرمة، شاعر من فحول الطبقة الثانية في عصره قال ابن العلاء: فتح الشعر بامرئ القيس وختم بذية الرمة. كان شديد القصر دميماً يرب لونه إلى السواد. أكثر شعره تشبيب وبكاء اطلال. توفي في أصبهان سنة ١١٧هـ.

٦٤- الرازي: ١٥٢.

محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين بن علي التيمي الطبرستاني المعروف بالفخر الرازي

ولد في الري سنة ٥٤٣هـ، مفسر متكلم، فقيه، اصولي، حكيم، اديب، شاعر طبيب، مشارك في كثير من العلوم الشرعية، رحل إلى خوارزم، توفي بهراة، له تصانيف كثيرة منها مفاتيح الغيب.

٦٥- الرافعي: ٧٣، ٢٣٥، ٢٨٩، ٣٢٩.

مصطفى صادق عبد الرزاق بن سعيد بن أحمد بن عبد القادر الرافعي (١٢٩٨ - ١٣٥٦هـ)، (١٨٨١ - ١٩٣٧م) عالم بالأدب، شاعر، من كبار الكتاب أصله من طرابلس الشام مولده في يهنيم (منزل والدان) ووفاء في طنطا، شعره نقي الديباجة على جفاف في أكثره.

٦٦- ربيعة الرقي: ٢٠٨.

ربيعة بن ثابت بن لجأ بن العيذار الأسدي، أبو ثابت، أو أبو شبانة الرقي: شاعر غزل مقدم، كان ضريراً، يلقب بالغاوي، عاصر المهدي العباسي ومدحه بعدة قصائد، وكان الرشيد يأنس به، وله معه ملح كثيرة، مولده ونشأته في الرقة (على الفرات، من بلاد الجزيرة) وإليها نسبته. توفي سنة ١٩٨هـ.

٦٧- أبو طالب الرقي: ٣٣، ٣٥، ٥٤.

قال في اليتيمة: لم أجد ذكره إلا عند أبي بكر الخوارزمي، وهو أحد المقلين المحسنين الذين يطبقون المفصل في أغراضهم وينظمون الدر المفصل في معانيهم وألفاظهم.

٦٨- الرُماني: ٤٥، ٤٧، ٢١٨، ٢٢٣، ٢٢٦، ٣٠٦.

علي بن عيسى بن علي بن عبد الله أبو الحسن الرماني باحث معتزلي مفسر من كبار النحاة أصله من سامراء ولد وتوفي في بغداد سنة ٣٨٤.

٦٩- أبو البقاء الرندي: ٣٣٢.

يوسف بن موسى بن سليمان بن فتح بن محمد الجذامي الرندي: شاعر، من فضلاء القضاة ولي القضاء ببلدته وغيرها، وصنّف (الخصائص النبوية)، و (أرج الأرجاء في مسرح الخوف والرجاء)، وله (ديوان شعر)، توفي نحو سنة ٧٦٧هـ.

٧٠- ابن الرومي: ٣٧، ٣٨، ٦٨، ٧٥، ٨٤، ١١٩، ١٢١، ١٢٢، ٢٩١.

علي بن العباس بن جريج أو جورجيس الرومي، أبو الحسن شاعر كبير من طبقة بشار

والمتنبي رومي الأصل، جده من موالى بني العباس ولد ونشأ في بغداد وتوفي فيها مسموماً سنة ٢٨٣هـ.

٧١- الزبرقان بن بدر: ٨٤، ١٤٥.

الزبرقان بن بدر التميمي السعدي صحابي من رؤساء قومه قيل اسمه الحصين ولقب بالزبرقان (وهو من أسماء القمر) لحسن وجهه ولاء الرسول عليه الصلاة والسلام صدقات قومه فثبت إلى زمن عمر وكف بصره وتوفي زمن معاوية وكان فصيحاً شاعراً فيه جفاء الأعراب، توفي سنة ٤٥هـ تقريباً.

٧٢- الزجاج: ٤٥.

إبراهيم بن السري بن سهل أبو اسحاق الزجاج، عالم بالنحو واللغة ولد ومات في بغداد، كان في فتوته يخرط الزجاج ومال إلى النحو فعلمه المبرد وأدب ابن وزير المعتضد العباسي فأصاب ثروة كبيرة توفي سنة ٣١١هـ.

٧٣- الزمخشري: ١٢، ١٨، ١١٠، ١٨١، ٢٦٣، ٢٧٦، ٣١٦.

محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمي الزمخشري، جار الله أبو القاسم من أئمة الدين والعلم والتفسير واللغة والآداب ولد في زمخشر من قرى خوارزم وسافر إلى مكة وجاور بها زمناً فلقب بجار الله كان معتزلي المذهب مجاهراً شديداً الإنكار على المتصوفة له تفسير الكشف، توفي سنة ٥٣٨ هـ.

٧٤- زهير بن أبي سلمى: ٢١٧، ٢٤٤، ٢٩٥.

زهير بن أبي سلمى ربيعة بن رباح المزني من مصر: حكيم الشعراء في الجاهلية وليس في أئمة الأدب من لا يفضل على شعراء العرب كافة كان أبوه شاعراً وخاله شاعراً وأخته سلمى شاعرة وابناه كعب وبجير شاعرين. وتوفي سنة ١٣ ق. هـ.

٧٥- ابن الزيات: ١٥٩.

أحمد بن الحسن ابن علي أبو جعفر الكلاعي البلشي ابن الزيات مقريء عارف بالأدب كان شيخ مدينة بلش بالأندلس من كتبه (لذة السمع في القراءات السبع) قصيدة على نمط الشاطبية توفي سنة ٧٢٨هـ.

٧٦- أحمد حسن الزيات: ٢٤٠.

أديب مصري، صاحب مجلة (الرسالة)، كان يدعو إلى تصفية اللغة العربية من الشوائب التي خالطتها طيلة عصور الانحطاط. تخرج من الأزهر الشريف، وعمل معلماً بالمدارس الأهلية بالقاهرة، من تأليفه: (وحي الرسالة)، (دفاع عن البلاغة)، (ذكرى عهود)، توفي في القاهرة سنة ١٩٦٨م.

٧٧- زياد الأعجم، ٢٥٧.

زياد بن سليمان أو سليم الأعجم أبو أمانة العبدي مولى بني عبد القيس من شعراء الدولة الأموية جزل الشعر فصيح الألفاظ كان في لسانه عجمة فلقب بالأعجم وكان هجاءً وكان الفرزدق يتحاشى أن يهجو بني عبد القيس خوفاً منه، توفي نحو سنة ١٠٠هـ.

٧٨- ابن زيد، ١٠.

أحمد بن محمد بن أحمد بن زيد شهاب الدين أبو العباس: فاضلٌ دمشقيٌّ من علماء الحنابلة له كتب منها (اختصار سيرة ابن هشام)، توفي سنة ٨٧٠ هـ.

٧٩- سراج الدين الوراق، ٢٨٦.

شاعر مصري رقيق، برع في التورية وغيرها من أنواع البديع، له شعر كثير جيد، ولد سنة ٦١٥ هـ. ومات سنة ٦٩٥ هـ.

٨٠- سري الرفاء، ٢٩، ٣٨، ٢١٤.

السري بن أحمد بن السري الكندي أبو الحسن/ شاعر أديب من أهل الموصل كان في صباه يرفو ويطرز/ جاد شعره ومهر في الأدب مدح سيف الدولة. ضاقت دنياه في آخر عمره وركبه الدين ومات على هذا الحال سنة ٣٦٦ هـ.

٨١- سعد بن ناشب، ١٨٣.

سعد بن ناشب بن معاذ بن جعدة المازني التميمي. شاعر من الفُتَّاك المردة من أهل البصرة اشتهر في العصر الرواني، توفي نحو سنة ١١٠ هـ.

٨٢- سعيد بن حميد، ٢١٦.

سعيد بن حميد بن سعيد أبو عثمان: كاتب مترسل من الشعراء أصله من النهر وأن الأوسط من أبناء الدهاقين تقلد للمستعين العباسي ديوان رسائله شعره رقيق، توفي نحو سنة ٢٥٠ هـ.

٨٣- سعيد بن الشاه: ٣٩.

٨٤- السكاكي: ٦٣، ٦٤، ٦٥، ١٥٢، ٢٥٣، ٢٧٦، ٢٩٦، ٣٣٩، ٣٤٠.

يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي الحنفي أبو يعقوب سراج الدين عالم بالعربية والأدب مولده ووفاته بخوارزم ٦٢٦هـ من كتبه (مفتاح العلوم).

٨٥- السلامي: ٣٩.

محمد بن عبد الله بن محمد المخزومي القرشي أبو الحسن السلامي/ من أشعر أهل العراق في عصره اتصل بالصاحب بن عباد فرفعه ثم عضد الدولة ولما مات عضد الدولة رُقَّ حاله ومات رقيق الحال سنة ٣٩٣هـ.

٨٦- أبو سلمى: ٣٣٠.

٨٧- السموأل: ١٦٠، ٢٨١.

السموأل بن غريز بن عاديء الأزدي/ شاعر جاهلي حكيم من سكان خيبر وهو الذي تنسب إليه قصة الوفاء مع امرئ القيس توفي سنة ٦٥ ق. هـ.

٨٨- سوار بن المضرب: ٢٠٦.

محمد بن سوار أديب صوفي شاعر، ولد ونشأ بدمشق، وطاف البلاد، ومدح الرؤساء والقضاة وغيرهم وتوفي بدمشق من آثاره ديوان شعر.

٨٩- سويد بن أبي كاهل اليشكري: ١٢٧.

سويد بن أبي كاهل (غطف أو شبيب) ابن حارثة بن حسل الذ الكناني اليشكري أبو أسعد، شاعر من مخزومي الجاهلية والإسلام عدّ سلام في طبقة عنتره، توفي بعد سنة ٦٠هـ.

٩٠- السيوطي: ٣١١، ٣١٧.

عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين الخضير السيوطي، جلال الدين: إمام حافظ، مؤرخ أديب، له نحو ٦٠٠ مصنف، منها الكتاب الكبير، والرسالة الصغيرة، نشأ في القاهرة يتيمًا، ولما بلغ أربعين سنة اعتزل الناس. وخلا بنفسه في روضة المقياس

على النيل، منزوياً عن أصحابه جميعاً، كأنه لا يعرف أحداً منهم، فالف أكثر كتبه، من كتبه: (الإتقان في علوم القرآن)، (إتمام الدراية لقراء النقاية)، (الإكليل في استنباط التنزيل)، توفي سنة ٩١١هـ.

٩١- الشافعي: ٢٠٠، ٣٠٠.

محمد بن إدريس ابن العباس بن عثمان بن شافع الهاشمي القرشي المغربي أبو عبد الله أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة ولد في غزة وتوفي في القاهرة سنة ٢٠٤هـ وكان أشعر الناس وأدبهم وأعرفهم بالفقه والقراءات.

٩٢- الشريف الرضي: ٥٧، ٢٣٥، ٢٦٥.

محمد بن الحسين بن موسى أبو الحسن الرضي العلوي الحسيني الموسوي أشعر الطالبين على كثرة المجيدين فيهم مولده ووفاته ببغداد سنة ٤٠٦هـ.

٩٣- الشعبي: ١٢٢.

عامر بن شراحبيل بن عبد ذي كبار الشعبي الحميدي أبو عمرو راوية من التابعين يضرب المثل بحفظة ولد ونشأ ومات فجأة بالكوفة سنة ١٠٣هـ.

٩٤- شكيب أرسلان: ٣٣٠.

شكيب بن حمود بن حسن بن يونس أرسلان من سلالة التنوخي ملوك الحيرة عالم بالأدب والسياسة مؤرخ من أكابر الكتاب ينعت بأمر البيان من أعضاء المجمع العلمي العربي، توفي سنة ١٣٦٦هـ - ١٩٤٦م.

٩٥- الشماخ: ٤٤، ١٣٠.

الشماخ بن ضرار بن حرملة بن سنان المازني الذبياني الغطفاني شاعر مخضرم ادرك الجاهلية والإسلام كان شديد متون الشعر من طبقة لبيد والنابعة توفي سنة ٢٢هـ.

٩٦- ابن شنبوذ: ٣١٧.

محمد بن أحمد بن أيوب بن الصلت، أبو الحسن ابن شنبوذ: من كبار القراء، من أهل بغداد، انفرد بشواذ كان يقرأ بها في المحراب، وصنف في ذلك كتباً، منها: (اختلاف القراء)، و (شواذ القراءات)، توفي ببغداد سنة ٣٢٨هـ.

٩٧- الشنفرى الأزدي، ٢٥٨.

عمرو بن مالك الأزدي من قحطان شاعر جاهلي يمني من فحول الطبقة الثانية كان من فتاك العرب وعدائهم وهو أحد الخلفاء الذين تبرات منهم عشائهم توفي نحو ٧٠ ق. هـ.

٩٨- الشميدرا الحارثي، ٢٦٢.

٩٩- الصّابي، ٣٠٩.

إبراهيم بن هلال بن إبراهيم بن زهرون الحراني أبو اسحاق الصابي، نابغة كتاب جيله، مال إلى الأدب، تقلد دواوين الرسائل والمظالم توفي سنة ٣٨٤هـ.

١٠٠- الصاحب بن عباد، ٨٥.

محمد بن عباد بن محمد بن اسماعيل اللخمي أبو القاسم المعتمد على الله: صاحب اشبيلية وقرطبة وما حولهما وأحد أفراد الدهر شجاعة وحزماً وضبطاً للأمور، ولد في باجة (بالأندلس) قصده العلماء والشعراء والأمرء وما اجتمع في باب أحد من ملوك عصره ما كان يجتمع في باب من أعيان الأدب، كان فصيحاً شاعراً وكاتباً مترسلاً بديع التوقيع، قال ابن خلكان: «وظهر من مصابرة المعتمد وشدة بأسه وتراميه على الموت بنفسه ما لم يسمع بمثله» توفي سنة ٤٨٨هـ.

١٠١- صالح بن عبد القدوس، ٢٠، ٦٢، ٢٠٠.

صالح بن عبد القدوس بن عبد الله بن عبد القدوس الأزدي الجذامي، مولا هم أبو الفضل شاعر حكيم كان متكلماً يعظ الناس في البصرة، اتهم بالزندقة فقتله المهدي العباسي وكان قد عمي آخر عمره، توفي سنة ١٦٠هـ.

١٠٢- صفي الدين الحلبي، ٢٩١.

عبد العزيز بن سرايا بن علي بن أبي القاسم السنبسي الطائي شاعر عصره ولد ونشأ في الحلة بين الكوفة وبغداد مدح ملوك افريقية فأجزلوا له العطاء، توفي في بغداد سنة ٧٥٠هـ.

١٠٣- محمد بن أحمد الصنوبري (أبو بكر)، ٢٤، ٨٤.

أحمد بن محمد بن الحسن بن مرار الضبي الحلبي الأنطاكي المعروف بالصنوبري «أبو بكر» شاعر سكن حلب ودمشق، وتوفي سنة ٣٢٤هـ وله ديوان شعر.

١٠٤- الضحاك: ١٠.

الضحاك بن سفيان بن عوف بن كعب الكلابي أبو سعيد/ شجاع صحابي كان نازلاً بنجد وولاه الرسول صلى الله عليه وسلم على من أسلم هناك من قومه ثم اتخذه سيافاً فكان يقوم على رأس النبي صلى الله عليه وسلم متوشحاً سيفه وكانوا يعدونه بمائه فارس وله شعر استشهد في قتال أهل الردة من بني سليم سنة ١١هـ.

١٠٥- أبو طالب المأموني: ٢٨٩.

عبد السلام بن حسن المأموني «أبو طالب» فاضل، له كنز الرؤيا في التعبير، توفي سنة ٣٨٣هـ.

١٠٦- ابن طباطبا: ٣٦.

يحيى بن محمد بن القاسم بن محمد بن طباطبا العلوي الحسني أبو المعمر نسابة متكلم من فضلاء الشيعة من أهل بغداد وكان شاعراً وقال ابن تغري بردي أنه مات عقيماً سنة ٤٧٨هـ.

١٠٧- طرفة بن العبد: ١٢٦، ٢٥٢.

طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد البكري الوائلي أبو عمرو: شاعر جاهلي من الطبقة الأولى ولد في بادية البحرين وتنقل في بقاع نجد واتصل بالملك عمرو بن هند فجعله في ندمائه ثم أرسله بكتاب إلى المكعبر عامله على البحرين وعمان يأمره بقتله لأنه بلغه أن طرفة هجاه في قصيدة له فقتله المكعبر ابن عشرين عاماً سنة ٦٠ ق.هـ. وكان هجاءً غير فاحش القول تفيض الحكمة على لسانه في أكثر شعره.

١٠٨- الطرماح: ١٢٦.

الطرماح بن حكيم بن نفر بن قيس بن جحدر شاعر، خطيب، وكان يعد في المعلمين وهو من فحول الشعراء الإسلاميين وفصائحهم، منشؤه في الشام انتقل إلى الكوفة بعد ذلك، وكان صديقاً للكثير على ما كان بينهما من تباعد في النسب والبلاء.

١٠٩- الطغرائي: ٢٢، ٣١.

الحسين بن علي بن محمد بن عبد الصمد أبو اسماعيل، مؤيد الدين الأصبهاني الطغرائي، شاعر من الوزراء الكتاب وكان ينعت بالأستاذ ولد بأصبهان واتصل بالسلطان

مسعود بن محمد السجلوقي ثم اقتتل السلطان مسعود مع أخيه فظفر أخيه فقتل جميع رجال مسعود وخاف من قتل الطفرائي لشهرته وعلمه وفضله فأوعز إلى من أشاع اتهامه بالإلحاد والزندقة بين الناس واتخذها حجة فقتله سنة ٥١٢هـ.

١١٠- طفيل الغنوي: ٢٠٩، ٢٨٠.

طفيل بن عوف بن كعب بن بني غني من قيس عيلان: شاعر جاهلي فحل من الشجعان وهو أوصف العرب للخيول وسمي المحبر لتحسينه شعره عاصر النابغة الجعدي وزهير بن أبي سلمى ومات بعد مقتل هرم بن سنان نحو سنة ١٣ ق.هـ.

١١١- ابن الظاهر: ٢٨٥.

علي بن ظاهر الوتري، الحسني المدني، محدث، شارك في أنواع فن العلوم، ولد بالمدينة، وتوفي بها سنة ١٣٢٢هـ من آثاره التحفة المدنية في المسلسلات الوترية.

١١٢- العباس بن الأحنف: ٢٥٩.

العباس بن الأحنف بن الأسود الحنفي اليمامي أبو الفضل شاعر غزل رقيق قال فيه البحري: أغزل الناس. أصله من اليمامة في نجد وكان أهله في البصرة وبها مات أبوه، نشأ في بغداد كل شعره غزل وتشبيب، توفي سنة ١٩٢هـ.

١١٣- عبد الله بن رواحة: ٣٠٤.

صحابي جليل وشاعر من الشعراء الراجزين، شهد غزوات كثيرة واستخلفه النبي صلى الله عليه وسلم على المدينة في إحدى غزواته، ومات سنة ٨هـ.

١١٤- أبو عبيدة: ١٨، ٢٣٥، ٢٦٦.

معمر بن المثنى اليتمي، ولد في سنة (١١٠هـ) ولم تذكر المصادر أين ولد لكن العلماء يضعونه في عداد علماء البصرة، تعلم النحو والشعر والغريب على يد أبي عمرو بن العلاء وتكاد تتفق كلمة العلماء على أنه من الخوارج وقد وضعت في عهده أسس العلوم الإسلامية وكان يشارك فيها مشاركة جيدة، توفي بين سنتي ٢٠٩ و ٢١٣هـ.

١١٥- أبو العتاهية: ٢٤.

اسماعيل بن قاسم بن سويد بن كيسان العنزي بالولاء، العيني المعروف بأبي العتاهية، شاعر ولد بعين تمر، ونشأ بالكوفة، ثم سكن بغداد وتوفي بها سنة ٢١١هـ.

١١٦- عدي بن الرقاع: ١٢٨، ١٣٠.

عدي بن زيد بن مالك بن عدي بن الرقاع، من عاملة: شاعر كبير من أهل دمشق يكنى أبا داود كان معاصراً لجرير مهاجياً له مقدماً عند بني أمية مداحاً لهم لقب بشاعر أهل الشام ومات في دمشق سنة ٩٥هـ تقريباً.

١١٧- أبو هلال العسكري: ١٨، ٤٧، ٢٤٠، ٢٨٩.

الحسين بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري أبو هلال عالم بالأدب له شعر نسبته إلى «عسكر مكرم» من كور الأهواز من كتبه «التلخيص» توفي بعد سنة ٣٩٥هـ.

١١٨- العشماوي: ٣٣٥.

١١٩- علقمة بن عبدة الفحل: ١٢٧.

علقمة بن عبدة بن ناشرة بن قيس من بني تميم شاعر جاهلي من الطبقة الأولى كان معاصراً لامريء القيس وله معه مساجلات. توفي سنة ٢٠ ق.هـ تقريباً.

١٢٠- علي الجارم: ٢٧١.

علي بن صالح بن عبد الفتاح الجارم: أديب مصري، من رجال التعليم: له شعر ونظم كثير، ولد في رشيد، وتعلم بالقاهرة وانجلترا، وجعل كبيراً لمفتشي اللغة العربية بمصر، له: (ديوان الجارم)، و (قصة العرب في إسبانيا)، و (شاعر ملك)، وغيرها، توفي سنة ١٣٦٨هـ.

١٢١- علي محمود طه:

علي محمود طه المهندس: شاعر مصري، كثير النظم، ولد بالمنصورة، وتخرج بمدرسة الهندسة التطبيقية، له دواوين، منها: (الملاح التائه)، و (أرواح شاردة)، و (زهر وخمر)، وغيرها، توفي سنة ١٣٦٩هـ.

١٢٢- عمر أبوريشة: ٢٠٢.

عمر أبوريشة: شاعر سوري، أحد الرواد الراسخين لتيار الكلاسيكية العربية الجديدة في الغزل والوطنيات والطبيعة، ولد في عكا، وفيها تلقى تعليمه الأولى، ثم درس في الجامعة

الأمريكية في بيروت، من أعماله الأدبية مسرحية شعرية بعنوان (ذوي قار)، وأخرى بعنوان (الطرفان)، توفي عام ١٩٩٠م.

١٢٣- عمر بن كلثوم: ١٢٧، ١٧٠، ١٧٣، ١٧٥.

عمر بن كلثوم بن مالك بن عتّاب من بني تغلب أبو الأسود شاعر جاهلي من الطبقة الأولى ولد شمال جزيرة العرب في بلاد ربيعة وكان من أعز الناس نفساً وهو من الفتاك الشجعان ساد قومه وهو فتى وعمر طويلاً وهو الذي قتل الملك عمرو بن هند وتوفي سنة ٤٠ ق.هـ.

١٢٤- عمرو بن مسعدة:

عمرو بن مسعدة بن سعد بن صُؤل، العلامة البليغ، أبو الفضل، ابن عمّ إبراهيم بن العباس الصولي الشاعر، وكان موقعاً بين يدي جعفر البرمكي، وكان فصيحاً، قويّ المواد في الإنشاء، عمل في وزارة المأمون، وله نظم جيد، يقال: توفي سنة ٢١٧هـ، وقيل سنة ٢١٥هـ.

١٢٥- عمرو بن معدي كرب: ١٢٧، ٢٥٥.

عمرو بن معدي كرب بن ربيعة بن عبد الله الزبيدي: فرس اليمن وصاحب الغارات المذكورة وفد على المدينة سنة ٩هـ فأسلم مع نفر من قومه ارتد بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام ثم عاد إلى الإسلام وشهد اليرموك والقادسية كان عصي النفس أبيها فيه قسوة الجاهلية وكان يكنى أبا ثور له شعر جيد توفي سنة ٢١هـ.

١٢٦- ابن العميد: ٣٠٩.

محمد بن الحسين العميد بن محمد أبو الفضل وزير من أئمة الكتاب كان متوسعاً في علوم الفلسفة والنجوم ولقب بالجاحظ الثاني في أدبه وترسله. قال الثعالبي بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد، كان حسن السياسة خبيراً بتدبير الملك كريماً ممدوحاً، مدحه المتنبي، وكان حسن الخلق لين العشرة تام الشجاعة عارفاً بأمور الحرب والمحاضرات محباً للعلم والعلماء عاش نيفاً وستين سنة توفي سنة ٣٦٠هـ.

١٢٧- عنتره: ٨٠، ١١٧، ١٥٩.

عنتره بن شداد بن معاوية بن قراد العبسي أشهر فرسان العرب في الجاهلية ومن شعراء الطبقة الأولى من أهل نجد وأمه حبشية اسمها زبيبة سرى إليه السواد منها وكان من أحسن العرب شيمه وأعزهم نفساً يوصف بالحلم على شدة بطشه وفي شعره رقة وعذوبة اغرم بأبنة عمه عبلة وقصائده لا تخلو من ذكرها اجتمع في شبابة بامرئ القيس وشهد حرب دامس والغبراء وعاش طويلاً، قتله جبار بن عمرو الطائي سنة ٢٢ ق.هـ.

١٢٨- الغزي: ١٢١.

محمد بن محمد بن أحمد بن عبد الله العامري أبو الفضل رضي الدين الغزي باحث من علماء الشافعية أصله من غزة ومولده ووفاته بدمشق له الفيات في التصوف واللغة والخط والطب والأصول، توفي سنة ٩٣٥هـ.

١٢٩- أبو الغنائم الحمصي: ٢٥.

محمد بن مزيد الأسدي: أمير من نوبي البسالة كان مصاهراً لبني ديبس وقصيماً في جزيرتهم بنواحي خوزستان، قتل في إحدى وقائعه مع بني ديبس سنة ٤٠١هـ.

١٣٠- ابن الفارض: ٣٠٣.

عمر بن علي بن مرشد بن علي الحموي الأصل المصري المولد والدار والوفاة أبو حفص وأبو القاسم شرف الدين بن الفارض اشعر المتصوفين يلقب بسلطان العاشقين كان أبوه يثبث الفروض للنساء على الرجال ولذلك سمي هو بابن الفارض. سلك طريق الصوفية فتزهد وتجرد وكان جميلاً نبيلاً حسن الهيئة والملبس حسن الصحة والعشرة سلس القياد سخياً جواداً اختلف فيه من الكفر إلى القطبانية، توفي سنة ٦٣٢هـ.

١٣١- الفراء: ١٨.

يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي مولى بني أسد (أبو بني منقر) أبو زكرياء المعروف بالفراء، إمام الكوفيين واعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب وكان يقال: الفراء أمير المؤمنين في النحو ولد بالكوفة وعاش في بغداد ورعى ابني المأمون وكان في آخر كل عام يعود إلى الكوفة يبر أهله وينفق عليهم مدة أربعين يوماً، وكان مع تقدمه في اللغة فقيهاً متكلماً عالماً بأيام العرب وأخبارها، توفي نحو سنة ١٦٠هـ.

١٣٢- أبو فراس الحمداني: ٣١، ٣٩، ٦٧، ١٤٤.

الحارث بن سعيد بن حمدان التغلبي الربيعي أبو فراس الحمداني، أمير شاعر، فارس وهو ابن عم سيف الدولة وله وقائع كثيرة بين يدي سيف الدولة وكان سيف الدولة يحبه ويجله ويستصحبه في غزواته ويقدمه على سائر قومه وأسرهم الروم في إحدى المعارك ففداه سيف الدولة بأموال عظيمة، قتله سعد الدولة ابن سيف الدولة وكان أبو فراس خال سعد الدولة وكان بينهما تنافس، توفي سنة ٣٥٧هـ.

١٣٣- عبد الحميد الضراحي: ٢٤٢.

١٣٤- الفرزدق: ١٤٥، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ١٨٢.

همام بن غالب بن صعصعة التميمي الدارمي أبو فراس الشهير بالفرزدق شاعر من النبلاء من أهل البصرة عظيم الأثر في اللغة كان يقال: لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث لغة العرب ولولا شعره لذهب نصف أخبار الناس من شعراء الطبقة الأولى يشبه بزهير بن أبي سلمى لكن زهيراً جاهلياً والفرزدق مسلم وهو صاحب الأخبار مع جرير والأخطل ومهاجاته لهما أشهر من أن تذكر. كان شريفاً في قومه عزيز الجانب يحمي من يستجير بقبر أبيه وكان أبوه وجده من الأجواد والأشراف، توفي سنة ١١٠هـ.

١٣٥- القبيعي: ٢٩٣.

١٣٦- قتادة: ١٠.

قتادة بن دعامة بن عزيّز أبو الخطاب السدوسي البصري مفسر حافظ ضرير أكمه قال الإمام أحمد: قتادة أحفظ أهل البصرة، وكان رأساً في العربية ومفردات اللغة وأيام العرب والنسب وقد يدلّس في الحديث، توفي سنة ١١٨هـ.

١٣٧- ابن قتيبة: ١٣٧.

عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري أبو محمد: من أئمة الأدب ومن المصنفين الكثيرين ولد ببغداد وسكن الكوفة ثم ولي قضاء الدينور مدة فنسب إليها وتوفي ببغداد سنة ٢٧٦هـ، من كتبه تأويل مختلف الحديث.

١٣٨- قدامة بن جعفر: ٢٤٣، ٢٧٥.

قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد البغدادي، أبو الفرج: كاتب، من البلغاء الفصحاء المتقدمين في علم المنطق والفلسفة، كان في أيام المكتفي بالله العباسي، وأسلم على يده، وتوفي ببغداد، يُضرب به المثل في البلاغة، له كتب منها: (الخراج)، و (البلدان) و (نزهة القلوب)، توفي سنة ٣٢٧هـ.

١٣٩- قريط بن أنيف: ٢١٦.

قريط بن أنيف العنبري التميمي، شاعر جاهلي في حياته غموض ومجهول تاريخ الوفاة.

١٤٠- القزويني: ٦٤، ٦٥، ١٥٢، ٣١٠.

عمر بن عبد الرحمن بن عمر البهبهاني الكناني القزويني الفارسي سراج الدين فاضل مات شاباً من كتبه (الكشف على الكشاف) في التفسير حاشية على كشاف الزمخشري، توفي سنة ٧٤٥هـ.

١٤١- الأقرع بن معاذ القشيري: ٢٠، ٣٠.

الأقرع بن معاذ: عبد الرحيم بن عبد الكريم الشافعي فقيه، أصولي، مفسر، أديب، ناثر، ناظم، من آثاره تفسير القرآن، توفي سنة ٥١٤هـ.

١٤٢- القطامي: ١٩٢.

عمير بن شليم بن عمرو بن عباد التغلبي الملقب بالقطامي، (أبو سعيد) شاعر كان من نصارى تغلب في العراق وأسلم من آثاره ديوان شعر، توفي نحو ١٣٠هـ - ٧٤٧م.

١٤٣- قيس بن الاسلت:

تقدمت ترجمته.

١٤٤- كثير عزة: ٦٦، ٢٣٧.

كثير بن عبد الرحمن بن الأسود بن عامر الخزاعي أبو صخر شاعر متيم مشهور، من أهل المدينة أكثر أقامته بمصر وكان مفرط القصر دميماً في نفسه شمم وترفع أخباره مع عزة بنت جميل الضمرية كثيرة وكان عفيفاً في حبه، توفي سنة ١٠٥هـ.

١٤٥- كلثوم بن عمرو العتّابي: ٢١٠.

كلثوم بن عمرو بن أيوب التغلبي أبو عمرو من بني عتّاب بن سعد: كاتب حسن الترسل وشاعر مجيد يسلك طريقة النابغة يتصل نسبه بعمر بن كلثوم الشاعر مدح هارون الرشيد وغيره ورمي بالزندقة فهرب لليمن ثم عاد وأمنه الرشيد فعاد إلى بغداد وتوفي سنة ٢٢٠هـ.

١٤٦- لبيد بن ربيعة العامري: ١٨٥.

لبيد بن ربيعة بن مالك أبو عقيل العامري: أحد الشعراء الفرسان الأشراف في الجاهلية من أهل عالية نجد أدرك الإسلام وأسلم ويعد من الصحابة ومن المؤلفة قلوبهم وترك الشعر وهو أحد أصحاب المعلقات وكان كريماً ينحر ويطعم كلما هبت الصبا، توفي سنة ٤١هـ.

١٤٧- أبو واقد الليثي: ٣١٩.

صالح بن محمد بن زائدة المدني، أبو واقد الليثي الصغير. قال محمد بن سعد عن الواقدي: قد رأيته ولم أسمع منه شيئاً، وكان صاحب غزو، وله أحاديث، وهو ضعيف، مات بعد خروج محمد بن عبد الله بن حسن بالمدينة، وكان خروج محمد في سنة خمس وأربعين ومئة.

١٤٨- المبرد: ١٨، ٤٢، ١٤٤.

محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي الأزدي أبو العباس المعروف بالمبرد إمام العربية ببغداد في زمنه وأحد أئمة الأدب والأخبار، مولده بالبصرة ووفاته ببغداد سنة ٢٨٦هـ.

١٤٩- المتنبي: ١٤، ٢٠، ٦٩، ٧٤، ٧٨، ٨٣، ١١٦، ١٢٠، ١٢١، ١٤٥، ١٤٦، ١٥٨، ١٦٠، ١٦٩، ١٧٧، ١٨٤، ١٨٩، ١٩٤، ٢٠١، ٢٠٩، ٢١٤، ٢١٥، ٢١٦، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٥، ٢٥٧، ٢٦٥، ٢٧١، ٢٨١، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٧، ٢٨٨، ٣٠١، ٣٠٤.

أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكوفي الكندي أبو الطيب المتنبي الشاعر الحكيم وأحد مفاخر الأدب العزي له الأمثال السائرة والحكم البالغة والمعاني المبتكرة وفي علماء الأدب من بعده أشعر الإسلاميين ولده في كندة بالكوفة ونشأ بالشام ثم تنقل بالبادية يطلب الأدب وعلم العربية وأيام الناس قال الشعر صبيهاً، مدح سيف الدولة الحمداني وحظي عنده ومدح كافور وطلب أن يوليه فلم يوليه كافور فهجاه، ومدح ابن العميد وعضد الدولة البويهى وغيرهم، قتله فاتك الأسدي لأنه هجاه وذلك سنة ٣٥٤هـ.

١٥٠- محمد الأسمر: ٢٩٥.

إديب شاعر، ناثر، من أهل مصر، ولد (١٣٨٨هـ - ١٩٠٠م) وتوفي (١٣٧٦هـ - ١٩٥٦) تلقى ثقافته في أحد مكاتب تحفيظ القرآن بدمياط.. التحق بمدرسة القضاء الشرعي بالقاهرة، من آثار: مجموعة شعر سماها (تغريدات الصباح) ديوان شعر.

١٥١- محمد بن كعب: ١٠.

محمد بن كعب القرظي، الإمام العلامة الصادق أبو حمزة، سكن الكوفة، ثم المدينة، قال ابن سعد: كان ثقة عالماً كثير الحديث ورعاً، كان من أئمة التفسير واختلف كثيراً في سنة وفاته. قيل مات سنة ثمانمائة وقيل: سنة سبع عشرة، وقيل سنة عشرين ومائة.

١٥٢- محمد بن لنكك: ٥٢، ٧٧.

محمد بن محمد بن جعفر البصري أبو الحسن صاحب بن لنك شاعر البصرة وصدر أدبائها أكثر شعره ملحٌ وطرف جلها في شكوى الزمان وأهله وفي هجاء شعراء عصره وصاحب البيت القائل:

نعيب زماننا والعيب فينا
ولو نطق الزمان إذن هجانا
عاصر المتنبي وهجاه، توفي سنة ٣٦٠هـ.

١٥٣- محمد بن يزيد بن مسلمة بن عبد الملك: ٢٠٥.

١٥٤- محمد بن وهيب: ٣٧، ١١٠، ١١٨.

محمد بن وهيب القرشي أو القريشي أبو عبد الله: من ناشري دعوة الحاكم بأمر الله الفاطمي له مقام كبير عند الدروز ويلقبونه (الرضي سفير القدرة)، توفي نحو سنة ٤٢٠هـ.

١٥٥- أبو سعيد المخزومي:

علي بن محمد بن أحمد بن سلمة المخزومي البلسني، أديب لغوي، شاعر من آثاره ديوان شعر في جزأين، ولد (٥٥١هـ - ١١٥٦م) وتوفي (٦٦٢هـ - ١٢٢٥م).

١٥٦- المرار بن منقذ العدوي: ١٦٨.

زياد بن منقذ بن عمرو، الحنظلي، من بني العدوية، من تميم يلقب بالمرار، من شعراء الدولة الأموية، كان معاصراً للفرزدق وجريز، توفي سنة ١٠٠هـ.

١٥٧- المراغي: ١٥.

محمد بن مصطفى بن محمد بن عبد المنعم المراغي، باحث مصري عارف بالتفسير من دعاة التجديد والإصلاح تولى مشيخة الجامع الأزهر وتتلمذ للشيخ محمد عبده، توفي في الأسكندرية ودفن في القاهرة سنة ١٣٦٤هـ - ١٩٤٥م.

١٥٨- المرقش الأكبر: ٥٢.

عوف أو عمرو بن سعد بن مالك بن ضبيعة من بني بكر بن وائل شاعر جاهلي من المتيمن الشجعان عشق ابنة عم له وقال فيها شعراً كثيراً وكان يحسن الكتابة وشعره من الطبقة الأولى اع أكثره، تزوجت عشيقته فقصدها فمات في حياها وهو عم المرقش الأصغر وهذا عم طرفة بن العبد، توفي سنة ٧٥ ق.هـ تقريباً.

١٥٩- مروان بن أبي حفص، ٢٠.

مروان بن سليمان بن يحيى بن أبي حفصة يزيد: شاعر عالي الطبقة، كان جده أبو حفصة مولى لمروان بن الحكم اعتقه يوم الدار ونشأ مروان في العصر الأموي باليمامة حيث منازل أهله وأدرك زمناً من العهد العباسي ومدح الخلفاء وجمع من الجوائز والهبات ثروة واسعة وكان بنو العباس يعطوه بكل بيت يمدحهم فيه ألف درهم وتوفي في بغداد سنة ١٨٢هـ.

١٦٠- مسكين الدارمي، ١٦٩.

ربيعة بن عامر بن أنيف بن شريح الدارمي التميمي شاعر عراقي شجاع من اشراف تميم مسكيناً لأبيات قال فيها: «أنا مسكين لمن أنكرني». له أخبار مع معاوية وزياد بن أبيه، توفي سنة ٨٩هـ.

١٦١- مسلم بن الوليد، ٢٧٥.

مسلم بن الوليد الأنصاري بالولاء أبو الوليد المعروف بصريع الغواني شاعر غزل رقيق هو أول من أكثر من البديع، مدح الرشيد والبرامكة وغيرهم وسمي صريع الغواني لقوله: وما العيش إلا أن تروح مع الصبي وتغدو صريع الكأس والأعين النجل توفي سنة ٢٠٨هـ.

١٦٢- المسيب بن علس، ١٦٨.

المسيب بن علس بن مالك بن عمرو بن قمامة بن ربيعة بن نزار شاعر جاهلي كان أحد المقلين المفضلين في الجاهلية وهو خال الأعشى ميمون وقيل اسمه زهير وكنته أبو فضة مجهول تاريخ الوفاة.

١٦٣- ابن المعتز: ٢٥، ٣١، ٣٧، ٣٨، ٥١، ٥٣، ٦٢، ٦٧، ٧٢، ٨٢، ١٦١، ١٨٠، ١٨٣، ١٨٨، ١٩١، ١٩٤، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٧٥، ٢٨٣، ٢٨٩.

عبد الله بن محمد المعتز بالله بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد العباسي أبو العباس: الشاعر المبدع خليفة يوم وليلة ولد ببغداد وأولع بالأدب قتله المقتدر العباسي خنقاً وللشعراء فيه مرات كثيرة. توفي سنة ٢٩٦هـ.

١٦٤- أبو العلاء المعري، ٢٧، ٧٣، ٨٣، ٢٥٦، ٣٠٢، ٣٠٣، ٣١٠.

أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي المعري أبو العلاء، شاعر فيلسوف ولد ومات في
معرة النعمان كان نحيف الجسم، أصيب بالجذري صغيراً فعمي في الرابعة من عمره
وقال الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة وهو من بيت علم كبير في بلده ولما مات وقف على
قبره ٨٤ شاعراً يرثونه، توفي سنة ٤٤٩هـ.

١٦٥- المعقر البارقي: ١٧٦.

مُعَقَّر بن أوس بن حمار بن الحارث البارقي الأدي، شاعر يمني من فرسان قومه في
الجاهلية شهد يوم جيلة قبل المولد النبوي بـ ١٩ عاماً وله في ذلك شعر وعمي في أواخر
عمره، توفي سنة ٤٥ ق.هـ تقريباً.

١٦٦- معن بن أوس المزني: ١٥٩.

معن بن أوس بن نصر بن زياد المزني: شاعر فحل من مخرمي الجاهلية والإسلام له
مدائح في جماعة من الصحابة رحل إلى الشام والبصرة وكف بصره في أواخر أيامه
وكان يتردد إلى عبد الله بن عباس وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب فيبالغان في إكرامه،
توفي سنة ٦٤هـ.

١٦٧- أبو الحسن بن مقله: ٧٨.

محمد بن علي بن الحسين بن مقله أبو علي: وزير من الشعراء الأدباء يضرب بحسن
خطته المثل ولد في بغداد وولي جباية الخراج في بعض أعمال فارس ثم نفي وسجن
وقطعت يده اليمنى فكان يشد القلم على ساعده ويكتب به فقطع لسانه ولحقه في سجنه
شقاء كبير حتى مات في سجنه ودفن بعد موته ثلاث مرات، توفي سنة ٣٢٨هـ.

١٦٨- ميمون بن قيس: ١٧٤.

ميمون بن قيس بن جندل من بني قيس بن ثعلبة الوائلي أبو بصير المعروف بأعشى قيس
ويقال له أعشى بكر بن وائل والأعشى الكبير: من شعراء الطبقة الأولى في الجاهلية وأحد
أصحاب المعلقات كان غزير الشعر وكان كثير الوفود على الملوك وسمي صناجة العرب لأنه
كان يغني بشعره، توفي سنة ٧هـ، أدرك الإسلام ولم يسلم.

١٦٩- النابغة الجعدي: ١٣٠، ٢٩١.

قيس بن عبد الله بن عدس بن ربيعة الجعدي العامري أبو ليلى: شاعر مفلق صحابي من
المعمرين اشتهر في الجاهلية، وسمي (النابغة) لأنه أقام ثلاثين سنة لا يقول الشعر ثم نبغ

فقاله وكان ممن هجر الأوثان ونهى عن الخمر قبل ظهور الإسلام ثم أسلم وأدرك صفين فشاهدها مع علي، جاوز المائة وكف بصره، توفي سنة ٥٠ هـ تقريباً.

١٧٠- النابغة الذبياني: ١٢٢، ١٢٣، ١٢٨، ١٢٩، ٢٤٥، ٢٥٢، ٢٨٢، ٢٩٠.

زياد بن معاوية بن خباب الذبياني الغطفاني المصري أبو أمانة: شاعر جاهلي من الطبقة الأولى من أهل الحجاز كانت تضرب له قبة من جلد أحمر بسوق عكاظ فتقصده الشعراء فتعرض عليه أشعارها ومن هؤلاء الأعشى وحسان والخنساء، توفي سنة ١٨ ق.هـ.

١٧١- ابن ناقي البغدادى: ١٠٩.

عبد الله بن محمد بن الحسين بن ناقياء، أبو القاسم، ويقال له: البزار: شاعر، مترسل، لغوي، من أهل بغداد، وكان كثير المجون، ينسب إلى المعطلة، ويتهم بالطعن على الشريعة، من كتبه: (ملح المألحة) و (الجمان في تشبيهات القرآن) و (مقامات)، توفي سنة ٤٨٥ هـ.

١٧٢- ابن نباتة: ٢٨٨، ٢٩١.

محمد بن محمد بن محمد الحسن الجذامي الفارقي المصري أبو بكر جمال الدين بن نباتة شاعر عصره وأحد الكتاب المترسلين العلماء بالأدب، توفي في القاهرة سنة ٧٦٨ هـ.

١٧٣- نصيب: ٢٤٩.

نصيب بن رباح أبو محجن مولى عبد العزيز بن مروان، شاعر فحل مُقَدِّم في النسب والمدائح كان عبداً أسود لراشد بن عبد العزى من كنانة من سكان البادية، وأنشد أبياتاً بين يدي عبد العزيز بن مروان فاشتراه وأعتقه، توفي سنة ١٠٨ هـ.

١٧٤- نصير الدين الحمامي: ٢٨٥.

أحمد بن علي المناوي المصري، قال عنه أبو حيان أنه كان أديباً كيس الأخلاق، ولد سنة ٦١٩ هـ وعمل بالقاهرة والتقى بعلمائها، ولحقته حرفة الشعر، كان يرتزق بضمن الحمامات، مات سنة ٧٠٨ هـ.

١٧٥- الثمري:

منصور بن الزبرقان بن سلمة بن شريك النمري، أبو القاسم، من بني النمر بن قاسط: شاعر، من أهل الجزيرة الفراتية، كان تلميذ كلثوم بن عمرو العتابي، ثم حصل بينهما وحشة، حتى تهاجيا، وسعى كل منهما على هلاك صاحبه، توفي نحو سنة ١٩٠ هـ.

١٧٦- أبو نواس، ١٥، ٣٨، ١٥٠، ٢٥٥، ٢٥٧، ٢٦٥، ٣٠١.

الحسن بن هانيء بن عبد الأول بن صباح الحكمي بالولاء أبو نواس: شاعر العراق في عصره ولد في الأهواز في خوزستان ونشأ بالبصرة ورحل إلى بغداد، قال الجاحظ: ما رأيت رجلاً أعلم باللغة ولا أفصح لهجة من أبي نواس، توفي سنة ١٩٨هـ.

١٧٧- أبو ذؤيب، ٢٠، ١٨٠.

خويلد بن خالد بن محرث، أبو ذؤيب، من بني هذيل بن مدركة، من مضر: شاعر فحل، مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام، وسكن المدينة، واشترك في الغزو والفتوح، أشهر شعره عينيه رثى بها خمسة أبناء له أصيبوا بالطاعون في عام واحد، مطلعها: (أمن المنون وريبه تتوجع)، وفد على النبي صلى الله عليه وسلم ليلة دفنه، فأدركه وهو مسجى، وشهد دفنه، له (ديوان أبي ذؤيب). توفي نحو سنة ٢٧هـ.

١٧٨- الواواء الدمشقي، ١٧٨.

محمد بن أحمد الغساني الدمشقي، أبو الفرج، المعروف بالواواء: شاعر مطبوع، حلو الألفاظ: في معانيه رقة، كان مبدأ أمره منادياً بدار البطيخ في دمشق، له ديوان شعر مطبوع، توفي نحو سنة ٣٨٥هـ.

١٧٩- محمد اليزيدي، ١٤٩.

محمد بن العباس بن محمد اليزيدي، أبو عبد الله: من كبار علماء العربية والأدب ببغداد، وهو حفيد (يحيى بن المبارك)، استدعاه في آخر عمره المقتدر العباسي لتعليم أولاده فلزمهم مدة، له كتب منها: (الأمالي) و (مناقب بني العباس) وأخبار اليزيديين، توفي سنة ٣١٠هـ.

١٨٠- يمان، ١٠.

اليمان بن أبي اليمان البندنجي أبو بشر: أديب عارف باللغة فارسي ولد قرب بغداد ضريراً حفظ كثيراً من الشعر والأخبار وصنف من الكتب «لالشعر»، توفي سنة ٢٨٤هـ.

المراجع

- ١ - الاتقان في علوم القرآن للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي / تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٤م.
- ٢ - أسرار البلاغة / تحقيق محمد عبد العزيز النجار مكتبة ومطبعة علي صبيح - مصر سنة ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧م.
- ٣ - البحر المحيط للإمام أثير الدين أبي عبد الله محمد بن يوسف المشهور بأبي حيان الأندلسي / الطبعة الأولى سنة ١٣٢٨ هـ، مطبعة السعادة / محافظة مصر.
- ٤ - البديع / ابن المعتز - طبعة كراتشوفسكي.
- ٥ - بديع القرآن / لابن الاصبغ المصري / تحقيق د. حفني شرف مطبعة نهضة مصر سنة ١٩٥٧م.
- ٦ - البلاغة والتطبيق للدكتور أحمد مطلوب والدكتور حسن البصير الطبعة الأولى سنة ١٩٨٢م - ١٤٠٢ هـ. الجمهورية العراقية وزارة التعليم العالي والبحث العلمي.
- ٧ - البلاغة الواضحة للمدارس الثانوية تأليف علي الجارم ومصطفى أمين.
- ٨ - البيان والتبيين / الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر ط. هارون.
- ٩ - تحرير التحرير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن لابن أبي الاصبغ المصري تحقيق الدكتور محمد حفني شرف المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية لجنة إحياء التراث القاهرة سنة ١٣٨٣ هـ.
- ١٠ - التلخيص في علوم البلاغة / للإمام جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني شرح الأستاذ عبد الرحمن البرقوتي دار الكتاب العربي / بيروت - لبنان.
- ١١ - ثلاث رسائل في إعجاز القرآن / للرماني والخطابي والجرجاني تحقيق محمد خلف الله والدكتور محمد زغلول. الطبعة الثانية سنة ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٨م دار المعارف بمصر.
- ١٢ - الجمان في تشبيهات القرآن لأبي قاسم عبد الله بن محمد بن الحسين ابن ناquia البغدادي تحقيق عدنان زرزور ومحمد الداية / المطبعة العصرية بالكويت سنة ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٨م، الطبعة الأولى.
- ١٣ - جمهرة البلاغة / المعلم عبد الحميد الفراهي / سلسلة الدائرة الحميدية طبع بالهند سنة ١٣٦٠ هـ.

- ١٤ - جواهر البلاغة / السيد أحمد الهاشمي، دار الفكر بيروت - الطبعة الثانية سنة ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م.
- ١٥ - الحيوان / الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر طبعة هارون.
- ١٦ - دراسات تفصيلية شاملة بلاغة عبد القاهر في التشبيه والتمثيل والتقديم والتأخير / عبد الهادي العدل، تحقيق عبد السلام سرحان - الطبعة الثانية سنة ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٥ م. المطبعة المنيرية.
- ١٧ - دفاع عن البلاغة / أحمد حسن الزيات مطبعة الرسالة سنة ١٩٤٥ م.
- ١٨ - دلائل الإعجاز / عبد القاهر الجرجاني - تحقيق عبد المنعم خفاجي / الناشر مكتبة القاهرة سنة ١٩٧٦ م - ١٣٩٦ هـ.
- ١٩ - رغبة الأمل من كتاب الكامل لسيد بن علي المرصفي الطبعة الأولى سنة ١٣٤٦ هـ - ١٩٢٧ م مطبعة النهضة / مصر.
- ٢٠ - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني / لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألويسي / ادارة الطباعة المنيرية - مصر.
- ٢١ - سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي.
- ٢٢ - سنن ابن ماجة - تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي - دار احياء التراث.
- ٢٣ - شرح ديوان الحماسة لأبي علي المرزوقي نشره أحمد أمين وعبد السلام هارون الطبعة الثانية القاهرة مطبعة لجنة التأليف والترجمة سنة ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م.
- ٢٤ - شرح ديوان المتنبي / عبد الرحمن البرقوقي - الناشر دار الكتاب العربي / بيروت - لبنان.
- ٢٥ - صحيح البخاري - محمد بن اسماعيل البخاري، ضبط وترقيم د. مصطفى البغا/ الطبعة الأولى - دار القلم.
- ٢٦ - صحيح مسلم - مسلم بن الحجاج - تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.
- ٢٧ - صحيح الترمذي بشرح الإمام ابن العربي المالكي - الطبعة الأولى سنة ١٩٣١ م.
- ٢٨ - الصناعتين لأبي هلال العسكري / طبعة الخانجي سنة ١٣٢٠ هـ.
- ٢٩ - الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز / يحيى بن حمزة العلوي دار الكتب العلمية بيروت لبنان سنة ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م.

- ٣٠ - علوم البلاغة لأحمد مصطفى المراغي مطبعة محمد محمد مطر/ مصر سنة ١٣٣٥ هـ - ١٩١٧م، ١٩٧٤م.
- ٣١ - علم البيان / د. عبد العزيز عتيق - دار النهضة العربية للطباعة والنشر / بيروت.
- ٣٢ - العمدة في محاسن الشعر وادابه ونقده لأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد / دار الجيل بيروت - لبنان الطبعة الرابعة.
- ٣٣ - الفوائد المشوقة إلى علوم القرآن وعلم البيان / لابن القيم الجوزية / دار الكتب العلمية بيروت - لبنان.
- ٣٤ - فن الاستعارة دراسة تحليلية في البلاغة والنقد مع التطبيق على الأدب الجاهلي/ د. أحمد السيد الصاوي - الهيئة المصرية العامة للكتاب/ الاسكندرية.
- ٣٥ - الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للإمام محمود بن عمر الزمخشري - الطبعة الأولى - مطبعة الاستقامة بالقاهرة سنة ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦م.
- ٣٦ - المثل السائر أبو الفتح ضياء الدين نصر ابن الأثير الموصلية تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد - مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده سنة ١٣٥٨ هـ - ١٩٣٩م.
- ٣٧ - المجازات النبوية تأليف الشريف الرضي شرح طه عبد الرؤوف سعد شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده/ مصر الطبعة الأخيرة سنة ١٣٩١ هـ - ١٩٧١م.
- ٣٨ - مسند الإمام أحمد - أحمد بن حنبل - المكتب الإسلامي بيروت.
- ٣٩ - مطول على التلخيص/ العلامة سعد التفتازاني/ تصحيح عثمان أفندي زاده أحمد رفعت سنة ١٣٣٠ هـ.
- ٤٠ - مفتاح العلوم لأبي يعقوب يوسف بن أبي بكر السكاكي/ دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان.
- ٤١ - من بلاغة القرآن/ الدكتور أحمد أحمد بدوي - الطبعة الثالثة، الناشر مكتبة مصر بالفسحة.
- ٤٢ - نحو بلاغة جديدة للدكتور محمد عبد المنعم خفاجي والدكتور عبد العزيز شرف/ الناشر مكتبة غريب

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة الطبعة الثانية.....	٥
المقدمة.....	٧
علم البيان.....	٩
البيان تعريفه وتطوره.....	٩
الباب الأول: التشبيه.....	١٧
التشبيه بين الوسيلة والغاية.....	١٧
أركان التشبيه.....	٢٢
الركنان الأولان: المشبه والمشبه به.....	٢٢
الركن الثالث: الأداة.....	٢٧
الركن الرابع: وجه التشبيه.....	٣٠
أقسام التشبيه.....	٤٢
أقسام التشبيه عند المبرد.....	٤٢
أقسام التشبيه عند الرماني.....	٤٥
تقسيم التشبيه من حيث طرفاه.....	٤٨
تقسيم التشبيه من حيث الأداة.....	٥٦
تقسيم التشبيه من حيث وجه الشبه.....	٥٧
تشبيه التمثيل.....	٥٩
هل التشبيه هو التمثيل وآراء العلماء.....	٥٩
مذهب عبد القاهر.....	٥٩
مذهب السكاكي.....	٦٣
مذهب القزويني.....	٦٤

٦٦	التشبيه التمثيلي كما استقر عليه أقوال البيانين
٧١	التشبيه الضمني
٧٦	أسباب تأثير التشبيه
٨٠	التشبيه القريب والتشبيه البعيد
٨٧	التشبيه في القرآن
٨٧	نتائج
٨٩	خصائص التشبيه في القرآن
٩٢	بعض الموضوعات في التشبيه
٩٢	أولاً: الترغيب والترهيب
٩٤	ثانياً: الانسان في القرآن
١٠٢	ثالثاً تشبيهات عامة
١٠٧	(كذلك) في كتاب الله
١٠٨	(الكاف) في كتاب الله
١١٠	هل في القرآن تشبيه مقلوب
١١٢	التشبيهات في السنة المطهرة
١١٦	أغراض التشبيه وبلاغته
١١٦	أغراضه
١١٩	بلاغة التشبيه
١٢٢	أمثلة مما كان يدور في مجالس الأمراء والخلفاء
١٣٣	الباب الثاني: المجاز:
١٣٣	تمهيد وفيه
١٣٣	أولاً: تعريفه
١٣٧	ثانياً: المجاز بين المثبتين والنافين

٢٩٢المبحث السادس: أسلوب الحكيم
٢٩٩الفصل الثاني: المحسنات اللفظية
٢٩٩المبحث الأول: الجنس
٣٠٥المبحث الثاني: السجع
٣٠٩المبحث الثالث: ردّ العجز على الصدر
٣١١بدائع القرآن
٣١٩البديع في الحديث الشريف
٣٢٣الصور البيانية في الشعر الحديث
٣٣٩خاتمة
٣٤٥فهرس الآيات القرآنية
٣٦١فهرس الاحاديث النبوية
٣٦٥فهرس القوافي
٣٨٩فهرس القصائد
٣٩١فهرس الأعلام
٤٢١المراجع